

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

العدد الثانى عشر

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

إشراف

أ.د/ أمين محمد فاخر
عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة





جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بالقاهرة

مجلة كلية اللغة العربية

العدد الثاني عشر

١٤١٤ هـ — ١٩٩٤ م

بإشراف

أ. د/ أمين محمد فاخر

عميد كلية اللغة العربية بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلس الإدارة

أولا :

١ ـ ا.د / أمين محمد فاخر	عميد الكلية	رئيسا
٢ ـ ا.د / محمد جلال الذهبي	رئيس قسم البلاغة	عضوا
٣ـ ا.د / صلاح الدين محمد عبد التواب	» » الأدب	»
٤ ـ ا.د / عبد الله ربيع محمود	» » أصول اللغة	»
٥ ـ ا.د / مصطفى أحمد النماس	» » اللغويات	»
٦ ـ ا.د / محمد شتا زيتون	» » التاريخ	»
٧ ـ ا.د / محمد كرم شلبي	» » الصحافة	»

ثانيا :

١ ـ ا.د/ عبد الفتاح عبد العليم بركاوى	أستاذ بالكلية	سكرتير فني المجلة
٢ ـ السيد / محمد عبد السميع على	أمين مكتبة الكلية	مشرف مالي

والله ولى التوفيق

تحريراً فى ١٩٩٤/١/٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أسرة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيدنا و نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــد :

فقد تميزت لغتنا العربية عن سائر لغات العالم قديمها وحديثها بميزات كثيرة لا يمكن الحديث عنها فى هذه المقدمة اليسيرة لكن أخطر ما تميزت به عن كل اللغات ارتباطها بالقرآن الكريم كتاب الله عز وجل المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين .

وإذا كان الله تعالى قد تكفل بحفظ كتابه الكريم حيث قال تعالى :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فإن اللغة العربية سوف تظل — بإذن الله — باقية ما بقى الدهر لأنها لغة هذا الذكر :هذا القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

وسوف يهىء الله من أبناء هذه الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس علماء أفاضل يبحثون عن أسرار هذه اللغة العظيمة الكريمة اللطيفة الشريفة ويتعمقون فى دراستها لتظل دوما محروسة بعونه تعالى بعيدة غاية البعد عما يكدر صفوها أو ينال من عظمتها ، وسوف تظل الدراسات اللغوية العربية — بإذنه تعالى — فى خدمة القرآن الكريم لأنها مستمدة منه بعد أن عكف العلماء — قديما وحديثا — على استخراج القواعد والقوانين اللغوية بعد التأمل فى أساليبه وتراكيب ألفاظه وهو — ولاشك — فى غاية الفصاحة والبلاغة والإعجاز .

ولعل أفضل هذه البحوث اللغوية وأجلها وأشرفها ما كان منها متصلا اتصالا وثيقا ومباشرا بكتاب الله عز وجل .

وإذا كانت الأقسام العلمية فى هذه الكلية العريقة ستة أقسام هى اللغويات وأصول اللغة والبلاغة والنقد ، والأدب والنقد ، والتاريخ والحضارة ، والصحافة والإعلام فقد خصص لكل منها قسم فى هذا العدد وجاء ترتيبها حسب ورودها إلى إدارة المجلة وانتهاء لجنة التحكيم من الحكم عليها لكن الذى نريد أن نلفت النظر إليه فى هذه المقدمة هو أن هذا العدد من هذه المجلة العلمية الغراء مجلة كلية اللغة العربية قد حوى عددا من البحوث اللغوية العربية التى تتصل اتصالا مباشرا بالدراسات القرآنية مثلتها أقسام ثلاثة هى أقسام البلاغة واللغويات وأصول اللغة .

حيث بدأت ببحث البلاغة عن إعجاز القرآن الكريم ويحمل عنوان : من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية للدكتور / محمد الأمين الخضرى أثبت فيه صاحبه المعنى الحقيقى لإعجاز القرآن الكريم وأن هذا القرآن لا يمكن أن تقاس بلاغته وفصاحته بتلك المعايير أو المقاييس البشرية المعينة التى نقيس بها كلام البشر ومهما حاول كبار العلماء والباحثون أن يضعوا من مقاييس للبلاغة فإن القرآن الكريم أكبر من أن نحصر بلاغته فى ناحية معينة ، ولذلك وجدنا هؤلاء يختلفون فيما بينهم فى وضع مقاييس معينة يمكن أن يخضع لها القرآن الكريم لأنه هو المصدر الذى يمكن أن يؤخذ منه كل قوانين البلاغة وليس هو الذى يحكم عليه الباحثون والنقاد نتيجة وصفهم لمعايير بلاغية ثابتة .

ولذلك كان القرآن معجزا بكل المقاييس .

وقد نقل الباحث الدكتور الخضرى كلام كبار العلماء قديما وحديثا من أمثال قدامة والزمخشرى وابن الأثير من الأقدمين وغيرهم من المحدثين فى موضوع التقديم والتأخير رعاية للفاصلة أو حفاظا على السجع وكان له فى

ذلك موقف يتفق مع جلال القرآن الكريم وعظمته وإعجازه فتحدث عن الترتيب من المتعاطفات فى مثل الأرض والسماء مبينا أسباب القصور فى فهم أسرار التقديم والتأخير التى لا ترجع إلى سبب معين بل إن كل موضع له ما يناسبه من أسباب التقديم أو التأخير ومثل ذلك فى ترتيب الصفات فى مثل الرحمن الرحيم وما قال المفسرون فى بيان الفرق بين الصفتين وسر تقديم المتقدم منهما على الآخر، وينكر الباحث فى النهاية على من زعم بأن الغرض من التقديم والتأخير مجرد رعاية الفاصلة .

وكذلك فى تقديم القيود فى مثل قوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد » وغير ذلك من الأمثلة التى بين فيها الباحث أغراض التقديم فى القيود ولم يقتصر فيها على ماذكره المفسرون .

فإذا ما انتقلنا إلى القسمين الآخرين من المجلة وهما الخامس الخاص باللغويات والسادس الخاص بأصول اللغة وجدنا بحوثهما تتصل أيضا بالقرآن الكريم اتصالا مباشرا ففى اللغويات نجد بحثين ، الأول عن الوقوف اللازمة فى القرآن الكريم وعلاقاتها بالمعنى والإعراب حيث اعتمد الباحث على ذكر الآيات القرآنية التى ورد فيها الوقف اللازم مبينا سر هذا الوقف من ناحية المعنى والإعراب ، وموضحا الوجوه الإعرابية ، ومعتمدا فى ذلك على كتب اللغة وبخاصة كتب الوقف ومعانى القرآن وإعرابه والمعاجم اللغوية وكتب النحو وكل ذلك رجاء خدمة كتاب الله والباحثين فى لغته العظيمة . والبحث الثانى فى اللغويات مما يتصل بكتاب الله عز وجل اتصالا مباشرا هو الأسماء الستة فى ميزان اللغة واختلاف العلماء فيها مع دراسة تطبيقية لما ورد منها فى القرآن الكريم .

أما القسم السادس فى هذا العدد فهو الخاص بقسم أصول اللغة فهو بحث واحد عن علم الأداء القرآنى : أهميته وموقعه فى ميدان الدراسة الفونولوجية نظرة تطبيقية وقد توصل فيه صاحبه إلى ضرورة التطبيق

لأحكام الأداء القرآنى وأن ذلك لا يقل فى جدواه ومنفعته للدارسين عن تطبيق القواعد النحوية والصرفية كما بين أن الأداء السوى للنسق القرآنى إنما هو وسيلة رائدة لسلامة النطق والأداء فى النثر والنظم ، وأن مراعاة ذلك فى النسق القرآنى يبرز وجوه الإعجاز الصوتى والتركيبى للقرآن الكريم.

وهكذا نجد أن كثيرا من البحوث التى نشرت فى هذا العدد — كما نشر فى أعداد سابقة لهذه المجلة العلمية — إنما تهدف إلى بيان وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم كما تهدف إلى استخراج كثير من أسرار لغتنا العربية من خلال الدراسات القرآنية المتنوعة ، هذا بالإضافة إلى البحوث المتنوعة الأخرى فى الأدب والصحافة والإعلام والتاريخ والحضارة، وسوف تظل — بإذن الله — رسالة هذه المجلة وهدفها وغايتها فى المقام الأول خدمة كتاب الله عز وجل ثم خدمة حديث رسوله صلى الله عليه وسلم وكل ماينفع المسلمين فى دينهم ودنياهم عن طريق دراسة هذه اللغة العظيمة لغة القرآن الكريم .

ونحن فى النهاية إذ نشكر كل القائمين على أمر هذه المجلة لما بذلوه فيها من جهد — لندعو الله عز وجل أن يجزيهم عن اللغة العربية والباحثين فيها خير الجزاء ؟

أ . د / أمين محمد عبد الله فاخر
عميد الكلية

القسم الأول

قسم البلاغة :

من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية .

الدكتور / محمد الأمين الخضرى

من أسرار المغايرة فى نسق الفاصلة القرآنية

بقلم الدكتور
محمد الأمين الخضرى

إن إعجاز القرآن يتجلى فى هذه المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون، فإذا نظرت إلى جمال الموسيقى فى التوازن بين المقاطع وتآخيها فى الروى، خلت أن القرآن عمد إليه وتوخاه، وإذا تأملت المعانى والأغراض، وجدت أن القرآن أحكم نسق الألفاظ، وفقا لتوائب المعانى وحركتها فى الأذهان، فمن أى جانب نظرت وقفت على سر من أسرار الإعجاز.

فى ١٥ ربيع الثانى ١٤١٤ هـ
٢ أكتوبر ١٩٩٣ م

توطئـــة :

من عجب أن يزعم زاعم أن القرآن يقصد إلى المغايرة فى نظمه بالتقديم والتأخير رعاية للفاصلة ، أو حفاظا على السجع ، فى الوقت الذى يرى فيه النقاد ضرورة ائتلاف اللفظ والوزن فى الشعر ، ويعيبون منه ماخرج على غير النسق المعهود فى ترتيب الكلام لتصحيح الوزن ، يقول قدامة فى كتابه « نقد الشعر » تحت عنوان « ائتلاف اللفظ والوزن » : (وهو أن تكون الأسماء والأفعال فى الشعر مستقيمة كما بنيت ، لم يضطر الأمر فى الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة والنقصان منها . وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال المؤلفة منها ، وهى الأقوال ، على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا إلى تقديم مايجب تأخيره منها)(١) .

فإذا كان التقديم والتأخير لتصحيح الوزن عيبا فى الشعر ، وهو أمس حاجة إلى التساهل ، بحكم مافيه من التزام الأوزان والقوافى ، فإن القول به مراعاة للفاصلة أعيب ، لما هو مقرر فى عرف هذا اللسان من أنه يباح فى النظم ما لا يباح فى النثر ، لأن الناظم محكوم بقيدين : الوزن والقافية ، والناثر محكوم بقيد القافية وحده ، وحتى هذا القيد بإمكانه الخروج عنه بتنويع القوافى فى سجعه .

إننا لو نظرنا إلى القرآن على أنه نص أدبى نثرى ، وأجرينا عليه قواعد النقد العربى ، ومنها هذا الأصل الذى أشار إليه قدامة لحكمنا عليه بعدم

---

(١) نقد الشعر ص ١٦٥ .

تمكن فواصله، لاضطر ازنه إلى التقديم والتأخير حفاظا عليها طبقا لهذا الزعم، فما بالك بنص معجز ؟!

لقد استهجن الزمخشري مثل هذا القول فيما نقله السيوطي عن الكشاف القديم : (لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها ، إلا مع بقاء المعاني على سردها ، على المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه ، فأما أن تهمل المعاني ويهتم بتحسين اللفظ وحده ، غير منظور إلى مؤداه ، فليس من قبيل البلاغة)(١) .

وبالرغم من أن السيوطي نقل هذا عن الكشاف ، فإنه نقل في مقابله عن شمس الدين بن الصائغ نصا طويلا ، يستدل فيه على أن القرآن يرتكب مخالفة الأصول مراعاة للتناسب بين الفواصل، وأحصى من ذلك نيفا وأربعين موضعا ، ثمانية منها قدم فيها ما حقه التأخير(٢) .

ثم توسع المفسرون حتى أحالوا معظم التقديم في الفواصل إلى هذا الغرض وحده ، وبمثله قال بعض أهل البيان . حتى إن ابن الأثير لم يجد حرجا في تغيير السبك ، ومخالفة الأصل في ترتيب الألفاظ ، من أجل حسن النظم السجعي ، فقال رداً على الزمخشري ، الذي ذهب إلى أن تقديم المفعول للاختصاص في قوله تعالى: « إياك نعبد وإياك نستعين(٣) » قال ابن الأثير : (فإنه لم يقدم المفعول فيه للاختصاص . وإنما قدم لمكان نظم الكلام، لأنه لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » . ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين الرحمن

(١) الإتقان في علوم القرآن ١٠٥/٢
(٢) السابق ٩٩/٢
(٣) سورة الفاتحة ٤

الرحيم مالك يوم الدين » فجاء بعد ذلك قوله «إياك نعبد وإياك نستعين». وذلك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال: نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال الحسن)(١) .

إن يقيننا بجمال التوافق في المقاطع وأثره في استمالة الأسماع والقلوب لا يحملنا على قبول القول بأن (لهذه الموسيقية أثرها في النفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى ، ومن أجلها حدث في نظم الآي ما يجعل هذه المناسبة أمرا مرعيا)(٢) فلا شك أن هذه المناسبة أمر مرعى لكن تغيير نظم الآي من أجلها ، إنما هو ضرب من الضرورات يجل القرآن عن مثله .

وإذا كان الفراء من قبل حاول أن يربط بين مراعاة الفواصل في القرآن وتناسب القوافي في الشعر ، واستباح تغيير النظم في رؤوس الآي لتحقيق هذا التناسب ، حتى أجاز العدول عن الواحد إلى التثنية في قوله تعالى : «ولمن خاف مقام ربه جنتان » على أن المراد جنة واحدة وعدل عنه لمشاكلة رؤوس الآي ، فإنه قد وجد من تصدى له وقسا في الرد عليه على ما نقله السيوطي : (وقد أنكر ذلك ابن قتيبة وأغلظ فيه ، وقال : إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت ، أو الألف ، أو حذف همز ، أو حرف . فأما أن يكون الله وعد بجنتين فتجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآي معاذ الله)(٣) .

وأعجب من رأي الفراء في استباحته تغيير النظم للمشاكلة بين المقاطع ، تفسير الدكتور محمد زغلول سلام ذلك بأنه ربط بين أوزان القرآن وأوزان الشعر ، وكأن الفراء يعيد إلى الأذهان ما تنبه إليه العرب قديما من المقارنة

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٢
(٢) من بلاغة القرآن ص ٨٧
(٣) الإتقان ٢/١٠٠

بين وزن القرآن ووزن الشعر . يقول : (وقديما تنبه العرب إلى وزن القرآن فقارنوه بوزن الشعر ، وإيقـاع سجع الكهان ، ولكن هذه الملاحظات سكتت لسبب أو لآخر ، ولعل هذا السكوت عن البحث فى نظم القرآن من هذه الناحية يرجع إلى انصراف الناس إلى المعانى ، وماتحمل من تشريع وعقيدة ، وهو جل اهتمامهم فى ذلك الوقت ، ومهما يكن من شيء فالجديد فى كتاب الفراء ، والجدير بالاهتمام أنه لاحظ هذا النسق الصوتى ، وحاول أن يتتبعه ، ونراه فى ملاحظاته التى أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التى يعمد إليها فى التزام وزن بعينه . وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل فى أواخر الآيات . وإذ تسترعى انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر ، وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيدا ، بل يريد أن يقول : إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات . ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوب الكلمات مع وزن الآية ومراعاة رؤوس الآيات(١) .

لا أعرف أن الفراء كان يقارن بين وزن القرآن ووزن الشعر ، وإن كان يرى أنه يستباح فى رؤوس الآى ما لا يستباح فى غيرها ، كما يستباح فى قوافى الشعر ما لا يستباح فى حشوه ، وتلك خاصية تتعلق بالفواصل وحدها دون سائر الآى .

ولا أعرف أن الفراء علل عدول القرآن عن لفظة إلى أخرى لاستقامة الوزن فى غير رؤوس الآى ، حتى يقال: إنه كان « فى ملاحظاته التى أوردها مدركا تماما لوزن القرآن ، مدركا الغاية التى يعمد إليها فى التزام وزن بعينه » بل كان تعبيره فيما يرى أنه جرى على غير الأصل : « لمشاكلة رؤوس الآى »

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٦١

كما تراه فى سور : الفجر(١) ، والشمس(٢) ، والضحى(٣) ، والعلق(٤) ، والزلزلة(٥) ، والعاديات(٦) . وحين يستشهد بوجود مثل هذه المغايرة فى الشعر ، كان يقابل بين القوافى والفواصل ، لا بين وزن ووزن . مثال ذلك ما قاله فى تثنية الجنة من قوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » : (وقد يكون فى العربية جنة تثنيها العرب فى أشعارها . أنشدنى بعضهم :

ومَهْمَهين قَذَفَيْن مَرْتين قطعته بالأَمِّ لا بالسَّمْتين

يريد : مهما وسمتا واحداً . وأنشدنى آخر :

يسعى بكيداء ولهذمين قد جعل الأرطاة جنتين

وذلك أن الشعر له قواف يقيمها الزيادة والنقصان ، فيحتمل مالا يحتمله الكلام)(٧) .

بل لا أعرف أن العرب حين نعتوا القرآن بالشعر قصدوا إلى التشابه بينهما فى الوزن ، وإنما كان ذلك إقرارا منهم بسمو بيانه ، وجمال إيقاعه وتحدر نظمه ، لأن هذه صفة الشعر عندهم ، كما كان وصفه بالسحر دليلا على قوة تأثيره فى نفوسهم ، وعجزهم عن محاكاته ، فهو هذيان مهزوم ، وهوس محموم ، يقول أستاذنا الدكتور محمد رجب البيومى : (للشعر أوزانه وقوافيه التى تمنع أن ينتسب إليها القرآن، والذين قالوا عن رسول الله «شاعر نتربص به ريب المنون» لم يقولوا ذلك عن اعتقاد وإيقان، فهم يعرفون ضروب الشعر وأوزانه ، إنما غلبتهم العصبية فطفقوا يهرفون بما لا يوقنون ، فمرة ينسبونه للكهانة ، وثانية للسحر ، وثالثة للشعر ، لا لأنهم يعتقدون ذلك ، بل ليوحوا إلى العامة بما يغرس بذور الشك فى نفوسهم فلا يؤمنون)(٨) .

---

(١) معانى القرآن ٣/٢٦٠ (٢) السابق ٣/٢٦٧
(٣) السابق ٣/٢٧٣ ، ٢٧٤ (٤) السابق ٣/٢٧٨
(٥) السابق ٣/٢٨٣ (٦) السابق ٣/٢٨٦
(٧) السابق ٣/١١٨ (٨) البيان القرآنى ص ١٦٠

لا أحسب أن فنا من فنون البلاغة تعرض عند تطبيقه على النظم القرآنى لخطل الرأى كما تعرض له السجع ، بين مفرط يغالى فى رفضه ، تنزيها للقرآن عن شائبة تكلف واستكراه للألفاظ كالباقلانى ، ومفرّط يبالغ فى احتفاء القرآن به لدرجة يدعى فيها إكراه المعـــانى على ارتداء ما لا يناسبها من الألفاظ ، حتى زُعم أن القرآن يختار من الأعداد ما يشا كل رؤوس الآى وإن خالفت حقيقة المعدود ، كما فى قوله تعالى : «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية(١) » وقوله : « عليها تسعة عشر(٢) » فلا الحاملون للعرش ثمانيـــة ، ولا خزنة جهنم تسعة عشر ، ولكنها السجعة التى قبضت بزمام النظم(٣) . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

نحن نقول مع الأستاذ على الجندى (لا ننكر ما للسجع والازدواج من أجراس شاجية ، تكسب الكلام أناقة وحلاوة ، وتجعل له وقعا نديا على السمع والقلب ، ولكنا لا نستطيع بحال أن ننزله هذه المنزلة الخطيرة التى يستباح معها الخطأ فى الكلام ، والتى تسحب ذيل الإغفال والإهمال على كل غرض آخر ، وبخاصة حينما يتصل الأمر بكلام الله وكلام رسوله)(٤) .

هذه هى النظرة المعتدلة إلى فواصل القرآن (فالبلاغة من حيث هى فن القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه ، ولا تعتد بمعان جليلة تقصر الألفاظ عن التعبير البليغ عنها ، كما لا تعتد بألفاظ جميلة تضيع المعنى أو تجور عليه ليسلم لها زخرف بديعى . وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية ، بدلالتها المعنوية المرهفة ، ونسقها الفريد فى إيقاعها الباهر ، وبين ماتقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظى ، يكره الكلمات على أن تجىء فى غير مواضعها البيانية)(٥) .

---

(١) سورة الحاقه ١٧ (٢) سورة المدثر ٣٠

(٣) أثر القرآن فى تطور النقد العربى نقلا عن « نولدكه » ٣٧٤ وما بعدها .

(٤) صور البديع ـ فن الاسجاع ص ٩٩

(٥) الإعجاز البيانى للقرآن ص ٢٥٨

وبهذه النظرة المعتدلة نرى أن تناسب الفواصل مقصد من مقاصد النظم، وهو من حِلَى القرآن وروافد تأثيره، لكننا ننزه القرآن عن أن يقهر المعانى — فى سبيل تحقيق هـذه الغاية — على ارتداء ما لا يناسبها عن الألفاظ، أو يحدث فى بناء العبارة ما يجعل توافد المعانى على الأذهان مخالفا لترتيبها فى الجنان.

وقد حاولت جاهدا أن أتسمع لهمس السياق، وأنعم النظر فيما قيل فيه بمخالفة الأصل فى الترتيب لتناسب المقاطع، بحثا عن أغراض النظم وراء هذه المخالفة، هادفا — دون شطط أو تكلف — إلى الكشف عما صاحب موسيقى الفواصل من أسرار البيان. بيقين منا أن كلام الله المعجز هو المثل الأعلى للنظم الذى يتعانق فيه حسن اللفظ وسمو المعنى.

الترتيب بين المتعاطفات

من المواطن التى قيل فيها إن القرآن غاير الترتيب بين المتعاطفات لتناسب الفواصل، تقديم الأرض على السماء، مخالفة للأصل من تقديم الأشرف على ما هو دونه، وقد راعى القرآن الأصل فى معظم المواطن التى اقترنت فيها السماء والأرض، فقدم السماء، إلا بعض المواضع القليلة التى تقدمت فيها الأرض، فقيل إن تقديمها لغرض تحقيق السجع. يقول المرحوم الشيخ عبد الرحمن تاج: (ورد فى القرآن عشرات المرات ذكر الأرض مقرونة بالسماء مفردة ومجموعة، وفى هذه المرات جميعها نجد أن السماء أو السموات مقدمة على الأرض إلا فى مواضع قليلة جداً قدم فيها ذكر الأرض، ويتجلى فى موضعين؛ وذلك من أجل تناسب الفواصل. فمن ذلك قوله تعالى: «تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى»(١)

(١) سورة طه آية ٤ - ٥

فإن فواصل السورة على الألف ، ومراعاة للتناسب بين هذه الفواصل قدمت الأرض على السموات ، التي وصفت بوصف « العلى » المختوم بالألف .

ولذلك لما انتهى هذا الاقتضاء وجاء الجمع مرة أخرى بين الأرض والسماء في الآية التالية للآيات السابقة مباشرة عاد الاقتران إلى أصله ، فقدمت السموات على الأرض « له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى »(١) .

ومن ذلك أيضا قوله سبحانه : « ربنا إنك تعلم مانخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء فى الأرض ولا فى السماء الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء »(٢) .

فقد قدمت الأرض على السماء فى هذه الآية ، لأنه أريد تناسب الفاصلة فيها مع الفواصل الأخرى المبنية على الهمزة)(٣) .

وحين نتتبع ورود السماء والأرض معطوفة إحداهما على الأخرى فى القرآن الكريم نجد ما يربو على مائتى موضع تقدمت فيها السماء على الأرض ، جريا على الأصل من تقديم الأشرف ، والأدل على قدرته تعالى ، فى مجال الامتنان بعظيم خلقه ، وعجائب صنعه ، وتقدمت الأرض على السماء فى ثلاثة عشر موضعا ليس من بينها سوى موضعين وقعت السماء فيهما فاصلة . وموضع واحد وقعت فيه موطئة للفاصلة ، فإذا اعتددنا بمثل هذا القول الذى يعتبر التقديم فيها لمجرد رعاية الفواصل ، فإن عشرة مواضع تقدمت فيها الأرض وليست فاصلة يصبح تقديمها عاريا من الفائدة ، وهو ما لا يصح وقوعه بحال فى بيان معجز .

---

(١) سورة طه آية ٥   (٢) سورة إبراهيم ٣٨ - ٣٩

(٣) الشيخ عبد الرحمن تاج و بحوث قرآنية ولغوية ص ١١٢

على أن أحد الموضعين اللذين وقعت فيهما السماء فاصلة جاءت فاصلته بين فواصل متغايرة الروى والوزن ، وذلك قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل . من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام . إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(١) فالفواصل : « الإنجيل » « انتقام » « السماء » « الحكيم » لم تتفق فيها اثنتان فى حرف الروى ، وتغاير الردف فيها بالواو والياء والألف . وليس مثل هذا مما يتغير نظم الكلام من أجله .

إن القصور فى فهم أسرار التقديم والتأخير يرجع معظمه إلى حصر أسباب التقدم فى الزمان والشرف ، فإذا لم يكن المتقدم أسبق زمانا أو أعلى رتبة فقد مرجحات تقديمه ، فإذا وقع فاصلة كانت هى الغرض . مع أن أسباب التقديم متعددة أشار إليها السهيلى بتركيز شديد فى قوله : (ما تقدم من الكلام فتقديمه فى اللسان على حسب تقدم المعانى فى الجنان ؛ والمعانى تتقدم بأحد خمسة أشياء : إما بالزمان ، وإما بالطبع ، وإما بالرتبة ، وإما بالسبب ، وإما بالفضل والكمال ، فإذا سبق معنى من المعانى إلى الخلد والفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها ، سبق اللفظ الدال على ذلك المعنى السابق . نعم وربما كان ترتيب الألفاظ بحسب الخفة والثقل ، لا بحسب المعنى ، كقولهم : ربيعة ومضر ، وكان تقديم مضر أولى من جهة الفضل ، ولكنهم آثروا الخفة لأنك لو قدمت « مضر » فى اللفظ كثرت الحركات وتوالت ، فلما أخرت وقف عليها بالسكون)(٢) .

فهو يذكر خمسة أسباب للترتيب بحسب المعنى ، وسببا لفظيا جرى عليه لسان العرب فى الميل إلى خفة اللفظ وسهولة جريانه على الألسنة .

---

(١) سورة آل عمران ٢ - ٦ (٢) نتائج الفكر ص ٢٦٧

ثم إن هذه الأسباب تختلف فى ذاتها طبقا لمواقعها ودواعى السياق . فمثلا التقدم فى الرتبة قد ينظر فيه إلى الفضل والشرف فيقدم الأعلى ، وقد ينظر فيه إلى سياقه فيقدم الأدنى إذا كان بسياقه أقرب وأعلق ، وبهذا فسر السهيلى تقديم السماء على الأرض تارة ، وتقديم الأرض أخرى ، فقال : (وأما تقديم السماء على الأرض فبالرتبة أيضا وبالفضل والشرف . وأما تقديم الأرض من قوله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء » فبالرتبة ، لأنها منتظمة بذكر ما هى أقرب إليه ، وهم المخاطبون بقوله : « وما تعملون من عمل » فاقتضى حسن النظم تقديمها مترتبة فى الذكر مع المخاطبين الذين هم أهلها(١)) .

ثم إن التقديم بالفضل والشرف قد يبدأ فيه بالأفضل ، وقد يعكس على سبيل الترقى من الفاضل إلى الأفضل وقد بين وجه ذلك ابن المنير فقال : (وجه البداءة بالأفضل الاعتناء بالأهم فقدم ، ووجه عكس هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى . ومنه قوله :

بهاليل منهم جعفر وابن أمه ... على ومنهم أحمد المتخير(٢))

هذا الترقى من الأدنى إلى الأعلى هو الذى أوجب تقدم الأرض فى قوله تعالى : « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » فى سورة آل عمران وماشابهها من سورة إبراهيم ، وهما اللتان وقعت فيهما السماء فاصلة ، لأن العلم بما خفى فى الأرض دون العلم بما خفى فى السماء لعظم خلقها وسعتها ، فبدأ بنفى فوات شىء عن علمه من أسرار الأرض ، مترقيا إلى شمول علمه بما دق من أسرار السماء ، كما ترقى من النهى عن الأدنى إلى النهى عن الأعلى فى قوله تعالى : « فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما »(٣) وكما ترقى فى نفى إعجاز الكافرين له

(١) نتائج الفكر ص ٢٧٠ (٢) الإنصاف ٤/٤٣٤ .
(٣) سورة الإسراء ٢٣

فى قوله تعالى : « وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير(١) » فهم لا يستطيعون الهرب فى الأرض الضيقة الصغيرة ، ولا فى السماء العظيمة المتسعة ، وليست السماء هنا فاصلة ، حتى يقال إن التقديم فيه رعى للتناسب . فإذا ما صحب هــذا الغرض توافق المقاطع وتآخى أجراسها كان ذلك حسنا على حسن . وقد مس ذلك العلامة أبو السعود مسا رقيقا فى كشفه عن سر تقديم الأرض فى آية إبراهيم، فقال : (وتقديم الأرض على السماء مع توسيط « لا » بينهما باعتبار القرب والبعد منا المستدعيين للتفاوت بالنسبة إلى علومنا)(٢) مشيرا إلى أن إبراهيم عليه السلام حين ورد على لسانه هذا الدعاء واكب ترتيب اللفظ على لسانه ترتيب المعانى فى جنانه ، بادئا بالأرض ، وهى ماخفى من علمها على الإنسان دون ماخفى عليه من علم السماء .

أما آية طه التى احتج بها الشيخ تاج فقد وقع البيضاوى على سر دقيق لتقديم الأرض يكشف عنه قوله : (تفخيم لشأن المنزّل بغرض تعظيم المنزّل بذكر أفعاله وصفاته على الترتيب الذى هو عند العقل ، فبدأ بخلق الأرض والسموات وهى أصول العالم ، وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس ، وأظهر عنده من السموات)(٣) .

نظر ـ رحمه الله ـ فى ترتيب المعانى وصورها فى الألفاظ إلى حركة العقل فى توجهه لإدراك حقائق الخلق ، توصـــلا منها إلى الخالق ، فهو يدرك ظواهر الأشياء أولا ، ثم ينفذ منها إلى خوافيها ، لذا كان نسق الآيات متجاوبا مع هذه الحركة العقلية ، فقدم القرآن بين يدى تعظيم المنزل صفات الأفعال على صفات الذات ، فبدأ بخلق الأرض والسموات « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى » والخلق صفة فعل ، وهى تابعة فى الوجود لصفة

---

(١) سورة العنكبوت ٢٢ (٢) تفسير أبى السعود ٥/٥٣
(٣) تفسير البيضاوى ٦/١٩٠

الذات ، وهى الرحمة التى بها كان الخلق ، ثم جاء قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ربطا للمحسوس بالمعقول ، واهتداء بالشاهد على الغائب ، وبالأثر على المؤثر ، ثم كان البدء بالارض فى صفة الخلق هو الأحق ، لقربها من الإنسان ، وظهور العلم بها ، انطلاقا إلى العلم بما هو أعظم وأخفى ؛ فليس الترتيب هنا بين الارض والسموات ترتيب وجود ، ولا ترتيب تعظيم ، وإنما هو مسايرة لحركة العقل فى إدراك حقائق الاشياء حسب قربها وظهورها ، بغية الاستدلال بالقريب الاظهر على البعيد الاخفى .

وقد جاء تعليق الشهاب غاية فى الدقة على قول البيضاوى : «على الترتيب الذى هو عند العقل » قال الشهاب : (لانه يدرك أفعاله أولا ، ثم يستدل بها على سائر صفاته ، ولذا قدم الخلق ، وثنى بالرحمة التى تتناول الموجودات قبل كل شىء ، لأن الخلق منها ، وليس الترتيب بحسب الوجود ، فإنه بعكسه ، ولذا قدم الارض(١)) .

على أنى - ألمح فى تقديم الارض بين يدى مواساة الله لنبيه ، وإزالة ماسببه له إعراض قومه من آلام وأحزان ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » - ألمح الارتباط بين الشقاء وموطنه وهو الارض ، فكان البدء به هو الأليق ببلاغة النظم ، وذلك هو الترتيب فى الذكر الذى أشار إليه السهيلى فيما نقلناه عنه .

والمَثَلُ فى الاستشهاد بالتقديم لمراعاة الفواصل قوله تعالى : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى(٢) » وهو ما اعتبره المثبتون للسجع فى القرآن دليلا على أن تناسب الفواصل مقصد من المقاصد التى يعمد إليها القرآن ، ويغير من أجلها نظم الكلام ، بدليل أنه الموضع الوحيد الذى قدم فيه هارون على موسى تجاوبا مع إيقاع الفواصل المبنية على الالف

---

(١) حاشية الشهاب ١٩٠/٦ (٢) سورة طه ٧٠

يقول أبو بكر الرازى فى مسائله : (فإن قيل : كيف قدم هارون على موسى عليهما السلام فى قوله تعالى : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى » وهارون كان وزيرا لموسى عليه السلام وتبعا له . قال الله تعالى : « وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا » ؟

قلنا إنما قدمه ليقع موسى مؤخرا فى اللفظ فيناسب الفواصل ، أعنى رؤوس الآيات(١)) .

وأضاف الخطيب الإسكافى(٢) الحذف إلى التقديم فى هذه الآية لتحقيق هذا التناسب ، فلم يذكر « رب العالمين » كما جاء فى سورتى الأعراف والشعراء مراعاة للفواصل كذلك ، وهو ما تردد فى كتب المفسرين من المتقدمين والمتأخرين . يقول صاحب المنار : (فإن قيل : ولم لم يذكر فى سورة طه إيمانهم برب العالمين ؟ ولم أخر فيها موسى وقدم اسم هارون ؟ فالجواب عنهما أن سبب ذلك مراعاة فواصل السور ، بما لا يعارض غيره مما ورد فى غيرها(٣)) .

إن القول بحذف « رب العالمين » من سورة طه لمجرد التشاكل إهمال لما بنيت عليه هذه السورة من الإيجاز فى تصوير هذا الحدث ، كما يدل عليه ترتب سجود السحرة وإيمانهم على أمر الله لموسى بالإلقاء ، دون ذكر إلقاء موسى عصاه ، وهو ما تفردت به سورة طه .

أما تقديم هارون على موسى فقد تكاثرت فيه التعليلات كانت أوهاها ما رد به الباقلانى على القائلين بالسجع فى القرآن ، وهو أن (إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدى معنى واحدا ، من الأمر الصعب الذى تظهر فيه الفصاحة ، وتتبين فيه البلاغة(٤)) لأنه يرد عليه أن مخالفة الترتيب

(١) مسائل الرازي وأجوبتها من غرائب آى التنزيل ص ٢٢٠ .
(٢) ينظر درة التنزيل ١٧٥ (٣) تفسير المنار ٦١/٩
(٤) إعجاز القرآن ص ٦١ .

تم على وجهها لو وقعت فى إحدى السورتين : الأعراف أو الشعراء ، لمغايرتها لفواصل السورة . أما أن تكون المخالفة فى سورة طه التى تتحقق بها مراعاة الفواصل ، فإن هذا لا يسقط حجة المعارضين .

ومثل هـــذا يرد كذلك على ما قاله أبو السعود ، والبيضاوى ، وغيرهما ، من أن تقديم هارون لكبر سنه ، أو لدفع وهم أن يكون المقصود برب موسى لو قدم هو فرعون لسابق تربيته له ، ويكون ذكر هارون على سبيل الاستتباع[1] . فيقال لهم : ولم لم يراع هذا فى سورتى الأعراف والشعراء ؟ وما الذى استدعى دفع هذا التوهم فى هذا الموضع خاصة ؟

وهذا نفسه يرد على ماذهب إليه الحسناوى من أن هذا التقديم (يصور الحالة النفسية التى كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى ، فألقوا سجدا يتلعثمون بالشهادة ، كحال العبد الذى فرح بلقاء راحلته بعد ضياعها فقال من شدة الفرح على ماجاء فى صحيح مسلم : اللهم أنت عبدى وأنا ربك[2])

فلم ظهر هذا التلعثم فى سورة طه وحدها دون الموضعين الآخرين ؟

اللهم إلا أن يقال : إن تصوير الحدث فى سورة طه بما تضمنه من اختفاء موسى بعد أن أمر الله تعالى بالإلقاء ، وترتيب سجودهم وإيمانهم وقولهم هذا على الأمر بالإلقاء ، وكأن المعركة بينهم وبين الله تعالى لا بينهم وبين موسى وما يوحيه من السرعة فى حسم المعركة وشدة الهزيمة ، وهو ما تميزت به هذه السورة !!

ولكنه لم يقل هذا ولا شيئاً يبرر به هذه المغايرة . ولعلى أكون قد عضدت رأيه بما كان يجب أن يقوله .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ٢٨/٦ ، والبيضاوى ٢٥١/٦

(٢) الفاصلة القرآنية ص ١٢٠

ولعل أقرب الآراء إلى القبول ماذكره الدكتور محمد أبو موسى معتمدا على وحى السياق، وهو أن بدء السحرة (بمن لبس أفضل دال على إظهار قوة الاقتناع بالحجة والإيمان بها، وذلك لأن الآية لم تظهر على يد هارون، ولم يكن هو الغالب، وليس فى تقديم موسى الذى لقفت عصاه ما صنعوا شيء يلفت، لأنه هو الأصل، أما تقديم من لا دخل له فى المعجزة التى عليها آمنوا فهو الأمر اللافت، لأنه جاء على خلاف الأصل، ويلاحظ أن سياق سورة طه فيه فضل عناية ببيان حفاوة السحرة بهذه المغالبة، واحتشادهم لها احتشاداً جعل موسى عليه السلام يقول بعد ماجعلوا موعدهم يوم الزينة : « ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب(١)) .

وقد بدا لى رأى هو امتداد لما ذكره الدكتور أبو موسى وتوسيع لدائرة السياق ، تمتد فيه العناية من التركيز على احتشاد السحرة ومغالبتهم إلى إبراز دور هارون ومشاركته المؤثرة فى الأحداث ، ليكون ترتيب ذكرهما على سبيل الترقى بعد أن كان ذكره فى السورتين على سبيل التبعية .

أما لماذا كان فضل العناية والاهتمام بدور هارون فى هــذه السورة وحدها فهذا مايفصح عنه السياق، حيث جاء فى دعاء موسى من هذه السورة: (واجعل لى وزيراً من أهـــلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى(٢)) .

فهى السورة الوحيدة التى صرح فيها بهذه المشاركة، وهى أقوى فى إبراز دوره من قوله فى سورة الشعراء « فأرسل إلى هارون(٣) » وهى الوحيدة بين السور الثلاث التى طلب فيها من ربه أن يجعله وزيراً . وقال فى هــذه السورة : « فأيتاه فقولا إنا رسولا ربك(٤) » فأبرز بتثنية الرسول استقلال

---

(١) الإعجاز البلاغى ص ١٩٩ (٢) سورة طه آية ٢٩ - ٣٠
(٣) سورة الشعراء آية ١٣ (٤) سورة طه آية ٤٧

هارون ، فى حين ظهرت تبعيته فى إفراد الرسول من سورة الشعراء « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين(١) » .

واستمراراً لإبراز استقلال هارون ومشاركته المؤثرة فى الأحداث وصفه قوم فرعون بما وصفوا به موسى من السحر « قالوا إن هـــذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى(٢)» فتوالت ضمائر التثنية لتؤكد مشاركة هارون لموسى فى مجابهة القوم ، أما فى سورتى الأعراف ، وطه ، فقد أفردوا موسى عليه السلام بوصف السحر ، وتوارت شخصية هارون تماماً فجاء فى سورة الأعراف : (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون(٣) » وفى سورة الشعراء : « قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون(٤) » .

كل ذلك جعل من تقديم هارون فى سورة طه إبرازاً لدوره ، وتركيزاً على مشاركته فى الأحداث ، ثم جاء موسى بعده على سبيل الترقى من البدء بالأفضل فالأفضل ، بخلاف ذكره بعد موسى فى مثل سياقاته فإنه يوحى بتبعيته ، ويبدو فى دور المساند لا المشارك .

ومما قيل بالتقديم والتأخير فيه مراعاة للتناسب قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين(٥) » بناء على أن العبادة تتطلب الاستعانة بالمعبود للتوفيق إليها ، أو كما قال السيد الشريف : (العبادة لما كانت تقربهم إلى مولاهم بأفعالهم ، والاستعانة طلب لفعل المولى كان تقديمها على العبادة أولى(٦))

---

(١) سورة الشعراء ١٦ (٢) سورة طه ٦٣

(٣) سورة الأعراف ١٠٩ — ١١٠ .

(٤) سورة الشعراء ٣٤ - ٣٥ (٥) سورة الفاتحة ٤

(٦) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/٦٤ .

فوجد البعض فى تناسب الفواصل السبب فى العدول عن الأصل ، بل عدوا هذه الآية دليلا على قصد القرآن إلى السجع وتغيير نسق للكلام من أجله(١) .

كان الزمخشرى من أوائل من تنبه إلى أن التقديم وراءه سر يتعلق بأغراض النظم (فإن قلت : لم قدمت العبادة على الاستعانة ؟ قلت : لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليستوجبوا الإجابة عليها(٢)) .

وأضاف أبو السعود : (أن العبادة من حقوق الله تعالى والاستعانة من حقوق المتقين(٣)) فالتقديم على رأى الزمخشرى من تقديم العلة على المعلول ، وعلى رأى أبى السعود من تقديم الأشرف . وذهب البيضاوى إلى أن ذكر الاستعانة بعد العبادة من باب التكميل والاحتراس ، فقال : لما نسب المتكلم العبادة إلى نفسه أوهم ذلك تبجحا واعتداداً منه بما يصدر عنه ، فعقبه بقوله « وإياك نستعين » ليدل على أن العبادة أيضا مما لايتم ولا يستتب إلا بمعونة منه وتوفيق(٤)) .

فجاء تقديم العبادة على الاستعانة ليوافق ترتيب الألفاظ ترتيب معانيها ، فيرشد الترتيب الذكرى للترتيب الخارجى(٥)) .

هذا قليل من كثير فى بيان سر التقديم ، مما حفلت به كتب التفسير ، وهو ـ فى نظرى ـ إغراق لا يخلو من التكلف ، وهو إلى جدل المناطقة أقرب منه إلى ذوق أهل البيان . ذلك أن تقديم المفعول على فعلى العبادة والاستعانة بدلالته على الحصر ، يجعل تخصيص الاستعانة بالله وحده أرقى درجة من تخصيصه بالعبادة ، لأن الأولى تخلص من الشرك الظاهر ، والثانية تخلص من

---

(١) انظر المثل السائر ٢/٢١٢ ، والبرهان ١/٦٣

(٢) الكشاف ١/٦٥ (٣) تفسير أبى السعود ١/١٧

(٤) تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب ١/١٢٢

(٥) حاشية الشهاب ١/١٢٢

الشرك الخفى ، فكم من عابد يخلص لله العبادة ، لكنه لا يستطيع إخلاص الاستعانة به ، على ماتقضى به طبيعة التعجل فى النفس البشرية ورغبتها فى تحقيق ما تصبو إليه ، وما يصاحب ذلك من مشاعر القلق والخوف مما يدفع إلى الركون لغيره سبحانه فى تحقيق أغراض النفس . فكان حصر الاستعانة فى الله وحده مرحلة من مراحل اليقين لا يصل إليها إلا صفوة المتقين ، وصار إخلاص العبادة هو السبيل إلى هذه الدرجة من الثقة بعون الله والاطمئنان إليه ، حتى لا يلوذ العابد فى طلب حوائجه إلى غير مولاه .
ولعل الخازن فى أحد وجوه ذكرها رمق هــــذا المعنى بقوله : (إن الاستعانة نوع تعبد ، فكأنه ذكر جملة العبادة أولا ، ثم ذكر ما هو من تفاصيلها[1]) .

إن القول بأن (العبادة تقرب للخالق تعالى ، فهى أجدر بالتقديم فى المناجاة ، وأما الاستعانة فهى لنفع المخلوق للتيسير عليه ، فناسب أن يقدم المناجى ماهو من عزمه وصنعه على ما يسأله مما يعين على ذلك)[2] هذا القول يقيس العلاقة بين الله وخلقه بمقاييس العلاقات بين المخلوقين . فيقدم العبد من العبادة مايستحق به الإعانة . إن طلب العون من الله دعاء ، والدعاء قمة العبادة ، وتركه يستوجب العذاب ، وقد فسرت به العبادة[3] فى قوله تعالى : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »[4] وفى الحديث (الدعاء هو العبادة[5]) فدل عليه السلام

---

(١) لباب التأويل فى معانى التنزيل ١/١٧

(٢) التحرير والتنوير ١/١٨٩

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/٨٦ (٤) سورة غافر ٦٠

(٥) رواه البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود والترمـــذى والنسائى وابن ماجه .

بهذا الحصر على فضله وشرفه على سائر العبادات . وعلى ذلك فالترتيب جاء في الآية على الأصل من عطف الخاص على العام .

ومن المواطن التي جعل فيها عكس الترتيب لرعاية الفاصلة ما نقله السيوطي عن ابن الصائغ (تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو « فلله الآخرة والأولى(١) » ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى كقوله تعالى : « له الحمد في الأولى والآخرة(٢) » .

وبتتبع مواطن وقوع الأولى والآخرة مجموعين في صورة عطف بالواو ، نجد أن « الأولى » تقدمت على « الآخرة » في موضع واحد ، هو قوله تعالى : « وهو الله الذي لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون(٣) » وهذا هو الأصل في الترتيب الوجودي لسبق زمن الدنيا على زمن الآخرة . وهو النهج الذي سلكه النظم الحكيم في تقديم الدنيا على الآخرة في كل موطن اجتمعتا فيه أما تقديم الآخرة على الأولى فقد جاء في ثلاثة مواطن ، الأول قوله تعالى خطاباً للمشركين : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى(٤) » .

وتقديم الآخرة فيه على الأولى يتعانق مع سياقه أداء وغرضا ، حيث يتسق التقديم في هذه الفاصلة مع التقديم في الفاصلتين قبلها ، الأولى قوله تعالى : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » وفيها قدم « من ربهم » على الفاعل « الهدى » تنبيها على أن من شأن المربي الرحيم أن لا يهدي من يربيه إلى غير ما ينفعه وينجيه ، والثانية : (أم للإنسان ما تمنى) وفيها قدم الخبر « للإنسان »

(١) سورة النجم ٢٥
(٢) الإتقان ٢/٩٩
(٣) سورة القصص ٧٠
(٤) سورة النجم ٢٣ - ٢٦

وهو بدلالته على التخصيص يحقق الغاية من الإنكار والتهكم بهذا المخلوق الذى يتجاوز قدره، ويتصرف فى خلق الله تصرف الخالق، ويفتات على ربه، فيختار لله أدنى الجنسين ويختص نفسه بأشرفهما. «ألكم الذكر وله الأنثى». ثم جاء تقديم الآخرة متوافقاً مع سياقه فى الأداء، ومحققا الغرض فى المبادرة برد أطماع هذا الإنسان الذى تجاوز فى أمانيه وغلا، فزعم أنه سيفلت فى الآخرة من عذاب ربه بشفاعة أصنام عبدها من دون الله. فلما كانت هذه الأمنية متعلقة بالآخرة قدمت، مسارعة إلى قطع هذه الأمانى وتكذيبها بحصر ملكيتها مع ملكية الدنيا فى الله وحده، وهو ما كشف عنه الالوسى فى قوله: (وقدمت الآخرة اهتماما برد ما هو أهم أطماعهم عندهم من الفوز فيها، ولذا أردف ذلك بقوله تعالى: «وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً» وإقناطهم عما طمعوا به من شفاعة الملائكة عليهم السلام موجب لإقناطهم عن شفاعة الأصنام بطريق الأولوية(١)).

والموطن الثانى الذى تقدمت فيه الآخرة على الاولى قوله تعالى حديثاً عن موسى وفرعون: «هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الاعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى»(٢).

الأظهر فى تفسير الآخرة والاولى هنا ماروى عن ابن عباس ومجاهد والشعبى وسعيد بن جبير ومقاتل من أنهما كلمتا فرعون «ماعلمت لكم من إله غيرى(٣)» و «أنا ربكم الأعلى» وهو الوجه الذى قدمه الرازى فى تفسيره ثم قال: (والمقصود التنبيه على أنه ما أخذه بكلمته الأولى فى الحال، بل

(١) روح المعانى ٥٨/٢٧ (٢) سورة النازعات ١٥ - ٢٥
(٣) سورة القصص ٣٨

أمهله أربعين سنة ، فلما ذكر الثانية أخذ بهما ، وفى هذا تنبيه على أنه تعالى يمهل ولا يهمل(١)) .

وبهذا تتقدم الآخرة تحقيقا لغرض النظم فى الإشارة إلى أن قول فرعون « أنا ربكم الأعلى » هو السبب فى إسراع الله بإنزال العقاب به ، كما يدل عليه حرف التعقيب ، إلى جانب الدلالة على أنها أشنع وأفظع من الأولى ، لتفاوت ما بين إنكار العلم بوجود إله غيره ، وبين تصريحه بالربوبية الموصوفة بغاية التعالى والتفرد .

أما الموطن الثالث : وهو قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى(٢) » .

فقد جاء تقديم الآخرة فيه استجابة لما بنيت عليه السورة من التهديد والإنذار بسوء العاقبة لمن كذب وأعرض ، والتنكيل به فى الآخرة ، وهو ما ينبىء عنه افتتاح السورة بالقسم ، وبدئه بالليل الذى يخيم بظلامه على دنيا الناس ، تأكيدا على اختلاف مساعى الناس وتفرقهم ، وما يترتب عليه من اختلاف جزائهم ، ولما كان الغرض هو إنذار المستهينين بعذاب الله ، المتمادين فى ضلالهم ، كان تقديم الآخرة هو الأنسب بهذا السياق المنذر المتوعد ، لأنها زمن إنزال العقوبة بهم ، ولهذا أعقبها قوله تعالى: «فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى » مقدما جزاء الأشقياء على جزاء الاتقياء ، مكتفيا فى جزائهم بإبعادهم عن النار ، على خلاف الغالب فى القرآن من تقديم جزاء المؤمنين . مثل هذا السياق لا يفى بحق البلاغة فيه إلا تقديم الآخرة ، فإذا تحقق معه الانسجام الصوتى ،

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٤٤/٣١ (٢) الليل ٥ - ١٣

وتناسب الايقاع فى الفواصل ، فذلك ما لا يتم على هذا الوجه من الكمال فى غير هذا النظم المعجز .

تقول الدكتورة بنت الشاطىء . (ونلتفت إلى ملحظ بيانى فى الآية ، هو العدول عما هو مألوف من تقديم الأولى على الآخرة، وليس التعلق برعاية الفاصلة هو الذى اقتضى تقديم الآخرة هنا على الأولى ، وإنما اقتضاه المعنى فى سياق البشرى والنــذر ، إذ الآخر هى دار القرار ، وكذلك قدمت الأخرى على الأولى فى سياق البشرى للمصطفى بآية الضحى « وللآخرة خير لك من الأولى » كما قدمت الآخرة على الأولى فى سياق الوعيد لفرعون ، إذ أدبر وتولى ، « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » بآية النازعات . وفى مثل هذا السياق من الوعيد تتقدم الآخرة على الأولى فى آية الليل)(١) .

وهو كلام طيب لا يعيبه إلا قوله تعالى « وللآخرة خير لك من الأولى » إلى الآيات الثلاث ، إذ التقديم فيها أوجبته طبيعة أسلوب التفضيل ، الذى يلزم فيه تقديم المفضل على المفضل عليه ، وحديث البلاغة فيما تجيز قواعد اللغة تقديمه وتأخيره ، لا فيما يتعين تقديمه لأداء أصل المعنى .

ومما قيل فيه بتقديم المؤخر زمانا للفاصلة ، قوله تعالى : « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى(٢) » فقدم موسى وهو متأخر وجودا على إبراهيم عليهما السلام ، فى حين جاء على الأصل فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى(٣) » .

والقول بالتقديم لرعاية الفاصلة يتجاهل الفروق بين أغراض النظم ، واختلافات السياق ، فلو أن الغرض هو مراعاة الفواصل وحدها ، لقيل فى سورة النجم : « أم لم يذبأ بما فى صحف إبراهيم وموسى » وفاء بحق الفواصل ، وهى متحدة فى السورتين دون اللجوء إلى تغيير النسق بالتقديم والتأخير .

---

(١) التفسير البيانى للقرآن ٢/١١٢ . (٢) سوره النجم ٣٦ - ٣٧

(٣) سوره الأعلى ١٨ - ١٩

وحين نتأمل سياق الآيتين ، نجد أن آية الأعلى وقعت تقريراً لحقائق التوحيد والنبوة ، وما تبعها من المجازاة على الكفر والإيمان ، تأكيداً على أن هذه هى أصول الشرائع كلها ، وملتقى رسالات المرسلين ، يدلك على ذلك البدء بالتوكيد ، والعموم المفهوم من قوله « لفى الصحف الأولى » قبل تخصيص صحف إبراهيم وموسى ، وتخصيصهما بالذكر لما أنهما الأشهر لدى العرب ومن ساكنهم من أهل الكتاب . فالخطاب هنا عام جرى فيه تقديم إبراهيم على الأصل فى الترتيب الوجودى .

أما آية النجم فالخطاب فيها موجه أصالة إلى رجل من المشركين زعم أنه يحمل عن غيره أوزاره يوم القيامة ، كما يتضح من الحوار : « أفرأيت الذى تولى وأعطى قليلا وأكدى أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى(١) » فأحيل فى علمه على الأشهر المتداول بين العرب من كتب السماء ، وهى صحف إبراهيم وموسى ، وقدم ماهو أشهر من صحف النبيين الكريمين ، لأن علم العرب بصحف موسى أكثر من علمهم بما فى صحف إبراهيم ، بعد أن طال العهد بها ، ومال العرب بشركهم عن الحنيفية ، بخلاف صحف موسى التى يستمعون إليها من أهل الكتاب الذين يساكنونهم فى الجزيرة ، فقدم القرآن للمخاطب ماهو به أعلم ، وتداوله لديه أشهر . ذلك ما تنطق به أسباب النزول على ماروى أنها (نزلت فى الوليد بن المغيرة ، وذلك أنه سمع قراءة النبى صلى الله عليه وسلم ، وجلس إليه ، ووعظه رسول الله ، فقرب من الإسلام ، وطمع النبى عليه السلام فيه ، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك ؟ ارجع إلى دينك واثبت عليه ، وأنا أتحمل لك بكل شىء تخافه فى الآخرة ، لكن على أن تعطينى كذا وكذا ، من المال ، فوافقه الوليد على ذلك ، ورجع عما همَّ به من الإسلام ، وضل ضلالا بعيداً ، وأعطى بعض

---

(١) سورة النجم ٣٣ — ٣٧ .

ذلك المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عنه وشح ، فنزلت الآية فيه(١)) .

فجزى التقديم على ماهو أقرب لدى المخاطب وأشد ظهوراً عنده تسجيلا عليه . وإلى هذا ذهب أبو السعود فى تعليل التقديم قائلا : (وتقديم موسى لما أن صحفه التى هى التوراة عندهم أشهر وأكثر(٢)) .

ومما خفى سر الترتيب فيه قوله تعالى : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد(٣) » فتقدمت البطون على الجلود ، مخالفة للظاهر من أن الصهر يتناول الجلود أولا ، ثم يفضى إلى البطون ، فعلل الشهاب تأخير الجلود بثلاثة أوجه ؛ أحدها مراعاة الفواصل ، وقدمه على الوجهين الآخرين ، فقال : (وتأخيره عنه إما لمراعاة الفاصلة ، أو للإشعار بغاية الحرارة ، بإيهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر ، مع أنه على العكس وقيل : التأثير فى الظاهر ظاهر غنى عن البيان ، وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ، ولذا قدم الباطن ، لأنه المقصود الأهم ؛ فلا يتوهم أن حق النظم تقديم الجلود(٤)) .

ولا أرى كيف غاب عنه أمر التقديم كما غاب عن غيره ممن قالوا إن البطون مقدمة من تأخير(٥) مع أن المتأمل لنظم الآية لا يخفى عليه أن ترتيب الألفاظ جاء على وفق ترتيب المعانى دون مخالفة للأصل ، لأن الحميم يصب من فوق الرأس ، فينفذ منها إلى البطن ، ويبدأ فى صهرها حتى ينتهى إلى الجلد ، كما يشهد بذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (أخرج عبد بن حميد

---

(١) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ٢٧٦/١٥

(٢) تفسير أبي السعود ١٦٣/٨ (٣) سورة الحج ١٩ - ٢١

(٤) حاشية الشهاب ٢٨٩/٦

(٥) انظر تفسير أبي السعود ١٠١/٦ ، والبيضاوى ٢٨٩/٦ ، وروح المعانى ١٣٤/١٧ .

والترمذى ، وصححه . وعبد الله بن أحمـــد فى زوائد الزهد . وجماعة عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الحميم ليصب على رؤوسهم ، فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت مافى جوفه حتى يمرق إلى قدميه ، وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان(١)) فلا يتصور أن يبدأ الصهر من الجلود ، إلا إذا صب الحميم على جلودهم ، أما وأنه يصب على الرؤوس فينفذ منها إلى البطون ، فلا مجال لقول بالتقديم والتأخير ، ولولا أن القرآن قصد إلى حركة الحميم داخل الأجسام ، والنفاذ من الرأس إليها مباشرة ، لقال : يصب عليهم الحميم ، وحينئذ يمكن أن يقال إن الجلود حقها التقديم .

ثم إن التعذيب من الظاهر دل عليه القرآن بقوله « قطعت لهم ثياب من نار » وهذا هو العذاب الظاهر للجسد ، فكان صب الحميم فى بطونهم نوعا آخر من التعذيب داخل الأجساد . وقد أحسن أبو حيان تصور المعانى بما يواكب ظلالها فى الألفاظ ، فقال : (ولما ذكر ما يعذب به الجسد ظاهره، وما يصب على الرأس ، ذكر ما يصل إلى باطن المعذب ، وهو الحميم الذى يذيب مافى البطون من الحشا ، ويصل ذلك الذوب إلى الظاهر وهو الجلد ، فيؤثر فى الظاهر تأثيره فى الباطن(٢)) .

ومما تداولته الاقلام مثالا لرعاية الفواصل وتغيير النظم من أجلها ، قوله تعالى : « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور لله ملك السموات والأرض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير(٣) » قيـــل : إن تقديم الإناث على الذكور وهن الأدنى

---

(١) روح المعانى ١٣٤/١٧ ، (٢) البحر المحيط ٣٦٠/٦

(٣) سورة الشورى آية ٤٨ - ٥٠

منزلة ، جاء لمشا كلة رؤوس الآى ، بدليلين : الأول أنه عاد فقدم الذكور حين لم يكن فاصلة ،على الأصل من تقديم الأشرف . والثانى تعريف الذكور لكى يتحقق التناسب مع الفواصل « كفور » و « قدير » ولولا هذا التعريف لخالف بالتنوين نسق الفواصل .

وبتتبع ورود الجنسين متعاطفين فى الذكر الحكيم ، مُعَبَّراً عنهما بالذكر والأنثى تارة ، والرجال والنساء تارة ثانية ، وبالبنات والبنين ثالثة، أحصيت خمسة عشر موضعا قدم فيها الذكر ، على الأصل من تقديم الأهم بالذات ، لما أن الرجل بحكم تكوينه وقدراته هو المسئول عن توجيه حركة الحياة ، فهو الأصل والأجدر بالتقديم .

وقدمت الأنثى فى مواضع خمسة لأهميتها فى سياقاتهـــا ، ومقتضيات ومقاماتها ، وهو ضرب من الاهتمام بالمقدم لا لذاته ، بل لدواعى الأحوال والأغراض ، وذلك مانبه إليه الشهاب : (والاهتمام قد يكون مما يقتضيه الذات ، وقد يكون بما يقتضيه المقام والسياق(١)) .

والمتأمل لسياق آية الشورى موضع الحديث ، يطالعه هـذا الخطاب الحانى على رسول الله، وهو يواجه عنت قومه وصلفهم ، تأنيسا له ، وإزالة لهمومه ، فما عليه إن لم يؤمنوا ، وقد أدى مهمته وبلغ رسالة ربه ، وذلك يدلك على مدى العناد والإصرار على الكفر ، كما ذيلت به الآية الأولى « فإن الإنسان كفور » ثم أعقبه ببيان طلاقة القدرة ، واختصاص الله تعالى بملكية ماخلق ، والتصرف فيه بمشيئته القاهرة لمشيئة من خلق ، فكان البدء بما يشاؤه الله ويكرهه الإنسان أدلّ على هذه القدرة ، وقهر هؤلاء الذين يحادون الله فى ملكه ، لذا بدأ بالجنس الذى جرت عادة المخاطبين على كراهيته ، وعده ضربا من ضروب البلاء ، إشارة إلى أنه يفعل ما يريده

---

(١) حاشية الشهاب ٤٢٨/٧

هو لا ما يريده خلقه . وهذا ما كشف عنه بدقة بالغة جار الله الزمخشري :
(فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل مايشاؤه ، لا ما يشاؤه الإنسان ،
فكان ذكر الإناث اللاتي من جملة مايشاؤه الإنسان أهم ، والأهم واجب
التقديم ، وليلي الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء ذكر البلاء ، وأخر
الذكور ، فلما أخرهم لذلك تدارك تأخيرهم ، وهم أحقاء بالتقدم بتعريفهم ،
لأن التعريف تنويه وتشهير ، كأنه قال : ويهب لمن يشاء الفرسان الأعلام
المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه
من التقديم والتأخير ، وعرّف أن تقديمهن لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى
آخر ، فقال : « ذكرانا وإناثا » كما قال : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى(١) »
« فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى(٢) »)(٣) .

والمواضع الأربعة الأخرى قدمت فيها البنات على البنين ، وهي قوله
تعالى : « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون(٤) » وقوله : « أم اتخذ مما
يخلق بنات وأصفاكم بالبنين(٥) » وقوله : « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم
مايشتهون(٦) » وقوله : « أم له البنات ولكم البنون(٧) » وفيها تقدم الأهم
في سياقه كذلك ، إذ أن محط الإنكار فيها أن يخصوا الله تعالى بأدنى
الجنسين ، وتلك أقبح وأشنع مقالات الكفر ، حيث لم يكتفوا بأن ينسبوا
إلى الله الولد ، حتى نسبوا إلى الله منه أخس الجنسين ، ومن كانوا يعزفون
عنه ويحتقرونه ، على ماصوره الله تعالى في رده عليهم « أم اتخذ مما يخلق بنات
وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم
أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين »(٨) .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٣
(٢) سورة القيامة آية ٣٩
(٣) الكشاف ٣/٤٧٥
(٤) سورة الصافات آية ١٤٩
(٥) سورة الزخرف آية ١٦
(٦) سورة النحل آية ٥٧
(٧) سورة الطور آية ٣٩
(٨) سورة الزخرف آية ١٦ - ١٨

فلما كانت نسبة البنات إلى الله تعالى هى محط الإنكار ، ونسبتهم البنين إلى أنفسهم زيادة فى تفظيع مقالتهم ، قدم الأهم وهو البنات .

ومما خولف فيه النظم بتقديم غير الأشرف ، لكونه أهم فى سياقه ، وتحقق معه رعى الفواصل ، قوله تعالى : « وكذلك أخـــذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق(١) » .

جاءت هذه الآيات تذييلا لقصص أقوام كذبوا بأنبيائهم فحلت بهم لعنات السماء ، وأنزل الله بهم من العقاب فى العاجـــلة ما صاروا به مثلا للمكذبين ، ثم توعدهم الله فى الآجلة بعذاب أشد ، فى هذا الجو الذى تحيط به نذر العذاب ، قدم الأشقياء وجزاؤهم على السعداء وجزائهم ، على غرار قوله تعالى : « فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى وسيجنبها الأتقى »(٢) .

تقديم « شقى » هو من تقديم الأهم فى سياقه ، وعكس ذلك يذهب بجلال النظم ، ويحجب دخان الانتقام ، وتخفت معه أجراس الأصوات المنذرة المتوعدة ، وليس من أجل تناسب المقاطع كان التقديم ، وإن تعانق هذا التحدر فى الإيقاع مع تحدر المعانى وتآخيها ، فيما يشهد بإعجاز النظم الحكيم . لو أن الفاصلة وحدها هى التى استدعت هذا النسق ، لعاد النظم الكريم فى غير الفاصلة إلى تقديم الأشرف ، فبدأ بجزاء السعداء ، وقال : فأما الذين سعدوا ففى الجنة .. وأما الذين شقوا ففى النار ، على طريق اللف والنشر المشوش . لكن الغرض إلى وصل حديث الأشقياء بهلاك الأمم

(١) سورة هود آية ١٠٢ ، ١٠٦ (٢) سورة الليل آية ١٤ - ١٧ .

السابقة ، هو الذى استوجب تقديم ما تدم ، وهو شائع فى غير الفواصل ، كقوله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير(١) » .

وقد أحسن أبو السعود حين قال « وتقديم الشقى على السعيد ، لأن المقام مقام التحذير والإنذار(٢) » .

لكن العجيب أن أبا السعود الذى تنبه إلى هذا السر فى التقديم يقول فى قوله تعالى : « فألهمها فجورها وتقواها(٣) » (وتقديم الفجور لمراعاة الفواصل)(٤) .

وأنت حين تنعم النظر فى أعطاف السورة ، تجد المولى يقسم فيها بظواهر الكون على فلاح من طهر نفسه ، وباعد بينها وبين الفجور ، وضياع من أوبقها بالمعاصى . والحديث عن النفس فى القرآن حديث المتهم لها بمقارفة الذنوب ، والميل إلى الشهوات ، واتباع الهوى ، كما هو صريح قوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى(٥) » ، وقوله « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى(٦) » ، فتقديم الفجور بها هو الأولى ، لأنه هو الغالب على طبعها ، إلا من رحم الله وهداه إلى كبح جماحها ، وتطهيرها بالتوبة والطاعة . هذا إلى جانب أن السورة قد مضت بعد ذلك فى حديث ثمود وطغيانهم ، ومحادتهم لنبيهم وربهم إلى أن حل بهم عذاب الله « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها(٧) » .

فحرِىٌّ بسورة هذا سياقها أن يتقدم فجور النفس على تقواها ، ليلتئم مع فجور المكذبين .

---

(١) سورة التغابن آية ٢
(٢) تفسير أبى السعود ٦/٢٤١
(٣) سورة الشمس آية ٨
(٤) تفسير أبى السعود ٩/١٦٤
(٥) سورة يوسف آية ٥٣
(٦) سورة النازعات آية ٤٠
(٧) سورة الشمس آية ١٤ - ١٥

ومن خفى ضروب التقديم فى الفواصل ، ما نراه فى مشتبه النظم من تقديم لفظ على آخر فى موطن ، وعكس الترتيب فى موطن آخر ، مما يبدو لأول وهلة أن ليس لهذه المغايرة غرض سوى توافق الفواصل .

من ذلك قوله تعالى حكاية لما دار بين زكريا وربه : « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار(١) » فقدم العشى. وعكس ذلك فى قوله تعالى : « قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا(٢) » .

وقد حاولت أن أجد فيما قرأت من يستفتح على فى بيان سر التقديم والتأخير فى الموضعين فلم أجد ، واحتجب عنى هذا السر ، حتى كدت أسلم بأنه ليس وراء ذلك من غرض سوى تحقيق التناسب فى الفواصل . لكن الله تعالى هدانى بعد طول توقف إلى أن هذه المغايرة استدعاها تغيير الخطاب وذلك أن المخاطب المأمور بالتسبيح فى سورة آل عمران هو زكريا عليه السلام ، والمخاطب المأمور بالتسبيح فى سورة مريم هو من أرسل إليهم زكريا ، وبين الخطابين والمقامين يقع الإعجاز فى ترتيب النظم ، فزكريا قدم معه العشىّ ، وتسبيحه فيه يستتبع قيام الليل ، والانقطاع إلى الله تعالى فى هذا الوقت الذى يصعب على غير المقربين مواصلة العبادة فيه ، ولذا أمر النبى عليه السلام بقيام الليل ، وقدم على تسبيح النهار فى قوله تعالى : « يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا(٣) » وقوله « إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا إن لك فى النهار سبحا طويلا(٤) » فنبه إلى أن العبادة بالليل أشد ، ولا يواصلها إلا أصحاب العزائم من المقربين ، أما غير الأنبياء والمقربين فإن

(١) سورة آل عمران آية ٤١
(٢) سورة مريم آية ١١
(٣) سورة المزمل آية ١
(٤) سورة المزمل آية ٦ - ٧

جل تسبيحهم وصلاتهم بالنهار ، على قدر مايطيقه عامة المؤمنين ، لذا قدم ماهو الغالب على عادة الناس فى خطاب زكريا لقومه .

وبما بدا فيه أن التغيير فى ترتيب النظم مرجعه المحافظة على السجع ،قوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور(١) » .

فقد بدأ بتقديم غير الأشرف وهو الأعمى ، وجرى على هذا النهج فى تقديم الظلمات على النور ، ثم عدل عن هذا الترتيب ، فقدم الأشرف وهو الظل على الحرور ، فكان هذا العكس فى الترتيب دافعا إلى القول بأن هذه المغايرة مرجعها إلى المحافظة على السجع ، إذلو قدم الحرور لذهب التناسب .

وقد حمل الفخر الرازى على من يقول إن القرآن يقدم ويؤخر لتوافق رؤوس الآى ، وعلل المخالفة فى الترتيب بأغراض معنوية ، فقال : (وقدم الأشرف فى مثلين ، وهو الظل والحرور ، وأخره فى مثلين ، وهو البصر والنور ، وفى مثل هذا يقول المفسرون إنه لتوخى أواخر الآى ، وهو ضعيف ، لأن توخى الأواخر راجع إلى السجع ؛ ومعجزة القرآن فى المعنى لا فى مجرد اللفظ ، فالشاعر يقدم ويؤخر للسجع ، فيكون اللفظ حاملا له على تغيير المعنى ، وأما القرآن فحكمة بالغة ، والمعنى فيه صحيح ، واللفظ فصيح ، فلا يقدم ولا يؤخر اللفظ بلا معنى ، فنقول : الكفار قبل النبي صلى الله عليه وسلم كانوا فى ضلالة : فكانوا كالعمى ، وطريقهم كالظلمة ، ثم لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وبين الحق ، واهتـــدى به منهم قوم فصاروا بصيرين ، وطريقهم كالنور ، فقال : وما يستوى من كان قبل البعث على الكفر ، ومن اهتدى بعده إلى الإيمان ، فلما كان الكفر قبل الإيمان فى

---

(١) سوره فاطر ٢٠ - ٢٢

زمان محمد صلى الله عليه وسلم ، والكافر قبل المؤمن قدم المقدم ، ثم لما ذكر المآل والمرجع ، قدم مايتعلق بالرحمة على مايتعلق بالغضب ، لقوله فى الإلهيات : سبقت رحمتى غضبى ؛ ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من الأعمى ، وشابه الأموات فى عدم إدراك الحق من جميع الوجوه ، فقال: « وما يستوى الأحياء » أى المؤمنون الذين آمنوا بما أنزل الله ، « والأموات الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا بها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن ، فأخرهم عن المؤمنين)(١) .

لقد كان الرازى على حق فى رفض أن يكون تقديم الظل متمحضا لغرض لفظى هو مراعاة السجع وحده ، وإن كنت أرى أنه مقصد مساوق للمعانى والأغراض ، والدليل على ذلك أن القرآن غاير الترتيب فيما يشبه هذا الموضع ، ولم تكن المغايرة فى الفواصل ، حتى يقال إن تغيير الترتيب لتحقيق السجع ، وذلك قوله تعالى : « ومايستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء(٢) » فقدم غير الأشرف وهو الأعمى ، ثم غاير الترتيب ، فقدم الأشرف ، وهو « الذين آمنوا » ولم يستدع ذلك ضرورة سجع .

لكننى لا أستريح إلى الإبعاد فى جعل الترتيب وجوديا ، على أن العمى يمثل الكفر قبل بعثة النبى ، والأموات يمثل الكفر بعد بعثته ، ولا إلى تعليل تقدم الظل يسبق الرحمة للغضب ، لأن الآيات مسوقة فى مقام التهديد والوعيد ، ومثله يستدعى المبادرة بما يدل على الانتقام ، لإدخال الروع فى قلوب المستكبرين .

والشهاب الخفاجى يرى أن تقديم الظل (ليكون مع ما قبله على نمط واحد ؛ فإن العمى ، والظلمة ، والظل متناسبة ، مع مافيه من رعاية الفواصل(٣)).

(١) تفسير الفخر الرازى ١٧/٢٦ (٢) سورة غافر آية ٥٨
(٣) حاشية الشهاب ٢٢٣,٧

والتناسب الذى يعنيه هو اشتراك الثلاثة فى احتجاب الضوء عنها ، فلهذا التناسب قدم الظل كما قدم العمى والظلمة ، ولم يقل لنا لماذا قدم الأحياء ؟

وحين نتتبع نفى استواء الأشياء فى القرآن ، نجده قد ورد خمس مرات فى المقارنة بين الأعمى والبصير ، وتقدم الأعمى فيها جميعا ، وقرن به الظلمات والنور فى موضعين اثنين ، وتقدمت فيهما الظلمات . وهذا التقديم هو الغالب فى المقارنة بين المتناقضات ، حين يكون الحديث منصبا على تهجين ذوى الأفعال الدنيئة ، والحط من شأنهم ، فينفى استواء الأدنى بالأعلى ، قصداً إلى إظهار قبحه بذكر نقيضه ، فكما أن « الضد يظهر حسنه الضد » هو كذلك يظهر قبحه . « قل لا يستوى الخبيث والطيب(١) » « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة(٢) » « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله(٣) » فأنت ترى تقدم الأدنى ، لأن الحديث فى بيان سوئه .

ولما كان السياق فى الآيات التى نحن بصددها فى ذم المشركين والاستخفاف بعقولهم حين يدعون مالا يملك شيئا « والذين تدعون من دون الله مايملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم(٤) » ، كان البدء بنفى استواء هؤلاء الذين أعمى الله قلوبهم بمن هداهم الله إلى الإيمان ، كما لا يستوى ظلام الشرك ونور الإيمان . ثم كانت المغايرة فى المقابلة بين الجزاءين ، بتقديم الثواب المتمثل فى « الظل » ، على العقاب المدلول عليه بالحرور ، إيماء إلى أن الله تعالى يعجل الثواب ، ويؤجل العقاب ، على ماسبقت به كلمته ، وهى التى ختمت بها السورة « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم

---

(١) سورة المائدة آية ١٠٠
(٢) سورة الحشر آية ٢٠
(٣) سورة النساء آية ٩٥
(٤) سورة فاطر آية ١٣ - ١٤

إلى أجل مسمى(١) ، فقدم فى اللفظ ما هو معجل وأخر ما هو مؤجل ، واطرد ذلك فى تقديم الأحياء على الأموات ، لأن الحياة ثمرة الهداية ، وهى نوع من الثواب ، والموت المعبر به عن التمادى فى الكفر ضرب من العقاب ، لأنه تخلٍ من الله عن الكافر ، وحجب أنوار الهداية عن قلبه .

أما حينما يكون الحديث عن الصالحين ، وتعديد مناقبهم ، فإن نفى الاستواء يقدم فيه الأشرف ، ليتصل الثناء بالمثنى عليه ، ويكون ذكر مقابله زيادة فى إظهار فضله كما فى قوله تعالى : « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون(٢) . فكأنه قال : لا يستوى هؤلاء العابدون العالمون وأولئك الجاهلون الضالون .

---

(١) سورة فاطر آية ٤٥ (٢) سورة الزمر آية ٩

ترتيب الصفات

من الأدلة التى ساقها ابن الصائغ(١) على القصد إلى تحقيق التناسب فى الفواصل ؛ ومخالفة الأصول فى سبيل ذلك ، تقديم الأبلغ من الصفات ، على غير ماتقضى به قاعدة الترقى من تأخير الأبلغ ، ومثّل لذلك بقوله تعالى : « الرحمن الرحيم »(٢) وقوله « رءوف رحيم »(٣) .

وقد أطال المفسرون الوقوف لبيان الفرق بين الرحمن والرحيم ، وسر تقديم الرحمن ، وهم يكادون يجمعون على أنهما من أمثلة المبالغة فى الرحمة ، وأن صفة الرحمن أبلغ ، بحكم أنها أكثر مبنى فهى أغزر معنى ، ولذا خص الله تعالى نفسه بهذه الصفة حتى لا يصح أن يوصف بها أحد من خلقه ، بخلاف صفة الرحيم التى وصف بها رسوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »(٤) ووصف بها المؤمنين « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم »(٥) . لكنهم تغايرت آراؤهم فى سر تقديم الرحمن ، وأشهرها ماقاله الزمخشرى : (فإن قلت : لم قدم ماهو أبلغ من الوصفين على ماهو دونه ، والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى ، كقولهم : فلان عالم نحرير ، وشجاع باسل ، وجواد فياض ؟ قلت : لما قال الرحمن ، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها ، أردفه « الرحيم » كالتتمة والرديف ، ليتناول مادق منها ولطف)(٦) .

---

(١) انظر الاتقان ٢/١٠٠ .

(٢) سورة الفاتحة آية ٢ — (٣) سورة النور آية ٢٠ .

(٤) سورة التوبة آية ١١٧ — (٥) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٦) راجع الكشاف جـ ١/٤٥ .

(كان القياس تقديم أدنى الوصفين ، لأن فى تقديم أعلاهما ، ثم الإرداف بأدناهما نوعا من التكرار ، إذ يلزم من حصول الأبلغ حصول مادونه ، فذكره بعده غير مفيد)(١) لذلك كان عكس مايقضى به القياس بحاجة إلى البيان ، فخص الزمخشرى الرحمن بعظائم النعم وجلائلها ، والرحيم بما دق منها ولطف ، فكان ذكر الرحيم على سبيل التتميم حتى لا يتوهم أن محقرات الأمور لا تليق بذاته ، فيحتشم عنه من سؤالها)(٢) .

إلا أن تخصيص الرحمن بجلائل النعم ، والرحيم بدقائقها مما لا دليل عليه ، بل إن الله تعالى كثيرا مايذكر جلائل النعم وأصولها ، ويعقبها بصفة الرحيم وحدها ، فقد ذكر الله تعالى جليل نعمه على الإنسان فى مطلع سورة النحل ، وعدد منها خلق الملائكة ، والسموات والأرض . وخلق الإنسان ، وما سخره له فى الأرض من الأنعام والخيل والبغال والحمير ، وما أنزل من السماء من ماء أنبت به الزرع والنخيل والأعناب ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والفلك والبحار ، والجبال والأنهار ، ثم عقب ذلك كله بقوله « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم »(٣) .

ولا شك أن هذه نعم جليلة ، وتسخيرها للإنسان دليل على بالغ رحمة الله به ، ومع ذلك عللت بصفة « الرحيم » .

وهذا الدليل نفسه يرد به على ماحكاه الراغب فى المفردات : (وقيل إن الله هو رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة ، ذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين ، وفى الآخرة يختص بالمؤمنين)(٤) فتعقيب هذه النعم التى شملت الكافر والمؤمن بالرحيم يضعف هذا القول . وكما أن الله تعالى خص الرحمة بالمؤمنين فى قوله تعالى : هو الذى يصلى عليكم وملائكته

---

(١) الانصاف ٤٥/١ (٢) حاشية السيد الشريف ٤٥/١ .
(٣) سورة النحل آية ٢٨ (٤) المفردات ١٩٢ .

ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما »(١) فإنه عم بها الناس جميعا، فيما هيأه لهم من سبل العيش فى الدنيا « ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما »(٢).

خير ماقيل فى تعليل الجمع بين الوصفين بما يظهر بلاغة النظم الحكيم فى تقديم الرحمن ما قاله ابن القيم : (وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثانى للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثانى دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله « وكان بالمؤمنين رحيما » « إنه بهم رءوف رحيم » ولم يجىء قط رحمن بهم، فعلم أن « رحمن » هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكته لاتكاد تجدها فى كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم ينجل لك صورتها)(٣).

تأسيسا على ذلك قدمت صفة الذات على صفة الفعل، لأن صفة الفعل ناشئة عنها، فهى بمنزلة المسبب من السبب. ولعل ذلك هو الذى استلهمه الشيخ الطاهر بن عاشور فى قوله : (وتقديم الرحمن على الرحيم، لأن الصفة الدالة على الاتصاف الذاتى أولى بالتقديم فى التوصيف من الصفة الدالة على كثرة متعلقاتها)(٤).

أما تقديم الرءوف على الرحيم فى مثل قوله تعالى : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم »(٥) فقد ذهب كثير من المفسرين إلى أن تقديم الرءوف وهو الأبلغ،

---

(١) سورة الاحزاب آية ٤٣

(٢) سورة الاسراء آية ٦٦

(٣) بدائع الفوائد ٢٤/١

(٤) التحرير والتنوير ١٧٢/١

(٥) سورة البقرة آية ١٤٣

للمحافظة على تناسب رءوس الآى[1] ومنهم البيضاوى الذى رد عليه الشهاب بقوله : (هو بناء على تفسير الرأفة بأشد الرحمة ، وحينئذ المناسب رحيم رءوف ، وفيه نظر من وجهين : الأول أن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع ، كما هنا فى « رحيم وتعملون » فذلك حاصل على كل حال ، والثانى أن الرأفة حيث وردت فى القرآن قدمت ، ولو فى غير الفواصل ، كما فى قوله تعالى : « رأفة ورحمـــة ورهبانية ابتدعوها » فى وسط الآية . والذى غره كلام الجوهرى وهو عندى ليس بصواب ، فإن الرأفة معناها الشفقة واللطف ، والرحمة الإنعام ، وزتبتها التقديم ، كما قيل : الإيناس قبل الإبساس . وعليه استعمال العرب قال قيس بن الرقيات :

ملكه ملك رأفة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

وانظاره كيف أوضح معناها بالتقابل ، ومثله كثير فى كلام العرب)[2] .

لقد أحسن الشهاب كل الإحسان فى الوجه الثانى الذى رد به كلام البيضاوى ، لكننا لا نسلم له بالوجه الأول ، لأن الفواصل فى الآيات وإن لم تكن متحدة الروى ، فإنها متقاربة ، والميم والنون حرفان متقاربان ، وعليهما بنيت معظم فواصل القرآن ، وإستبدال الفاء بالميم يذهب بتوافق المقاطع وجمال موسيقاها .

يقول المرحوم مصطفى صادق الرافعى : (وما هـــذه الفواصل التى تنتهى بها آيات القرآن إلا صور تامة للأبعاد التى تنتهى بها جمل الموسيقى ، وهى متفقة مع آياتها فى قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت والوجه الذى يساق عليه بما ليس وراءه فى العجب مذهب ، وتراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم ، وهما الحرفان الطبيعيان فى الموسيقى نفسها)[3] .

---

(١) البحر المحيط ٤٢٧/١ ، والبيضاوى ٢٥٢/٢

(٢) حاشية الشهاب ٢٥٢/٢

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٢١٦

فالفواصل التى تنتهى بالميم والنون لها وقع موسيقى لايكون لحرفين آخرين سواهما إلا أن يتحد الروى ، فالقول بأن الفاء مع النون كالميم معها لايتفهم طبيعة الحرفين ، وعلى هـــذا التوافق الموسيقى بين النون والميم بنى القائلون بتأخير الرحيم للفواصل رأيهم : (وتقديم « رءوف » ليقع لفظ « رحيم » فاصلة ، فيكون أنسب لفواصل هـــذه السورة ، لابتناء فواصلها على حرف صحيح ممدود ، يعقبه حرف صحيح ساكن ، ووصف رءوف معتمد مع ساكنه على الهمز ، والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غـــير تام التمكن على اللسان ، وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا أشبه حروف اللين ، فلا يتمكن عليه سكون الوقف)(١) .

لكن ذلك لايعنى أننا نوافق على أن التقديم لمراعاة الفاصلة وحدها ، لأن مثل هذا يعاب على الساجع . يقول ابن سنان : (والمذهب الصحيح أن السجع محمود إذا وقع سهلا متيسرا بلا كلفة ولا مشقة ، وبحيث يظهر أنه لم يقصد فى نفسه ، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه ، ولا يكون الكلام الذى قبله إنما يتخيل لأصله ، وورد ليصير وصلة إليه)(٢) .

أفيعاب هذا على الناس فى سجعهم ونقول به فى النظم المعجز ؟ !

لقد أنكر الإمام محمد عبده القول بمراعاة الفواصل فى هذه الآية أشد الإنكار فقال : (إن كل كلمة فى القرآن موضوعة فى موضعها اللائق بها ، فليس فيه كلمة تقدمت ولا كلمة تأخرت لأجل الفاصلة ، لأن القول برعاية الفواصل إثبات للضرورة ، كما قالوا فى كثير من السجع والشعر : إنه قدم كذا ، وأخر كذا لأجل السجع ، ولأجل القافية ، والقرآن ليس بشعر ، ولا التزام فيه للسجع ، وهو الله الذى لاتعرض له الضرورة ، بل هو على

---

(١) التحرير والتنوير ٢/٢٦ (٢) سر الفصاحة ١٦٤

كل شيء قدير ، وهو العليم الحكيم الذى يضع كل شيء فى موضعه . ثم قال : (وعندى أن الرأفة أثر من آثار الرحمة ، تشمل دفع الألم والضر ، وتشمل الإحسان ، فذكر الرحمة هنا فيه معنى التعليل والسببية ، وهو من قبيل الدليل بعد الدعوى ، فهو واقع فى موقعه كما تحب البلاغة وترضى)(١) .

هذا كلام طيب وبمثله يجب أن ننظر إلى فواصل القرآن ، لكن صاحب المنار الذى أثبت هذا الكلام الممتع خالفه أحيانا ، ففسر التقديم والتأخير برعى الفواصل ، كما أشرنا إلى ذلك فى قوله تعالى : « رب هارون وموسى » .

ومما بدا فيه أن التقديم جرى على غير الأصل لمشاكلة رؤوس الآى ، تقديم السميع على العليم . يقول أبو حيان فى قوله تعالى : « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »(٢) ! مناسبة هاتين الصفتين أن كلا من الإيمان وضده مشتمل على أقوال وأفعال ، وعلى عقائد ينشأ عنها تلك الأقوال والأفعال ، فناسب أن يختتم ذلك بهما ، أى وهو السميع لأقوالكم ، العليم بنياتكم واعتقادكم ، ولما كانت الأقوال هى الظاهرة لنا ، الدالة على ما فى الباطن قدمت صفة السميع على العليم ، ولأن العليم فاصلة أيضا)(٣) .

فهو يشير بذلك إلى أن الترتيب الوجودى يقضى بتقديم صفة العليم ، لأنها إحاطة بالعقائد ، والسميع صفة يترتب عليها العلم بالأقوال الناشئة عن العقائد ، فحقها أن تقع بعدها ، لكن جاء النظم بعكس هذا الترتيب ، مراعاة لعلم المخاطبين ، الذين يستدلون بالظواهر على البواطن ، ولكون تأخير العليم يحقق تناسب الفواصل .

والمتتبع لورود هاتين الصفتين فى الكتاب المجيد ، لايخطئه أن يجد

---

(١) تفسير المنار ٢ / ١٣ (٢) سورة البقرة آية ١٣٧

(٣) البحر المحيط ١ / ٤١١

التذييل بهما فى موقعين متقابلين : أحدهما فى مجال التهديد والوعيد ، كما فى هذه الآية ، حيث يهدد أهل الكتاب بأن الله يتولى عن نبيه مراقبتهم ومجازاتهم بأعمالهم ، وكما فى قوله : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم(١) » وفيه طمأنة للمؤمنين بأن الله راد كيد أعدائهم إن هم أضمروا السوء فى دعوتهم إلى السلم ، يكشف أمرهم ويأخذهم بمكرهم. ومقام التهديد يستدعى تقديم السمع ، للإشعار بقربه من الأصوات وشدة مراقبة أصحابها ، وذلك ما كشف عنه السهيلى فى قوله : (فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب ، كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من يسمع حسك وخفى صوتك أقرب إليك فى العادة ممن يقال لك إنه يعلم ، وإن كان علم البارى سبحانه متعلقا بما ظهر وبطن ، وواقعا على ماقرب وشطن ، ولكن ذكر السمع أوقع فى باب التخويف من ذكر العليم ، فهو أولى بالتقديم(٢)) .

والثانى فى مجال التقرب إلى الله واستدرار عونه ورحمته : كما فى دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم(٣) » وقد قدمت فيه صفة السمع لأنها التى يترتب عليها إجابة الدعاء ، ولما كان الدعاء لا يقبل إلا إذا خرج من قلب صادق وعقيدة سليمة جاء الوصف بالعليم ، ليدل على اخلاصهما وصدق بواطنهما فى توجهها إلى الله تعالى ، حتى يكونا جديرين بتقبل الله تعالى لأعمالها .

هذا الذى استدعى تقدم السميع على العليم هو نفسه الذى استدعى تقدم الشاكر على العليم فى قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج

---

(١) سورة الأنفال آية ٦١

(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١

(٣) سورة البقرة آية ١٢٧ .

البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم[1]) .

وليس كما قال أبو حيان : (وقد وقعت الصفتان هنا الموقع الحسن لأن التطوع بالخير يتضمن الفعل والقصد ، فناسب ذكر الشكر باعتبار الفعل ، وذكر العلم باعتبار القصد ، وأخرت صفة العـــلم ، وإن كانت متقدمة على الشكر ، كما أن النية مقدمة على الفعل لتواخي رؤوس الآي[2]) .

والشكر من الله على ماقال الراغب : (إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقاموه من العبادة[3]) هذا الإنعام والإحسان استحقه المتطوعون بأعمال الخير ، فقرن الله تعالى حسن الجزاء بحسن العمل ، وكأنه قال : من تطوع خيراً فأحسن النية والعمل كافأه الله بأحسن مما عمل ، ثم جاء الوصف بالعليم ، بمثابة تأكيد على أن الله لا يضيع من أجورهم شيئا . لأنه العليم بما تبديه الجوارح وتخفيه الصدور ، فجاءت كل صفة فى مكانها ، وهذا مايتضح مما نقله صاحب الفتوحات الإلهية فى تفسير هاتين الصفتين وموقعهما من الآية . قال (معنى الشاكر فى حق الله تعالى المجازى على الطاعة بالثواب ، ففى التعبير به مبالغة فى الإحسان إلى العباد ، ومعلوم أن الشاكر فى اللغة هو المظهر للإنعام عليه ، وذلك فى حق الله تعالى محال ، وقوله « عليم به » أى بأحواله ، فلا ينقص من أجره شيئاً ، وهذا علة لجواب الشرط قائم مقامه ، فكأنه قال: ومن تطوع خيراً جازاه وأثابه فإن الله شاكر عليم[4]) فدل على أن صفة الشكر وقعت موقع الجزاء لتطوعهم بالخير ، فوجب أن تتقدم ، ولو عكس النظم لأوهم تقدُّمُ العليم التعريض بهم ، وأن الله يجازى منهم من علم حسن نيته وإخلاصه ، وليس ذلك بمراد .

إن من يتتبع ترتيب الصفات فى تذييل الآيات يرى عجبا ، ويوقن أن

(١) سورة البقرة آية ١٥٨
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٥٨
(٣) المفردات ٢٦٦
(٤) الفتوحات الإلهية ١/١٢٦

وراءها من أسرار الإعجاز مالا تحيط به الأقلام ، وتقصر عن إدراك كنهه الأفهام . فنى بحاجة إلى مداومة النظر والتذرع بالصبر للوقوف على بعض أسرارها وعدم الركون إلى اليـــأس ، والإسراع إلى القول بتناسب الفواصل .

فالقرآن يغير ترتيب الصفات فى مشتبه النظم الحكيم ، فيقدم إحدى صفتين فى موضع ، ويقدم الأخرى فى موضع آخر ، وكلتا الصفتين تحقق تناسب الفواصل تقدمت أو تأخرت ، مثل : العليم الحكيم ، فهما من روى واحد ، هو الميم المسبوقة بياء المد ، ولا تتغير الفاصلة بتغير ترتيبها ، وقد اجتمعت هاتان الصفتان فى القرآن ستا وثلاثين مرة ، تقدمت العليم فى ثلاثين منها ، وتقدمت « الحكيم » فى ستة مواضع ، وليس ثمة مجال للقول بمراعاة الفواصل .

وحين نتأمل كل موضع فى سياقه نجد من دواعى النظم ما يوجب تقدم المقدم ، وأى محاولة لعكس الترتيب إنما تذهب ببلاغة النظم وسر إعجازه .

ولنأخذ مثلا من مواضع تقدم العليم ، قوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم(١) » فهل يمكن والحديث كله فى سياق العلم الذى منحه الله تعالى آدم ، ورفع به قدره حتى تتبين الملائكة ماكان قد خفى عليها من سر استخلاف الله له ، وأمرهم بالسجود له ؟ هل يمكن أن يقدم الوصف بالحكيم فى مثل هذا السياق ؟ أو ليست الحكمة قد جاءت تسليما من الملائكة بأن الله تعالى كان بالغ الحكمة فى اختيار ماعلمه من صلاح الخليفة لما استخلف فيه ؟

وهذا قوله تعالى : « وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم(٢) » يربط الله فيه على قلب الرسول عليه

---

(١) سورة البقرة آية ٣٢ (٢) سورة الأنفال آية ٧١

السلام، ويطمئنه بأنه سيكون عينه التى تكشف له مايدبره أعداؤه من كيد ومكر، فهو المطلع على أسرارهم، العليم بما تكنه صدورهم، ويذكره بمصير الذين خانوا من قبل فمكنه الله تعالى من رقابهم، والخيانة من شأنها أن تحاط بالكتمان، والخائن يدبر أمره بليل، فكان تقديم صفة العليم التى لا يخفى بها على اته شىء، هى الأنسب بهذا السياق.

ثم انظر كيف تقدم الوصف بالعلم، حين انكشفت حقيقة رؤيا يوسف عليه السلام، وعلم ما كان خافيا منها فى قوله تعالى: «ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم(١)».

أما المواضع التى تقدم فيها وصف الحكيم، فإنها جميعا تدل على إطلاق مشيئته فى أفعاله، بما يخفى معه وجه الحكمة على خلقه، فكان تقديم ما يدل على وصفه بغاية الإحكام دعوة للعقل إلى تفويض الأمر لمن خلق فيما يتقاصر عن إدراكه، وتغيب عنه حكمته، ففيما أدركه دليل على مافاته.

فهذه منازل عباده قدرها متفاوتة، يرفع درجات من يشاء، ويخفض من يشاء، وهو الحكيم فيما يرفع ويخفض. «وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم(٢)»، تقدم وصف الحكيم، لأنه الأهم فى تعليل إطلاق مشيئته؛ وجاء العليم بمثابة التأكيد لإحكام أفعاله، لأنه يفعلها عن علم محيط بمن يرفع ومن يخفض.

وهذه إرادته المطلقة التى تحكمت فى الخلق إيجاداً وإعداماً، هداية وإضلالا، تتحكم فى جزاء الضالين يوم القيامة، فتعاقب بالتخليد فى النار من تشاء، وتقطع هذا العقاب عمن تشاء، وهى فى كل ذلك تحيطها حكمة الحكيم الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور: «ويوم يحشرهم جميعاً يامعشر الجن

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٠ (٢) سورة الأنعام آية ٨٣

قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثوا كم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم »(۱) .

فهل يمكن أن يقدم وصف العليم فى تعليل أفعال خفى فيها وجه الحكمة فى التمييز بين المتعاقبين ؟ إن العلم حين يأتى عقب الحكمة هنا يعيد إلى العقل رشده ، لتطمئن قلوب العباد إلى أن حكمته فى أفعاله وراءها علم بما خفى ودقّ من أحوال خلقه فهو الحكيم لأنه العليم ، هذا التعليل بالحكمة والعلم فيما شاء إخراجه من النار كان حريًا بأن يغنينا عن جدل طويل حول الاستثناء فى الآية ، ومن هم المستثنون ؟ ومن ماذا يستثنون ؟ مما يجب أن نفوض فيه الأمر للحكيم العليم .

وفى قصة رسل إبراهيم حين بشروه بإسحاق ، وجوابهم لامرأته حين تعجبت من أن تلد وهى عجوز عقيم ، مثل واضح لبلاغة النظم الكريم فى ترتيب الألفاظ وفقا لحركة النفس والعقل فى استقبالهما للمعانى وتصورها . قال تعالى : « وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم(۲) » .

لقد كانت دهشة سارة كما رصدها القرآن بالصوت والصورة ، فانطلق لسانها بما جاش فى صدرها ، وتملكها من الذهول والحيرة ، كانت استعظاما للحدث على ماجرت به العادة ، لا استعظامه على المحدث القدير ، فاكتفى الملائكة برد هذا الحدث العظيم إلى المحدث الأعظم « قالوا كذلك قال ربك » . وكأنهم أرادوا أن يفيقوها من دهشتها ، وينقلوها من عظمة الحدث إلى عظمة المحدث ، وهذا كاف لذهاب حيرتها وتعجبها . أما لماذا كان هذا بعد هذه السن وآفة العقم اللتين يستحيل بهما فى دنيا الناس أن يكون ما كان ، فذلك مقتضى الحكمة التى نفوض أمرها إلى الله فيما لا تطوله العقول . فالوصف

---

(۱) سورة الأنعام آية ۱۲۸ (۲) سورة الذاريات آيات ۲۸ - ۳۰

بالحكيم حين يتقدم فى هذا الموضع إنما يواكب حركة النفس والعقل فى تطلعهما إلى الإجابة عما يجول فى النفس، ويدور به الخاطر.

بمثل هذا الإحكام فى ترتيب الصفات ننظر إلى تقديم «الغفور» على «الرحيم» فى أكثر من سبعين موضعا من فواصل القرآن، حيث يجىء الوصف بالرحيم تعليلا لمغفرته التى وسعت ذنوب العباد جليلها ودقيقها، ووسعت ذواتهم، مؤمنهم وعاصيهم، فهو واسع المغفرة عظيمها، يستر ذنوب عباده، ويتجاوز عن خطاياهم، لأنه عظيم الرحمة بمن خلق، وهكذا جاء وصف الرحمة متأخراً أبدا إلا فى موضع واحد، هو قوله تعالى: «الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور(١)».

وفى البحث عن سر هذه المخالفة أسرع المفسرون إلى الفاصلة، يعلقون بها هذه المغايرة، حين عز عليهم وجود سبب غيرها، أو وجدوا سببا غير مقنع. يقول الشهاب: (قدم الرحمة لأنها منشأ المغفرة، أو للفاصلة(٢)) وكأن الشهاب أحس بضعف تعليله من المعنى، فلجأ إلى الفاصلة، لأن كون الرحمة منشأ المغفرة يتوارد عليه أن المغفرة قدمت فى جميع المواضع التى اقترنت فيها بالرحمة، عدا هذا الموضع، فلماذا لم تراع هذه النكتة فيها جميعا؟

أما تعليله بمراعاة الفاصلة، فينقضه مجىء الغفور متقدما فى موضع يتطلب تناسب الفواصل تأخيره، لأن الفاصلة قبله على روى الراء، بل إنها نفس الفاصلة التى سبقت آية سبأ، وهى قوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند

---

(١) سورة سبأ ١-٢ (٢) حاشية الشهاب ٩/١٨٧

الله أتقاكم إن الله عليم خبير قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم[1] » .

فالفاصلة التى سبقت « الرحيم » وهى « خبير » هى نفسها التى سبقت « الغفور » فى سبأ ، فلو كان التقديم للمشاكلة لقدمت هنا كما قدمت هناك .

أرى - والله أعلم بمراده - أن الغفور يتقدم فى كل موطن يهمس فيه السياق بوقوع المعاصى وكفران النعم ، والدعوة إلى التوبة والاستغفار من الذنوب ، فتكون المبادرة بالمغفرة لطمأنة المذنبين والخطائين إلى أن يد الله ممدودة إليهم ، تعفو عنهم وتستر خطاياهم ، لأنه رحيم بهم ، كما نجده فى مثل قوله تعالى : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم[2] » « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[3] » « قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم[4] » .

أما الآية التى تقدمت فيها الرحمة من سورة سبأ ، فهى فى سياق يعدد الله تعالى فيه نعمه على خلقه : المستوجبة للحمد والشكر عليها . فيذكر إحكام أمره وهيمنته على ما فى السموات والأرض ، إيجادا وإعداما ، إحياء وأماتة ، وتدبير أمر الكون وتسخير ما فيه للإنسان بما يودعه فى أرضه من أسباب النفع ، وأظهرها ما يتخلق فى بطنها من أجنة النبات ، فتخرجه حيا ناضراً ، يحيا به الإنسان والحيوان ، وما يمدها به من أسباب النماء منزلا بقدر من السماء . وغير ذلك مما أودع الله تعالى باطن الأرض ، سيظل العلم يكشف عن بعضها إلى أن يلقى الناس رب الناس . هذه النعم الجليلة مصدرها ودوام

---

(1) سورة الحجرات ١٣ - ١٤ (2) سورة آل عمران ٨٩
(3) سورة الزمر ٥٣ (4) سورة يوسف ٩٧ - ٩٨

بقائها رحمة الله الواسعة بخلقه مع مقابلتهم لها بالكفران والنسيان ، ولو أمسك الله تعالى واحداً من مظاهر رحمته وهو الماء الذى ينزله من السماء لما بق على ظهرها من دابة ، لهذا جعل الله تعالى الرياح التى تسوق الأمطار أثراً من آثار رحمته « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته[1] » .
فتقديم الرحمة هو الأنسب بهذا السياق ، حيث كانت سبب نعمه ، وهى بعد سبب فى تجاوزه عن أنعم عليهم إن هم قصروا فى شكره عليها .

وللسهيلى وجه فى هذا التقديم لا يبعد عن بلاغة النظم ، لأنه يجعل الترتيب ضربا من الترقى بذكر الخاص بعد العام . يقول (وأما قوله «وهو الرحيم الغفور » فى سبأ . فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة ، إما بالفضل والكمال ، وإما بالطبع ، لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان ، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم ، والعموم بالطبع قبل الخصوص[2]) .

ومما اتخذ دليلا على مراعاة الفاصلة فى الترتيب بين الصفات ، تقديم الرسول على النبى فى قوله عز وجل : « واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا[3] » .

وقوله : « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا[4] » .

يقول الشيخ عبد الرحمن تاج فى معرض تدليله على أن القرآن يقدم ويؤخر لتوخى التناسب بين الفواصل : (وذلك أن الرسالة أخص من النبوة ، والمعهود فى الكلام المرسل الذى يجمع بين عام وخاص أن يقدم الأول على الثانى ، لكنه قدم فى هاتين الآيتين الخاص على العام ، مراعاة

---

(١) سورة الأعراف ٥٧
(٢) نتائج الفكر ص ٢٧١
(٣) سورة مريم ٥١   (٤) سورة مريم ٥٤

لتناسب الفواصل مع اتحاد المعنى ، فإن السورة بنيت على فاصلة الياء المشددة التي بعدها ألف(١) » .

قبل أن نعرض لبيان السر فى تقديم الرسول على النبي نقدم الدليل على سقوط القول بمراعاة الفاصلة من قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل(٢) » ، وقوله فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي(٣)». وفيهما قدم الرسول على النبي فى غير الفواصل ، فالقول بأن تقديم الرسول للفاصلة فى قوله « وكان رسولا نبيا » يفتقر بداية إلى الدقة فى تتبع مواطن اجتماعهما فى الذكر الحكيم .

وحين نستنطق المعاجم بحثا عن معنى الرسول والنبي نجد الرسول فى اللغة (الذى يتابع أخبار الذى بعثه ، أخـــذا من قولهم : جاء الإبل رَسَلاً ، أى متتابعة(٤)) .

ويقول الراغب فى تفسير النبي : (النبوة سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم ، والنبي لكونه منبئا بما تسكن إليه العقول الذكية(٥)) واشتقاق النبي إما من النبأ بمعنى أنه المخبر عن الله تعالى ، أو من النبوة والنباءة بمعنى الارتفاع .

وبالمقارنة بين مدلولى اللفظين لغويا نجد الرسول يطلق على من يتحمل خبرا عمن أرسله إلى من أرسل إليه ، سواء كان المرسل هو الله أم غيره ، أما النبي فإن المخبر عن الله تعالى ، وهو بهذا أخص من الرسول . وعليه يكون تقديم الرسول على النبي ماضيا على الأصل فى الترقى من العـــام إلى الخاص ، وإذا كان اشتقاق النبي من النُّبُوة كان الوصف بالنبي بعد الرسول

---

(١) الشيخ عبد الرحمن وبحوث قرآنية ١١٩

(٢) سورة الأعراف آية ١٥٧ (٣) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٤) لسان العرب مادة : رسل .

(٥) المفردات ٤٨٢

مشير إلى علو منزلته بين الرسل ، على ما جاء فى وصف إدريس عليه السلام « ورفعناه مكانا عليا(١) » . وإلى هذين الوجهين أشار الشهاب فى شرحه لقول البيضاوى : « أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عنه » . قال الشهاب : (إشارة إلى أن الرسول بمعنى المرسل ، وقوله « أنبأهم أى أخبرهم » إشارة إلى أن النبي بمعنى المنبىء عن الله بالتوحيد والشرائع ، وأن أصله الهمزة فأبدلت فى النبي والنبوة ، ولو قيل هنا إنه من النَّبْوَة بدليل قوله « مكانا عليا » والمعنى : رفيع القدر على غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ليكون بمعنى آخر أخص كان أظهر .. ويحتمل أن يريد أن المراد بالرسول والنبي هما معناهما اللغوى ، وهو المرسل من الله ، والمنبىء عن الله ، وليس كل مرسل ينبىء ، لأنه قد يرسل بعطية ومكتوب ، فلذا قدم(٢)) .

وبالرغم من الاختلاف حول الوجه الذى كان به الرسول أخص ، فإنه حين يجمع بينهما يحمل كل منهما دلالته اللغوية ، فيكون فى الإرسال معنى حمل الرسالة وتبليغها ، ويكون فى النبوة معنى الخبر الصادق كما هو أصل النبأ على ما صرح به الراغب : (النبأ خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، وحق الخبر الذى يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب ، كالتواتر ، وخبر الله تعالى ، وخبر النبي عليه الصلاة والسلام(٣)) فكأنه قال : وكان مرسلا من الله مبلغا عنه بالخبر الصادق .

أما على تفسيرهما فى اصطلاح الشرع بما يدل على عموم النبوة وخصوص الرسالة ، لأن الرسول مأمور بالتبليغ ودعوة الخلق ، بخلاف النبي ، أو لأنه خص بكتاب أنزل معه ، فقد ذهب القرطبى إلى أن الرسول قدم اهتماما بمعنى الرسالة(٤) وهو وجه فى التقديم غير عزيز فى لسان العرب .

---

(١) سورة مريم آية ٥٧ (٢) حاشية الشهاب ٦ / ١٦٤

(٣) المفردات ٤٨١ (٤) القرطبى ٤ / ٣٤ ٢٧

وهذا مثل جلى فيما اجتمع من الصفات فى تذييل الآيات ، يغير القرآن فى ترتيبها بما يحقق تناسب المقاطع حتى يخيل إليك أنه من أجل هذا التناسب كان التغيير، فإذا تأملت السياق ومقتضياته، أيقنت أن المغايرة ما كانت إلا استجابة للمعانى والأغراض .

وصف الله ذاته بالعلى والكبير ، وكان الوصف « بالعلى » يتقدم فيقع « الكبير » فاصلة ، يتعانق رويها مع الفواصل ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخّر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير(١) » . وقوله : « ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو البـــاطل وأن الله هو العلى الكبير(٢) » ، وقوله : « قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير(٣) » .

وحين بنيت الفواصل فى سورة النساء على الألف الممدودة المنقلبة عن التنوين ، المسبوقة بياء المدّ جاء وصف « الكبير » متناغما مع هذا الإيقاع « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا(٤) » .

وفى سورة الرعد حيث كانت الفاصلة مبنية على حرف صحيح ساكن عند الوقف بعد مد بالألف غوير ترتيب الوصفين ، وغويرت الصيغة من العلى إلى « المتعال » ، فتناغمت مع الفواصل قبلها وبعدها « والله يعلم ما تحمل

---

(١) سورة لقمان آية ٢٩ - ٣٠ (٢) سورة الحج آية ٦١ - ٦٢
(٣) سورة سبأ آية ٢٢ - ٢٣ (٤) سورة النساء ٣٤ - ٣٥

كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال(١) » .

فاطراد تقدم العلى فى جميع المواضع عدا الموضع الأخير مع ملاءمته للفواصل ، والعدول عن هذا الترتيب فى آية الرعد وحدها ، وهو الذى تحقق به تناسب الفواصل يبدو كما لو كان القرآن يعمد إلى هـــذا التوافق الموسيقى ، ويغير من أجله .

فإذا عدنا إلى الآيات التى تقدم فيها العلى وجدناها فى سياق يبطل الشرك ويدحضه ويستهين فيه بالمشركين ومن أشركوهم معه . فكان تقديم الوصف الذى يظهر الاستعلاء على من اتخذوهم من دون الله أنداداً هو الأليق بهذا السياق على ماتقضى به قاعدة تقديم الأهم . الآية الوحيدة التى تقدم فيها « العلى » فى غير هذا السياق هى آية النساء ، وفيها يصف الله تعالى طرق العلاج لإصلاح النساء اللواتى يخرجن عن طاعة أزواجهن ، وحتى تكون هذه الطرق وسائل للعلاج ، لا أدوات لإذلال النساء والتعالى عليهن ، جاء قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليـــا كبيراً » فتجاوب تقديم العلى مع استعلاء الطغاة من الرجال إدلالا بقدرتهم ، وبغياً على من بأيديهم من النساء ، وتجاوب كذلك مع صريح دلالة حرف الاستعلاء فى قوله « فلا تبغوا عليهن » فالموضع للعلى أصالة ، وجاء « الكبير » تذكيرا لهذا المستعلى الباغى ، بقدرة الله ، الذى شرع هذه الوسائل من العلاج ، ولا يرضى بتجاوزها طغيانا وكبرا .

أما الموضع الذى عكس فيه الترتيب من سورة الرعد فقد جاء فى مقام الإدلال بكمال قدرة الله وتعاليه عما يصفه به المشركون ، بعد أن ساق الله من بداية السورة أمثلة لكمال قدرته . بدأها بقوله : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها(٢) » ، وعدد مظاهر خلقه فى السماء ، من الشمس والقمر ،

---

(١) سورة الرعد آية ٩ (٢) سورة الرعد آية ٢

وما ترتب عليها من تعاقب الليل والنهار ، وبسط الحديث عن مظاهر خلقه فى الأرض من الأنهار والجبال والثمار والزروع ، وأنهاها بخلقه للإنسان ، وعلمه بأحوال الأجنة وأطوارها ، وبما خفى ودق من أسرار الكون ، تخلل ذلك تهديد المشركين المنكرين للبعث المستخفين بعذاب الله ، المستعجلين له ، فجاء تقديم « الكبير » الدال على عظمة الخالق وكبريائه متجاوبا مع سياق يعدد مظاهر قدرته ، ثم أعقبه وصف « المتعال » بهذه الصفة الدالة على كمال العلو ، لأن التفاعل فيها للمبالغة كما قال الراغب(١) ، لتنزيه الله تعالى عما وصفوه به من اتخاذه الولد وغير ذلك مما يقدح فى كمال قدرته وعظيم شأنه ، وهو ما أشار إليه الطيبى فيما نقله الشهاب : (إن معنى الكبير المتعال بالنظر لما وقع بعده وهو « عالم الغيب والشهادة » : هو العظيم الشأن الذى يكبر عن صفات المخلوقين ، ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ماسبق من قوله « ماتحمل كل أنثى » إلخ مع إفادته التنزيه عما يزعم النصارى والمشركون(٢)) فإذا كانت صفة المتعال إلى دلالتها على كمال الرفعة تشير كذلك إلى تنزيه الله تعالى عما وصفه به أراذل خلقه ، فإن موقعها من النظم يكون بعد إثبات كمال عظمته وقدرته التى دل عليها وصف « الكبير » .

ومن روائع اجتماع الصفات ومخالفة ترتيبها فى فواصل القرآن بما يحقق التجانس فى اللفظ والمعنى قوله تعالى حكاية للحوار الذى دار بين ملك مصر ويوسف عليه السلام : « وقال الملك ائتونى به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم(٣) » .

قدم الملك مايفيد العلم على الأمانة ، وعكس يوسف عليه السلام الترتيب ، فقدم مايفيد الأمانة على العلم ، وتحقق بتقديم « حفيظ » فى كلام يوسف التقارب فى الفواصل بين النون والميم ، والاتفاق فى الردف وهو الياء .

---

(١) المفردات ٣٤٥ (٢) حاشية الشهاب ٥ /٢٢٣

(٣) سورة يوسف آية ٥٤ - ٥٥

وحين نبحث عن وجه دلالى لهذه المغايرة ، نرى أن الملك ضمن وصفه «مكين» - ومعناه : ذو مكانة ومنزلة - وصفه بالعلم ، لأن يوسف لم يصل إلى هذه المكانة إلا بما أظهره من العلم فى تأويله رؤيا الملك ، ورسمه خطة دقيقة للموازنة العامة فى سنى الجدب ، ليجنب الأمة أخطار المجاعة حتى تتخطى هذه الأزمة ، والعلم وحسن التخطيط هو المؤهل الأول لتولى مثل هذه الوزارة ، فقدمه الملك على الوصف بالأمانة ، لأنه الأهم فى فكر ملك حريص على الإفادة من علم يوسف فى ظروف حرجة تمر بها أمته ، ويقدح الوصف بالأمانة مبالغة فى حرصه على التمسك به ، وجدارته بهذا المنصب .

أما يوسف عليه السلام فقد كان تقديم مايدل على أمانته هو الأهم عنده ، لأنه بعد أن استشف من كلام الملك رغبته فى الاستعانة فى أمور الملك وهو على وشك أن يستوزره ، بادر بطلب وزارة الخزانة وهى وزارة تتعلق بالأموال العامة ، وطلبها بوجه خاص ربما يثير شبهة فى الإفادة منها ، فكانت مبادرته بتقديم وصف الحفيظ لدفع مثل هـــذا التوهم ، وتأكيد نزاهته ، والإشعار بأن ولاية الأموال تحتاج فى المقام الأول إلى ذمم نظيفة ، وضمائر حية تسبق حاجتها إلى الخبرة والعلم ، فصاحب اليد النظيفة إذا ماتولى الأمور المالية ، وكان قليل العلم ، أمكنه سد هذا النقص بالاستعانة بذوى الخبرة ، أما الخيانة فخطرها على الأمول العامة أشد من أخطار الجهل .

وذلك ماأراد يوسف عليه السلام بإشراقة النبوة أن يلفت إليه نظر ولاة الأمور فى اختيار عمالهم ، الذين يلون لهم أعمالا تتعلق بأموال الأمة .

أفيكون بعد ذلك من الإنصاف فى القول ، الزعم بأن الغرض من التقديم والتأخير مجرد رعاية الفواصل ؟ !!

تقـــديم القيود

ذكر سيبويه من تقديم الظرف للعناية قوله تعالى : « ولم يكن له كفوا أحد[1] » ثم قال : (وأهل الجفاء من العرب يقولون : ولم يكن كفوا له أحد[2]) فأومأ بذلك إلى أن الوقوع على أغراض التقديم بحاجة إلى رقة حس ، وصفاء طبع ، وأن إدراك المعانى اللطيفة المختبئة فى أكسيتها من الألفاظ ، ومواكبة حركتها فى مواقعها من النسق لا يتأتى لغير أصحاب الأذواق السليمة ، والأفهام الواعية ، لذلك كانت جفوة الطبع ، ونبوة الذوق سبب غياب سر التقديم عن جفاة الأعراب فى الآية الكريمة .

والمتأمل لنظم الآية واحتمالات التقديم والتأخير فيها يتبدّى له ثلاث صور متغايرة فى نسقها ودلالاتها ، أبلغها ما عليه النظم الحكيم .

الصورة الأولى : أن يأتى الترتيب على الأصل من تقديم الاسم على الخبر ، وتأخير الظرف عما تعلق به . فيقال : ولم يكن أحد كفوا له ، ويكون الغرض حينئذ نفى وجود المكافىء .

والثانية : يتقدم فيها الخبر وما تعلق به من الظرف على الاسم ، فيقال : ولم يكن كفوا له أحد ، كما كان الأعراب يقولون ، فيتسلط النفى على المكافأة والمساواة .

والثالثة : ما جاء به النظم الحكيم من تقديم الظرف على متعلقه ، وتقديمهما معا على الاسم ، وفيه يكون نفى المكافأة والمساواة منصبا على الذات

---

(١) سورة الإخلاص آية ٣ (٢) الكتاب ٥٦/١

المقدسة ، ليشعر من أول الأمر بأنه تعالى مما لا يتصور له مكافىء . وذلك ماقصد إليه النص القرآني ، وإلى ذلك أشار الزمخشري ، فقال : (هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف : فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه(١))

في عبارة الزمخشري هذه هدم لهذا التقسيم الذي جرى عليه المفسرون وأهل البيان منهم ، بجعل التقديم لأحد غرضين . التخصيص أو الاهتمام ، وكأن أحدهما نقيض الآخر ، فتقديم الظرف(٢) في الآية دال على التخصيص قطعا ، ومع ذلك يرى الزمخشري أنه أفاد الاهتمام ، لأنه مصب الغرض ومركزه في نفي المكافأة عن ذات الله خصوصا .

وقد سبق الدكتور أبو موسى إلى تجلية رأي الزمخشري في العلاقة بين الاهتمام والتخصيص حين رد على أبي حيان ، الذي ذهب إلى أن التقديم في قوله تعالى : « إياك نعبد » للاهتمام وليس للتخصيص الذي قال به الزمخشري: (على أننا لا نرى في كلام سيبويه ما يعارض كلام الزمخشري ، لأن سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم، وهذه العناية لا تعني أن الصورة لا تفيد التخصيص، لأنه لا منافاة بينهما ، ومن المقرر أن النكات لا تتزاحم وليس في كلام سيبويه مايرفض دلالة الاختصاص ، كما أنه ليس في كلام الزمخشري مايرفض دلالة العناية والاهتمام(٣)) .

بل إنني أذهب إلى أن الزمخشري كان صريحا في جعل التخصيص ضربا من الاهتمام في كثير من النصوص ومنها هذا النص الذي نقلناه عنه .

وحين يقول ابن الصائغ وأبو حيان إن الظرف تقـــدم في هذه الآية

---

(١) الكشاف ٤/٢٩٩

(٢) يطلق النحاة واللغويون اسم الظرف على مايشمل المجرور كما هنا .

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ص ٣٤٠ .

لتحقيق التناسب فى الفواصل فإن ذوبا من إعجاز النظم يتفلت من الأذواق .

كما أن الوقوف فى بيان الغرض من التقديم عند القول بالاختصاص، أو الاهتمام دون البحث عن سر هـذا الاهتمام والتخصيص قصور عن استكشاف أسرار النظم .

ولنضرب لذلك مثلا ما جاء في دعاء موسى عليه السلام « كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا(١) » قال أبو السعود : إن تقديم المجرور « بنا » على متعلقه « بصيرا » لمراعاة الفواصل(٢) ، وكأنه رأى أن التخصيص لا يتأتى فيه، لأن بصر الله تعالى لا يغيب عن شيء من خلقه، فلا يصح حصره فى المتكلم ، لكنك حين تنعم النظر ترى أن البصر الذى عناه موسى هو ما خصه الله به من العناية واللطف فى كل أطوار حياته ، منذ تعلقت إرادة الله بوجوده ، إلى الوقت الذى صدح فيه بهذا الدعاء ، كما هو صريح قوله تعالى امتنانا عليه : « ولتصنع على عينى » فكان التقديم وحده هو الذى يظهر إحساس موسى بفضل الله عليه وما خصه به من الفضل المستوجب لعظيم الشكر والذكر .

ومثله ما جاء فى قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين(٣) » فإن علم الله تعالى محيط بكل خلقه ، ولا سبيل إلى تخصيصه بخليله ، فإذا دققت النظر فى قوله تعالى « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » أدركت أن العلم الذى خص به إبراهيم عليه السلام مرتبط بمنحة النبوة ، وفيوضات الهدى التى غمر الله بها نبيه ، اختصاص بمؤهلات الرسالة ، وعلمٌ الله تعالى بصلاحية الرسل لتحملها وأدائها ، و« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ذلك ما نجد ظلاله فى قوله تعالى ممتنا على هذه الأمة بما يسره فى شريعتها ، وفتح أمام مذنبيها أبواب التوبة بالإقلاع عن الذنب واستغفار الرب « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

---

(١) سورة طه آية ٣٣ - ٣٥ (٢) تفسير أبى السعود ٦/ ١٠

(٣) سورة الأنبياء آية ٥١

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما(١) » حيث يبدو أن تقديم المجرور « بكم » على « رحيما » للمحافظة على السجع ، لأن رحمة الله تظلل كل الأحياء من خلقه ، فلا مجال لحصرها في هذه الأمة ، فإذا ما قرأت قوله « ولا تقتلوا أنفسكم » ووضعته بإزاء قوله تعالى خطابا لبني إسرائيل « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » موجبا عليهم قتل النفس المذنبة ، تحقيقا للتوبة أدركت سر تخصيص أمتنا بفيوضات رحمته حين جعل التوبة في الإقلاع عن الذنب ، والاستغفار منه ، وليس سوى التقديم مايشعر بجلال هذه الرحمة . فإذا أردت أن تصوغ ذلك في صورة قصر إضافي يقابل فيه بين يسر الشريعة في ديننا والكلفة والمشقة فيما أنزل على بني إسرائيل فقد وفيت حق الصناعة .

وتأمل معي كيف يشي تقديم اللفظ بما أسرته أخت موسى وبالغت في إخفائه وهي تقصه ، فيما حكاه الله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون(٢) » .

لم يستطع حذرها في قصه ، وفي عرضها على آل فرعون أن تدلهم على من يكفله ، لم يستطع إخفاء مشاعرها المتوهجة ، ولهفتها على أخيها ، فوشى لسانها بمكنون ضميرها ، حين قالت : « وهم له ناصحون » فأشعرت بتقديمها للمجرور ، وما يدل عليه من اختصاص نصحهم به ، أنهم أهله وذووه ، حتى شكوا في أمرها ، وقالوا لها ما حكاه ابن عباس رضي الله عنهما ! ومايدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه(٣) ؟

فلو أنها قالت: « وهم ناصحون له » لما كان هذا الشك ، لأن شأن المراضع من بني إسرائيل أن ينصحن لمن يرضعنه ، ابتغاء الحصول على الأجر ، وخاصة

---

(١) سورة النساء ٢٨ - ٢٩
(٢) سورة القصص ١١ - ١٢
(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٨٠

إذا كان الرضيع من بيت الملك ، أما أن يكون نصحهم خالصا له على ما أفاده التقديم فذلك ما أثار الشك ، مما جعل أخت موسى تتخلص من ذلك بجعل الضمير فى « له » للملك ، لا للطفل ، قائلة : (ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك ، فتخلصت منهم بهذا التأويل)(١) .

ونقرأ قوله تعالى : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا »(٢) فيروعنا تقديم المفعول على فعل القتل وتأخيره عن فعل الأسر ، مع أن الغرض هو تفصيل المفعول وتقسيمه مما يقتضى تمام التناسب فيه أن يقدم فى الجملتين ، مما دفع المفسرين إلى القول بأن التقديم لمراعاة الفاصلة .

وأرى — والله أعلم بما أراد - أن تقديم مفعول القتل ، وتأخير مفعول الأسر يلمح إلى أن هدف المؤمن الأول ، هو كسر شوكة عدوه ، والقضاء على كل وسائل مقاومته ، ولا يتحقق ذلك بغير القتل . أما الأسر فليس الغاية التى يتطلع إليها المقاتل المسلم ، خاصة بعد ذلك العتاب لنبي الله والمؤمنين فى غزوة بدر على افتدائهم الأسرى ، فكان تقديم الأول ، وتأخير الثانى إشعارا بالتفاوت بينهما فى غايات المؤمن وأهدافه . ثم إن هذه الآية نزلت فى بنى قريظة ، وقد حكم الله تعالى فيهم على لسان سعد بن معاذ بقتل الرجال وسبي العيال والذرية . فكأن الفريق المقتول هو الذى من أجله تحركت جموع المسلمين ، وللقضاء عليه تلاقت قلوبهم وأهدافهم .

أغراض التقديم فى القيود

قلت : إن القول بالتقديم فيها للتخصيص أو الاهتمام ليس كشفا عن الغرض ، ولا بيانا لسر التقديم ، فتخصيص الفعل وما فى حكمه بقيد من القيود لابد أن يسوق إليه غرض من أغراض النظم يحتاج إلى الكشف

---

(١) المحرر الوجيز ١٤٩/١٢ (٢) سورة الأحزاب آية ٢٦

عنه، كما أن الاهتمام بالقيد وتقديمه يتطلب بيان الدافع إلى هذا الاهتمام، ونحن حين نلتهى فى بيان وجه البلاغة من التقديم عند القول بالاهتمام، فإنما نرتد إلى عصر ماقبل عبد القاهر، ونكون ممن عناهم بقوله: (وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال: «إنه قدم للعناية، ولأن ذكره أهم» ولتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير فى نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبعه والنظر فيه ضربا من التكلف. ولم تر ظنا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه)(١).

هذا مالم يتنبه له كثير من المفسرين حين يكتفون فى تقديم القيود بالقول إنها قدمت للاهتمام أو للتخصيص. لذلك سوف نتناول بعض الأغراض من تقديم القيود سواء منها ما قيل فيه بالاهتمام وما قيل فيه بالاختصاص.

زيادة التفريع:

من ذلك ما أشار إليه الزمخشرى فى قوله تعالى: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون»(٢) فالظاهر أن الاهتداء بالنجم ليس وقفا على المخاطبين من العرب، كما أن النجم ليس وحده وسيلة الاهتداء، فتقديم المسند إليه، وتقديم القيد عليه مما لا يظهر وجه التخصيص فيه، فكان الزمخشرى سباقا إلى الكشف عن وجهه: (فإن قلت: قوله «وبالنجم هم يهتدون» مُخرج عن سنن الخطاب، مقدم فيه النجم، مقحم فيه «هم» كأنه قيل: وبالنجم خصوصا هؤلاء خصوصا يهتدون، فمن المراد بهم؟ قلت: كأنه أراد قريشا، كان لهم اهتداء بالنجوم فى مسايرهم، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم، فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار ألزم لخصصوا)(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٨
(٢) سورة النحل آية ١٦
(٣) الكشاف ٢ / ٤٠٥

التخصيص بتقديم النجم جار على سبيل التجوز ، بجعل كل ما عداه من وسائل الاهتداء فى حكم المهمل ، تعظيما لهذه الآية من آيات الله فى قوم من البدو كل وسائل علمهم ليلا تعتمد على النجوم ومطالعها ، وهم يقرون بأنها من خلق الله ، فجدير بهم أن يشكروا الخالق على نعمه العظيمة .

وفى قوله تعالى « إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد »(١) يقول الشهاب الخفاجى بيانا للغرض من تقديم الجار والمجرور « لربه » على متعلقه : (قدم للفاصلة ، لا للتخصيص)(٢) وكأنه يرد على قول الزمخشرى : (إنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ، لأن تفريطه فى شكر نعمة غير الله تفريط قريب ، لمقاربة النعمة ، لأن أجل ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عظماها فى جنب نعمة الله قليلة ضئيلة)(٣) كفران نعمة الله فى توجيه الزمخشرى هو الكفران ، وما دونه لا يعتد به ، لما أن نعم غير الله بجانب نعمه لا تستحق الذكر ، فهو قصر مجازى أريد به تعظيم الكفر بنعم الله ، والتشنيع على الجاحدين بها . فالتخصيص هنا شبيه به فى قوله تعالى : « إنما يخش الله من عباده العلماء »(٤) فى عدم الاعتداد بخشية من سواهم ، تعظيما لخشية العلماء .

والشهاب حين ينكر دلالة التقديم على القصر إنما ينكر القصر التحقيقى لا المجازى ، ولعله يرى أن مقام الذم يقتضى تعميم الجحود والنكران لنعم الله ونعم عباده ، إلا أن الزمخشرى كان أمس رحما ببلاغة النظم الحكيم لأن مقام التشنيع على جحود نعم الله تعالى لا ينهض به غير عدم الاعتداد بكل جحود سواه . وقد مضت الآيات مؤكدة على هذه الغاية ، فقدم المجرور فى الآيتين التاليتين : « على ذلك » « لحب الخير » حتى تكون شهادة

---

(١) سورة العاديات آية ٦ - ٨ (٢) حاشية الشهاب ٣٩٢/٨
(٣) الكشاف ٢٧٨/٤ (٤) سورة فاطر آية ٢٨

الإنسان بنفسه على جحوده هى الشهادة لغرابتها ، وكأن كل شهادة سواها ليست بشهادة ، وهو مايتلاءم مع صيغة المبالغة « شهيد » التى أوثرت على اسم الفاعل « شاهد » ، كما اعتبر القرآن حبه للمال هو الحب الذى يتوارى خلفه كل حب ، فكشف التقديم عن هذه الغريزة المتسلطة على طبع البخيل والتى تجعل حبه للمال يغلب حبه لنفسه .

فالتخصيص هنا مجازى استدعاه مقام تعظيم الكفران بنعم الله ، والشح بما أفاء الله على عبده ليكون أداة نفع للناس .

وهذا هو السر فى تقديم المجرور من قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون(١) » .

تقديم المجرور فى قوله « أفأنتم له منكرون » قصد به التشنيع على هؤلاء المشركين الذين خصوا الذكر المبارك ، المنزل على محمد عليه السلام بهذا الإنكار والجحود ، فى حين أنهم لم ينكروا مابين يدى أهل الكتاب من التوراة ، وكأنه يقول : ما أعجب أمركم أيها العرب ، وأنتم تقابلون بكل الإنكار ما أنزل الله على نبيكم ، ولا تنكرون ما أنزل من كتب على غيره من النبيين ، فلو أن ذلك الإنكار كان من أهل الكتاب لكان لهم عذرهم ، حسدا وخوفا على منزلتهم ، أما أنتم فإنكاركم لهذا الكتاب وحده أعجب العجب . ولعلك تشم رائحة التخصيص هذه جلية فى تقديم الحديث عما أنزل على موسى وقرنه بما أنزل على محمد ، فكان التقديم لما أنكروه ملمحا إلى أن منزل الكتابين هو الله ، والمنزل عليهما رسولان ، فكيف يخص بالإنكار ما أنزل على محمد ؟ وهذا من قبيل القصر الإضافى لزيادة التشنيع على المشركين وإبراز التناقض النفسى والفكرى .

ولا يخفى عليك جمال النسق فى الآيات حيث تتجاوب أطراف النظم ،

(١) سورة الأنبياء آية ٤٨ - ٥٠

فيأتى التقديم فى فاصلة الآية السابقة « وهم من الساعة مشفقون » مجسدا اشتغال المؤمنين بها ، ودوام ذكرهم لها . فهى ملء نفوسهم وقلوبهم، لا تغيب عنهم طرفة عين ، حتى لكأنهم لا يخشون سواها مما تمتلىء به أذهان الناس ويشغلهم عن الآخرة والعمل لها . فقل إن شئت هو قصر مجازى يقصر فيه الخوف على الساعة وأهوالها ، واعتبار كل خوف لسواها كلا خوف. وهذا مايذهب به القول بأن التقديم لتناسب الفواصل .

من زيادة التشنيع على غرار قوله « أفأنتم له منكرون » قوله عز وجل : « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون(١) » حيث قدم المجرور على الفعل « تفترون » لجعل افترائهم على غير الله تعالى عدما بالقياس إلى افترائهم على ربهم . يقول أبو السعود : (فأظهر الاسم الجليل ، وقدم على الفعل ، دلالة على كمال قبح افترائهم ، وتأكيدا للتبكيت إثر تأكيد ، مع مراعاة الفواصل(٢)) .

وهذا كلام جيد يجمع بين المضمون والشكل ، فيكشف عن الغرض المعنوى المتمثل فى إبراز كمال قبحهم حين يخصون الله بالافتراء ، ويضم إليه جمال التناسب فى المقاطع .

ومما تقدم فيه القيد لتفظيع الفعل والتشنيع على فاعله قوله تعالى : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون(٣) » فالسخرية أمر ممقوت فى ذاته ، وحين تكون السخرية بمن شأنه الإجلال والتوقير فإنها تكون أشد مقتا ، وتخصيصها بالمؤمنين الداعين إلى الخير ، الساعين فى استنقاذ المستهزىء من إهلاك نفسه وإلقائها فى النار أشد وأفظع ، فقد كان المجرمون الساخرون بالمؤمنين يلقون قرناءهم من المشركين بالتوقير والإكبار ، على مايلمح إليه التقديم الذى جاراه النظم الحكيم فى

(١) سورة يونس آية ٥٩ (٢) تفسير أبى السعود ٦/ ٧١
(٣) سورة المطففين ٢٩ - ٣٠

فى توعده للمستهزئين ، وتهديدهم بيوم يخصمهم فيه المؤمنون بالاستهزاء « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون » .

إنه القصاص العادل حين يسخر المؤمنون من هؤلاء الذين جعلوهم فى الدنيا مادة تفكههم ، ولما كان شأن المؤمن ألا يسخر من أحد فإن الله تعالى جعل سخريتهم خاصة بهؤلاء المجرمين جزاء وفاقا . وفى تقديم الحال « على الأرائك » إلماح إلى أن نظرهم نظر سعادة ورضا بما من الله تعالى عليهم .

ومما جاء التقديم فيه دالا على كمال القبح والتشنيع على من يعدلون بربهم مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون(١) » فأظهر فى مقام الإضمار ، وآثر وصف الرب بما يدل عليه من كمال الرحمة والرأفة ، وقدم على الفعل ليدل على شناعة ما ارتكبه الكافرون ، لما أن الشأن فى طبائع الناس وعاداتهم ألا يسووا بين أربابهم وغيرهم ، حتى قيل إن كل فتاة بأبيها معجبة ، فهى لا تعدل به سواه ، فكيف والله تعالى فوق ذلك هو الخالق الرحيم بخلقه ؟ ألا ترى كيف دل الإنكار بهذا التقديم منذ البداية أن الله تعالى خصوصا ما كان ينبغى أن يقرن به سواه ، وأن هذه المساواة وإن كانت فظيعة فى ذاتها فإن إيقاعها على ربهم خصوصا أفظع وأشنع ؟ حاول أن تقارن بين ما عليه النظم وبين أن تقول : ثم الذين كفروا يعدلون بربهم ، أترى أن تسليط الإنكار على الفعل يذهب إنكارا أشد حين يكون المعدول به خصوص ذات البارى . لعلنا لم نبعد كثيراً عما ذكره القاسمى . (ووضع الرب موضع ضميره تعالى لزيادة التشنيع والتقبيح والتقديم لمزيد الاهتمام ، والمسارعة إلى تحقيق مدار الإنكار والاستبعاد والمحافظة على الفواصل(٢)).

---

(١) سورة الانعام آية ١

(٢) محاسن التأويل ٢٢٣٩/٦

التشديد فى الوعيد :

من التقديم للتهديد وإدخال الروع فى قلوب المكذبين قوله تعالى : «خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه(١)» حيث قدم المفعول «الجحيم» وهى نار عظيمة ، ليكون أول ما يفجأ السمع ، ويثير الروع فى قلوب الطغاة والمستكبرين ، فاجتمع لهذا التقديم المبادرة بذكر ما هو أشد العــذاب لإدخال الروع فى القلوب ، وجعل تصليتهم فيها خاصة ، ليقطع عليهم الرجاء فى أن يخفف عنهم من عذابها فى منازل أخرى من النار .

ثم جاء المسلوك فيه وهو السلسلة ، مضيا مع هذه الغاية من التخويف والتهديد ، لأنها أشد وأقسى ماينكَّل به الكفار ، وكأنه يقول لهم لا تغلوه فى غير هذا النوع الفظيع من السلاسل . وذلك ما أشار إليه جار الله الزمخشرى : (ثم لا تصلوه إلا الجحيم ، وهى النار العظمى ، لأنه كان سلطانا يتعظم على الناس ، ... والمعنى فى تقديم السلسلة على السلك مثله فى تقديم الجحيم على التصلية ، أى لا تسلكوه إلا فى هذه السلسلة ، كأنها أفظع من سائر مواضع الإرهاق(٢)) .

هذا التخصيص الذى يملأ الجوانح رعبا لم يرتضه صاحب المثل السائر غرضا للتقديم ، وجعله متمحضا للفضيلة السجعية على حد تعبيره . يقول : (فإن تقديم الجحيم على التصلية ، وإن كان فيه تقديم المفعول على الفعل ، إلا أنه لم يكن هاهنا للاختصاص ، وإنما هو للفضيلة السجعية ، ولا مراء فى أن هذا النظم على هذه الصورة أحسن من أن لو قيل : خذوه فغلوه ، ثم صلوه الجحيم . فإن قلت : إنما قدم الجحيم للاختصاص ، لأنها نار عظيمة ، لو أخرت لجاز وقوع الفعل على غيرها ، كما يقال : ضربت زيدا ، وزيدا

(١) سورة الحاقة ٣٠ - ٣٢ (٢) الكشاف ج٣ ص ٤٠٤

ضربت ، وقد تقدم الكلام على ذلك . فالجواب عن ذلك أن الدرك الأسفل أعظم من الجحيم ، فكان ينبغى أن يخص بالذكر دون الجحيم على ماذهب إليه ، لأنه أعظم(١)) .

وقد كفانا صاحب الفلك الدائر عناء الرد عليه . فقال : (إن كان تقديم المعقول يقتضى الاختصاص كما قد قال قوم ، فلا مانع أن يكون الاختصاص مرادا فى قوله : « ثم الجحيم صلوه » لأن الجحيم والجاحم فى اللغة هو أشد النار . قال أبو تمام :

إن يعدُ من حرها عدو الظليم فقد
أوسعت جاحمها من كثرة الحطب

ولا منافاة بين أن يراد الاختصاص ، وتراد الفضيلة السجعية(٢) .

ومنه قوله تعالى : « إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم(٣) » وقد نبه فيه الزمخشرى إلى الغرض من التخصيص بالتقديم ، فدل بذلك على أن التخصيص وسيلة من وسائل تحقيق أغراض النظم ، وليس هو الغاية التى ينتهى عندها الباحث عن بلاغة الكلام (فإن قلت : مامعنى تقديم الظرف ؟ قلت : معناه التشديد فى الوعيد ، وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام(٤)). فقد رفع القرآن نذر الوعيد بهذا الحصر وما يبثه فى نفوس المنذرين من الفزع حين يعلمون أنهم لا يستطيعون الهروب من الله تعالى ولا يلوذون إلى ملجأ يحميهم من عقابه .

هذا التشديد فى الوعيد كثيراً ما يصاحب تقديم القيود فى النظم القرآنى ، وهو أكثر ما يكون فى تقديم المجرور على متعلقه ، كما فى قوله

---

(١) المثل السائر ٢/٢١٣
(٢) الفلك الدائر على المثل السائر ٤/٢٤٩
(٣) سورة الغاشية ٢٥ - ٢٦ (٤) الكشاف ٤/٢٤٨

تعالى : « أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير(١) » فدل تقديم « بهم » على هذه المراقبة الدائمة لمن كفر به ، تمهيداً لأخذه بسوء فعاله ، وكأن الله تعالى قد تفرغ لمراقبته وخصه بها دون خلقه ، وفى ذلك ما فيه من الوعيد الذى ترتعد له الفرائص ، وتنخلع له القلوب .

ومثله قوله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا(٢) » فكأن تقديم « بما تعملون» تعرية لهؤلاء الذين يدفعهم حب الدنيا والحرص على الغنائم ، إلى سفك دماء من أعلنوا الإسلام ، مدعين أن دافعهم إلى ذلك خشية أن يكون إلقاؤهم السلام خداعا ، كيف والله يحيط بسرائرهم وهم لا يغيبون عن عينه !! إن هذا التقديم ليقرع القلوب قبل الأسماع ، بما يثيره من الإيحاء باختصاصهم بمراقبته ، وكأنهم وحدهم أهل السوء من بين أهـــل الأرض جميعا ، فهى مراقبة الغاضب المترقب ، لا مراقبة الراضى المصاحب .

وعليه جاء قوله تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا(٣) » فكيف يظن المستخفى بخطاياه أن يفلت من العقاب والمؤاخذة ، والله تعالى معه يرقب سكناته وحركاته ، ويحص أعماله بهذه الإحاطة التى لا تغادر منها صغيرة ولا كبيرة ؟ ! إن التقديم للمجرور « بما يعملون » يتعاون مع الجملة الحالية « وهو معهم » ـ وهى معية مراقبة وتهديد لا معية مصاحبة وتأييد ـ فى نشر جو من الرعب وتوقع الانتقام ، يتلاءم مع مايوحى به التخصيص من

(١) سورة العاديات آية ٩ - ١١ (٢) سورة النساء آية ٩٤
(٣) سورة النساء ١٠٨

شدة المراقبة ، على معنى « سنفرغ لكم أيها الثقلان » وليس ذلك سوى تهديد بشدة الانتقام والتنكيل بمن لا يرعوى عن محادة الله وعصيانه .

التنبيه على خطر المقدم :

إذا أردت أن ترى كيف يسبغ القرآن على المقدم فى سياقه ما يبرز أهميته ، ويلفت النظر إلى عظيم أثره في حياة الناس ، مما يتوارى معه كل أثر سواه ، فهذا قوله تعالى فى حديثه عن خلق الأنعام وتسخيرها لمنفعة الإنسان: « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون[1] » . فجعلها وحدها قوام حياة الناس ، ومنها وحدها يقتاتون . وفى مقابله وفى مجال التنويه بشأن مايخرجه الله تعالى من نبات الأرض نجد قوله عز وجل : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون[2] » وفيه حصر ما يأكله الإنسان فيما تخرجه الأرض من زروع . فأنت ترى الأكل محصورا فى الأنعام فى موضع ، ثم تراه محصوراً فى الحب فى موضع آخر . فكيف تناول المفسرون سر التقديم فى الآيتين ؟

يقول البيضاوى فى تفسيره للآية الأولى : (وتقديم الظرف للمحافظة على رؤوس الآى ، أو لأن الأكل منها هو المعتـــاد المعتمد عليه فى المعاش[3]) .

ويقول فى الآية الثانية : (قدم الصلة للدلالة على أن الحب معظم مايؤكل ويعاش به[4]) .

وهكذا يجعل التقديم فى الآيتين مفيداً للتخصيص ، ويفسره تفسيراً واحداً ، يذهب فى كل منهما إلى أنه هو الأصل المعتمد عليه فى المعاش ، ولعل ابتداءه بالمحافظة على رؤوس الآى يوحى بميله إلى أنه الغرض الأصيل

---

(١) سورة النحل آية ٦ (٢) سورة يس آية ٣٣

(٣) تفسير البيضاوى ٣١٢/٥ (٤) السابق ٢٤٠/٧

فى التقديم . أما الدلالة على التخصيص فقد استمدها من الزمخشرى .

وبالرجوع إلى الكشاف نجده يذكر فى الآية الأولى وجهين فى تفسير القصر . الأول : قصر إضافى على سبيل التجوز ، بجعل الأكل من الأنعام فى مقابلة الأكل من الطيور والأسماك لعدم الاعتداد بها ، والثانى: يفسره بما يدل على القصر الحقيقى التحقيقى يقول: (فإن قلت تقديم الظرف فى قوله « ومنها تأكلون » مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها ، قلت الأكل منها هو الأصل الذى يعتمده الناس فى معايشهم. وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر ، فكغير المعتد به ، وكالجارى مجرى التفكه . ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر ، فالحب والثمار التى تأكلونها منها ، وتكتسبون بإكراء الإبل ، وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها(١)) .

وفى الآية الثانية يفسر التخصيص بما يدل على القصر الحقيقى على سبيل التجوز ، فيقول : (تقديم الظرف للدلالة على أن الحب هو الشىء الذى يتعلق به معظم العيش ، ويقوم بالارتزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر ، وإذا فُقِدَ جاء الهلاك ونزل البلاء(٢)) .

ليس فيما فسر به الزمخشرى الاختصاص فى الآيتين تناقض ، لأن السياق فى الآيتين كان يتطلب المبالغة فى عدم الاعتداد بما سوى المقدم تنبيها على على خطره وبالغ أثره فى حياة المخاطبين . فقد جاءت الآية الأولى فى سياق الحديث عما سخره الله تعالى من الحيوان لمنفعة الإنسان ، سواء منها ما يسد حاجته من الأكل وما ينتفع به فى التنقل ، فجاء حصر الأكل فى الأنعام كما جاء حصر الدفء فيها تنبيها على أهميتها البالغة وعظيم أثرها : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون

(١) الكشاف ٢/ ٤١٠

(٢) الكشاف ٣/ ٢٢ .

وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم(١) » .

أما الآية الثانية فقد جاءت فى معرض التدليل على قدرة الله تعالى فى الإحياء والإماتة ، وتوجيه نظر الإنسان المستبعد للإعادة بعد الموت ، إلى نموذج ماثل أمام عينيه يحيى فيه الله الأرض الميتة ، ويخرج منها ماتقوم عليه حياة الناس ، ولو أنها أمسكت ما فى بطنها من النبات لهلك هؤلاء المتكابرين جوعا ، ألا ترى إلى سياق الآيات ، كيف يربط الله فيه بين موت الإنسان وبعثه ، وبين موت الأرض وإحيائها « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون وإن كل لما جميع محضرون وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم أفلا يشكرون(٢) » .

إن هذا النموذج للإحياء بعد الموت الذى صدره الله تعالى بقوله : « وآية لهم » ليصل إلى كماله حين يتحول الميت إلى مرحلة من الحياة يكون فيها هو المصدر الأصيل لحياة الإنسان ، حتى ليعد ماسواه من مصادر معاشه فى حكم المعدوم الذى لا تتأثر به هذه الحياة هذا إلى أنه يمكن عده من القصر الحقيق التحقيقى ، إذا اعتبرنا أن الأنعام ثمرة هذا النبات لاعتمادها عليه فى غذائها . فلا يحقق هذا الغرض من الكشف عن كمال هذه النعمة وعظم أثرها المستوجب لشكر المنعم إلا هذا التقديم ، فإذا صاحبه جمال الإيقاع فى موسيقى الفواصل يكون قد اجتمع له الحسن من جميع أطرافه .

التقديم للترغيب :

مما تقدم فيه الظرف فى مجال الحث على العمل الصالح والترغيب فيه قوله

---

(١) سورة النحل ٦ - ٧ (٢) سورة يس ٣١ - ٣٥

تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم(١) » قدم الظارف « به » على صفة العلم ، تنبيها على أن الله يضع مايقدمه الإنسان لربه موضعا متميزاً يرقب معه نوايا المنفقين ، وطيب أنفسهم بما قدموا ، استثارة لطاقات الخير فى أنفسهم ، وحثـا لهم على تخير أطيب مالديهم ليضعوا فى يد الله من الصدقات ماهو أهل له ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

ولعل هذا هو السر أيضا فى تقديم المجرور من قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون(٢) » . لقد دار جدل طويل حول تقديم « مما رزقناهم » على فعله ، بين قائل بالتخصيص ، وآخر يقول بالاهتمام . وقد سبق أن قلت : إن التخصيص ضرب من الاهتمام وليس مقابلا له ، وهـذا ما يتضح من كلام الزمخشرى : (وقدم مفعول الفعل(٣) ، دلالة على كونه أهم ، كأنه قال : ويخصون بعض المال الحلال بالتصدق به(٤)) فالاختصاص دليل الاهتمام ، وليس مقابلا له فى نظر الزمخشرى ، وقد رفض كثير من المفسرين أن يكون التقديم دالا على الاختصاص ، معللين ذلك بأن كل ماينفقه العبد هو مما رزقه الله ، فلا مجال فيه للتخصيص ، واكتفوا بأن يكون الغرض هو مجرد الاعتناء بشأن المقدم . يقول صاحب التحرير والتنوير : (وتقديم المجرور المعمول على عامله وهو « ينفقون » لمجرد الاهتمام بالرزق فى عرف الناس ، فيكون فى التقديم إيذان بأنهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس ، كقوله تعـالى : « ويطعمون الطعام على حبـه » مع رعى فواصل الآيات على حرف النون(٥)) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٩٢ (٢) سورة البقرة آية ٣

(٣) يقصد الجار والمجرور لأنه مفعول فى المعنى .

(٤) الكشاف ١/١٣٢ (٥) التحرير والتنوير ١/٢٣٦

أرى أن التخصيص الذى قال به الزمخشرى لم يفهم على وجهه ، وأن الذين رفضوه لم يتبينوا مارمى إليه من الدعوة إلى تخير الطيب الأجود من هذا الرزق . فالزمخشرى من القائلين بأن الرزق هو المال الحــــلال ، على خلاف مايقول به أهل السنة من أنه لا رازق إلا الله ، فجميع ما بيد العبد حلالا أو حراما هو من رزق الله : يدل على ذلك قوله : (وإسناد الرزق إلى نفسه للإعلام بأنهم ينفقون الحلال الطلق الذى يستأهل أن يضاف إلى الله ويسمى رزقا(١)) .

وإذا كان مارزقهم الله هو حلالا طلقا فاختصاص بعضه للإنفاق منه ، ذاهب إلى أن هــــؤلاء المؤمنين يتخيرون أطيب ما بأيديهم وأجوده ، فيخصونه بالإنفاق ، حرصا منهم على نيل البر بالإنفاق مما يحبون ، وفى ذلك من الترغيب فى إنفاق الجيد مافيه .

التقديم للتعريض :

مما تقدم فيه المعمول للتعريض قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون(٢) » وهو وجه كان الزمخشرى أول من قال به لتصحيح مذهبه فى دلالة التقديم على التخصيص ، لأن تخصيص مؤمنى هذه الأمة بالإيمان بالآخرة ، يناقضه ماهو ثابت من أن أهل الكتاب يؤمنون بها كذلك ، فكان لابد من تفسير لإخراجهم من دائرة المؤمنين بالآخرة ، واختصاص المسلمين بهذا الايمان ، فكان جوابه : (وفى تقديم الآخرة ، وبناء « يوقنون » على « هم » تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأن قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأن اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك(٣)) .

---

(١) الكشاف ١/١٣٢ (٢) سورة البقرة آية ٤
(٣) الكشاف ١/١٣٧

العدول عن التعبير بالإيمان إلى الإيقان هو الذى أوحى إلى الزمخشرى بفكرته عن التعريض، فالإيمان : الثقة ، وإظهار الخضوع وقبول الشريعة(١) والإتقان :العلم بالشيء وتحققه(٢) فأهل الكتاب أظهروا الخضوع وعلموا بالآخرة ، ولكنهم لم يصلوا إلى مرحلة اليقين والتحقق مما علموه ، فكان إيمانهم على ألسنتهم أكثر مما هو فى قلوبهم ، فلو أن إيمانهم هذا كان عن قناعة وتحقق لهداهم إلى الإيمان برسل الله جميعاً، ولما فرقوا بين كتب الله ورسله .

لقد كان حس الزمخشري مرهفا ، وتسمعه لهمس الكلمات دقيقا ، وعينه بلمح إشارات السياق بصيرة . فقد وقع قبل هذه الفاصلة ما يوطىء لهذا التعريض بأهل الكتاب ، وهو قوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » فإن فيه رائحة تعريض بإيمان أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه ، فكان إيمانهم بالآخرة إيمانا مشوها يلتبس فيه الحق بالباطل ، فلم يعتدَّ القرآن بهذا الإيمان ، لأنه ليس يقينا . إنه قصر مجازى ينشر جواً من المبالغة فى عدم الاعتداد بإيمان لا ينجى صاحبه حتى يحيله عدما محضا .

إن هذا المعنى المتوهج يطفئه ماعلل به المفسرون التقديم من مثل قول أبى حيان : (وقدم المجرور اعتناء به ، ولتطابق الأواخر(٣) .

على غرار هذه الآية جاء قوله تعالى فيما أمر المؤمنين أن يقولوه رداً على قول أهل الكتاب : «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا(٤) » : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون(٥) »

---

(١) القاموس المحيط مادة أمن .

(٢) السابق مادة يقن .

(٣) البحر المحيط ١ / ٤٢

(٤) سورة البقرة آية ١٣٥

(٥) سورة البقرة ١٣٨ - ١٣٩

فقدم المؤمنون فى جوابهم المجرور « له » فى الفاصلتين ، إشعاراً بأن عبادتهم لربهم عبادة خالصة من شوائب الشرك ، وإخلاصهم لربهم لا تكدره عقائد فاسدة من مثل قول اليهود « عزيز ابن الله » وقول النصارى « المسيح ابن الله » فكان حصر عبادتهم وإخلاصهم فى ربهم تعريضا بأهل الكتاب الذين يخلطون عبادتهم ودعواهم الإخلاص بما يبطلها من أسباب الشرك .

ومن خفى مواقع التعريض ، وهو ما جعله ابن الصائغ دليلا على مخالفة الأصل(١) لتحقيق السجع ، قوله تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون(٢) » وقوله : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون(٣) » .

فتقدم المفعول « إياكم » فى سؤال الله تعالى من الآية الأولى ، و « إيانا » فى جواب الشركاء على فعل العبادة ، وكان الظاهر أن يقال : أهؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ وما كنتم تعبدوننا ، لأن نفى تخصيص العبادة لا ينفى أصلها ، واستنكار الله تعالى ، وكفرهم ، كان بالعبادة لا بتخصيصها . وهذا هو الذى دفع ابن الصائغ وغيره إلى جعل التقديم للفاصلة .

لكننا حين نقرأ جواب الملائكة : « بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » يظهر لنا سر التقديم وما صحبه من الاختصاص ، وهو أنهم لم يعبدوهم عن قناعة وفهم ، بل إنهم كانوا يستجيبون فى عبادتهم لأهوائهم وما توسوس لهم به شياطينهم ، فهو ضرب من التعريض بكذبهم فى دعواهم عبادة الملائكة ، وإنما كانوا يعبدون من أغووهم ، وهم مأمورون منهم بعبادة الملائكة ، خاضعون لسلطان شياطينهم ، فهم المعبودون بحق عندهم ، وهذا ما نبه إليه قول الزمخشرى : (إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم

---

(١) الإتقان ٩٩/٢ (٢) سورة سبأ آية ٤٠

(٣) سورة يونس آية ٢٨

أن تتخـــذوا لله أنداداً فأطعتموهم(١)) .

وإنك لتلمح في تقرير الله تعالى للملائكة والشركاء المعبودين من دونه نذر الغضب والانتقام، حين يعد هؤلاء الشركاء المعبودون عبادة المشركين لهم كلا عبادة، لأنهم انطلقوا فيها من شياطينهم وأهوائهم، فكيف يقبل الله تعالى عبادة رفض قبولها الملائكة والأصنام؟!! إنها صورة الشرك القبيحة الشائهة ترسمها الكلمات المعبرة عن معانيها بدقة في مواضعها من النظم الحكيم.

ومن التعريض بالمكذبين الذين أنكروا البعث، والنعي على عقولهم قوله تعالى: « فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر(٢) » لما كان المستبعد بالنسبة إلى المخاطبين هو إعادة الخلق لا بدؤه، لأن تكرار الخلق أمام أعينهم صيره عادة خفي معها عظيم الصنع لفتهم القرآن إلى النظر في مادة الخلق، وهي أبعد ما تكون عما استحالت إليه في صورة إنسان بديع الخلق، منبها إلى أن من شأنه أن يقتدر على هذا البدء هو على مادونه من الاعادة أقدر في حكم العقل، فكان تقديم « على رجعه » بما تضمنه من التخصيص نعيا على عقول المشركين المستبعدين للإعادة خصوصا، مع إقرارهم بأن الله هو الذي خلقهم، وفي ذلك من التعريض بعقولهم التي لم تدرك مثل هذه البدهيات التي لا تخفى على من لديه أدنى تعقل مافيه.

الدلالة على كمال الاستغراق:

قال تعالى في وصف أهل الجنة: « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة(٣) » تقدم المجرور « إلى ربها » ليدل على كمال اللذة في نظر المؤمنين إلى ربهم،

(١) الكشاف ٢/٢٣٥ (٢) سورة الطارق آية ٥ - ٨

(٣) سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٣

واستغراقهم فى أنواره، ورغبتهم عن التحول إلى سواه ، وهو ما تشيعه دلالة التخصيص من قصر نظرهم على ربهم، وهو لون من القصر المجازى الذى ينزل فيه النظر إلى غير الله من ألوان النعيم فى الجنة منزلة المعدوم بالقياس إلى جلال ربهم الذى يستغرق الأنظار فلا ترى مادونه ، إن أعظم ما يتمناه المؤمن فى الجنة هو أن يرى ربه ، فإذا ما أنعم الله عليه بذلك عد كل ما رآه ويراه غير شىء ؛ وانظر كيف يتعانق هذا التخصيص مع التعبير عن الله بلفظ الرب وما ينشره على النظم من معانى الرضا وجلال الأنس .

إن تعليل المفسرين للتخصيص هنا باعتبار تقييده بوقت النظر ، لا فى كل الأحوال(١)، لا يعدو أن يكون تعليل صناعة يقصد به تصحيح صورة القصر ، حتى لا يقال : إن المؤمنين ينظرون فى الجنة إلى أشياء كثيرة مما يسر العين ويمتعها ، فيجاب عليهم بأن هذا الحصر فى لحظات النظر إلى الله لا فى كل الأوقات وهو كما ترى يذهب بما كشفنا عنه من كمال الاستغراق فى ذات الله ، وبما فى القصر من التجوز بعدم الاعتداد بما سوى الله تعالى ، وذلك مما أجازه البلاغيون فيما يسمى بالقصر الادعائى .

والعجب مما قاله ابن الأثير وناقض فيه نفسه : (وقد استعمل تقديم الظرف فى القرآن كثيرا ، كقوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » أى تنظر إلى ربها دون غيره ، فتقديم الظرف هاهنا ليس للاختصاص وإنما هو كالذى أشرت إليه فى تقديم المفعول ، وأنه لم يقدم للاختصاص ، وإنما قدم من أجل نظم الكلام(٢)) فهو يفسر التقديم بما يدل على الاختصاص ، وعبارته : « أى تنظر إلى ربها دون غيره » قاطعة فى الدلالة عليه ، ثم يعود فينفى صراحة أن يكون التقديم للاختصاص ، وإنما هو للمحافظة على السجع ، وكأن القول بالتخصيص يناقض ما يهدف إليه النظم الحكيم من الجمع بين تناسب المعانى وتناسب الألفاظ .

---

(١) أنوار التنزيل ٢٨٣/٨ (٢) المثل السائر ٢١٧/٢ - ٢١٨

إن إعجاز القرآن يتجلى فى هـــذه المواءمة الدقيقة بين جمال الشكل والمضمون ، ليتحقق بها التناسب بين الفواصل، فى نفس الوقت الذى يتحقق فيه التناسب بين المعانى .

فإذا نظرت إلى جمال الموسيقى النابع من التوازن بين المقاطع وتوافقها فى الروى ، خلت أن القرآن عمد إليه وتوخاه ، وإذا تأملت المعانى والأغراض وجدت أنه أحكم نسق الألفاظ وفقا لثوابت المعانى وحركتها فى الأذهان ، فمن أى جانب نظرت وقعت على سر من أسرار الإعجاز .

المراجع

* الإتقان فى علوم القرآن ـ جلال الدين السيوطى
المكتبة الثقافية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٣ م .
* أثر القرآن فى تطور النقد العربى إلى آخر القرن الرابع الهجرى
د. محمد زغلول سلام ، دار المعارف ـ الطبعة الثانية ١٩٦١ م
* الإعجاز البلاغى ـ دراسة تحليلية لتراث أهل العلم ، د. محمد محمد
أبو موسى ـ نشر مكتبة وهبة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٤ م.
* الإعجاز البيانى للقرآن ، د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء .
دار المعارف ـ الطبعة الثانية ـ بغير تاريخ .
* إعجاز القرآن ـ أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى ت . السيد صقر
دار المعارف ١٩٦٣ م .
* إعجاز القرآن والبلاغة النبوية — مصطفى صادق الرافعى
دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان بغير تاريخ .
* الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ ناصر الدين ابن المنير
الإسكندرى ـ مصطفى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
* البحر المحيط ـ أبو حيان الأندلسى ، دار الفكر للطبع والنشر ـ الطبعة
الثانية ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣ م .
* بدائع الفوائد ـ ابن قيم الجوزية ، توزيع دار الفكر للطباعة والنشر
بغير تاريخ .

* البرهان فى علوم القرآن — الامام بدر الدين الزركشى ، ت محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت ١٩٨٨ م .
* البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د . محمد محمد أبو موسى - مكتبة وهبة - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ — ١٩٨٨ م .
* البيان القرآنى د . محمد رجب البيومى
مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م .
* التحرير والتنوير ، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور
الدار التونسية - للنشر بغير تاريخ .
* تفسير أبى السعود - القاضى أبو السعود محمد بن محمد العمادى - دار إحياء التراث العربى - بيروت - لبنان - بغير تاريخ .
* التفسير البيانى للقرآن الكريم - الجزء الثانى د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطىء - دار المعارف - الطبعة الثالثة - بغير تاريخ .
* تفسير البيضاوى بحاشية الشهاب - ناصر الدين بن عمر البيضاوى
دار صادر - بيروت بلا تاريخ .
* تفسير القرآن العظيم - الإمام ابن كثير الدمشقى - بلا تاريخ
نشر المكتبة التوفيقية - الحسين - القاهرة بلا تاريخ .
* تفسير الفخر الرازى - محمد الرازى فخر الدين
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنـــان - الطبعة الثالثة ١٩٨٥ م .
* تفسير القرطبى - أبوعبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى
دار الريان للتراث بلا تاريخ .
* تفسير المنار - السيد محمد رشيد رضا
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

* حاشية السيد الشريف على الكشاف ـ السيد الشريف الجرجانى
مصطفى البابى الحلبى — القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
* حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ـ شهاب الدين الخفاجى
دار صادر — بيروت — بلا تاريخ .
* درة التنزيل وغرة التأويل ـ الخطيب الإسكافى
دار الآفاق الحديثة — بيروت — بلا تاريخ .
* دلائل الإعجاز ـ الإمام عبدالقاهر الجرجانى ت محمود شاكر
نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة — بلا تاريخ .
* روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ـ شهاب الدين الألوسى البغدادى
دار إحياء التراث العربى — بيروت ١٤٠٥ هـ — ١٩٨٥ م .
* سر الفصاحة — ابن سنان الخفاجى — شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدى ، مكتبة ومطبعة محمد على صبيح ميدان الأزهر ـ القاهرة ١٩٦٩ م .
* الشيخ عبد الرحمن تاج وبحوث قرآنية ولغوية — جمعها : أبو بكر عبد الرازق — المكتب الثقافى للنشر والتوزيع — الطبعة الأولى ١٩٩٠ م .
* صور البديع — فن الأسجاع — على الجندى
دار الفكر العربى — القاهرة — بلا تاريخ .
* الفاصلة القرآنية — محمد الحسناوى
المكتب الاسلامى — بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٦ م
* الفتوحات الالهية — سليمان بن عمر الشهير بالجمل
مطبعة عيسى البابى الحلبى — بلا تاريخ .

* الفلك الدائر على المثل السائر — ابن أبي الحديد
مكتبة نهضة مصر — الفجالة بلا تاريخ .
* القاموس المحيط — مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى
ت مكتبة تحقيق التراث ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٨٧ م .
* الكتاب — سيبويه : أبو بشر عمرو بن عثمان
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .
* الكشاف — جار الله الزمخشرى
مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .
* لباب التأويل فى معانى التنزيل — الخازن
دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت — بلا تاريخ .
* لسان العرب — ابن منظور ت نخبة من العاملين بدار المعارف
— دار المعارف ، القاهرة — بلا تاريخ .
* المثل السائر — ضياء الدين ابن الأثير ت د . أحمد الحوفى ، وبدوى طبانة ، مكتبة نهضة مصر ، الفجالة — بلا تاريخ .
* محاسن التأويل — محمد جمال الدين القاسمى
دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ط ١ — ١٩٥٨ م .
* المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، ابن عطية الأندلسى
ت المجلس العلمى بفاس ١٣٩٤ — ١٩٧٤ م .
* مسائل الرازى وأجوبتها — محمد أبو بكر الرازى ، ت إبراهيم عطوة
مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى ط ١ ، ١٩٦١ م .
* معانى القرآن — أبو زكرياء الفراء — الجزء الثالث
ت . د . عبدالفتاح شلبى ، الأستاذ على الجندى ناصف - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ م .

* المفردات فى غريب القرآن - الراغب الأصفهانى ت . محمد سيد كيلانى
مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٦١ م .
* من بلاغة القرآن — أحمد أحمد بدوى
دار نهضة مصر للطباعة والنشر - الفجالة، بلا تاريخ .
* نتائج الفكر فى النحو — أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد السهيلى
ت د. محمد البنا - دار الرياض للنشر والتوزيع بلا تاريخ .
* نقد الشعر — أبو الفرج قدامة بن جعفر، ت د . عبد المنعم خفاجى
مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

الفهرس

تقـــديم القيود ص ٥٨ ـ ٨٠

القسم الثانى

قسم التاريخ

١ ـ ثورة الربض فى قرطبة
(٢٠٢هـ - ٨١٧م)

د . حسين يوسف دويدار

٢ ـ الحركة العلمية فى مصر وتأثيرها فى الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر

د. محمد على عتاق

٣ ـ « تحليل تاريخى »
(لخروج قتيبة بن مسلم على الخليفة سليمان بن عبد الملك)

د. السيد عبد الفتاح بلاط

ثورة الربض فى قرطبة

(٢٠٢هـ - ٨١٧م)

بقلم الدكتور
حسين يوسف دويدار
قسم التاريخ والحضارة

تولى الأمير الحكم بن هشام الأموى - الملقب بالمنتصر وبالربضى(١) -

---

(١) لقب الحكم بهذا اللقب واشتهر به نظرا لقضائه بقسوة بالغة على هذه الثورة التى قامت فى عهده سنة ٢٠٢هـ فى منطقة الربض ، وهى ضاحية من ضواحى قرطبة كانت تقع إلى الجنوب منها على الضفة الأخرى من نهر الوادى الكبير ، وكانت تتصل بها عن طريق القنطرة ، وكان هناك باب من أبواب سور قرطبة قريب منها يسمى بباب القنطرة نسبة إليها .

وكان يطلق على هذه المنطقة أحيانا (ربض شقندة) وهو مغرب من الاسم اللاتينى Secunda حيث كان مسكن العمال وأهل الأسواق فى عهد الرومان والقوط .

وقد كانت هذه المنطقة مزدحمة بالسكان من عناصر مختلفة وطبقات متعددة بعد الفتح الإسلامى من المولدين ، والمسالمة الإسبان ، والمستعربين Mozárabes أى الذين بقوا على ديانتهم من الإسبان ولكنهم استعربوا فى لغتهم وعاداتهم ، وكذلك صغار التجار والعمال والطلاب فضلا عن كثير من العلماء والفقهاء .

وقد كثرت السكنى فى هذا الحى بعد أن أعاد هشام بن عبد الرحمن الداخل جسر قرطبة مرة أخرى - وكان قد أنشىء منذ عهد الرومان ثم تهدم - وكان قريبا من جامع قرطبة الكبير ، وقصر الإمارة ، وسوق المدينة الرئيسى ، ودواوين =

مقاليد الأمور فى الأندلس ، بعد وفاة أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل فى صفر ١٨٠هـ / ٧٩٦م . وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، بعد أن عهد إليه أبوه بالإمارة من بعده دون أخيه الأكبر عبد الملك ، وذلك لما لمسه فيه من صفات تؤهله للحكم والقيادة .

وقد كان مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام حيث أخذ يشجعه ويحث على الأخذ به ، بعد أن كان مذهب الامام الأوزاعى(١) هو

الدولة التى كانت تقع عند باب السدة ، مما دفع الكثيرين إلى الإقامة فيه . أى أنه كان بمثابة حى شعبى مزدحم بالسكان إن صح التعبير . ولايزال هذا الحى معروف فى قرطبة إلى اليوم فى إسبانيا ويطلق عليه (ARRAPAL) أوحى الروح المقدس كما يسميه الإسبانى Barrio del Espiritu Santo .

ونظرا لأن الفقهاء كانوا هم المحرضين على هذه الثورة ، وهم الذين تولوا قيادتها فقد أطلق عليها البعض ثورة الفقهاء . (انظر : المراكشى : المعجب ص ٤٤ ، الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٤ هامش ١ ، عنان : دولة الإسلام فى الاندلس ص ٢٤٥ ، د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس جـ ٢ ص ٢٨١ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٧٧ ، د. أحمد الشعراوى : الامويون أمراء الاندلس الأول ص ٢٣٨ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى جـ٤ ص ٤٦ ، د. أحمد العبادى : (الإسلام فى أرض الاندلس) مجلة عالم الفكر ص ١٢٥) .

(١) ترجمة الإمام الاوزاعى : هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى ، نسبة إلى الاوزاع وهم بطن من ذى الكلاع من حمير ، وقيل نسبة إلى قرية تقع خارج باب الفراديس من دمشق سميت بذلك . وقد ولد فى بعلبك سنة ٨٨هـ وقيل سنة ٩٣ هـ ونشأ بالبقاع ، ثم رحل إلى الكرك ودمشق واليمن والحجاز والعراق ، ثم استقر به المقام فى بيروت حتى توفى بها فى صفر أو ربيع الاول سنة ١٥٧ هـ ، ودفن فى قرية قريبة منها تسمى (حنتوس) ، وكان كثير المناقب عرف بالزهد والورع وطول الصمت ، وكان يقول بالجمع بين العلم والعمل والعبادة . ومن مأثور أقواله فى ذلك (لايستقيم الايمان إلا بالقول ، ولا يستقيم القول إلا بالعمل ، ولا يستقيم الايمان والقول والعمل إلا بنية توافق السنة وقد

هو المعمول به قبل ذلك منـــذ بداية الفتح - نظرا لكثرة الداخلين إلى الأندلس من أهل الشام الذين كانوا عليه - وكان تلميذه صعصعة بن سلام الشامي فقيه قرطبة وصاحب الصلاة فيها (ت ١٩٢ هـ) قد عمل على نشره(١).

= بلغ القمة في الاجتهاد وإتباع السنة حتى صار من أصحاب المذاهب الفقهية. وقد أخذ عن عدد من التابعين كعطاء ، ومكحول، وقتادة ، وابن شهاب الزهري، ويحيى ابن كثير وغيرهم . (انظر زين الدين ابن الخطيب . محاسن المساعي في مناقب الامام الاوزاعي نشر شكيب أرسلان بيروت سنة ١٩٦٧ م ، شفيق طبارة : الإمام الأوزاعي بيروت سنة ١٩٦٥ م) .

(١) ذكر د. أحمد الشعراوي في كتابه (الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ١٨٥) أن أول من نقل مذهب الإمام الاوزاعي إلى الاندلس هو أسعد ابن عبد الرحمن السبتي قاضي غرناطة المتوفى سنة ١٥٠ هـ . ولم يذكر ابن الفرضي الذي اعتمد عليه د. الشعراوي — كما قال — في باب أسعد أو الاسعد شخصا بهذا الاسم (انظر تاريخ علماء الاندلس ص ٧٦) .

والحقيقة أن ابن الفرضي قد ذكر في باب أسد (ترجمة رقم ٢٣٩) أسد ابن عبد الرحمن ابن السبئي وقال عنه: من أهل إلبيرة روى عن مكحول والأوزاعي . ولي قضاء كورة إلبيرة في إمرة عبد الرحمن بن معاوية وكان حيا بعد سنة ١٥٠ هـ . (تاريخ علماء الأندلس ص ٧٤) .

وذكره الضبي : أسد بن عبد الرحمن السبأي (هكذا) وقال عنه : أندلسي روى عن مكحول بن سهراب الدمشقي مولى هذيل ، وعن عبد الرحمن بن عمرو الاوزاعي ، ولي قضاء إلبيرة في إمارة عبد الرحمن بن معاوية وكان حيا سنة ١٥٠ هـ . (بغية الملتمس ص ٣٣٩) ، كما ذكره الحميدي أيضا في جذوة المقتبس بنفس هذا الاسم (جذوة المقتبس ص ١٧٢) .

ويبدو أن هناك تحريفا وقع في الطبعة التي اعتمد عليها د. الشعراوي ، وأنه استنتج من ذلك أن أسد كان أول من أدخل مذهب الاوزاعي إلى الأندلس لمجرد روايته عنه بالرغم من عدم تصريح أحد من المؤرخين الاندلسيين أو أصحاب التراجم بذلك ، إذن فالأمر مجرد استنتاج بدون دليل أو شاهد، وهذا مالا يمكن =

ويرجع السبب في انتشار المذهب المالكي في الأندلس إلى عدة عوامل نوجزها فيما يلي :

١ — التنافس والصراع بين الدولتين العباسية والأموية بالأندلس ، ذلك الصراع الذي امتد من الناحية السياسية إلى الناحية المذهبية ، فكان العباسيون على مذهب الإمام أبي حنيفة إمام أهل العراق ، وكان الأمويون في الأندلس في البداية على مذهب الامام الأوزاعي إمام أهل الشام . ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك إمام أهل المدينة(١) .

٢ — عدم رضاء الإمام مالك عن سياسة العباسيين أحياناً في حين عبر عن رضائه عن سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل وحسن سيرته ، ويتجلى ذلك من قوله لزياد بن عبد الرحمن اللخمي - المعروف بشبطون ت ١٩٣هـ والذي رحل إلى المشرق بعدعام واحد من إمارة هشام وتتلمذ على الإمام مالك حين سأله عن سياسة هشام فأثنى عليه خيراً ، فقال الإمام مالك « ليت « ليت الله يزين موسمنا بمثله » أو « ليت الله أن يزين حرمنا بملككم »(٢) .

٣ — رحيل كثير من علماء الأندلس إلى المدينة وتتلمذهم على الإمام مالك ثم عودتهم ووصفهم سعة علمه ومكانته وفضله مما أذاع صيته بالأندلس وأدى إلى نشر مذهبه مثل : يحي بن يحي الليثي ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبي هند وزياد بن عبد الرحمن اللخمي ، وقرعوس بن العباس ، والغازي بن قيس ، ويحي بن مضر القيسي(٣) .

= القطع به في تقرير حكم تاريخي ، ولذا فإننا نسير على ما ذهب إليه معظم المؤرخين والباحثين من أن صعصعة هو ناشر هذا المذهب .

(١) د. العبادي . المجمل في تاريخ الاندلس ص ٨٩

(٢) انظر المقري ، نفح الطيب جـ ١ ص ٣٧٨ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣

(٣) انظر ترجمة : يحي الليثي رقم ١٥٥٦ في تاريخ علماء الاندلس ، ورقم ١٤٩٨ في بغية الملتمس ورقم ٩٠٩ في جذوة المقتبس ، وترجمة : عيسى بن دينار =

٤ — تشجيع هشام لهؤلاء العلماء بعد أن سمع منهم ثناء الإمام مالك عليه وسماحه لهم بتدريس مذهبه، وأمره للقضاة بالعمل بأحكامه .

٥ — ويضيف ابن خلدون سببا آخر — على طريقته فى فلسفة أحداث التاريخ — فيذكر أن البداوة كانت هى الغالبة على أهل المغرب والأندلس، وأنهم لم تكن لهم — فى البداية — حضارة أهل العراق فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة(١) .

ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب الإمام مالك يعتمد فى أحكامه غالبا على النصوص من الكتاب والسنة، ولا يعتمد على الرأى مثل مذهب أبى حنيفة إلا فى حالات الضرورة . وهذا أيضا مما يناسب البداوة .

= رقم ٩٧٥ فى تاريخ علماء الاندلس، ورقم ١٤٤١ فى بغية الملتمس، ورقم ٦٧٨ فى جذوة المقتبس، وترجمة: سعيد بن أبى هند رقم ٤٦٩ فى تاريخ علماء الاندلس، ورقم ٨٢٤ فى بغية الملتمس ، ورقم ٤٨٦ فى جذوة المقتبس ، وترجمة : زياد ابن عبد الرحمن (شبطون) رقم ٤٥٨ فى تاريخ علماء الأندلس ، ورقم ٧٥١ فى بغية الملتمس ، ورقم ٤٣٩ فى جذوة المقتبس ، وترجمة : قرعوس بن العباس رقم ١٠٨٤ فى تاريخ علماء الأندلس، ورقم ١٣١٢ فى بغية الملتمس ، ورقم ٧٨٠ فى جذوة المقتبس .

وترجمة : الغازى بن قيس رقم ١٠١٥ فى تاريخ علماء الأندلس، ورقم ١٢٧٢ فى بغية الملتمس ، ورقم ٧٤٨ فى جذوة المقتبس . وترجمة : يحى بن مضر القيسى رقم ١٥٥٣ فى تاريخ علماء الاندلس ، ورقم ١٤٨٩ فى بغية الملتمس ، ورقم ٩٠٣ فى جذوة المقتبس .

وسوف نلحظ الدور الكبير الذى قامت به هـذه الشخصيات من خلال استعراضنا لأحداث هذه الثورة .

(١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الاميرية سنة ١٣٢٠ هـ

٦ — أن مذهب الإمام مالك قد أخذ ينتشر فى بلاد المغرب بعد فتحها، خاصة على يد سحنون بن سعيد الذى تتلمذ عليه كثير من الأندلسيين. ولهذا كان طبيعيا أن يمتد هذا المذهب إلى الأندلس بحكم الجوار، وينتشر بها ويصبح بمثابة جزء من الشخصية القومية فيها مثل بلاد المغرب.

لهذه الأسباب وغيرها أخذ مذهب الإمام مالك فى الانتشار على يد هؤلاء الفقهاء الذين تتلمذوا على الإمام مالك، وأفادوا من صلاح هشام وتقواه، وتشجيعه لهم لنشر المذهب المالكى، وتقديره للعلماء واحترامهم فأخذوا فى توسيع دائرة نفوذهم وخاصة يحيى بن يحيى الليثى المصمودي الذى تصدر الفتوى، وأخذ يتدخل فى تعيين القضاة فى المناصب القضائية والسياسية كذلك(١) وبذلك أخذ نفوذهم يقوى و يشتد حتى سمى البعض عصر هشام بعصر نفوذ الفقهاء(٢).

فلما تولى الحكم بعد أبيه لم يكن — كما يبدو — مثله فيما اتصف به من صلاح وتقوى. حيث مال إلى الترف والنعيم والصيد والقنص فى حياته الخاصة، واشتهر بالعنف والشدة التى وصلت إلى حد القسوة فى أحيان كثيرة.

وقد اختلفت الآراء فيه مابين مادح وقادح فقد وصفه ابن حيان بأنه: «كان أفحل بنى أمية بالأندلس، وأشدهم إقداما وصرامة وأنفة وأبهة، إلى ماجمع لذلك من جودة الضبط، وحسن السياسة، وإيثار النصفة»(٣).

---

(١) اتخذ الأمير هشام من هؤلاء الفقهاء مجموعة استشارية، كانت بمثابة أهل شورى له. وكان كبيرهم يطلق عليه شيخ القضاة، وشيخ المسلمين ورئيس البلد، وكان يطلق عليهم اسم (الفقهاء المشاورون) (انظر: د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) د. أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٤٤

(٣) ابن سعيد: المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٩

وقال عنه ابن عذارى : «كان الحكم رحمه الله شديد الحزم ، خاضر العزم ، ذا صولة تتقى ، وكان حسن التدبير فى سلطانه ، وتولية أهل الفضل والعدل فى رعيته ، وكان مبسوط اليد ، وكان أقصد الناس إلى حق ، وأبعدهم عن جور وأنفذهم بحكم ، وكان يقول : ماتحلى الخلفاء بمثل العدل ، وكانت فيه بطالة إلا أنه كان شجاع النفس ، باسط الكف ، عظيم العفو . وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه فضلا عن ولده وخاصته ، وكان فصيحا بليغا، شاعرا مجيد إلخ(١) .

وهذه الأوصاف التى ذكرها ابن عذارى لاتدع زيادة لمستزيد ، فقد كال له المدح كيلا فى بعضها إن لم يكن فى كثير منها .

ويقول عنه المقرى : « هو أول من جند الأجناد ، واتخذ العدة ، وكان أجل بنى أمية بالأندلس ، وأشدهم إقداما ونجدة ، وكان يشبه بأبى جعفر المنصور فى شدة الملك وتوطيد الدولة ، وقهر الأعداء »(٢) .

كما ذكر ابن خلدون عنه « أنه أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة ، وجمع الأسلحة والعدد ، واستكثر من الحشم والخدم والحواشى ، وارتبط الخيل على بابه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم ، وبلغت عدتهم خمسة آلاف وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يقرب العلماء والفقهاء والصالحين ، وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس »(٣) .

أما ابن حزم فقد وصفه كما نقل المقرى « بأنه كان من المجاهرين بالمعاصى السافكين للدماء ، ولذلك قام عليه الفقهاء والصلحاء »(٤) .

واتهمه ابن الفرضى بمعاقرة الخمر والمنادمة على الشراب كما يتجلى من

---

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٨ (٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩

(٣) العبر ج ٤ ص ١٢٧ (٤) نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠

ذكرة لقصة العباس بن قرعوس متولى السوق وملخصها : أن سعيد الخير الكبير وكان من أقارب الحكم جلس يشرب معه ذات يوم فذكر له سعيد شرابا طيبا عنده فأمره أن يبعث بمن يأتى به ، فتصادف مجىء الرسول بالشراب مع خروج قرعوس بن العباس من المسجد وكان تقيا ورعا ، فأمر عماله بأخذه فقال له الرسول إن مولاى عند الأمير ، وقد بعثنى فى هذا الشراب ، فأمر بكسر الإناء وضرب الرسول فلما أخبر سعيد بذلك أخـــذ يقول : ذهب ملكنا وغلبنا على أمرنا ، فقال له الحكم مابالك فأخبره بما حدث ، فقال له : هذا قوة لملكنا ، ألا استتر رسولك »(١) .

كما وصفه الحميدى والضبي والمراكشى بأنه «كان طاغية مسرفا وله آثار سوء قبيحة »(٢) .

واتهمه ابن الأثير « بالمجاهرة بشرب الخمر والانهماك فى اللذات » ووصفه بأنه « تشبه بالجبابرة »(٣) .

والحقيقة التى لايكاد يختلف عليها اثنان أو يمارى فيها أحد أن الحكم كان شخصية قوية ذات حزم وعزم ومضاء وشدة وصلت إلى حد القسوة فى كثير من الأحيان كما يتجلى فى قضائه على ثورة أهل طليطلة التى راح ضحيتها فى مذبحة الخندق أو الحفرة نحو خمسة آلاف من أهلها . وفى قضائه على ثورة الربض وإحراقه لمساكن أهله وإخراجهم منها ، وحرثها وتحويل جزء منها إلى مقبرة عرفت بمقبرة الربض بعد قتله الكثيرين منهم .

ولذلك يسميها ابن الأبار (الوقعة الشنعاء) ويسمى يومها (يوم

---

(١) تاريخ علماء الاندلس ص ٣٧٢

(٢) جذوة المقتبس ص ١٢ ، بغية الملتمس ص ١٤ ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٤٤

(٣) الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٤٩ ، ١٨٨ ، ٣٧٨

الأربعاء النحسة)(١) وهذه القسوة هى التى جعلت البعض يصفه بسفك الدماء .

كما أنه كان على خلاف أبيه فيه ميل إلى الترف والنعيم والصيد والقنص حيث ذكر أنه « أول من جعل للملك بالأندلس أبهة واستكثر من الحشم والخدم والحواشى »(٢) مما جعل البعض يتهمه بشرب الخمر والمجاهرة بالمعاصى.

ونحن لانساير هؤلاء فى أمثال هذه الروايات ، ونعتقد أن الحكم كأمير أموى مسلم مهما بلغ فى ميله للترف واللهو فإنه لايصل إلى حـــد المجاهرة بالشراب والمعاصى .

بدليل ماذكره البعض من أنه كان يقرب الفقهاء والعلماء والصالحين وخاصة شبطون ومحمد بن بشير الذى عينه قاضيا وكان مشهورا بالعدل ، وسلطه على نفسه وخاصته وولده . وكان يتخير لأحكامه أورع من يقدر عليها وأقضاهم بالحق ، وكان يحب بناء المساجد وبلغ من حبه لذلك أمره لجواريه بإنشاء بعضها على نفقاتهن الخاصة(٣) .

ويظهر أن مراحل حياة الحكم لم تكن على وتيرة واحدة فمرحلة شبابه بعد ولايته للإمارة تختلف عن مرحلة شيخوخته قبل موته شأن الكثير من الناس . ومن هنا كان اختلاف المؤرخين فى الحكم عليه .

ومهما يكن من صفات الحكم فإن الذى لا مراء فيه أنه قد اتجه فى معاملته

---

(١) الحلة السيراء ج ١ ص ٤٤

(٢) انظر : المقرى نفح الطيب ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٠ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٧

(٣) انظر : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٨ ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٧٧

للفقهاء اتجاها مخالفا ، وسلك معهم مسلكا يغاير مسلك أبيه حيث أخذ يحد من نفوذهم ، ويكف أيديهم عن التدخل فى شئون إمارته ويسلبهم رويدا رويدا ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه من سلطان ونفوذ .

ومن ثم فقد حنق الكثيرون منهم عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الدينى والروحى فى تأليب الناس عليه ، وإثارتهم ضده .

مقدمات الثورة :

شهد عصر الحكم (١٨٠هـ — ٢٠٦هـ) عدة قلاقل واضطرابات عنيفة وخاصة فى بدايته ، ولم تكن ثورة الربض هى الثورة الوحيدة فى عصره بل كانت هناك ثورات أخرى منها :

١ — ثورة عميه سليمان وعبد الله : وكانا قد خرجا إلى المغرب فى عهد أبيه هشام فلما توفى أخوهما هشام قدما إلى الأندلس للمطالبة بحقهما فى الحكم واستطاع سليمان أن يجمع جيشا لمهاجمة قرطبة ، ولكن الحكم تمكن من هزيمته عدة مرات حتى قبض عليه فى النهاية بجهة ماردة ، وأمر بقتله سنة ١٨٤هـ وطيف برأسه فى قرطبة ثم دفن فيها ، وأما عبد الله فإنه بعد عودته من بلاد الفرنجة التى قصدها للاستعانة بشارلمان توجه إلى بلنسية وكسب تأييد أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم سنة ١٨٦ هـ بشرط عدم مغادرته لها حتى عرف بعبد الله البلنسى(١) .

٢ — ثورة البربر فى ماردة سنة ١٩٠ هـ : بقيادة أصبغ بن عبد الله ابن وانسوس التى استمرت سبعة أعوام ، حتى استطاع الحكم استمالة الكثيرين من أتباع أصبغ إلى جانبه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٦٩ - ٧٠ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٦١ - ١٦٢ .

وخرج من ماردة وأقام فى قرطبة(١) .

٣ — ثورة المولدين بطليطلة سنة ١٨١هـ : وكانت طليطلة مركزا للكثير من الفتن والثورات ضد الأمويين نظرا لحصانتها ، وكثرة المولدين والنصارى المعاهدين فيها ، وكان أهلها يستخفون كثيرا بولاتهم ، ويعتزون بكثرتهم وثرائهم وحصانة مدينتهم . وحاولوا كثيراً الخروج والانفصال عن سلطان قرطبة . وقاموا بهذه الثورة فى عهد الحكم الذى استطاع الإيقاع بهم عن طريق عمروس بن يوسف الذى ولاه طليطلة فأظهر أمامهم كراهيته للحكم حتى أنسوا إليه ، وأمنوا جانبه ، ثم أقام حفلا دعا إليه وجوههم وزعماءهم ، وأوقع بهم فى مذبحة كبيرة عرفت بمذبحة الحفرة أو الخندق وبلغ عدد القتلى خمسة آلاف وثلاثمائة رجل(٢) .

وبالرغم من خطورة هذه الثورات إلا أن ثورة الربض كانت أشد خطورة وكادت تكلف الحكم عرشه وحياته ، لأنها وقعت فى عاصمته ، وعلى مقربة من قصره وضمت طوائف عديدة من الشعب ، مما جعلها بمثابة ثورة شعبية بخلاف الثورات الأخرى التى قام بها طامعون فى الحكم ، أو زعماء سياسيون ، أو ثوار أرادوا الانفصال بأقاليم معينة عن جسم الدولة .

أسباب الثورة :

كان هشام والد الحكم يوقر فقهاء المالكية ويقربهم حتى أصبح لهم نفوذ كبير فى عهده حيث كان يرى - إلى جانب ميوله الدينية - أنه بحاجة إلى تأييدهم

(١) انظر عنها : د . محمد محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٧٨ - ٢٧٩ ، د . السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٨ ، وقد ذكر ابن عذارى أنهم كانوا سبعمائة فقط (البيان المغرب جـ ٢ ص ١٠٤) ، ويقدرهم ابن الأثير بخمسة آلاف (الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٩٩) .

باعتبارهم ذوى تأثير قوى على الجماهير حتى يضفى على إمارته الهيبةوالشرعية .

فلما تولى الحكم ـ وكان شابا فى السادسةوالعشرين من عمره شديد الاعتداد بنفسه ـ أراد ألا يتدخل أحد فى شؤون إمارته ، فبدأ يحد من نفوذ الفقهاء الذين كانوا قد بلغوا نفوذا ومنزلةومكانة عظيمة فى نفوس الناس لم يكونوا ليتنازلوا عنها بسهولة ، وعندما رأوا تصرفات الحكم أخذوا فى تحريض الناس وخاصته سكان الربض الذى يقيم فيه أكثرهم ، وقد استغلوا ميل الحكم للترف والنعيم وولعه بالصيد والقنص ، واتخاذه الخدم والجوارى ، واستكثاره من المماليك فأخذوا يعرضون به فى خطبهم ومجالسهم ،ويثيرون الناس ضده .

ومن أمثلة ذلك قولهم « يا أيها المسرف فى طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك »(١) .

ويذكر ابن سعيد نقلا عن ابن حيان:أن أهل الربض بلغ من استخفافهم بالحكم أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعلى صوامعهم (الصلاة الصلاة يامخمور) وأنهم تجرأوا عليه لدرجة أنهم كانوا يتعرضون له فى الطريق وينعتونه علنا بأقبح الأوصاف(٢) .

وهذا يدل على تطاول العامة والغوغاء على الحكم للحط من مكانته ، والانتقاص من سلطته وذلك بتحريض من الفقهاء(٣) .

---

(١) المراكش : المعجب ص ٤٤ ، د العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص٩٢ ، د. أحمد الشعراوى الامويون أمراء الاندلس الأول ص ٢٤٢ ، د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٤٣ .

(٣) د . محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ص ٢٨٢ .

ويشير ابن الأثير « أن الحكم كان كثير التشاغل باللهو والصيد والشرب وغير ذلك مما يجانسه ، وأنه كان فى صدر ولايته يتظاهر بشرب الخمر ، والانهماك فى اللذات ، وأن قرطبة كانت دار علم ، وبها فضلاء فى العلم والورع . فثاروا عليه وأنكروا فعله ورجموه بالحجارة وأرادوا قتله فامتنع منهم بمن معه من الجند »(١) .

وقد اعتقد الحكم بعد قضائه على الثورات السابقة أن القوة وحدها هى السبيل للمحافظة على الحكم فاستكثر من الجند المرتزقة وخاصة الصقالبة(٢) الذين كانت فيهم قسوة وغلظة ، ولايحسنون الكلام بالعربية فسموا بالخرس لعجمتهم واصطفاهم الحكم واتخذ منهم فرقة خاصة لحراسته ، وجعل زعيمهم ربيع قومسا (أى متولى المعاهدين من النصارى بالأندلس)، وأصبحت له حظوة كبيرة عنده وترك له الحرية فى فرض الضرائب والمغارم على الناس مما أدى إلى سخط واستنكار الكثيرين حيث يتولى ذلك نصرانى دون استشارة الفقهاء(٣) .

كما يشير ابن الأثير أيضا إلى أن الحكم قد وضع على الناس عشر الأطعمة فى كل سنة من غير حرص فكرهوا ذلك(٤) .

---

(١) الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٩٨ .

(٢) يذهب الكثيرون إلى أن اتخاذ الحكم للصقالبة كان سببا من أسباب الثورة نظرا لغلظتهم وجفائهم وتحرشهم بالناس فى قرطبة ، كما كان يصنع الأتراك فى بغداد على عهد المعتصم العباس . بينما يذهب د . العبادى : إلى أن ذلك كان نتيجة للثورة ، والواقع يؤكد خلاف ما ذهب إليه حيث كانوا موجودين قبل الثورة وكان أحدهم السبب المباشر لها كما سنرى ولكنه استكثر منهم بعدها .
(انظر المختار من عالم الفكر ص ١٢٥) .

(٣) ابن الخطيب أعمال الأعلام ص ١٥ .

(٤) الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٢٩٩ .

فإذا أضفنا إلى ماسبق قسوة الحكم فى الايقاع بأهل طليطلة ، وحروبه مع عميه سليمان وعبد الله ، وقتله أولهم وتحديد إقامة الثانى فى بلنسية ، ومحاولته إذلال بعض سراة قرطبة بأخذ أولادهم ليكونوا خدما وخصيانا فى قصره(١) . فإننا نجد أن كل ذلك قد أثار عليه موجات من السخط والغضب وخاصة من الفقهاء الذين أخذوا يشككون فى صلاحيته للإمارة ، ويدعون إلى عزله ، وكان لدعايتهم وتأثيرهم أثر كبير فى ذلك .

ومما زاد الطين بله أن الحكم كان شديد الاعتداد بنفسه لا يبالى بما يحدث . فقد حدث ذات يوم أن خرج للصيد ، ومعه حرسه وحاشيته ، وشق بموكبه سوق الربض — وكأنه يريد التحرش بهم واستثارتهم — فتعرض له أهل الربض بالقول ، وأخذوا يصفقون عليه بالأكف ، فأمر بالقبض على عشرة من زعمائهم فقتلهم وصلبهم ، مما أدى إلى ازدياد السخط والهياج وتحفز أهل الربض للوثوب والثورة(٢) .

المرحلة الأولى من الثورة (الهيج الأول سنة ١٨٩هـ) :

كانت الأسباب السابقة على وجه العموم هى التى جعلت أهل قرطبة عامة ، وسكان الربض خاصة يثورون على الحكم ويطالبون بخلعه ، ويدبرون خطة أو مؤامرة لذلك فى جمادى الثانية سنة ١٨٩هـ ، وهى المرحلة الأولى للثورة .

فقد اجتمع وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها وتوجهوا إلى محمد بن القاسم المروانى القرشى وأخذوا له البيعة ، وبينوا له أن الناس قد ارتضوه ليكون

---

(١) ابن حيان : المقتبس ص ١٥٦ تحقيق د . محمود مكى ، د . مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسى ص ١٠٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٩٩ ، د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٨ .

أميراً عليهم بدلا من الحكم، فطلب منهم أن يمهلوه ليلة ليرى رأيه، ولما انصرفوا من عنده ذهب إلى الحكم وأخبره بذلك، وأنه لازال على بيعته وولائه له، فطلب منه الحكم أن يأخذ أحد اتباعه معه إلى بيته ويخفيه فى قبة عنده حتى إذا حضر القوم عرفهم بأسمائهم، فلما حضروا عند محمد أبدى لهم مخاوفه وبين لهم أن الأمر ليس سهلا، وسألهم عن أسمائهم وأعدادهم فذكروا له جميع من معهم، وصاحب الحكم يكتب أسمائهم، ثم واعدهم محمد على اللقاء بهم يوم الجمعة فى المسجد الجامع بقرطبة لمبايعته، ثم ذهب إلى الحكم وأعطاه أسماءهم فأمر بالقبض عليهم ليلة الجمعة، ثم قتلوا وصلبوا عند قصره وكانوا اثنين وسبعين رجلا منهم: أبو زكريا يحي بن مضر القيسى وكان قدوة فى الدين والورع. وأخو يحي الليـــثى، وابن أبى كعب، وأبو كعب ابن عبد البر، وموسى بن سالم الخولانى وولده، وعماه مسلمة وأمية.

وهرب البعض الآخر وعلى رأسهم: يحي الليثى، وعيسى بن دينار، وطالوت بن عبد الجبار وكانوا من أعلام الفقهاء(١).

وقد أدى هذا الإجراء الدموى العنيف إلى إثارة المشاعر فى قرطبة وزاد من التوتر والكراهية «فتمكنت عداوة الناس للحكم» كما يقول ابن الأثير.

ومن ثم أخذت نذر المواجهة الساخنة تتجمع فى الأفق، وأخذ القلق يتسرب إلى نفس الحكم «فشرع فى تحصين قرطبة، وعمارة أسوارها وحفر خنادقها وارتبط الخيل على بابه، واستكثر المماليك، ورتب جمعا لايفارقون باب قصره بالسلاح»(٢).

---

(١) انظر ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٢ ص ٧١، المقرى: نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٩، ١٦١.

(٢) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٨٨ - ١٨٩.

وكان ذلك مما زاد من خشية أهل قرطبة وكراهيتهم للحكم حيث أيقنوا أنه يعد العدة للانتقام منهم . وأصبح الشعور العام السائد لديهم أن الحكم بعد هذه الأحداث الدموية وما سبقها لم يعــد يصلح للحكم كما صرح بذلك الفقهاء(١) .

ولم تمضي عدة أشهر على ذلك حتى اضطرمت فى قرطبة موجة من السخط والغضب المكتومين نتيجة لما صنعه الحكم ، فقام العامة بزعامة رجل منهم يسمى (ديل) بالثورة منتهزين فرصة خروج الحكم بنفسه للقضاء على الثورة فى ماردة .فلما علم بذلك عاد مسرعا إلى قرطبة ، وقبض على زعيم الفتنة وعدد كبير من أنصاره وقتلهم وصلبهم ، وسحق تمردهم دون رأفة(٢) .

المرحلة الثانية من الثورة (الهيج الثانى سنة ٢٠٢هـ) :

سكنت الحال فى قرطبة نحو ثلاثة عشر عاما سكونا طويلا على مضض خشية من شدة الحكم وبطشه ، وكانت مراحل الكراهية والغضب تفور أحيانا وتسكن أحيانا أخرى حتى انفجرت فى ناحية شقندة جنوبى قرطبة فى رمضان سنة ٢٠٢هـ ـــ مارس سنة ٨١٧م(٣) .

---

(١) د . أحمد الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٤٤ ، د . أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى جـ ٤ ص ٤٧ .

(٢) البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٢ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الأول ص ٢٣٣ .

(٣) يلاحظ أن الروايات تختلف فى تاريخ هذه الثورة اختلافا واضحا . فبينما تحدد معظم الروايات الأندلسية والمغربية تاريخها فى يوم الأربعاء ١٣ رمضان سنة ٢٠٢ هـ كابن الابار ، وابن عذارى وغيرهما ، يضع ابن الأثير هذه الثورة فى حوادث سنة ١٩٨ هـ . ويأخذ بعض المؤرخين المشارقة كالمقريزى وابن تغرى بردى وغيرهما برواية ابن الأثير فيذكرون أن قدوم الأندلسيين الذين نزحوا =

ويشير ابن عذارى إلى اختلاف الروايات فى سبب هذا الهيج (هذه الثورة) ولكنه لايذكر لنا سوى رواية واحدة تقول : « إن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر ، إذ لم تكن ثم ضرورة من إجحاف فى مال ، ولا انتهاك لحرمة ولا تعسف فى ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك . فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سخر ولا شىء يكون سببا لخروجهم على السلطان ، بل كان ذلك أشرا ، وبطرا وملالا العافية ، وطبعا جافيا ، وعقلا غبيا ، وسعيا فى هلاك أنفسهم أعاذنا الله من الضلال والخذلان ، وأسباب البوار والخسران »(١) .

ويبدو أن هذه الرواية هى لابن عذارى نفسه ويبدو فيها تعاطفه الشديد مع الحكم كما استبان من خلال وصفه السابق له والذى أفاض فيه ، فهو يحمل الثوار كل التبعة ، ويبرىء الحكم من أية تهمة .

وهى رواية تخالف واقع الأحداث والأحوال ، وتنكر كل ماذكره المؤرخون من فرض الحكم ضريبة العشر على الأطعمة كل عام وكراهية الناس ذلك . وتركه الحرية لربيع القومس لفرض الضرائب والمغارم ، وجبايتها هو واتباعه من الصقالبة بطرق قاسية .

= للإسكندرية كان فى سنة ١٩٩ هـ ، ويشيرون إلى اشتراكهم فى الفتن التى وقعت بمصر سنة ٢٠٠ ، ٢٠١ هـ فى عهد المأمون .

ويبدو أن الخلاف قد جاء نتيجة لوقوع هذه الثورة على مرحلتين متباعدتين كما ذكرنا سنة ١٨٩ .وسنة ٢٠٢ هـ وربما يكون هناك من فر من الأندلسيين عقب انكشاف المؤامرة ، وإن كانت المصادر الأندلسية لم تذكر لنا ذلك صراحة إلا أننا يمكن أن نستشف ذلك من خلال رواية المقريزى وابن تغرى بردى حيث ذكرا مشاركة الأندلسيين فى الفتن التى جرت بمصر سنة ٢٠٠ ، ٢٠١ هـ ولا يمكن أن يذكرا ذلك من فراغ .

(١) البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٦ .

كما أنها تناقض ما اشتهر به الحكم من شدة وقسوة تتجلى من خلال تلك الثورات التى قضى عليها، وما اشتهر به كذلك من ميل إلى الترف والصيد والقنص. مما أثار عليه سخط الكثيرين وخاصة الفقهاء الذين رأوا البون شاسعا بينه وبين أبية هشام. ولذلك يذكر ابن الأثير أن سبب هذه الثورة:

« أن الحكم كان كثير التشاغل باللهو والصيد والشرب، وغير ذلك مما يجانسه، وأنه قتل جماعة من أعيان قرطبة، فكرهه أهلها لذلك وصاروا يتعرضون له ولجنوده بالأذى والسب، وأنه وضع عليهم عشر الأطعمة كل سنة من غير حرص فكرهوا ذلك، وأنه عمد إلى عشرة من رؤسائهم فقتلهم وصلبهم فأدى ذاك إلى هياجهم (١).

وهكذا تجمعت عدة أسباب جعلت أهل الربض يقومون بالثورة على الحكم وتولى قيادتها الفقهاء. أما الشرارة التى أشعلت نيران الثورة.

وكانت السبب المباشر لها فكانت عبارة عن مشادة حدثت بين أحد مماليك الحكم من الصقالبة وبين صيقل (حداد) من أهل الربض ذهب إليه المملوك لصقل سيفه عنده فتباطأ مما أدى إلى وقوع مشاجرة بينهما ذهب ضحيتها الحداد.

وقد أثارت هذه الحادثة كوامن الغضب والحقد التى كانت مكبوتة فى نفوس الكثيرين ضد الحكم - وكأنهم كانوا ينتظرونها - خاصة وأنهم لم يتناسوا حادثة السوق التى أدت إلى الهيج الأول سنة ١٨١هـ. فقاموا على الجندى فقتلوه، وتجمعوا ثائرين متجهين إلى قصر الحكم لإظهار مدى احتجاجهم على ماحدث ومايحدث من جنده الصقالبة الذى امتلأت بهم قرطبة وأخذوا يستطيلون على أهلها فحاصروا القصر وحاولوا اقتحامه.

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

ويشير المؤرخون إلى أن الحكم لما وصلته هذه الأخبار لم يتأثر ولم يفقد أعصابه بل احتفظ برباطة جأشه، وأظهر ثباتا وتجلدا(١) .

فلبس ثيابه وصعد على سطح القصر وأخذ يرقب الموقف عن كثب حتى إذا وقع القتال بين الثائرين وبين جنده دعا خادمه (يزنت) ليأتيه بقارورة غالية فأفرغها على رأسه، ولما تعجب الخادم من تصرفه قائلا «وأية ساعة طيب هذه يامولاى فتستعمله، وأنت ترى مانحن فيه» فقال له: أسكت لا أم لك! من أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره إذا هو حزه، إن لم يفرق الطيب بينهما»(٢) .

ثم نزل من أعلى القصر، ولبس عدة الحرب: وأخذ يحرض أتباعه على القتال، وكان الثوار قاب قوسين أو أدنى من النصر، وكادت الهزيمة تحل بالحكم وجنده، عندئذ لجأ إلى الحيلة والدهاء فأمر ابن عمه عبيد الله ابن عبدالله البلنسى المعروف بصاحب الصوائف وإسحاق بن المنذر القرشى بفتح ثغرة فى السور والخروج منها بفرقة من الجند فى غفلة من الثوار

---

(١) يخالف الدكتور حسين مؤنس المؤرخين فى ذلك، فيذهب إلى أن ذلك لم يكن ثبات قلب ورباطة جأش، وإنما كان جمود قلب وبلادة إحساس ويعلل ذلك بأن هؤلاء الثائرين لم يكونوا طامعين فى ملكه - وكأنه لم يسمع بتلك المؤامرة التى دبرت لخلعه سنة ١٨٩ هـ وتوليه محمد بن القاسم - رغم أنه أشار إليها فى كتابه معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٨ - وأنه تصرف معهم تصرف خسيسا بإشعال النيران فى مساكنهم وتقتيلهم . والحقيقة أن أمثال هذه المواقف تحتاج إلى إظهار التجلد والصبر والثبات حتى لو كان هناك شعور داخلى بالخوف والرهبة لان الأمر ليس سهلا . وفى مرحلة الخطر ليس هناك مجال العاطفة، ودنيا السياسة تستبيح مالا تبيحه الاديان .

(٢) الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥ - ٤٦ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ١٣١ .

لإشعال النار فى حى الربض مما هدد بالخطر بيوتهم وأهليهم وممتلكاتهم.
ولما علم الثوار بما حدث سارع الكثيرون منهم لإنقاذ بيوتهم وأهليهم مما أدى إلى اضطراب صفوفهم، وانتشار الفوضى بينهم، وانتهز جند الحكم هذه الفرصة فانقضوا عليهم من كل جانب، وأعملوا فيهم السيوف فقتل من قتل وقبض على ثلاثمائة من وجوههم فقتلوا وصلبوا صفاً واحداً على ضفة النهر أمام قصر الحكم من المرج إلى المصارة.

وتمكن بعض الفقهاء من الفرار إلى طليطلة، واستمر القتل والنهب والحريق ثلاثة أيام حتى تجاوز عدد القتلى نحو عشرة آلاف(١).

واستشار الحكم عبد الكريم بن عبد الواحد بن عبد المغيث وكان مقربا منه فأشار عليه بالعفو عنهم، وأشار غيره بالقتل فأخذ برأى عبد الكريم وعفا عنهم، وأمر فنودى بالأمان لأهل الربض بشرط أن يرحلوا عن قرطبة فى مدة ثلاثة أيام، ومن وجد منهم بعد ذلك قتل وصلب. ويصف ابن الأثير هذا الموقف الشديد فيقول: «فخرج من بقى بعد ذلك منهم مستخفيا، وتحملوا على الصعب والذلول، خارجين من حضرة قرطبة بنسائهم وأولادهم وما خف من أموالهم، وقعدلهم الجند والفسقة بالمراصد ينهبون، ومن امتنع عليهم قتلوه»(٢).

ولم يكتف الحكم بذلك بل إنه أراد محو هذا الحى من الوجود فأمر بهدم ما بقى منه وحرثه وزراعته وقام على الهدم ربيع القومس عامل أهل الذمة وقائد الغلمان الخاصة من الصقالبة.

وتفرق سكان الربض فى جميع أرجاء الأندلس، ولجأ الكثير منهم إلى طليطلة لمخالفة أهلها للحكم(٣)، وشمال غرب الأندلس وأطراف الثغور.

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ ٢ ص ١١٤، ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٦. الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٤ - ٤٥

(٢) الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ٣٠٠

(٣) الحلة السيراء جـ ١ ص ٤٥

كما لجأ آخرون إلى شمال إفريقية فأقاموا فى فاس وغيرها من سواحل بلاد المغرب(١) .وذلك إستجابة لعرض الأمير إدريس الثانى العلوى حيث كان يريد سكانا لعاصمة دولته التى أسسها سنة ١٧٢هـ ، وكان كثير منهم يجيد الزراعة والكثير من الحرف والصناعات فاستفادت منهم العاصمة الإدريسية ، ونقلوا إليها الكثير من الحضارة الأندلسية فى ذلك الوقت ، مما جعل لها طابعا أندلسيا حتى أطلق عليها البعض اسم مدينة الأندلسيين(٢) .

كما نزل بعضهم بالمغرب الأقصى ويذكر البكرى : أنه كان يسكن أوزفور من أغمات بالمغرب الأقصى جماعة منهم يعرفون ببنى موسى تصارعوا مع من بجوارهم من البربر فحاربوهم وهزم الأندلسيون وتفرقوا فى بلاد أغمات وبنوا مدينة جزناية ، ولكن البربر أجلوهم عنها إلى وليلى(٣) .

أما القسم الأكبر من سكان الربض المبعدين ويقدر عددهم بنحو خمسة عشر ألفا(٤) فقد اتجهوا شرقا واستطاعوا أن يخرجوا

---

(١) يقدر البعض عدد هؤلاء بنحو ثمانية آلاف (انظر : الصراع بين العرب وأوربا ص ١٨٣) .

(٢) لازال هناك حى فى مدينة فاس إلى اليوم يطلق عليه حى الاندلسيين . وفى نفس الوقت أسس إدريس الثانى مدينة أخـــرى مقابلة لفاس سماها العالية وسكنها جماعة من أهل إفريقية من نواحى القيروان فسميت بمدينة القرويين ولا زالت إلى اليوم وبها الجامعة المشهورة بهذا الإسم .

(انظر د . أحمد الشعراوى : الامويون أمراء الاندلس ص ٢٤٨ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٢٤ ، معالم تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٧٩) .

(٣) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ص ١٥٥ .

(٤) اختلف المؤرخون فى عددهم فقدره الكثيرون بنحو خمسة عشر ألف (انظر الحلة السيراء جـ١ ص٤٥ ، د . محمد زيتون: المسلمون فى المغرب والاندلس =

فى نحو أربعين مركبا(١) حتى انتهوا إلى سواحل الأسكندرية فى بداية خلافة المأمون العباسى . وقد كانت مصر فى هذه الفترة تعانى حالة من الفوضى والاضطراب والفتن والثورات التى اشتعلت فى أماكن عديدة .

حيث سرت عدوى الفتنة بين الأمين والمأمون إلى مصر ، فكان هناك فريق يتعصب لهذا وفريق يتعصب لذاك ، كما كان هناك فريق ثالث أراد انتهاز هذه الفرصة للاستقلال بمصر عن الدولة العباسية مثل السرى بن الحكم وعبد العزيز الجروى الذى كان طامعا فى إمارة الفسطاط ، وكان قد سيطر على تنيس وشرق الدلتا ، كما سيطر السرى بن الحكم على الصعيد .

وسيطر بنو مدلج ولخم وجذام على غرب الدلتا إلى الإسكندرية .

واستغل الأندلسيون الجدد هذه الظروف وظلوا فى حالة شد وجذب مع هذه القوى حتى تمكنوا من السيطرة على الإسكندرية بعد تحالفهم مع طائفة الصوفية(٢) ـ بزعامة أبى عبد الرحمن الصوفى ـ ضد والى الاسكندرية

= ص ٢٨٣ ، د . السيد سالم : تاريخ الاسكندرية ص ١٣١) بينما ذكر اليعقوبى أنهم كانوا زهاء ثلاثة آلاف (تاريخ اليعقوبى ص ١٧٤ طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ) ، بينما ذكر بعض المعاصرين أنهم كانوا فى حدود أربعة آلاف على الأكثر على افتراض أن كل مركب مهما كبر حجمها تحمل مائة (د . السيد سالم : تاريخ الإسكندرية ص ١٣٤) ولكننا لا نوافق على هذا الافتراض لأن الأمر كان ضرورة ولم يجد هؤلاء فى المدة التى حددت لهم غير هذه المراكب الاربعين وعلى ذلك فإننا نفترض أيضا أن المركب قد شحنت بنحو أربعمائة خاصة وأن معظم المؤرخين قد ذهبوا إلى أنهم كانوا نحو ١٥ ألف .

(١) الولاة والقضاة ص ١٦٤ . ويذكر اليعقوبى أنهم قدموا فى أربعة آلاف مركب وهذا العدد بدون شك فيه مبالغة شديدة وربما كان خطئا (تاريخ اليعقوبى ص ١٧٤)

(٢) ظهرت هذه الطائفة بالإسكندرية حوالى سنة ٢٠٠ هـ وكانت تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتعارض السلطان ، وترمى إلى إصلاح حال المجتمع .

(انظر : الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٢) .

ابن هلال ثم تنازعوا مع اللخميين ، ومع بنى مدلج وهزموهم وتخلوا عن الصوفية وولوا عليهم رجلا منهم يسمى الكنانى ، وبذلك استطاعوا أن يقيموا إمارة مستقلة لهم بالاسكندرية ظلت نحو عشر سنوات منذ سنة ٢٠٢ ه .

وظل الأمر على ذلك حتى أرسل المأمون العباسى قائده عبد الله بن طاهر ابن الحسين لوضع حد للفتن والاضطرابات والفوضى فى مصر . ونجح فى إخضاع عبيد بن السرى وآلت إليه ولاية مصر سنة ٢١١ ه، ولما تم له ذلك سار إلى الأسكندرية وحاصرها نحو أسبوعين حتى طلب أهلها الأمان ، وعندئذ لم يجد الأندلسيون بدا من المصالحة فصالحهم ابن طاهر على الخروج إلى أى مكان آخر غير تابع للدولة العباسية . بشرط ألا يأخذوا فى مراكبهم أحدا من الأهالى ولا عبيدا آبقين(١) .

وعلى ذلك فقد أبحر الأندلسيون من الاسكندرية فى أوائل سنة ٢١٢ ه(٢)

---

(١) يذكر بن الأثير : أنهم سألوا عبد الله بن طاهر الأمان على أن يرتحلوا إلى بعض أطراف الروم التى ليست من بلاد الإسلام ، ، فأعطاهم الامان على ذلك فرجعوا إلى جزيرة إقريطش واستوطنوها (الكامل ج ٦ ص ٣٦٩) . بينما يذكر ابن الأبار أنه صالحهم على التخلى عن الإسكندية بمقابل مال بذله لهم وخيرهم فى النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى (الحلة السيراء ج ١ ص ٤٥) وهذه الرواية تدل على أنه كانت لهم معرفة سابقة بها ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى : من أنه فى سنة ٢١١ ه « بعث العرب على إقريطش عشر سفن أو عشرين عادت بكثير من الأسرى والغنائم » . ولكنه يخالف معظم المؤرخين حين يذكر أن الأندلسيين رحلوا عن الإسكندرية وصول قبل بن طاهر إليها خوفا منه وتوجهوا إلى هذه الجزيرة (النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٩٢) .

(٢) يذكر الطبرى وابن الأثير خروجهم من الإسكندرية فى حوادث سنة ٢١٠ ه .

بقيادة رجل منهم يسمى أبو حفص عمر بن شعيب البلوطى ويلقب بالغليظ أو ابن الغليظ(١) فى أربعين سفينة متجهين شمالا إلى جزيرة إقريطش (كريت) حيث نزلوا فى خليج سودا .

ويذكر البلاذرى : أنهم فتحوا منها حصنا واحدا فى البداية ونزلوا به ، ثم ظلوا يفتحون الباقى حتى دانت لهم الجزيرة كلها ولم يبق فيها أحد من الروم(٢) .

وقد أقاموا تحصينات قوية ، وحفروا خندقا كبيرا حول الحصن الذى نزلوا به وأصبح بمثابة عاصمة لهم عرفت بالخندق . وقد تطور هذا الاسم فى اللغات الأوربية من Chandax إلى Candia (كانديا) وهى نفس المدينة التى تعرف بذلك إلى اليوم(٣) .

ثم أخذ الأندلسيون بعد ذلك فى فتح بقية حصون ومدن الجزيرة حتى أتموا فتحها كلها بعد سنة ٢٢٠هـ كما ذكر ذلك الحميدى والضبى ، مستغلين فى ذلك حالة الضعف التى اعترت الدولة البيزنطية نتيجة لما استنزفته ثورة توماس الصقلبى من قواها(٤) .

---

(١) اختلف فى اسمه فقيل ، عمر بن شعيب . وقيل عمر بن عيسى ، وقيل عمر ابن شعيب بن عيسى وهو من قرية (بطروج) من أعمال فحص البلوط المجاور لقرطبة (بغية الملتمس ص ٤٠٧ ، جذوة المقتبس ص ٣٠١)

(٢) فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

(٣) وتسمى أيضا هراقليون Heraklion . انظر : د. حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٣٧ ، د. السيد سالم : تاريخ الإسكندرية ص ١٤٤ ، د. إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٨٥ . د. أحمد الشعراوى: الامويون أمراء الأندلس ص ٢٤٩ .

(٤) جذوة المقتبس ص ٣٠١ ، بغية الملتمس ص ٤٠٧ .

وقد كان من الطبيعي أن يستعين الأندلسيون في إقريطش بالدولة العباسية، ويدخلوا في طاعتها نكاية في الأمويين الذين أخرجوهم من الأندلس.

ولذلك فقد أصبحت هذه الجزيرة في التقسيم الإداري للدولة العباسية تابعة لولاية مصر(١).

ومما يدل على ذلك رسالة الأمير عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم الربضي التي بعث بها إلى الامبراطور الروماني (ثيوفيليس) يقول فيها «وأما ماذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي، ومن صار معه من أهل بلدنا (الأندلس) في خضوعهم لابن ماردة (يقصد المعتصم) ودخولهم في طاعته، وما سألت من النظر في أمرهم، والإنكار لفعلهم، فإنه لم ينزع إليه منهم إلا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم، وليسوا في بلدنا ولا برتبتنا فنغير عليهم، ونكفيك مؤونتهم. وإنما اضطروا إلى الدخول في طاعة بن ماردة لمأمنهم من بلاده، ودنو ناحيتهم من ناحيته»(٢).

وقد ظلت هذه الجزيرة تابعة لمصر زمن الطولونيين والأخشيديين، وكانت تمدها بالكثير من الأطعمة مثل عسل النحل والجبن الذي كان يسمى بلغة الفرنج (كنديا)(٣).

وقد أدى استيلاء الأندلسيين على هذه الجزيرة إلى تهديد مخططات البيزنطيين في شرق البحر المتوسط، ولذلك أخذوا في إرسال عدة حملات

---

(١) د. السيد سالم: تاريخ الإسكندرية ص ١٤٥، د. عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا ص ١٨٤.

(٢) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ١١٨.

(٣) نسبة إلى مدينة كنديا أو الخندق عاصمة الجزيرة (تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ١٤٦).

لإخراجهم منها . ومنها حملة أرسلت سنة ٢١٤هـ - ٨٢٨م - أى بعد سنتين من نزول الأندلسيين فيها - بقيادة (فوتينوس) أعظم أمراء البحر وقائد جيش الأناضول وكان مصيرها الهزيمة وفرار قائدها إلى القسطنطينية .

ثم جاءت حملة ثانية فى سبعين سفينة كبيرة بقيادة (كراتيروس) قائد أسطول آسيا الصغرى ، ونجحت هذه الحملة فى البداية فى المعركة التى دارت بينها وبين الأندلسيين على الشاطىء ، إلا أنهم عادوا ليلا وباغتوا الأسطول البيزنطى ، وحاول قائده الهرب ولكنهم قبضوا عليه وقتلوه قبل فراره .

وخلال إقامة الأندلسيين فى هذه الجزيرة لم تنقطع الحروب بينهم وبين البيزنطيين حيث استطاعوا تدمير أسطول بيزنطى سنة ٢٢٦هـ - ٨٣٩م قرب جزيرة تاسوس(١) .

ولأنهم كانوا على اتصال وثيق بمصر فقد حاول البيزنطيون الانتقام بمهاجمة دمياط سنة ٢٣٩هـ - ٨٥٣م فى ولاية عنبسة بن إسحاق على عهد الخليفة المتوكل العباسى ، وكذلك فى ولاية يزيد بن عبد الله سنة ٢٤٥هـ - ٨٥٩م واستطاعوا الاستيلاء على أسلحة كانت معدة لإرسالها إلى الأندلسيين فى كريت(٢) .

وقد أخذ الأندلسيون فى الاستيلاء على بعض جزر بحر إيجه ، ومهاجمة سواحل آسيا الصغرى نفسها سنة ٨٤١م ، وانتقلوا بذلك من وضع الدفاع إلى الهجوم ووصلت سفنهم حتى بحر مرمرة سنة ٢٨٩هـ . وهاجموا مدينة سالونيكا نفسها وأسروا كثيرا من أهلها ، وكانت معظم هذه الحملات بقيادة أبى حفص البلوطى الذى تشير إليه المصادر الأوربية باسم Abo Capso .

---

(١) الصراع بين العرب وأوربا ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٢) د . إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٨٦ د . على الخربوطلى : العرب فى أوربا ص ٥٤ .

ولذلك فإن البيزنطيين أعدوا حمله كبيرة فى عهد ميخائيل الثالث سنة ٨٤٣م لتصفية الوجود الأندلسى فى جزيرة إقريطش (كريت)

وتمكنت هذه الحملة من محاصرة العاصمة ، غير أن قائد الأندلسيين أشاع بين الجنود الرومان أن أم الامبراطور قد عينت أحد منافسى قائد الحملة المدعو (ثيوكيستوس) فى مجلس الوصاية بدلا منه فلما وصلته هذه الشائعة سارع بالعودة إلى القسطنطينية تاركا جيشه الذى منى بالهزيمة(١) .

كما فشل أسطول آخر أرسله الإمبراطور (رومانوس لوكابنوس) لمهاجمة الجزيرة سنة ٣٢٨هـ - ٩٤١م . وهكذا باءت محاولات البيزنطيين بالفشل ، واستمر حكم الأندلسيين لهذه الجزيرة بزعامة أسرة أبى حفص البلوطى حتى سنة ٣٥٠هـ - ٩٦١م أى نحو مائة وخمس وثلاثين سنة(٢) ظلت خلالها الإمبراطورية البيزنطية عاجزة عن استرداد هذه الجزيرة التى أصبحت بفضل نشاط أسطولها قاعدة بحرية هامة للمسلمين حتى اضطر بطريق القسطنطينية (نيقولا ميستيكوس) أن يخطب ود حكامها كما يتجلى فى هذه الرسالة التى أرسل بها إلى أميرها « إلى الأمجد الأشرف الأعز أمير جزيرة كريت إن أعظم قوتى العالم أجمع : قوة العرب ، وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا يجب أن نعيش كأخوة على اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين »(٣) .

---

(١) د . عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوربا ص ١٨٤ — ١٨٥ إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٨٧ .

(٢) عرفت الإمارة التى أقامها الأندلسيون فى كريت باسم (الدولة السكابية) وحكمها ثلاثة أمراء هم أبو حفص عمر مؤسسها (ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، وابنه شعيب من بعده ، ثم عبد العزيز بن شعيب وهو الذى سقطت الجزيرة فى عهده بيد البيزنطيين وأخذ أسيرا إلى القسطنطينية حيث توفى بها (د . إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٨٦) .

(٣) الصراع بين العرب وأوربا ص ١٨٥ .

وقد ظلت الامبراطورية البيزنطية تحاول استعادة هذه الجزيرة حتى نجحت فى ذلك سنة ٣٥٠ هـ حيث أرسلت حملة كبيرة مكونة من ألفى سفينة حربية وثلاثمائة ناقلة جنود بقيادة نقفور فوكاس فى عهد الإمبراطور (رومانوس الثانى)، استطاعت الاستيلاء عليها وأسر آخر إمرائها الأندلسيين وإرسالة إلى القسطنطينية حيث توفى بها(١) .

تقييم لثورة الربض ونتائجها :

قدر لثورة الربض أن تنتهى ، ويقضى عليها بتلك الصورة القاسية التى رأيناها سابقا ، وقد كانت ثورة تختلف عن الثورات الأخرى التى قامت ضد الحكم ، فيمكن وصفها بأنها كانت ثورة شعبية شارك فيها الكثيرون من طوائف الشعب بقيادة الفقهاء المالكية .

وكادت هذه الثورة تكلف الحكم ملكه بل وحياته لو قدر لها النجاح وكان يمكن أن يتم لها ذلك لو قدر لها شىء من الإعداد والتنظيم الجيد فقد كان عدد الثوار كبيرا بدليل أن القتلى بلغوا نحو عشرة آلاف بخلاف الذين خرجوا إلى المغرب وكانوا نحو ثمانية آلاف ، والذين خرجوا إلى مصر وبلغوا نحو خمسة عشر ألفا ، بخلاف من تفرق فى أنحاء الأندلس(٢) بالإضافة إلى فرار بعض زعمائها من الفقهاء إلى طليطلة ففقد الثوار بعض قياداتهم مثل طالوت بن عبد الجبار المعافرى الذى يقال إنه استخفى سنة كاملة ثم عفا عنه الحكم بعد الثورة ، وكذلك عيسى بن دينار الغافقى الذى اختفى زمنا ثم عفا

---

(١) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٣ — ١٤٤ ، إبراهيم طرخان : المسلمون فى أوربا ص ٢٤٥ وتسمى بعض المصادر العربية الامبراطور رومانوس الثانى باسم (أرمانوس بن قسطنطين) . انظر (جذوة المقتبس ص ٣٠١ ، بغية الملتمس ص ٤٠٧) .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) ص ٢٤٠

عنه الحكم أيضا(١) .

يضاف إلى ذلك أن الحكم قـــد استعمل كل أنواع الشدة والقسوة والحيلة فى إخماد هذه الثورة ، ولم تأخذ فيها هوادة أو رحمة ولذلك فقد خرج منها ظافرا منتصرا بعد أن سحقها وقضى عليها ولذلك يقول مفتخرا :

رابت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقد ما لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة ... أبادرها مستنضى السيف دارعا

تنبيك أنى لم أكن فى قراعهم ... بوان وأنى كنت بالسيف قارعا

فهذى بلادى إنى قد تركتها ... مهادا ولم أترك عليها منازعا(٢)

وقد حاول الحكم تبرير مسلكه العنيف فى قمع هذه الثورة فأصدر كتابا بعث بنسخ منه إلى الكور والمدن يشرح فيه الواقعة وظروفها ، ويبرر مسلكه الشديد مع أصحابها ويحمد الله على انتصاره فيها الذى أنقذ البلاد من الشرور والويلات ويقول فيه بعـــد الديباجة « وأنه لما كان يوم الأربعاء لثلاث عشرة من شهر رمضان ، تداعى فسقة أهل قرطبة وسفلتهم وأذلتهم عن غير مكروه سيرة ، ولا قبيح أثر ، ولا نكر حادثة كان منا فيهم، فأظهروا السلاح وتلينوا للكفاح ، وهتفوا بالخلعان ، وتأنقوا بالخلاف ، ومدوا عنقا إلى مالم يجعله الله أهلا للتأمير على خلقه ، والتسور فى حكمه .

فلما رأيت ذلك من غدرهم وعدوانهم ، أمرت بشد جدار المدينة ، فشد بالرجال والأسلحة ، ثم أنهضت الأجناد خيلا ورجالا إلى من تداعى من

---

(١) المراكش : المعجب ص ٤٦ — ٤٧ ، ابن حيان : المقتبس ص ٢١٩ تحقيق محمود مكى .

(٢) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٦٠ ، الحلة السيراء ج ١ ص ٤٧ وقد زاد ابن الابار بعد البيت الثانى بيتا آخر هو :

وشافه على الأرض الفضاء جماجما ... كأقحاف شريان الهبيد لوامعا

الفسقة فى أرباضها فأسلمهم الله بجريرتهم ، وصدعهم ببغيهم وأخذهم بنكثهم ، فقتلوا تقتيلا ، وعموا تدميرا ، وعروا تشويها وتمثيلا جزاء عاجلا على الذى نكثوه من بيعتنا ، ودفعوه من طاعتنا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشــد تنكيلا . فلما قتلهم الله بجرمهم فيها ، وأحسن العون عليهم لنا ، أمسكت عن نهب الأموال ، وسبى الذرية والعيال وعن قتل من لاذنب له من أهل البراءة والاعتزال ، ازدلافا إلى رضى الله ناصرى عليهم ذى العزة والجلال ... فله الحمد المكرور والاعتراف المذخور على قطع دابرهم ، وحسم شرهم ... »(١)

وبالرغم من سحق الحكم لهــذه الثورة وخروجه منها ظافرا منتظرا إلا أن مافعله فيها قد أدى إلى فقدانه تعاطف الكثيرين من الناس وولائهم له.

ولذلك فإنه لم يستطع أن يكبت مشاعرهم ، أو يوقف تغامزهم عليه وتحديهم له ويصف بعض الكتاب القريبين من هذا العصر موقف أهل قرطبة بعد الثورة بقوله : « فأكثروا الخوض وأطالوا الهمهمة ، وفزع رؤوسهم إلى السمر فى مساجدهم بالليل حذرا منهم ، مستعدا لهم ، مرتقبا لوثبتهم »(٢).

كما أخذ يستكثر من العبيد والخيل والسلاح والجند المرابطين حول القصر دائما فاستشعر الناس الرهبة والخوف وركنوا إلى السكينة على مضض ، وبدلا من مواساته لمشاعرهم فقد مضى فى طريقه الشديد ففرض العشور على جميع سكان قرطبة والكور الأخرى مما زاد من نفورهم منه .

وقد أثار ذلك بعض الشعراء وهو غريب بن عبد الله الطليطلى فنعى على قرطبة استكانتهم وقعودهم حيث يقول :

---

(١) انظر عنان دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٤١ وهو ينقل عن مخطوط مجهول المؤلف عن تاريخ الأندلس من سنة ١٨٠ هـ إلى سنة ٢٣٢ هـ عثر عليه الاستاذ ليفى بروفنسال ، وتفضل بإطلاعه عليه ولكنه لم يعينه لنا (انظر ص ٢٢٧ هامش ٢)

(٢) الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٥٠

يا أهل قرطبة الذين تواكلوا جد الدفاع عن التواكل أفضل
جد الدفاع لو أنكم دافعتم يوم الهياج لكم أعز وأجمل
إن التواكل وهنة ومذلة والجد فيه الصنع والمتمهل
صرتم أحاديث العباد وكنتم عونا لهم فى كل هم ينزل
أمسى عبيدكم الذين ملكتم ملكوا عليكم والأمور تحول(١)

وقد ظهر بصورة واضحة أن الفقهاء الذين تزعموا هذه الثورة مثل يحيى الليثى وعيسى بن دينار وطالوت بن عبد الجبار وغيرهم ممن بقى بعد الثورة قد كسرت شوكتهم ، ولم يعد لهم بعد الثورة من النفوذ والسلطان مثلما كان قبلها .

ولو أن الحكم قد حاول ضمهم إلى صفه ، واستلال الكراهية له من قلوبهم لأنه أيقن أنهم قوة لا يستهان بها بالرغم مما حدث لهم . ولذلك فإنه عفا عنهم وأخذ يقربهم منه ويستشيرهم فى أموره .

كما وضح أيضا أن هذه الثورة قد أحدثت هزة شديدة فى كيان الحكم حيث كاد أن يفقد ملكه وربما حياته لو قدر لها النجاح ، وقد أشعره ذلك بضعف الأساس الذى أقام عليه حكمه وهو القوة فقط ، وتبين له بوضوح أن الملك لا يمكن أن يقوم على القوة فقط ، وإنما يجب أن يستند إلى تأييد الشعب بطوائفه المختلفة ، وعلى رأسها رجال الدين والعلماء لما لهؤلاء من مكانة روحية عند الناس ، ولذلك أيقن أنه فى حاجة إلى مساندة الفقهاء حتى يستعيد أهليته للحكم فى نظر الرعية . ومن ثم فقد أخذ يوثق علاقته بهم ويعترف بسلطانهم ونفوذهم ويقربهم ويستشيرهم حتى لا يقفوا مرة أخرى فى وجهه .

وقد كانت هذه الثورة درسا بليغا للحكم ولمن جاء بعده فقد رأى بعينيه

(١) الأمويون أمراء الأندلس ص ٢٥١

ماذا يستطيع الشعب أن يفعل ، وأنه إذا مارأى من حكامه تجاوزاً فإنه على استعداد لإيقافهم عند حدهم ،ومن هنا فسوف نرى أن الأمراء والخلفاء من بعد الحكم قد كانوا أكثر حرصا على مراعاة شعور الناس والحرص على حبهم وولائهم(١) .

وعلى كل حال فلم يسعد الحكم طويلا بحياته بعد قضائه على تلك الثورة . فقد مرض أربعة أعوام حتى وفاته ، وجعل يتمنى أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو . ويبدو أن العلة كانت عذاباً نفسيا فى المقام الأول نتيجة لما حدث مما كان له تأثير كبير على جسمه .

ويذكر ابن عذارى : « أنه تاب إلى الله متابا ، ورجع إلى الطريقة المثلى ، وقال إن الآخرة هى الأبقى والأولى ، فتزين بالتقوى واعتصم بالعروة الوثقى ، وأقر بذنوبه واعترف »(٢) .

وظل على ذلك حتى توفى بقصره ، ولم يعلن خبر وفاته إلا فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦هـ / ٢٢ ديسمبر سنة ٨٢٢م . بعد أن اتفق أفراد البيت الأموى على تولية ابنه عبد الرحمن المعروف بالأوسط من بعده(٣) .

---

(١) د . أحمد الشعراوى : الامويون أمراء الأندلس ص ٢٥١ ، د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٩ ، د . محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٨٤ .

(٢) البيان المغرب جـ ٢ ص ٧٦ — ٧٧ .

(٣) ابن الاثير جـ ٦ ص ٣٧٧ ، جذوة المقتبس ص ١٠ ويذكر ابن الفرضى أنه توفى يوم الخميس لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٢٠٦ هـ ونقل عن الرازى قوله : إنه توفى يوم الخميس لاربع بقين من ذى الحجة ودفن بالقصر يوم الجمعة وأنه توفى وعمره اثنتان وخمسون سنة بعد أن لبث فى الولاية ستا وعشرين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما (تاريخ علماء الاندلس ص ٥) .

قائمـــة المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر القديمة :

١ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٦ دار صادر . بيروت . د ت .

٢ ـ ابن حيان : المقتبس تحقيق د. محمود مكى طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الكتاب الحادى والعشرين سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١ .

٣ ـ ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال . بيروت سنة ١٩٥٦م

٤ ـ ابن الخطيب (زين الدين) : محاسن المساعى فى مناقب الإمام الأوزاعى . نشر شكيب أرسلان . بيروت سنة ١٩٦٧م .

٥ ـ ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس . المكتبة الأندلسية . العدد الثانى . سلسلة تراثنا . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م .

٦ ـ ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس نشر دون خوليان ريبرا . مدريد سنة ١٩٢٦م .

٧ ـ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب . تحقيق ليفى بروفنسال . دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٨م .

٨ ـ ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر . طبعة بولاق سنة ١٢٨٤هـ

٩ ـ ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب . تحقيق د. شوقى ضيف دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٣م .

١٠ ـ ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ ٢ تحقيق ومراجعة كولان ، وبروفنسال . دار الثقافة بيروت . لبنان د . ت .

١١ ـ البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب . نشر دى سلان . الجزائر سنة ١٩١١م .

١٢ ـ البلاذرى : فتوح البلدان . نشر صلاح الدين المنجد مكتبة النهضة المصرية . مطبعة البيان العربى د . ت .
١٣ ـ الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس . المكتبة الأندلسية العدد الثالث سلسلة تراثنا . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م .
١٤ ـ الخشنى : قضاة قرطبة . المكتبة الأندلسية العدد الأولى . سلسلة تراثنا الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م .
١٥ ـ الضبى : بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس . المكتبة الأندلسية العدد السادس سلسلة تراثنا . دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧م القاهرة .
١٦ ـ عبد الواحد المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤هـ . وتحقيق محمد سعيد العريان طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .
١٧ ـ المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . المطبعة الأزهرية بمصر الطبعة الأولى سنة ١٣٠٢هـ .
١٨ ـ مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس . نشر دون لافونتى . الأكاديمية التاريخية الملكية مدريد سنة ١٨٦٧م .
١٩ ـ اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ـ طبعة النجف بالعراق سنة ١٣٥٨هـ .

ثانيا ـ المراجع الحديثة :

١ ـ د. إبراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى . سلسلة الألف كتاب رقم ٥٩٦ مؤسسة سجل العرب بالقاهرة سنة ١٩٦٦م .
٢ ـ د. أحمد إبراهيم الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية سنة ١٩٦٩م .
٣ ـ د. أحمد إبراهيم الشعراوى : دراسات فى تاريخ أسبانيا فى العصور الوسطى جـ ١ دار النهضة العربية سنة ١٩٧٣م .

٤ — د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ الطبعة السادسة مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٨٢م .
٥ — د. أحمد مختار العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم الفكر عدد (١) سنة ١٩٨٤م الكويت .
٦ — د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م .
٧ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى . مؤسسة شباب الجامعة للطبع والنشر بالاسكندرية سنة ١٩٨٢م
٨ — د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . دار المعارف . لبنان سنة ١٩٦٢م .
٩ — د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ج ١ مؤسسة شباب الجامعة للطبع والنشر بالاسكندرية سنة ١٩٨٤م
١٠ — د. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ط ٢ سنة دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .
١١ — د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ط ١٠ سنة ١٩٨٣م مكتبة النهضة المصرية .
١٢ — د حسن على حسن : الحياة الدينية فى المغرب (القرن الثالث الهجرى) دار النمر للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .
١٣ — د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس . دار مطابع المستقبل ط ١ القاهرة سنة ١٩٨٠م .
١٤ — د. رؤوف عباس (إعداد وتقديم) : مصر وعالم البحر المتوسط . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع بالقاهرة ط ١ سنة ١٩٨٦م .
١٥ — شفيق طبارة : الإمام الأوزاعى بيروت سنة ١٩٦٥م .
١٦ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب . مطبعة الحلبى بمصر د . ت .

١٧ - د . عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس . المكتبة التاريخية عدد (١) القاهرة سنة ١٩٥٨م .

١٨ - د . عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح إلى سقوط غرناطة . دار الاعتصام ط ١ مصورة سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١٩ - د . عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية . دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .

٢٠ - د . على حسنى الخربوطلى : العرب فى أوربا . المكتبة الثقافية (١٤٣) الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٥م .

٢١ - ليفى بروفنسال الحضارة العربية فى أسبانيا ترجمة د . الطاهر مكى ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٩م .

٢٢ - ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ترجمة د. السيد سالم، محمد حلمى القاهرة سنة ١٩٥٨م .

٢٣ - محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس (العصر الأول) الطبعة الأولى سنة ١٩٤٣م القاهرة .

٢٤ - د . محمود محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس جـ ١ دار الوفاء للطباعة بمصر ط ١ سنة ١٩٨٣م .

٢٥ - د . مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .

٢٦ - د . منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة (٩٢هـ - ٢٠٦هـ) دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٨٦م .

الحركة العلمية فى مصر وتأثيرها فى الأندلس
من الفتح إلى بداية عهد الناصر

بقلم

د/ محمد على عتاقى

قسم التاريخ والحضارة ـ جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وبعد : فهذا بحث عن « الحركة العلمية فى مصر وتأثيرها فى الأندلس حتى بداية عهد الناصر » والحركة العلمية الإسلامية التى كانت أساس ذلك الصرح الشامخ للحضارة الإسلامية عامة ، مازال حظها من الدراسات قليلا ، وتحتاج إلى مزيد من التنقيب والدراسة خاصة فيما يتعلق بالصلات الفكرية بين المدارس فى الأمصار المختلفة تأثرا وتأثيراً .

وقد قامت فى مصر عقب الفتح الإسلامى حركة فكرية ذات صبغة إسلامية أخذ المسلمون الفاتحون يبذرون بذورها ، يدفعهم إلى ذلك حرصهم البالغ على نشر الإسلام الصحيح فى الأمصار المفتوحة ، وقد انصب جل اهتمامهم على علوم الدين الإسلامى . فالعلماء من الصحابة والتابعين يقرئون الناس كتاب الله ، ويسمعونهم حديث رسول الله ، ويفقهونهم فى الدين ، ويشرحون لهم تعاليم الإسلام ، حتى اكتمل نضج الحركة العلمية بعد اتصالها

وتأثرها بالمدارس الأخرى التى نشأت فى الحجاز والشام وغيرهما ، وأفادت الحركة العلمية من هذا الاتصال فائدة عظيمة ، فهذا الاتصال ضرورة علمية ساعد عليها موقع مصر المتوسط فى العالم الإسلامى، فضلا عن تشجيع الخلفاء والولاة للحركة العلمية فى مصر وفى غيرها من الولايات الأخرى ، كما فعل عمر بن الخطاب حين أرسل حيان بن أبي جبلة إلى أهل مصر يفقهم فى الدين، وكما فعل عمر ابن عبد العزيز حين بعث نافع مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن وأقام بها مدة .

وبهذا توطدت أركان الحركة التعلمية فى مصر وتعددت اهتماماتها لتشمل كافة علوم الدين الإسلامى تفسيرا وحديثا وفقها . . . إلى غير ذلك من العلوم الدينية الأخرى .

وبعد أن اكتمل نموها، واشتد عودها وآتت أكلها، انتقلت من دور التأثر إلى مرحلة التأثير فى غيرها . فوفد إلى مصر علماء من المشرق ، كما وفد إليها من علماء المغرب يتلقون العلم عن علمائها «وكان الأندلس على وجه الخصوص من أكثر الأمصار الإسلامية تأثرا بالحركة العلمية فى مصر ، نظراً لتأخر بزوغ الحياة الفكرية فيها نسبيا، لتأخر الفتح الإسلامى لها إلى نهاية القرن الأول الهجرى .

وكانت الحركة الفكرية فى الأندلس فى مهدها دينية، ولهذا أثبتنا أن عصر الولاة لم يكن خلوا من الحياة الفكرية ، لأن من دخل الأندلس عند فتحها من علماء التابعين كانوا بمثابة أعضاء البعثة التعليمية إلى الأندلس .

وأن الحياة الدينية فى الأندلس بدأت بتلك البذور القادمة من المشرق ، ثم نمت فى الأندلس، وخلال نموها كانت تتغذى من المشرق، وهذا خلاف مايعتقده بعض المؤرخين من تأخر الحياة الفكرية فى الأندلس كالأستاذ / محمد عبدالله عنان حيث يقول «لبثت الأندلس عقب الفتح ردحا من الزمن

بعيدة عن أن تكون مهـــداً لنشوء الحركة الفكرية . . ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢هـ »(١) .

ونحن لا نستطيع أن نوافقه - ومن رأى رأيه - على ذلك بعد أن علمنا « أن عقبة بن الحجاج السلولى والى الأندلس فى الفترة (١١٦ - ١٢١هـ) قد أسلم على يديه ألف رجل وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين »(٢) هذا فضلا عن أن أحد أبناء المسالمة وهو مهدى بن مسلم برع فى علوم الدين الإسلامى لدرجة أن عقبه السلولى والى الأندلس استقضاه على قرطبة(٣) . إلى غير ذلك من الشواهد الأخرى بالبحث التى تثبت أن عصر الولاة لم يكن خاليا من الحياة الفكرية أبعد هذا نقول بخلو هذه الحقبة من الحياة الفكرية ؟!

وقد تجلى تأثير الحركة العلمية المصرية فى الأندلس فى شتى علوم الإسلام ويؤكد ذلك ما أمدتنا به المصادر من أسماء العديد من العلماء الذين رحلوا من الأندلس إلى مصر للأخذ عن علمائها والرواية عنهم فى سائر علوم الدين الإسلامى . وهذا يؤكد العلاقة الفكرية الوثيقة التى قامت بين مصر والأندلس فى تلك الفترة وتجلت فى رحلة العلماء والطلاب إلى مصر للأخذ عن علمائها ، والمرحلة العلمية هى المظهر العملى الواقعى لتأثر الأندلس بمصر والتفاعل معها والاستفادة من علمائها .

---

(١) انظر : : دولة الاسلام فى الأندلس جـ ٢ ص ٦٩١ نشر مكتبه الخانجى القاهرة ١٩٨٨ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب جـ ٢ ص ٢٩ تحقيق ومراجعه ج . س كولان و إ . ليفى بروفنسال ط ٣ بيروت ١٩٨٣ م .

(٣) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩ - ١٢ المكتبة الأندلسية الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٦م .

ونود أن نسجل هنا أن تلك الرحلات العلمية الشاقة ـ نظراً لصعوبة المواصلات فى ذلك الوقت ـ كان يقوم بها العلماء والطلاب بمحض اختيارهم وعلى نفقتهم الخاصة ، رغبة فى تحصيل العلم ، وترقية الفكر ، لايبغون بذلك سوى وجه الله وحب الخير ونشر العلم .

هذا والله ولى التوفيق ؟

د محمد على عتاقى
مدرس التاريخ والحضارة الإسلاميين

الفصل الأول

الحركة العلمية فى مصر

تمهيد عن : حالة مصر العلمية قبيل الفتح الإسلامى .

— عوامل تكوين الحركة العلمية وازدهارها .

— العلوم الدينية — وأشهر العلماء .

تمهيد : حالة مصر الدينية قبيل الفتح .

كانت مصر قبل الفتح الإسلامى ترزح تحت نير الحكم الرومانى الغاشم الظلوم ، ذلك الحكم الذى قاومه المصريون بكل وسيلة ممكنة ، إلا أن تفوق الرومان عسكريا على المصريين فرض سلطتهم على مصر ، دون أن تستطيع قواهم أن تستل الكراهية لهم من قلوب المصريين .

وقد ازداد مقت المصريين لكل ماهو رومانى بعد أن انتشرت الديانة المسيحية فى مصر فى الوقت الذى كان فيه الرومان لايزالون على الوثنية ، وتتبعوا كل من اعتنق الدين المسيحى بالقتل ، إلى حد الإبادة الجماعية كما حدث فى أواخر عهد الامبراطور دقلديانوس «ت ٣٠٥ م» الذى اعتبرت الكنيسة المصرية عهده بداية للتقويم القبطى ، واعتبرته كذلك عصر الشهداء ، لما قدمته مصر من ضحايا إبان حكمه الغاشم ، وبعد أن أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، اضطهد الرومان كل من خالفهم فى المذهب الدينى .

ولما كانت مصر قد اتخذت لنفسها مذهبا فى المسيحية يخالف مذهب الرومان ، فقد اشتد غضب الرومان على المصريين ، فإذا ما أضيف إلى ذلك الاضطهاد الدينى ، الإستغلال الاقتصادى الذى أصبحت به البلاد مزرعة للرومان ، فضلا عن الضرائب الباهظة على كل شىء تقريبا ، حتى كان على المصريين أن يدفعوا ضرائب معينة كلما جرى الاحتفال بتتويج الامبراطور(١) وذلك للمساهمة فى شراء التاج الجديد .

لهذا كله اشتد مقت المصريين لكل مايمت إلى الرومان بصلة ، ورحبوا

(١) د . السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية من ٢٢ بيروت . دار النهضة العربية ١٩٨٢ .

بالفتح الإسلامى ، ذلك الفتح الذى دخلت به مصر فى دور جديد من أدوار تاريخها الطويل ، وهو الدور الذى يطلق عليه « مصر الإسلامية » ففى هذا الدور أصبحت مصر بلداً عربيا إسلاميا له دور إيجابى فى بناء صرح الحضارة الإسلامية فتأثر بغيره وأثر فى غيره من الأمصار الأخرى .

عوامل تكوين الحركة العلمية وازدهارها :

قامت فى مصر بدخول العرب ـ عند نهاية العقد الهجرى الثانى ـ حركة علمية جديدة ذات صبغة إسلامية كالتى قامت فى غيرها من الولايات الإسلامية، حيث أخذ المسلمون الفاتحون يبذرون فيها بذور حركة علمية جديدة تتفق فى توجهاتها ومشارب الإسلام .

وقد أدت ظروف الدولة الإسلامية الناشئة حينذاك وشغف المسلمين بتبليغ الدعوة ونشر الإسلام الصحيح فى الأمصار المفتوحة إلى الاهتمام بالعلوم الدينية أكثر من غيرها من العلوم الأخرى ، فظهرت فى الأمصار ـ فضلا عن المدينة ومكة ـ مدارس علمية ، انصب جل اهتمامها على علوم الدين الإسلامى .

وسارعت مصر الإسلامية لتنهل من علوم الإسلام فى أعقاب الفتح الإسلامى ، وكانت مدرستها من أسبق المدارس الإسلامية ظهوراً وهذا يرجع إلى عوامل مختلفة منها

أن الفتح الإسلامى لمصر كان مبكرا عن كثير من الفتوحات الإسلامية الأخرى فدخلها نفر كثير من الصحابة . وقد ذكر صاحب كتاب « فضائل مصر » أنه دخل مصر فى فتحها ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل ونيف . وأنه وقف على إقامة قبلة المسجد الجامع ثمانون رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) .

---

(١) كان من بينهم الزبير بن العوام ، وعبادة بن الصامت والمقداد بن الأسود، =

هذا فضلا عمن وفد إليها من الصحابة بعد الفتح وقد أحصاهم السيوطى ثلاثمائة ونيف(١) . وكان لكثير منهم رواية عن النبى ، ولاشك أن العلماء منهم أخذوا يعلمون المصريين أصول الدين الاسلامى ، وكانوا أساس مدرستها وعلى رأسهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كتب كثيرا من الأحاديث التى أخذها عن النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيفته « الصادقة » والذى كان يفتى فى مصر والذى يقال إنه أسلم قبل أبيه وأخذ عنه أهل مصر أكثر من مائة حديث(٢) . وكان مركز هذه الحركة العلمية فى مصر جامع عمرو بن العاص.

جامع عمرو مركز الحركة العلمية :

من أهم الملامح المميزة لهذه للحركة العلمية فى مصر أنها نشأت مرتبطة بالمسجد الجامع المعروف بجامع عمرو فما أن فرغ المسلمون من تشييده حتى أخذ علماء الصحابة يعقدون مجالسهم العلمية فيه يقرئون الناس كتاب الله ، ويسمعونهم حديث رسول الله ، ويفقهونهم فى الدين ، ويشرحون لهم تعاليم الاسلام ، فالبداية مكانها المسجد علومها إسلامية وأساتذتها يعلمون الاسلام ، وطلابها راغبون فى حفظ القرآن ومعرفة الحديث والتفقه فى الدين ، واللغة التى يدور عليها ذلك كله هى اللغة العربية .

ولهذا كان يؤمه العلماء ويفد إليه طلاب العلم ويقصده الناس للإستفتاء فيما عن لهم من مسائل ومنه تخرج خيرة العلماء والفقهاء ، وقد بدأت الدراسة

وأبو الدرداء ، وأبو ذر الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنهم أجمعين .
انظر : عمر بن محمد الكندى : فضائل مصر ص ٣٧ تحقيق د . إبراهيم العدوى، على محمد عمر ط (١) سنة ١٩٧١ دار الفكر .

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٦٦ وبعدها إلى ص ٢٥٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحياء الكتب العربية ط (١) سنة ١٩٦٧ م

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٢١٥ .

بهذا المسجد سنه ٣٨هـ فيذكر المقريزى : أن أول من قص بمصر سليمان بن عتر التجيبى فى سنه ثمان وثلاثين وكان يقوم بذلك فى جامع عمرو(١) ثم اتسع نطاق التدريس به عن طريق الحلقات تدريجيا حتى إذا زاره الإمام الشافعى وجد به ثمان زوايا منها الزاوية التى تعرف باسمه ، ويقال إنه درس بها الشافعى نفسه فعرفت به(٢) .

كما أن من عوامل تكوين مدرسة مصر العلمية موقع مصر فى وسط العالم الإسلامى مما يسرّ لمدرستها سبل الاتصال بالمدارس الأخرى التى نشأت فى الحجاز والشام والعراق وقد أفادت المدرسة المصرية من هذا الاتصال فائدة عظيمة ، ومع أن أكثر اتصالها كان بمدرسة المدينة لاعتبارات كثيرة(٣) فإن كثيرا من علماء مكة والكوفة وغيرهما كانوا يفدون إلى مصر بين آونة وأخرى . للاتصال بعلمائها(٤) .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ٣ ص ١٩٩ : السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٥ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١٠٠ .

(٣) حيث أن المدينة دار هجرة الرسول وأول عاصمة للخلافة الإسلامية وفيها استقر عدد كبير من الصحابة والتابعين الذين تروى أكثر الأحاديث عنهم وظهر فيها بعض الفقهاء الذين درسوا الأحاديث واستنبطوا منها آراءهم الفقهية وكان ذلك كله سببا فى أن يتجه إليهم علماء مصر لأخذ علوم الدين ، هذا بجانب أن الحجاز قبلة المسلمين . فكان المسلمون فى مصر ينتهزون فرصة الحج ويتصلون بعلماء الحجاز : انظر : د. محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر . ص ٣٣ سلسلة الألف كتاب (٣٤٤) نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٤) عبد الله خورشيد : تاريخ القرآن وعلومه فى عصر الولاة ص ١٢١ رسالة ماجستير .

وهذا الاتصال بين المدارس فى الأمصار المختلفة ضرورة علمية . حيث لم يكن هؤلاء الصحابة فى الأمصار يحيطون علما بكل ما قاله النبى (ص) وفعله وبكل مايتعلق بتعاليم الدين ، بل كان منهم من صحب النبى فى بعض الأوقات دون بعض ففاته علم حمله غيره ، لذلك علم كل منهم شيئا وغاب عنه شىء آخر فكان الاتصال ضرورة علمية ساعد عليها موقع مصر المتوسط فى العالم الإسلامى .

هذا فضلا عن أنه بمرور الزمن وجدت فى مصر طبقة من العلماء أخذوا عن الصحابة والتابعين واستوعبوا علومهم ، ثم اجتهدوا بآرائهم التى تأثروا فى صياغتها بالبيئة المصرية . يدل على ذلك ماهو مشهور عن تعديل الشافعى لبعض قواعد مذهبه بعد قدومه إلى مصر فأكملوا بذلك إرساء قواعد مدرسة مصر . وقد اشتهر من هؤلاء العلماء عدد كبير فى نواحى العلم المختلفة نذكر منهم على سبيل المثال . عبد الرحمن بن حجيرة المعروف بابن حجيرة الأكبر ، روى عن عمرو بن العاص وابنه عبد الله وعن أبى ذر الغفارى وعقبة بن عامر الجهنى ، وكان من أفقه الناس فى وقته إذ قيل فيه أن رجلا من أهل مصر سأل ابن عباس عن مسألة . فرد عليه ابن عباس مستهجنا أتسألنى وفيكم ابن حجيرة(١) . وعلو مرتبته العلمية جعلته موضع ثقة أمير مصر عبد العزيز ابن مروان فأسند إليه القضاء والقصص وبيت المال وتوفى ابن حجيرة فى عام ٨٣هـ .

وقد اشتهر من مدرسة مصر أيضا يزيد بن أبى حبيب واسمه أبو رجاء المصرى . نوبى الأصل . لكنه كان أشهر علماء مصر وأرفعهم ذكرا ، وأوسعهم أفقا وأغزرهم مادة وفكرا ، فهو فقيه مصر وشيخها ومفتيها روى عن سالم ونافع وعكرمة وعطاء وخلف ، وقيل إنه أول من أظهر بمصر العلم

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩٥ .

والمسائل فى الحلال والحرام ، وكان ثالث ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر . توفى عام ١٢٨هـ(١) .

وكان من أشهر تلاميذ يزيد بن أبى حبيب عبدالله بن لهيعة الحضرمى . فقيه مصر ، ومحدثها ومؤرخها وقاضيها الكبير تولى قضاء مصر من قبل أبى جعفر المنصور نحو عشر سنين (١٥٥ - ١٦٤هـ) وكان أول قاض استن الخروج لاستطلاع الهلال فى نفر من أهل المسجد ممن عرفوا بالصلاح ٢) كما كان من المجتهدين فى طلب العلم ، والكاتبين للحديث والراحلين فى سبيل المعرفة ، ومما يذكر أنه لقى اثنين وسبعين تابعيا وروى عنهم ، غير الكثيرين من أتباع التابعين ، وكان لحرصه يحمل خريطة فى عنقه يدون فيها مايسمع من العلم فى وقته فسمى أبا خريطه ، وظل يؤدى رسالته العلمية حتى توفى عام ١٧٤هـ(٣) .

وكان أشهر هؤلاء وأهمهم قاطبة قبل قدوم الشافعى إلى مصر ، الإمام الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى أبو الحارث المصرى الذى ولد بقرية قلقشنده سنة ٩٤هـ .

وقال عنه ابن سعد : إنه كان ثقة كثيرا لحديث صحيحه ، وقد اشتغل بالفتوى فى زمانه بمصر وكان سريا من الرجال نبيلا سخيا له ضيافة وقال الشافعى كان الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه(٤) وكانت وفاته ١٧٥هـ وروى ابن خلكان أنه سمع قائلا يقول يوم مات الليث :

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريبا وقبر

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ ٧ ص ٥١٣ ، أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٩١ طه ١٢ سنة ١٩٧٨ النهضة المصرية .

(٢) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٧٠ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠١ .

(٤) الطبقات جـ ٧ ص ٥١٧ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠١ .

فالتفتوا فلم يروا أحداً . وروى أحد تلاميذه وهو أشهب بن عبد العزيز : أنه كان لليث أربعة مجالس كل يوم مجلس لحوائج السلطان ومجلس لأصحاب الحديث ومجلس لمسائل الفقه والفتوى ومجلس لحوائج الناس .

هذا عدا جماعة من الفقهاء أدخلوا المذهب المالكى إلى مصر ونشروه فيها وتفقهوا فى أحكامه ومنهم عبدالرحيم بن خالد بن يحيى مولى جمح (ت١٦٣هـ وعثمان بن الحكم الجذامى . ت١٦٣(١) .

ومن عوامل تكوين مدرسة مصر : تشجيع الخلفاء والولاة للحركة العلمية فى مصر كما كانوا يشجعونها فى غيرها من الولايات ، فقد روى أن عمر بن الخطاب أرسل حيان بن أبى جبلة إلى أهل مصر يفقهم فى الدين(٢) كما روى أن عمر بن عبد العزيز بعث نافع مولى ابن عمر فقيه أهل المدينة إلى مصر ليعلم أهلها السنن ، كذلك أمر عمر بن عبدالعزيز جعثل بن عاهان بن سعيد الرعينى القتبانى المصرى أحد القراء والفقهاء بالخروج من مصر إلى المغرب ليقرئهم القرآن ، وقد ذهب إلى هناك وولى القضاء فى عهد هشام بن عبدالملك الخليفة الأموى ومات سنة ١١٥هـ(٣) .

أضف إلى ذلك أن عبدالعزيز بن مروان والى مصر ، كان يعطى عبدالرحمن ابن حجيرة الخولانى (أبو عبدالله المصرى) قاضى مصر ألف دينار فى السنة(٤) ولكنه لم يكن يحول عليه الحول وعنده ما تجب فيه الزكاة .

---

(١) حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٠٢ .

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٨١ ، د . مصطفى بدر : مصر الإسلامية جـ ١ ص ١١٣ طه ٢ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٦ م .

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١١٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١١٨ . د . مصطفى بدر : مصر الإسلامية جـ ١ ص ١١٣ .

بهذا للتشجيع وبهؤلاء العلماء ومن جاء بعدهم توطدت أركان مدرسة مصر العلمية فى القرن الثانى الهجرى وتعددت اهتماماتها لتشمل كافة علوم الدين الإسلامى كالقراءات والحديث والفقه والتصوف وغير ذلك من علوم الدين .

العلوم الدينية ـ وأشهر العلماء :

علم القراءات :

هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وموضوعه القرآن من حيث أنه كيف يقرأ(١) ويعتبر هذا العلم من أول العلوم التى اهتم بها المسلمون غير أنهم اختلفوا فى عدد القراءات فبعضهم جعلها سبع قراءات، وبعضهم زاد على ذلك بيد أن الراجح هو سبع قراءات(٢) .

وقد كان للمدرسة المصرية باع طويل فى الدراسات القرآنية . فبعد أن أن تتلمذ المصريون على نفر من الصحابة كعبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر الجهنى وغيرهما ، وبعد أن أخذوا عن عدد من التابعين المصريون كأبى الخير مرثد اليزنى ، وعن عدد من الوافدين كعكرمة ومجاهد تلميذى ابن عباس اللذين زارا مصر فى أواسط القرن الأول الهجرى(٣) .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٢ . طبعة الشعب .

(٢) د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٨) ص ١٦٩ ، ١٧٠ ـ هذه الطرق فى القراءة نسبت إلى من اشتهر برواياتها ، وهؤلاء القراء السبعة الذين نسبت قراءاتهم لاسمائهم هم : نافع من أهل المدينة وابن كثير من مكة وابن عامر من الشام ، وأبو عمر من البصرة ، وحمزة والكسائى من الكوفة ، وقد أضيفت ثلاث قراءات منسوبة لكل من حفص وأبى جعفر ويعقوب فصارت القراءات عشرا وما زاد على ذلك اعتبر شاذا . د . عبد الواحد وافى : فقه اللغة ص ١١٨ .

(٣) عبد الله خورشيد : تاريخ القرآن وعلومه فى عصر الولاة ص ١٢٠ .

ثم توجه بعد ذلك عدد من المصريين لتعلم القراءة على نافع ونقلها إلى مصر منهم عثمان ابن سعيد بن عبدالله المعروف بـ « ورش المصرى » وكان قبطيا فأسلم وتعلم اللغة العربية حتى أجادها واتقنها ، ثم شد رحله إلى المدينة حيث جلس إلى شيوخ قرائها « نافع بن أبى نعيم » فأخذ القراءة عنه وهو فى الخامسة والأربعين من عمره ثم عاد ليصبح « شيخ القراء المحققين» وإمام أهل الأداء المرتلين والذى انتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه ، ثم لتنتشر قراءته التى اقترنت بإسمه مع تلاميذه فى مصر والمغرب والأندلس(١) .

ومن علماء مصر فى قراءة نافع أبو سعيد سقلاب بن شنينة المصرى ، وأبو دحية معلى بن دحية وأبو ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة(٢) .

وقـــد راجت قراءة ورش فى مصر بفضل تلاميذه كداود بن أبى طيبة المصرى وأبى يعقوب الأزرق الذى لزم ورشا مدة طويلة واتقن عنه الأداء وخلفه فى الاقراء بالديار المصرية توفى ٢٤٠هـ وأبى الأزهر عبـــد الصمد ابن عبد الرحمن العتقى أحد تلاميذ ورش المبرزين توفى ٢٣١هـ ، وغيرهم فهولاء هم الذين أسسوا مدرسة الاقراء بمصر على حرف نافع وتبعهم عـــدد كبير من القراء .

وكان للإقراء شأن فى مصر بعد ذلك فقد جعل للإقراء شيوخ وللحضرة قراء لهم رواتبهم من الدولة بجانب ما كان يغدق عليهم من أمـــوال فى المناسبات المختلفة .

والملاحظ أن بعض قراء مصر ربما خالفوا قراءة نافع فرققوا الراء وغلظوا اللام كأبى يعقوب الأزرق(٣) وانتشرت بعد القرن الأول القراءات

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٥ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٤٨٥

(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ٤٨٦

الأخرى وألف المصريون كتبا كثيرة فى القراءات السبعة لأحمد بن أسامة التيمى المتوفى ٣٤٢هـ وكتاب التذكرة فى القراءات لأبى الحسن بن طاهر المتوفى ٣٩٩هـ وغيرهما(١) .

وهذا يدل على اهتمام المصريين بقراءات القرآن الكريم .

التفسير :

هو علم يعرف به نزول الآيات ، وشئونها ، وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وأمثالها وغيرها(٢) .

وقد سار علماء المسلمين فى أول الأمر فى اتجاه التفسير بالمأثور ، وهو الاعتماد فى التفسير على ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم ، وبعد ذلك ظهر اتجاه آخر فى التفسير ، وهو التفسير بالرأى فنهم من أصاب ومنهم من لم يوفق(٣) .

وكان للمصريين نصيب فى تفسير القرآن الكريم، وارتحل إليها البعض فى طلب التفسير ، ويكفى أن أذكر هنا أن البخارى نقل فى تفسيره وتاريخه كثيرا من الصحيفة المصرية فى التفسير وأن ابن جرير الطبرى نقل الشطر الأكبر منها فى تفسيره ، أما الصحيفة المصرية فقد أشاد بها عدد من العلماء من ذلك ما قاله أحمد بن حنبل فى مسنده « بمصر صحيفة فى التفسير لو رحل رجل فيها إلى

---

(١) د. محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر ص ٣٤

(٢) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون تحقيق : د. لطفى عبد البديع ص ٣٣ - القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(٣) عبد الوهاب عبد المجيد غزلان : البيان فى مباحث علوم القرآن . ص ٣٥ القاهرة .

مصر قاصدا ما كان كثيرا » ، وهذه الصحيفة هي من أقدم الروايات التي رويت عن ابن عباس ومن أصح الطرق عنه ، فهي رواية علي بن أبي طلحة عن مجاهد أحيانا وعن عكرمة أحيانا أخرى عن ابن عباس ، ولهذا عرفت هذه الصحيفة بصحيفة علي بن أبي طلحة ونقلها عنه معاوية بن صالح قاضي قرطبة(١) وفي سنة ١٥٤ هـ مر معاوية بمصر في طريقه إلى الحج فروى بمصر هذا التفسير فنقله عنه عبد الله بن صالح المعروف بكاتب الليث بن سعد واحتفظ بها ، وعن النسخة المصرية عرفت الصحيفة في سائر الإسلامية(٢).

علوم القرآن :

هو علم يتكون من عدة مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وجمعه وترتيب سوره ، وبيان الوجوه التي نزل عليها وأسباب النزول وشرح غريبه ، ودفع الشبهات عنه ، وكل ماهو مختص به(٣) ولعل السر في أن العلماء سموا هذا العلم بصيغة الجمع (علوم القرآن) وليس بصيغة الإفراد هو رغبتهم في الإشارة بهذه التسمية إلى أن كل مبحث من مباحثه جدير بأن يكون علما قائما بذاته إذا إجتمعت مادته على سبيل الاستيعاب والاستقصاء(٤).

وقد استمرت علوم القرآن في مصر على النحو الذي عرف عند جمهور المسلمين في العالم من تفسير ومعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وما في القرآن من أحكام وما في إسلوبه من إعجاز .. إلى غير ذلك .

وكثرت المؤلفات في ذلك كله ونذكر منها على سبيل المثال « كتاب تفسير القرآن ، وكتاب الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس المصري ، وكتاب

---

(١) انظر ترجمته في ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس رقم / ١٤٤٥
(٢) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر ص ٣٤ ، ٣٥
(٣) عبد الوهاب عبد المجيد : البيان في مباحث علوم القرآن ص ٣١
(٤) المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢

إعراب القرآن لأبي الحسن على بن إبراهيم الحوفى وغير ذلك من التصانيف التى وضعها المصريون(١) .

علم الحديث :

وهو علم تعرف به أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله من قول، أو فعل ، أو تقرير أو صفة وهو مرادف للسنة ، كما أنه أصل من أصول التشريع الإسلامى ومرتبته تلى مرتبة القرآن فى الاستدلال .

وقد تعددت العلوم المتشعبة عن الحديث فكان الناسخ والمنسوخ وهو من أهم علوم الحديث وأصعبها ، والنظر فى الأسانيد ، ومعرفة شروط السند، ومعرفة رواة الحديث ومراتب الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك ، والصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والشاذ والغريب ، والخلاف بين أئمة الشأن ، والوفاق بين أئمة الشأن ، وكيف أخذ الرواة بعضهم عن بعض قراءة أو كتابة أو مناولة أو إجازة وتفاوت رتبها وأحوال النقلة ... إلخ(٢) .

وقد كان لمصر دور هام فى علوم الحديث ، ونحن نعلم أن دراسة الحديث فى العالم الاسلامى كله كانت تقوم أولا على روايته عن الصحابة والتابعين ، ثم لما كثر الوضع فى الحديث بدأ العلماء يعنون بنقد الرجال ، فوضعت أصول نقد السند ، كما وضعت أصول نقد المتن ، واستخلاص السنن من الأحاديث التى صحت ، كان ذلك فى جميع الأقطار الاسلامية ومنها مصر(٣) ، ولكن المصريين عنوا عناية خاصة برواية الحديث إذ حفزهم إلى ذلك كثرة الداخلين إلى مصر من الصحابة ذوى الرواية ومن التابعين ، فوجدت فى مصر

(١) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية ص ٣٥
(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٠٥ ، ص ٤٠٦
(٣) الحياة الفكرية ص ٣٦

جمهرة من حفاظ الحديث ونقاده نذكر منهم الأعرج عبد الرحمن بن داود المدنى صاحب أبى هريرة والذى توفى بالاسكندريه ١١٧هـ وأشاد بفضله البخارى فقال أصح أسانيد أبى هريرة ماكان عن طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة(١) .

وكذلك عبد الله بن وهب المصرى أحد الأعلام الأوائل الذى دونوا الحديث ، وأقدم كتاب مصرى وصلنا فى الحديث هو كتابه « الجامع فى الحديث » وقد عثر على جزء مخطوط من هذا الكتاب فى مدينة إدفو منذ ثلاثين سنة . ويعد هذا المخطوط من أقدم المخطوطات العربية فى جميع مكتبات ومتاحف العالم إذ يرجع تاريخ كتابته إلى القرن الثالث للهجرة(٢) وقد قيل إن ابن وهب حدث بمائة ألف حديث ليس من بينها حديث منكر وقد توفى ١٩٧هـ(٣) .

وأيضا أسد السنة ، أسد بن موسى بن إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ابن مروان الأموى المصرى ولد بمصر ١٣٢هـ ومات بها فى المحرم ٢١٢ هـ(٤).

ومن المعروف أن أصحاب مجاميع الحديث أمثال البخارى ومسلم والنسائى والدارقطنى وغيرهم رحلوا إلى مصر ونقلوا روايات المصريين أمثال خالد بن حميد الاسكندرانى المتوفى ١٦٩ هـ ، وخلاد بن سليمان الحضرمى المتوفى ١٧٨ هـ ، بل إن أحمد بن شعيب النسائى صاحب السنن الكبرى والصغرى وهى إحدى الكتب الستة أقام فى مصر مدة طويلة ، قبل أن يغادرها سنة ٣٠٢ هـ(٥) .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ٣٤٥
(٢) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية ص ٣٨
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٢ ، ص ٣٠٣
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٦
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٠

هذه ترجمة لبعض كبار رجال الحديث الذين وفدوا على مصر للأخذ عن محدثيها والاستعانة بهم فى تدوين مجاميعهم ومنها ندرك كيف كانت مصر عشا للحديث النبوى الشريف، وكيف اهتم المصريون بروايته.

علم الفقه :

و« يسمى بعلم الدراية وهى معرفة النفس مالها وما عليها(١) » . ومعنى كلمة الفقه فى اللغة : العلم بالشيء والفهم له .. وقد جعله العرف خاصاً بعلم الشريعة(٢) .

وقد أخذ المسلمون تشريعهم من القرآن الكريم والحديث مما استنبطوه برأيهم حيث لا يوجد نص فى القرآن أو الحديث، وفى باب الاجتهاد هذا أفسح المجال أمام المجتهدين لإثبات شخصية كل منهم وإظهار شخصية بيئتهم، فكان المصريون ممن كان لهم رأى خاص فى الفقه بحكم البيئة المصرية التى تختلف عن البيئة الحجازية أو العراقية وغير ذلك .

وقد زخرت مصر بالأئمة المجتهدين الذين أفتوا الناس بما فى القرآن والحديث الشريف أو بما رأوه ـ كابن حجيرة الخولانى المتوفى ٨٣ هـ(٣) وأبى الخير مرثد اليزنى المتوفى ٩٠ هـ(٤) ويزيد بن أبى حبيب الذين سبق وارتقى الفقه فى مصر على أيديهم ثم وصل إلى أعلى مرتبة على يد الليث بن سعد أكبر فقيه شهدته مصر فى القرن الثانى للهجرة، والذى كان خليقا بتكوين مذهب خامس يضاف إلى المذاهب الأربعة المشهورة . حتى أن الامام الشافعى كان يقول « الليث أفقه من مالك بن أنس إلا أن أصحابه

(١) التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ص ٤١، ٤٢

(٢) الزرنوجى : تعليم المتعلم طريق التعلم . ص ٦٣ تحقيق : د . عبداللطيف العبد القاهرة ١٩٧٧ م

(٣) السيوطى حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٩٥

(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٢٩٦

لم يقوموا به » فضاع مذهبه كما ضاع مذهب الأوزاعى فى الشام(١) .

وربما كان السبب فى انتشار مذهب مالك فى مصر ، أن مالكا كان فقيه المدينة المنورة ، والمصريون كانو يفضلون علماء المدينة بوجه خاص باعتبارها حاضرة ثقافية وروحية للمسلمين حتى بعد انتقال الخلافة إلى دمشق ونظرتهم إلى عمل أهل المدينة على أنه أقرب الأعمال لما كان عليه عمل النبى صلى الله عليه وسلم .

ومما ساعد على انتشار مذهب مالك فى مصر وتغلبه على مذهب الليث أن الليث توفى قبل مالك بنحو أربعة أعوام (وفاة الليث ١٧٥ هـ - وفاة مالك ١٧٩ هـ) فانتشر المذهب المالكى فى مصر دون منافسة ، فذاع فيها على أيدى جماعة من المالكية ممن رحلوا إلى مالك وتتلمذوا عليه أمثال عبد الله ابن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم العتقى الذى صارت إليه رياسة المذهب المالكى ، وتولى أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسى رياسة المذهب المالكى فى مصر وبعده عبد الله بن الحكم(٢) .

وقد أفرزت المالكية فى مصر جلة من الفقهاء لم يدركوا مالكا ، وإنما تتلمذوا على أصحابه من المصريين ، فأصبحت المالكية فى مصر فرعا قائما بذاته ، ولمعت فى مصر طبقة ثانية من فقهاء المالكية منهم على سبيل المثال أبو عمر والحارث بن مسكين المصرى ٢٥٠ هـ وأصبغ بن الفرج وبنو عبد الحكم وكذلك أبو بكر الإسكندرانى ٣٠٩ هـ الذى انتهت إليه الرياسة بمصر(٣) .

الشافعية :

استمرت تعاليم مالك فى مصر تقوى ويكثر دارسوها إلى أن وفد

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٩٢

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ص ١٩٠ - ١٩١

الشافعي محمد بن إدريس على مصر سنة ١٩٥هـ واستوطنها وصنف بها مذهبه الجديد الذى تضمنته كتبه الجديدة : الأم والأمالى ومختصرات البويطى والمزنى والربيع والرسالة والسنن(١) وبدأ ينشر آراءه وفقهه فتبعه عدد من المصريين حتى إذا كان عهد الأخشيد رأينا أربع عشرة حلقة فى المسجد الجامع للمالكية ومثلها للشافعية وثلاث حلقات فقط للحنفية(٢) وبذلك يكون المصريون قد انقسموا بين فقه الشافعى وفقه مالك انقساما متساويا .

وقد اشتهر من فقهاء الشافعية فى مصر - من الطبقة الأولى - جماعة منهم ، أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى أكبر أصحاب الشافعى ، ويقال إن الشافعى لما مرض مرضه الذى مات فيه أراد محمد بن عبدالله بن الحكم أن يجلس مجلس الشافعى فنازعه البويطى فاحتكما إلى أبى بكر الحميدى . الذى قال لهما إنه سمع الشافعى يقول ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى (يعنى البويطى) فليس أحد من أصحابى أعلم منه » وقد ألف البويطى كتبا كثيرة فى فقه الشافعى منها « المختصر الكبير » و « المختصر الصغير » و « كتاب الفرائض » وتوفى سنة ٢٣١هـ(٣) .

ويعد أبو محمد الربيع بن سليمان المرادى المؤذن بجامع مصر راوية كتب الشافعى وهو من أقدم أصحابه ، روى عنه أصحاب السنن الأربعة وكانت إليه الرحلة من الآفاق فى تصانيف الشافعى(٤) وكان الربيع أول من

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٣ ج ٣٠٤

(٢) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية ص ٤١ هذا بينما يذكر آدم متز أنه كان للمالكية خمس عشرة حلقة والشافعية مثلها ولأصحاب أبى حنيفة ثلاث حلقات . الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ج ١ ص ٣٩٢

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦

(٤) السبكى : طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٣٢

أملى الحديث بمسجد ابن طولون توفى سنة ٢٧٠هـ(٥) وأول من تولى إمامة مسجد ابن طولون من الشافعية(١) . إلى غير ذلك من فقهاء الشافعية مثل محزم بن عبد الله الأسوانى ، ويونس ابن عبد الأعلى المقرىء(٢) ومحمد ابن عثمان بن إبراهيم الثقفى الذى ولى القضاء سنة ٢٨٤هـ وتوفى سنة ٣٠٢هـ(٣).

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأئمة المجتهدين جمعوا بين فقه المالكية وفقه الشافعية على السواء حتى أن مصنفى كتب الطبقات والتراجم يضعونهم فى المالكية حينا ويضعونهم فى الشافعية حينا آخر ومنهم على سبيل المثال محمد بن عبدالله بن عبد الحكم الذى كان مالكيا أول الأمر ، ثم لازم الشافعى وتفقه به ، وكذلك الحارث بن مسكين الذى يذكر السبكى أخذه عن الشافعى على الرغم من أنه كان فقيها مالكياً .

الحنفية : هذا ولم ينتشر مذهب أبى حنيفة فى مصر ولم يوجد بها علماء على هذا المذهب اللهم إلا القضاة الذين كان يعينهم الخلفاء العباسيون الذين كانوا يتبعون هذا المذهب .

وقد ذكرنا من قبل أن المصريين كانوا يقبلون على آراء فقهاء مكة والمدينة وأن مذهب مالك كان هو المذهب السائد فى مصر إلى أن نافسه المذهب الشافعى ، أما فقه علماء العراق فلم يأبه به المصريون اكتفاء بما عندهم ، ولكن القضاة الذين ولوا على مصر حملوا معهم فقه أبى حنيفة .

وكان أول القضاة الذين ولوا على مصر ممن دانوا بالمذهب الحنفى هو اسماعيل بن اليسع الكندى الذى ولى سنه ١٦٤هـ وكان مكروها من المصريين

---

(١) د . مصطفى مدر : مصر الإسلامية ج ١ ص ١٧٧ ، آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٣٩٣ ، ص ٣٩٥

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٩٨

(٣) السابق ج ١ ص ٢٩٩

بسبب مذهبه ، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب حتى إن فقيه مصر الليث بن سعد اضطر إلى أن يكتب إلى الخليفة العباسى يطلب عزل هذا القاضى الحنفى المذهب ، فاضطر الخليفة إلى عزله(١) .

ومع هذا ففى القرن الثالث للهجرة ولى القاضى بكار بن قتيبة بن عبيد الله على قضاء مصر سنه ٢٤٦هـ . وكان يحدث فى المسجد الجامع بالفسطاط فى فقه أبى حنيفة وتوفى بمصر ٢٧٠هـ(٢) .

التصوف :

هذا العلم من علوم الشريعة الحادثة فى الإسلام وأصله أن طريقة هؤلاء القوم مستمدة من السلف ومن سبقهم من الصحابة والتابعين ، وتتلخص فى العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه(٣) .

وقد عرفت مصر هذا العلم بل لا نبالغ كثيرا إذا قلنا أن نشأة التصوف الإسلامى كانت مصرية ، ففى مصر أطلق هذا الاسم ـ الصوفية ـ لأول مرة فى العالم الإسلامى على جماعة ظهرت بالاسكندرية حوالى عام ٢٠٠هـ يرأسها رجل يقال له أبو عبد الرحمن الصوفى ومهمتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٤) وكان لها مشاركة فى الاضطرابات السياسية التى كانت بمصر آنذاك ، كما يذكر صاحب كتاب الحضارة الإسلامية أنه كانت تحيط بعيسى ابن المنكدر الذى تولى قضاء مصر سنه ٢١٢هـ جماعة تهدف إلى إصلاح

---

(١) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر ص ٤٦

(٢) المرجع السابق ص ٤٦

(٣) د . على عبد الواحد وافى : عبد الرحمن بن خلدون ص ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٤) الكندى : الولاة والقضاة ص ٦٢

أحوال المجتمع الإسلامى أطلق عليهم اسم الصوفية(١) .

هذا وقد أصبح التصوف مذهباً له تعاليمه وقواعده على يد ذى النون المصرى ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض ت/٢٤٥هـ أحد مشايخ الطرق المذكورين فى رسالة القشيرى . وهو أول من عبر عن علوم المنازلات ، وأنكر عليه أهل مصر ذلك ، وقالوا أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة ، وسعوا به إلى الخليفة المتوكل ورموه عنده بالزندقة ، وأحضره من مصر على البريد ، فلما دخل سُرَّ من رأى - سامراء - وعظه فبكى المتوكل ورده مكرما(٢)

ومن متصوفة المصريين بعد ذى النون أبو بكر أحمد بن نصر الدقاق من أقران الجنيد وأكابر مشايخ مصر ، كانت إليه رحلة الصوفية فلما مات انقطعت حجتهم فى دخولهم مصر(٣) وكذلك أبو الحسن بن دينار بن محمد الواسطى ت٣١٦هـ نزيل مصر وشيخها قال عنه الذهبى: صحب الجنيد وحدث عن الحسن بن محمد الزعفرانى وجماعته وكان ذا منزله عظيمة فى النفوس ، وكانوا يضربون بعبادته المثل(٤) .

من ذلك كله نقول : إنه وجد بمصر جماعة من المسلمين عرفوا بالصوفية كانوا ينادون أمام الناس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكنهم بدأوا يخرجون على هذه المبادىء السامية وأقحموا أنفسهم فى سياسة الدولة وحاولوا التأثير على مجرى الحوادث . ونحن لا ندرى كيف نوفق بين مظهرهم فى دعوتهم إلى القول بالمعروف والنهى عن المنكر وبين تدخلهم السافر فى

---

(١) آدم متز الحضارة الإسلامية : جـ ١ ص ٤٢١ ، د . محمد كامل حسين ص ٧٤

(٢) حسن المحاضرة السيوطى جـ ١ ص ٥١١

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ ص ٥١٢

(٤) العبر جـ ٢ ص ١٦٣ ، الحياة الفكرية ص ٧٦

شئون الحكم وسياسة البلاد ومن ذلك على سبيل المثال أن متصوفة الفسطاط طلبوا من القاضى أن يظهر عدم رضائه على تعيين الوالى الجديد على البلد حتى لو كان هذا الوالى أخا الخليفة العباسى وولى عهده(١) .

ومما سبق تتضح لنا صـــورة الحالة العلمية فى مصر فى القرن الثالث الهجرى ، وبعدها كان من الطبيعى أن تنتقل مصر من مرحلة التكوين والتأثر إلى مرحلة التأثير فى غيرها من الأمصار وكانت الأندلس على وجه الخصوص من أكثر الأمصار الاسلامية تأثرا بالحالة العلمية فى مصر .

ولم يقتصر التأثير على بلاد المغرب أو الأندلس ـ موضع البحث ـ بل إن بعض علماء المشرق كانوا يفدون إلى مصر ويتلقون العلم عن علمائها . ومن هؤلاء أبو محمد عبد الله بن محمد بن عيسى المروزى الفقيه الحافظ مفتى مرو وعالمها فإنه أقام بمصر سنتين وقرأ على المزنى والربيع ثم ذهب إلى خراسان ونشر فيها مذهب الشافعى وقد كانت وفاته ٢٩٣ هـ(٢) ومنهم محمد بن نصر المرزوى أحد أئمة الفقهاء ولد ببغداد ونشأ بنيسابور وأقام بمصر مدة من الزمن وأخذ الفقه فيها عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم الذى قال عنه «كان محمد ابن نصر عندنا إماما » وقد قال فيه العلماء «لم يكن للشافعية فى وقته مثله » وقد رجع من مصر واستوطن سمرقند وتوفى سنة ٢٩٤ هـ(٣) إلى غير هؤلاء من علماء المشرق الذين وفدوا إلى مصر وليس هذا مجال بحثنا . والذى يهمنا هو تأثير مصر فى الأندلس من الناحية العلمية .

---

(١) د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية ص ٧٤

(٢) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤٦ د . مصطفى بدر : مصر الإسلامية جـ ١ ص ١١٢

(٣) السابق جـ ١ ص ١٢٤

الفصل الثانى

تأثر الأندلس بالحركة العلمية فى مصر

تمهيد : حالة شبه جزيرة أيبريا قبيل الفتح الإسلامى .

: بذور الحركة العلمية فى الأندلس (عصر الولاة) .

: تطور الحركة الفكرية والعوامل التى ساعدت عليها .

: مظاهر تأثير الحركة العلمية المصرية فى الأندلس .

تمهيد :

كانت الغالبية العظمى من سكان شبه جزيرة أيبيريا تدين بالمسيحية الكاثوليكية ، مع وجود أقلية يهودية ، عندما بدأ فتح الأندلس سنة ٩٢هـ/ ٧١١ م - وكان القوط الغربيون أقلية حاكمة مستبدة بعيد عن السكان المحليين ولهذا فإن كثيرا من السكان رحبوا بالفاتحين الجدد ، وقدم بعضهم المساعدة للخلاص من لذريق ونبلائه مما أتاح للعرب إستكمال فتح شبه الجزيرة خلال سنوات قليلة(١) ، والشروع فى بناء مجتمع جديد على أساس السماحة الدينية التى طبقت بنجاح كبير(٢) .

بذور الحركة العلمية فى الأندلس :

لقد واكب الفتح الإسلامى للأندلس بذر بذور الحركة العلمية فيها ، فلم يحظ الأندلس بقدوم أحد من الصحابة إليه اللهم إلا ما قيل عن دخول صحابى واحد يسمى المنيذر الافريقى ، كما لم يحظ الأندلس إلا بدخول قلة من التابعين كموسى بن نصير ، وعلى بن رباح ، وحنش بن عبد الله الصنعانى وغيرهم . فقد ذكر المقرى أن جملة من دخل الأندلس من التابعين سبعة عشر رجلا(٣) .

وهؤلاء كانوا جنودا فى الجيش الفاتح ، وهم مع ذلك حملة علم ، فبذروا البذرة الأولى للعلوم الإسلامية فى الأندلس ، وكانت أشبه ببذرة المشرق الإسلامى ، فكانت عبارة عن قرآن كريم يتلى ويحفظ ، ويقرأ بالقراءات ،

(١) لم يستغرق استيلاء المسلمين على أسبانيا رغم وعورة مسالكها أكثر من ثلاث سنوات : أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب الأندلس ص ٦٩ بيروت .

(٢) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ١ ص ٧٢ الخانجى القاهرة ١٩٨٣

(٣) نفح الطيب : جـ ١ ص ٢٧٥

وحديث يفسر عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، والحديث يتضمن أحكاما دينية وأخباراً عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وأعماله وأخبار أصحابه وآرائهم ورواياتهم(١) .

ومن الجدير بالذكر أن من دخل الأندلس من الصحابة والتابعين من العلماء كانوا بمثابة أعضاء البعثة التعليمية إلى الأندلس ، وكان الاهتمام بالعلوم الإسلامية مطلوبا ، ليس فقط لتعليم الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام دينا ، ولكن لتعليم الغالبية من الفاتحين البربر الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام ولم يتعمقوا فى أصوله بعد .

وهذا ما دعانا إلى الاعتقاد بأن الحياة الفكرية فى الأندلس بدأت مبكرة .

فمن المسلمات أن الفتح الإسلامى فتح حضارى له أثره البالغ فى تقدم الأقاليم وازدهارها فعبد العزيز بن موسى أول من تولى حكم الأندلس (٩٥ - ٩٧هـ) ينشىء ديوانا لتطبيق أحكام الاسلام حسب حاجة الأندلس(٢) كما عمل على مزج الشعبين العرب الفاتحين وأهل البلاد من الأسبان ، وضرب القدوة للعرب والبربر بأن تزوج من أندلسية(٣) كما عمل على تذويب الفوارق بين الطبقات والتقريب بينهما ، وبفضل جهود بعض الولاة وفى خلال سنوات الاستقرار دخل كثير من الأندلسيين الاسلام بعد أن احتكوا بالمسلمين فى كثير من المجالات .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ٣ ص ٤٨ ، ٤٩

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٣ ، عنان : دولة الإسلام جـ ١ ص ٧١

(٣) تزوج عبد العزيز بن موسى إمرأة لذريق ويقال لها أم عاصم .
انظر : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها ، والحروب الواقعة بها بينهم . مؤلف مجهول ص ٢٧ تحقيق إبراهيم الأبيارى نشر دار الكتب الإسلامية ط ١ - ١٩٨١

وقد أثمرت هذه الجهود الخاصة فى بث الحركة الفكرية فى الأندلس لدرجة أننا نجد أحد أبناء المسالمة - الأسبان الذين أسلموا - وهو مهدى ابن مسلم يبرع فى علوم الاسلام ويوصف بأنه من أهل العلم والورع. ويستقضيه والى الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى على قرطبه ويكلفه بأن يكتب لنفسه عهد توليته على لسان عقبة «اكتب عهدك عنى لنفسك» فجاء هذا العهد فريداً فى بابه ومثالا يحتذى فى البيان والبلاغة، وفى هذا الصدد يقول صاحب قضاة قرطبة «فمن قدماء قضاة قرطبة الذين قضوا بها للأمراء العمال الولاة القواد، قبل دخول الخلفاء رضى الله عنهم الأندلس مهدى بن مسلم وهو من أبناء المسالمة من أهل الدين والعلم والورع استقضاه عليها عقبة ابن الحجاج السلولى(١)».

هذا فضلا عن أن عقبة بن الحجاج نفسه والى الأندلس (١١٦ - ١٢١ هـ) قد أسلم على يديه ألف رجل وكانت ولايته خمسة أعوام وشهرين(٢).

ولكن ماوصل إلينا عن الحياة الفكرية فى الأندلس فى عصر الولاة قليل وربما يرجع ذلك إلى قصر هذا العصر الذى لم يستغرق من عمر الأندلس إلا أربعة عقود فقط (٩٥ - ١٣٨ هـ - ٧١٤ - ٧٥٥) . إلا أن هذا القليل الذى وصل إلينا يعتد به فى الحركة العلمية . حيث أن الحركة الفكرية ابتدأت بالعلوم الشرعية .

ومع قصر هذه الفترة فقد ترك العرب بصمات واضحة فى بلاد الأندلس وليس أدل على من أنهم سموا بلاد الأندلس بأسماء مواطنهم الأصلية .

ويروى صاحب نفح الطيب عن الرازى قوله «قدم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية سنة خمس وعشرين

---

(١) الخشنى : قضاة قرطبه ص ٩ ، ١٢

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٢ ص ٢٩

ومائة . فدان له أهل الأندلس .. وكثر أهل الشام عنده ولم تحملهم قرطبة ففرقهم فى البلاد ، وأنزل أهل دمشق إلبيرة لشبهها بها وسماها دمشق ، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين جيان وسماها قنسرين ، وأهل الأردن ريّة ومالقة وسماها الأردن ، وأهل فلسطين شذونة - وهى شريش - وأهل مصر تدمير(١) وسماها مصر(٢) » .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الأسرات العربية المصرية سكنت إشبيلية واستقرت بها فى عصر الولاة مثال ذلك بنو الجد من أعقاب عبد الملك بن قطن الفهرى ، وبنو الطفيل بن العباس من غطفان(٣) .

وبنو عوف بن قرة بن ديسم من ذبيان(٤) وبنو عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى بمرينانة الغافقيين قرب إشبيلية على الوادى الكبير(٥) .

ولا ريب أنه كان للعلماء فى هذه الأسرات المصرية أثر فى تثقيف أهل الأندلس دينيا وأن الحياة العلمية فى الأندلس بدأت بتلك البذور القادمة من المشرق ، ثم نمت فى الأندلس ، وخلال نموها كانت تتغذى من المشرق .

ولم تلبث الحياة الفكرية فى الأندلس أن نشطت بقدوم عبد الرحمن

---

(١) تدمير : من كور الأندلس الشرقية : وتسمى مصر لكثرة شبهها بها لأن لها أرضا يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها فتزرع كما تزرع أرض مصر المقرى : الأندلس من نفح الطيب ص ٢٢٠ نشر عدنان درويش ، محمد المصرى دمشق ١٩٩٠

(٢) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ٢٣٢

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٢٤٩ تحقيق ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨

(٤) المرجع السابق ص ٢٥٤

(٥) نفسه ص ٣٢٩ ، د . السيد سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ص٧١ الإسكندرية ١٩٨٦ م .

ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل(١) عام ١٣٨هـ - ٧٥٦م الذى بدأ بقدومه عصر جديد فى تاريخ الأندلس يسمى عصر الإمارة(٢) (١٣٨ - ٣١٦هـ - ٧٥٦ - ٩٢٩م) .

ويرجع نشاط الحركة الفكرية فى الأندلس فى عصر الإمارة ، إلى الإستقرار النسبي الذى شهدته البلاد ، كما يرجع إلى تشجيع الأمراء الأمويين للعلم واحترامهم وتقديرهم لأهله والمشتغلين به ، وليس أدل على ذلك من تقدير الحكم ابن هشام المتوفى ٢٠٦هـ للفقيه زياد بن عبد الرحمن ، الذى حضر يوما عند الحكم بن هشام ، وقد غضب فيه على خادم له لإيصاله إليه كتابا كره وصوله فأمر بقطع يده ، فقال له زياد ، أصلح الله الأمير ، فإن مالك ابن أنس حدثنى أن « من كظم غيظا يقدر على إنفاذه ملأه الله تعالى أمنا وإيمانا يوم القيامة » فأمر بالعفو عن الخادم(٣) وفى هذا تقدير للعلم وأهله وبيان لمدى إستجابه الحكم لنصح هذا الفقيه . هذا فضلا عن اتصال الأندلس

---

(١) يعنى الداخل إلى الأندلس ، ولم يقتصر هذا اللفظ على الأمير عبد الرحمن الاموى ، بل أطلق أيضا على شخصيات أخرى مثل عبد الجبار بن نذير الذى دخل الاندلس فى طالعة بلج ابن بشر وسمى بعبد الجبار الداخل ، ونزل فى الجانب الغربي من قرطبة وإليه ينسب باب عبد الجبار . العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٤ هـ ١ .

(٢) إمتد هذا العصر حتى بداية القرن الرابع الهجرى عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وشمل بضع سنوات فى حكم هذا الامير حتى أعلن قيام الخلافة فى عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م فدخلت البلاد فى عصر جديد هو عصر الخلافة . انظر د . رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصرى بنى أميـــة وملوك الطوائف . نشر دار الكتاب المصرى واللبنانى سنة ١٩٨٥ .

(٣) المقرى نفح الطيب ص ٢٥٠ .

بالمشرق الإسلامي والأخذ عن علمائه . فقد ارتحل إلى المشرق عدد كبير من أهل الأندلس يفوق الحصر . وفى هذا يقول صاحب نفح الطيب « حصر أهل الإرتحال لا يمكن بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلاعلام الغيوب شديد المحال »(١) .

وقد وفد إلى مصر من بلاد الأندلس الطلاب والعلماء لتلقى العلم عن علمائها . كما رحل علماء مصر إلى تلك البلاد للتعليم فيها(٢) ، ويمكن القول أنه فيما عدا الحجاز لم يقصد الأندلسيون بلداً من بلدان المشرق أكثر من مصر ، بل إن رحلتهم إلى الحجاز كانت تعنى بالضرورة رحلة إلى مصر ، إذ لم يكن لهم من سبيل إلى الحجاز دون المرور بها ولهذا فقد توطدت العلاقات الفكرية بين مصر والأندلس وكانت أوثق ماتكون حتى بداية عهد الناصر . وكان لمصر تأثير كبير على الأندلس فى تكوين ثقافتها الدينية خصوصا ، بعد وفاة مالك وانتقال رئاسة المالكية إلى فقهائها المصريين ، فعدت مصر قبلة طلاب العلم الأندلسيين فى سائر علوم الدين الإسلامى وفى الصفحات التالية تراجم العلماء التى تؤكد ماذهبنا إليه .

مظاهر تأثير المدرسة المصرية فى الأندلس :

فى القراءات :

رغم أن الأندلسيين عرفوا قراءة نافع بن أبى نعيم قارىء أهل المدينة بعد أن تتلمذ على يديه الغازى بن قيس المتوفى ١٩٩هـ وحملها إليهم فى صدر أيام عبد الرحمن بن معاوية(٣) .

---

(١) جـ ٢ ص ٦ .

(٢) د . طه بدر : مصر الإسلامية جـ ١ ص ١١٢ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٤٥ ترجمة ١٠١٥

فإنهم أقبلوا على قراءة عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش المتوفى سنة ١٩٧هـ ينهلون منها وانقطعوا عليها(١) وتمدنا المصادر بأسماء عدد ممن كان مهتما بالقراءة على ورش منهم :

محمد بن عبدالله بن محمد الخازن القرطبي الذى رحل إلى مصر وقرأ القرآن على عثمان بن سعيد المعروف بورش ثم عاد إلى الأندلس يقرىء الناس بها(٢) ثم تتابع الأندلسيون فى التلمذة على أصحاب ورش كأبى يعقوب الأزرق يوسف ابن يسار المتوفى ٢٤٠هـ والذى خلف ورشاً فى الإقراء بالديار المصرية(٣) وكان أبعد تلاميذ ورش أثرا فى الأندلسيين أبو الأزهر عبد الصمد بن عبد الرحمن العتقى المصرى . فقد تتلمذ عليه عدد كبير من قراء الأندلس أشهرهم محمد بن وضاح ابن بزيغ وإبراهيم بن محمد بن باز اللذين قدما إلى مصر فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى(٤) .

كما قدم إلى مصر عبدالله بن مسعود من أهل طليطلة وقرأ بها حتى أصبح عالما بالقراءات وكذلك عبدالله بن إبراهيم بن وزير القرطبي الذى رحل إلى مصر وسمع من الحارث بن مسكين(٥) وكذلك زكريا بن يحيى بن عبد الملك القرطبي المعروف بابن الشامه الذى نشر قراءة ورش فى الأندلس وتوفى سنه ٢٧٦(٦) .

كما قدم إلى مصر سعد بن جابر بن موسى الكلاعى الاشبيلى قرأ بمصر

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ / ٤٨٥

(٢) ابن الفرضى : علماء الاندلس ص ٦ ق ٢ ترجمة رقم ١١٠٣

(٣) حسن المحاضرة جـ ١ / ٤٨٦

(٤) ابن الفرضى ق ٢ ص ١٥ ترجمة ١١٣٦

(٥) ابن الفرضى ترجمة ٦٤٣ ، ٦٤٤

(٦) ابن الفرضى ترجمة ٤٤٠

على أحمد بن سعيد وأحمد بن هلال وأبى بكر القباب وغيرهم من تلاميذ ورش ثم انصرف إلى اشبيلية . فكان يستقدم إلى قرطبة للقيام فى شهر رمضان من كل عام(١) وكذلك لشهرته فى القراءة إلى غير ذلك ممن قصدوا مصر من الأندلسيين لتعلم القراءة .

الحديث :

أما فى الحديث فقد تتلمذ الأندلسيون فى البداية على المحدثين المصريين الذين دخلوا الأندلس وعلى رأس المحدثين المصريين زيد بن قاصد السكسكى، قال عنه صاحب جذوة المقتبس « تابعى دخل الأندلس وحضر فتحها ، وأصله من مصر ، يروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص » . روى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم(٢) » .

وأيضا على بن رباح اللخمى المصرى قال عنه ابن الفرضى «دخل الأندلس من التابعين حنش بن عبد الله الصنعانى ، وعلى بن رباح اللخمى(٣) . . » وهذان التابعيان وغيرهما كانا يرويان الأحاديث عن الصحابة ،وتبعهم غيرهم ، أمدتنا المصادر بأسمائهم مثل : أحمد بن حازم المعافرى المصرى انتقل إلى الأندلس وحدث عن محمد بن المنكدر وعمرو بن دينار ، وعبد الله بن دينار مولى عبد الله بن عمر وغيرهم ، وبلغ درجة عالية من حفظ الحديث حتى أن عبدالله ابن لهيعة روى عنه الحديث قبل انتقاله للأندلس ـ واستوطن ابن حازم الأندلس وتوفى بها وفيها ولده ، حتى نسب إلى الأندلس رغم أنه مصرى المولد والنشأة لكثرة مقامه فى الأندلس ووفاته بها . وفى هذا يقول عنه عبد الغنى بن سعيد الحافظ « أحمد بن حازم مذكور فى المصريين وفى أهل

---

(١) ابن الفرضى ترجمة ٥٣٩

(٢) الحميدى ص ٢٢١ ترجمة ٤٤٤

(٣) ابن الفرضى : ص ٣١٠ ترجمة ٩١٥

الأندلس ، وأخرج له أبو الحسن الدارقطني حديثا فى السنن نسبة فيه إلى الأندلس(١) » .

ولم يكتف الأندلسيون بالأخذ عن المحدثين المصريين فى الأندلس فأخذوا يرحلون إلى مصر طلبا للحديث منذ القرن الثانى الهجرى ومن هؤلاء على سبيل المثال معاوية بن صالح الحضرمى قدم إلى مصر سنة خمس وعشرين ومائة ثم عاد إلى الأندلس فأرسله عبد الرحمن بن معاوية الداخل إلى المشرق مرة أخرى وفى هذه الرحلة اتصل بالمصريين وروى عنهم ورووا عنه . ففى رحلته تلك سمع منه سفيان الثورى والليث بن سعد وعبد الرحمن بن مهدى ، وعبد الله بن صالح كاتب الليث وتوفى معاوية فى آخر أيام عبد الرحمن ابن معاوية سنة ١٥٨ هـ(٢) .

وتوالى رحيل الأندلسيين بعد ذلك إلى المشرق فخرج محبوب بن قطن ـ من أهل جيان ـ إلى مصر طلبا للحديث فسمع من عبد الله بن صالح كاتب الليث ثم رجع إلى بلده فكان ذا رياسة عظيمة نحواً من أربعين سنة ، حدث عنه من أهل قرطبة سعد بن معاذ(٣) .

وممن رحل إلى مصر من الأندلسيين طلبا للحديث عبد الله بن محمد بن زرقون السرقسطى سمع من عبد الله بن صالح كاتب الليث وإسماعيل بن أبى أويس ابن أخت مالك بن أنس وأصبغ بن الفرج ، وكان ابن وضاح يثنى عليه خيرا ويصفه بالفضل(٤) .

وكذلك بقى بن مخلد أبو عبد الرحمن . من حفاظ المحدثين وأئمة الدين

---

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٢٠ ترجمة ٢٠٤ ، ابن الفرضى : ص ٢٣ ترجمة ٥٥

(٢) الحميدى ص ٣٣٩ ترجمة ٧٩٥ ، ابن الفرضى ترجمة ١٤٤٥

(٣) ابن الفرضى ترجمة ١٤٠٩ ، الحميدى : ترجمة ٨١٦

(٤) ابن الفرضى ص ٢١٤ ترجمة ٦٣٩ ، الحميدى : ص ٢٤٩ ترجمة ٥٢٢

رحل إلى المشرق والتقى بجماعة من أئمة المحدثين منهم إبراهيم بن محمد الشافعى صاحب ابن عيينة ، ويحيى بن عبد الله بن بكير صاحب مالك .. والحارث بن مسكين وغيرهم(١) وكذا قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار القرطبي سمع من عبيد الله بن يحيي وسعيد بن عثمان الأعناقى ، وطاهر بن عبد العزيز وغيرهم وتوفى ٢٧٨ هـ(٢) .

وكذلك مسلم بن أحمد بن أبى عبيده الليثى القرطبي المعروف بصاحب القبلة وفد على مصر ٢٩٥ هـ وسمع من المزينى والربيع بن سليمان المؤذن ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهم. وكان أبو عبيدة من أصدق أهل زمانه حتى قيل عنه «كان أن يخر من السماء إلى الأرض أهون عليه من أن يكذب» توفى ٢٩٥ هـ(٣) .

كما قدم إلى مصر من أهل الحديث الألبيرى محمد بن فطيس بن واصل الغافقى سنة ٢٥٧ وسمع بن يونس بن الأعلى ، ومحمد بن عبد الحكم وإسماعيل بن يحيي المزنى ، محمد بن أصبغ بن الفرج وغيرهم ، وكان ابن فطيس نبيلا ضابطا لكتبه ، ثقة فى روايته صدوقا فى حديثه ، وكانت إليه الرحلة بالبيرة توفى ٣١٩ هـ(٤) .

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى قدم إلى مصر طلبا للحديث ثابت بن حزم بن عبد الرحمن بن مطرف سنة ٢٨٨ هـ مع ابنه قاسم . وسمع من أحمد ابن عمرو البزار وأحمد بن شعيب النسائى وكان عالما متفننا بصيرا بالحديث والفقه والنحو والغريب والشعر توفى ٣١٣ هـ(٥) .

---

(١) ابن الفرضى ص٩١ ترجمة ٢٨٣ ، الحميدى ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١

(٢) ابن الفرضى : ص ٣٦٨ ترجمة ١٠٧٣ ، الحميدى : جذوة المقتبس ٣٢٩ ترجمة ٧٦٤ .

(٣) ابن الفرضى ترجمة ١٤٢٠ .

(٤) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٢٩ ، ابن الفرضى ترجمة ١٢٠٥

(٥) ابن الفرضى ص ١٠٠ ترجمة ٣٠٨ ، الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٥ ترجمة ٣٠٥ .

وأيضا المحدث الأندلسى محمد بن معاوية بن عبد الرحمن المعروف بابن الأحمر رحل إلى مصر وسمع فيها من أحمد بن شعيب النسائى وروى عنه مصنفه فى السنن وكان أول من أدخله الاندلس وذكره أبو سعيد بن يونس فقال محمد ابن معاوية رأيته بمصر فى مجلس أبى عبد الرحمن النسائى، كما سمع بمصر أيضا من إسحاق بن إبراهيم المنجنيق، وإبراهيم بن موسى بن جميل وغيرهم(١).

وفى الفقه «مذهب مالك»

مال الأندلسيون فى بادىء الامر إلى مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى إمام الشام المتوفى ١٥٧هـ حتى ذاع صيت الإمام مالك صاحب المذهب المعروف باسمه فأقبل الأندلسيون على مذهبه فى عهد الأمير هشام الرضا ابن عبد الرحمن وعلى الرغم من أن فقهاء الأندلس رحلوا إلى المشرق ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب الشرق، واستقوا من علم مالك واجتهاده، ونقلوا عنه كتاب الموطأ، إلا أنه كان للمالكية المصرية أعظم الأثر فى الفقه الأندلسى، فحتى هؤلاء الذين اتصلوا بمالك نفسه من الأندلسيين، كانوا لا ينقطعون عن الاتصال بأصحابه من المصريين الذين يأخذون عنهم فى حياة مالك وبعد وفاته.

فكما أخذ يحيى بن يحيى الليثى عن مالك وروى عنه أفضل روايات الموطأ بعد ملازمته له. أخذ أيضا عن عبد الرحمن بن القاسم العتقى، وعبد الله بن وهب ونقل عنهما يؤكد ذلك ما ذكره صاحب نفح الطيب، ولما انفصل يحيى عن مالك ووصل إلى مصر رأى ابن القاسم يدون سماعه من مالك فنشط الرجوع إلى مالك ليسمع منه المسائل التى رأى ابن القاسم يدونها، فرحل رحلة ثانية فأتى مالكا عليلا فأقام عنده إلى أن مات(٢) ثم عاد إلى ابن القاسم،

(١) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٨٨ ترجمة ١٤٠ : ابن الفرضى : علماء الاندلس ترجمة ١٢٦٠.

(٢) توفى الإمام مالك بن أنس بالمدينة ١٧٩هـ / ٧٩٥م.

وسمع منه سماعه من مالك،(١) وكما أخذ أيضا ابن شبطون فقيه أهل الأندلس عن مالك أخذ أيضا عن ابن القاسم العتقى أكبر تلاميذ مالك وزعيم المالكية المصرية توفى ٢٠٤هـ(٢).

ومن الجدير بالذكر أنه كما كان هناك اتصال مباشر بين فقهاء الأندلس وأصحاب مالك فى مصر. كانت هناك مراسلات علمية بينهما فقد ذكر المؤرخون أن القاضى محمد بن بشير المعافرى تلقى العلم بمصر وتفقه على مالك ثم عاد إلى الأندلس فولاه الحكم الربضى قضاء قرطبة. فكان إذا اختلف عليه العلماء وأشكل عليه الأمر كتب إلى مصر يستشير ابن القاسم وابن وهب وغيرهما من تلاميذ مالك(٣).

وفى هذا دليل على تعدد وسائل الاتصال بين فقهاء الأندلس والمالكية المصرية ودوام الصلة العلمية بينهما.

ولا غرو أن استمر اتصال الأندلسيين بأصحاب مالك بعد وفاته، وأصبح صحاب مالك المصريين قبلة طلاب العلم الأندلسيين فتتلمذوا على أئمتها جيلا بعد جيل حتى غدا لأتباع مالك من المصريين تلاميذ فى كافة المدن الأندلسية يعتدون بآراء المصريين ويرجعون إليهم فيما أشكل عليهم، وقد أمدتنا المصادر الأندلسية بأسماء العديد من هؤلاء، فمن تتلمذ على عبد الرحمن ابن القاسم من الأندلسيين يحيى بن يحيى الليثى عاقل الأندلس الذى رحل إلى المشرق وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهائها مركز الصدارة وكان ذهنا حرا يعتز بحريته واستقلاله فلم يل قضاء ورفض كل دعوة إليه وتوفى ٢٣٤هـ(٤).

(١) الاندلس نفح الطيب ص ٤٢٩ نشر د. عدنان درويش، محمد المصرى وزارة الثقافة. دمشق ١٩٩٠م.

(٢) الحميدى: جذوة المقتبس ص ٢١٨ ترجمة ٤٣٩، ابن الفرضى: ترجمة ٤٥٨

(٣) الخشنى: قضاة قرطبة ص ٣٥

(٤) الأندلس من نفح الطيب ص ٤٣٩

وكذا عيسى بن دينار فقيه الأندلس صحب عبد الرحمن بن القاسم وتفقه عليه ، وكان ابن القاسم يجله ، ثم عاد إلى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه لا يتقدمه أحد فى وقته ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة فى ثورة الربض فهرب واستخفى حينا ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفى عام ٢١٢هـ(١) .

وغيره من الأندلسيين الذين أخذوا عن بن القاسم كابن شبطون ، وابن القاسم محمد بن بشير القاضى والفرج بن كنانة الذى ولى قضاء قرطبة بعد ابن بشير(٢) .

كما أخذ عن ابن وهب وأشهب بن عبد العزيز عدد من فقهاء الأندلس منهم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن رزيق وكان فقيها زاهدا جده أبو رافع مولى رسول الله (ص) وتوفى ٢٣٢هـ(٣) . وأيضا حسين بن عاصم الثقفى من أهل قرطبة ، أخذ عن عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وابن وهب(٤) إلى غير ذلك من الأندلسيين الذين أخذوا عن بن وهب وأشهب .

ثم تبع هؤلاء الجيل الثانى من الأندلسيين فأخذوا عن أصبغ بن الفرج مفتى مصر فى وقته وتلميذ ابن القاسم وابن وهب(٥) وقد كثر عدد الأندلسيين الذين أخذوا عنه منهم عبد الملك بن حبيب السلمى عالم الأندلس وكان مشاورا مع يحيى وسعيد بن حسان ، وأصله من إلبيرة وسكن قرطبة ورحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . وله عدة مؤلفات فى الفقه والتاريخ منها

---

(١) ابن الفرضى : علماء الاندلس ترجمة ٩٧٥ ، جذوة المقتبس : ترجمة ٦٧٨ ، عنان ، دولة الإسلام جـ ٢ ص ٦٩٢

(٢) علماء الأندلس ترجمة ١٠٣٠ . جذوة المقتبس ٧٦٢

(٣) علماء الأندلس ترجمة ٨١٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٦٢٧

(٤) علماء الأندلس ترجمة ٣٥١ وجذوة المقتبس ترجمة ٣٧٤.

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٣٠٣

« الواضحة فى مذهب مالك » و « الجوامع » وكتاب فى « فضائل الصحابة » وكتاب فى « غريب الحديث » وكتاب « حروب الإسلام » وكتاب « طبقات الفقهاء والتابعين » و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول فيه عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيي بن يحيي عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيهها وتوفى عبد الملك سنه ٢٣٨هـ(١) وكذلك عبد الله بن محمد ابن خالد الذى كان رأس المالكية فى وقته وهو من أهل قرطبة رحل إلى مصر وسمع من أصبغ بن الفرج وتوفى سنه ٢٥٦هـ(٢) .

كما تتلمذ الأندلسيون على محمد بن عبد الله بن الحكم رئيس المالكية فى وقته ولم يأخذوا عنه فقه مالك فقط ، بل أخذا عنه أيضا فقه الشافعى الذى كان ضليعا فيه ، ومن هؤلاء الأندلسيين الذين تتلمذوا عليه .

عمر بن يوسف بن عمروس الأشبيلى الذى رحل إلى مصر وسمع من محمد ابن عبدالله بن عبد الحكم وأخيه سعد . وتوفى سنه ٢٩٠هـ(٣) وأيضا حفص ابن عمر وبن نجيح الخولانى من أهل إلبيرة ، رحل إلى المشرق وسمع بمصر من محمد بن عبدالله بن عبد الحكم ونصر بن مرزوق وإبراهيم بن مرزوق وابن أخى ابن وهب وتوفى سنة ٣١٣هـ(٤) .

وتقاطر بعد ذلك الأندلسيون يأخذون عن أئمة المالكية فى مصر كيونس بن عبد الأعلى والحارث بن مسكين وغيرهم .

وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك فى ذيوع المذهب ، وفى تمكين مكانته بالأندلس(٥) .

---

(١) علماء الأندلس ترجمة ٨١٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ٢.

(٢) علماء الأندلس ترجمة ٣٦٥

(٣) علماء الأندلس : ترجمة ٩٤٥

(٤) المرجع السابق ترجمة ٣٦٦ ص ١١٨

(٥) عنان . دولة الإسلام فى الأندلس جـ ٢ ص ٦٩٢

وفضلا عن ذلك فأغلب الظن أن انتشار مذهب مالك فى الأندلس وشيوعه فيها يرجع إلى أن مذهب مالك كان متسامحا فى نصوصه تجاه أهل الذمة . فقد ورد فى المدونة الكبرى لابن سحنون المستفادة من فقه مالك نصوصا كثيرة فى هـــذا المعنى ، إذ كان للنصارى حق الشفعة ، وكان المرتدون لا يحكم عليهم دائما بالموت ، وكان يعاقب المسلم إذا كسر آنية الخمر لذمى دون الرجوع للحاكم(١) . وهذا التسامح كان يغرى المسيحيين بالدخول فى الإسلام .

مما سبق يتضح لنا أنه كان لكثرة التلقى على مالك وأصحابه المصريين أثر فى انتشار المذهب المالكى فى الأندلس والالتزام به - وهذا يضع أمام أعيننا الصورة الحقيقية لتأثير مدرسة مصر المالكية فى الأندلس كما يوضح الدور العظيم الذى قامت به مصر فى تثقيف الأندلس ليس على مذهب مالك فحسب بل على بعض المذاهب الأخرى - كفقه الشافعى وفقه الليث بن سعد - كما سنبينه .

فقه الشافعى :

عرف الفقه الشافعى طريقه إلى الأندلس على يد جماعة من فقهائه الذين تتلمذوا على أصحاب الشافعى ومالوا إلى مذهبه وعلى رأس هؤلاء بقى بن مخلد أول من أدخل فقه الشافعى إلى الأندلس فقد جاء فى ترجمة ابن الفرضى له « وكان مما انفرد به بقى بن مخلد عن سواه إدخاله كتاب الفقه لمحمد بن إدريس الشافعى الكبير بكماله(٢) » .

---

(١) المدونة الكبرى ج ٤ ص ٢٣٦ . نقلا عن د . محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ص ٧٣

(٢) علماء الأندلس ص ٩٢ ترجمة ٢٨٣

وبعد ذلك توافد الأندلسيون على أصحاب الشافعى كالبويطى والمزنى ومحمد ابن عبد الله بن الحكم يأخذون عنهم فقه الشافعى ، ومن هؤلاء الأندلسيين مسلم بن أحمد بن أبى عبيدة الليثى ، المعروف بصاحب القبلة من أهل قرطبة رحل إلى المشرق سنة ٢٥٩ هـ وسمع بمصر من المزنى والربيع ابن سليمان المؤذن ومحمد بن عبد الله بن الحكم وغيرهم وتوفى بالأندلس ٣٠٤ هـ(٢) .

وكذلك أسلم بن عبد العزيز بن هاشم القرطبى رحل إلى المشرق ٢٦٠ هـ فأخذ عن أبى يحي المزنى والربيع بن سليمان صاحب الشافعى ، ومحمد بن عبد بن الحكم ، ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم ، ثم عاد إلى الأندلس فتولى القضاء لعبد الرحمن الناصر ٣١٩ هـ ، وغير هؤلاء كثير(٣) .

ومن الجدير بالذكر أن المذهب الشافعى لم ينتشر فى الأندلس لما لقيه من معارضة فقهاء المالكية رغم أن الدولة فى الأندلس أفسحت صدرها لفقهاء الشافعية ، والدليل على ذلك أن أحد فقهاء الشافعية وهو أسلم ابن عبد العزيز تولى قضاء قرطبة مرتين رغم أنه شافعى المذهب .

فقه الليث :

وكما أخذ فقهاء الأندلس عن فقهاء المالكية فى مصر فقه مالك ، وعن فقهاء الشافعية أخذوا أيضا فقه الليث بن سعد . وعلى الرغم من أن مذهب الليث لم يعمر طويلا ، إلا أنه كان له نفوذ عظيم فى الأندلس لم يحظ به فى مصر نفسها - ومن الأندلسيين الذين أخذوا عن الليث بن سعد وكاتبه عبد الله بن صالح ومعاوية بن صالح الحضرمى ، فقد جاء فى ترجمته « استقضاه الإمام عبد الرحمن بن معاوية بقرطبة ، ووجهه إلى الشام .. وفى رحلته سمع

---

(١) المرجع السابق ص ٨٩ ترجمة ٢٨٠

(٢) المرجع السابق ترجمة ١٤٢٠

من الليث بن سعد وعبد الرحمن بن مهدى ويحي بن سعيد القطان وعبد الله بن صالح كاتب الليث(١) » .

وكذلك زياد بن عبد الرحمن اللخمى المعروف بابن شبطون عميد فقهاء الأندلس فى وقته ، وهو أول من أدخل إلى الأندلس فقه مالك بن أنس ، وكان قبل ذلك على مذهب الأوزاعى ، وقد روى زياد عن الليث بن سعد وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويجله لعلمه وورعه وزهده توفى سنة ٢٠٤ هـ(٢) .

وممن أخذ عن الليث أيضا عباس المعلم القرطبى ، حدث عن عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد(٣) وكذلك قرعوس بن العباس الثقفى من أهل قرطبة سمع من مالك بن أنس ، وسفيان الثورى ، والليث بن سعد وتوفى ٢٢٠ هـ(٤) . وكذا يحي بن يحي الذى رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سمع بمصر من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن ابن القاسم(٥) وغيرهم .

ورغم شيوع مذهب مالك فى الأندلس ، كان الأندلسيون يعتدون بكثير من آراء الليث ، حتى أن يحي بن يحي الليثى مفتى الأندلس بعد عيسى ابن دينار وكان يفتى برأى مالك بن أنس ـ كان يأخذ برأى الليث فى بعض المسائل ، ومن ذلك تركه القنوت فى الصبح ، كما ترك يحي أيضا رأى مالك فى اليمين مع الشاهد وأخذ بقول الليث فى ذلك وإيجاب شاهدين(٦) .

---

(١) علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٤٣٩ ، عنان : دولة الإسلام ج ٢ ص ٦٩٢

(٣) علماء الأندلس ترجمة ٨٧٩

(٤) جذوة المقتبس ترجمة ٧٨٠

(٥ علماء الأندلس ترجمة ١٥٥٦

(٦) المرجع السابق نفس الترجمة .

ومن مخالفة يحي لمذهب مالك فى الافتاء أيضا ماروى أن الأمير عبد الرحمن الناصر اتصل بجارية فى نهار رمضان ثم ندم على مافعل ندما كبيرا. فسأل يحي عن الكفارة فقال له تصوم شهرين متتابعين ، فلما خرج قيل له لِمَ لَمْ تفت بمذهب مالك فى التخيير بين الصوم وعتق رقبة فقال « لو فتحنا هذا الباب لسهل عليه أن يتصل كل يوم بجواريه ثم يعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمرين لئلا يعود[1] » وتوفى ٢٣٣ هـ أو ٢٣٤ هـ[2] .

ومما سبق يتضح لنا أن ما أخذه فقهاء الأندلس عن الفقهاء المصريين لم يقتصر على الفقه المالكى فحسب بل تعددت مذاهب الفقهاء التى وصلت إلى الأندلس ، وإن كان بعضها كان له الغلبة وكثرة الأتباع ، وبعضها كان لا يعتنقه إلا أفراد قليلون ، وهذا دليل على أن كل الآراء التى كانت تدور حول التشريع الإسلامى فى أرجاء العالم الإسلامى كانت معروفة وتدرس فى الأندلس وأن مصر قد أسهمت فيها بنصيب كبير :

أما الفقه الحنفى : فلم يقبل الأندلسيون عليه لأسباب منها :. أن الجيوش العربية التى غزت المغرب والأندلس كان معظمها من الحجازيين فى طالعة موسى بن نصير ، ثم من أهل الشام ومصر فى طالعة بلج بن بشر .

أما العنصر العراقى فلم يكن ممثلا فى هذه الجيوش ، هذا فضلا عن أن بلاد الأندلس كانت مستقلة عن الدولة العباسية التى كان مذهبها الرسمى هو المذهب الحنفى لهذا كان من الطبيعى أن ينتشر المذهب المالكى فى الأندلس تحقيقا للنزعة الاستقلالية عن المشرق[3] .

التصوف[4] :

تأثر الأندلس فى ميدان التصوف بمتصوفة مصر ، وخصوصا الصوفى

---

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ٣ ص ٤٩

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٨٤

(٣) د . العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١١٥

(٤) عن الحركة الصوفية : يقول آدم متز : « والحركة الصوفية فى القرنين =

المصرى ذى النون الإخميمى الذى كان له تأثير عظيم فى الأندلس ومن أشهر من تأثروا به . أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من سلك طريق التصوف فى الأندلس على طريقة ذى النون المصرى. وقد ذكر ابن الفرضى أنه رحل إلى المشرق ٢٩٨ﻫ واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأظهر نسكا وورعا . وكان يتخذ لنفسه غارا يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة حتى سمى بالجبلى وتحامل عليه ابن الفرضى فقال عنه كان : يقول بالاستطاعة وإنفاذ الوعيد . ويحرف التأويل فى كثير من القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى وأبى يعقوب النهر جورى ، وكان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعانى(١) .

وقد اختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه وجزالة بيانه ، حتى ذاعت شهرته وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ . وقد اختلف فى أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة فى العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة ، وترويج البدع ، وتوفى ابن مسرة بقرطبة ٣١٩ ﻫ (٩٣١ م(٢)) على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة طوال عهد الناصر .

= الثالث والرابع أوجدت فى الإسلام ثلاثة مبادىء أثرت فيه تأثيرا كبيرا . وهى : ثقة وطيدة كاملة بالله تعالى ، والاعتقاد بالأولياء ، وإجلال النبى محمد عليه السلام ، ولا تزال هذه المبادىء الثلاثة أهم العوامل وأقواها تأثيرا فى الحياة الإسلامية » الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ٣٥٠

(١) علماء الأندلس ق ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٨٣ عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ٢ ص ٦٩٩

وكل ذلك يوضح لنا العلاقة الفكرية الوثيقة التى قامت بين الأندلس ومصر. حيث كانت رحلة العلماء والطلاب إلى مصر للأخذ عن علمائها فى مختلف العلوم هى المظهر العملى الواقعى لتأثر الأندلس بمصر، والتفاعل معها والاستفادة من علمائها. فبعد نضج المدرسة المصرية على النحو الذى فصلناه آنفا انتقلت مصر من دور التأثر إلى دور التأثير، وكان الأندلس من أكثر الأمصار الإسلامية تأثرا بالحركة العلمية فى مصر.

كما يتبين لنا مما سبق أننا لا نجد من أهل مصر من رحل إلى الأندلس لأجل التعلم فيها والأخذ عن علمائها، وإنما كان أهل الأندلس هم الذين يأتون إلى مصر لأجل التعلم والأخذ عن علمائها - وهذا يؤكد دور مصر البارز فى تكوين ثقافة الأندلس، فإلى مصر كانت تفد رحلات الطلاب من مختلف بلاد الأندلس، وإذا ذهب إلى الأندلس عالم من مصر فإنما لبث علمه وتعليم الناس هناك. ولم نجد - فيما أطلعنا عليه - عالما من مصر ذهب إلى الأندلس لطلب العلم ثم عاد ليعلم فى مصر ما تلقاه فى الأندلس.

كما نود أن نسجل فى ختام البحث أن الرحلات العلمية الشاقة بين مصر والأندلس - نظراً لصعوبة المواصلات حينئذ - كانت رحلات يقوم بها العلماء والطلاب بمحض اختيارهم وعلى نفقتهم الخاصة رغبة فى تحصيل العلم وترقية الفكر لا يبغون بذلك سوى وجه الله وحب الخير ونشر العلم. وليس سعيا لأجل منصب أو مركز من مراكز السلطة، بل بدافع فطرى وبمجهود ذاتى حبا للعلم ورغبة فى المعرفة - فهو يقرأون ويسافرون لكى ويتعلموا لا لكى يأخذوا جاريا أو يحققوا جاها، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب، ذلك يباعث من نفسة يحمله على أن يترك الذى يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم، فجزاهم الله عن الإسلام والعلم خير الجزاء.

والله ولى التوفيق ؟

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر

١ — ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م .

٢ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .

٣ — ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العـــرب ، تحقيق ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

٤ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر، الشعب، بولاق ١٢٨٤ هـ .

٥ — ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بولاق ١٣٠٩ هـ.

٦ — ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ومراجعة كولان وبرفنسال بيروت سنة ١٩٨٣ م .

٧ — التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، تحقيق لطفى عبد البديع ، القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

٨ — الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ .

٩ — الخشنى : قضاة قرطبة ـ المكتبة الأندلسية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٦٦ م .

١٠ — الزرنوجى : تعليم المتعلم طرق التعليم ـ تحقيق عبد اللطيف العبـــد القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

١١ ـ السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٦٧ م .

١٢ ـ الكندى : فضائل مصر ، تحقيق إبراهيم العدوى ، وعلى محمد عمر ، دار الفكر القاهرة سنة ١٩٧١ م .

١٣ ـ المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، نشر عدنان درويش وآخر ، دمشق سنة ١٩٩٠ م .

١٤ ـ المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، طبعة الشياح. لبنان سنة ١٩٥٣ م .

١٥ ـ مؤلف مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الاندلس ، تحقيق إبراهيم الإبيارى القاهرة سنة ١٩٨١ م .

ثانياً : المراجع

١ ـ أحمد أمين : فجر الإسلام ، النهضة المصرية سنة ١٩٧٨ ، ظهر الإسلام جـ ٣ مكتبة النهضة المصرية .

٢ ـ أحمد مختار العبادى : فى تاريخ المغرب والأندلس ، دار النهضة العربية بيروت .

٣ ـ آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى تعريب د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة ، دار الكتاب العربى بيروت .

٤ ـ السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٢ م .

٥ ـ د . السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور فى الأندلس ـ اسكندرية سنة ١٩٨٦ م .

٦ ـ د . رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية وعهد بنى أمية ، دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٨٥ م .

٧ — د . عبد الله خورشيد البرى : تاريخ القرآن وعلومه فى عصر الولاة.
رسالة ماجستير .

٨ — د . عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الإسلامية فىالعصور الوسطى.
القاهرة سنة ١٩٨٧ م .

٩ — د . محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية ،
دار المنار القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

١٠ — محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس جـ ١ ، ٢ نشر مكتبة
الخانجى بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .

١١ — د . محمد كامل حسين : الحياة الفكرية والأدبية بمصر سلسلة الألف
كتاب ٢٤٤ النهضة المصرية سنة ١٩٥٩ م .

١٢ — د . مصطفى طه بدر مصر الإسلامية من الفتح حتى زوال الدولة
الإخشيدية ط ١ القاهرة ١٩٥٩ م .

« تحليل تاريخى »

(لخروج قتيبة بن مسلم على الخليفة سليمان بن عبد الملك)

بقلم الدكتور

السيد عبد الفتاح بلاط

مدرس بكلية اللغة ـ قسم التاريخ والحضارة

التعريف بقتيبة :

يقتضى منهج البحث التاريخى أن نلقى الضوء على حياة هذا القائد ، خاصة وقد سطع نجمه فى مجال الفتوحات الإسلامية فى العصر الأموى .

فهو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أسيد ابن قضاعة بن هلال الباهلى(١) ، الأمير أبو حفص(٢) . ولد سنة ٤٩هـ/ سنة ٦٦٩م(٣) .

(١) نسبة إلى باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة ، وكانت تحت مالك بن أعصر فأولدها معناً وحارثة وسعد مناه ، فلما توفى خلفه ابنه معن فولدت له أولاده ، وحضنت سائر ولده من غيرها ، فنسبوا جميعا إليها وبها يعرفون . ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد) : العقد الفريد ـ ط ٢ سنة ١٩٨٢م ـ المطبعة الأزهرية ـ ٢٢٥/٢ ، ابن حزم (على بن أحمد) : جمهرة أنساب العرب ـ ط ١ سنة ١٩٨٣م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ص ٢٤٥ .

(٢) ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد) : وفيات الأعيان ـ دار صادر ـ بيروت سنة ١٩٧٨م — ٨٨/٤ ، الذهبى (محمد بن أحمد) . سير أعلام النبلاء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٩٨٥م — ٤١٠/٤

(٣) الزركلى (خير الدين) الأعلام ـ ط ٩ سنة ١٩٩٠م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٨٩/٥

ونشأ فى الدولة المروانية(١) وكان والده مسلم بن عمرو كبير القدر عند يزيد بن معاوية، وقتل فيمن قتل مع مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ/سنة ٦٩١م(٢).

ولم تذكر لنا المصادر مايوضح نشأته الأولى، ولكنها أفاضت فى الحديث عن فتوحاته، ولكنه على أى حال نشأ كما ينشأ الغلمان فى العصر الأموى، من حفظ القرآن الكريم وتعرف على بعض أحكام الإسلام، وتعلم بعض قواعد الخط واللغة والحساب. ويبدو أنه فى مرحلة الشباب اتجه إلى تعلم فنون العسكرية الإسلامية، مما أكسبه خبرة حربية كبيرة، وشجاعة فائقة، كان لها أثر كبير فى فتوحاته فيما بعد.

لذا فقد كان قتيبة بطلا شجاعا، شهما مقداما(٣) جوادا كريما، نجيبا فطنا، دمث الأخلاق(٤)، من سادات الأمراء، وخيارهم، له رأى فى النوازل الشديدة، والفتوحات العظيمة(٥).

ولقتيبة رواية حديث، فقد روى عن عمران بن حصين، وأبى سعيد الخدرى(٦).

---

(١) ابن نباتة (جمال الدين محمد بن محمد): سرح العيون - ط ٤ سنة ١٣٢١هـ - مطبعة الموسوعات - مصر - ص ١٢٣، البغدادى (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب - ط ١ سنة ١٩٨١م - الخانجى - مصر ٨٣/٩
(٢) ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم): المعارف - دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٠م - ص ٤٠٦، ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل): البداية والنهاية - ط ١ سنة ١٩٩١م - دار الغد ٢٢١/٩
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٨٧/٤، الذهبى: العبر فى خبر من غبر - ط د سنة ١٩٨٥م - دار الكتب العلمية بيروت - ٨٦/١
(٤) ابن نباتة: سرح العيون ص ١٢٣، البغدادى: خزانة الأدب ٨٣/٩
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٢٠/٩
(٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء ٤١٠/٤

كما كان فصيحا بليغا ، فإنه لما فتح بلاد الصُّغد وأشرف بمن معه على أخذ جبالها قال لأصحابه : شبهوه ، فلم يأتوا بشيء . فقال قتيبة : « كأنه السماء فى الخضرة ، وكأن قصوره النجوم الزاهرة ، وكأن أنهاره المجرَّة » ، فاستحسنوا منه هذا التشبيه ، وتعجبوا من إصابته(١) .

وكان أيضا راوية للشعر ، حافظا له ، عالما به ؛ فيروى أن عبد الملك ابن مروان(٢) كتب إلى الحجاج بن يوسف(٣) : « أنت قِدْح بن مقبل » ، فلم يدر الحجاج ما أراد ، فسأل قتيبة ، فقال له : أبشر أيها الأمير ؛ فإنه قد مدحك ، أما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قِدْحا له :

غدا وهو مجدول فراح كأنه من المس والتقليب بالكف أفطح
إذا امتحنته من معدّ قبيلة غدا به قبل المفيضين يقدح(٤)

والمراد تشبيه الحجاج بقدح ابن مقبل فى كثرة الفوز والظفر .

ولما أتاه خبر وفاة الحجاج بن يوسف (سنة ٩٥هـ / سنة ٧١٣م) ، غمه ذلك ، وتمثل بقول الحطيئة :

لعمرى لنعم المرء من آل جعفر بحوران من أمسى أعلقته الحبائل

---

(١) الثعالبى (عبد الملك بن محمد) : ثمار القلوب - دار نهضة مصر - سنة ١٩٦٥م - ص ٢٧٥

(٢) انظر ترجمته فى : ابن شاكر : فوات الوفيات ٣١/٢ - ٣٣ ، ابن كثير : البداية ٨٣/٩ - ٩٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢١٤ - ٢٢٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٩٧/١

(٣) انظر ترجمته فى : ابن الاثير : الكامل ٢٨٣/٤ - ٢٨٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٢٩/٢ - ٥٤ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٣٠٧/١١ - ٣١٤ ، ابن كثير : البداية ١٥٦/٩ - ١٨٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١٠٦/١ ، ١٠٧ .

(٤) الثعالبى : ثمار القلوب ص٢١٨ ، ابن نباتة : سرح العيون ص١٢٨ ، ١٢٩

فإن تحيا لا أملل حياتى وإن تمت   فما فى حياة بعد موتك طائل(١)

كما كان قتيبة واسع الأفق، عالما بأحوال الناس والملوك، فقد كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يوما: «أنت عندى سالم»، فلم يعرف ما أراد الخليفة بذلك، فكتب إلى قتيبة يسأله، وأرسل الكتاب مع رسوله، فلما ورد على قتيبة وقرأه، قال للرسول: أعلم الأمير أن سالما كان عبداً لرجل، وكان أثيرا عنده، وكان يسعى به إليه كثيراً، فقال:

يديروننى عن سالم وأديرهم   وجلدة بين العين والأنف سالم

فاطمأن الحجاج وعرف قدره لدى الخليفة(٢).

كما أن له أقوال تدل على رجاحة عقله، ونفاذ رأيه، فقد كتب إليه الحجاج: إنى طلقت بنت قيس الهلالية عن غير ريبة فتزوجها، فكتب إليه: «ليس كل مطالع الأمير أحب أن أطلع»، فأعجب الحجاج بإجابته(٣).

ومن كلامه الذى يدل على حصافة عقله: «لا تستعن على من تطلب إليه حاجة بمن له عنده طمع، فإنه لا يؤثرك على نفسه، ولا بكذاب فإنه يقرب إليك البعيد ويبعد القريب، ولا بأحمق فإنه ربما أراد نفعك فضرك»(٤).

فتوحاته :

وما من شك فى أن هذه الصفات جميعا ساعدت على ظهور نجم قتيبة مبكراً، فولاه عبد الملك بن مروان الرى(٥)، ولما تولى الحجاج بن يوسف

(١) ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم) الكامل فى التاريخ - ط ١ سنة ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت ٢٨٣/٤، تاريخ الطبرى ج٦ص٤٩٢

(٢) المسعودى (على بن الحسين): مروج الذهب - المكتبة العصرية - بيروت سنة ١٩٨٧م - ١٢٦/٣، ١٢٧

(٣) ابن نباتة: سرح العيون ص١٢٩

(٤) ابن نباتة: سرح العيون ص ١٢٩

(٥) ابن قتيبة: المعارف ص٤٠٧. الزركلى: الأعلام ١٨٩/٥

بلاد العراق (سنة ٧٥هـ/سنة ٦٩٤ م)، ومكن لنفسه فيها سعى لدى عبد الملك ابن مروان فى ولاية قتيبة بلاد خراسان ، ولم يزل بعبد الملك يحذره آل المهلب - وخاصة يزيد - حتى رضـــخ له وخلع يزيد وولاها قتيبة (سنة ٨٦هـ سنة ٧٠٥م)(١)، وظل واليا عليها عشر سنين(٢) . وقيل ثلاث عشرة سنة(٣).

واتخذ قتيبة من مدينة مرو قاعدة له ، ومنها جرد الحملات الواحدة تلو الأخرى حتى تمكن من فتح بلاد ما وراء النهر، ففى (سنة ٨٦هـ / سنة ٧٠٥م) خرج قتيبة إلى بلخ ، فتلقاه دهاقينها وعظماؤها ، وساروا معه ، فلما عبر نهر جيحون التقى بملك الصغانيان ، الذى أتحفه بكثير من الهدايا ، وسلم إليه بلاده(٤) .

وفى السنة التالية - (سنة ٨٧ هـ / سنة ٧٠٥ م) غزا قتيبة بيكند ، حيث أغار على الصُغد وقاتلهم قتالا شديداً ، فانهزموا وتفرقوا ، ثم طلبوا الصلح فصالحهم ، وولى عليهم واليا من قبله .

وفى (سنة ٨٨هـ / سنة ٧٠٦ م) استخلف قتيبة على مرو أخاه بشار ابن مسلم وواصل فتوحاته ، فكان النصر حليفه فى بلاد كرمينية(٥) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢٢٧/٤ ، ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤١٠/٤

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢٤١/٤

(٤) البلاذرى (أحمد بن يحيى) : فتوح البلدان - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ٩٨٣ م - ص٤٠٩ ، الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك - ط ٤ سنة ١٩٧٩م - دار المعارف - ٤٢٩/٦ ، ٤٣٠ ، ابن خلدون (عبد الرحمن ابن محمد (: العبر وديوان المبتدأ والخبر . ط ١ سنة ١٩٩٢م - دار الكتب العلمية - بيروت ٧١/٣

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٠ ، د/ حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى - ط ٩ سنة ١٩٧٩م - النهضة المصرية ٣٠٧/١

وفى (سنة ٨٩ هـ / سنة ٧٠٧ م) غزا قتيبة بلاد الصغد ثانية ففتح نسف، وكس ـ كسن ـ(١) . وفى نفس السنة أيضا ـ (سنة ٨٩هـ / سنة ٧٠٧ م) توجه إلى بخارى ، ولقى فيها خلقا كثيرا ، اضطروا أخيراً إلى مصالحته(٢) .

وفى (سنة ٩٣هـ / سنة ٧١١ م) تمكن قتيبة من فتح مدن خوارزم ، ثم سمرقند بعد قتال شديد ، واستخلف عليها عبد الله بن مسلم ، ثم عاد إلى مرو(٣) . وبفتح سمرقند وطد قتيبة مركزه فى بلاد ماوراء النهر(٤) .

وبعد ذلك توجه إلى فرغانة ، وواصل سيره حتى بلغ خجندة ، ولم يلق فيها مقاومة تذكر ، فأحرز نصراً سريعاً على أهلها(٥) ثم انصرف إلى كاشان حاضرة فرغانة لفتحها وعاد إلى مرو(٦) .

وفى (سنة ٩٦هـ / سنة ٧١٤م) غزا قتيبة كاشغر ـ فى أقصى بلاد الترك ـ ثم توجه إلى حدود الصين ، مما اضطر ملكها إلى دفع الجزية(٧) .

ويذكر البلاذرى(٨) كثيراً من فتوحات قتيبة بن مسلم فى قوله : « فتح قتيبة خارزم ـ خوارزم ـ وفتح سمرقند .... ، وفتح بيكند وكسن ونسف والشاس ، وغزا فرغانة ... وغزا السغد ـ الصغد ـ وأشرو سنة » .

---

(١) ابن كثير : البداية ١٠٢/٩

(٢) الدينورى (أحمد بن داود) : الأخبار الطوال ـ ط ١ سنة ١٩٦٠م ـ نشر وزارة الثقافة والإرشاد ـ ص٣٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ٢٥٤/٤ ، ٢٥٥ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ٤١٠ ، الطبرى : الرسل والملوك ٤٧٢/٦ ـ ٤٧٦ ، ابن الأثير الكامل: ٢٧٣/٤ ـ ٢٧٥ .

(٤) د/ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ٣٠٨/١ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ٢٨١/٤ ، ابن كثير : البداية ١٢٨/٩

(٦) الطبرى : الرسل والملوك ٤٨٤/٦

(٧) ابن خلدون : العبر ٨١/٣

(٨) فتوح البلدان ص ٤١١

ولما تمت لقتيبة هذه الفتوح العظيمة طلب نهار بن تَوسعة شاعر المهلب ابن أبي صفرة وبنيه ، وقال له : أين قولك فى المهلب لما مات :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

أفغزو هذا يانهار ؟ قال : بل هذا حشر ، ثم قال نهار وأنا القائل :

ولا كان مذكنا ولا كان قبلنا ... ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم
أعم لأهل الترك قتلا بسيفه ... وأكثر فينا مقسم بعد مقسم(١)

وهكذا كانت حياة هذا القائد سلسلة متواصلة من الجهاد والفتح فى سبيل الله ، حتى قال فيه ابن خلكان(٢) : « بلغ قتيبة بن مسلم فى غزو الترك والتوغل فى بلاد ماوراء النهر ، وافتتاح القلاع .... ما لم يبلغه المهلب ابن أبي صفرة ولا غيره ... » . وقال الذهبي(٣) .

« واطأ الكفار ذلا وخوفا » . وقال ابن كثير(٤) : « وقد هدى الله على يديه خلقا لايحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانو لله عز وجل » .

وكان من النتائج التى ترتبت على هذه الفتوحات ، أن جعلت إقليم ماوراء النهر يدخل فى نطاق الدولة الأموية، وكان ذلك فاتحة لاتصال العالم الإسلامى بأواسط آسيا وبالجنس التركى ، الذى أتيح له بعد ذلك ، أن يكون ذا شأن خطير ومؤثر فى شئون الدولة الإسلامية ، وخاصة فى العصر العباسى .

كذلك كان لقتيبة بن مسلم ومجهوداته الفضل فى أن تصبح بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم مراكز للثقافة العربية ، ولنشر الإسلام فى آسيا الوسطى ، كما كانت مرو ، ونيسابور فى خراسان .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٨٧/٤
(٢) وفيات الأعيان ٨٧/٤
(٣) العبر فى خبر من غبر ٧٨/١
(٤) البداية ٢٢٠/٩

كذلك زادت فتوحات قتيبة بن مسلم من الاتصال بين الدولة الإسلامية وبين الصين فى مجالات شتى ، سياسية ، وتجارية ، ودينية ، وثقافية(١) .

هذا تعريف موجز بقتيبة بن مسلم نسبه ، ونشأته ، وصفاته ،وفتوحاته، فما هى الأسباب التى دفعت هذا القائد للخروج على الخليفة سليمان بن عبد الملك؟

أسباب العداء بين قتيبة وسليمان بن عبد الملك :

كان للعداء بين قتيبة بن مسلم ـ والى خراسان ـ وسليمان بن عبد الملك ـ خليفة المسلمين ـ أسباب عدة نستطيع أن نجملها فيما يلى :

أولا : موافقة قتيبة للوليد بن عبد الملك(٢) على خلع أخيه سليمان(٣) ، والبيعة لابنه عبد العزيز . وموافقة قتيبة هذه قد جعلها كثير من المؤرخين هى الأصل فى العداء بينهما . لذا يتحتم علينا الرجوع إلى الوراء قليلا لبيان حقيقتها .

كان عبد الملك بن مروان لما جاءه خبر وفاة أخيه عبد العزيز (سنة٨٥هـ/ سنة ٧٠٣ م) ، وقد سأل محمد بن يزيد الأنصارى ـ كاتبه ـ وقال له : إن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ قد مضى لسبيله ، ولابد للناس من قائم يقوم بالأمر

---

(١) د/ سيدة كاشف . الوليد بن عبد الملك ـ سلسلة أعلام العرب ـ نشر وزارة الثقافة سنة ١٩٦٢ م ـ ص ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) انظر ترجمته فى : الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٤٧/٤ ، ٣٤٨ ، ابن كثير : البداية ٢١٢/٩ ، ٢١٨ ، السيوطى تاريخ الخلفاء ص٢٢٣ — ٢٢٥ ، ابن العماد : شذرات الذهب ١١١/١ ، ١١٢ ، الزركلى : الأعلام ١٢١/٨

(٣) انظر ترجمته فى : ابن الأثير : الكامل ٣١١/٤ ، ٣١٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤٢٠/٢ — ٤٢٦ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٤٠٠/١٥ — ٤٠٤ ، ابن شاكر : فوات الوفيات ٣٦٠/١ ، ٣٦١ ، ابن كثير : البداية ٢٣٣/٩ — ٢٤٢ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ — ٢٨٨ ، الزركلى : الأعلام ١٣٠/٣

من بعدى ، فمن ترى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، سيد الناس وأرضاهم وأفضلهم الوليد بن عبد الملك ، قال : صدقت . فمن ترى بعده ؟ قال : يا أمير المؤمنين أين تعدلها عن سليمان ، فتى العرب ، قال : وفقت ، أما لو تركنا الوليد وإياها لجعلها لبنيه ، أكتب عهد الوليد وسليمان من بعده(١) .

وكتب بالبيعة لهما إلى سائر البلاد، فبايع الناس إلا نفر قليل(٢) وهكذا كانت البيعة من عبد الملك لابنه الوليد ثم لسليمان من بعده ، حيث تخوف عبد الملك من الوليد أن يستأثر بها لأولاده من بعده .

لذا أوصى عبد الملك أولاده ، قائلا لهم : « أوصيكم بتقوى الله ... وليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ... وإياكم والبغى والتحاسد ، فبهما هلك الماضون وذوو العز المكين ... »(٣) .

ويبدو أن تخوف عبد الملك بن مروان كان فى موقعه ، فما إن تولى الوليد الخلافة (سنة ٨٦هـ / سنة ٧٠٥ م) ، وذاق حلاوة الملك .

حتى بدأ العمل فى التمكين لأولاده من بعده ، ووقع اختياره على ولده عبد العزيز ، وأوعز إلى القواد والشعراء أن يقولوا فيه ليرفعوا من شأنه ، فقال جرير(٤) .

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٤١٥/٦

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة مطبعة النيل - مصر سنة ١٩٠٤م -٨٦/٢، ٨٧ ، الدينورى : الأخبار الطوال ص٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ابن خلدون : العبر ٦٩/٣

(٣) المسعودى : مروج الذهب ١٧٠/٣ ، ابن الأثير : الكامل ٢٧٣/٤

(٤) أنظر ترجمته فى : ابن خلكان وفيات الأعيان ٣٢١/١-٣٢٧ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٩٠/٤ ، ٥٩١ ، الصفدى : الوافى بالوفيات ٧٩/١١ — ٨١ ، الزركلى : الأعلام ١١٩/٢

إذا قيل أى الناس خير خليفة | أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق الناس بالأمر كلهم | وما ظلموا إذ بايعوه وسارعوا

وقال جرير أيضا يحض الوليد على البيعة لابنه عبد العزيز :

رأوا عبد العزيز ولى عهد | وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فماذا تنظرون بها وفيكم | جسور بالعظائم واعتلاء
فزحلقها بأزملها إليه | أمير المؤمنين إذا تشاء
فإن الناس قدمدوا إليه | أكفهم وقد برح الخفاء(١)

ويبدو أن ما أراده الوليد وما قاله جرير قد جاء بثمرته المرجوة ، حتى أن رجلا من أهل الشام قال : « ليس من ولد الوليد أحد إلا ومن رآه يحسب أنه أفضل أهل بيته ، ولو وزن بهم أجمعين عبد العزيز لرجحهم »(٢) .

ويرى بعض المؤرخين أن الوليد ما أقدم على البيعة لابنه عبد العزيز إلا بإيعاز من الحجاج - والى العراق - الذى زينها له ، مع ضمان بيعة أهل المشرق . يقول ابن كثير(٣):« وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك ،وأمره به». وكان دافع الحجاج فى هذا حقده على سليمان الذى أوى إليه يزيد بن المهلب(٤) حينما فرَّ منه (سنة ٩٠ هـ / سنة ٧٠٨ م) فلم يكن الحجاج غافلا عما كان يريده به سليمان ، فأوعز إلى الوليد وأيده(٥) . ولا يستبعد هذا من الحجاج، فقد حرَّض عبد الملك من قبل على البيعة لابنه الوليد وخلع أخيه عبدالعزيز

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٥٥٧/٦

(٢) ابن عبد ربه : العقد ١٦٣/٣ (٣) البداية ٢١٩/٩

(٤) انظر ترجمته فى : ابن الأثير : الكامل ٣٣٩/٤ — ٣٤٦ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢٧٨/٦ - ٣٠٩ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٥٠٣/٤ ، ٣٠٦

(٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية - ترجمة د / محمد عبد الهادى أبو ريدة - لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨م — ص٢٤٩

سنة ٨٥ هـ / سنة ٧٠٤م(١) .

وبدأ الوليد عمليا فى رفع شأن ابنه عبد العزيز بين الناس ، سواء بإرساله للغزو ، كما حدث (سنة ٩١هـ / سنة ٧٠٩ م) ، حيث كان مع مسلمة ابن عبد الملك فى صائفة(٢) هذه السنة(٣) . وفى (سنة ٩٤هـ / سنة ٧١٢م) غزا عبد العزيز حتى بلغ غزالة - من حدود الروم - ورجع سالما(٤) . أو بالحج بالناس كما حدث (سنة ٩٣هـ/ سنة ٧١١ م)(٥) ، والسنة التى تليها (سنة ٩٤هـ سنة ٧١٢ م)(٦) . ومعروف فى هذا الوقت مدى تعلق قلوب الناس بمن يخرج لقتال الروم وغزو عاصمتهم القسطنطينية ، حتى أن الناس كانوا يتبركون بدعائهم ، وكذلك الحال بالنسبة للحج حيث كان لايحج بالناس إلا الخليفة أو من ينوب عنه ، مما يرفع من قدره .

وبدأ سليمان يتخوف من الوليد، لكن يبدو أنه لم يتعجل الإفصاح عما يدور بخلده وآثر التريث ، ولكن أهل السوء أشاعوا أن سليمان يتمنى موت الوليد بما أحزنه ، فأسرع سليمان بالكتابة إلى أخيه الوليد يعيب عليه أن يسمع - وهو خليفة - لمثل هذه الوشايات الكاذبة ، وقال له: «وقد بلغ أمير المؤمنين مالم يظهر من لفظى :ولا يرى من لحظى ...»(٧)، فصدقه الوليد واطمأنت نفسه.

(١) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٣٥ ، ابن خلدون : العبر ٣/٦٩

(٢) الصائفة : الغزوة فى الصيف . وهى حملات اعتاد المسلمون — منذ بداية عهد الدولة الأموية — إرسالها صيفاً إلى أراضى الدولة البيزنطية ، وتقع فى شهر يونيه ويوليه .

(٣) الطبرى : الرسل والملوك ٦/٤٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٦٣

(٤) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٨٢ ، الذهبي : تاريخ الإسلام — مكتبة القدس سنة ١٣٦٨هـ — ٣/٣٢٧ .

(٥) الطبرى : الرسل والملوك ٦/٤٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٧٩

(٦) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٨٢

(٧) المسعودى : مروج الذهب ٣/١٧٣ ، ١٧٤

ويظهر أن هذا الرد شجع الوليد على المضى قدما فيما أراده ، فكتب إلى عماله بأن يدعوا الناس إلى البيعة لابنه عبد العزيز ، فلما علم سليمان أبى عليه ذلك(١) . نظراً لحقه فى الخلافة من بعده تطبقا لوصية والده عبد الملك .

وحاول الوليد أن يجعلها لابنه عبد العزيز بعد عمه سليمان ، فرفض سليمان أيضا ، وشنع على أخيه الوليد(٢). فعرض عليه الوليد أموالا كثيرة فرفضها سليمان(٣) ، وأصر على حقه فى الخلافة .

وأصبح الناس فى هذا الوقت بين مؤيد لهذه البيعة ، وعلى رأسهم الحجاج ، وقتيبة بن مسلم ، وبعض خواص الوليد(٤) . ومعارض - وهم فى الظاهر قليل - وعلى رأسهم عمر بن عبد العزيز(٥) ، الذى امتنع عن البيعة لعبد العزيز ، وقال للوليد : « لسليمان بيعة فى أعناقنا »(٦) . ولهذا نقم عليه الوليد بعد ذلك ، وعزله عن إمرة المدينة (سنة ٩٣هـ / سنة ٧١١ م)(٧) .

ويبدو أن الوليد فى قرارة نفسه كان مقتنعا بأن الأغلبية لا تريد خلع سليمان ، وما وافقوا على البيعة لعبد العزيز إلا لخوفهم من الوليد وعماله ، وخاصة الحجاج بن يوسف .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢٩٢/٤ ، ابن خلدون : العبر ٨٢/٣ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد ١٦٣/٣ .

(٣) الطبرى : الرسل والملوك ٤٩٨/٦ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ٢٩٢/٤ ، ابن خلدون : العبر ٨٢/٣ .

(٥) انظر ترجمته فى : ابن الأثير : الكامل ٣٢٦/٤ — ٣٣١ ، ابن كثير : البداية ٢٥٢/٩ — ٢٧٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٨ — ٢٤٦ ، الزركلى : الأعلام ٥٠/٥ .

(٦) الذهبى : سير أعلام النبلاء ٣٤٨/٤

(٧) الطبرى : الرسل والملوك ٤٨١/٦ ، ٤٨٢

كما يظهر أن معارضة عمر بن عبد العزيز كان لها أثرها فى نفس الوليد ، خاصة وقد أوصى عبد الملك أولاده بأن يشيروا عليه ويسمعوا له(١) .

لهذا راجع الوليد نفسه ، وتذكر وصية والده عبد الملك بعطف الكبير على الصغير ، وسلامة الصدور ، والتحذير من البغى والتحاسد ، فعدل عن البيعة لابنه عبد العزيز ، وجعلها لأخيه سليمان على حسب مارتبها والده . وبعد وفاة الوليد بويع سليمان بالخلافة بعــــده فى جمادى الآخرة (سنة ٩٦هـ/ سنة ٧١٤ م)(٢) .

فواضح مما سبق أن قتيبة بن مسلم كان أحد الذين وافقوا الوليد صراحة على البيعة لابنه عبد العزيز وخلع أخيه سليمان ، وما من شك فى أن هــــذا ولد فى نفس سليمان الحقد والرغبة فى الثأر من هؤلاء الذين وافقوا الوليد على خلعه ، وسيعمل لامحالة ـ خاصة وقد صارت إليه الخلافة ـ على عزلهم والانتقام منهم ، مما ألقى الرعب فى نفس قتيبة ، وأدى به بعــــد ذلك إلى الخروج عليه .

ثانيا : خوف قتيبة بن مسلم من تنكيل سليمان بن عبد الملك به حيث كان من قواد أخيه الوليد عامة ، وقواد الحجاج بن يوسف خاصة ، ولقد ذهب الكثير من المؤرخين من قدامى ومحدثين إلى أنه لما تولى سليمان الخلافة (سنة ٩٦هـ/ سنة ٧١٤ م) بدأ عهده بحملة واسعة الانتقام من القادة الفاتحين الذين ملأ ذكرهم البلاد ، بفتوحاتهم العظيمة شرقا وغربا .

ومن هؤلاء محمد بن القاسم(٣) فاتح بلاد السند (سنة ٩٣ هـ/ سنة

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ٢/٩٠ .

(٢) السيوطى (جلال الدين عبدالرحمن : تاريخ الخلفاء ـ ط ٤ سنة ١٩٦٩م ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ص ٢٢٥

(٣) انظر ترجمته فى : الزركلى : الأعلام ٦/٢٣٣ .

٧١١م)(١) . والذى لم يشفع له بسجله الحافل المشرف فى رفع راية الجهاد فى هذه البلاد فى العمل على التخلص منه .

فقد عزله سليمان وولى مكانه يزيد بن أبى كبشة السكسكى ، الذى قبض على محمد بن القاسم و بعث به إلى العراق ، فقال محمد متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فتلقاه صالح بن عبد الرحمن بواسط ـ وكان له ثأر عنده ـ وعذبه حتى توفى (سنة ٩٦ هـ / سنة ٧١٤م)(٢) .

ومحمد بن القاسم هذا لم تذكر المصادر ـ أنه وافق الوليد على البيعة لابنه عبد العزيز ، بل ولم يوجد فيها مايشير إلى أنه خلال ولايته حاول أن يشق عصا الطاعة على الخليفة . اللهم إلا أن يكون سبب التنكيل به ، أنه ابن عم الحجاج بن يوسف(٣) .

وإذا سلمنا بأن ما حل بمحمد بن القاسم بسبب قرابته من الحجاج ، فبماذا نفسر ما حل بموسى بن نصير(٤) والى أفريقيا والأندلس ، وهو ليس من أقارب الحجاج ولا من عماله ؟

من المؤرخين من أرجع تنكيل سليمان بن عبد الملك بموسى بن نصير

---

(١) عن فتحها انظر : ابن كثير : البداية ١١٧/٩ ، ابن خلدون : العبر ٧٢/٢/٣ ، ٧٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٤٨ ، ابن الأثير : الكامل ٢٨٦/٤ ، ٢٨٧ ، ابن خلدون العبر ٨٠/٣ .

(٣) ابن خلدون : العبر ٧٢/٣ .

(٤) أنظر ترجمته فى : ابن الأثير : الكامل ٣٠٢/٤ ، الذهبى : سير أعلام النبلاء ٤٩٦/٤ — ٥٠٠ ، ابن كثير : البداية ٢٢٥/٩ — ٢٨٨ ، الزركلى : الأعلام ٣٣/٧ ، ٣٣١ .

إلى عدم انصياع موسى لمطلب سليمان بالتريث فى القدوم على أخيه الوليد ـ وكان قد مرض حتى أشرف على الموت ـ حتى يقضى نحبه ، فيحوز سليمان الأموال والجواهر واللآلىء التى قدم بها موسى من بلاد الأندلس ، ولكن موسى واصل سيره حتى قدم على الوليد ، فنقم عليه سليمان(١) .

بينما يذكر ابن الأثير(٢) : أن موسى قدم بما معه وقد مات الوليد واستخلف سليمان ، « وكان منحرفا عن موسى» دون أن يذكر سبب انحراف سليمان عن موسى ، بالرغم من قدومه عليه بما معه .

ويذكر الذهبى(٣) : أن موسى رجع بالأموال والذخائر إلى الوليد ، فلما وصل طبرية(٤) بلغه موته واستخلاف سليمان ، فقدم له مامعه .

ولكن الذهبى لم يقطع برأيه هذا ، بل قال بعده : وقيل لحق الوليد وقدم مامعه إليه(٥) .

والذى عليه كثير من المؤرخين أن موسى قدم على الوليد ـ وهذا هو الصواب ـ ، والدليل على ذلك أنه لما توفى الوليد وآلت الخلافة إلى سليمان طلب موسى بن نصير ، فلما كان بحضرته قال له : « أعلىّ اجترأت ، ورأيى خالفت . والله لأقلن عددك ، ولأمزقن جمعك ، ولأبددن مالك ، ولأضعن منك ماكان يرفعه غيرى »(٦) .

---

(١) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر) : التاريخ ـ مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩٨٣م – ٣٥٣/٢ ، ابن كثير : البداية ٢٧٧/٩ ، ٢٢٨ .

(٢) الكامل ٢٧٠/٤ ، ٢٧١ (٣) تاريخ الإسلام ٣٢٥/٣ .

(٤) طبرية : من أعمال الأردن ، وبينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وكذلك بينها وبين بيت المقدس . (ابن عبد الحق ـ مراصد الإطلاع ـ دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٤م — ٨٧٨/٢) .

(٥) تاريخ الإسلام ٣٢٥/٣

(٦) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ١٣٢/٢ ، ١٣٣

وعزله سليمان وأمر بحبسه وأساء معاملته، حتى أنه كان يأمر بوقوفه فى الشمس - فى الأيام شديدة الحرارة - حتى يغشى عليه، - خاصة وأنه كان رجلا بادنا -، وأعزمه أربعة الآف ألف وثلاثين ألف دينار، وخمسين ديناراً ذهبا(١). وظل هكذا حتى حج سليمان بن عبد الملك (سنة ٩٧ هـ/ سنة ٧١٥م) فأخذه معه، فوافته المنية بالمدينة، وقيل بوادى القرى(٢).

ومن المؤرخين من يرجع تشكيل سليمان بهؤلاء القواد عامة - سواء كانوا لأخيه الوليد أو للحجاج - إلى حقده عليهم، فقد وصف بأنه كان معجبا بنفسه، يملؤه الحقد على كل من يرتفع اسمه، حتى أنه نظر فى المرآة يوما فقال: «أنا الملك الشاب»(٣). ويذكر المسعودى(٤) صراحة فى وصفه لسليمان: «فيه حسد شديد».

وأيا كان السبب فقد كان هذا التصرف من سليمان نحو كبار الفاتحين - خاصة وأنهم لم يعلنوا راية الثورة والتمرد كغيرهم - سببا فى حرمان الدولة الإسلامية من أهم قوادها، كما عمل على القضاء على عمود فقرى فى السياسة الداخلية، وهو الاعتماد على رجال مخلصين يضع الخلفاء ثقتهم فيهم، مما كان له من أثر خطير - فيما بعد - فى فقدان الدولة سيطرتها على الولايات التى تحكمها(٥).

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١٣٣/٢، ١٣٤، ١٣٦، ابن الأثير: الكامل ٢٧١/٤

(٢) ابن الأثير: الكامل ٣٠٢/٤، ابن كثير: البداية ٢٢٨/٩

(٣) الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك): الوافى بالوفيات - دار فرانز شتاين سنه ١٩٧٩م - ٤٠٢/١٥، ابن شاكر (محمد بن شاكر): فوات الوفيات - مكتبة النهضة المصرية سنه ١٩٥١م - ٣٦١/١، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٢٢٦

(٤) التنبيه والإشراف - دار صعب - بيروت - بدون - ص٢٧٥

(٥) د/ عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية - ط ٥ سنه ١٩٧٦م - الأنجلو المصرية ٢٤١/٢

هذا ماحدث من الخليفة سليمان بمحمد بن القاسم وموسى بن نصير ، ولم يكن لهما أى مشاركة فيما أراده الوليد من البيعة لابنه عبد العزيز وخلع أخيه سليمان ، فماذا ينتظر منه تجاه الحجاج وقتيبة ، والأول كان على رأس المحرضين للوليد ، والثانى كان ممن وافقوا الوليد صراحة فيما أراد ؟

المتوقع أنه سيحل بهما ماحل بمحمد بن القاسم وموسى بن نصير - على الأقل - ، وكان الحجاج واثقا من هذه الحقيقة ؛ لذا فقدكان يتمنى أن يدركه الموت قبل خلافة سليمان بن عبد الملك ، فقد روى أن الوليد مرض مرضا شديدا ، حتى أنه من شدة المرض أغمى عليه يوما كاملا ، وخرج الخبر بموته ، فلما وصل هذا الخبر الحجاج ، قال : « اللهم لاتسلط على من لارحمه له - يقصد سليمان - ، فقد طالما سألتك أن تجعل منيتى قبل منيته - يعنى الوليد - » .

فبينما هو كذلك قدم عليه البريد بإفاقة الوليد ، فقيل أنه خر ساجداً ، وأعتق كل مملوك له(١) . وقيل إن الوليد لما أفاق قال : ما أحد أشد سروراً بعافيتى من الحجاج(٢) .

وشاء الله عز وجل أن يحقق للحجاج ما تمناه من الوفاة قبل الوليد ، فوافته المنية ليلة السابع والعشرين من رمضان) سنة ٩٥هـ / سنة ٧١٣م) - بواسط(٣)،وتوفى الوليد بعده فى جمادى الآخرة (سنة ٩٦هـ / سنة ٧١٤م)(٤).

وبهذا نجا الحجاج من انتقام سليمان منه ، ولم يبق إلا قتيبة بن مسلم ،

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٤٩٧/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩٢/٤

(٢) ابن الأثير : الكامل ٢٩٢/٤

(٣) ابن قتيبة : المعارف ص٣٥٩ ، المسعودى : التنبيه والإشراف ص٢٧٤ ، الذهبى : العبر ٨٠/١ ، ابن العماد (عبد الحى بن العماد): شذرات الذهب فى أخبار من ذهب - ط ١ سنه ١٩٧٩م - دار الفكر العربى - ١٠٦/١

(٤) الطبرى : الرسل والملوك ٤٩٥/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩١/٤ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٤

الذى تأكد لديه أن الدائرة ستدور عليه إن عاجلا أو آجلا ، فما كان منه إلا جمع أهله وإخوته وأوغل فى بلاد ما وراء النهر حتى استقر فى فرغانة ، وأمن نفسه إلى حدما(١) . وساعده على ذلك بعد المسافة بين هـــذه البلاد وحاضرة الدولة الأموية فى دمشق .

والحقيقة أننا نلتمس العذر لقتيبة بن مسلم فى توقعه الشر من سليمان ابن عبد الملك ، نظراً لما فعله سليمان بالقواد قبله : ولكن توقع الشر ليس سببا كافياً فى الخروج على خليفة المسلمين ، وإنما وجد الأسباب فى هـــذا الوقت ماجعل قتيبة ينزع هذه النزعة .

والحقيقة أن كثيرا من المؤرخين قد أساءوا فهم هذه المسألة ، وصوروا سليمان فى صورة المنتقم الذى يثأر لكرامته ومصلحته الشخصية ، دون أن يقيم وزنا لدينه أو لمصلحة أمته وهو خليفة مسلم . وأنه جرى وراء عواطفه وأهوائه فقط فاتهموه بأنه عزل هؤلاء القادة والولاة ، ونكل بهم وسامهم سوء العذاب ، لمجرد إشباع رغبة الانتقام الدينية عنده .

وهذه النظرة نظرة سطحية للأمور وبعيدة عن الدين والواقع كل البعد . فالأمر لم يكن أمر عواطف وأهواء وثأر وانتقام كما يصوره هؤلاء وإنما هى سياسة رسمها الخليفة الجديد بالتشاور مع كبار مستشاريه .

فأى حاكم فى مكان سليمان ، كان لابد من أن يغير فى الأسلوب والمناخ الذى كان سائدا من قبـــله وهو أسلوب ساده الكثير من مظاهر القسوة والبطش والتنكيل فى بعض الأحيان وخاصة من الحجاج الثقفى . وإذا كان للحجاج وعماله مبرراتهم فى انتهاج هذا الأسلوب الذى كان يحتاجه توطيد وتدعيم أركان الدولة ، والقضاء على مخالفيها فى ذلك الوقت .

---

(١) اليعقوبى : تاريخ ٢/٤د٣ ، د/عبد الحميد الرفاعى عصر الخلافة الأموية - دار الثقافة العربية سنه ١٩٩٠م - ص٢٢١

وقد تغيرت الظروف الحالية ، وعم الهدوء والأمن والاستقرار أرجاء الدولة فكان من الحكمة أن يتغير هذا الأسلوب ، ويستجيب الخليفة الجديد لرغبة كافة الناس. ولعل هذا هو السبب فى رضا الناس عن خلافة سليمان وثنائهم عليه حيث يذكر الطبرى : أن الناس قد استبشروا خيرا بخلافة سليمان وكانوا يقولون « سليمان مفتاح الخير ... أطلق الأسارى وخلى أهل السجون ، وأحسن إلى الناس ، واستخلف عمر بن عبد العزيز »(١) .

وهذا هو وجه الصواب فى هذه المسألة . وعندما نمعن النظر فى هذه المسألة سنرى أن سليمان برىء تماما من تهمه التنكيل بهؤلاء القادة فموسى ابن نصير قد ضمه الخليفة إلى كبار مستشاريه بعد عودته من المغرب وحرص على الاستفادة من خبراته العسكرية وخاصة فى حصار القسطنطينية كما صحبه فى رحلته إلى الحج سنه ٩٧هـ كما ذكر ابن كثير(٢) .

ومحمد بن القاسم لم يثبت أن سليمان أمر بقتله أو أوعز بذلك وإنما راح ضحية خلافات وأحقاد شخصية بين صالح بن عبد الرحمن والى العراق وآل الحجاج ، وإذا كانت هناك من تبعة تلقى عليه فإنها تنحصر فقط فى السكوت على قتله وعدم معاقبة قاتليه . وقد يكون لذلك مبرراته ــ ولو كان الأمر محتاجا إلى القصاص لما تركه عمر بن عبد العزيز وسكت عنه وعطل حدا من حدود الله وهو من هو عفة وتقى وزهدا وورعا(٣) .

وأما قتيبة بن مسلم فإن سليمان لم يأمر بقتله ، ولم يكن له ذنب فى ذلك ، بل نجد أنه يرسل إليه كتابا بتوليته على خراسان مع رسول خاص من عنده تكريما له ، ولكن قتيبة تعجل وتسرع بخلع طاعة سليمان قبل وصول كتابه

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٥٤٦

(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٧٤ ، ١٧٩

(٣) أنظر : د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى ص ١٦٦

بالتولية إليه راح ضحية لتسرعه حيث غضب عليه الناس وكرهوا خلعه لطاعة سليمان وثار عليه الجند فقتلوه(١) . يقول ابن كثير بعد أن عدد مآثر قتيبة وفتوحاته : « ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعله رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت إليه المنية ... لكن سبق له من الأعمال الصالحة ماقد يكفر الله به سيئاته ويضاعف به من حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء »(٢) .

ثالثا :

خوف قتيبة بن مسلم من تولية سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب بلاد خراسان .

كان يزيد قد تولى خراسان بعد وفاة والده المهلب بن أبي صفرة(٣) (سنه ٨٢هـ — سنه ٧٠١م) بعهد من الحجاج بن يوسف والى العراق(٤) . وبعد فترة اكتشف الحجاج عدم الوفاق بينه وبين يزيد ، لأن الحجاج كان قد تمكن من إحكام قبضته على أهل العراق جميعا وأذلهم عدا يزيد وآل المهلب ومن معهم بخراسان ، حتى أنه كان يكتب إلى يزيد فى القدوم عليه فيتعلل بخروجه للحرب(٥) . مما زاد من شكوك الحجاج .

وقيل إن السبب فى عدم الوفاق بينهما حسد الحجاج ليزيد ، الذى بدأت تظهر مناقبه وآثاره العظيمة فى بلاد خراسان بعد أبيه(٦) نخشى

---

(١) تاريخ الطبرى جـ ٦ ص ٨ ، الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٢ - ٢٠

(٢) البداية والنهاية جـ ٩ ص ١٦٨

(٣) أنظر ترجمته فى : ابن خلكان : وفيات الأعيان ٥/ ٣٥٠ - ٣٠٩ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٨٣ - ٣٨٥ ، الزركلى : الأعلام ٧/ ٣١٥

(٤) ابن الأثير : الكامل ٤/ ٢٠٧ ، ٢٠٨

(٥) ابن الأثير : الكامل ٤/ ٢٢٨ ، ابن خلدون : العبر ٣/ ٦٦

(٦) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٤

الحجاج أن يمكن يزيد لنفسه فى بلاد خراسان ، فيكون خطراً على ولايته العراق .

فبدأ الحجاج يعمل على خلعه ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان يحذره آل المهلب - وخاصة يزيد - وأنهم زبيريون ، فأجابه عبد الملك بأن وفاءهم لآل الزبير يدعوهم إلى الوفاء لعبد الملك . فكتب إليه مرة ثانية يحذره من غدرهم ، وما زال الحجاج بعبد الملك حتى خوفه منهم ، وكتب عبد الملك إلى الحجاج يطلب منه أن يسمى رجلا بعينه على خراسان ، فسمى له قتيبة بن مسلم ، فأمره بولايته عليها[1] فعزل الحجاج يزيد بن المهلب عن بلاد خراسان وولى عليها قتيبة بن مسلم (سنة ٨٦ هـ/٧٠٥ م[2]) .

وقيل إن الحجاج كره أن يكاتب يزيد بعزله ، فكتب إليه بالقدوم عليه ، وأن يستخلف أخاه المفضل ففعل ، وعند قدوم يزيد كان قتيبة قد سار إلى بلاد خراسان فدخلها ، وقبض على آل المهلب وأرسلهم إلى الحجاج بالعراق[3] وبهذا تمكن الحجاج من القبض على يزيد حين قدم عليه ، ثم ساعده قتيبة فى القبض على بقية آل المهلب حين دخل خراسان ، فكان رداً لجميله عليه ، وبهذا اطمأن الحجاج وسكنت نفسه .

وظل يزيد وآل المهلب فى حبس الحجاج ، الذى أذاقهم صنوف العذاب ، مع مطالبتهم بالمال الذى يحوزتهم وتقدر - بستة آلاف ألف دينار - ، حتى تمكنوا من الهرب (سنة ٩٠ هـ / ٧٠٨ م) ، ففى هذه السنة خرج الحجاج بعسكره حتى نزل قريبا من البصرة - وكان معه يزيد وآل المهلب وعليهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٢٢٧/٤ ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٥ ، ابن خلدون . العبر ٦٦/٦٥/٣

(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨ ، الطبرى : الرسل والملوك ٤٢٤/٦ ، الذهبي : العبر ٧٤/١

(٣) اليعقوبى : تاريخ ٣٤٢/٢ ، ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٥ ؛

الحرس ـ فصنع آل المهلب طعاما وشرابا ودعوا الحراس والناس واختلطوا بهم، حتى تمكنوا من الفرار ـ بعد تغيير ملامحهم ـ وقدموا على سليمان بن عبد الملك فأمنهم، فلما علم الحجاج أرسل إلى الوليد بخبرهم، فأرسل بدوره إلى أخيه سليمان، فأجابه بأنه أجارهم، وسيدفع ثلاثة آلاف ألف دينار من الستة التى طالبهم بها الحجاج(١). فقبل الوليد وأرسل إلى الحجاج يطلب منه أن لا يكتب إليه بشأن يزيد وآل المهلب، فكف الحجاج.

وظل يزيد عند سليمان آمنا، وتوطدت أواصر الصداقة الحميمة بينهما، حتى أن يزيد كان يعلم سليمان حسن الهيئة، ويصنع له أطيب الأطعمة ـ خاصة وأن سليمان كان محبا للطعام ـ ويهدى إليه الهدايا العظيمة، لدرجة أنه ما كانت تأتى يزيد هدية إلا بعث بها إلى سليمان، ولا تأتى سليمان هدية إلا أرسل بنصفها إلى يزيد(٢).

وظل يزيد هكذا مقدما عند سليمان حتى توفى الوليد (سنة ٩٦ هـ/ ٧١٤ م) وتولى سليمان الخلافة، «فقدم يزيد بن المهلب وخصه وأبره ودفع إليه أصحاب الحجاج ... وغيرهم، وأمره أن يعذبهم حتى يستخرج منهم الأموال(٣)».

لهذا كان أخوف ما يخافه قتيبة بن مسلم، أن يعزله سليمان ويولى يزيد بن المهلب على خراسان بدلا منه(٤)، فينتقم لنفسه منه بالقبض عليه وعلى أهله.

---

(١) اليعقوبى: تاريخ ٣٤٥/٢، الطبرى: الرسل والملوك ٤٤٨/٦ - ٤٥٣، ابن الأثير: الكامل ٢٥٦/٤ - ٢٥٨، ابن خلدون: العبر ٧٧/٣، ٧٨

(٢) الطبرى: الرسل والملوك ٤٥٢/٦، ابن كثير: البداية ١٠٧/٩

(٣) اليعقوبى: تاريخ ٣٥٣/٢ ينبغى أن نتوقف كثيرا عند روايات اليعقوبى نظرا لميوله الشيعية حيث يبدو فى رواياته الكثير من التحامل على الأمويين.

(٤) ابن خلدون: العبر ٨٢/٣، البغدادى: خزانة الأدب ٨٣/٩، دحلان (السيد أحمد بن زينى): الفتوحات الإسلامية ـــ مؤسسة الحلبى سنة ١٩٦٨ م ـ ١٩٩/١

ويسومونهم سوء العذاب ، رداً على مافعله قتيبة بأهله من قبل ، فازداد عزم قتيبة على خلاف سليمان بن عبد الملك .

نتائج ماسبق من أسباب الخلاف :

يستخلص مما سبق من أسباب العــداء بين قتيبة بن مسلم وسليمان بن عبد الملك ، أن قتيبة ـ والى خراسان ـ وافق الوليد بن عبد الملك صراحة على خلع أخيه سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز . ولعل قتيبة فى هذا كان مدفوعا وراء الحجاج بن يوسف والى العراق .

وهذا بطبيعة الحال جعل سليمان يحقد على كل من شاركوا الوليد فى هذه المؤامرة ، وهذا حقه لطبيعة النفس البشرية ، فلما توفى الوليد وآلت الخلافة إلى سليمان بدأ عهده بالتنكيل لبعض القواد البارزين ، مما جعل قتيبة يعتقد ـ من وجهة نظرى ـ أن الدائرة ستدور عليه ـ وهو محذور فى هذا ـ لأن تصرف سليمان تجاه كبار الأمراء ، وسير الأحداث يؤكد ماتوقعة قتيبة .

كما أن قتيبة كان يخشى أن يولى سليمان يزيد بن المهلب ـ خصم قتيبة وعدوه اللدود ـ بلاد خراسان ، فيعمل على الانتقام لنفسه وأهله منه .

ولكن حتى هذا الوقت لم يتعجل قتيبة بن مسلم خلع سليمان بن عبد الملك والخروج عليه ، بل آثر أن يستوضح الأمور على حقيقتها ، فأرسل كتبه إلى الخليفة سليمان ، وعلى ضوء نتيجتها يقرر ماسيفعله بالضبط .

كتب قتيبة إلى سليمان بن عبد الملك :

حاول قتيبة بن مسلم فى كتبه إلى سليمان بن عبد الملك أن يستخدم مافى جعبته من وسائل المداراة واللين ، فإن لم تجد هدد وتوعد ، ولعل الخليفة سليمان يتغاضى عن زلته رغبة أو رهبة ، فكتب إليه ثلاثة كتب ، وأرسلها مع رجل من باهلة ، وقال له : ادفع إليه الكتاب الأول ، فإن قرأه ولم يدفعه إلى يزيد — وكان يزيد بن المهلب كاتبه فى هذا الوقت — فاحبس الكتابين

الآخرين ، وإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه الثانى ، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه الثالث(١) .

وواصل رسول قتيبة سيره حتى دخل على سليمان بن عبد الملك ـ وكان عنده يزيد ـ فدفع إليه الكتاب الأول ، وفيه : يعزيه قتيبة فى وفاة أخيه الوليد ، ويهنئه بالخلافة ، ويذكر فيه بلاءه وعناءه ، وهيبته فى صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم على يديه ، وأنه له مثل ما كان عليه لأبيه عبد الملك وأخيه الوليد من الطاعة والنصيحة ، إن لم يعزله عن خراسان. فقرأه سليمان وألقاه إلى يزيد .

فدفع إليه الكتاب الثانى ، وفيه : يستعرض قتيبة ماقام به من جهود فى القتال والفتوحات ، وهيبته فى نفوس الملوك والأعاجم ، وصولته فيهم ، وكذلك فى هذا الكتاب يذم قتيبة يزيد بن المهلب وأهله ، ويقسم بالله : لئن عزله ـ عن خراسان ـ وولى يزيد ليخلعنه .

وقيل كان ذمه ليزيد بن المهلب فى هذا الكتاب بقوله: « ياأمير المؤمنين: كيف تأمن ابن رحمة ـ يزيد ـ على أسرارك ، وأبوه لم يأمنه على أمهات أولاده ! ؟(٢) » . فقرأه سليمان ودفعه أيضا إلى يزيد .

فدفع إليه الكتاب الثالث ، وفيه : لئن لم تقرنى على ما كنت عليه وتؤمننى لأخلعنك خلع النعل ، ولأملأنها عليك خيلا ورجالا(٣) .

ويلاحظ على هذه الكتب : أنها جمعت بين الإغراء بالوعد الجميل لسليمان

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٧/٦ ابن الأثير : الكامل ٢٩٤/٤ ، البغدادى : خزانة الأدب ٨٤/٩

(٢) ابن عبد ربه : العقد ١٦٥/٣ ، ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٨

(٣) أنظر هذه الرسائل فى : الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٧/٦ ، ٥٠٨ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩٤/٤ ، ابن كثير : البداية ٢١٩/٩ ، ابن خلدون : العبر ٨٢/٣ . البغدادى : خزانة الأدب ٨٣/٩

شريطة أن يظل قتيبة عاملا له على خراسان : كما كان فى الكتاب الأول ، ثم التهديد - بطريق غير مباشر - بالتذكير بفتوحاته وبطولاته فى بلادماوراء النهر ، وهيبته وصولته لدى ملوك هذه البلاد ، ولعله يريد - فوق التهديد - أن يبين لسليمان أن أهل هـــذه البلاد لا يرضون به بديلا . ثم التهديد الصريح والعنيف ، بأنه إذا لم يقره على ولاية خراسان ليخلعنه ويقاتلنه . فماذا فعل سليمان؟

موقف سليمان من كتب قتيبة :

وضح أن سليمان بعد قراءته للرسالتين الأولى والثانية دفع بهما إلى يزيد ابن المهلب ، أما الرسالة فإنه لما قرأها تغير لونه ، ودعا بطين وختمها به ، ثم أمسكها ولم يدفعها إلى يزيد(١) .

وأمر بإنزال رسول قتيبة دار الضيافة ، ولما حل المساء طلبه وأعطاه ذهبا ودنانير ، وكتاباً فيه عهد قتيبة بولاية بلاد خراسان ، وفى الصباح أرسل معه رسولا من قبله إلى قتيبة ليقره على خراسان ، وواصل الرسولان سيرهما حتى بلغا حلوان(٢) ، وفيها بلغهما أن قتيبة خلع سليمان بن عبدالملك ، فأعطى رسول سليمان الرسالة التى معه إلى رسول قتيبة ورجع(٣) . ويبـــدو أن ما أشيع فى هذا الوقت عن خلع قتيبة لسليمان ، كان مجرد ظنون تولدت عند الناس ، نظراً لما يقوم به قتيبة من تحصينات فى فرغانة وقيل إن سليمان جدد العهد لقتيبة على الفور بعد قراءته للرسالة الثالثة ، وقال لمن حضره : « جددوا

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٨/٦ ، البغدادى : خزانة الأدب ٨٤/٩

(٢) حلوان : فى عدة مواضع ، منها حلوان خراسان ، وهى بديرة بقوهستان بنيسابور ، وهى آخر حــــدود خراسان . (ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ٤١٨/١) .

(٣) الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٨/٦ ابن الأثير : الكامل ٢٩٤/٤ ، ابن كثير : البداية ٢٢٠/٩ . بن خلدون : العبر ٨٢/٣

له عهدا على عمله(١) » . ويزيد البلاذرى(٢) : « وأمره بإطلاق كل من فى حبسه ، وأن يعطى الناس أعطياتهم ، ويأذن لمن أراد القفول فى القفول » . وكان الناس يتطلعون إلى هــذا ، نظراً لطول بقائهم فى هذه البلاد ، وجهادهم فيها .

وهنا نجد ـ تقريبا ـ شبه إجماع من المؤرخين على أن سليمان أقر قتيبة على بلاد خراسان ، وهذا ماتطمئن النفس إليه ، لأن سليمان كان يطمع أن تظل هذه البلاد تابعة للخلافة من جهة ، ومن جهة أخرى كان يخشى أن تفتح عليه جبهة يصعب عليه التصدى لها فى بداية خلافته ، فيجدد له العهد الآن وبعد ذلك يعمل على عزله فى الوقت المناسب .

موقف قتيبة :

أما عن موقف قتيبة ، فقد واصل رسوله السير حتى وصل إليه ، ومعه عهد سليمان بن عبد الملك بولاية خراسان ، فلما دفعه إلى قتيبة وقرأه ، قال : « هذا من تدبيره على(٣) » ورفض عهد سليمان .

وبدأ قتيبة يشاور أهله وإخوته ، فكان رأى أكثرهم : « لا يثق بك سليمان بعد هذا(٤) » . وأشار عليه أخوه عبد الرحمن بأن يخرج الجيوش ويرسل فيها من يخافه ، ولا يبقى معه إلا من يثق به . وأما عبد الله فقال له : « اخلعه مكانك ، فليس يختلف عليك رجلان(٥) » .

وأخذ قتيبة برأى أخيه عبد الله ، وجمع طوائف الجيش الخراسانى ،

---

(١) ابن عبد ربه : العقد ١٦٥/٣ ، ابن نباتة : سرح العيون ص١٢٨
(٢) فتوح البلدان ص ٤١٢
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤١٢
(٤) الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٨/٦
(٥) الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٩/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩٤/٤

وقبل أن يدعوهم إلى خلع سليمان بن عبد الملك خطبهم قائلا(١) : « إنى قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر ، فضممت الأخ إلى أخيه ، والولد إلى أبيه ، وقسمت بينكم فيئكم ، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدرة ولا مؤخرة ، وقد جربتم الولاة قبلى ، أتاكم أمية(٢) فكان كاسمه أمية الرأى وأمية الدين ، فكتب إلى خليفتكم : إن خراج خراسان لو كان فى مطبخه لم يكفه . ثم أتاكم بعده أبو سعيد(٣) فدوخ بكم البلاد سنين ، لاتدرون أفى طاعة أنتم أم فى معصية؟ ، ثم لم يجب فيئا ولم ينكأ عدوا . ثم أتاكم بنوه بعده يزيد ، فحل تبارى إليه النساء ، ولقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده ، ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم ، وأمن لكم السبل ، حتى أن الظعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند فى غير جواز .. » .

ويتضح فى هذه الخطبة مايبغيه قتيبة من بيان فضله على جميع طوائف جيشه ، حيث أنه نقلهم من حياة الشظف والفقر المدقع التى جاءوا منها إلى حياة الفتح والنصر ، واعطاهم من المغانم والأعطيات ما يأخذونه على الفور دون أدنى تأخير ، بعكس من سبقوه من الولاة قبله . وكل هذا أدى بهم إلى الأمن والأمان ، حتى إن المرأة لتخرج من مرو إلى سمرقند فى غير جواز .

ولم ينكر أحد من الجند ماقاله قتيبة ، ثم انتقل بعد ذلك للحديث - فى

---

(١) أنظر هذه الخطبة مع اختلاف بسيط فى بعض نصوصها ، فى : الجاحظ (أبو عمر وعثمان بن بحر) : البيان والتبيين - تحقيق فوزى عطوى - مكتبة الطلاب - بيروت سنة ١٩٦٨م - ٢٨١/٢ ، ٢٨٢ ، الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٩/٦ ، ابن عبد ربه : العقد ٣٨٥/٢

(٢) هو أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية ، عامل عبد الملك بن مروان على خراسان (سنه ٧٨هـ/سنه ٦٩٧م) .

(٣) أبو سعيد : كنية المهلب بن أبى صفرة .

فقرة من فقرات خطبته(١) - عما يريده منهم قائلا لهم : « أتدرون من تبايعون؟ إنما تبايعون يزيد بن ثروان - يعنى هنبقة القيسى(٢) - كأنى بأمير قد جاء وحكم قد أتاكم يحكم فى أموالكم وفروجكم وأبشاركم ... »(٣) .

وهكذا أراد قتيبة تخويف أهل خراسان من خلافة سليمان بن عبد الملك ، وأنه كهنبقة القيسى يعطى ويصطنع أهل اليسار والنعم ، ويدع من سواهم من ذوى الحاجة . ودعاهم صراحة إلى خلع سليمان بن عبد الملك ، وهو كما يقول اليعقوبى(٤) : « لايشك أن موضعه من النزارية واليمانية يخالفونه » وهو فى كل هذا كان معتمداً على ماضية القديم ، وما فيه من نصر وفتح(٥) ، وإنعام وعطاء .

ولكن حدث مالم يكن يتوقعه قتيبة - فلم يجبه أحد إلى ماطلب من خلع سليمان بن عبد الملك ، ولعل هذا راجع إلى طول بقاء الجند فى هذه البلاد ، خاصة وأنهم قد فتحوا وغنموا كثيراً حتى شبعوا - كما جاء على لسان قتيبة - ولم يبق إلا الرجوع إلى الأهل والوطن ، فإذا مادخلوا حرباً جديدة مع الخليفة ، فهذا يعنى قطع الأمل فيما يبغونه ، وقد سبق أن كتب سليمان لقتيبة ليأذن فى القفول والعودة لمن أراد منهم ، ولا يكتب الخليفة بهذا من فراغ ، إلا إذا كان بعض الجنود قد طلب هذا المطلب .

---

(١) جاءت خطبة قتيبة هذه مجموعة فى بعض المصادر .وفقرات متناثرة فى بعض المصادر الأخرى .

(٢) كان هنبقة هذا يؤثر سمان إبله بالعلف والمرعى ويترك العجاف ، ويقول : « أنا لا أصلح ما أفسد الله » ، فأصبح يضرب به المثل فى الحمق . (البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٢)

(٣) الجاحظ : البيان ٢/٢٨١ ، ابن عبد ربه : العقد ٢/٣٨٤

(٤) التاريخ ٢/٣٥٤

(٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٥٠

لذا اشتاط قتيبة غضبا ، وأوسع القبائل جميعا ـ بلا استثناء ـ ذما وشتما .
ويحسن أن نذكر هنا بعض ماقاله قتيبة نصا ، لتأثيره فى الأحداث بعد ذلك بدرجة كبيرة وخطيرة ، ومما قاله(١) :

« لا أعز الله من نصرتم ، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرنها . يا أهل السافلة ولا أقول يا أهل العالية ، يا أوباش الصدقة جمعتكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب . يا معشر بكر بن وائل يا أهل النفخ والكذب والبخل ، بأى يوم تفخرون ؟ بيوم حربكم أو بيوم سلمكم ؟ فوالله لأنا أعز منكم . يا أصحاب مسيلمة ، يا بنى ذميم ولا أقول تميم ، يا أهل الخور والقصف والغدر .... ، يا أصحاب سجاح ، يا معشر عبد القيس القساة تبدلتم بأبر النحل أعنّة الخيل ، يامعشر الأزد تبدلتم بقلوس السفن أعنة الخيل الحُصُن .. يا كناسة المصرين جمعتكم من منابت الشيح والقيصوم(٢) .. تركبون البقر الحمُر ... فلما جمعتكم قلتم : كيت وكيت ... إن الشام أب مبروز ، والعراق أب مكفور ... يا أهل خراسان ألبسونى تجدونى عراقى الأم ، عراقى الأب ، عراقى المولد ، عراقى الهوى والرأى والدين ... » .
ثم بين لهم أنه لا حاجة له بهم ، وأن اعتماده سيكون على الموالى : « والله لأنا بمن معى من العجم أعز منكم »(٣) .

ويلاحظ على كلام قتيبة مخالفته بعض الحقائق الظاهرة ، والتى يعرفها هو جيداً ، فقد وصف تميما بالخور ، ووصفهم جميعا بأنهم لو اجتمعوا على عنزة ما استطاعوا كسر قرنها ، وهذا الوصف مخالف للحقيقة تماما ، لأن هؤلاء الذين حقق بهم انتصاراته وفتوحاته فى بلاد ماوراء النهر .

---

(١) أنظر : الطبرى : الرسل والملوك ٥٠٩/٦ - ٥١١ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩٤/٤ ، ٢٩٥

(٢) القيصوم : نوع من نبات الأرطماسيا ، من الفصيلة المركبة ، قريب من نوع الشيح ، ويكثر فى البادية .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ٣٥٥/٢

كما يلاحظ أيضاً أن قتيبة لم يترك قبيلة من القبائل التى معه إلا وذمها وشتمها، ووصفها بالكذب والبخل ، أو بالجبش والغدر ، أو بالقسوة والغلظة ، أو بالفقر وذل المعيشة ، أو بفساد الدين والردة عن الإسلام ، بما كان له أثرد السيء جداً فى نفوسهم وتغيرهم عليه .

ولهذا لما انتهى من كلامه ودخل بيته لامه أكثر أهله ، وقالوا له : شعارك ودثارك ، حتى تناولت بكراً وهم أنصارك ، ثم لم ترصد بذلك حتى تناولت الأزد وهم يدك ! . فقال لهم : لما تكلمت فلم يجبنى أحد غضبت فلم أدر ماقلت »(١) . وهنا يعترف قتيبة بأن الغضب قد استبدبه وأخذ بنفسه كل مأخذ فلم يستطيع التحكم فى نفسه ، ولم يدر مايقول وكان الموقف يحتاج للحكمة .

ثم قال لهم : أما أهل هذا الحى من العالية فهم كإبل الصدقة قد جمعت من كل أوب ، وأما بكر فإنها أمة لا تمنع يد لامس ، وأما تميم فجمل أجرب ، وأما عبد القيس فما يضرب البعير بذنبه ، وأما هذا الحى من الأزد فعلوج خلق الله وأنباطه ، والله لو ملكت أمرهم لو سمتهم(٢) . وهكذا استمر قتيبة فى ثورته العارمة على القبائل التى معه ذما وشتما دون تدبر لعاقبة وخطورة ما أقدم عليه . ولنا أن نتصور خطأ قتيبة الفادح ـ فى ذمه وشتمه لمن معه من القبائل ـ حين نستعرض أعدادها ، فقد كان معه من أهل البصرة والعالية تسعة الآف من المقاتلة ، ومن بكر سبعة الآف ، ومن تميم عشرة الآف ، ومن عبد القيس أربعة الآف ، ومن الأزد عشرة الآف ، ومن أهل الكوفة سبعة الآف ، ومن الموالى سبعة الآف(٢) :

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٥١١/٦ ، ابن نباتة : سرح العيون ص ٢٢٠

(٢) أنظر رد قتيبة على أهله بعمان قريبة من بعضها فى : الجاحظ : البيان ٢٨١/٢ ، الطبرى : الرسل والملوك ٥١١/٦ ، ابن عبد ربه : العقد ٣٨٤/٢

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢٩٥/٤ ، ٢٩٦ د/ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى ٣٠٧/١

وصلوا فى مجموعهم إلى سبعة وأربعين ألفا ، منهم من الموالى - الذين عول عليهم - عشرة الآف ، فما غناؤهم أمام هذه الكثرة العددية ؟ ، ثم سيأتى بعد قليل أن الطعنة النجلاء جاءت منهم ، فكان هذا هو الخطأ الثانى الكبير لقتيبة - بعد الخطأ الأول فى خلعه لخليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك - ، مما عجل بنهاية .

تطور الأحداث :

وتطورت الأحداث بعد ذلك تطورا سريعا ، فقد غضب جند قتيبة ، وكرهوا خلع سليمان بن عبد الملك ، وأجمعوا - بعد ذمهم وشتمهم على الغدر بقتيبة ، وكان أول من تكلم فى هذا الأزد ، فأتوا سيدهم حضين ابن المنذر وقالوا له : إن هذا - قتيبة - قد دعا إلى خلع الخليفة ، وفيه فساد الدين والدنيا ، وقد شتمنا فما ترى ؟ فقال : إن مضر بخراسان كثيرة وتميم أكثرهم وهم شوكتها ، ولا يرضون بغيرهم فيصيبوا قتيبة ، ولا أرى لها إلا وكيعا(١) لأنه من تميم ، وقد قتل قتيبة بن الأهتم ، فهم يطلبونه بدمائهم(٢). بالإضافة إلى أن وكيعا كان يحتد على قتيبة بن مسلم ، لأنه عزله عن رياسة ابن تميم وولى بدلا منه ضرار بن حصين الضبى(٣) .

لذا قال بعض الناس عن وكيع هذا أنه : لا يقوى على هذا الأمر غيره ، لأنه أعرابى جاف ، تطيعه عشيرته(٤) . وقال فيه حيان النبطى - قائد الموالى - : إن أحداً يتولى هذا غير وكيع ، ليصلى بحره ويبذل دمه ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٣

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٢ ١

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٤/٨٨ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٣ ، البغدادى : خزانة الأدب ٩/٨٤

(٤) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٩٥

ويتعرض للقتل ، فإن قدم أمير أخذه بما جنى ، فإنه لا ينظر فى عاقبة ، وله عشيرة تطيعه(١) .

وهكذا استقر رأى القبائل جميعا على اختيار وكيع ، نظرا لأنه من تميم ، وهم الأكثر عدداً - عشرة الآف - ، وللعصبية القبلية فى محاولة بنى تميم الثأر من قتيبة لمن قتل منهم من بنى الأهتم ، وللخصومة الشخصية بين وكيع وقتيبة ، الذى عزله عن رياسة بنى تميم ، يضاف إلى كل هذا صفات وكيع التى تؤهله للقيادة من الشجاعة والجرأة والإقدام ، فكان اختيارهم له موفقا بدرجة كبيرة .

وبايعت وكيع - سراً - كل القبائل التى ذمها وشتمها قتيبة بن مسلم ، وبلغ قتيبة خبر هذه البيعة ، فأرسل صاحب شرطته(٢) إلى وكيع يطلبه ، فلما وصل إليه وجده قد طلى رجليه بالغراء ، وقال له : قد ترى ما برجلى ، واعتذر عن القدوم على قتيبة متعللا بالمرض . فطلبه مرة ثانية قائلا له : لتأتينى محمولا ، فقال : لا أستطيع ، ووجه قتيبة فى المرة الثالثة مع رسوله خيلا ورجالا وأمرهم بضرب عنقه ، فوجدوه قد ركب ونادى فى الناس بالخروج ، فأتوه أرسالا(٣) .

وكان وكيع يقول - حين تردد عليه صاحب شرطة قتيبة - : « أقتيبة يؤمن ، والله لا آتيه حتى أوتى برأسه »(٤) . وهذا يدل على تطور خطير جدا فى علاقة قتيبة بجنده ، حيث فقدت الثقة بينهما تماما ، حتى أن وكيعاً

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٢

(٢) قيل كان صاحب شرطة قتيبة فى هذا الوقت شريك بن الصامت الباهلى ، وقيل ورقاء بن نصر الباهلى .

(٣) ابن الأثير : الكامل ٢٩٦/٤ . ابن خلدون : العبر ٨٣/٣ ، البغدادى : خزانة الأدب ٨٤/٩ ، ٨٥

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤١٣

لا يطمئن إلى قتيبة إلا إذا أوتى برأسه . ولعل السبب فى هذا — فوق ذمه وشتمه لهم — ما توعدهم به حين أقسم بالله لو ملك أمرهم لسمهم .

موقف الموالى :

سبق القول بأن قتيبة علق على الموالى الآمال العريضة فى تحقيق ما أراده ، وقال : « والله لأنا بمن معى من العجم أعز منكم » ، ولكن خاب أمله ولم يجد منهم أدنى استجابة ، بل كان الموالى هم القشة التى قصمت ظهر البعير بالنسبة له .

فلم يكن قتيبة مقرباً من نفوسهم ، لإهانته لزعيمهم حيان النبطى بالضرب والحلق بعد الرجوع من إحدى الغزوات ، كما أن الموالى فى الجيش الخراسانى كانوا يحرصون على أن يكون قتالهم من أجل مبدأ ، أوفى الفتوحات ونشر الإسلام(١) . وجاءت هـــذه الحقيقة على لسان قائدهم حيان قائلا لهم : « هؤلاء — يقصد أنصار قتيبة وأعداءه من العرب — يقاتلون على غير دين ، فدعوهم يقتل بعضهم بعضا »(٢) .

لذا فقد بايع الموالى وكيعاً سراً مع من بايعه من قبائل العرب(٣) ، وتم عقد اتفاق بين قائدهم حيان ووكيع على أن ينحاز إليه وقت المعركة الفاصلة بمن معه من الموالى ، شريطة أن يوليه خراج الجانب الشرقى من نهر بلخ مادام حيا إذا صار الأمر إليه ، فوافق وكيع(٤) .

وبعدها بدأ حيان فى تحريض الموال على قتيبة ، قائلا لهم : « يا معشر العجم : لم تقتلون أنفسكم لقتيبة ؟ أُلحسن بلائه فيكم »(٥) ، واتفق وكيع مع

---

(١) د / الرفاعى : عصر الخلافة الأموية ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٢) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥١١ ، ابن الأثير : الكامل ٤ لم ٢٩٦

(٣) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥١٢ ، ابن خلدون : العبر ٣ / ٨٣

(٤) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥١٢ ، ابن الأثير : الكامل ٤ / ٢٩٦ ، ابن خلدون : العبر ٣ / ٨٣

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٣

ابنه بأن يميل بمن معه من الموالى إليه، حين يحول قلنسوته — وقت القتال — إلى عسكر وكيع(١) . ونمت أخبار الموالى إلى قتيبة ، فأرسل إلى حيان يطلبه ، فتوجس حيان الشر — وكان له عيون ينقلون إليه مايدبر له — ورفض إجابته(٢) .

وهكذا أصبح قتيبة فى موقف لايحسد عليه ، فالقبائل العربية تفرقت عنه ، وأضمرت الانتقام منه كرد فعل لما لحقهم منه من إهانة بالغة ، والموالى الذين كان يؤمل عليهم نمت إليه رائحة خيانتهم له ، ثم تأكد من هذه الخيانة لما طلب زعيمهم حيان فلم يجبه ، وأصبح الموقف لايحتمل إلا المواجهة .

نهاية قتيبة بن مسلم :

ولم يبق مع قتيبة إلا أهله ، وبعض خواصه وثقاته ، ونفر من أصحاب البلاد المفتوحة الذين رفضوا التخلى عنه ، فأمر ابن عم له - يقال له ابن بيهس - أن ينادى فى الناس - على لسانه - ، لعلهم يذكرون يده البيضاء عليهم فيرجعوا إلى صوابهم ، فنادى فيهم قبيلة قبيلة ، فأجابوه بالجفوة ، حتى أنه حين كان يقول : أين بنو فلان ؟ فيقولون : حيث وضعتهم . فينادى : أذكركم الله والرحم ، فيقولوا : أنت قطعتها(٣) فقال قتيبة عند ذلك :

يانفس صبراً على ماكان من ألم ... إذ لم أجد لفصول العيش أقرانا(٤)

وأمر من معه بالتحصن بفرغانة(٥) وهى التى سيقتل بها .

وهنا تيقن قتيبة من خطئه الفادح فيما كان قد أقدم عليه من ذم هذه

(١) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٢٩٧
(٢) ابن خلدون : العبر ٣ / ٨٣
(٣) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥١٤ ، ابن خلدون : العبر ٣ / ٨٣
(٤) ابن الأثير : الكامل ٤ / ٢٩٦
(٥) ابن قتيبة : المعارف ص ٤٠٧ ، ابن كثير : البداية ٩ / ٢٢١

القبائل وشتمها ، حتى أنه ذكرهم بالله والرحم ، فأوضحوا له أنه هو الذى بدأ بقطعها ، فقطع الأمل نهائيا فى عودتهم إليه .

فلجأ قتيبة إلى الورقة الراقية ، التى كان يعول عليها - الموالى - بالرغم من ظهور خيانتهم ، وتأكد قتيبة من هذه الخيانة ، ولكن الموالى كانوا حتى هذا الوقت معه ظاهراً ، فطلب قتيبة من أخيه عبد الله أن ينادى فيهم بأن يحملوا على العرب ، فقال له زعيمهم حيان : لم يأن ذلك بعد(١) . ورفض الإغارة على العرب ، لعهده السابق مع وكيع .

وفى هذا الوقت أرسل وكيع إلى حيان : أين ماوعدتنى به ؟ فأمر حيان إبنه بالخروج بمعظم الموالى - ولم يعرف الكثير من الناس إلى أى كفة سيميلون - ، وذكّره بما قاله له من قبل : إذا رأيتنى وقد حولت قلنسوتى ومضيت نحو عسكر وكيع ، فمل بمن معك من العجم إلىّ - ، ووقف ابنه مع العجم ، فلما حول والده قلنسوته إنحاز الموالى إلى وكيع ، فكبر أصحابه . فأرسل قتيبة أخاه صالحا إلى الناس - للتفاوض وإنقاذ مايمكن إنقاذه - ولكن وقت الانفجار كان قد اقترب ، فرماه رجل بسهم ، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل ، فحزن عليه حزنا شديدا(٢) .

وتهايج الناس وأصبحوا كالمرجل ، فخرج إليهم عبد الرحمن - أخو قتيبة - فرموه أيضا كعبد الله فقتلوه ، وتقدموا فأحرقوا موضعا كانت فيه إبل لقتيبة ، ودنوا من فسطاطه ، فحاول رجال من أهل قتيبة الدفاع عنه ، فلم يقدروا على صد هذا التيار الجارف وتقدموا فشقوا الفسطاط ، وعاجلوا قتيبة بعدة ضربات كان فيها حتفه ، فدخل عبد الله بن علون واحتز رأسه(٣)

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٣ ، الطبرى الرسل والملوك ٦ / ٥١٥ . ابن الأثير : الكامل ٤ / ٢٩٧

(٢) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥١٥ ، ابن خلدون . العبر ٢ / ٨٣

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٣

وقيل احتزها سعد بن محمد(١) ، وقتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلا(٢) .

وبهذا الموقف من الموالى تخلص الأمويون ـ مبكراً ـ من ثورة قتيبة ابن مسلم ، وقضوا عليها فى المهد ، وكان من الممكن أن تكلفهم غاليا ، أو تتحول إلى فتنة عارمة كما حدث فى ثورة ابن الأشعث(٣) .

وقال الفرزدق(٤) يمدح مافعله وكيع بقتيبة وأهله :

سيجزى وكيعا بالجماعة إذ دعا إليها بسيف صارم وبنان
جزاء بأعمال الرجال كما جرى ببدر وباليرموك فى جنان(٥)

وهذه ليست مبالغة فحسب من الفرزدق ، ولكنها مخالفة للدين وللحقيقة التاريخية ، إذ كيف يشبه تربص وقتال المسلمين بعضهم البعض ـ وهم أحوج مايكونوا إلى الوحدة فى هذا الوقت للحفاظ على البلاد التى فتحوها ، والعمل على نشر الإسلام فيها ـ ، بيوم بدر واليرموك ، والقتال فيهما كان ضد أعداء الإسلام من المشركين والروم ؟ إنهم الشعراء !!

وخطب وكيع الناس ـ بعد مقتل قتيبة ـ وقال عن نفسه : أنا أبو مطرف ، ثم قال :

أنا ابن خندف تنميني قبائلها بالصالحات وعمى قيس عيلانا

---

(١) ابن الأثير . الكامل ٤ / ٢٩٧

(٢) ابن كثير : البداية ١ / ٢٢٠ ، ابن خلدون : العبر ٣ / ٨٣ ، البغدادى : خزانة الأدب ٩ / ٢٢٠

(٣) د / الرفاعى : عصر الخلافة الأموية ص ٢٣٦

(٤) انظر ترجمته فى : المرصفى : رغبة الآمل ١ / ١١٤ ، البغدادى : خزانة الأدب ١ / ٢١٧ - ٢٢٣ ، الزركلى : الأعلام ٨ / ٩٣

(٥) الطبرى : الرسل والملوك ٦ / ٥٢٠

ثم أخذ بلحيته وقال :

شيخ إذا حُمِّل مكروهة   شد الشراسيف لها والحزيم(١)

ثم ذم قتيبة بن مسلم ، ووعد الناس بحسن السيرة ، ورخص الأسعار(٢).

وبعد الانتهاء من خطبته طلب رأس قتيبة وخاتمه ، ـ وكانت الأزد أخفتهما ، فحثهم سيدهم ـ حضين ـ على إخراجهما ففعلوا ، وأرسل وكيع برأس قتيبة إلى سليمان بن عبد الملك مع سليط بن عطية الحنفي(٣) .

وما من شك فى أن تلك العادة شاذة ـ فصل الرأس عن الجسد ، وإرسالها من مكان إلى مكان ـ مخالفة لأحكام الإسلام الحنيف ، الذى نهى عن المثلة بالأعداء ، فما بالنا بالمسلم ؟ حتى وإن كان الدافع إليها التدليل على النصر والظفر ، أو التهديد والتخويف للمخالفين فهناك عشرات الطرق غير هذه الطريقة المشينة .

وقام وكيع بأمر خراسان تسعة أشهر أو عشرة(٤) ، فى بدايتها وفى لحيان ـ قائد الموالى ـ بما وعده به ، وجعـــل له خراج الناحية الشرقية من نهر بلخ(٥) . وذاق الناس خلال هذه الفترة من حكم وكيع من العنت والشدة الكثير ـ عكس ماوعدهم به ـ حتى قال نهار بن توسعة :

وكنا نُبَكِّى من الباهلى   فهذا الغُدَانى شر وشر(٦)

---

(١) ابن الاثير : الكامل ٤/٢٩٧ ، ٢٩٨

(٢) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٩٨ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٣

٣ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٣ ، ابن الأثير : الكامل ٤/٢٩٨ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٤

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٤ ، ابن كثير : البداية ٩/٢٢٤

(٥) ابن الاثير : الكامل ٤/٢٩٨ ، ابن خلدون : العبر ٣/٨٤

(٦) الطبرى : الرسل والملوك ٦/٥١٩

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يستمر وكيع فى ولايته على خراسان - التى يتطلع إليها يزيد بن المهلب - ، فأرسل يزيد - والذى كان على بلاد العراق فى هذا الوقت - إلى سليمان يحذره من وكيع وسوء سيرته فى الناس ، وما زال يزيد بسليمان حتى عزل سليمان وكيعاً وأضاف ولاية خراسان إلى يزيد(١).

فتتبع أصحاب الحجاج وقتيبة فى القطرين ، وسامهم سوء العذاب ، وطالبهم بالمال(٢) وهو ما توقعه قتيبة من قبل(٣).

رثاء قتيبة بن مسلم :

ما من شك فى أن قتيبة بن مسلم كان قائدا مظفرا ، له فى قلوب الناس محبة وتقدير ، لولا تسرعه فى ذمهم وشتمهم مما عجل بنهايته ، لذا فقد أسف عليه كثير من الناس ، سواء من العرب أو من غيرهم ، حتى قال أحد الأعاجم : « يامعشر العرب : قتلتم قتيبة ! والله لو كان فينـــا لجعلناه فى تابوت واستفتحنا به غزونا »(٤) ، وقيل : « فكنا نستسق به »(٥).

وقال جرير :

ندمتم على قتل الأمير ابن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندم
لقد كنتم من غزوه فى غنيمة وأنتم لمن لاقيتم اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور وجنة
وتطبق بالبلوى عليكم جهنم(٦)

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤١٤ ، اليعقوبى : تاريخ ٣٥٥/٢
(٢) اليعقوبى : تاريخ ٣٣٥/٢
(٣) انظر ص ١٥ ، ١٦ ، من هذا البحث
(٤) ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٨
(٥) دحلان : الفتوحات الإسلامية ١٩٩/١
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٨٨/٤ ، ابن كثير : البداية ٢٢٢/٩

وقال عبد الرحمن بن جمانة الباهلي :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حـــوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكرا
دعته المنايا فاستجاب لربه وراح إلى الجنات عفا مطهرا(١)

تعليق ابن كثير على موقف قتيبة بن مسلم :

قال ابن كثير(٢) معلقا على ماحدث من قتيبة بن مسلم : « ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة ، فبادرت إليه المنية، وفارق الجماعة ، فمات ميتة جاهلية . لكن سبق له من الأعمال الصالحة ماقد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنـــه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء » .

دور سليمان بن عبد الملك فيما حدث لقتيبة :

من العرض السابق نستطيع أن نستخلص أن سليمان بن عبـــد الملك - ظاهراً - كان بعيداً عن كل الأحداث السابقة ، حسب روايات كثير من المؤرخين كالبلاذري والطبري وابن الأثير وابن كثير وابن خلدون وغيرهم ، وأن قتيبة هو الذي تعجل خلع سليمان ، ودعا جنده إلى خلعه فرفضوا ، فأوسعهم ذما وشتما فاتفقوا على القضاء عليـــه ، ويؤكد هذا الاستنتاج الدينوري(٣) بقوله : « ولم يزل قتيبة بخراسان ، حتى شغب عليه أجنادة فقتلوه » .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٤/٢٩٨ ، ابن كثير : البداية ٩/٢٢١
(٢) البداية ٩/٢٢٠ ، ٢٢١
(٣) الاخبار الطوال ص ٣٢٨

وعلى العكس من هؤلاء المؤرخين جميعا يرى ابن تغرى بردى(١) أن سليمان بن عبد الملك هو الذى حرض على قتل قتيبة : « فلما ولى سليمان الخلافة نقم عليه - على قتيبة - لكونه خلعه فى أيام الوليد ، فبعث إليه من قتله بعد أمور وحروب » .

والحقيقة أننا لم نعثر فى المصادر - التى تحت أيدينا - على مايتفق مع رأى ابن تغرى بردى فيما ذهب إليه ، بيد أن هناك جملة من كلام سليمان ابن عبد الملك فيها مايشير إلى عدم رضائه عما حدث . فقد روى أنه لما وصلت إليه رأس قتيبة - وقيل كان معها رؤوس بعض من أهله - ووضعت بين يديه ، قال : « والله ما أردت هذا كله »(٢) .

ويمكن أن يستنتج من هذا القول أيضا أنه قد يكون له دور فيما حدث وأنه لم يرد أن تصل الأمور إلى الدرجة التى وصلت إليها ، حتى ولو كان بالتحريض بالمال ، أو الوعد بالولاية ، خاصة وأنه قد ترك وكيعا على خراسان تسعة أو عشرة أشهر ، وأراد أن يستمر عليها ، لولا أن يزيد بن المهلب خوفه منه فصرفه عنها وولى يزيد بدلا منه .

كما لا يستبعد أن يكون ليزيد بن المهلب دور فيما حدث لقتيبة ، لحرصه الشديد على الانتقام منه ، لقبضه على أهله - لما تولى خراسان - وإرسالهم إلى الحجاج الذى سامهم سوء العذاب . كما أن يزيد بن المهلب كان متطلعا بشغف إلى خراسان - كما سبق - ، والتى كان قد تولاها بعد وفاة والده ،

---

(١) (جمال الدين أبو المحاسن) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ط ١ سنة ١٩٢٩م - دار الكتب المصرية - ٢٣٣/١

(٢) الطبرى : الرسل والملوك ٥١٩/٦ ، ابن الأثير : الكامل ٢٩٨/٤
هذه العبارة من سليمان ليس فيها مايشير إلى اتهامه - كما يرى الباحث - بل يمكن أن تفيد العكس .

فكان يود الرجوع إليها بأى طريق، حتى أنه لم يقنع بالعراق وطلب خراسان من سليمان فأضافها إليه وعزل وكيعا عنها .

وهكذا نستطيع أن نؤكد أن نزعة العداء الشخصى قد كان لها دور فى الأحداث السابقة، سواء من جند قتيبة الذين أضمروا الانتقام منه لسبه وشتمه لهم، أو من الموالى الذين حرضهم زعيمهم حيان على قتيبة انتقاما لنفسه منه لما ضربه وأمر بحلقه أمام الناس ، أو من الخليفة سليمان ابن عبد الملك الذى نقم على كل من وافقوا أخيه الوليد على خلعه والبيعة لابنه عبد العزيز ، أو من يزيد بن المهلب الذى كان يحقد بدرجة كبيرة على قتيبة لكونه تولى خراسان بدلا منه، ولأنه كان سببا فى تعذيب أهله ، لما قبض عليهم وأرسلهم إلى الحجاج بن يوسف .

مما يجعلنا نحكم على ماحدث بأنه كان بداية فتنة لم تأخذ حكم الثورة بمعناها العام، تحكمت فيها دوافع الانتقام الشخصى، فأودت بحياة واحد من القادة العظام فى هذا العصر، والذى فتح بلاد ماوراء النهر، وعمل على نشر الإسلام فيها، ثم اتجه بعدها إلى حدود بلاد الصين وأرغم مليكها على دفع الجزية، ولولا هذه الفتنة لتمكن من فتحها ، وتغير تاريخها إلى اليوم، وهذه واحدة من النتائج السلبية لهذه الفتنة .

أسباب فشل قتيبة بن مسلم :

وأخيراً ماهى الأسباب التى أدت إلى فشل قتيبة بن مسلم فى محاولته الثورة على الخليفة سليمان بن عبد الملك ؟ فشل قتيبة لأسباب[1]، منها :

١ - أن جميع مَنْ معه من الجند أحسوا أن المسألة لا تعدوا أن تكون عداءاً شخصيا بين الخليفة والقائد، ولم يشاؤوا أن يدخلوا حرباً لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

(١) عن هذه الأسباب انظر : د/ الرفاعى : عصر الخلافة الأموية ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

كما أنهم لم يلقوا من الخليفة الجديد مايستدعى النقمة عليه ، والتمرد على سلطانه .

٢ ـ ومنها أن قتيبة بن مسلم كان قائداً عسكرياً بارعاً ، ولكنه لم يكن سياسيا محنكا ، لم يفلح فى تأليف القلوب حوله ، بل فعل العكس ، حيث أخذ فى ذم وشتم العرب قبيلة قبيلة ، والتحقير من شأنهم ، فكيف الحال إذا صار الأمر إليه ؟!

٣ ـ ومنها أن قتيبة لم يرفع من الشعارات مايقنع الناس بالالتفاف من حوله ، ويدعوهم إلى القتال من أجله ، وكل مافعل ـ أثناء خطبته فيهم ـ أنه أثار فيهم الانتماء العراقى ، وتميز أهل الشام . عليهم ـ « إن الشام أب مبرور ، والعراق أب مكفور »(١) ـ .

كما شبه الخليفة سليمان بن عبد الملك بهنبقة القيسى الذى يطعم سمان إبله ويترك العجاف(٢) ، فسليمان يصطنع أهل النعم واليسار ويترك من سواهم ، ولكن هذه الأمور لم تكن فى سليمان وحده ، بل وجدت فيمن كان قبله كالوليد ، ولم يطرأ عليها جديد يستدعى الثورة على الخليفة .

٤ ـ ومنها أن قتيبة كان من باهلة ، وهى قبيلة قليلة العدد ، ضعيفة العصبية منذ عهود الجاهلية(٣) ، وكان المفروض عليه أن يقوى أواصر

---

(١) الطبرى : الرسل والملوك ٦/٥١٠

(٢) الجاحظ : البيان ٢/٢٨١ ، ابن عبد ربه : العقد ٢/٣٨٤ .

(٣) ويروى فى هذا : أن قتيبة بن مسلم صارح أعرابيا فقال له : أيسرك أن تكون مثلى باهليا أميرا ؟ فقال : « لا والله . قال : فتكون باهليا خليفة ؟ قال : لا والله ولو أن لى ماطلعت عليه الشمس . قال: فيسرك أن تكون باهلياوتكون فى الجنة ؟ فأطرق ثم قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أنى باهلى . (الثعالبى : ثمار القلوب ص ١١٩ ، ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٤) . ولكن قتيبة بكمال حزمه وعزمه ، وشجاعته وكثرة فتوحاته رفع شأن باهلة ، حتى كان شرف بيته ،=

الصداقة مع القبائل الأخرى ، ولكنه وتر بعضهم ، كتميم بقتله أحد رجالها ، وهم فرسان خراسان ، ويمثلون عصبية كبيرة فيها ـ عشرة آلاف ـ وذم وشتم البعض الآخر .

٥ ـ ومنها أن قتيبة كان يقسو أحيانا على جنده ، فعندما عاد من إقليم ماوراء النهر إلى مرو (سنة ٩٣ هـ / سنة ٧١١ م) ، أمر بضرب عدد منهم وحلق رؤوسهم ، وذلك لما أشاعوه أنه فتح سمرقند غدراً بأهلها . مما ولد فى نفوسهم حقداً دفينا عليه ، كحيان النبطى قائد الموالى .

يضاف إلى ماتقدم أن قتيبة فى كل ماحدث كان معتمداً اعتماداً أساسياً على ماضيه القديم من بطولات وفتوحات ، وظل حتى اللحظات الأخيرة دون إعداد نفسه جيداً للقتال ، بالرغم من ظهور مايدل على اقتراب المواجهة ، وكل مافعله أن أمر مَنْ معه بالتحصن قليلا بفرغانة ، وكان يظن أنه بمجرد ظهوره أمام جنده سينهزمون ويرجعون إليه ، ولكن خاب ظنه .

٦ ـ وكذلك كان من أسباب فشل قتيبة اعتماده على الموالى بدرجة كبيرة ، حتى أنه نمى إليه خبر خيانتهم ، وأرسل إلى قائدهم حيان يطلبه فلم يجبه ، ومع هذا ظل يعلق الآمال عليهم فى الاستظهار بهم على العرب ، ولكن جاءته الطعنة ممن وثق فيهم .

= وفحل عمال الدولة الاموية . (ابن نباتة : سرح العيون ص ١٢٧ ، الذهبى . سير أعلام النبلاء ٤/٤١١ ، دحلان . الفتوحات الإسلامية ١٩٩/١) . وقال فيه القائل .

قوم قتيبة أمهم وأبوهم   لولا قتيبة أصبحوا فى مجهل

(المرصفى (سيد بن على) . رغبة الآمل من كتاب الكامل ـ مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٢٨ م — ١١٨/٦) .

وهكذا قضى على فتنة قتيبة بن مسلم فى بداية ظهورها ، ولم يشأ الله عز وجل أن يكتمل نموها وتطورها كالثورات التى سبقتها ، سوا من ثورات العلويين والشيعة ، أو ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، أو عبد الله ابن الزبير ، والتى أرهقت الخلفاء والدولة الأموية وكلفتهم غاليا ، مما أراح سليمان بن عبد الملك بوجه خاص، والدولةالأموية بوجه عام ، عناء مواجهة ثورة جديدة .

« مصادر البحث ومراجعه »

ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم) ت سنة ٦٣٠هـ :

١ – الكامل فى التاريخ - ط ١ سنة ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت - البغدادى (عبد القادر بن عمر) ت سنة ١٠٩٣هـ .

٢ – خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب - الجزء الأول ط٢ سنة ١٩٧٩م - الهيئة العامة للكتاب ، الجزء التاسع ط ١ سنة ١٩٨١م - مكتبة الخانجى - مصر . البلاذوى (أحمد بن يحيى) ت سنة ٢٧٩هـ .

٣ – فتوح البلدان - دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٨٣م . ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن) ت سنة ٧٨٤هـ .

٤ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة - ط ١ سنة ١٩٢٩ م - دار الكتب المصرية . الثعالبى (عبد الملك بن محمد) ت سنة ٤٢٩هـ .

٥ – ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر سنة ١٩٦٥م .

الجاحظ (أبو عمرو عثمان بن بحر) ت سنة ٢٥٥هـ .

٦ – البيان والتبيين - تحقيق فوزى عطوى – مكتبة الطلاب – بيروت، سنة ١٩٦٨م .

ابن حزم (على بن أحمد بن سعيد) ت سنة ٤٥٦هـ .

٧ – جمهرة أنساب العرب – ط ١ سنة ١٩٨٣م – دار الكتب العلمية - بيروت . د/ حسن إبراهيم حسن .

٨ – تاريخ الإسلام السياسى - ط ٩ سنة ١٩٧٩م - النهضة المصرية .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت سنة ٨٠٨هـ .

٩ ــ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ ط ١ سنة ١٩٩٢م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
ابن خلكان (شمس الدين أحمد بن محمد) ت سنة ٦٨١هـ .
١٠ ـ وفيات الأعيان ـ ط ٤ سنة ١٩٧٨م ـ دار صادر ـ بيروت .
دحلان (السيد أحمد بن زيني) ت سنة ١٣٠٤هـ .
١١ ـ الفتوحات الإسلامية ـ مؤسسة الحلبي سنة ١٩٦٨م .
الدينوري (أحمد بن داود) ت سنة ٢٨٢هـ .
١٢ ـ الأخبار الطوال ـ ط ١ سنة ١٩٦٠م ـ نشر وزارة الثقافة والإرشاد .
الذهبي (محمد بن أحمد) ت سنة ٧٤٨هـ .
١٣ ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ـ مكتبة القدسي ـ مصر سنة ١٣٦٨هـ .
١٤ ـ سير أعلام النبلاء ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٩٨٥م .
١٥ ـ العبر في خبر من غبر ـ ط ٥ سنة ١٩٨٥م ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .
الزركلي (خير الدين) .
١٦ ـ الأعلام ـ ط ٩ سنة ١٩٩٠م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت .
د/ سيدة إسماعيل كاشف :
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك ـ سلسلة أعلام العرب ـ نشر وزارة الثقافة والإرشاد سنة ١٩٦٢م .
السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر) ت سنة ٩١١هـ .
١٨ ـ تاريخ الخلفاء ـ ط ٤ سنة ١٩٦٩م ـ المكتبة التجارية ـ مصر .
ابن شاكر (محمد بن شاكر بن أحمد) ت سنة ٧٦٤هـ .
١٩ ـ فوات الوفيات ـ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥١م .
الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك) ت سنة ٧٦٤هـ .

٢٠ ـ الوافى بالوفيات ـ نشر دار فرانز شتاين ـ سنة ١٩٧٩م .
الطبرى (محمد بن جرير) ت سنة ٣١٠هـ .
٢١ ـ تاريخ الرسل والملوك ـ ط ٤ سنة ١٩٧٩م ـ دار المعارف .
ابن عبد الحق (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) ت سنة ٧٣٩هـ
٢٢ ـ مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ـ ط ١ سنة ١٩٥٤م ـ دار إحياء الكتب العربية .
د/ عبد الحميد الرفاعى :
٢٣ ـ عصر الخلافة الأموية ـ دار الثقافة العربية سنة ١٩٩٠م .
ابن عبد ربه (شهاب الدين أحمد) ت سنة ٣٢٨هـ .
٢٤ ـ العقد الفريد ـ ط ٢ سنة ١٩٢٨م ـ المطبعة الأزهرية ـ مصر .
د/ عبد المنعم ماجد .
٢٥ ـ التاريخ السياسى للدولة العربية ـ ط ٥ سنة ١٩٧٦م ـ الأنجلو المصرية .
ابن العماد (عبد الحى بن العماد) ت سنة ١٠٨٩هـ
٢٦ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ـ ط ١ سنة ١٩٧٩م ـ دار الفكر العربى فلهوزن .
٢٧ ـ تاريخ الدولة العربية ـ ترجمة د/ محمد عبد الهادى أبو ريدة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨م .
ابن قتيبة (أبو محمد عبدالله بن مسلم) ت سنة ٢٧٦هـ
٢٨ ـ الإمامة والسياسة ـ مطبعة النيل ـ مصر سنة ١٩٠٤م .
٢٩ ـ المعارف ـ تحقيق ثروت عكاشة ـ مطبعة دار الكتب سنة ١٩٦٠م .
ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل) ت سنة ٧٧٤هـ .
٣٠ ـ البداية والنهاية ـ ط ١ سنة ١٩٩١م ـ دار الغد ـ مصر .
المرصفى (سيد بن على) .

٣١ ـ رغبة الآمل من كتاب الكامل ـ مطبعة النهضة المصرية سنة ١٩٢٨ م .
المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) ت سنة ٣٤٦هـ .
٣٢ ـ التنبيه والإشراف ـ دار صعب ـ بيروت ـ بدون .
٣٣ ـ مروج الذهب ومعــــاون الجوهر ـ المكتبة العصرية ـ بيروت سنة ١٩٧٨م .
ابن نباتة (جمال الدين محمد بن محمد) ت سنة ٧٦٨هـ .
٣٤ ـ سرح العيون ـ شرح رسالة ابن زيدون ـ مطبعة الموسوعات ـ مصر ـ بدون .
اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) ت سنة ٢٧٢هـ .
٣٥ ـ التاريخ ـ مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٨٨٣م .

القسم الثالث

قسم الصحافة :

١ ــ أهمية نظم المعلومات
فى مجال الاتصال بالجماهير

الدكتور / جمال النجار

٢ ــ الاعلام وتنمية الوعى البيئى
من منظور إسلامى

الدكتور / جابر محمد عبد الموجود

٣ ــ الكتابة الصحفية
وأثرها فى اللغة العربية

الدكتور / كرم شلبى

٤ ــ طه حسين ... بين
السيرة الذاتية والدراما التليفزيونية

الدكتورة / سامية أحمد أحمد على

٥ ــ الصورة الذهنية لمصر فى المجلات العربية

الدكتور / شعبان أبو اليزيد

أهمية نظم المعلومات فى مجال الاتصال بالجماهير

بقلم
د/ جمال النجار
قسم الصحافة - جامعة الأزهر

يشهد العالم اليوم تقدما مذهلا فى تقنية الاتصال وتطور وسائله حيث أصبح يعتمد على تكنولوجيا متطورة، فبعد أن كانت الكلمة المكتوبة هى السائدة، والتى تعتمد عليها المواد المطبوعه نافستها الوسائل المستحدثه التى تعتمد على الصوت أو الصوت والصورة أو عليهما معا. فضلا عن ذلك فهناك ثورة المعلومات التى نعيشها فى هذا العصر، والتى تتمثل فى ملايين العناوين التى تنشر فى كل عام، ومضاعفة النتاج الفكرى فى مختلف العلوم والفنون، وملايين التقارير العلمية التى تنشر فى كل عام من قبل مراكز البحوث فى كل العالم، والزيادة الكبيرة فى الكم والنوع للمنشورات الدولية وإعداد الملفات التى تنشر فيها مصادر المعلومات بشكل لم يسبق له مثيل.

كان من الطبيعى مع هذا التطور التكنولوجى فى جميع مجالات الاتصال والإعلام، ومصادر المعلومات واستخدام أجهزة حديثة، وأنواع مختلفة من الحاسبات الالكترونية أن تظهر الحاجة إلى نظم المعلومات وأن تظهر أشكال جديدة وأوعية منظمة ومنسقة ومفهرسه تمكن العاملين فى حقل الإعلام والمعلومات فى مختلف مظاهرها وأشكالها من الحصول على المعلومات الصحيحة الموثقة من خلال أوعية حديثة سهلة وميسرة.

ولقد نشأت الحاجة إلى نظم المعلومات بعد تطور الأوعية الفكرية تطورا كبيرا عبر التاريخ ومرورها بمراحل متعددة فبعد أن كانت العظام والجلود والبردى مواد أساسية لتسجيل المعلومات تطورت الأوعية الفكرية ودخلت مرحلة جديدة ، وخاصة بعد اختراع الورق والطباعة وتزايد حركة النشر فى العالم ودخول الشركات والمؤسسات الإعلامية التى تعمل فى مجال المعلومات منافسة حادة فيما بينها أدى ذلك إلى ظهور أشكال جديدة من الأوعية الفكرية مثل الخرائط والصور والرسوم وشرائح الأفلام الصامتة ، والأشرطة والأسطوانات والمجسمات ، والشفافات ، والأفلام الناطقة والسينمائية والمصغرات الفيلمية والبطاقية وغيرها(١) .

ويجيب هذا البحث على التساؤلات الآتية :

ما مفهوم نظم المعلومات وما أهمية علم المعلومات وما مكانة المعلومات فى الوقت الحاضر ؟ وماذا تعنى ثورة المعلومات ؟ وكيف يمكن الاستفادة منها ؟

وما العلاقة بين نظام المعلومات والاتصال والإعلام ؟ وكيف تطور الاهتمام بنظم المعلومات ؟

وما أثر التكنولوجيا فى نظم المعلومات ؟ وما أنواع نظم المعلومات ؟ وما أهميتها فى مجال الإعلام والاتصال بالجماهير ؟

ما المقصود بنظم المعلومات :

أولا معنى النظام ، يعرف « وليم تاجرت » النظام على النحو التالى النظام

(١) د . محمد فتحى عبد الهادى ، حسن محمد عبد الشافى ، المواد غير المطبوعة فى المكتبات الشاملة ، القاهرة ،١٩٩٢ م ص ١٩ ، د . شعبان خليفة ومحمد عوض العايدى ، المواد السمعية والبصرية والمصغرات الفيلمية فى المكتبات ومراكز المعلومات الرياض ١٩٨٦ م ، ص ١٧

هو مجموعة من النظم الفرعية وعلاقاتها المنتظمة فى بيئـــة معينة لتحقيق الأهداف المرجوة(١) ونظام المعلومات أيضا هو النظام الذى يجمع ويحول ويرسل المعلومات فى أية مؤسسة إدارية (أو إعلامية) ويمكن أن يستخدم أنواعا عديدة من نظم معالجة المعلومات لمساعدته فى توفير المعلومات حسب احتياجات المستفيدين(٢) .

ويشير مصطلح نظام المعلومات أيضا إلى الطرق والوسائط والمنتجون والمستقبلون المشتركون بطريقة منظمة لتأثير نقل المعلومات فى مجال معين أو نشاط محدد أو منظمة ما . فنظام المعلومات هو اجراء منظم لتجميع وتجهيز واختزان واسترجاع المعلومات الموثقة لإرضاء حاجات متنوعة .

ويتكون نظام المعلومات من مجموعة مركبة من رسائل المعلومات والأشخاص الذين ينتجونها ويستخدمونها والمؤسسات التى تقوم بتجهيزها أو معالجتها أو مجموعة من أنماط السلوك والعادات والتقاليد التى يتم بواسطتها إنشاء علاقة متبادلة بين الأشخاص والمؤسسات . وبإيجاز هو ذلك التنظيم الذى يحكم نقل المعلومات من منتجيها إلى المستفيدين منها(٣) .

وهذا يوازى ماكان يطلق عليه فى مرحلة سابقة « التوثيق » (أو مجموعة الأسس والإجراءات والمؤسسات والقنوات والأنشطة والتدابير التنظيمية والإدارية والفنية التى تكفل تدفق المعلومات فى مجتمع معين أو فى وسط معـــين ويقصد بتدفق المعلومات هنا إنتاج المعلومات وتسجيلها ونشرها

---

(١) د . محمد السعيد خشبه ، نظم المعلومات المفاهيم والتكنولوجيا القاهرة ١٩٩٠ م ص ١١

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧

(٣) د . محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمه فى علم المعلومات ، القاهرة ١٩٧٧ م ص ١٩١ - ١٩٢

والتعريف بمصادرها ، وتجميع هذه المصادر وتنظيمها وتيسير سبل الإفادة منها(١).

ويكون التعامل مع المعلومات بالشكل التقليدى اليدوى أو بالشكل الآلى بإدخال الميكنه « الكومبيوتر» (والمصغرات الفيليمية « الميكروفيلم» لذلك فإن عمليات وأجراءات التوثيق أو نظم المعلومات قد تكون بسيطة تحتاج إلى جهد قليل أو معقدة تحتاج إلى جهد وتخصص عال وكبير .ويعتمد ذلك على حجم مركز المعلومات أو المؤسسات الإعلامية أو الاتصالية الذى تجرى هذه العمليات أو الاجراءات وطبيعة خدماتها(٢).

إذا يمكن القول أن نظم المعلومات أو علم المعلومات ما هو إلا امتداد ونشاط من الأنشطة المرتبطة بالمكتبات والمعلومات على المستوي العلمى والأكاديمى ، فماضى علم المعلومات البعيد موجود فى علم المكتبات وماضيه القريب موجود فى التوثيق أولا ثم فى استرجاع المعلومات وما يتصل به ثانيا .

ومع التطور فى نظم المعلومات أصبحت كلمة التوثيق قديمة مثل كلمة مكتبيات نفسها وقد أوصى المجتمعون فى مؤتمر تدريب المتخصصين فى علوم المعلومات الذى عقد فى معهد جورجيا للتكنولوجيا فى عام ١٩٦٢م، أوصوا بوجوب الغاء كلمة توثيق واستعمال كلمة معلومات مكانها ، وقد ظهر ذلك عندما أنشأت جمعية المكتبات الأمريكية ALA قسما لعلوم المعلومات والميكنة ، كما أن معهد التوثيق الأمريكى ADI قد غير اسمه منذ عام ١٩٦٨

---

(١) د. حشمت قاسم ، خدمات المعلومات مقدماتها وأشكالها القاهرة مكتبة غريب ، ١٩٨٤ م ص ٧٤ - ٧٥

(٢) عامر إبراهيم قنديلجى ، المعلومات الصحفية وتوثيقها ، بغداد ، ١٩٨١ م .

ليصبح الجمعية الأمريكية لعلم المعلومات(١) .

وعلم المعلومات علم حديث لا يتجاوز عمره عشرين عاما ، لكن جذوره تعود إلى الخلف - كما ذكرنا - مئات السنين ، فبداياته الأولى كان علما للمكتبات يهتم بدراسة النظم والطرق التى تحكم الممارسات والتطبيقات فى المكتبات بأنواعها المختلفة ، ثم جاءت مرحلة التحدى بعد الحرب العالمية الثانية التى زاد فيها التخصص ، والتعقيد فى المجالات العلمية المختلفة وخاصة فى مجال العلوم والتكنولوجيا ، وزيادة مصادر المعلومات المتنوعة بشكل عجزت معه الأساليب التقليدية عن استيعابها ، وانفصل بعض المهندسين والعلماء المتخصصين فى المجالات الموضوعية وشكلوا حركة أطلقوا عليها التوثيق ، أو مايتعلق بالحركة العلمية المتخصصة فقامت معاهد التوثيق ، ثم أنشأت جمعية المكتبات المتخصصة قسما للتوثيق بها وكونت الجمعية الأمريكية الوطنية للميكروفيلم بأمريكا ، وجاء بعد ذلك مصطلح استرجاع المعلومات ، ثم برزت اتجاهات مماثلة فى الوقت نفسه فى العلوم السلوكية وعلوم الاتصال والأعلام مما أدى إلى بروز مجال يسمى علم المعلومات(٢) .

ماهية علم المعلومات :

إنه العلم الذى يبحث فى خصائص وسلوك المعلومات والقوى التى تتحكم فى عملية نقلها والتكنولوجيا الضرورية فى معالجتها بغية الوصول المباشر والاستخدام الأمثل للمعلومات، ويشتمل اهتمام علم المعلومات على تمثيل المعلومات فى كل من النظم المادية والاصطناعية ، واستخدام الرموز أو الشفرات

---

(١) محمود علم الدين ، التوثيق الإعلامى ، أصوله التاريخية وجوانبه العلمية ، القاهرة ، العربى للنشر والتوزيع ، ١٩٧٨ ، ص ٤١ - ٤٢

(٢) د . محمود علم الدين ، تكنولوجيا المعلومات وصناعة الاتصال الجماهير القاهرة ، العربى للنشر والتوزيع ١٩٩٠ م ص ٢٨ - ٢٩

والأكواد فى ارسال وتخزين وطلب الرسائل بفاعلية ودراسة أساليب ووسائل معالجة المعلومات المتمثلة فى الحاسبات الالكترونية ونظم برمجتها .

ويرى آخرون أن علم المعلومات يتعلق بكيف يتصل الإنسان بالإنسان وأنه يدرس الكيفيةالتى تنتقل بها المعلومات ابتداء من نقطة خلق المعلومات إلى نقطة الاستخدام ، وكل الخطوات الوسيطة للجمع والتنظيم والتفسير والاختزان والاسترجاع والبث والنقل للمعلومات وبوجه عام فإن علم المعلومات يهتم بتطبيق التكنولوجيا الحديثة فيما يتعلق بمعالجة المعلومات(١) .

وعلاقة علم المعلومات بالاتصال الجماهيرى علاقة وثيقة فالاتصال هو إرسال واستقبال المعلومات بين الناس أو الجماهير ، بل أن الاتصال هو العملية الرئيسية التى يمكن أن تنطوى بداخلها عمليات فرعية أو أوجه نشاط متنوعة قد تختلف من حيث أهدافها ، لكنها تتفق جميعا فى أنها عمليات اتصال بالجماهير ومن هذه الأنشطة الاعلام بأنواعه ومستوياته والدعاية بأنواعها وألوانها والدعوة والعلاقات العامة والحرب النفسية وغيرها من أساليب الاتصال بالجماهير ، والتى تستهدف كل منها تحقيق ، غايات وأهداف معينة فى مجالات متنوعة . إلا أن المتغير الرئيسى الذى يربطها جميعا هو كونها عمليات اتصالية تستخدم فنون الاتصال ووسائله وتقنياته فى تحقيق أهدافها من خلال توصيل رسائلها الاتصالية المتضمنة معلومات مقصودة(٢) .

ونظام الاتصال ماهو إلا النسق أو النمط العام أو التنظيم الشامل الذى يحكم الأنشطة والقنوات الخاصة بتداول المعلومات ، ونشرها وتجميعها وتنظيمها وتيسير سبل الإفادة منها ، ثم أشكال الإفادة من المعلومات

---

(١) د . محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٦٤ - ٦٥

(٢) د . محمود علم الدين ، تكنولوجيا المعلومات وصناعة الاتصال الجماهيرى مرجع سابق ص ٢٧

والإثارة المترتبة على هذه الإفادة(١) .

أما مفهوم المعلومات فهى الأفكار والحقائق عن الناس والأشياء أو هى أية معرفة تكتسب من خلال الاتصال أو البحث أو التعليم أو الملاحظة وتعرف أيضا بأنها البيانات التى تمت معالجتها لتحقيق هدف معين أو لاستعمال محدد لأغراض اتخاذ القرارات ، أى البيانات التى أصبحت لها قيمة بعد تحليلها أو تفسيرها أو تجميعها فى شكل ذى معنى والتى يمكن تداولها وتسجيلها ونشرها وتوزيعها فى صورة رسمية وفى أى شكل(٢) .

والمعلومات تختلف عن البيانات التى هى مجموعة من الحقائق أو المشاهدات أو القياسات والتى تكون على صورة أرقام أو حروف أو رموز أو أشكال خاصة وتصف فكرة أو موضوعا أو حدثا أو هدفا أو أية حقائق أخرى ومن ثم تعتبر البيانات مجموعة من الحقائق الخام غير المرتبة أو الغير المعدة للاستخدام وكثيرا ما يترادف استخدام كلمتى البيانات والمعلومات فى حياتنا اليومية أو بمعنى استخدام أو وضع أحدهما مكان الآخر على الرغم من الفارق بينهما(٣) فالبيانات هى المادة الأولية أما المعلومات فهى ناتج معالجة البيانات.

كذلك هناك فرق بين المعلومات والمعرفة فالمعرفة تمثل حصيلة أو رصيد خبرة ومعلومات ودراسة طويلة يملكها شخص ما فى وقت معين ويختلف بذلك رصيد المعرفة لدى الشخص الواحد من وقت لآخر بحصوله على مقادير جديدة من الخبرة ، ومن خلال عملية التفكير تستطيع التعرف على

---

(١) د . حشمت قاسم ، مصادر المعلومات وتنمية مقتنيات المكتبات ، القاهرة مكتبة غريب ط ١٩٨٢ م ، ص ١٣

(٢) د . محمود علم الدين . تكنولوجيا المعلومات وصناعه الاتصال الجماهيرى مرجع سابق ص ٢٤

(٣) د . محمد السعيد خشبة ، نظم المعلومات المفاهيم والتكنولوجيا مرجع سابق ، ص ٤٧

الأحداث المحيطة بنا ونحتفظ بها فى عقولنا ويزيد الإنسان فى العادة من معرفته بصفة مستمرة عن طريق الثقافة والتعليم ، كما يختلف رصيد المعرفة من شخص إلى آخر نظرا لاختلاف البيئة التى يعيش فيها كليهما واختلاف التجارب والدراسة والخبرة التى يحصل عليها كليهما(١) .

أهمية المعلومات :

فى المجتمعات المتطورة التى ترتبط بوسائل الاتصال الحديثة عبر الأقمار الصناعية وخدمات التكنولوجيا الحديثة من خلال الحاسبات الالكترونية أصبحت المعلومات باهظة الثمن ، وفى الحقيقة أن الأفراد المهتمين بدراسة وقياس الأفكار الاجتماعية يؤكدون أن المعلومات قوة يمكن استخدامها كأداة رقابة فى التأثير على سلوك الأفراد فى المجتمع ، ومن ثم تنشأ المشاكل الكبرى فى المجتمعات التى تتزود بمعلومات دون المستوى المطلوب ، وفى الصحافة تعتبر أحداث اليوم السابق بدون أنباء لا قيمة لها ، وتتحقق نفس الفلسفة فى بعض مجالات النظم المرتبطة بالحاسب الالكترونى(٢) .

ولذلك فالمعاهد العلمية والمؤسسات الجامعية والتعليمية منهمكة فى شرح وتطوير ماتم تجميعه من معلومات من قبل الأجيال السالفة ثم العمل على تنمية وتطوير هذه المعلومات عن طريق إضافات جديدة ووسائل الاتصال الفكرى كالإذاعة المسموعة والمرئية والسينما وغيرها من المؤسسات المختصة بعرض المعلومات وبثها فى المجتمعات ، ثم وسائل أخرى كالدوريات والصحف اليومية والمطبوعات عامة المتخصصة بتوصيل الأخبار وأحداث المعلومات مع ما استجد فيها من مواضيع علمية تخص كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية ، والمؤتمرات وما شابهما من ندوات علمية تعقد باستمرار لتبادل وجهات النظر بين الباحثين وعرض المشكلات القائمة فى مختلف

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٦

(٢) د . محمد السعيد خشبه ، نظم المعلومات ، مرجع سابق ، ص ٤٦

العلوم والفنون بهدف إيجاد الحلول العلمية والتكنولوجية لمشاكل الحياة اليومية(١).

إن أهمية المعلومات لتقدم الإنسان ورقيه ضرورة كضرورة الماء والهواء للكائنات الحية فهى تشمل حياته الروحية والطبيعية والقوة التى تساعده فى التعامل مع الواقع ، (لكى يفهم الحقيقة ومصدر كل شيء كالحصول على السلطة - والثروة وحتى رضاء الآخرين) فالكل بحاجة لها سواء ، كانوا أفرادا أم منظمات أو دولا طالما هى وسيلة الحصول على الثروة والسلطة وحتى الذى يمتلكها لا يمكنه الحفاظ عليها دون معلومات وهذا هو سر إقامة مؤسسات الاستخبارات الضخمة ودوائر الأمن لتقصى المعلومات حيثما توجد ، فهى ذات تأثير مباشر على منجزات الدول وتطورها ونفوذها فى الحياة ، فالمعلومات قوة إقناع كما أنها العامل الأول والأخير فى اتخاذ القرارات الحكيمة(٢).

وبما أن المعلومات على هذا الجانب الكبير من الأهمية فلابد من تأمين طرق توصيلها إلى كل من يحتاج إليها ، وتوفير الضوابط لتسهيل سريانها فى المجتمع وتوصيلها للمتخصصين والمهتمين بغرض الانتفاع بها واستخدامها فى مجالات هى فى صالح المجتمع ، وتوصيلها أيضا للجماهير كافة لرفع مستوياتهم المهنية والثقافة ، وبذلك نكون قد عملنا على خلق مجتمع أفضل ، أكثر ثقافة وأوسع إطلاعا على مايدور من حوله فى الداخل والخارج ، والتوصل إلى معلومات حديثة قد تفتح أفاقا جديدة فى سبيل الرقى والتقدم ومواكبة ركب الحضارة العالمية ، التى تسير بسرعة فائقة .

---

(١) د . يونس عزيز ، نظم المعلومات الحديثة ، منشورات جامعة قار يونس ، ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١١

تطور الاهتمام بنظم المعلومات :

إن الاهتمام بالمعلومات قديم قدم الحضارات الإنسانية منذ آلاف السنين ، حيث احتاج الإنسان والدول على حد سواء إلى إيجاد ذاكرة تجميعية لتسجيل مايقوم به الأفراد أو الدولة حتى يمكن الرجوع إليه فى المستقبل للبرهنة على أفعاله وأفكاره وربطها بالماضى الذى لا غنى عنه وبتكاثر المعلومات على مر السنين ظهرت الحاجة إلى تجميعها فى مستودعات أطلق عليها ألفاظ أو مصطلحات مثل المكتبة والأرشيف ومراكز المعلومات وقاعدة البيانات ، وبنوك المعلومات وغيرها .

ولقد أدى الاهتمام بظاهرة المعلومات فى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، إلى ظهور الجرائد ونظم الاتصالات من بعـــد مثل التلغراف والتليفون وخدمات البريد والبرق وظهرت تطورات واضحة فيما يتعلق بالمعلومات وتكنولوجيتها ، فقد انتشرت وسائل الاتصال الجماهيرى من تلفزيون وإذاعة وغيرها ، وظهر هذا التطور بشكل واضح عندما اشتدت الحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، فعند ذلك ظهرت أهمية هذه المعلومات ، وضرورة السيطرة عليها فى ذلك الصراع الرهيب فمع الثورة الصناعية الثانية عقب الحرب العالمية الثانية ابتدأت تظهر الحاسبات الالكترونية ، ثم الأقمار الصناعية لتوصيل المعلومات ونشرها فى جميع أنحاء العالم(١) .

لقد كانت المكتبات والمتاحف ومراكز المعلومات والتوثيق من أهم مظاهر الاهتمام بالمعلومات والحفاظ عليها ويحدث حاليا تطور هائل فى توسيع آفاق المعرفة الإنسانية باستعمال الحاسبات الالكترونية التى تحل محل القوى

---

(١) د . محمد محمد الهادى ، نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة القاهرة ، دار الشروق ١٩٨٩ ، ص ٥٣ ، د يونس عزيز ، نظم المعلومات ، مرجع سابق ص ١٥٨

البشرية المحدودة بحيث يتمكن الإنسان من السيطرة على هذا السيل العارم من المعلومات وتنظيمه والتحكم فيه واسترجاعه اليكترونيا(١) .

ويتنبأ الكثيرون بأن العالم سيشهد فيما بقى من هذا القرن والقرن الحادى والعشرين تحولا كبيرا فى تاريخ البشرية بسبب هذه التطورات التكنولوجية فى مجال الاتصالات والمصغرات الفيلمية والحاسبات الالكترونية والشفافات والصور والتسجيلات الصوتية المرئية وثورة المعلومات التى أثرت على الحياة المعاصرة كما امتد آثارها إلى كل أنشطة المجتمع المعاصرة .

ثورة المعـــلومات

فى النصف الثانى من القرن الحالى وصلت المعرفة للبشرية إلى مرحلة متقدمة بحيث صار مايصدر من سيل المعلومات عن المعاهد على اختلاف مستوياتها وعن دوائر الحكومات كذلك مايخيف الجميع ، فقد أصبح المكتبيون عاجزين عن تنظيمها وإدارتها ، وصار العلماء غير قادرين على الاستفادة منها على الوجه الأكمل وهناك دراسات كثيرة تبين أن المعرفة البشرية كانت تتطور ببطء طوال تاريخ الإنسانية حتى عام ١٨٠٠ وبعد ذلك التاريخ بدأت المعرفة تتضاعف كل خمسين عاما ، وعند حلول عام ١٩٥٠ أصبحت تتضاعف كل عشر سنوات وبحلول عام ١٩٧٠ أصبحت تتضاعف كل خمس سنوات وتقدر بعض الدراسات بأن ١٤٥ مليون وثيقة علمية قد نشرت خلال تاريخ الحضارة البشرية(٢) .

وهكذا شهدت القرون الأخيرة تطورا سريعا ومتلاحقا فى حركة النشر العلمى ، فعندما أنشئت الجمعية العلمية الملكية فى لندن عام ١٦٦١ ، لم يكن يوجد فى العالم أية مجلات علمية ، ومن المحتمل أن يكون عالم مثل نيوتن قد

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٨

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٦٤

قرأ كل ما كتب ونشر فى مجال العلوم فى زمنه ، أما منذ ذلك الوقت فإن الكتابات العلمية تتضاعف وتتزايد باستمرار وبهذه الزيادة الضخمة المتصلة بمخرجات المعلومات أصبح من الضرورى إعداد أدلة وفهارس وكشافات تساعد العلماء والباحثين والقراء فى التعرف على المعلومات فى مختلف الموضوعات التى يريدون الاستفادة منها ، بل أن هذه المهمة أصبحت من الصعوبة بمكان إذ تضخم عدد الأدلة والكشافات والفهارس ونما حجمها حتى أن عددها الحالى أصبح يقدر بحجم كل الكتابات أو المعلومات العلمية التى صدرت منذ مائة سنة(١) .

وهناك دراسات أجريت بخصوص المعرفة وتطورها أوضحت بأن المكتبات ومراكز المعلومات تزداد حجما بنسبة ٧٪ فى كل عام ، وتزيد مقتنياتها بنسبة ١١٪ من مجموع مصادرها سنويا ، وتقدر هذه الدراسات أنه بعد مرور خمسة عشر عاما سوف يكون فى العالم مابين ٣٠ – ٣٥ مليون باحث فى مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية ، وأن ماينشره هؤلاء الملايين من العلماء يقدر بـ ١٤ مليون وثيقة فى العام الواحد، وخلال عقدى الخمسينات والستينيات كانت إعداد الوثائق تزداد بما يقدر بمليون ونصف المليون وثيقة لكل سنة ، وتزداد حاجة القراء إلى مصادر المعرفة بنفس السرعة التى تزداد بها الوثائق(٢) .

وتدلنا بعض التقارير والإحصاءات على صورة تفجر المعلومات الذى حدث فى مجال الدوريات فقط فإن أكثر التقارير تحفظا تشير إلى أنه صدر فى العالم مايزيد على ٩٠٠,٠٠٠ دورية مطبوعة أو شبه مطبوعة وأن مايصدر كل عام يدور حول ٥٠٠,٠٠٠ دورية على المستوى العالمى ، وأن معدل

---

(١) د . محمد الهادى ، نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ٦١

(٢) د . عزيز يونس ، نظم المعلومات الحديثة ، مرجع سابق ص ١٦٥

الزيادة السنوية فى عدد الدوريات يصل إلى حوالى ٠٠٠ر ١٥ دورية(١) .

لقد شهدت السنوات الأخيرة انفجارا هائلا فى حجم مايطبع وينشر فى كل مجال من مجالات المعرفة ولا سيما المتخصصة ، وعلى سبيل المثال فإن محرر باب العلوم فى الصحيفة عليه أن يقرأ كل عام مايزيد على مليون مقاله نشرت فى الدوريات العلمية والتكنولوجية وهذا المليون هو فقط حصر للمقالات التى تحتوى على معلومات وأفكار جديدة غير مكررة وإلا لزاد العدد بكثير ، وتؤكد الدراسات أن هذا السيل العارم من المعلومات سوف يستمر فى ازدياد مطرد ، وأن هذه الزيادة سوف تأتى أيضا كنتيجة حتمية لتطور ثقافات الشعوب المتعددة ، وسوف يزداد نمو عدد المتخصصين والباحثين فى شتى أنحاء العالم ، أضيف إلى ذلك أن كثيرا من المجتمعات المتأخرة والقبلية اليوم سوف تتحول فى المستقبل القريب إلى مجتمعات عصرية تفتح المدارس والجامعات وتنشىء المصانع وتطور الزراعة على أسس علمية(٢) .

ويرى علماء الاقتصاد السياسى أن الثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تتمثل فى ثلاثة مجالات رئيسية هى ثورة تكنولوجيا المعلومات ، وثورة التكنولوجيا الحيوية ، وثورة تكنولوجيا المواد ، ويرون أن ثورة تكنولوجيا المعلومات تتعلق بجمع وتوصيل وتخزين واستعادة ومعالجة وتحليل المعلومات وتقوم على الربط بين التكنولوجيا المبنية على الالكترونات الدقيقة وصناعة المعلومات وتتصف تكنولوجيا الالكترونيات الدقيقة بسمات أهمها ذات كثافة علمية شديدة كما أنها تتميز بشدة كثافة رأس المال

---

(١) د. شعبان عبد العزيز خليفة ، الدوريات فى المكتبات ومراكز المعلومات العربى للنشر والتوزيع القاهرة ، ص ٣٥ - ٣٦

(٢) د . عزيز يونس ، نظم المعلومات ، مرجع سابق ، ص ١٦٦

فيها وبتركز شديد على النطاق العالمى(١) .

كيف يمكن الاستفادة من ثورة المعلومات :

أصبحت ظاهرة تفجر المعلومات مشكلة رئيسية تواجه الإنسان المعاصر وإذا كان أساس هذه المشكلة هو الكم الهائل الذى ينشر من المعلومات فإن هناك عناصر أخرى لهذه المشكلة منها التفتت أو التخصص المتزايد فى العلوم ، وما سببه من تشتت كبير من الإنتاج الفكرى الذى يحتاجه الباحث المتخصص ، وتنوع أشكال النشر العلمى ، وتزايد عدد الملفات التى تنشر بها المعلومات المفيده والتكاليف المتزايدة للنشر ، وما نتج عنها من ارتفاع كبير فى أسعار المطبوعات ، وتأخر بث المعلومات خلال قنوات الاتصال الرسمية(٢) .

وفى مواجهة مشكلة تفجر المعلومات هذه بذل الإنسان محاولات للتعرف على المعلومات واختبارها وتجهيزها واسترجاعها وبثها بغية الاستفادة القصوى ، كما اتجه إلى دراسة كيفية اتصال الإنسان بغيره مهما بعد الزمان والمكان ، ومحاولة اكتشاف طرق وأساليب تكون أفضل للحصول على المعلومات المناسبة للشخص المحتاج إليها ، وتتوقف الاستفادة من ملايين الوثائق العلمية التى تنشر كل عام إلى حد كبير على التعاون بين المعاهد العلمية المختلفة فى ميدان المعلومات لفائدة الجميع ، ويمكن إنشاء شبكة من المعلومات على المستوى الدولى تساهم فى حل مشكلة المعلومات والمعرفة والاستفادة منها على مستوى دولى وجعلها تحت تصرف العالم أجمع فمشاركة الدول جميعا فى مشروع شبكة أو شبكات للمعلومات وجعلها عالمية بدلا من أن تكون

---

(١) د . فؤاد مرسى ، الرأسمالية تجدد نفسها ، الكويت عالم المعرفة ، ١٩٩٠ م ، ص ٣٧

(٢) د . محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمة فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ٢٩

على مستوى المناطق الجغرافية المختلفة أو كل دولة على حدة سوف تكون أكثر نجاحا ، وأضمن للحفاظ على الثروة العلمية ، والمعرفة البشرية ، وفي هذه الحالة يمكن استخدام الأقمار الصناعية كأوساط لتخزين المعلومات ، وجعل تلك المراصد متاحة للعالم أجمع ، وبذلك تكون هذه الصناعة قد استفادت الفائدة القصوى من التكنولوجيا الحديثة التى من المفروض أن تعمل على خلق عالم أفضل ، ويتحقق فيه العدالة العلمية وتكافؤ الفرص بين القراء فى مختلف أنحاء المعمورة(١) .

وقد أدى هذا التطور فى تفجير المعلومات أو ثورة المعلومات والحاجة إليها وتغلغلها فى كل جوانب الحياة إلى ظهور نظم المعلومات .

التكنولوجيا ونظم المعلومات :

إن تكنولوجيا المعلومات هى ركن أساسى فى نظم المعلومات ، وأن نجاح هذه النظم الحديثة يتوقف إلى حد كبير على نوعية هذه التكنولوجيا وكفاءتها فى تخزين المعلومات واسترجاعها ، والعلاقة بين علم المعلومات وعلم الحاسب الآلى أصبحت دقيقة إلى درجة أن تقدم المعلومات يعتمد على تقدم وتطور هذه التكنولوجيا ، فكما أن علم الحاسب الآلى يبحث فى بناء الآلة لتنفيذ إجراءات معينة فى إدارة المعلومات ، فإن علم المعلومات يبحث فى جانب العلاقة بين الإنسان والآلة ، أى توثيق العلاقة بين الإنسان وتكنولوجيا المعلومات عن طريق تذليل العديد من المشاكل ، كاستراتيجية البحث ومرونة البرنامج ونوعية دؤوس الموضوعات المخزنة ، ونسبة صلاحية المخرجات ، ثم تدريب الباحثين على استخدام هذه التكنولوجيا بأنفسهم

---

(١) د. يونس عزيز ، نظم المعلومات ، مرجع سابق ، ص ١٦٨ ، بولين أثرتون ، مراكز المعلومات تنظيمها وإدارتها ، ترجمة د. حشمت قاسم القاهرة ، مكتبة غريب ، ١٩٧٧ م ، ص ٤٣

دون اللجوء إلى الغير لاستعمال الآلة نيابة عنهم[1] .

إن التقدم السريع والمذهل فى عالم الالكترونيات جاء نتيجة لبحوث طويلة وباهظة التكاليف مثل بحوث الفضاء والرحلات إلى القمر ، ثم متطلبات شئون الدفاع والطاقة وغيرها من الأمور الحيوية فى حياة الشعوب والأفراد وقد جاء هذا التقدم رحمة لصناعة المعلومات ، وما يتعلق بها من مكتبات ونشر ووسائل اتصال جماهيرية . لقد استفادت نظم المعلومات من هذه التكنولوجيا الحديثة المرتبطة بطرق توصيل المعلومات وأصبح التليفون والتليكس يؤديان دورا كبيرا فى نقل المعلومات المسموعة والمكتوبة بسرعة كبيرة وقد أضافت الكابلات والموجات المصغره أبعادا جديدة بالنسبة لكميات المعلومات المنقولة وسرعة النقل ، كما أن الأقمار الصناعية قد أتاحت نقل المعلومات عبر مسافات بعيدة بطريقة أكثر فعالية ، حيث تستخدم فى إرسال البرامج التليفزيونية من دولة لأخرى ، وفى نقل المحادثات التليفونية الدولية وفى تبادل البيانات المقروءة آليـــا بين الحاسبات الالكترونية المتواجدة فى بلدان مختلفة ، وفى ارسال واستقبال المثليات من الصور فالمعلومات تتواجد فى أشكال مختلفة ، وعنـــدما يريد الفرد المعلومات : فأنه قد يحتاج معلومات منطوقة مسجله على شريط صوتى أو يحتاج معلومات مكتوبة فى شكل مطبوع أو يحتاج معلومات مصورة على فيلم أو على شريط تلفزيونى أو يحتاج معلومات مقروءة آليا مخزنة على شريط ممغنط أو تجميعات من هذه الأشكال[2] .

هذه المستحدثات الالكترونية هى جزء أساسى فى نظم المعلومات وعليه فإن المكتبات والجامعات ومراكز البحث العلمى ومؤسسات الاتصال

---

(١) د . يونس عزيز ، نظم المعلومات ، مرجع سابق ، ص ٥٩

(٢) د . محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمه فى علم المعلومات ، مرجع سابق ٢٥١ ، ٢٥٢

والنشر وغيرها يمكنها الاستفادة منها، وأيضا من التقدم الهائل فى الحاسبات الالكترونية التى تمكنت بعد ظهور المصغرة منها من دخول المكاتب وإدارات الأعمال وحتى المكتبات ومراكز البحث العلمى، وصناعة النشر، حتى الآلة الكاتبة سوف تحتوى على حاسبات الكترونية ، وإن المستقبل سيشهد إضافة حاسب مصغر واحد أو أكثر إلى أية ماكينة الكترونية نتيجة لقلة تكلفه هذه الأجهزة المصغرة ، وهذه الظاهرة ليست بالنسبة لهذا النوع من الحاسبات فقط بل تعدتها إلى الحاسبات الكبيرة أيضا فأصبحت فى متناول المكتبات الكبيرة ومراكز التوثيق والمعلومات والمؤسسات الإعلامية والاتصالية .

فضلا عن ذلك اختراع حاسبات مصغرة بشاشات عرض وجهاز ملحق بها لطبع المخرجات على الورق مطبوعة بنوعية عالية فائقة ، وأن الحاجة إلى مثل هذه المكائن الطابعة دفعت بالمهندسين إلى الاستفادة من تكنولوجيا الآلات الناسخة والمعروفة لمدة طويلة فى المكتباب وغيرها من المؤسسات للتوصل إلى جيل جديد أكثر سرعة ووضوحا وبعد جهد تمكنوا من التوصل إلى آلات تعمل بقوة أشعة الليزر بسرعة لا نظير لها من قبل ، تمكن المهندسون أيضا من تصميم طابعات لطبع المصغرات بكل اتفاق وبأسعار زهيدة مستخدمة طريق الطباعة بواسطة الأشعة، وقد جاءت هذه المستحدثات لتنافس أسرع المطابع التقليدية الدوارة والمستخدمة كثيرا فى طباعة الصحف اليومية ، كما أنها تنافسها فى نوعية الطباعة وفى السرعة المذهلة ، بحيث لا يوجد وجه للمقارنة بينهما وبين المطابع التقليدية(١) .

(١) د يونس عزيز ، نظم المعلومات الحديثة ، مرجع سابق ، ص ٦٨-٦٩

أنواع نظم المعلومات

وتقسم نظم المعلومات إلى أربعة نظم أساسية هى :

النوع الأول هو النظم التى تسترجع إشارات إلى الوثائق والمصادر إستجابة للإستفسارات من جانب الباحثين .

النوع الثانى : هو نظـــم الإجابة على الأسئلة وهى نظم تتلقى الأسئلة ثم تقدم الإجابة مباشرة أما مطبوعة أو معروضة على شاشة المنفذ المتصل بالحاسب الآلى .

النوع الثالث : هو نظم استرجاع البيانات وهى النظم التى تختزن البيانات وتجيب على الأسئلة إعتمادا على البيانات المختزنة .

النوع الرابع : ويسمى بنظم استرجاع النصوص ويقع فى مرحلة وسط بين النظم التى تسترجع الوثائق أو بدائلها والنظم التى تحاول الإجابة على الأسئلة مباشرة ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يقسم البعض نظم المعلومات المعتمدة على الحاسب الالكترونى إلى خمسة أنواع هى :

١ ـ نظم المعلومات الإدارية .
٢ ـ نظم مراصد البيانات الإدارية .
٣ ـ نظم مساندة القرارات .
٤ ـ نظم الإجابة على الأسئلة .
٥ ـ نظم استرجاع البيانات(١) .

خاتمـــة :

تتضح أهمية نظم المعلومات فى مجال الاتصال فضلا عما سبق فيما يلى :

(١) د . محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمه فى علم المعلومات ، مرجع سابق ص ١٩٢ - ١٩٤

١ - إن نظم المعلومات أصبحت ضرورة من ضرورات الفترة التى نعيشها تمليها علينا طبيعة البحث العلمى ، وحاجة القراء المتزايدة للمعلومات وثورة المعلومات وتتاجها الفكرى والتحدى القائم بين نظم الاتصال فى الغرب والدول العربية والإسلامية وعمليات فرض الهيمنة والاحتكار فى مجال الإعلام والاتصال بالجماهير .

٢ - اكتسبت نظم المعلومات أهمية كبيرة فى المجتمعات المتقدمة والنامية على حد سواء لما لها من دور ملموس فى إنجاز عمليات التخطيط ، والتنمية على أحسن مستوى ممكن ، ونظام المعلومات فى أى مجتمع هو بمثابة الجهاز العصبى للإنسان ، ويقدر قوة النظام وسلامته وإستقامة قنواته بقدر ماتتوفر لهذا المجتمع من مقومات القوة والإزدهار ومسايرة الركب الحضارى المعاصر والتقدم العلمى الذى لايعرف استقرارا .

٣ - إن أهمية نظم المعلومات تهدف إلى إزالة مختلف العوائق الجغرافية فى سبيل الوصول إلى المعلومات .

٤ - إن نظم المعلومات المتطورة تعنى تحقيق تكافؤ الفرص بين المواطنين كافة للإستفادة من مصادر المعلومات المتاحه .

٥ - نظم المعلومات تيسر أداء العاملين فى مجال البحث العلمى ومؤسسات الاتصال الجماهيرية وصناعة النشر والإعلام .

٦ - توفر الكثير من الوقت والجهد للعاملين فى تلك المؤسسات .

٧ - تحقق لوسائل الاتصال السبق الإعلامى الذى تصبو إليه تلك المؤسسات .

٨ - تضفى على النتاج الإعلامى والاتصالى قدرا كبيرا من المصداقية .

٩ - تحقق قدرا كبيراً من الفاعلية والتأثير لنظم للاتصال الجماهيرى .

١٠ - نظم المعلومات تحقق احتياجات الإعلاميين وترضى إهتماماتهم .

١١ - تحل نظم المعلومات مشاكل التضخم أو النمو والتشتت والتنوع فى مصادر المعلومات .

١٢ - إن استخدام الحاسبات الالكترونية فى اختزان المعلومات واسترجعها واستعمال وسائل الاتصال المختلفة السلكية واللاسلكية له أكبر الأثر فى سهولة وسرعة نقل المعارف البشرية وتداولها فى جميع أقطار العالم.

١٣ - أن قسم المعلومات فى أية مؤسسة جماهيرية وإعلامية أصبح العمود الفقرى لتلك المؤسسة .

١٤ - لقد أفادت نظم الاتصال الجماهيرى من الحاسب الآلى وبنوك المعلومات أو شبكات المعلومات ومراكز التوثيق ونظم المعلومات إفادة بالغة .

١٥ - إن الحاجة للمعلومات وأنظمتها كبيرة فى كل أوجه النشاط الإعلامى والاتصالى ، فنظم المعلومات توفر المعلومات المناسبة والدقيقة والموثوق فيها والحديثة والمتاحة بسرعة .

مصادر البحث ومراجعه

١ — د/ أحمد أنور عمر ، مصادر المعلومات فى المكتبات القاهرة سنة ١٩٩٠م .

٢ — د/ أحمد بدر ، المدخل إلى علم المعلومات والمكتبات ، الرياض سنة ١٩٨٥م .

٣ — بولين أثرثون ، مراكز المعلومات تنظيمها وإدارتها وخدماتها ترجمة د/ حشمت قاسم ، القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

٤ — د/ حشمت قاسم ، خدمات المعلومات مقدماتها وأشكالها ، القاهرة سنة ١٩٨٤ م .

٥ — د/ شعبان خليفة ، الدوريات فى المكتبات ومراكز المعلومات ، القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

٦ — د/ شعبان خليفة ، محمد عوض العايدى المواد السمعية والبصرية والمصغرات الفيليمية فى المكتبات ومراكز المعلومات ، الرياض سنة ١٩٨٦ م .

٧ — عامر إبراهيم قنديلجى ، المعلومات الصحفية وتوثيقها ، بغداد سنة ١٩٨١م .

٨ — د/ عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

٩ — د/ محمد فتحى عبد الهادى ، حسن محمد عبد الشافى ، المواد غير مطبوعة فى المكتبات الشاملة القاهرة سنة ١٩٩٢ م .

١٠ - د/ محمد فتحى عبد الهادى ، مقدمه فى علم المعلومات ، القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

١١ - د/ محمد فتحى عبد الهادى ، دراسات فى الضبط البيليوجرافى ، القاهرة سنة ١٩٧٨م .

١٢ - محمود علم الدين والتوثيق الإعلامى فى أصوله التاريخية وجوانبه العلمية ، القاهرة سنة ١٩٩٠م .

١٤ - محمد محمد الهادى ، نظم المعلومات فى المنظمات المعاصرة ، القاهرة سنة ١٩٨٩م .

١٥ - د/ يونس عزيز نظم المعلومات الحديثة ، منشورات جامعة قاريونس سنة ١٩٩٢م . .

الأعلام و تنمية الوعى البيئى
من منظور إسلامى

بقلم الدكتور
جابر محمد عبد الموجود
مدرس بقسم الصحافة بالكلية

مقـــدمة :

لقد أصبحت التنمية مطلبا قوميا وأصبح الاعتراف بالحاجة إليها أمرا مفروغا منه، وقد تعددت المفاهيم التى تناولت مصطلح « التنمية » ومن بين المفاهيم المهمة التى صيغت فى هذا الصدد ذلك المفهوم المعمول به فى أجهزة الأمم المتحدة لتنمية المجتمع وهو « أنها مجموعة العمليات التى تتوحد بها جهود المواطنين والحكومة لتحسين الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى المجتمعات المحلية وتحقيق تكامل هذه المجتمعات فى حياة الأمة ومساعدتها على الإسهام الكامل فى التقدم القومى(١) .

وإنجاح الخطط التنموية يعتمد بصفة أساسية على المشاركة الفعالة من جانب الجمهور، ولذا لزم توعية الجمهور ببرامج الوعى البيىء لأنه متى تكون الوعى بالمشكلات البيئية والإحساس بخطورتها على الإنسان والبيئة إلا يبدأ الأفراد فى دراسة هذه المشكلات ثم تحشدوا الطاقات وتنظموا الجهود لعلاجها جذريا يمنع ظهورها مرة أخرة .

---

(١) نبيل السمالوطى : التنمية والتحديث الحضارى ، جـ ١ (بدون ناشر ، ١٩٨٥) ص ٣٢

ويعرف الوعى البيئى بأنه « العمل على غرس اتجاهات إيجابية نحو البيئة والسلوك الإيجابى تجاهها بما يضمن المحافظة عليها وصيانتها من أجل نوعية أفضل من الحياة »(١) .

أما البيئة فإن المقصود بها «كل ماهو خارج عن كيان الإنسان وكل مايحيط به من موجودات فالهواء الذى يتنفسه الإنسان والماء الذى يشربه والأرض التى يسكن عليها ويزرعها ومايحيط به من كائنات حية أو من جماد هى عناصر البيئة التى يعيش فيها وهى الاطار الذى يمارس فيه حياته ونشاطاته المختلفة(٢) .

وكما إن طبيعة العصر قد جسدت أهمية التنمية فإنها فى نفس الوقت أبرزت الوسائل التى يمكن أن تلعب دورا رئيسيا فى خـــدمة التنمية وفى مقدمتها وسائل الإعلام بما تنقله من معلومات ومفاهيم وأفكار وقيم وسلوكيات من شأنها أن تولد الإحساس بالحاجة إلى التنمية .

وإذا كانت هناك بعض الدراسات(*) والكتابات التى تناولت الأجهزة التى يمكن أن تسهم بدور فعال فى تنمية الوعى البيئى ومن أهمها وسائل الإعلام فإن هذه الدراسات افتقدت ركيزتين أساسيتين وهما :

---

(١) مجدى علام : الإعلام البيئى، كتاب الناس والطب (بدون تاريخ)ص٨٠

(٢) أحمد مدحت سلام : التلوث مشكلة العصر ، الكويت ، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥٢ ، أغسطس ١٩٩٠ ،ص ٩

(*) راجع على سبيل المثال .

مجدى علام : الإعلام البيئى ، مرجع سابق .

محمد محمود : دور مراكز الشباب فى تنمية الوعى البيئى ماجستير غـــير منشورة « معهد الدراسات والبحوث البيئية ، جامعة عين شمس ١٩٩٠ » .

عبد المسيح سمعان : أثر المعسكرات فى تنمية الوعى البيئى « ماجستير غير منشوره معهد الدراسات والبحوث البيئية جامعة عين شمس ١٩٨٨ » .

١ ـ المعالجة الدينية لظاهرة التلوث البيئى مما يفقدها معاضدة ، الجمهور لها حيث تلعب العقيدة الدينية دورا كبيرا فى التأثير على الرأى العام . والناس يتعاملون مع كافة القضايا من منطلقات عقائدية .

٢ ـ إن هذه الدراسات تناولت مدى قيام أجهزة الإعلام بتنمية الوعى البيئى ومايمكن أن تؤديه هذه الأجهزة فى هذا الصدد ، ولكن كيف يقوم الإعلام بوسائله المختلفة بتنمية الوعى البيئى ؟ فإن ذلك مالم تهتم به أية دراسة ـ حسب علم الباحث ـ من الدراسات التى تناولت قضايا البيئة .

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة حيث استهدفت بحث الدور الذى يمكن أن تضطلع به وسائل الإعلام فى زيادة فاعلية برامج التوعية البيئية وذلك من خلال اقتراح خطه إعلامية لهذا الغرض تستند إلى الجوانب والأسس العلمية بدلا من العشوائية والارتجالية التى تسيطر على أداء الأجهزة الإعلامية حيث تبين للباحث من خلال عدة لقاءات مع بعض المسئولين عن البرامج الإعلامية أنه لاتوجد خطة إعلامية لتنمية الوعى البيئى وإنما الأمر متروك للقائمين على البرامج بأن يتعمدوا عرض بعض الصور الحسنة لاستلهام المثل والقدوة ، وإذا كان هذا الأسلوب يصلح فى المجتمعات المتقدمة فإنه لايمكن الاعتماد عليه فى المجتمعات النامية التى هى أحوج ماتكون إلى وضع خطط محددة وبرامج واضحة وإلزام الناس بها .

وتنتمى هذه الدراسة إلى حقل ما يعرف بالدراسات الوصفية وهى التى تستهدف تصوير وتحليل وتقويم خصائص مجموعة معينة أو موقف معين تغلب عليه صفة التحديد أو دراسة الحقائق الراهنة المتعلقه بطبيعة ظاهرة أو موقف أو مجموعة من الناس أو الأحداث أو الأوضاع بهدف الحصول على معلومات كافية ودقيقة عنها .

وتطرح هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات أهمها :

١ ـ ما العلاقة بين الموضوعات التى تطرحها وسائل الإعلام وقضايا الوعى البيئى ؟

٢ ـ ماموقف الدين من قضايا البيئة ؟ ومادور الإعلام فى ذلك ؟

٣ ـ ما الدور الذى يمكن أن يؤديه قادة الرأى بصفة عامة وقادة الرأى الدينى بصفه خاصه ؟

٤ ـ مامدى وجود خطة إعلامية تعتمد عليها وسائل الإعلام فى تنمية الوعى البيئى ؟

هذه بعض التساؤلات التى تطرحها الدراسة وسنحاول الإجابة عليها من خلال دراسة الموضوعات الآتية :

أولا : العلاقة العضوية بين الإعلام وتنمية الوعى البيئى .

ثانيا : الدين والبيئة والاعلام .

ثالثا : الإعلام والبيئة وقادة الرأى .

رابعا : التخطيط الإعلامى والتوعية البيئية .

أولا : العلاقة العضوية بين الاعلام والوعى البيئى :

إن قضية التلوث البيئى تعد من أبرز القضايا التى تحفل بها المجتمعات المعاصرة وتحتل مساحه كبيرة من اهتمام أجهزة الاعلام وتشغل بال الساسة والخبراء والعلماء فى مختلف علوم العلم والمعرفة لأن قضية التلوث البيئى تتصل ببناء الإنسان خليفة الله على هذه الأرض وصانع الحياة على هذا الكوكب وإذا تم البناء السليم للإنسان فإن التأثير الإيجابى لهذا البناء سوف ينعكس على أدائه وسلوكه وبالتالى سوف تكون النتيجة لذلك إيجابيه بقدر الروح

المعنوية العالية والحافز القوى الذى تزرعه الأجهزة المعنية لدى الإنسان. وخاصة أجهزة الاعلام. لأن الغالبية العظمى من الناس فى المجتمع المعاصر تستق معلوماتها من وسائل الاعلام التى أصبحت تشكل الرافد الرئيسى لفكر الجماهير فترى متغيرات الحياة من خلال المنظور الاعلامى وتشكل الصورة الذهنية لهذه الجماهير(١).

وتزداد أهمية هذه القضية «التلوث البيئى» وترتفع حدتها فى هذا القرن. الذى شهد الكثير من المنجزات الاقتصادية والتكنولوجية التى كانت. ولاتزال على حساب تدهور البيئة حيث إن الهدف من استحداث وتطوير هذه التكنولوجيات كان وحتى وقت قريب التنمية الاقتصادية دون النظر إلى الاعتبارات البيئية.

ولايقتصر التلوث على مناطق بعينها، فالغلاف الجوى متصل وتدور فيه المواد الملوثة من مكان لآخر والبحار مفتوحة وتنتقل منها المواد الملوثة بحرية تامة مع تيارات المياه، وبذلك قد ينتقل التلوث من بلد إلى بلاد أخرى وقد تنتقل التيارات الهوائية والطيور والمواد المشعة من مناطق التجارب النووية إلى أماكن أخرى بعيدة ويتبين من ذلك أن البيئة متصلة وتكون وحدة واحدة بالنسبة للإنسان(٢)، وقد صور القرآن الكريم مدى هذا التكامل فقال سبحانه «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج. والأرض مددناها والقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به

---

(١) جابر محمد الطماوى : الدور الاتصالى للمؤسسات الإسلامية الأهلية. دراسة تحليلية وميدانية، دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، القاهرة، ١٩٩٠م ص ٥١٧ - ٥٢١

(٢) أحمد مدحت سلام : التلوث مشكلة العصر، مرجع سابق ص ١٦

جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج(١).

وأن أشكال التلوث تتفاوت وتتنوع مابين تلوث البيئة الهوائية وتلوث البيئة المائية وتلوث الطعام والتربة والتلوث الضوضائى، كما تتعدد مسببات التلوث مابين الكيماويات السامة والأسمدة والمبيدات والفضلات الصلبة والسموم الفطرية علاوة على تأثيرات الأشعة الحرارية والكهرومغناطيسية والإشعاعات والضوضاء وغير ذلك.

ولقد أدركت الكثير من الهيئات خطورة الحالة التى وصل إليها تلوث البيئة فى معظم البلدان المتقدمة والمتخلفة على السواء ومنها مصر حيث أفادت الإحصائيات أن (٧٠٪) من سكان القاهرة يعيشون على مياه جوفية وبجوارها ترنشات المجارى وأنه تبين مما أعلنه جهاز البيئة أن (٢٠٪) من سكان شبرا الخيمة يعانون من أمراض الرئة بسبب التعرض لثانى أكسيد الكربون والدخان وأن (٢٩٪) من تلاميذ المدارس فى منطقة حلوان يعانون من أمراض الرئة بالمقارنة إلى النسبة الموجودة فى الريف وهى لاتتجاوز (٩٪) وأن التلوث البكتيرى فى النيل بلغ خمسة آلاف متر للعيار، ومصانع الأسمنت المنتشرة مازالت عنصرا أساسيا من عناصر تلوث البيئة كما أشارت التقارير أيضا إلى أنه يوجد فى مصر (١ر٨) مليون حالة فشل كلوى، (١ر٢٪) مليون إصابة بالسرطان، (٢ مليون) حالة من حالات الإصابة بالفشل الكبدى، وأن (٩٠٪) من التلوث ناتج عن جهات حكومية(٢).

وهنا يتقدم الأعلام ليتحمل مسئوليته فى إثارة اهتمام الجماهير وتوعيتها

---

(١) سورة ق: الآيات من ٦: ١١

(٢) جريدة الأهرام: ليس بالقانون وحده نحمى البيئة العدد (٣٨٩٤٥) ٢٣ يوليو ١٩٩٣م.

بحقائق الوضع البيئى فى مصر وتزويدها بالمعلومات والحقائق عن الوضع البيئى التى تعيشه المدن المصرية ، وأهم العوامل والأسباب التى جعلت هذه المدن تصل إلى هذه الدرجة من التلوث ودور كل مواطن فى المحافظة على هذه الطبيعة التى حباه الله بها وعدم الاضرار بها بالتلوث لاسيما بعد ما كشفت الدراسات العلمية . الارتباط الوثيق بين الأعلام ومختلف نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والصحية والاقتصادية أى أن الأعلام ماهو إلا نظام متكامل يرتبط ارتباطا وثيقا بأهداف المجتمع ومشكلاته وقضاياه فيمكنه تحجيم تلك القضايا والمشكلات عن طريق إرشاد وتوجيه الرأى العام لأنسب الحلول لمواجهتها ، كما أن تلك القضايا والمشكلات يمكنها إذا ما أهملت أن تؤثر على فاعلية الأعلام ووظيفته فى المجتمع(١) .

بل أصبح من غير المؤكد تحقيق أى إنجاز جماهيرى ممكن فى غير خطة إعلامية جادة تدعم هذا الانجاز وتوضح أغراضه كما أن أجهزة الأعلام يمكن أن تجهض أى خطة تنموية فى أى مجال من المجالات إذا غاب عنها المنهج العلمى فى التخطيط بسبب الاضطراب والبلبلة الإعلامية ، مثل خطة تنظيم الأسرة ومحو الأمية وغزو الصحراء وتنمية الوعى البيئى وغير ذلك .

وتأسيسا على ذلك فإن أية خطة لتنمية الوعى البيئى إذا لم يسبقها ويواكبها ويلحق بها خطة إعلامية مرسومة ومنظمة تهىء لها المناخ الصحى السليم ، وتمكن الرأى العام من أن يتقبلها ويدعمها وتدفع الجماهير المعنية للإسهام فيها ثم تأخذ على عاتقها تقويم المنجزات التى تمت لاستكشاف ماأسفرت عنه من نتائج سلبية وإيجابية فإن هذه الخطة سوف تفقد أهم ركائزها وتسقط من حساباتها دعم الرأى العام ومساندته وبالتالى فإنها

---

(١) نسمة أحمد البطريق : نظرية الإعلام المرئى والمسموع ، ط ٢ (بدون ناشر ، ١٩٨٨) ص ١١

تفقد أهم الأهـــداف التى تعمل من أجلها وتسعى لتحقيق المنجزات اللازمة بشأنها .

ووفقا لهذا فإنه يصبح من الصعب على أى من هذه الأجهزة التى يتصل مجال عملها بالجمهور أن تعمل بفاعلية وتحقق العـائد المرجو من الجهود التى تبذلها إذا لم تستعن بالجهود الإعلامية المرسومة والمبرمجة التى تدعم جهودها .

ولا تبدأ وسائل الإعلام نشاطها مع بداية الخطط التنموية فقط ولـكن هذه الوسائل تؤدى دورها قبل بداية هذه الخطط كما تواكب المناشط الإعلامية المختلفة وتظل تتحمل مسئولياتها فى ترسيخ المفاهيم والقيم التى تخدم خطط التوعية لـكى يتحقق الهدف المنشود من وراء التعرض الجماهيرى لكل ماسوف يتم وتهيء آذهان الجماهير له ثم تمر هذه المادة الاتصالية عبر عمليات الإدراك الانتقائى ، ثم التأثير الناتج لهذه المواد ، ولكى تترك آثارها فى الجمهور من خلال التذكر الانتقائى ذلك أن الأفراد يميلون إلى إدراك الموضوعات التى تتفق مع اتجاهاتهم وقيمهم وقد أكد علماء النفس أن الأفراد ينسون بسرعة كبيرة المواد التى لا معنى لها فى حين تـكون نسبة النسيان أقل للمواد التى لها معنى وخاصة إذا كانت متعلقة بحقائق ومفاهيم لها صلة بالاتجاهات والقيم السابقة للأفراد(١) وتحدث هذه العملية بصفة دائمة وعلى أوسع نطاق .

وهذا يؤكد أن النشاط الإعلامى نشاط مستمر لابد وأن يسبق ويواكب ويلحق بخطط تنمية الوعى البيئى وخصوصا دول العالم النامى التى تشعر بخيبه التخلف وعدم اللحاق بالمجتمعات المتقدمة التى تملك الـكثير وخاصة فيما يتعلق ببناء الإنسان السليم عضويا وفكريا .

---

(١) على عجوه : الأسس العلمية للعلاقات العامة (القاهرة ، عالم الـكتب ١٩٧٧) ص ١٥١ ، ١٥٢

ولعل وجود التلوث البيئى وإنتشاره فى المجتمعات المتقدمه والمتخلفة على السواء يدل دلالة قاطعة على أن تنمية الوعى البيئى والعمل على المحافظة على البيئة مشكلة إنسانية معاصرة ترتبط بالخطط الاعلامية إرتباطا وثيقا ويجب أن تحتل مكان الصدارة فى فكر القيادات الدينية والسياسية والاجتماعية وغيرها وفكر رجل الشارع فى هذه المجتمعات ذلك أنها الحل الذى لا بديل عنه للحاق بركب التطور المعاصر عن طريق خلق إنسان سوى سليم صحيا وفكريا ومن الأقوال المأثورة « العقل السليم فى الجسم السليم » .

ثانيا : الدين والبيئة والاعلام :

إن تعديل السلوك تجاه البيئة ضرورة يفرضها الواقع كما أنها لا بد وإن تستند إلى الدين فى عملية المعالجة ، لأن الدين هو الذى يوجه الأفراد والجماعات فى مختلف مناحى حياتهم بما ينظمه من عبادات ومعاملات وأخلاق وعقائد مما يجعلهم يحكمون على سائر الأعمال ويتعاملون مع كافة القضايا والمشكلات من منطلقات عقائدية ، كما أن القيم الدينية هى المعايير التى يستندون إليها عند إصدار الرأى فى كل مايواجههم من مسائل سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وينظرون إلى سائر متغيرات الحياة من خلالها .

والباحث المتأمل فى الدين الإسلامى يجد أن هذا الدين سباق فى مجال الاهتمام بأمر البيئة ونظافتها بإعتبارها المحل الذى يقيم فيه الإنسان ويحصل فيه على احتياجاته ويمارس فيها عبادته لربه وأعماله التى تعينه على مواجهة متطلبات الحياة الأمر الذى يجب أن يتنبه له كل المهتمين بأمر البيئة ورجال الاعلام الذين يقومون بتوجيه الرأى العام نحو الاهتمام بقضايا البيئة .

وتتمثل أهم مظاهر إهتمام الإسلام بأمر البيئة ونظافتها فى الاهتمام بنظافة البدن والملبس والمكان والماء والهواء .

اولا : فمن حيث نظافة البدن فقد حث الإسلام المسلم على نظافة بدنه

فأمر بالطهارة من الحدث والخبث ، والحدث نوعان : أكبر وأصغر فالأكبر مايوجب الغسل كالجنابة قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتى تغتسلوا »(١) والحدث الأصغر مايوجب الوضوء كالبول والغائط وسائر نواقض الوضوء ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ(٢) كما يحثنا الرسول صلى الله عليه وسلم على النظافة الدورية فيقول حق على كل مسلم أن يغتسل فى كل سبعة أيام يوما يغسل فيه رأسه وجلده(٣) .

كما يطرح الرسول صلى الله عليه وسلم بعض التعليمات الصحية التى سماها سنن الفطرة فيقول عشرة من الفطره : قص الشارب ، وإعفاء اللحية والسواك ، والاستنشاق بالماء وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الأبط وحلق العانه ، وانتقاص الماء ، قال زكريا قال مصعب ، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة(٤) .

ثانيا : كما تشمل نظافة البيئة فى الإسلام نظافة الملبس الذي يرتديه المسلم ، فالفرد فى المجتمع الإسلامى مطالب بأن يكون حسن المظهر جميل الهندام نظيف الثوب لقوله تعالى . « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل

---

(١) سورة النساء : آية ٤٣

(٢) أبو داود سليمان الأزدى : سنن أبى داود ، جـ ١ (بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بدون تاريخ) ص ١٦

(٣) السيد سابق : فقه السنة جـ ١ (القاهرة ، دار الكتاب العربى بدون تاريخ) ص ٧٠

(٤) أبو داود سليمان الأزدى : ورجع سابق ص ١٤

مسجد »(١) وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا شعثا قد تفرق شعره فقال « أما كان يجد هذا مايسكن به شعره ، ورأى رجلا آخر عليه ثياب متسخة فقال أما كان هذا يجد ماء يغسل به ثوبه(٢) وقد جعل الإسلام طهارة الثياب شرطا لصحة العبادات التى لا تنقطع قال تعالى : « وثيابك فطهر »(٣) وأكد صلى الله عليه وسلم فى أحاديث متعددة على ضرورة نظافة الثياب وخاصة مواطن الاجتماعات مثل الجمع والأعياد ، ولا يخفى على الجمهور ما لنظافة الثياب من قيمة فى أبعـــاد الفرد عن مصادر التلوث بالعوامل المعدية .

ثالثا : كما اهتم الإسلام أيضا بنظافة الأمكنة وأهمها المساجد والمنتديات والطرق والأسواق وغيرها من الأماكن التى يقيم فيها الإنسان بصورة مؤقتة أو دائمة كالبيوت لأن تراكم الأوساخ فى البيوت يعطى الحشرات والجراثيم مجالا رحبا للازدهار والنمو فضلا عن انبعاث الروائح الكريهة التى تزكم الأنوف وتجعل البيوت مكانا غير صالح للإقامة فيه فيقول صلى الله عليه وسلم « إن الله طيب يحب الطيب ، جواد يحب الجود ، كريم يحب الكرم ، نظيف يحب النظافة ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود(٤) .

رابعا : كما تعتبر نظافة الأرض ، وحمايتها من التلوث والدعوة إلى إخضرارها ومواجهة التصحر أمراً قد لفت إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع فيقول سبحانه وتعالى « ألم تر ان الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا »(٥) وقوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل

---

(١) سورة الاعراف آية ٣٢

(٢) أبو داود سليمان الأزدى : المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٠

(٣) سورة المدثر : آية ٤

(٤) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة : سنن الترمذى ط ٢ (القاهرة ، مكتبة مصطفى الحلبي ١٩٧٨) جـ ١ ص ١٧

(٥) سورة الأنعام : آية ٩٩

من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة(١) ويحفظ لنا التاريخ درسا عظيما من دروس التربية البيئية فى وصية الخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه للقائد أسامه بن زيد حين قال له « لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ، ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقدوا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل »(٢) .

فذلك يدعو إلى أن تحيا الأرض مخضرة يانعة بعيدا عن كل مايفسدها ويجعلها غير قادرة على العطاء الذى أودعه الله فيها من بترول ومصادر نفيسة وغير نفيسة ، كما أن الحرص على إخضرار كوكب الأرض فيه مايمتع النفوس بالنظر إلى هذه النعم مما يأخذ الإنسان نحو صحة نفسية وقد قال سبحانه « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة »(٣) أنها بهجة توفر للنفس أسباب الراحة والسعادة مما يدعونا ذلك إلى ضرورة المحافظة على الحدائق العامة لتؤدى دورها فى إشاعة البهجة والسرور لزوارها .

خامسا : فإذا ما انتقلنا إلى المياه والحفاظ عليها من التلوث سواء أكان تلوثا ناتجا عن إلقاء المخلفات النووية والمنظفات الصناعية والصرف الصحى وكل مفسدات الحضارة الحديثة نجد أن الشريعة الإسلامية تحفل بنصوص كثيرة تحث على حماية الماء من التلوث فيقول سبحانه « وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به »(٤) وقوله تعالى « وأسقيناكم ماء فراتا »(٥) وقوله سبحانه « وجعلنا من الماء كل شىء حى »(٦) وفى السنة النبوية أحاديث كثيرة تحث

---

(١) سورة الحج : آية ٦٣

(٢) محمد عطية الأبراشى : عظمة الإسلام جـ ٢ (القاهرة ، الإنجلو المصرية ١٩٦٧) ص ٩٤ ، ٩٥

(٣) سورة النمل : آية ٦٠ — (٤) سورة الأنفال آية ١١

(٥) سورة المرسلات : آية ٢٧ — (٦) سورة الأنبياء آية ٣٠

على حماية الماء من التلوث فعن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لايبولن أحدكم فى الماء الراكد ثم يغتسل فيه »(١) كما أنه صلى الله عليه وسلم نهى أن يبال فى الماء الجارى فقال « لايبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل منه »(٢) .

وذلك النهى هدفه المحافظة على نظافة البيئة والماء من التلوث بالطفيلات والفيروسات والروائح الكريهه والبكتريا وحين يكون البراز بكميات كبيرة كما هو الحال فى تصريف مياه المجارى إلى المسطحات المائية كالبحار والأنهار والبحيرات والجداول فإن ذلك يؤدى إلى استنزاف الأكسوجين الذائب فى مياه هذه المسطحات وذلك أثناء عملية التحليل البيولوجى للمواد العضوية الموجودة فى مياه المجارى وهو أمر يؤثر فى حياة الأسماك والأحياء المائية الأخرى .

سادسا : أما عن تلوث الهواء بالشوائب وبمركبات بعض العناصر الضارة وأثر هذا التكون فى طبقة الأوزون تلك الطبقة التى أزعجت العلماء بما يترتب عليها من مخاطر وقد دل الحق سبحانه وتعالى على انتظام الكون وإن كل شىء بحسبان فقال « والشمس والقمر حسبانا »(٣) وما دام الأمر هكذا منطقيا منظما فلاشك أن مثل هذه المكونات تحجب عن الإنسان تلك النعم التى جعل الله فيها منافع عديدة وفيها متعة نفسية حين ينظر الإنسان إليها « ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين »(٤) ولا شك أن هذه النعم تقتضى المحافظة عليها والقيام على مايحميها من عبث الإنسان .

سابعا : أما عن تلوث البيئة بالضجيج وارتفاع الأصوات التى ازداد

---

(١) أبو داود سليمان الازدى : سنن أبى داود مرجع سابق جـ ١ ص ٧

(٢) نفس المصدر ص ٩٧

(٣) سورة الانعام : آية ٩٦ (٤) سورة الحج : آية ١٦

ضررها فى الآونة الأخيرة فنجد أن الإسلام حارب هذه الضجة والجلبه فى كل صورها وأسبابها وجاءت آيات القرآن الكريم تأمر الناس بالسكينة والوقار وتشبه من يرفع صوته بالحمار فيقول تعالى « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك »(١) ، وقد أثبتت بحوث العلماء أن أطول الناس أعماراً وأكملهم صحة وأهنأهم بالا الذين يعيشون فى المناطق البعيدة عن الضوضاء ، المحافظة على النظام بعكس الحال فى المناطق التى تسودها الضوضاء والفوضى ، وأكثر الناس تأثرا بالضجة هم المثقفون وأصحاب الأعمال والمهن الفنية الذين يكدحون بعقولهم وأجسامهم وبذلك يصبح من حقهم على الوطن ومواطنيهم أن يوفروا لهم هذا القدر من الهدوء .

وإذا كانت تعاليم الدين تحث على النظافة والهدوء وتحارب كل ما من شأنه يلوث البيئة ويضر بها ، فإن وسائل الأعلام يقع عليها العبء الأكبر فى نشر الوعى السلوكى والتأثير على الرأى العام وخاصة إذا ما اعتمدت هذه الأجهزة على الدين فى معالجتها لهذه الظاهرة لأن الدين هو جملة العقائد والوصايا التى توجهنا فى سلوكنا مع الله ومع الناس وفى حق أنفسنا »(٢) .

كما أن الدين هو الذى يوجه الأفراد والجماعات فى مختلف مناحى حياتهم بما ينظمه من عبادات ومعاملات وأخلاق وعقائد مما يجعلهم يحكمون على سائر الأعمال ويتعاملون مع كافة القضايا والمشكلات من منطلقات عقائدية وفى ضوء الإيمان كما أن القيم الدينية هى المعايير التى يستندون إليها عند إصدار الرأى فى كل ما يواجههم من مسائل سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية وينظرون من خلالها إلى سائر متغيرات الحياة من حولهم .

وهنا تبرز أهمية العقيدة الدينية فى نظرة الإنسان إلى الحياة من حوله

---

(١) سورة لقمان : آية ١٩

(٢) أحمد الخشاب : علم الاجتماع الدينى (القاهرة دار الحماس ، ١٩٦٤) ص ٣٩

والقضايا التى يعيشها كما تتضح ضرورة اعتماد أجهزة الأعلام على الدين فى معالجتها لمختلف قضايا الحياة .

ثالثا : الأعلام والبيئة وقادة الرأى :

على الرغم من أن وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة تلعب دورا هاما وفعالا فى إحداث التأثير إلا أن عمليات التنمية تتطلب ضرورة الاستعانة بوسائل الاتصال المباشر سواء أكان هذا الاتصال شخصيا أم جماعيا حيث أكدت بعض الدراسات أنه من السذاجة أن تتوقع أن الجمهور يتأثر بما يسمع ويقرأ ويشاهد ومن الواضح الآن أن وسائل النشر والدعاية كالصحافة والراديو والتليفزيون لاتستطيع وحدها أن تمارس تأثيرا على العمليات الاجتماعية الكبرى لأنها لا تتمتع بمزايا تتمتع بها بعض المؤسسات الكبرى فالمؤسسات الدينية والتعليمية كلاهما يتمتع بممارسة نوع من القوى الإلزامية أو القهرية بالإضافة إلى الفترة الطويلة التى تستغرقها ممارسة نشاط كل منهما والمتابعة المستمرة لهذا النشاط بالإضافة إلى أن المؤسسات الدينية والتعليمية تصل إلى درجة عالية من التنظيم يفتقدها الكثير من وسائل الاتصال الجمعى(١) .

وقد اتضحت القوى التأثيرية لقيادة الرأى من خلال نتائج الدراسات والكتابات التى أجريت حول خصائص الاتصال الشخصى وما يتميز به عن بقية أنواع الاتصال الأخرى ، وتوصلت هذه الدراسات إلى مجموعة من النتائج أهمها :

١ — للاتصال الشخصى الغلبة فى مجمل صياغة اتجاهـــات ومعارف الجمهور ، فمن خلاله تشكل الاتجاهات الأساسية للأفراد منذ طفولتهم فى

(١) محمود عوده : أساليب الاتصال والتغير والاجتماعى ، ط ٢١ (سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، الكتاب الثالث ١٩٨١ م) ص ٨٩

أطار الأسرة ثم فى إطار المدرسة وهى الاتجاهات التى تصبح أكثر مقاومة للتعديل بعد ذلك(١) .

٢ – جماعات الاتصال الشخصى هى التى تقوم بتصفية مضمون وسائل الاتصال الجماهيرى بمعنى تقويمها والحكم عليها ، ومن ثم تصديقها والتأثير بها إيجابا ، أو تكذيبها والتأثر بها سلبا (٢) .

٣ – يتميز الاتصال الشخصى بسرعة التعرف على رد فعل المتلقى ومدى استجابته للدعوة أو الفكرة المطروحة وذلك بعكس وسائل الاتصال الجماهيرى التى تحتاج إلى وقت طويل للتعرف على إمكانية نجاحها أو فشلها(٣) .

٤ – الاتصال الشخصى يسمح بتبادل الأفكار من ناحيتين والشخص الواقع عليه الاتصال قد يحظى بمعلومات إضافية أو بتمحيص لهـــذه المعلومات(٤) .

٥ – الاتصال الشخصى أقدر على العمل فى مجال العقيدة والسلوك ذلك المجال الذى يتطلب مواجهة مباشرة بين القائم بالاتصال والمستقبل ويعطى المتلقى أوسع الفرص للسؤال وبتمحيص المعلومات والتأكد منها :

٦ – تزداد ثقة معظم فئات الجمهور فى أراء الأشخاص الذين يعرفونهم ويعجبون بهم ويحترمونهم أكثر من ثقتهم فى الآراء والمعلومات التى

(١ ، ٢) قدرى حفنى : الاتصال الشخصى حاجة إنسانية مجلة النيل العدد ٣٩ ، الهيئة العامة للاستعلامات ، أكتوبر ١٩٨٩ ص ٥٠ ، ٥٦

(٣) Charles R. Wright , Mass Communication, Asociological Perispective . 2 ed ed, (New York. Random House jnc., 1975) pp. 3 - 9 -

(٤) افريت روجرز : الافكار المستحدثة وكيف تنتشر ، ترجمة سامى ناشد (القاهرة عالم الكتب ، بدون تاريخ) ص ١٣٤

يتلقونها من خلال قنوات الاتصال الجماهيرى(١) .

٧ ــ يتميز الاتصال الشخصى بفاعلية فى مواجهة أية معارضة يمكن فى العادة أن تكون أكثر فاعلية أو قابلية أن يتحاشاها الإنسان أو ، يتجاهلها من المصادر غير الشخصية(٢) .

٨ ــ ولقد أثبتت أحداث التاريخ الاجتماعى والسياسى للشعوب أن الدعوات الاجتماعية والدينية الكبرى التى لعبت دورا حاسما فى مسار التطور الفكرى والاجتماعى للبشر قد بدأت وقويت وازدهرت من خلال عمليات الاتصال الشخصى التى قام بها الداعية الرائد ، ولا يبدأ دور الاتصال الجماهيرى عادة إلا بعد أن يتسبب الأمر لمثل هذه الدعوات أى بعد أن تتمكن من السيطرة العقلية على أجهزة الاتصال الجماهيرى .

وهكذا نرى أن قادة الرأى يسهمون بدور كبير فى تشكيل الرأى العام والسيطرة عليه داخل مجتمعاتهم ولهذا يصبح من الأهمية بمكان اكتشاف هؤلاء القادة وتحديد هويتهم ومعرفة معدلات تأثرهم فى مختلف المراحل التى تمر بها المجتمعات ومحاولة كسبهم إلى خطط التوعية البيئية واستثمار ، قدراتهم فى هذا الصدد ، لأن هؤلاء القادة يمكن أن يكونوا عناصر إيجابية صالحة تسهم فى تطوير المجتمعات والقضاء على الأمراض والآفات الاجتماعية التى تسود هذه المجتمعات ، كما يمكن أن يسهموا فى إثراء الخطط التنموية المختلفة وذلك من خلال تأثيرهم على جماهيرهم المختلفة حيث يكون هؤلاء القادة أقدر على تعبئة الجماهير واستشارتها لفترة طويلة تمتد طوال فترة الخطة التنموية حتى يشعروهم بأن صالحهم الخاص يتصل بهذه المسألة اتصالا قويا . وهذا مايؤكده كانتربل فى أن الراى يتقرر نتيجة لقوة الصالح

(١) سمير محمد حسين : الإعلام والإتصال بالجماهير والرأى العام (القاهرة) عالم الكتب ، ١٩٨٤) ص ٩٧

(٢) أفريت روجرز ، مرجع سابق ص ١٣٤

الخاص فالأحداث والأقوال وغير ذلك من المنبهات تؤثر فى تشكيل فكر الجماهير وآرائهم بقدر العلاقة المتبادلة بينها وبين الصالح الخاص لهذه الجماهير(١).

وإذا كان من الضرورى لإنجاح خطط التنمية الوصول إلى قادة الرأى بصفة عامة فإن قادة الرأى الدينيين تشتد الحاجة إليهم وخاصة فى مجال التنمية وذلك لما يتمتع به هؤلاء من منزلة روحية خاصة فى نفوس الجماهير ويحتلون مكانة مقدسة فى قلوبهم ويضعونهم فى مكانة أسمى من مكانة غيرهم. فالناس تلتف حول هؤلاء القادة الذين يستطيعون توحيد صفوفهم وإرشادهم باعتبارهم رمزا واضحا لما يؤمنون به وانطلاقا من أن فكر هؤلاء القادة يحوى كل ماتحفل به الجماهير من معان وقيم تقوى روحها المعنوية وتدفعها إلى الانطلاق لدفع عجلة الحياة فى مختلف الميادين.

كما أن مهمة قادة الرأى الدينيين ليست مقصورة على إمامة المسلمين فى الصلاة وإلقاء الخطب والمواعظ التقليدية فى الجمع والأعياد وغيرها من المناسبات الدينية بل أن نشاطهم يمتد ليغطى كافة مجالات الحياة سياسية كانت أم اجتماعية أم اقتصادية، ذلك أن الدين الإسلامى أتاح لهؤلاء القادة مجالا واسعا للتحرك والعمل والقول والسلوك وبالتالى توجيه الجماهير والتأثير فيهم انطلاقا من أن الإسلام دين متكامل يتناول كل مجالات الحياة ويعالج جميع الأمور التى تهم هذه الجماهير مصداقا لقول الحق سبحانه «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»(٢).

وتأسيسا على ذلك نستطيع القول إن قادة الرأى بصفة عامة وقادة الرأى الدينيين بصفة خاصة يتحملون مسئولية دقيقة فى توجيه الرأى العام

---

(١) محمد عبد القادر حاتم: الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية، (بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٧٣ م) ص ١٣٩

(٢) سورة النحل: جزء آية ٨٩

والتحكم فى حركته والإسهام فى تشكيل اتجاهاته ، ذلك أنهم يستطيعون الإسهام فى الارتقاء بالجماهير والأخذ بيدهم ودفع خطط التنمية فى شتى المجالات ، الاقتصادية والاجتماعية ، ولا يملك علماء الاتصال إلا أن يعترفوا بالقدرات التأثيرية الهائلة لقادة الرأى والقادة الدينيين منهم بصفة خاصة ويؤمنوا بدورهم الحيوى فى تشكيل اتجاهات الرأى العام لاسيما أن هؤلاء القادة يستطيعون توظيف وسائل الاتصال المؤثرة فى توجيه الرأى العام ودفعهم إلى الإلتزام بالمبادىء والقيم الروحية فى علاقاتهم والقضايا العامة .

وهكذا نرى ضرورة أن تركز الخطة الإعلامية فى مجال البيئة على قادة الرأى والقادة الدينيين منهم بصفة خاصة حيث إنهم يلعبون دورا مؤثرا وفعالا فى مختلف مجالات النوعية فهم قادرون على تحويل الاتجاهات السلبية للجمهور تجاه البيئة إلى اتجاهات إيجابية كما أنهم يمكنهم من خلال اعتمادهم وسيلة الاتصال الشخصى من تعبئة الجماهير وتوجيههم نحو السلوك الأمثل للتعامل مع البيئة وتطوير أنماط الحياة التقليدية بصورة تفوق الاتصال الجماهيرى كذلك فإنه من المحتم على المعنيين بشئون البيئة أن يمدوا قادة الرأى بالمعلومات التى تتناول قضايا البيئة حتى يتمكنوا من تزويد الجماهير والتأثير فيهم .

رابعا : التخطيط الإعلامى والتوعية البيئية :

إن عملية تعديل الاتجاهات والسلوك تجاه البيئة ليست بالمهمة اليسيرة ولكن تكتنفها بعض الصعوبات وتحتاج إلى كثير من الجهد فى البحث والدراسة لإعداد الرسائل المؤثرة والفعالة والمضمونة النتائج إلى حد كبير .

وإذا كانت عملية التخطيط لازمة لإنجاح أى عمل فإننا نتساءل هل لدى الأجهزة المعنية بقضايا البيئة خطة إعلامية لتوعية الجمهور بضرورة المحافظة على البيئة ؟ وكانت إجابة المسئولين عن أجهزة الأعلام أنه لا توجد خطة

إعلامية محددة لهذا الغرض وإنما الأمر متروك للقائمين على البرامج بأن يتعمدوا عرض بعض الصور الحسنة فى صورة نماذج وخاصة تلك الصور الوافدة من الخارج لاستيحاء المثل والقدوة .

والحقيقة أن أسلوب عرض الصور الحسنة من أجل تعديل سلوك الجمهور إذا كان هذا الأسلوب يصلح فى المجتمعات المتقدمة فإنه لا يمكن الاعتماد عليه فى البلدان النامية التى هى فى أشد الحاجة إلى وضع خطط محددة وبرامج واضحة فى شتى مجالات الحياة وإلزام الناس بها ، كما أن عرض المؤثرات الخارجية فى مجال التنمية قد تؤثر على السلوك ولكن ليس شرطا أن يكون هذا التأثير إيجابيا ولكنه يمكن أن يأخذ هذا التأثير شكلا أو أكثر من الأشكال الآتية(١) :

١ — أن يثير لدى الناس أحاسيس الضعه والدونية والعداء إزاء الموقف المتفوق للشعوب الغربية .

٢ — أن يثير لدى الناس أحاسيس الإعجاب بالشعوب الغربية والاستعداد لاستعارة قيمها وتقليد أساليب سلوكها ومظاهر الحياة فيها .

٣ — وقد يتركز رد الفعل على اضعاف قيم الاستسلام والتواكل المحلية والإقبال على تحقيق سعادة الإنسان فى هذا العالم واعتبار هذا الهدف رسالة اجتماعية واجبة التحقيق .

٤ — وقد يترتب على تلك المؤثرات الخارجية إضعاف مراكز السلطة والنفوذ التقليدية كالحكام التقليديين ورجال الدين وسلطة الكبار على الصغار وهكذا . . . وتكون عندئذ حالة « فراغ سلطة » حيث تتهدم الصروح القديمة دون أن يحل محلها الجديد بالسرعة المنشودة .

(١) السيد محمد الحسينى وآخرون . دراسات فى التنمية الإجتماعية ط ٥ ، القاهرة دار المعارف ، ١٩٨٤ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦

٥ – ضعف الكيانات والروابط الاجتماعية الأولية التقليدية وزيادة الاتجاه نحو الفردية ونحو عمليات الحراك بشكل لافت .

٦ – اتساع نطاق المقارنة بين حال جماعة معينة وبين أنواع ومستويات اجتماعية أخرى مغايرة وبين ظروف الحياة التى تعيشها تلك الجماعة وظروف الجماعات الأخرى ، وقد يترتب على هذه المقارنات العديدة سخط واع على الموقف الذى يجد الفرد فيه نفسه كما يوجد تبرم بالوضع الذى يجد ثقافته وجماعته مقيدة له عندئذ تولد فى نفس كل فرد الحاجة إلى التغيير من أجل مستوى أفضل .

ومن هنا فإنه يتعين على مخططى الإعلام ومنفذى البرامج والرسائل الإعلامية ضرورة وضع خطة إعلامية مستوحاة من نظام المجتمع السياسى والاقتصادى والاجتماعى والدينى للجمهور الذى تتوجه إليه ، حيث إن النظام الإعلامى لايستطيع العمل فى عزلة عن بقية الأنظمة فى المجتمع الذى يتم العمل من خلاله .

كما أن على مخططى البرامج الإعلامية أن يعرفوا درجة الأمية بين السكان ودرجة التجانس والاختلاف بينهم ، والمرحلة التى يمر فيها البرنامج الإعلامى للتوعية بالبيئة ، فهل هذا البرنامج فى مرحلة إعطاء المعلومات أو تغيير الاتجاهات والسلوك عن طريق الإقناع .. أو كل ذلك يجب أن يكون واضحا قبل الدخول فى عناصر الاستراتيجية الإعلامية لتنمية الوعى البيئى وهى :

أولا : تحديد الأهداف :

الهدف هو صورة ذهنيه عن الحالة المستقبلية التى يراد بلوغها ولكن هذه الحالة المستقبلية لابد وأن تنبثق عن الحالة الحاضرة ومن هنا جاءت

اهمية البحث وجمع المعلومات(١) .

وعلى أى وسيلة إعلامية قبل أن تعمل أن تضع تصورا عاما لأهدافها حتى لاتبعد بعد ذلك عن القضية التى تهدف إليها وحتى لا يواجه القائمون على الاتصال مشاكل قد تطرأ نتيجة لعدم تقديرهم للأمور بدقة(٢) .

كما يجب على أى خطة إعلامية أن تشتمل على أهداف ينبغى تحقيقها ويجب النص عليها بترتيب أهميتها وأن تشمل الأهداف قصيرة المدى والأهداف طويلة المدى مع ملاحظة أنه كلما زادت درجة الدقة فى تحديد الأهداف كلما كان من السهل تقويم البرنامج فى مراحله المختلفة والاستفادة من هذا التقويم .

ثانيا : الجمور المستهدف :

إن تحديد الجمهور الذى توجه له الرسالة الإعلامية يعتبر عنصرا هاما وفعالا لنجاح الخطة الإعلامية وذلك لما يلى :

(ا) أن تحديد الجمور يساعد فى تصميم الرسائل المناسبة التى توجه إلى الجمهور مما يتطلب تصميم الرسالة الإعلامية لكى تنسجم مع حاجات البرامج المخططة واستعمال لغة مناسبة مألوفة ومنسجمة مع المستويات المعرفية للجماهير وهنا يجب أن تتسم الرسالة الإعلامية بالوضوح والسهولة والحيوية والملاءمة والمصداقية والبعد عن استخدام الأساليب الأدبية كالمجاز والأمثال والحكم المعقده والحكايات الرمزية لأن فهم وتبنى المبتكرات والبرامج المرغوبة يعتمد على القدرة على فهم واستيعاب وإدراك مضمون

---

(١) إبراهيم إمام : الإعلام والإتصال بالجماهير ، ط ٢ (القاهرة ـ مكتبة الإنجلو المصرية) ١٩٧٥) ص ٣١٤ .

(٢) Alen, Honcok, Planing For Educational Mass. Media (London ; Longman, 1977) . P . ss - 56

الرسالة والتفاعل معها(١) .

(ب) أن تحديد الجمهور المستهدف يعتبر عنصرا أساسيا فى تحديد قنوات الاتصال المناسبة ذلك أن البرامج التى قد تصلح للتعامل مع جمهور الأطفال قد لا تصلح لجماهير الشباب أو الشيوخ كما أن الوسائل التى تؤثر على فئة عمال الزراعة مثلا لا تصلح بالضرورى لعمال الصناعة أو الطلبة أو الموظفين والوسيلة المناسبة لمخاطبة جمهور النساء لا تستطيع إقناع جمهور الرجال والوسيلة القادرة على استمالة العناصر الأمية لا تفيد إذا توجهت لفئة المثقفين . وهكذا فإن تحديد الملامح المميزة للجمهور المستهدف يأتى فى مقدمة خطوات العمل العلمى الصحيح فى إطار خطة إعلامية(٢) .

ويمكن تقسيم الجمهور المستهدف من حملات التوعية البيئية إلى :

(أ) أصحاب القرار : وهم الذين يتسببون فى عمليات الإضرار بالبيئة .

(ب) المؤثرون على أصحاب القرار بطريقة رسمية ومنهم المسئولون فى المجالس المحلية عن النظافة وأفراد العائلة والجيران وما شابه ذلك .

(جـ) المؤثرون غير الرسميين على أصحاب القرار ، ومنهم علماء الدين ورجال الإعلام والسياسة وقادة الفكر وغير ذلك .

ثالثا : قنوات الاتصال :

قناة الاتصال هى مايستخدمه رجل الأعلام لتوصيل رسالته إلى الجمهور ومنها الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما وصحف الحائط والمعارض

---

(١) صالح أبو أصبع : الإعلام والتنمية (دبى ، مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر ١٩٨٦) ص ١٢٧

(٢) محيى الدين عبد الحليم : الإتصال بالجماهير والرأى العام الأصول والفنون ، القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٩٣ م ص ٢٠٨

والندوات والاتصال الشخصي تعتبر من أشكال الاتصال وإن اختلفت درجات تأثيرها .

إن معرفة الوسيلة وإمكانيات عملها يعتبر أمرا حيويا لأى مسئول إعلامى لأنه يمكنه معرفة خصائص أية وسيلة ومساهماتها التى قد تكون فريدة فى بعض الأحيان فى الجهود الإعلامية الرامية لتنمية الوعى البيئى ولاختلاف قدرات كل وسيلة .

فقد دلت الأبحاث الإعلامية أن لكل وسيلة اتصال مقدره على الإقناع تزيد أو تقل عن غيرها من الوسائل الأخرى وأن الإمكانات النسبية لمختلف الوسائل الإعلامية تختلف بشكل واضح ، من مهمة إقناعية إلى أخرى ، وفقا للموضوع الذى تعالجه ، ووفقا الجمهور الذى توجه إليه ، كما كشفت الأبحاث أيضا أنه كلما ازداد الطابع الشخصى للوسيلة ازدادت قدرتها على الإقناع فالاتصال المواجهى أكثر قدرة على الإقناع من الراديو ، والراديو أكثر فاعاية من المطبوع وأن تأثير التعرض لعدة وسائل أفضل من التعرض لوسيلة واحدة(١) .

ونظراً لاختلاف قدرات كل وسيلة إعلامية فإن المخططين الإعلاميين وصانعى القرار يضعون فى اعتبارهم عدة نقاط لاختيار الوسيلة الإعلامية المناسبة والتى من أهمها(٢) :

١ ـ مدى الوسيلة أى درجة انتشارها .

٢ ـ درجة الصدق والجاذبية بين الوسيلة والجمهور المستهدف .

٣ ـ تناسب الوسيلة الإعلامية مع معدل الأمية ـ اللغة ـ السن ـ نوعية الجمهور المستهدف .

---

(١) محى الدين عبد الحليم مرجع سابق ص ٢٠٩

(٢) محمد محمد البادى : البيان الإجتماعى للعلاقات العامة (القاهرة الإنجلو المصرية ١٩٧٨ ،) ص ١٥٣

٤ - إمكانيـة وصول الرسالة الإعلامية إلى الجمهور فمثلا الرسائل الإعلامية المطبوعة على شرائط (فيديو) لن تكون فى متناول أياد كثيرة ، كما أن الكتاب العلمى الفاخر لن يكون من السهل الحصول عليه بسبب ارتفاع سعره وانتشار الأمية ولهذا فلن تصل الرسالة إلى معظم جمهورها .

٥ - السرعة اللازمة لتوصيل الرسالة فكثير من الأحيان يتطلب الأمر سرعة نقل المعلومات أو الرسالة إلى الجمهور ومن هنا فإنه ينبغى التركيز على الوسيلة المناسبة التى تحقق السرعة المطلوبة .

وينبغى الإشارة إلى أنه عندما يكون الهدف هو الوصول إلى جمهور محدد بمعلومات معينة ، فإن أية وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرى أو الشخصى تعتبر كافية ولكن حين تتناول هذه الرسالة قضية مثل قضية التلوث البيئى فإن الهدف الإعلامى هو التأثير على الاتجاهات والسلوك ولذا فإن الحاجة تكون ماسة إلى استخدام كل من وسائل الاتصال الجماهيرى والشخصى معا . حيث دلت الدراسات على ان استخدام وسيلة من وسائل الاتصال الجماهيرى مدعومة ومعضدة بالاتصال الشخصى يحقق نجاحا باهرا وهو من أهم مميزات الحملات الدعائية الناجحة وخصائصها ، ويعتقد بعض الباحثين أن هـذه الطريقة تعتبر تدبيرا اتصاليا متفوقا من حيث التأثير والإقناع(١) .

رابعا : الرسالة الاتصالية :

تعتبر الرسالة الاتصالية المحور الأساسى لنجاح برنامج الاتصال وتعرف بأنها « مجموع الأفكار أو المفـاهيم أو المهارات أو المبادىء والقيم أو الاتجاهات التى يرغب القائم بالاتصال فى توجيهها لمن هم فى حاجة إليها

(١) محمود عودة : أساليب الإتصال والتغيير الإجتماعى ، مرجع سابق ، ص ١٥٣

من الأفراد والجماعات فى موقف محدد(١) .

وحتى يتم الاتصال لا بد وأن يكون هناك قدر أدنى من الخبرات المشتركة بين المصدر والمستقبل ، والرسالة المغرية يجب أن تدعمها الأعمال والنتائج ، وحتى تكون مغريه لا بد وأن يتوافر عدة عوامل أهمها :

١ - إثارة انتباه المتلقى وجذب اهتمامه(٢) .

فالمتلقى لن يلتفت إلى الرسالة الإعلامية مالم تجذب انتباهه وتثير اهتمامه ، فالخبر الذى يلقيه مذيع نشرة الأخبار عن إنشاء حديقة ثم تذاع النشرة فى وقت ينشغل الجمهور فيه بأحداث هامه ، فإن هذا الخبر لن يلقى أكثر من مجرد مروره عبر أعصاب السمع والبصر دون أى تأثير يذكر فى مراكز المخ .

٢ - ربط موضوع الرسالة بحاجات المستقبل مع اقتراح حلول لها(٣) .

على القائم بالاتصال فى مجال الأعلام البيئى أن يضمن رسالته أفكارا وحقائق وموضوعات عن البيئة يستطيع المتلقى أن يستوعبها وبتصور مدلولاتها فكلما كانت الرسالة مرتكزة على أفكار ذات صله بالمتلقى كلما كان قادرا على متابعتها والتعلق بها ، وقد خلصت إحدى الدراسات التجريبية إلى أن أجزاء الاتصال ذات الآهمية الخاصة بالفرد ، التى تنسجم مع بيئته وظروفه وتوقعاته أقل عرضة من غيرها للنسيان(٤) .

---

(١) محمد محمد عطية : وسائل الاتصال فى المجالات الاجتماعية - القاهرة الإنجلو المصرية ١٩٧٣) ص ١٨

(٢) إبراهيم إمام : فن العلاقات العامة والإعلام والقاهرة ، الإنجلو المصرية ١٩٦٨ ص ٢٠١

(٣) نفس المصدر ص ٢٠١

(٤) سمير محمد حسين : الإعلام والاتصال بالجماهير والرأى العام مرجع سابق ص ١٤١

فالرسالة الإعلامية التى تحذر الرأى العام من استخدام مياه الترع الملوثة فى الشرب وغسيل الأوانى فإنها لن تكون مقبولة إلا إذا عملت الدولة على توفير المياه الصالحة .

٣ ـ أن تستخدم الرسالة رموزا يستطيع المتلقى أن يفهمها دون عناء يجب أن تحتوى الرسالة الاتصالية على النقاط الأساسية التى تربط بين القائم بالاتصال والمتلقى ويمكن من خلال التركيز عليها التأثير فى تفكيره بطريقة تستجيب لمحتوى الرسالة ويرتبط ذلك باستخدام نفس اللغة التى يتكلم بها المستقبل واستخدام نفس المستوى من التعبير الذى يسمح له بالاستيعاب والفهم ، فالصحفى الذى يكتب مقالا فى جريدته عن البيئة ويتناول فيه حقائق علمية بحتة ويصوغ تعبيراته اللغوية بألفاظ صعبة الفهم ثقيلة على السمع فإنه يكون قد استنفذ هذه المساحه من جريدته دون داع لأن القارىء سوف ينصرف عنها .

٤ ـ أن يؤخذ فى الاعتبار تاريخ مستقبل الرسالة الإعلامية وهذا يشمل طرق المعرفة والقيم والمواقف والمعتقدات والآراء وأنماط السلوك والسن والجنس والتعليم والوضع الاجتماعى(١) وهذا يفيد فى تحديد فاعلية الرسالة الإعلامية عن البيئة .

٥ ـ التكرار المرغوب غير الممل :

تشير كتابات علم الاتصال إلى أن تكرار الرسالة يزيد من تأثيرها حيث يؤدى التكرار إلى زيادة فاعلية الاتصال الإقناعى ، والسبب فى ذلك أن المكرر ينطبع فى تجويف الملكات اللاشعورية التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا التكرار وانتهى إلى

(١) ادوين واكين : مقدمه إلى وسائل الاتصال ، ترجمه وديع فلسطين ، ـ القاهرة . مطابع الاهرام التجارية ، بدون تاريخ ، ص ٤

تصديق المكرر(١) وقد أثبتت إحدى الدراسات التجريبية وجود علاقة بين التكرار والتذكر(٢) غير أن هذه العلاقة ليست نهائية ، أو بلا حدود ، فالتأثير يصل عاده إلى ذروته بعد مرتين أو ثلاث ثم يصبح لتكرار أثر محدود جدا بعد ذلك بل أن زيادة التكرار قد يثير ملل أو استياء الجمهور(٣) .

وعملية تكرار الموضوعات البيئية عن طريق وسائل الأعلام ينبغى أن تراعى الآتى :

(أ) أن يكون للموضوع الواحد عدد من الرسائل القصيرة حتى لايمل المشاهد من تكرار الرسالة فينصرف عن الموضوع بأكمله .

(ب) أن تعرض الرسالة فى صورة تقنيه جيدة حيث أن الرسالة ذات المستوى الردىء سوف تصبح مملة ومنفره فى حالة تكرار إذاعتها .

خامسا : التقويم والمتابعة :

يمثل التقويم الحلقة الأخيرة فى دائرة الاتصال حيث يكتمل عندها مرحلة الحوار الفعلى أو اللفظى لتبدأ من جديد مرحلة أخرى من مراحل الحوار بين المنظمة وجماهيرها ، والمقصود بالتقويم إعطاء أو تقدير قيمة لما تقوم به من نشاط ، وذلك بقصد التعرف على نواحى القوة والتمسك بها ، ونواحى الضعف ومحاولة علاجها والإحتياط لها مستقبلا(٤) .

---

(١) على عجوة : الأسس العلمية للعلاقات العامة ، مرجع سابق، ص ٢٣٠

(٢) سمير محمد حسين : الإعلان المداخل الأساسية (القاهرة ، عالم الكتاب، ١٩٨٥) ص ١٩١

(٣) محمد عبد الله عبد الرحيم : العلاقات العامة (بدون ناشر ، ١٩٨٥) ص ١٦٠

(٤) محمد محمد عطية : وسائل الاتصال فى المجالات الإجتماعية، مرجع سابق، ص ٥٠

ويأخذ التقويم ثلاثة أساليب رئيسية وهى :

(أ) التقويم القبلى : ويتم ذلك عن طريق اختيار عينة محدودة ، وممثلة للجمهور المرتقب ودراسة مدى تأثير المادة الاتصالية أو الأعلامية عليه وإجراء التعديلات اللازمة قبل تصميم هذه المادة أو نشرها على كل فئات الجمهور .

(ب) التقويم المرحلى : تتطلب بعض برامج التوعية البيئية فترات زمنية طويلة للانتهاء من تنفيذها ومن الطبيعى أن تتخلل فترة البرنامج بعض الوقفات المرحلية التى تحتمها طبيعة الظروف المحيطة بتنفيذه وفى هذه الحالة يكون من الملائم استغلال هذه الوقفات بين مراحل برامج التوعية البيئية لتقويم كل مرحلة أولا بأول للتعرف على مواطن القصور فى المرحلة السابقة وتلافيها فى المرحلة التالية .

(جـ) التقويم البعدى : وهذا يتم بعد تنفيذ البرنامج للتعرف على النتائج التى حققتها برامج التوعية فى ضوء الأهداف الموضوعة ويفيد التقويم البعدى فى تحديد الآثار التى تترتب على برنامج معين كما أنه يفيد فى اكتشاف الأخطاء التى وقعت وبالتالى يمكن تفاديها مستقبلا إلى جانب مايساعد على الاعتماد على وسائل أفضل للاتصال(١) .

تصبح عملية التقويم أساسية للبرامج الإعلامية عند استخدام وسائل الاتصال الجماهيرى وفى حالة ما إذا كان الجمهور المستهدف يحتوى على نسبة كبيرة من الأميين وعندما يصعب على المخططين الجزم بمدى التأثير

---

(١) محمد محمد البادى : البنيان الاجتماعى للعلاقات العامة ، مرجع سابق ص ٢٣

الذى قد تحرزه الرسائل المعممه ، وحينما تكون درجة التباين بين الجمهور والقائمين بعملية الاتصال عالية ، وكذلك أيضا عندما تكون الرسالة الاتصالية جديدة نسبيا على الجمهور مثل قضية تنمية الوعى البيئى وعندما يكون هدف الرسالة هو تغيير الاتجاهات ، ومن منطلق أن الكثير من الأخطاء من الممكن أن تحدث أثناء تنفيذ الأنشطة الإعلامية فإن متابعة البرنامج والخطة الإعلامية الموضوعة أمر حيوى ، وبدونها فإن الخطة قد لا تحقق جميع أهدافها .

النتائج والتوصيات

من خلال هذه الدراسة تتضح العلاقة بين استراتيجية تنمية الوعى البيئى والخطط الإعلامية وبالتالى يصبح من الأهمية استخلاص مجموعة النتائج وتقديم التوصيات الآتية :

١ ـ ضرورة الربط بين خطط تنمية الوعى البيئى والخطط الإعلامية بصورة تحقق التفاعل والانسجام بينهما حتى يستطيع الاعلام أن يمهد ويهيء الجمهور نفسيا لتقبل عملية التوعية البيئية ويواكب هذه العملية ويتابع ماتم فيها من إنجازات ثم يعرض فى النهاية تقويما علميا لما تم إنجازه وما أسفرت عنه النتائج النهائية سلبا وإيجابا بهدف تلافى السلبيات وترسيخ إيجابيات التخطيط لتنمية الوعى البيئى .

٢ ـ التخطيط العلمى أصبح سمة رئيسية للمجتمع المعاصر ولذا فإن المحاولات غير المخططة التى تبذلها الجهات المعنية بشئون البيئة ومن بينها وسائل الإعلام محكوم عليها بالفشل نتيجة العمل العشوائى غير المبرمج لذلك يصبح من الضرورى أن تضع هـــذه الأجهزة خططا إعلامية تنسجم فى خطواتها وأهدافها مع الخطط التنموية لنجاح العمل وتحقيق الأهداف .

٣ ـ ضرورة التضامن بين الأجهزة المعنية بشئون البيئة وعلى رأسها الأجهزة الاعلامية ، وبين المؤسسات الدينية حيث تبين من خلال الدراسة مدى إهتمام الإسلام بالبيئة والمحافظة عليها ، كما يتضح أهمية الدور الذى يمكن أن تلعبه هذه المؤسسات فى أنها تشمل قطاعات كبيرة من الناس وأنها لاتعترف بما يوجد بينهم من فروق اجتماعية أو اقتصادية وهى فى مجالها

قد تقوم بالدور الذى تقوم به الإذاعة والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام الحديثة فى تكوين الرأى العام والتأثير عليه فهى تقوم بتثبيت عقائد الناس وتوجيههم ودفعهم إلى التزام المبادىء والقيم الروحية فى علاقاتهم وحياتهم العامة .

٤ ـ تؤكد الدراسة على ضرورة إجـــراء دراسة علمية دقيقة للجماهير المستهدفه لمعرفة طبيعتهم ومستوياتهم الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والظروف النفسية التى يعيشها كذلك معرفة طموحاتهم وأمالهم وآلامهم ودراسة الأحوال السائدة فى البيئة التى يجرى فيها التخطيط لتنمية الوعى البيئى .

٥ ـ ضرورة وضع حدود فاصلة بين ما يمكن أن تقوم به وسائل الاتصال الجماهيرى وما يمكن أن تقوم به وسائل الاتصال المباشر فعلى خبراء الاتصال إن يدركوا أن لوسائل الاتصال الجماهيرية حدوداً لا يمكن أن تتجاوزها وألا تعرضت الحملات التى يقومون بها لتوعية الجماهير بالفشل وذهبت الجهود المبذولة إدراج الرياح إن وسائل الاتصال الجماهيرى لاتحقق المستحيل ولابد لكى تنجز المهام الى تسند إليها أن يكون المجتمع الذى تعمل فيه مهيئا لقبول ماتشير أو تنصح به ، فإذا كان الجمهور غير مقتنع بأهمية المحافظة على البيئة وعدم الاضرار بها فلا يمكن لأية حمله إعلامية مهما كانت قوتها إن تنجح فى إقناع الناس بجدوى ماتدعو له فلابد أن يسبق هذه الحملات الاعلامية غير المباشرة اتصالات شخصية أو جماعية مباشرة تمهد الطريق وتهىء العقول والنفوس لتقبل الأفكار الجديدة التى تنتشر عن طريق الصحافة والراديو والتليفزيون والسينما وغـــيرها من وسائل الاتصال الجماهيرية ، فوسائل الاتصال المباشرة تتكامل ولا تتعارض ، والمهم أن يعرف خبراء الاتصال كيف ومتى يستخدمون كلا منها ومدى فاعليتها .

٦ ـ يعد الاهتمام باختيار الكوادر البشرية وتدريبها والارتقاء بمستوياتها

من الأسباب الرئيسية لنجاح العمل الإعلامى ولذا فإنه يصبح من الضرورى الدعوة إلى تأهل وتدريب أجيال من الإعلاميين فى شئون البيئة المتخصصة لضرورة الترشيد المستمر بالخطر الناتج عن سلبيات التعامل مع البيئة .

٧ - أهمية الاستفادة بنتائج البحوث العلمية التى أجريت فى حقل الإعلام والتنمية ، واستثمار نتائج هذه البحوث وتوظيفها التوظيف الأمثل لدعم الخطط التنموية المختلفة ، والمعاهد العلمية ومراكز البحوث ، والجامعات تحتوى على العديد من الدراسات التى يمكن أن تشكل أساسا علميا سليما تستند إليه البرامج الإعلامية فى نشاطها، وكذلك إجراء الدراسات والبحوث العلمية لتتحول وسائل الاتصال المختلفة ولاسيما الراديو والتليفزيون من وسائل تقصر نشاطها على الترفيه والتسلية وتمضية أوقات الفراغ إلى عوامل بناءة تثرى الحياة وترسخ المفاهيم والمعانى الإيجابية للجماهير .

٨ - فتح الملف البحث والدراسات المتعلقة بالبيئة ووضعها أمام الإعلاميين وعوامل توازنها وحمايتها والمحافظة على سلامتها وأسلوب مكافحة تلوثها وكيفية الرقابة والعمل على عدم تجاوز حدود استيعاب البيئة .

« مصادر البحث و مراجعه »

أولا – القرآن الكريم .

ثانيا – الكتب العربية :

١ – إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، ط ٢ (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٧٥م) .

٢ - إبراهيم إمام : فن العلاقات العامة والأعلام ، (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٨٦م) .

٣ – أبو داود سليمان الأزدى : سنن أبي داود (بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ) .

٤ – أحمد الخشاب : علم الاجتماع الدينى (القاهرة ، دار الحماس ، ١٩٦٤م)

٥ – أحمد مدحت سلام : التلوث مشكلة العصر (الكويت ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد ١٥٢ ، أغسطس ، ١٩٩٠م) .

٦ – السيد سابق : فقه السنة ج ١ (القاهرة ، دار الكتاب العربى ، بدون تاريخ) .

٧ – السيد محمد الحسينى وآخرون : دراسات فى التنمية الاجتماعية ط ٥ ، (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤ م) .

٨ – سمير محمد حسين : الأعلام والاتصال بالجماهير والرأى العام ، (القاهرة عالم الكتب ، ١٩٨٤ م) .

٩ – سمير محمد حسين : الإعلان ، المداخل الأساسية (القاهرة ، عالم الكتاب ، ١٩٨٥م) .

١٠ - صالح أبو أصبع : الأعلام والتنمية (دبي ، مؤسسة البيان للصحافة والطباعة والنشر ، ١٩٥٨م) .

١١ - على عجوه : الأسس العلمية للعلاقات العامة (القاهرة ، عالم الكتب ، ١٩٧٧ م) .

١٢ - مجدى علام : الأعلام البيئى ، كتاب الناس والطب ، بدون تاريخ .

١٣ - محمد عبد القادر حاتم : الرأى العام وتأثره بالإعلام والدعاية (بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٣ م) .

١٤ - محمد عبدالله عبد الرحيم : العلاقات العامه (بدون ناشر ، ١٩٨٥م) .

١٥ - محمد عطية الأبراشى : عظمة الإسلام ، جـ٢ (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٦٧ م) .

١٦ - محمد محمد البادى : البنيان الاجتماعى للعلاقات العامة (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٧٨م) .

١٧ - محمد محمد عطية : وسائل الاتصال فى المجالات الاجتماعية (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٧٣م) .

١٨ - محمود عوده : أساليب الاتصال والتغيير الاجتماعى (سلسلة علم الاجتماع المعاصر ، الكتاب الثالث ، ١٩٨١ م) .

١٩ - محى الدين عبد الحليم : الاتصال بالجماهير والرأى العـــام ، الأصول والفنون (القاهرة ، الإنجلو المصرية ، ١٩٩٣م) .

٢٠ - نبيل السمالوطى : التنمية والتحديث الحضارى ، جـ١ (بدون ناشر ، ١٩٧٥ م) .

٢١ - نسمه أحمد البطريق : نظرية الأعلام المرىء والمسموع ط ٢ (بدون ناشر ، ١٩٨٨ م) .

ثالثا : الكتب المترجمة :

١ — ادوين واكين : مقدمه إلى وسائل الاتصال ، ترجمة وديع فلسطين القاهرة ، مطابع الأهرام التجارية بدون تاريخ ،

٢ — أفريت روجرز : الأفكار المستحدثه وكيف تنتشر ترجمة سامى ناشد (القاهرة ، عالم الكتب ، بدون تاريخ) .

رابعا : الدوريات :

١ — جريدة الأهرام العد (٣٨٩٤٥) ٢٣ يوليو ١٩٩٣م .

٢ — مجلة النيل العدد (٣٩) الهيئة العامة للاستعلامات ، أكتوبر سنة ١٩٨٩ م .

خامسا : المراجع الأجنبية :

1 — Alen Honcok, Planing For Educational Mass Media (London ; Longman, 1977) .

2 — Charles R. Wright , Mass Communication, Asociological Perispective . 2 ed ed, (New York. Random House jnc., 1975) .

الكتابة الصحفية

وأثرها فى اللغة العربية

(دراسة تطبيقية على عينة من الصحف العربية)

بقلم الدكتور

كرم شلبى

رئيس قسم الصحافة والإعلام

توشك الصحافة المصرية ـ والتى يؤرخ لنشأة الصحافة العربية بنشأتها ـ أن تكمل القرن الثانى من عمرها ـ وهى فترة وإن لم تكن طويلة ، فإنها أيضا ليست بالقصيرة بحيث يكون من السهل إغفال دورها وتأثيرها فى حياتنا السياسية والفكرية .

ويعنى هذا البحث بدراسة أثر الصحافة فى لغتنا العربية على وجه التحديد، ذلك لأن هذه الصحافة اصطنعت أساليبها الخاصة فى معالجة موضوعاتها وطرائق عرضها وأساليب كتابتها ، ومن ثم أصبح لها بذلك لغتها الخاصة التى تختلف عن لغة الكتب ولغة الأدب ، كما تختلف عن لغة وسائل الاتصال الأخرى مثل الراديو والتليفزيون .

وبناء على ذلك نؤسس فرضا ، يقوم على أن الصحافة لابد وأن تكون قد أثرت على نحو ما فى لغتنا العربية ، التى هى أداتها فى التعبير . وعندما نقول الصحافة ، فإننا نعنى بها فى هذا المجال الكتابة الصحفية على وجه القطع ،

هو المقال الصحفي في الأساس باعتباره « أدب الصحافة » . ولا نعني الصحافة بالمعنى العام الذي يشمل الحرفة والعاملين فيها وأجهزتها الفنية وأساليب أدائها .

وفي هذا المقام أيضا لابد أن نشير إلى أن هناك فرقا كبيرا بين أدب الصحافة الذي نعنيه في هذا البحث وهو « الكتابة الصحفية » وبين الأدب الذي ينشر في الصحافة ، والذي يعني مجموعة الفنون الأدبية التي قد تنشرها الصحف في شكل روايات أو قصص أو قصائد شعر .

ومن هنا كان على هذا البحث أن يسعى للإجابة عن عدد من التساؤلات هي :

أولا : هل كان لأدب الصحافة أثر في لغتنا العربية ؟

ثانيا : ما طبيعة هذا الأثر .. هل كان سلبيا أو إيجابيا ؟

ثالثا : ما العوامل التي أدت إلى هذا الأثر أو ساهمت فيه ؟

الدراسات السابقة :

هناك عدد غير قليل من الدراسات التي بحثت في موضوعات الصحافة الأدبية ، والتحرير الصحفي ، وفن المقالة الصحفية ، وأخرى درست تاريخ الصحافة وسيرة الكتاب والأدباء الذين احترفوا هذا العمل ، وهذه الدراسات وإن كانت تختلف اختلافا جوهريا عن موضوع بحثنا ، إلا أننا قد أفدنا كثيرا منها ، نظرا لأنها تغطي جوانب أساسية في هذا الموضوع ، وتعد رافدا من روافده المهمة .

وهذه الدراسات السابقة هي :

١ ـ مجموعة المؤلفات التي وضعها المرحوم الأستاذ الدكتور عبداللطيف حمزة في « أدب المقالة الصحفية » ثمانية أجزاء ، والتي كانت سجلا لتاريخ عدد من كتاب وأدباء ورواد الصحافة ، وبحثا في تراث فكري وأدبي خلفوه فوق بضعة آلاف من الصفحات .

٢ — الدراسة المهمة التى أعدها الأستاذ الدكتور أحمد حسين الصاوى « فجر الصحافة فى مصر ـ دراسة فى إعلام الحملة الفرنسية » ، وهى الدراسة التى عنيت عناية فائقة بفحص وتمحيص المنشورات التى أصدرتها الحملة الفرنسية ، وكانت بمثابة « صحف عربية » أصدرتها .

٣ — الدراسة التى أعدها الدكتور محمد سيد محمد حول « الصحافة بين التاريخ والأدب » . والتى ركزت على دور الصحافة والأدب فى تسجيل التاريخ ، وكيف يمكن الاعتماد عليهما كمصدر من المصادر المهمة فى هذا المجال .

٤ — الدراسة التى أعدها الدكتور محمود فياض « الصحافة الأدبية بمصر ، والاتجاهات القومية » ، والتى تركز على دور الأدب فى العمل السياسى والوطنى فى مصر .

٥ — دراسة الدكتور عبد العزيز شرف حول « فن التحرير الإعلامى » والتى يعرض فيها لحرفية الكتابة لوسائل الاتصال المختلفة .

مجال الدراسة :

تتخذ الدراسة من الصحف العربية مجالا للبحث ، وهى الصحف التى تصدر باللغة العربية داخل عدد من الدول العربية ، وخارجها ، والتى يمكننا أن نطلق عليها « الصحف العربية المحلية والدولية » .

جوانب الدراسة :

تشتمل الدراسة على جانبين :

١ ـ جانب نظرى يبحث فى تطور أساليب الكتابة « أدب الصحافة » ، ويركز على الصحافة المصرية باعتبارها الصحافة الرائدة فى العالم العربى .

٢ ـ جانب تطبيقى .. يعنى بتحليل مضمون مادة « الصحف » للحصول على المعلومات الأساسية حول موضوع الدراسة .

تطور أساليب الكتابة فى الصحافة المصرية

قبل دخول المطبعة ، ومعها الصحافة إلى مصر ، على يد الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، كانت الكتابة العربية قد مرت بأطوار عدة شكلت ملامح النثر العربى فى مراحل نشوئه وتطوره متأثرا فى ذلك بظروف كل طور من الأطوار وطبيعة المؤثرات التى صاغت الثقافه العربية وشكلتها خلاله .

فإذا كان يؤرخ للطور الأول من أطوار الكتابة العربية بظهور الإسلام ، فقد كان طبيعياً أن يكون النثر العربى فى تلك المرحلة التى هى مرحلة النشوء « أشبه بمخلوق ضعيف أخذ يقوى بالتدريج ، مستمداً قوته من الطبيعة العربية » ومن ذلك الحدث الجليل وهو أثر الإسلام وما أحدثه من تغيرات وتحولات عظمى ، فضلا عن العناصر الأجنبية التى شاركت فى بناء الثقافة الإسلامية نفسها آخر الأمر .

فى تلك الحقبة التى حبا فيها النثر العربى ناهضاً إلى مرحلة أكثر نضجا ، برزت ثلاثة أسماء ترمز إلى تلك المرحلة وتتسيدها ، وهم : عبد الحميد بن يحيى الكاتب فى نهاية العصر الأموى ، وعبدالله بن المقفع فى أوائل العصر العباسى ، وأبو عثمان الجاحظ فى القرن الثالث . وقد اتسمت الكتابة العربية أنذاك بالوضوح والبساطة والبعد عن التكلف والتصنع ، واعتمد النثر الفنى فى بنـــائه « على التقسيم المنطقى للعبارة ، والازدواج والترادف الصوتى فيها »(١) .

وبحلول العهد الرابع الهجرى ، ودخول الحضارة الإسلامية عهدا جديدا من عهود التضخم والتعقيد ، كان طبيعيا أن تنسحب آثار ذلك على الأدب العربى وأساليب الكتابة ، فإذا كانت تلك الحقبة هى التى شهدت المنافسة الشديدة بين إمارات العالم الإسلامى فى مجالات التحضر المختلفة ، وسادها

الولع بالزينة والترف والتأنق والتكلف ، فإن الأدب لم يكن ليشذ عن ذلك ، بل كان صورة للمجتمع العباسى وأحد ملامحه المعبرة ، وجاء ذلك واضحا كل الوضوح فى كتابات ابن العميد التى فاضت بالمبالغة فى السجع والجناس والطباق والاستعارات والتشبيه ونثر الأشعار .

واشتدت المبالغة فى التزين والتأنق بعد ذلك ، حتى أضحت الزينة والأناقة غاية فى نفسها طوال القرن الخامس الهجرى ، ومن يقرأ كتابات بديع الزمان الهمذانى يجد الكثير من ألوان البـــديع التى تمثل المبالغة فى التعبير ، وفى الجناس والإغراب فى استخدام اللفظ والتلاعب به إلى حد « يصل أحيانا إلى حد الشعوذة » ، وخاصة « الرسائل التى تقرأ من أعلى إلى أسفل ، كما تقرأ من أسفل إلى أعلى ، والرسائل التى تخلو ألفاظها من التنقيط ، ولم يكن ذلك سوى صدى لطبيعة الحياة فى العصر العباسى أيضا الذى استغرق القرنين الرابع والخامس للهجرة ، وكانت بغداد خلالهما هى عاصمة الأدب العربى(٢) .

ومع ظهور الخلافة الفاطمية فى مصر فى القرن السادس الهجرى ، انتقل إليها لواء الزعامة ، وصارت هى العاصمة الأولى للأدب العربى ، ومن ثم دخلت الكتابة العربية طورا جديدا ، جمع بين الميراث السابق الذى آل إليه من المجتمع العباسى ، وما تولدت عنه فترة زاهية جديدة من فترات الزهو الحضارى خلال العصرين الفاطمى والأيوبى ، فظهر فى التاريخ الأدبى ماعرف باسم « المدرسة الفاضلية » نسبة إلى القاضى الفاضل الذى وصل بالنثر الفنى إلى قمة نضجه ، واستمر عند تلك القمة حتى نهاية القرن التاسع للهجرة ، لتدخل الكتابة العربية بعد ذلك مرحلة جديدة تمثل طور العجز والوهن فى ظل الحكم العثمانى وعلى مدى ثلاثة قرون شملت القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر للهجرة .

النثر فى بداية عصر الصحافة :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر عام ١٧٩٨ ، حملت معها مطابعها العربية واليونانية والفرنسية ، وبينما اهتمت الحملة بإصدار صحيفتين باللغة الفرنسية ، إحداهما لجنودها وهى « لوكوربيه دى ليجبت » ، والثانية لعلمائها وهى «لا ديكاد ايجبسين » فإن نشاط المطبعة العربية اقتصر آنذاك على طباعة المنشورات التى كانت وسيلة للدعاية ، وإداة لنشر تعاليم القائد العام ، فضــــلا عن نشر الكتب المؤلفة والمترجمة التى وضعها علماء الحملة وأدباؤها(٣) .

هكذا شهدت مصر نشأة الصحافة ، فكانت مهدا لصحف أخرى قبل أن تكون لها صحافتها العربية(٤) أما تلك المنشورات التى صــــدرت بالعربية ، فهى التى يمكن إعتبارها ـ تجاوزا ـ بمثابة الصحافة العربية الرسمية للحملة الفرنسية فى مصر ، أو الوسيلة التى قامت مقام الصحافة آنذاك ، وكانت أداة من الأدوات الدعائية والإعلامية للحملة ومصـــــدرا من مصادر التأريخ لها ... وعلى ذلك يجوز لنا أن نتساءل : إلى أى حد يمكن القول بأن هذه المنشورات قد ساهمت فى النهوض بالنثر الفنى أو زادت من سقمه ورداءة نسيجه ؟ .

إن أول ما نلاحظه فى هذه المنشورات أنها جاءت ترجمة لمادة أصلية كتبت باللغة الفرنسية ، « أى أن الرسائل الإعلامية التى تضمنتها كانت تعد أولا بلسان الحاكمين ، ثم تذاع بلسان أبناء الشعب أو اللسانين معا »(٥) ، وعلى الرغم من أن حركة الترجمـــة فى ظل الحملة الفرنسية كانت لها نتائجها الملموسة وآثارها الواضحة فى مجالات علمية وثقافية عدة ، إلا أن أثرها وتأثيرها فى اللغة العربية وأساليب الكتابية لم يكن إيجابيا بأى حال من الأحوال ، ومرجع ذلك فى حقيقة الأمر إلى أن الموضوعات والأفكار

« الرسائل » التى حملتها المنشورات ، كانت تمثل نمطا غير مألوف فى النثر العربى ، ومصطلحات وتعبيرات إدارية وعلمية وعسكرية وقانونية ، ومعنى هذا « أن محررى المنشورات كانوا يقومون بعملية تنشيط للغة العربية ، يحاولون فيها أن ينطقوها بذلك الجديد غير المألوف ، وأن يدفعوها إلى اقتحام مجال حديث تضيف به إلى فنونها فنا لم تعرفه من قبل ، وإلى جانب هبوط مستوى هذه اللغة وضعف إمكاناتها فى ذلك الوقت ، فإن المحررين أنفسهم ـ بحكم بيئتهم وما أتيح لهم تعلمه ـ لم يكونوا على علم وافر بالعربية أو إدراك عميق لخواصها ودقائقها »(٦) لقد كانت غالبية هؤلاء المحررين « المترجمين » من الفرنسيين والمستشرقين الذين صحبوا الحملة ، ومن بعض أسرى المسلمين الذين جاء بهم القائد الفرنسى من جزيرة مالطة بعد استيلائه عليها ، وبعضهم الآخر من السوريين الذين فروا إلى مصر(٧) ، أما المصريون الذين عملوا فى هذا المجال فكانوا من القبط الذين اتصلوا بالفرنسيين اتصالا وثيقا(٨) ، وكان طبيعيا أن تنسحب آثار ذلك على البناء اللغوى للجمل والعبارات ، والصياغة الفنية لهذا البناء ، فجاءت التعبيرات « سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية » كما أشار الجبرتى(٩) ، كما كان القارىء يعرض عن ذكرها « لطولها وركاكة تركيبها »(١٠) فضلا عن « أغلاط وعبارات ركيكة غير مفهومة »(١١) وقد أشار الدكتور أحمد حسين الصاوى من خلال دراسته لهذه المنشورات إلى بعض من شتى أنواع الأخطاء التى أوردها فى دراسته الفريدة فى إعلام الحملة الفرنسية(١٢) ، ومن هذه النماذج التى أوردها يقول :

« ومن أمثلة التعبيرات العامية التى تكثر ـ دون مبرر ـ فى لغة المنشورات ، « دفعتم الطاق طاقين » ، « يخلوا فى بالهم » « البضايع .. يدخلوهم أو يخرجوهم من ورا الجمرك » « البيوت والأملاك بتوع المماليك » ، « المصاروه » .

* « استخدم محررو المنشورات ما كان مألوفا فى ذلك العصر من

المصطلحات الديوانية التى تتصل بالأمور المالية والضريبية ، على ركاكتها ، مثل : غلاق ، المعلوم ، حصص ، تمسكات ، رجعات ، ميرى ، كشوفية ، وذلك حتى يكون مايذاع على الناس فى هذا الصدد واضحا مفهوما ، ولكنهم إلى جانب ذلك استخدموا عدة ألفاظ تركية وفرنسية ، كما هى أو مع بعض التحوير ، دون أن يحاولوا ترجمتها أو تعريب صيغتها ، مثل « صارى عسكر » أو « سارى عسكر » جامكية (مرتب - ماهية ، وجمعها جوامك) ، جبخانة (ذخيرة) ، وجاق ، مصرلى ، عثمانلى ، وجاقلى ، ومثـــل : أو فسيال (من Offîcier) ، كومسارى (من Commissaire) نمرة (من Numero) » .

« أما أخطاء النحو فكثيرة ، وأبرز أنواعها : نصب المرفوع والمجرور ، وحذف النون من صيغ الأفعال الخمسة ، واستعمال حرف الجزم « لم » مع غير الفعل المضارع ... » .

ثم يشير الدكتور الصاوى إلى أسباب ذلك ، فيرجعه إلى « عوامل وملابسات تتعلق بحالة اللغة العربية وطبيعة الحياة الثقافية للبلاد فضلا عن ضعف مستوى التحصيل اللغوى للمترجمين فى ذلك العصر » .

الصحافة الرسمية والشعبية :

بعد أكثر من ربع قرن على رحيل الحملة الفرنسية ، ظهرت أول صحيفة مصرية ، هى جريدة الوقائع المصرية ، عام ١٨٢٨ ، ولعل أول مايلفت النظر إلى تلك الصحيفة « الرسمية » الأولى التى أصدرها محمد على حاكم مصر آنذاك وقصدبها أن تكون أداة للدعاية ، لسياسته وإنجازاته ، وأن تكون هى « الميدان الفسيح لمدحه والثناء عليه » « و سجلا للحكومة وصدى لنشاط رجالها » (١٢) يلفت النظر فى الصحيفة أنها كانت تصدر باللغتين التركية والعربية ، ولم يكن ما ينشر فيها بالعربية سوى ترجمة للتركية وليس العكس ، وهكذا عادت اللغة التركية التى عرفتها مصر عندما خضعت للحكم العثمانى ، وكان استخدامها

قد بطل أو كاد إبان الحملة الفرنسية ، وكانت عودتها تلك المرة فى شكل لغة أساسية للصحافة ، إلى أن ولى أمرها رفاعة رافع الطهطاوى فى ٢٧ ذو القعدة سنة ١٢٥٧ هـ الموافق ١١ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٤٢ م ، فجعل اللغة العربية هى الأصل الذى ينشر فى الجهة اليمنى من الجريدة ، وأما اللغة التركية فخصص لها جهة الشمال ، كما أظهر عناية فائقة بالأخبار المصرية وجعلها مادة أساسية ، بالإضافة إلى نشر بعض القطع الأدبية التى يحسن اختيارها من بطون الكتب العربية ، ثم - وهذا شىء على قد كبير من الأهمية - شهدت الجريدة ظهور فن المقال كمحاولة مستحدثة كانت هى الأولى فى تاريخ الصحافة المصرية(١٤) .

ظهرت فنون صحفية جديدة إذن لم يكن للنثر العربى سابق عهد بها ، أخبار داخلية وخارجية تتناول أحداثا عسكرية وتجارية واجتماعية ، ومقالات أدبية واجتماعية وتاريخية . . إلخ .

ومن ثم كان لابد لهذه الفنون والموضوعات الجديدة أن تؤثر فى النثر الفنى وأن تتأثر به ، غير أن الذى جرى فى هذا الشأن ، أن النثر الفنى فى هذه الصحيفة وغيرها من الصحف « الحكومية » الأخرى التى شهدتها تلك الحقبة ، مثل مجلة « يعسوب الطب » التى صدرت عام ١٨٦٥ ، و « روضة المدارس » التى صدرت عام ١٨٧٠ ، ثم الصحف الشعبية (غير الحكومية) التى صدرت فى عصر الخديو إسماعيل مثل جريدة « وادى النيل » سنة ١٨٦٧ وجريدة « نزهة الأفكار » ١٨٦٩ وجريدة « روضة الأخبار » ١٨٧٧ وجريدة « الأهرام » ١٨٧٥ (فى طورها الأول) ، هذه الصحف جميعها تأثرت بالنثر الفنى السائد أكثر مما أثرت فيه ، وكان واضحا أن كتاب هذه الصحف لم يدركوا الفرق بين مادة المقال ومادة الأخبار ومادة الأعلانات وغير ذلك من المواد ، أما أسلوب الكتابة فقد أظهر مدى التهافت على السجع وفى كل المواد من أخبار ومقالات وإعلانات وروايات مترجمة ، وكثيرا ما كان

ذلك يتم على حساب الفكرة (باستثناء رفاعة الطهطاوى الذى لم يتهافت كثيرا على السجع) . وكذلك شاعت الألفاظ الأعجمية فى عبارات الكتاب، وكانت الألفاظ التركية أكثرها ترددا على الألسنة .

نهضة الصحافة الشعبية وتطور أسلوب الكتابة :

شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر سلسلة من الأحداث السياسية والعسكرية التى كان لها بالغ التأثير على شتى مناحى الحياة فى مصر ، ومن بينها الحياة الثقافية والفكرية بطبيعة الحال ، وكان أول هذه الأحداث هو إشتعال الحرب الروسية التركية ثم الاحتلال البريطانى لمصر ، بالإضافة إلى مناخ نسبى من الازدهار الفكرى والثقافى تمثل فى إنشاء المدارس وتأسيس دار الأوبرا ، ودار الكتب ، والإقبال على الاتصال بالغرب من قبل المثقفين .

فى تلك السنوات استقبلت مصر أيضا عددا من المفكرين المبرزين مثل جمال الدين الأفغانى وعددا من الصحفيين السوريين الذين نافسوا المصريين فى مجال الفن الصحفى ، ومن ثم شهدت بواكير نهضة صحفية حقة ، شكلت البنية الأساسية ، أو « المدرسة الصحفية » التى تربى فيها جيل من الكتاب والأدباء والصحفيين ، الذين كانوا أساسا لهذه النهضة ومنطلقا لها ، وتلك هى مدرسة جمال الدين الأفغانى الذى جاء إلى مصر عام ١٨٧٠م ، ومكث بها ثمانى سنوات ، خطيبا وكاتبا ومعلما تتلمذ على يديه عدد غير قليل من الأشخاص الذين صاروا كتابا وأدباء وصحفيين ، بل إن كثيرا منهم أنشأ صحفا تتلمذ على يديهم فيها عدد من الذين حملوا لواء المسئولية بعدهم . . وهكذا توالت الأجيال الصحفية جيلا بعد جيل .

فى مدرسة جمال الدين الأفغانى «الفكرية والصحفية» تعلم وتتلمذ عبد الله النديم الذى أصدر ثلاث صحف هى : «التنكيت والتبكيت» و «الطائف» .

و « الأستاذ » ، وتعلم وتتلمذ الإمام محمد عبده الذى رأس تحرير جريدة « الوقائع » وشارك شيخه فى إصدار « العروة الوثقى » من باريس ، ومن هؤلاء التلاميذ أيضا كان على يوسف صاحب « المؤيد » ومصطفى كامل ، صاحب « اللواء » وعبد الرحمن الكواكبى ، ومحمد رشيد رضا ، وإبراهيم المويلحى صاحب « مصباح الشرق » كما كان الأفغانى أيضا هو الذى شجع أديب إسحق على إنشاء جريدة مصر ، وأوحى إلى يعقوب بن صنوع بإصدار مجلة « أبو نظارة » أقدم الصحف المصورة فى الشرق(١٥) .

أخذ الأفغانى بيد هؤلاء جميعا ، فشجعهم على القراءة فى كتب الأدب ليستقيم الأسلوب ، وتصقل العبارة ، وتتحرر الكتابة من السجع والجناس وغيرها من ألوان المحسنات وتتسع موضوعاتها لتشمل السياسة والدين والاجتماع والأدب ، فأفادت الصحافة من ذلك « سعة فى الموضوع وغزارة فى الأفكار وتنوعاً فى المادة »(١٦) .

ظهر ذلك جليا فى كتابات محمد عبده الذى كان - من قبل - « يهتم فى فى مقالاته بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعية ، فأصبح يهتم بقوة المعنى وقوة الموضوع ، أكثر من اهتمامه بزخرف اللفظ ورونق الأسلوب »(١٧) وصار الشيخ أبرع من أستاذه نفسه ، لأن لغة الأفغانى « على متانتها وبلاغتها لم تصف من كدرة العجمة »(١٨) .

وظهر ذلك فى كتابات عبد الله النديم أيضا ، إذ تعلم هو الآخر « أن الكتابة الصحفية إنما يناسبها أسلوب متدفق لا يقيده السجع أو الصنعة لينسجم وحركات النفس الثائرة المتحمسة المنطلقة » وأدرك أن الصحافة إنما تحتاج إلى أسلوب مرسل ، بعيد عن الوشى والمحسنات اللفظية »(١٩) .

أما أسلوب كتابة المقال عند على يوسف (صاحب جريدة المؤيد) فيصفه عباس العقاد قائلا : « مقال على يوسف لا يكتبها غيره ، ولا يؤدى

الغاية منها أحد كما يؤديها بقلمه ورأيه ، فهى الكلم المفصل على حسب قياسه ، جمله جملة ، وسطرا سطرا ، من فاتحتها إلى ختامها »(٢٠) ، ثم يقول العقاد : « فى أيام لاتتجاوز أيام الحرب الأولى ، كان السائل يسأل من أكتب الكتاب فى لغتنا العربية ، فيسمع الجواب من الكثرة الغالبة بين قراء تلك الفترة إنهما اثنان : الشيخ على يوسف والشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى »(٢١) .

هكذا كان أثر جمال الدين الأفغانى فى صنع جيل من الكتاب الصحفيين وصياغة أسلوب جديد للكتابة ، وهو أثر يجسده الإمام محمد عبده بقوله « أصبحت ترى فى القطر كتبة لايشق غبارهم ، ولا يوطأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن ، وشيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه أو من أحد تلامذته ، أو قلد المتصلين به »(٢٢) .

كانت الصحافة على هذا النحو عاملا من أهم العوامل التى ساهمت فى تحرير الأسلوب من قيود شتى ، وإفساح المجال للكتابة فى موضوعات شتى ، غير أن ذلك لم يكن يعنى - حتى ذلك الوقت فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين - أن المقال الأدبى قد غاب عن الساحة ، أو افتقد لغة الأدب ، فلقد كان هناك شعراء وكتاب مثل البارودى وإسماعيل صبرى وحافظ وشوقى ، والمنفلوطى وعثمان جلال وإبراهيم المويلحى ، تمكنوا من لغتهم وأجادوا استخدامها ، فجاءت المقالات التى كتبها المويلحى « حديث عيسى بن هشام » ، مزيجا من المقامة والقصة(٢٣) ، أما المنفلوطى فيصفه العقاد قائلا إنه « لا يعرف له نظير بين أعلام الأدباء الناثرين من مطلع النهضة الكتابية قبل مولده ، إلى ما بعد وفاته ، فليس بين أدبائنا الناثرين من استطاع أن يقرب بين أسلوب الإنشاء وأسلوب الكتابة كما استطاع صاحب « النظرات » و« العبرات » فربما ذهب القصد فى الكتابة بجمال الإنشاء فى أساليب الناثرين المجيدين ، وربما ذهب الأسلوب الانشائى الجميل بالمعنى المقصود فى كتابة أدباء الفكر

والتعبير ، ولكن المنفلوطي قبل غيره هو الذي قارب بين الجمال والصحة ، على النسق الفصيح في سهولة لفظ ، ووضوح معنى ، وسلاسة نغم »(٢٤) .

وتواصل ازدهار المقال الأدبي وتنوعت أغراضه مع بداية القرن العشرين ، عندما شهدت بدايات القرن ظهور صحف مثل « الجريدة » التي أصدرها أحمد لطفي السيد الذي تربى في مدرسة « المؤيد » ، وظهور « الدستور » و« البيان » و« مصباح الشرق » وهي المرحلة التي يمثلها المازني والعقاد وعبد الرحمن شكري وهيكل وطه حسين ، وعلى عبد الرازق ، وهم الذين تمكنوا من اللغة ونهلوا من الأدب وخضعوا لمتطلبات الصحافة ومقتضيات العصر ، ومن ثم يمكن أن ننسب إليهم فضل السبق في اكتشافهم « أدب الصحافة » ، وهو الذي يوضحه المازني عندما يتحدث عن أثر الصحافة في أسلوب كتابته فيقول : « لم أكن راضيا عن الأسلوب الذي تكتب به الصحف ، ولكن عدم الرضا عن لغة الصحافة لا يستوجب أن أذهب إلى الطرف الآخر ، وفي الإمكان التوسط ، وتبينت على الأيام أن لغتي القديمة فاترة أو خامدة وإني كأني قطعة متخلفة من زمان مضى ، وأن الحياة الجديدة لها لغتها ، وإن اتصالي بحياة الناس بفضل الصحافة ، قد فجر في نفسي ينابيع جديدة ، واكسب أسلوبي نبضا ليس من الوجع ، بل من الحيوية ، وافدت مرونة كانت تنقصني أنا وتنقص لغتي وأسلوبي ، وأصبحت قادرا بفضل الصحافة أن أكتب في أي وقت وفي أي موضوع »(٢٥) .

ويمكن القول بأن المدرسة الحديثة في الكتابة بدأت بتأسيس جريدة « الجريدة » سنة ١٩٠٧ حين تولاها أحمد لطفي السيد ، وقد التف حوله الشباب الذين درسوا بالغرب . ومنذ ذلك الحين وجدنا أنفسنا أمام كتاب يميزون بين الأسلوب الأدبي والأسلوب الصحفي ، وهؤلاء هم الذين اصطنعوا لغة عربية ميسرة هي لغة الصحافة التي يجتمع الناس على فهمها وعلى محاكاتها حين يتكلمون أو يكتبون ، وهي اللغة التي سادت العالم العربي كله(٢٦) .

فى تلك الفترة ازدهر فن المقال ازدهارا عظيما «والمقال لايزدهر إلا بازدهار العقل وتقدمه، فحيثما وجدت عناية بالمقال، حكم بأن هناك نشاطا فكريا فى السياسة والعلم والأدب»(٢٧) ولقد كان كتاب المقال الذين اشتغلوا بالكتابة فى الصحف اليومية ممن صاحبوا ثورة ١٩١٩، هم أصحاب الأثر الواضح فى نشر الأدب بين قراء الصحف السياسية، وفى نشر السياسة بين القراء المتأدبين الذين كانوا لايحفلون بها(٢٨).

أدب الصحافة وصحافة الأدب :

لا شك أن الواقع والظروف والأحداث التى تعيشها الصحافة فى أى مجتمع، هو الذى يفرض عليها أن تطوع نفسها كوسيلة وكرسالة أو كشكل ومضمون لكى تفى باحتياجات الواقع ومتطلباته.

فأحداث الحرب والسياسة هى التى حتمت ازدهار صحافة الخبر وصحافة الرأى وولدت فنونا صحفية مثل القصص الخبرية والجريات البرلمانية وأنواع المقال المختلفة فضلا عن فن المقابلات وغيرها، وفرضت هذه الفنون أسلوبا للمعالجة والكتابة أو كانت سببا فى نشأته، فجاءت لغة الخبر غير لغة المقال وكلاهما اختلف عن القصة الأدبية أو قصيدة الشعر، كما أنه إلى جانب الصحف اليومية أو الأسبوعية (الجرائد) ظهرت المجلات وهى شكل من أشكال الصحف تختلف عن الجريدة، ومن ثم تختلف طبيعة المعالجة وكتابة موضوعاتها وأسلوبها عن ذلك الذى نعالج به الجريدة اليومية موضوعاتها.

ومن هنا أصبح للصحافة أدبها الذى يظهر فى فنون المقال فإذا كان أسلوب ولغة الخبر تخضع بالضرورة لمتطلبات : من ؟ وماذا ؟ ومتى ؟ ولماذا؟ وأين ؟ وكيف ؟ بكل مايتطلبه ذلك من تحديد قاطع يجافى الخيال أو التخيل، ويعتمد على الكلمات السهلة والجمل البسيطة والتعبيرات المباشرة، ويتحدد حجمه بقدر مايتضمنه من أحداث فإن المقال يختلف عن ذلك

كثيرا، ذلك لأنه وإن كان يعتمد الكلمات والجمل البسيطة والسهلة أيضا وينأى عن الكلمات المهجورة أو لغة التراث التى قد تناسب الكتاب وظروف قراءته المتأنية وطبيعة موضوعاته، إلا أن المقال لازال وسوف يظل نوعا من الإبداع يعبر عن رؤية كاتبة وتفسيره ورأيه وخواطره، بل هو إبداع ذاتى مهما كان موضوعه، ومن ثم فإن كاتب المقال هو أديب الصحافة الذى يعنى باللفظ والأسلوب والذى يستلهم من خياله رؤيته للواقع ويستلهم من عقله ووجدانه صياغة هذه الرؤية وصياغة هذا الواقع، ومن ثم كانت الصحافة فى نظار مؤرخى الأدب وسطاً بين الأدب الخالص والحديث الذى نسمعه فى الأسواق والمجالس وذلك بالضبط هو معنى قولهم: الصحافة أدب غير خالد(٢٩)، ولاشك أن الذى حدا بالصحافة أن تصطنع هذه اللغة الوسيطة لنفسها التى أصبح يطلق عليها «لغة الصحافة» هو أنها الوسيلة التى لم تزل تخاطب وتتوجه إلى جمهور معين من القادرين على القراءة، وليست مثل الإذاعة بالراديو والتلفزيون، وهما الوسيلتان اللتان اجتازتا حاجز الأمية، ومن ثم تتوجهان برسائلهما إلى الأميين والمتعلمين معا.

وعلى الرغم من ذلك فإن الصحافة لم يكن بوسعها أن تهجر الأدب بل صار للأدب صحافته المتخصصة سواء جاءت هذه الصحافة فى شكل صفحات أو مساحات أو ملاحق فى الصحف اليومية أو الأسبوعية أو فى شكل مجلات ثقافية عامة أو متخصصة فى فنون الأدب المختلفة أو فن واحد من فنونه كمجلات القصة والشعر والنقد الفنى والأدبى ..

نتائج تحليل مضمون الصحف

الإجراءات المنهجية :

١ ــ اختيار العينة : تم اختيار جريدة واحدة من بين الصحف التى تصدر فى عدد من البلاد العربية ، وهذه الصحف هى «الأهرام ـ المصرية» ، « القبس ـ الكويتية » ، « الرياض ـ السعودية » ، « النهار ـ اللبنانية » .

كما اختيرت جريدتان عربيتان تصدران فى لندن ، وهما جريدة «الحياة» ، وجريدة « الشرق الأوسط » .

ومن كل صحيفة من هذه الصحف ، تم اختيار إصدار واحد كل أسبوع وعلى مدى عام كامل هو عام ١٩٩٣ ، وفقاً لنظام العينة العشوائية المنتظمة ، أى العدد الأول فى الأسبوع الأول (عدد السبت) ، والثانى فى الأسبوع الثانى (عدد الأحد) . . وهكذا ، وبذلك بلغ حجم العينة ٣١٢ نسخة من كل الصحف مجال البحث .

٢ ــ تصميم استمارة التحليل . . وذلك للحصول على المعلومات الأساسية والضرورية حول كيفية استخدام اللغة فى تحرير الأخبار والمقالات وذلك بهدف الكشف عن الجوانب الآتية :

(أ) إلى أى حد تضمنت اللغة المستخدمة كلمات غير عربية ؟

(ب) إلى أى حد استخدمت الكلمات والمصطلحات العامية فى تحرير المقال ؟

(ج) كيفية بناء الجمل والعبارات ؟

(د) مدى الالتزام بقواعد اللغة نحواً وصرفاً ؟

(هـ) سمات الكتابة فى الصحافة المعاصرة ؟

وفى هذه المجالات كشفت الدراسة عن النتائج التالية :

أولا : استخدام الكلمات الأجنبية :

والمقصود بذلك اعتماد الكاتب على الكلمات أو المصطلحات غير العربية كالإنجليزية أو الفرنسية ، وغيرهما ، فى صلب مقاله وضمن عباراته ، وقد ظهرت نماذج متفرقة لمثل هذه الكلمات ، اختلفت من مادة إلى أخرى ، ومن حالة إلى أخرى .. على النحو التالى :

(أ) ذكر الكلمة أو المصطلح باللغة الانجليزية إلى جانب العربية ، للتعريف بطريقة النطق الصحيح للكلمة أو المصطلح الذى هو أجنبي الأصل وشاع استخدامه فى اللغة العربية بنفس المسمى الأجنبي ، ومن ذلك كلمات ومصطلحات مثل : هالوكست ، أشكناز ، فيتو .. إلخ .

(ب) افتقار الكاتب إلى معرفة البديل العربي للكلمة الأجنبية أو لعدم وجود بديل عربي لها أصلا ، مثل : البروتين ـ الهيموجلوبين ـ الديكودر .. إلخ .

(ج) الحاجة إلى ذكر النص الأجنبي للعبارات ، كما وردت فى النص الأصلى (فى وثيقة أو على لسان أحد المسئولين) بقصد شرحه وتفسيره أو الاستدلال به على شيء ما .

(د) رغبة بعض الكتاب فى « المباهاة » بثقافتهم الأجنبية وقدرتهم على إجادة اللغة ، أو سعة الاطلاع .

(هـ) لم تبرز أية فوارق ذات دلالة بين صحيفة وأخرى ، فى هذا المجال ، لأن الظاهرة ارتبطت بالكتاب أنفسهم ولم ترتبط باتجاهات الصحف أو سياستها ، ومن ثم فلا مجال للمقارنة بين صحيفة وأخرى قياسا على البلد التى تصدرها ، أو بالقياس إلى تصنيفها محلية أو دولية .

ثانيا : استخدام الكلمات والمصطلحات العامية :

وفى هذا المجال أيضا كشف البحث عن أن استخدام العامية ككلمات أو مصطلحات فى صلب مادة التحرير والكتابة الصحفية، كان ضئيلا ولم يشكل ظاهرة لافتة أو نسبة ذات قيمة، وقد جاء ذلك على النحو التالى :

١ — لم يرد استخدام العامية (كلمات أو مصطلحات) فى تحرير الأخبار على أى نحو .

٢ — وردت الكلمات والمصطلحات العامية فى تحرير المقالات فقط، ولم يقتصر ذلك على المقال الأدبى والتأملات والخواطر بل استخدمت فى المقال السياسى أيضا .

٣ — جاء استخدام الكلمات والمصطلحات العامية فى الأطر والقوالب المناسبة لها، وذلك عند استلهام الحكمة التراثية مثل : «الباب اللى يجيلك منه الريح اقفله واستريح»، أو عندنا مثل قديم يقول : «من نصيب الديب ياغريب» .. إلخ .

٤ — لم يقتصر استخدام الكلمات العامية فى مقالات الكتاب على العامية السائدة فى بلدهم فقط، بل كانت العامية المصرية على وجه التحديد هى الأكثر استخداما فى كل الصحف العربيه، ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة من بينها سهولة العامية المصرية وبساطتها من ناحية، وانتشارها الواسع من خلال فنون السينما والمسرح والأغنيـــة والإنتاج الإذاعى والتليفزيونى من ناحية أخرى .

ثالثا : بناء الجمل والعبارات :

والمقصود ببناء الجمل والعبارات، مجموعة الكلمات التى تؤدى إلى معنى أو هى . «جملة مفيدة» ومن مجموعة الجمل تتشكل الفقرات، ومنها جميعا يتكون الموضوع، وعلى هذا النحو تكون هناك وظيفة للكلمة فى صياغة

الجملة على النحو الذى يجعلها تحقق المعنى بأكبر قدر من الوضوح ، بما ييسر للقارئ سرعة فهمها واستيعابها ، وهذا ماتحرص عليه الصحافه الحديثة فى تحرير موادها ، وما ينبغى أن يحرص عليه الكتاب فى تحرير مقالاتهم .

وفى هذا المجال ، كشفت الدراسة عن أن الصحف العربية وإن كانت قد توخت السهولة والبساطة والوضوح ، إلا أن هناك مايمكن أن نطلق عليه « مدرستين » أو « أسلوبين » مختلفين فى مجال الصياغة أو التحرير الصحفى :

(أ) المدرسة المصرية ، وهى التى تتوخى السهولة والبساطة ، واستخدام العناوين المباشرة ، وتنأى عن التعقيد أو الغموض .

(ب) المدرسة اللبنانية ، وهى التى لم تزل تستخدم كلمات أو « مفردات » خاصة ، وتعتمد أسلوبا معينا فى بناء الجمل والعبارات ، يجعلها تبدو غامضة فى بعض الحالات ..

ومن هذه الكلمات والعبارات التى تسود التحرير الصحفى فى المدرسة اللبنانية :

« تظاهرات عارمة اجتاحت المدينة »
« فى يوم الثلثاء الماضى » .
« بعد اغتيال ضابط فى مكمن »
« كل شخص التقيناه قال ... »
« وتم ذلك من دون علم المسئولين »
« إثر بيان تلقينا نسخة عنه »
« على رغم إفلاس عدد كبير من الشركات المماثلة »
« قال رئيس الوفد اللبنانى إلى المفاوضات الثنائية »
« وكان الرئيس غادر »
« وكان الرئيس التقى فى منزله »

« إلى ذلك زار الأمين العام قيادات الحزب »

« طلب العفو عن محكوم بالإعدام »

والمعروف أن « المدرسة المصرية » فى التحرير الصحفى ، تستخدم كلمات أخرى ،وتركيبات للجمل مختلفة عن هذه الكلمات والتركيبات السالفة. فتقول:

« مظاهرات ضخمة » - وليس « تظاهرات »

« يوم الثلاثاء » - بدلا من « الثلثاء »

« اغتيال ضابط فى كمين » - بدلا من « مكمن »

« وتم ذلك بدون علم المسئولين » - وليس « من دون علم »

« تلقى نسخة منه » - بدلا من « تلقى نسخة عنه »

« قال رئيس الوفد اللبنانى فى المفاوضات » - وليس « إلى المفاوضات »

.... وهكذا .

وعلى الرغم من أن كلا من هاتين المدرستين قد ترك أثره فى التحرير الصحفى بدرجة ما ، وبنسبة ما ، إلا أن المدرسة المصرية هى التى سادت الصحف العربية إلى حد كبير ، أو سادتها تماما ، بينما ظلت المدرسة اللبنانية قاصرة على صحفها ، أى الصحف التى يصـــدرها اللبنانيون أو « يكلفون » بإصدارها .

وفى هذا المجال نفسه ، أى « بناء الجمل والعبارات » كشف البحث عن الحقائق التالية :

أولا : تميزت صياغة الأخبار ، والمقال العلمى ، والعمود الصحفى بقصر الجمل ، ودقة العبارة ، وتحديد دقيق للكلمات بحيث لا يمكن تأويلها أو احتمال تفسيرها بأكثر من معنى . ولا شك أن طبيعة هذه الفنون الصحفية ، هى التى حتمت بناء العبارات وصياغتها على هذا النحو ، ذلك لأن الأخبار لا يمكن أن يشوبها الخيال أو « التخيل »، ولا تحتمل الإطناب . وكذلك الحال بالنسبة

للمقال العلمى الذى يقوم عادة على الحقائق المجردة ، والمعلومات الدقيقة ، والعبارات المحـــددة . أما بالنسبة للعمود الصحفى ، فلا شك أن المساحة المخصصة للـكاتب فى هـــذه الحالة تفرض عليه التركيز والابتعاد كلية عن الإطناب والتفصيل والخيال .

ثانيا : اتسمت الجمل والعبارات فى المقابلات الصحفية ، والمجريات البرلمانية ، بالإطناب فى ۹۰٪ من الحالات ، بالإضافة لافتقار بعض الجمل إلى الدقة والتحديد ، ولعل ذلك يرجع إلى أن طبيعة المجريات البرلمانية ، حيث يغلب طابع « الفورية » على المناقشات « وخلط » العامية بالفصحى من جهة ، ورغبة بعض الصحف فى عدم تنقية هذه العبارات والجمل مما يشوبها من ألفاظ عامية ، أو إعادة صياغتها على النحو الذى يجعلها دقيقة ومحددة من جهة أخرى ، لـكى تتسم بالموضوعية وتولد الإيحاء بأن الصحيفة كانت أمينة فى عرض المناقشات وتسجيلها ، دون التدخل فيها بالحذف ، أو الإضافة ، أو التبديل ، أو التعديل .

وكذلك الحال بالنسبة للمقابلات الصحفية « الحوار » ، حيث تترك الصحيفة للمتحدث « ضيف المقابلة » أن يستخدم « لغته » والمقصود بها الجمل والعبارات كما ينطقها .

ثالثا : غلب على التحقيقات الصحفية استخدام الجمل الطويلة أكثر من استخدام الجمل القصيرة ، ومالت إلى الإطناب والتفصيل أكثر من اعتمادها على الدقة والتحديد ، ويرجع ذلك إلى طبيعة هذا الفن من الفنون الصحفية الذى يغلب عليه السرد ، وتنوع الآراء والأشخاص الذين يرجع إليهم محرر التحقيق ، للحصول على المعـــلومات والآراء والحقائق الأساسية حول موضوع التحقيق .

رابعا : اتسمت التعليقات المصاحبة للصور والرسوم « الكاريكاتير »

بأكبر قدر من الإيجاز والوضوح ، ومن ثم جاءت الجمل قصيرة ، ودقيقة ، ومحددة ، وهذا أمر طبيعى ، لأن استخدام الجمل والعبارات فى هذه الحالة ، لايخرج عن كونه « إشارات » إلى الصور والرسوم نفسها ، أو مجرد إضافات مقتضبة لما تعبر عنه هذه الصور والرسوم ، وليست شرحا أو تفسيرا لها .

خامسا : اختلف بناء الجمل والعبارات فى المقال الأدبى ، وتنوعت تنوعا شديدا من مقال إلى آخر ، من حيث الإيجاز ، أو الإطناب ، والطول ، أو القصر ، والتركيز ، أو التفصيل ، لأن طبيعة هذا النوع من الكتابة مما يحتمل ذلك ، فلا قيد على الكاتب أن يوجز أو يطنب ، وأن يركز أو يلجأ إلى التفصيل والإطالة .

ولا شك أن سيادة المدرسة المصرية وأسلوبها فى الكتابة الصحفية إنما يستند إلى أسباب موضوعية هى :

(أ) أن الصحافة المصرية ـ ومنذ نشأتها ـ احتلت موقع الريادة فى العالم العربى بما توافر لها من كتاب وأدباء وأدوار وطنية وسياسية وفكرية وأدبية .

(ب) أن المواد الصحفية المصرية (سياسية أو أدبية أو فنية أو اجتماعية)، هى التى تحظى بالاهتمام الأكبر لدى القارىء العربى ، ومن ثم اعتمدت الصحف العربية اعتمادا رئيسيا عليها ، فحملت هذه المادة « لغتها » أو مفرداتها إلى هذه الصحف .

(ج) اعتماد الصحف العربية المحلية والدولية على المحررين والكتاب والفنانين والفنيين المصريين ، حيث يعمل عدد كبير منهم فى مختلف أقسام هذه الصحف ، فضلا عن الكتاب الذين « يتعاملون » معها ، بنشر مقالاتهم أو مذكراتهم .

(د) دور المعلم المصرى والمؤلف المصرى والكتب المصرية (أدبية

أو فنية أو سياسية) فى نشر أسلوب الكتابة على الطريقة المصرية من خلال الدروس والمحاضرات والمؤلفات .

رابعا : الالتزام بقواعد اللغة :

كشف البحث فى هذا المجال عن اهتمام واضح من قبل الصحف والالتزام بقواعد اللغة العربية فى تحرير موادها ، وقد بلغت نسبة الأخطاء النحوية والمطبعية حد « الندرة » .

والمعروف أن الصحف تحرص حرصا بالغا على تقديم موادها المختلفة فى أكثر الأشكال والقوالب جاذبية لكى تستولى على اهتمام القارىء ، وفى نفس الوقت تحرص على أن تأتى هذه المواد فى لغة عربية صحيحة من حيث قواعد النحو والإملاء لكى تفوز بثقة هذا القارىء واحترامه .

ولهذا خصصت الصحف أقساما خاصة بالتحرير (تحرير الأخبار) تضم محررين أكفاء من ذوى الخبرة فى التحرير والكتابة والإلمام بقواعد اللغة ، وإلى جانبها أقسام أخرى خاصة بالمراجعة ، وهى الأقسام الخاصة أيضا بتصحيح الأخطاء اللغوية والمطبعية .

وعلى هذا فقد جاءت لغة الصحف ، صحيحة من حيث قواعد اللغة نحواً وصرفاً ، وقواعد الكتابة من حيث استخدام الفواصل والتنقيط وعلامات الوقف والتنصيص وما إلى ذلك .

خامسا : سمات الكتابة فى الصحف المعاصرة :

هل يمكن ـ على ضوء ماتقدم ـ تحديد سمات خاصة بأدب الصحافة العربية ، وهو الذى يتجلى فى لغة المقال وأسلوب كتابته الأخبار والمقابلات الصحفية والتحقيقات وغيرها ؟

لقد كشف البحث فى هذا المجال عن عدد من السمات الأساسية للكتابة

الصحفية ، التى أمكن استخلاصها من مجموع الصحف موضوع هذه الدراسة ... يمكن تفصيلها على النحو التالى :

١ - أصبحت الرغبة فى توصيل المعلومات أو الأفكار والآراء ، هى الهدف الأساسى للكاتب ، وهى رغبة فرضتها بل حتمتها طبيعة الصحافة الحديثة والظروف التى تعمل فى نطاقها ، حيث المنافسة الشرسة بين الصحف بعضها البعض ، وبين الصحف ووسائل الإعلام الأخرى من إذاعات مسموعة ومرئية ، وحيث جمهور من القراء لم يعد لديه الوقت الكافى للقراءة المتأنية التى تحتاج إلى التأمل والتفكير وإجهاد الذهن .

وعلى ذلك وجدت الصحف أن سبيلها إلى توصيل المعلومات لابد أن يجمع بين عدة عناصر تتكامل فيما بينها هى :

(أ) وضوح الفكرة (التعبير المباشر عن الأفكار) .

(ب) استخدام الفصحى المتداولة ، وإغفال الكلمات المهجورة .

(ج) استخدام العبارات السهلة والجمل البسيطة .

٢ - أصبح لكل نوع من أنواع المقال لغته وأسلوبه الذى يتناسب مع فكرته ، وطبيعة المعلومات أو الأفكار التى يهدف الكاتب إلى نقلها إلى قرائه .

٣ - أصبح لكل كاتب أسلوبه الذى هو لغته وشخصيته .

٤ - أصبح بالإمكان أن نفرق بين أدب الصحافة الذى هو فن وأسلوب ولغة الكتابة ، وبين الأدب فى الصحافة والمقصود به فنون الأدب المختلفة من شعر وقصص وروايات .

المؤثرات المعاصرة فى أدب الصحافة :

مع اتساع رقعة الاستماع إلى الإذاعة المسموعة والمرئية فى الثلث الأخير

من القرن العشرين - لأسباب وعوامل لامجال لتفصيلها في هـذا المقام - اتسعت رقعة انتشار اللهجات العامية المحلية فى الأقطار العربية ،فبالرغم من أن الإذاعة اعتمدت « لغة الصحافة » فى عرض الكثير من المواد التى تقدمها ، وخاصة المواد الإخبارية والثقافية والعلمية ، إلا أن اعتمادها الأساسى على « العامية » ظل يشكل الكم الأكثر منهذه المواد ، سواء في الأدب الإذاعى الدرامى « التمثيليات والمسلسلات » أو فى الأحاديث والمقابلات والغناء والمناقشات وغير ذلك .. ومن هنا يتبين لنا أن ندرك أهمية الدور الذي قامت به الصحافة - والتى هى أكثر انتشارا من الكتاب - فى الحفاظ على اللغة العربية عامة ، وبين الفئات محدودة الثقافة والتعليم على وجه الخصوص، ولقد كان ذلك دأب الصحافة دائماً فى غيرتها على اللغة العربية والدفاع عنها والوصول بها إلى شاطىء الأمان ، فكانت الصحف المصرية ، والصحافة الأدبية على وجه الخصوص هى التى تصدت لمؤامرة المحتل الانجليزى عندما حاول القضاء على اللغة العربية بإقصائها من المدارس ونشر تعليم اللغـة الانجليزية لتصبح بديلا عن العربية ، وصدر بذلك قرار من قبل سلطات الاحتلال عام ١٨٨٩ يقضى بجعل لغة التعليم هى الانجليزية(٣٠) وعند ذلك « هاج كثير من الشعراء والأدباء حفاظا على اللغة القومية ، وفى ذلك يقول حافظ إبراهيم على لسان الوطن مخاطباً اللورد كرومر الذى كان وراء هذه السياسة(٣١) :

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا
ولم تبق للتعليم بالورد معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعللا
وأجدبت فى مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وأنه
قضاء علينا أو سبيل إلى الردى

غير أن الصحافة وإن كانت قد صانت اللغة وحافظت عليها ، فإن ذلك لا ينفى أنها أثرت فيها أيضا ، وذلك عندما خضع « أدب الصحافة » لمؤثرين رئيسيين هما :

الأول : حركة الترجمة عن اللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية وغيرها) التى تناولت شتى المجالات العلمية والأدبية والسياسية والاقتصادية ، وهى مجالات استحدثت خلال تطورها العديد من الابتكارات والوسائل والأساليب فى صور مادية أو فنيـــة ، أصبح لها مسمياتها واللغة التى تعبر عنها وتشير إليها ، وكانت تلك شيئا أو أشياء جديدة بالضرورة على البيئة العربية والعقل العربى واللغة العربية كذلك .

الثانى : وهو عامل - ليس ببعيد عن المؤثر السابق - وقد تمثل فى الاتصال المباشر بالغرب وليس عن طريق وسائل وسيطة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية ونقصد بهذا النوع من الاتصال المباشر التعليم والدراسة فى المدارس ومعاهد التعليم الغربية ، أو الحياة لفترات طويلة فى مجتمعات غربية ، ومن هؤلاء من عمل بالصحافة أو تعامل معها أو احترفها بشكل أو آخر .

وقد ظهر أثر هذين العاملين وتأثيرهما فى النثر الفنى العربى فى عدد من الملامح تجلى أولا فى اختلاط هذا النثر أو استيعابه لعدد من المفردات والعبارات غير العربية التى تسللت إليه وظلت كما هى تقريباً ، أى أنها كتبت فقط بأحرف عربية دون أن تترجم إلى كلمات عربية تؤدى المعنى المقصود منها فى لغتها الأصلية ، وبذلك ظل الاسم الأجنبى يحمل المعنى العربى ، ومن تلك الكلمات على سبيل المثال : « اللوبى - البرجوازية - الليبرالية - الباص - الاوتوبيس - البانوراما - الابرباص - الارستقراطية - الديناميكية - الراديو - التليفزيون - التليفون - الايديولوجية - الجرسون - الصالون » وظهرت أيضا تعبيرات « منحوتة » نحتا جديدا وغريبا على النثر العربى ومن ذلك عبارات أو مصطلحات مثل :

« تفكيك المستوطنات » ، « موجـــودات الشركات » ، « تعليق المفاوضات » ، « تفعيل الأجهزة » .

وجرى صياغة عبارات فى تركيب يتسم بالصعوبة مثل: « انفجار نيويورك: ٤ معتقلين دينوا بالتآمر »(٣٢) ، وكان يمكن صياغة العبارة بطريقة ميسرة تتسم بالبساطة والسهولة مثل : « إدانة أربعة معتقلين بالتآمر فى إنفجار نيويورك »(٣٣) .

وعبارة أخرى ـ جاءت عنوانا لخبر أيضا ـ هى « الاشتراكى يتخوف من صوملة اليمن »(٣٤) و« عون يقول : العلمنة أو الفيدرالية وسأشارك فى البلديات »(٣٥) .

أما الملمح الثانى من ملامح تأثر أدب الصحافة بالعاملين السابق الإشارة إليهما ، وتأثيره فى اللغة ، فهو ماظهر واضحاً فى كتابات بعض الكتاب العرب من جنوح إلى الغموض، أو الاستعانة بكلمات ومصطلحات انجليزية أو فرنسية يشرح ويفسر بها المعنى المقصود أو يقربه من عقـــل القارئ وتصوراته .

أما الجنوح إلى الغموض والتعقيد وهجر اليسر ، فقد ظهر فى النثر والشعر معا (خاصة ما اصطلح على تسميته بالشعر الحديث) والمؤلف والمترجم منها على السواء ، ولنتأمل هذه القصيدة مثلا ، والتى نشرت مترجمة تحت عنوان « اوكاتفيوباث »(٣٦) .

ساعة هواء .
فى ليلى هذا
ليل يناطح ليلا ...

* *

الهواء ، ثور .

يتراكض ،
يقف ،
يستدير
هل يتجه إلى مكان ؟

* *

هواء كالملح :
تتحطم النفس
عند مفارق الطرق

ثم لنتأمل الجزء الأعظم من كتابات « أدونيس » نثرا وشعرا ، لكى ندرك الفرق بين العمق والتعمق ، وبين الغموض المقصود لذاته ، والذى يفشى سرا يحرص الكثيرون دائماً على إخفائه ، وهو أن بعض الكتاب يظن أنه لن يوسم بأنه « مثقف » إلا إذا أبحر فى الغموض وبالغ فى استخدام التعبيرات المعقدة .

ثم لنتأمل أيضا كيف أن اللغة العربية لم تعد تسعف بعض الكتاب من أبنائها فى التعبير عما يريدون ، أو فى العثور على الكلمات العربية التى تؤدى المعنى الذى يقصدون .. مثل :

« ومرة أخرى لاسخرية،وإنما تسلية غير بريئة من نوع (الستيريوتايب) الذى نرفضه ونمارسه »(٣٧) ، والأمثلة لا يمكن حصرها من فرط كثرتها .

لقد استوعبت العربية فى أوج نهضتها كثيرا من الألفاظ التى أنتجتها الحضارة الإنسانية من مشرق الدنيا ومغربها ، ومن ثم فإن التحولات والمبتكرات التى جاء بها العصر والتى أصبح لها مسميات تمثل ألفاظا دخيلة على لغتنا ، تصبح قضية من أهم القضايا التى ينبغى أن يلتفت إليها حراس اللغة المجمعيون والصحفيون على حد سواء .

المراجـــع

١ ـ زكي مبارك : النثر الفني ، أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، وشوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٤٦م .

٢ ـ عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية (ج ١ ـ ط ٢) دار الفكر العربي القاهرة ص ٦٨ المصادر السابقة ، وأدب المقالة الصحافية : ص ٧٨ و ص ٧٩ .

٣ ـ إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ ـ ١٨٨١) ط٤ مؤسسة سجل العرب ، القاهرة سنة ١٩٨٢ ـ ص ١٨ .

٤ ـ أحمد حسين الصاوي : فجر الصحافة في مصر (دراسة في إعلام الحملة الفرنسية) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ، ص ٧

٥ ـ نفس المصدر ـ ص ٢٥٥ .

٦ ـ نفس المصدر ـ ص٢٦٧ .

٧ ـ جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة في مصر في عصر الحملة الفرنسية ، القاهرة سنة ١٩٣٨م ـ ص ٢٨ .

٨ ـ محمد شفيق غربال : الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر سنة ١٨٠١ ـ القاهرة ١٩٣٢م ـ ص ١٩١ .

٩ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ج ٣ ، القاهرة سنة ١٢٩٧هـ ـ ص ٢٠ .

١٠ ـ نفس المصدر ص ١١٦ .

١١ ـ عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ـ ج ١ ، القاهرة سنة ١٩٢٩ م ـ ص١٠٦ .
١٢ ـ أحمد حسين الصاوى : فجر الصحافة فى مصر ـ مصدر سابق ، ص٢٧٢ ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
١٣ ـ إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ـ مصدر سابق ـ ص٣٠ ، ٣١ .
١٤ ـ إبراهيم عبده : تاريخ الوقائع المصرية ـ ط ٢ ـ مكتبة الآداب ، القاهرة سنة ١٩٤٢م ـ ص ٦٢ .
١٥ ـ فيليب دى طرازى : تاريخ الصحافة العربية ـ ج ٢ ـ بيروت ، ص ٢٨٣
١٦ ـ عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ـ ج ٢ ـ مصدر سابق ، ص ٢٢٤ .
١٧ ـ محمد رشيد رضا : تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده ـ ط١ ، ج ١ ، المنار ـ سنة ١٩٣١م ، ص ١٠٩ ـ ١١٣ .
١٨ ـ نفس المصدر ـ ص ٢٩ .
١٩ ـ أحمد تيمور : تراجم أعيان القرن الثالث عشر أوائل القرن الرابع عشر ، القاهرة ـ ص ١٦ .
٢٠ ـ عباس العقاد : رجال عرفتهم (سلسلة كتاب الهلال) ـ دار الهلال ـ القاهرة سنة ١٩٦٣م ـ ص ١٥ .
٢١ ـ نفس المصدر : ص ٦٢ .
٢٢ ـ محمد عبده : مقدمة الرد على الدهريين ـ ص ١٣ .
٢٣ ـ نعمات أحمد فؤاد : إبراهيم عبد القادر المازنى (سلسلة الأعلام) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٧٨م ـ ص٤٦ .
٢٤ ـ عباس العقاد : رجال عرفتهم ـ مصدر سابق ص ٧٣ .
٢٥ ـ مجلة الكاتب : السنة الخامسة ـ مارس سنة ١٩٤٦م ـ ص ٦١ .

٢٦ ـ شوقى ضيف : الأدب العربى المعاصر فى مصر ـ ط ٢ ـ دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٣ م ـ ص ٢٠٢ .
٢٧ ـ عبد اللطيف حمزة: مستقبل الصحافة فى مصر ـ مصدر سابق ـ ص ٢٥ ـ
٢٨ ـ عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة سنة ١٨٧٧م ـ ص ٢٧٣ .
٢٩ ـ عبد اللطيف حمزة : أدب المقالة الصحفية فى مصر ـ مصدر سابق ـ ص ٢١٣ .
٣٠ ـ أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ـ ج ٢ ـ القسم الأول ـ القاهرة، ص ٢٨٨ .
٣١ ـ محمود فياض : الصحافة الأدبية بمصر والاتجاهات القومية ـ ج ١ ـ الجهاز المركزى للكتب الجامعية ، القاهرة سنة ١٩٧٦م ـ ص ٢٠ ، ٢١ .
٣٢ ـ جريدة الحياة ـ ٥ مارس سنة ١٩٩٣ م .
٣٣ ـ نفس المصدر .
٣٤ ـ نفس المصدر ـ ٦ مارس سنة ١٩٩٣ م .
٣٥ ـ نفس المصدر ـ ١٠ مارس سنة ١٩٩٣ م .
٣٦ ـ نفس المصدر ـ ١٦ يناير سنة ١٩٩٣م .
٣٧ ـ نفس المصدر ـ ١٠ مارس سنة ١٩٩٣م .

طه حسين ... بين

السيرة الذاتية والدراما التليفزيونية

دراسة تحليلية لمسلسل الأيام

بقلم الدكتورة

سامية أحمد أحمد على

أستاذ الاعلام المساعد كلية الاعلام

جامعة القاهرة

أولا ـ السيرة الذاتية . . والدراما التليفزيونية :

يذهب الدارسون إلى أن أوجز تعريف « للسيرة » هو الذى يحمله قول « كارلايل » : « إن السيرة هى حياة الإنسان » . . والكلمة الإنجليزية Biography المقابلة للفظ « السيرة » مشتقة من كلمتين يونانيتين تعنيان « كتب حياة » : ذلك أن كلمة Bios تعنى « حياة » و « grqphē » تعنى « كتب » .

و « السيرة » غرض أدبى عريق فى التراث العربى ، ولئن لم « يتبلور تصوره الذهنى بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقـــدى مخصوص ، فإنه قد صيغ على نماذج تكاد تصل به إلى منزلة الاكتمال فى المضمون والغرض والأسلوب »(١) .

---

(١) عبد السلام المسدى : النقد والحداثة ، دليل بيليوجرافى ، بيروت ،دار الطليعة ، ١٩٨٣ ، ص ١١٤

على أن النقد العربى الحديث قد استوعب التفرقة بين المصطلحين الغربيين « المركبين تركيبا مزجيا » ، فحكاهما لفظا ، وقال « السيرة الغيرية » Biography و « السيرة الذاتية » Auto biography(١) .

ويقصد بالسيرة « الغيرية » البحث عن الحقيقة فى حياة « إنسان فذ ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها ، والأحداث التى واجهها فى محيطه ، والأثر الذى خلفه فى جيله »(٢) .

ولذلك اتخذت « السيرة » أشكالا عديدة ، على النحو الذى أدى بأحد الدارسين إلى القول بأن تمييز السيرة بين الأنواع الأدبية الأخرى من جهة ، وتحديد الفوارق بين نوعيها الغيرى والذاتى من جهة أخرى ، لا يكون من حيث المادة الموضوعية فحسب ، بل أيضا من حيث التقنية والوظيفة . فالأشكال التى لا تحصى للسيرة تشمل قوائم بانجاز قصص أدبية وصور سيكولوجية ، وكل شكل « للسيرة » إلى المدى الذى تبدو فيه مسجلة لحياة واقعية ، ولكن كل شكل كان مميزا فى الاستراتيجيات التى أنتجها المؤلفون فى الغايات التى تغيّوها من أعمالهم(٣) .

السيرة الذاتية بين الأدب والدراما :

والسيرة « الإنسانية » بوجه عام لا تقتصر على النشاط الذهنى والنشاط العملى ، بل تستند أساسا إلى النشاط « اللغوى » باعتبارها فنا أدبيا فى المحل الأول ، حتى لنقول مع جابرييل مارسيل ، إن « حياة الإنسان قد تبدو له مثل (قصة) يرويها للآخرين ، وكأن من طبيعة « الحياة » أن تتخذ طابع

(١) عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان . مكتبة لبنان ، ودار أبو الهول للنشر ، القاهرة ١٩٩٢ . ص ٣ .

(٢) حسين فوزى النجار : التاريخ والسير ، دار القلم ، ١٩٦٤ : ص ١٤

(٣) عبد العزيز شرف : المرجع السابق ص ٤

الرواية المسرودة أو القابلة للسرد »(١) وفى ذلك مدخل منطقى للبحث فى دراسة « السيرة » و « الدراما التليفزيونية »، التى لم تستثمر الاستثمار الأمثل بعد ، وهو الأمر الذى فرض على الباحثة اختيار هذا الموضوع للدراسة ، ذلك أن السيرة فن يضرب فى أعماق الطبيعة الإنسانية ، التى تسعى إلى تصويرها الدراما بجميع صورها ، ومن بينها الدراما التليفزيونية ، ويمكن تصوير المعادلة الفنية بين « أدب » السيرة الذاتية ، و « دراما » السيرة الذاتية ، من خلال « ترجمة » النص الأدبى للكاتب الأصلى ، إلى « لغة » الدراما التليفزيونية ، وهى ترجمة تنقل « قصة حياة » الكاتب ، إلى « دراما» يكون فيها الكاتب « بطلا » رئيسيا ، لا « متحدثا » عن نفسه ، أو بتعبير آخر : إن الدراما التليفزيونية تحول « السيرة الذاتية » إلى « سيرة غيرية » ، حين ينوب العمل الدرامى عن الكاتب فى الحديث عن قصة حياته ، التى سبق أن رواها هو بضمير « المتكلم » .

إن معادلة « أدب السيرة » و « درامالسيرة » هى إعادة ترتيب العلاقات بين « القول » المسرود ، أو الحدث المروى من جهة ، و « الخبرة » المعاشة ، أو التجربة الحية من جهة أخرى(٢) .

والسيرة الذاتية تعبر عن علاقات كاتبها بالأطر الاجتماعية ، أو المجتمعات الشاملة Sociêtẽs Globales والطبقات الاجتماعية ، والمجموعات الخاصة Groupements Particuliers ومختلف تعبيرات المجتمعية Sociabilitẽ (٣) .

والسيرة الذاتية حين تتحول إلى عمل درامى ، تكون أقرب إلى رواية الشخصية ، حيث لاتفهم فيها الشخصيات على أنها جزء من الحبكة ، بل لها

1 - Marcel, Gabreél : Le Mystére De L,étre, Paris, Aubier, Vol. j, P. 170

(٢) المرجع نفسه ص ٢

3 - Gurnitch Geerpes : Les Cadres Sociaux de La Connaissance, p. U. H. Paris, 1966, P. 17

على العكس من ذلك وجود مستقل ، والحدث تابع لها . فبينما يكون للحوادث الخاصة «في رواية الحدث نتائج محدودة نجد هنا أن المواقف عامة أو نمطية ، مبنية أساسا لإمدادنا بمزيد من المعرفة عن الشخصيات ، أو لتقديم شخصيات جديدة(١) .

وللشخصيات فى السيرة الذاتية هذه الخاصية من الثبات منذ البداية ، وتلك إحدى السمات الجوهرية للشخصيات فى رواية الشخصية . ونجد تلك الشخصيات عند « سموليت » Smollet و « فيلدينج » Fieldingو«سكوت» Scott و « ديكنز » Dickens و « ترولوب » Trollope . ويرى بعض النقاد أن الشخصيات ينبغى أن تكون أكثر شبها« بالحياة » ،وأنها ينبغى ألا تبدى على الدوام ، جانبا واحدا للقارىء ، بل أن تدور مبدية لنا كل جوانبها بدلا من ذلك السطح الذى لا يتغير .

ويسمى « فورستر » هذه الشخصيات بالشخصيات المسطحة ، ويأسف أنها كذلك . ومع ذلك ، فهى موجودة ولابد من سبب لوجودها ، فإننا نصادفها بالآلاف فى رواية الشخصية(٢) . وفى السيرة الذاتية .

وحين تتحول السيرة الذاتية إلى عمل درامى ، من خلال التليفزيون مثلا ، كما حدث مع « الأيام » لعميد الأدب العربى « طه حسين » ، فإن السيرة الذاتية تتحول إلى رواية درامية ، حيث تختفى الهوة بين الشخصيات والحبكة . . فليست الشخصيات فيها جزءا من آلية الحبكة ولا الحبكة مجرد إطار بدائى يحيط بالشخصيات بل تلتحم على العكس كلتاهما معا فى نسيج محكم ، فالسمات المعينة للشخصيات تحدد الحدث ، والحدث بدوره يغير

---

1 - Edwrin Muir : The Structure of the Novel, The Hogarth Press. London, 1949, P. 16

4 - Ibid. P. 20

الشخصيات مطورا إياها ، وهكذا يسير كل شىء فى الدراما التليفزيونية إلى النهاية .

وإذا كانت السيرة « ذاتية وغيرية ، قد اتخذت أشكالا أدبية عديدة ، فإنها أقرب إلى التأثير الدرامى من كل ألوان التاريخ الأخرى ، وأكثر إثارة للمتلقى من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق الإنسان ، والتى تتجرد منها الواقعة التاريخية كحدث ، وإن كانت من عمل الإنسان ذاته »(١) . فحين « نقص من خبر الواقعة التاريخية نجردها من كل مايدعو إلى الحدس والتخمين من أسرار النفس الإنسانية وحوافزها ، فتبقى عارية إلا من الحقيقة وحدها ، فهى التى تضفى عليها رداء التاريخ وبهجته ، وهى التى تحببها إلى النفس الإنسانية حين تحدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ماجرى(٢) » .

على أن تحليل أشكال العلاقة بين السيرة الذاتية كإنتاج فكرى ، والواقع الاجتماعى فى مرحلة معينة لمجتمع معين ، يرتبط بالبناء العقلى أو مايسميه « جولدمان » المقولات التى تنتظم فى الوقت نفسه الضمير التجريبى لمجموعة اجتماعية معينة والعالم الخيالى الذى يخلقه الكاتب(٣) .

والسيرة الذاتية حين تتحول إلى عمل درامى للمسرح أو التليفزيون أو السينما أو الإذاعة ، يكون مصدرها التاريخ الذى استمد منه الكاتب الأصلى سيرته الذاتية ، وهنا يختار كاتب السيناريو أو المعد الدرامى من التاريخ التجربة التى تصلح للتعبير عن السيرة نفسها ، وتلقى الأضواء على جوانبها وملابساتها ، ومن هنا يختلف موقف الأديب من التاريخ عن موقف

---

(١) عبد العزيز شرف ، مرجع سابق ، ص ٤

(٢) حسين فوزى النجار : مرجع سابق ١٥

3 - Goldmann, Lucian : Pour une Sociologie de Roman, Gallimard, Col « idess » Pari, 1969, P. 57

المؤرخ . فإذا « كانت حرية الأديب فى التصرف فى التجربة التاريخية أقل من حريته إزاء التجربة الأسطورية لأنه لا يستطيع أن يتجاهل وقائع التاريخ الكبرى وحقائقه الأساسية المتفق عليها ، وإلا قام عمله الأدبى على التزوير الذى لا يقبله أحد - إلا أن له مع ذلك حرية واسعة فى تفسير الحدث التاريخى وتوضيح بواعثه على النحو الذى يخدم هدفه ، كما أن له الحرية المطلقة فى أن يتصور شخصيات أهمل التاريخ الحديث عنها ، وبخاصة الشخصيات الشعبية التى لم يعرها التاريخ التفاتا ، مكتفيا بالتأريخ للملوك والحكام والقادة »(١) .

وتتضح أصالة الأديب فى تحليل نفوس الشخصيات التاريخية واختيار البواعث التى يفسر بها تصرفاتها على ضوء المنطق العام للفترة التى تدور فيها أحداث السيرة الذاتية .

ولذلك يذهب علماء التاريخ إلى أن « السيرة » قصة تاريخية لا تشذ أبدا عما يقيد التاريخ من حقائق تعتمد على الوثائق والمدونات والأسانيد القاطعة البعيدة عن الكذب والافتراء ، إلا أنها قصة تتعلق بحياة إنسان قد ترك من الأثر فى الحياة ماجذب إليه التاريخ ، وأوقفه على بابه . والسيرة أحفل من التاريخ العام بالعواطف الزاخرة الجياشة والأحاسيس النابضة ، على النحو الذى يجعلها مصدرا غنيا للدراما التليفزيونية وغير التليفزيونية ، لأنها تعرض من سيرة الفرد لجوانب حياته المختلفة حتى تتجلى مقومات شخصيته ، وتبرز معالم حياته ، لتفصح عن سر نبوغه وتفرده ، إذ لا تحفل السير إلا بكل نابغة فريد . وهنا تتأكد أهمية الإعداد الدرامى للنص الأدبى فى السيرة ، وإعادة تقديمها من خلال الشكل الجماهيرى لعمل كبير يتمثل فى « قصة إنسان

---

(١) محمد مندور : الأدب وفنونه ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٨٧

فذ أو متميز بكل ماينبض به قلب هذا الإنسان من أحاسيس وعواطف ، والأثر الفعال الذى تركه بعمله فى الحياة الإنسانية ، وبقدر مايعظم هذا العمل ويعظم تأثيره ، بقدر مايحفل به التاريخ فيقص خبره ويروى سيرة صاحبه »(١) .

وعند تحويل النص الأدبى للسيرة الذاتية ، إلى عمل درامى فى التليفزيون ، يفترض أن السيرة هنا « تتحول » من شكلها « الذاتى » إلى شكل السيرة « الغيرية » ، تأسيسا على أن السيرة الذاتية نقل مباشر ، أما السيرة الغيرية - أى ترجمة حياة الآخرين - فإنها « نقل عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق »(٢) ، وهو مايصنعه المعد الدرامى للنص الأدبى للسيرة الذاتية ، إذ لا يكتفى بالنص ، وإنما يرجع إلى الشواهد والشهادات والوثائق كما يصنع كاتب السيرة « الغيرية » تماما ، وتأسيسا على ذلك يجب أن يتمتع المعد الدرامى للسيرة الذاتية ، بموضوعية كاتب السيرة الغيرية ، التى تتيح له أن يلمح بسرعة وأن يفهم بأحكام ، وأن يلم بالحقائق ، ويحكم عليها ، ويمزجها مزجا فتعادلا منسجما ، فى نسيج العمل الدرامى الذى ينتمى بطبيعته إلى الفنون الأدبية « الموضوعية » .

فالإعداد الدرامى للسيرة الذاتية ، ملتزم بالشخصيات والأحداث التاريخية والحتميات الدرامية فى نفس الوقت . وكثيرا مايتعارض « الترتيب الزمنى للتاريخ مع التتابع الدرامى للمواقف ، ذلك التتابع الذى لايعتمد على التسلسل الآلى ، بل على المعنى الكامل وراء دلالة الأحداث ، لأن أحداث التاريخ تقع بحكم الحتمية الزمنية ، بينما أحداث الدراما تحدث طبقا للمعنى

---

(١) حسين فوزى النجار : مرجع سابق ، ص ٦٢

(٢) إحسان عباس : فن السيرة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٦ ، ص ١١ .

الذى تدل عليه »(١) .

الترجمة الذاتية والإعداد الدرامى :

ومما تقدم يتضح لنا أن « الترجمة الذاتية » مصدر أدبى للأعمال الدرامية ، شأنها فى ذلك شأن القصص والروايات التى تتحول إلى أعمال درامية فى المسرح أو السينما أو التليفزيون . على أن المشكلة التى يطرحها البحث عند تحويل النص الأدبى فى الترجمة الذاتية إلى عمل درامى تليفزيونى تتمثل فى هذا السؤال : ـ إلى أى درجة من الصدق يجب أن تلتزم الدراما التليفزيونية بالنص الأدبى للسيرة الذاتية ؟

إن معالجة الكاتب الدرامى لأى نص من النصوص الأدبية والقصصية ، قد يختلف بين التزام النص الأصلى والنقل عنه نقلا حرا وفى غير التزام ، بحيث يقبس الكاتب من مادتها ما كثر أو قل ؛ وفق مايشاء ، وكما يحلو له ، وبالأسلوب الذى يناسب هدفه هو نفسه(٢) ، ولكن الأمر مع السيرة الذاتية يقتضى الالتزام بالمنطق التاريخى ، الذى يحكم النص الأصلى ، حفاظا على النظرة الخاصة لكاتب السيرة الذاتية ، مع تدعيمها بالشواهد والتفاصيل من مصادر تاريخية أخرى تثرى العمل الدرامى .

على أن السيرة فى نصها الأدبى قـــد لاتكون صالحة لأى وسيط من الأوساط الدرامية : المسرح أو السينما أو الإذاعة أو التليفزيون ، والسبب ما يتطلبه إخراجها من مدى ، وفى هذه الحالة لابد من عمل تغييرات معينة لمواجهة مصاعب الإخراج فى الوسيط الدرامى الذى تعدله السيرة الذاتية ،

---

(١) نبيل راغب: فن الرواية عند يوسف السباعى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٨٥

2 - Rogar M. Busfield : « The Play - wrights Art » (New York, Harper and brothers, 1961), P. 33

ومن ناحية أخرى قد تؤخذ المادة أخذا حرفيا من نص القصة وبأقل قدر من التغيير ، ثم تكون مناسبة للوسيط الدرامى المطلوب ، وعلى أى من الحالتين يجب أن يكون التغيير فى أسـلوب يتفق ومنطق النص الأدبى للسيرة الذاتية .

وتخلص الباحثة من ذلك إلى أن الاعداد الدرامى للسيرة الذاتية يحتم على المعد الالتزام بالنص الأصلى وشخصياته والتمسك بأهداف صاحب السيرة الذاتية ، وإن المادة التى تتألف منها إذا كانت تصلح لأن ينقل منها نقلا حرفيا فإن المعد الدرامى يتقبل العقدة والشخصيات والموضوع كما هى (in toto) دون أن ينقص منها أو أن يزيد عليها ، وما عليه إلا أن يصوغها الصياغة الدرامية .

إن الحدث التاريخى ، الذى يتمثل فى أدب السيرة الذاتية هدف فى حد ذاته ، بينما الحدث الدرامى وسيلة إلى هدف أكبر يتمثل فى العمل الفنى ككل ولذلك يجب على المعد الدرامى للسيرة الذاتية أن يوفق بين التاريخ والدراما فى « هفوية فنية حية » ، من خلال وضع أحداث السيرة الذاتية فى خدمة عناصر الدراما التليفزيونية من مواقف وشخصيات وحوار وتطويرها إلى قمتها ، ثم الهبوط بها إلى نهايتها المحتومة التى يمليها البناء الدارمى . ويجب على المعد التليفزيونى أن يتجنب الاتهام بتزييف التاريخ. وسبيل ذلك التزام « النظرة الإنسانية الشاملة » ، وشأن المعد الدرامى فى ذلك شأن كاتب السيرة الذاتية نفسه ؛ من حيث مايتمتع بهمن « مؤهلات المؤرخ » كما يقول د. جونسون : « وهذا المؤهل هو معرفة الحق .. وبالرغم من أنه قد يعترض على ذلك بأن المغريات التى تزين له إخفاءه معادلة لفرص معرفته ـ وهو إعتراض وجيه ـ فإنى مع ذلك إلا يسعنى إلا أن أقدر أن النزاهة يمكن أن تنتظر من الذى يتحدث عن حياته بمقدار ماينتظر من الذى يتحدث عن أعمال غيره ، والعقل يؤثر الحق ، والضمير هو حارس الفضيلة » .

ويذهب « هربرت سبنسر » إلى أن كاتب السيرة الذاتية « مضطر إلى أن يحذف من روايته وسرده المسائل العادية الدارجة، ويقتصر على ذكر الحوادث والأعمال والسمات الغالبة ، وإذا لم يفعل ذلك فسيكون من المتعذر كتابة أو قراءة المجلدات الضخمة التى تصير ضرورية ، ولكن حذف تلك الأشياء المبتذلة التى يتكون منها الجزء الأكبر من الحياة ، الذى يشترك فيه الرجل العظيم مع غيره من الناس . والابقاء على الأشياء البارزة وتأكيدها ، وإظهارها من شأنه أن يوجد الإحساس بأنه الحياة التى يتناولها كاتب السيرة تختلف عن حياة الآخرين اختلافا أكثر من اختلافها فى الواقع ، وهـــذا النقص لا مفر منه » .

وتلتقى السيرة الذاتية مع الدراما التليفزيونية ، فى سياق ينتظمهما معا ، من حيث أنهما يعكسان العادات والأخلاق وطرق الحياة التى يحياها مجتمع معين ؛ وكاتب السيرة والكاتب الدرامى شريكان فى تلك الحياة التى يسعيان إلى تفسيرها . وكما قال « جون هوارد لاوسون » فى « الفنان » : « إن نشاطه الخلاق نشاط شخصى واجتماعى معا ، وتصوره للعالم الذى حوله إمتدادا لحياته هو نفسه ، لأنه يبرز معانى وقيما ومطامح اجتماعية تطرق وتشكل بعد صهرها فى نيران التجربة الحية »(١) .

السيرة الذاتية والنموذج الإنسانى :

والسيرة الذاتية ، تقدم نموذجا إنسانيا فذا ، كما تقدم الأيام نموذج (طه حسين) ؛ ولذلك يقصد من تحويلها إلى عمل درامى فى التليفزيون تقديم صورة متكاملة الأبعاد لهذه الشخصية الأدبية ؛ الأمر الذى يستوجب حشد

1 - John Haward Lawson : Theory and Tecknique of Playwriting and Screenwriting, G. P. Putnam's Son 1969. 1 P. 1 X.

الامكانات الفنية والدرامية لكى تجعل من هذه الشخصية مثالا ينبض بالحياة من ثنايا التصوير الدرامى للسيرة الذاتية .

والنموذج الإنسانى فى السيرة الذاتية ؛ حين يعاد تصويره دراميا ، يصبح نموذجا (تاريخيا) يكسب طابعا (أسطوريا) فيتسع للتعبير عن فلسفات مختلفة ، ويكون منفذا لتيارات فنية وفكرية .

والسيرة الذاتية فى كتاب (الأيام) تترك لقارئها انطباعا بأن د. طه حسين قد خلا بنفسه يناجيها ويسترجع ماضيها ويحدثها . ويسرد من خلال هذه المناجاة ذكرياته الخاصة والعامة ،وهى الذكريات التى اعتمد عليها العمل التليفزيونى الذى قدم (الأيام) ؛ فى محاولة للاقتراب من العالم النفسى الذى عاش فيه الكاتب ؛ وهو صبى ؛ وهو يجاوز التاسعة من عمره ، وقد انفلت من بيته إلى الطريق قبل غيره مكفوف البصر فى حيرة من أمره .. وهـــذه المأساة من مآسى الحياة ؛ أظهرنا عليها الكاتب ، كما أظهرنا عليها المسلسل حين همس طه حسين فى الابتداء بلفظ غنى بالإيحاء ، يجمع فى تحفظه بين الحياء والكبرياء ، وهو قوله : (لايذكر) الذى جاء فى أول عبارة انفرجت بها شفتاه ونطق بها فاه ؛ فى النص الأدبى للأيام .

(لايذكر من هذا اليوم وقتا بعينه ، وإنما يقرب ذلك تقريبا ، وأكبر ظنه أن هذا الوقت كان يقع من ذلك اليوم فى فجره أو عشائه . يرجح ذلك لأنه يذكر أن وجهه تلقى فى ذلك الوقت هواء فيه شيء من البرد الخفيف الذى لم تذهبه حرارة الشمس .

ويرجح ذلك لأنه - على جهله حقيقة النور والظلمة - يكاد يذكر أنه تلقى حين خرج من البيت نورا هادئا لطيفا كأن الظلمة تغشى بعض حواشيه ، ثم يرجح ذلك ، لأنه يكاد يذكر أنه حين تلقى هذا الهواء وهـــذا الضياء

لم يأنس من حوله حركة يقظة قوية ، وإنما آنس حركة مستيقظة من نوم أو مقبلة عليه) . كذلك نرى النص الأدبي فى الكتاب موحيا ؛ وهو الأمر الذى يتضح من قوله (لا يذكر) ؛ فى حين جاء التصوير الدارمى لهذا الموقف أقرب إلى تصوير الحدث ، وهو ما يمثل فارقا فى التصوير بين النص الأدبى والنص التليفزيونى . على أن النص التليفزيونى قد حاول متابعة تعريف صاحب الأيام بنفسه وهو صبى ، ، من خلال التعريف بقريته ، والمعروف أن قريته هى عزبة (الكيلو) التى يرجع إسمها إلى كونها على مسافة كيلو متر من مدينة مغاغه .

ولكن طه حسين لا يسميها فى الأيام ، لأن تحديدها يحد من خيال القارئ أولا ، ومن ناحية أخرى لأن الكاتب لم يردها قرية بعينها ، وذلك لتكون على هذا الوجه من الإطلاق ، ممثلة للقرية المصرية فى أواخر القرن الماضى عامة ، منذ كانت سائر القرى متشابهة لا تكاد واحدة تتميز عن الأخرى بشىء فيها . فى حين استجاب الإعداد التليفزيونى للنص الأدبى فى الأيام ؛ لمقيضيات التصوير التاريخى بهدف إلقاء الضوء على (الشخصية) الرئيسية فى السيرة الذاتية ، وهى شخصية طه حسين ! وهى استجابة طبيعية لمنطق الدراما التليفزيونية ؛ الذى يختلف عن منطق التصوير الأدبى فى الكتاب المطبوع .

أيام طه حسين بين التليفزيون والسيرة الذاتية :

نستطيع أن ننظر إلى السيرة الذاتية فى التليفزيون على أنها تقدم نموذجا من نماذج القدوة فى المجتمع ؛ فى سياق تاريخى معين ؛ يلقى الضوء على أحداث ووقائع ، وعادات ، وتقاليد ، ومقومات ثقافية أخرى .

والتليفزيون حين يقدم السيرة الذاتية من خلال عمل درامى ، يحول مركز الاهتمام إلى الشخصية الإنسانية ؛ وهو بذلك يوظف أدواته الفنية

لتقديم نوع أدبي قديم هو نوع (السيرة) ، وهذا النوع جزء من علم تدوين التاريخ ؛ من الناحية المنطقية ، ومن ناحية التسلسل الزمني ، ولاتميز السيرة فى منهجها بين رجل الدولة وقائد الجيش والمهندس والمحامى والرجل الذى لايلعب دورا فى الحياة العامة ، ولذلك يقول (كولريدج) : إن أية حياة مهما كانت تافهة ستكون ممتعة إذا رويت بصدق(١) .

فإذا صورنا كتابة السيرة الذاتية من هذه الزاوية ، للتليفزيون ، فإن مشكلات المعد الدرامى هى مشكلات المؤرخ . إذ عليه أن يفسر وثائق الكاتب الأصلى للسيرة ورسائل وتقـــارير شهود العيان والتحريات والتصريحات المتعلقة بالسيرة الذاتية ، وأن يفصل فى مسألة ماهو أصلى وما هو تقليد وما هو موثوق فى شهادات الشهود وغير ذلك . وتواجه كاتب السيرة فى عمله مشكلات تقديم معلومات بحسب التسلسل التاريخى ، والاصطفاء واعتماد التلميح أو التصريح . إن الجهود الواسعة التى انصبت على علم السيرة كنوع من أنواع الأدب تعالج مثل هذه المشكلات التى لا تختص بالأدب وحده(٢) .

ويحاول هذا البحث الإجابة عن تساؤلين رئيسيين : إلى أى مدى يحق لمعد السيرة الذاتية دراميا أن يستخدم مضمون الأعمال الأدبية لغرضه الفنى ؟ وما هى نتائج السيرة الذاتية وملاءمتها لطبيعة الدراما التليفزيونية ؟

إن السؤال الأول ، يكشف عن إعادة التركيب للعمل الأدبى فى السيرة الذاتية ، وفقا لمقتضيات الغرض الفنى ، ومعد السيرة الذاتية دراميا ، هنا ،

---

1 - S. T. Coleridge, in a letter to Thomas Poole, Fe . 1797, Letters (ed. E. H. Coleridge), London 1895 Vol. 1 P. 4.

2 - Chernim, H. « The Biographical Fashion in Litrary Criticis Univ. of California. Pulbications in Classical Philology, X11, 1949. PP: 79-92

أشبه بكاتب السيرة الغيرية ، حين يسعى إلى الحصول على البيانات التى تجلو مواقف السيرة الخاصة بشخصيات تاريخية أبعـــد تأثيرا ، وأعمق أثرا مثل طه حسين .

وفى المسلسل التليفزيونى المعد عن السيره الذاتية المعروفة باسم «الأيام» لعميد الأدب العربى تصوير لحياة طه حسين، من خلال المواقف والشخصيات والحوار ، مستمد من النص الأدبى ، الذى تميز بالتصوير الأدبى المعتمد على الحركة والتفصيل والتنغيم والمقابلة والتضاد .

ذلك أن طه حسين فى أدبه يغوص فى « التفصيلات ولو صحب شخصا من أشخاصه يوما كاملا فإنه لاينى يفصل فى وصفه حتى حين يذهب إلى النوم.. إنه يتبعه ويتتبعه فلا يدعه حتى يستسلم للنوم »(١) . وفى ذلك مايتيح للعمل الدرامى التليفزيونى مادة خصبة تتفق مع طبيعة الدراما التليفزيونية خاصة . ولاحظت الباحثة أن المسلسل التليفزيونى ، قـــد أفاد من التصوير الكاريكاتيرى الذى اتسم به أسلوب طه حسين فى النص الأدبى للأيام ؛ من حيث المبالغة والسخرية ؛ على نحو مايتضح فى تصوير شخصية « سيدنا » ، والمائدة المستديرة (الطبلية) وقد جلس إليها الصبى طه حسين ، مطرقا إلى الأرض محنى الظهر كأنه القوس « ويـــده تذهب وتجىء فى أناة وخوف واستحياء بين هذا الرغيف وقد ألقى أمامه على المائدة ، وهذا الطبق (من الفول) قد قام بعيدا عنه فى وسط المائدة، ويده تصطدم بهذه الأيدى الكثيرة المسرعة التى تهوى لترتفع ، وترتفع لتهوى ، وتنزح الطبق فى أثناء ذلك نزحا والصبى يعجب بذلك منكرا له ، لايكاد يلائم فى نفسه بين هذا التهالك على الفول والخلل ، وذلك التهالك على العلم والدرس ، وما كانت تعرف به هذه الجماعة من النجابة والنشاط وحدة الذكاء)(٢) .

---

(١) نعمات أحمد فؤاد : قمم أدبية ، عالم الكتب ١٩٦٦، ص ١١٢

(٢) الأيام : جـ ٢ ص ٢٥

وجاء العمل الدارمى فى التليفزيون، متسقا مع طبيعة النص الأدبى فى (الأيام)، التى تصور كره صاحبها لنفسه، وللتلق، وكيف أن الأيام تسير مطردة متشابهة كأنها من التكرار يوم واحد. فأكثر من الانتقالات، التى وظفها العمل الدرامى توظيفا فنيا، لترجمة قول طه حسين نفسه عند انتقاله الأول:

«ولكن ذاكرة الأطفال غريبة، أوقل ذاكرة الإنسان غريبة حين تحاول استعراض حوادث الطفولة، فهى تتمثل بعض هذه الحوادث واضحا جليا كأن لم يمض بينها وبينه من الوقت شىء، ثم تمحى منها البعض الآخر كأنه لم يكن بينها وبينه عهد»(١).

وفى المسلسل التليفزيونى عرض لصور من الريف المصرى؛ كما صورها صاحب الأيام؛ تصويرا ينفذ إلى روح هذا الريف المصرى؛ بيئة وإنسانا، ومجتمعا، وقد أخذ صاحب الأيام نفسه فى تصوير ماصوره من الشخصيات عن الحياة «فجاءت وفيها - مع عطف المصور الفنان ولطافة لمسه - قسوة الواقع نفسه(٢). وقد يكون خير مصداق على ذلك الصورة التى رسمها لأبيه الذى كان أبا لثلاثة عشر من بناته وبنيه».

وتلك الصورة التى رسمها (لكتاب) القرية الذى حمل الصبى إليه ليحفظ القرآن الكريم، وهى صورة تكشف عما كان عليه التعليم فى القرية؛ وفى سيرة طه حسين الذاتية تصوير للجماعات يمتاز بالحركة التى تكسب تلك اللوحات حيويتها، ومنها اللوحة التى تصور لنا اختيار الخليفة فى المولد النبوى، وفى الفقرة (١٥) نجد ألوانا مما عند صاحب الأيام من الفكاهة «الباسمة حينا والناقدة فى معظم الأحيان»(٣).

---

(١) الأيام . جـ ١ ص ٤٥

(٢) عبد الرحمن صدقى: «عميد الأدب ومعجزة الأيام» فى - الهلال - فبراير ١٩٦٦ ص ٢٤

(٣) المرجع نفسه: ص ٢٧

وتروى لنا السيرة الذاتية لطه حسين ، خبر الصبى وقد هبط القاهرة مع أخيه الأزهرى ليدرس فى الأزهر ، وقد أبى أن يدرس إلا مايدرسه أخوه ليكون مثله فى نظر أبيه وأهل قريته .

إن النص الأدبى للسيرة الذاتية فى (الأيام) يتميز بلغته التى لايعدل بلاغتها غير بساطتها ، كما يتميز بصدقه فيما يرويه عن قريته وأهل قريته والمدينة المجاورة لقريته ، بل فيما يتصل بذويه ، ومن فوق هؤلاء جميعا فيما يعلق بذات نفسة ، وأخيرا وليس آخرا ، ذلك الاحكام فى البناء « الهندسى للقصة ، والقالب الفنى الذى اتسقت فيه الفصول ، وأنصب فيه سياق الكلام حتى بلغ الكتاب بذلك كله حد التمام »(١) .

هذا القالب الفنى ؛ يسر للدراما التليفزيونية تقديم السيرة الذاتية لعميد الأدب العربى تليفزيونيا ؛ من خلال فن جماهيرى ، هو فن الدراما التليفزيونية التى يحرص المشاهد على مشاهدتها بشغف كبير ، وفى ذلك مايؤكد أن النص الجيد هو الأساس الرئيسى لأى عمل درامى ناجح ، ولهذا يجب أن تتجه الجهود إلى توفير النصوص الدرامية التليفزيونية ، وأن ترتقى هذه النصوص إلى المستوى الفنى الذى يحقق المتعة للمشاهد إلى جانب الهدف الثقافى ، وأن تتجه الدراما التليفزيونية إلى تقديم السيرة الذاتية والغيرية ، التى كتبها رواد الفكر المصرى تأكيدا لأصالة الشخصية المصرية ، ولاسيما ان الدراما التليفزيونية تعد من أهم الاشكال الدارمية فى العصر الحاضر لما تتمتع به خصائص وإمكانات تفيد من الانتشار الجماهيرى للتليفزيون ، الأمر الذى يجعل من الضرورى فى الدراسات الإعلامية الاهتمام بدراسة مصادر الدراما التلفزيونية إلى جانب دراسة المضمون ، على النحو الذى يسهم فى تغيير العادات السلوكية وتدعيم القيم الأخلاقية من خلال تقديم القدوة والنماذج الإنسانية ، والكشف عن عناصر العظمة فيها .

---

(١) المرجع نفسه : ص ٢٩

ثانيا : نتائج الدراسة التحليلية :

تقوم الباحثة بدراسة تحليلية تستهدف دراسة السيرة الذاتية كمصدر من مصادر الأعمال الدرامية فى التليفزيون من خلال مسلسل « الأيام » وفى ذلك مايحدد مشكلة البحث وأهداف الدراسة ، الأمر الذى يتبلور فى فروض البحث التالية :

فروض الدراسة :

الفرض الأول :

إن السيرة الذاتية تعبر عن النشاط الذهنى والنشاط العملى فى حياة الإنسان من خلال نشاط لغوى ، الأمر الذى يجعل من السيرة الذاتية قصة حياة نرويها للآخرين ، وفى ذلك مايجعل من السيرة الذاتية فنا أدبيا يصلح للتقديم الدرامى بحكم قابليتها للسرد دراميا .

الفرض الثانى :

إن السيرة الذاتية نقل مباشر ، أما السيرة الغيرية - أى ترجمة حياة الآخرين - فإنها نقل عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق وحين تتحول السيرة الذاتية إلى عمل تليفزيونى تكتسب مقومات السيرة الغيرية .

الفرض الثالث :

إن كاتب السيرة الذاتية يكتب سيرته إستجابة لدافع معين فى حياته ، وحين يقدمها التليفزيون يكون الدافع هو إما ألقاء الضوء على بطل هذه السيره بإعتباره نموذجا من نماذج القدوة ، وإما لالقاء الضوء على جوانب مضيئة فى التاريخ الاجتماعى والسياسى والفكرى .

الفرض الرابع :

كاتب السيرة الذاتية ذاتي قبل كل شيء ، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على مجتمعه ، وهو مايفتح مجالا للعمل الدرامى لكى يلقى الضوء على مشكلات المجتمع فى الفترة التاريخية التى تصورها السيرة الذاتية .

الفرض الخامس :

إن السيرة الذاتية تعد مرشدا للتعرف على العادات والتقاليد فى العصور المختلفة .

الفرض السادس :

إن اللغة المستخدمة فى السيرة الذاتية التى تتحول إلى عمل درامى تليفزيونى لغة تتطابق مع واقع النص وطبيعة الشخصيات والعصر الذى تجرى فيه أحداث السيرة استجابة لمقتضيات التجرد فى السيرة الذاتية وتحويلها إلى عمل درامى يتسم بالموضوعية التى التزم بها النص الأدبى تصويراً أمينا دقيقا .

منهج الدراسة :

ولدراسة هذه الافتراضات تستخدم الباحثة أسلوب تحليل المضمون الذى يهدف إلى تحليل المضمون الظاهر للرسالة تحليلا موضوعيا منتظما . وترى أن أيسر سبيل لهذه الدراسة هو المقارنة بين النص الأدبى « الأيام » والعمل الدرامى « مسلسل الأيام » لقياس مدى التطابق ، والمقومات الفنية التى تقوم عليها السيرة الذاتية حين تتحول إلى عمل درامى فى ضوء ماقدمته الباحثة من دراسة فى الجزء الأول من هذا البحث .

عينة الدراسة :

ولإجراء هذا البحث اختارت الباحثة مسلسل « الأيام » الذى عرض على شاشة التليفزيون المصرى عدة مرات وقامت بحصر شامل لحلقاته التى بلغت (١٣) حلقة كل منها (٤٥) دقيقة بما فيها المقدمة والنهاية ، كما قامت بدراسة النص الأدبى فى الجزءين[1] الأول والثانى من الأيام والجزء الثالث الذى نشر فى بيروت تحت اسم مذكرات «طه حسين»[2] إلى جانب الدراسات التى تناولت طه حسين وأدبه وفكره .

وحدة التحليل :

ولإجراء هذا البحث المقارن بين النص الأدبى والعمل الدرامى اعتمدت الباحثة على وحدة الموضوع (Theme)[3] واتخذتها أداة للقياس فى «الأيام» كنص أدبى والمسلسل التليفزيونى كعمل درامى .

---

(١) الأيام : ج ١ ١٩٢٩ ، ج ٢ ١٩٣٩

(٢) مذكرات طه حسين : بيروت ، ١٩٦٧

(٣) محمد الوفائى : مناهج البحث فى الدراسات الإجتماعية والإعلامية ، الانجلو ، القاهرة ، ١٩٨٩ ، ص ١٥٢

نتائج الدراسة التحليلية

أولا ـ مدى مطابقة النص الأدبي للعمل الدرامى :

قامت الباحثة بإجراء دراستها التحليلية لمسلسل « الأيام » التليفزيونى المأخوذ عن كتاب « الأيام » للدكتور « طه حسين » بهدف التعرف على طبيعة السيرة الذاتية وإلى أى مدى تكون مصدرا خصبا من مصادر الدراما التليفزيونية . ومدى الالتزام بالنص الأدبي فى العمل الدرامى ، ومدى قابلية السيرة الذاتية كجنس أدبي للسرد الدرامى من خلال التليفزيون .

ويوضح الجدول التالى رقم (١) مدى مطابقة النص الأدبي للعمل الدرامى من خلال مسلسل الأيام :

جدول رقم (١)

مدى مطابقة النص الأدبي للعمل الدرامى من خلال مسلسل الأيام

العناصر الفنية والموضوعية	النص الأدبي ٪	العمل الدرامى ٪	الفارق النسبي
الفكرة الرئيسية	١٠٠	٨٥	— ١٥
الشخصيات	١٠٠	٨٤	— ١٦
الأحداث	٨٨	١٠٠	+ ١٢
الحبكة	١٠٠	٨٨	— ١٢
البيئة الزمانية	١٠٠	٩٠	— ١٠
البيئة المكانية	١٠٠	٨٠	— ٢٠

من الجدول السابق رقم (١) يتضح :

– أن مدى التطابق بين النص الأدبي والعمل الدرامى يكشف عن إلتزام العمل الدرامى لمقومات السيرة الذاتية إلى حد كبير ، حيث تبين أن مدى المطابقة بالنسبة للفكرة الرئيسية فى النص الأدبي (كتاب الأيام) والمسلسل التليفزيونى قد بلغ الفارق النسبي بينهما (– ١٥) .

– أن التطابق بالنسبة للشخصيات بين النص الأدبى والعمل الدرامى وصل إلى (– ١٦) ، وتبين أيضا أن العمل الدرامى قد أضاف إلى النص الأدبى إضافات تخدم العمل الفنى وتقنياته وتطور السيرة ولاسيما بعد وفاة صاحبها عميد الأدب العربى عام ١٩٧٣. وتنحصر هذه الإضافات فى الأحداث، وقد بلغ الفارق النسبى لهذه الإضافات (+ ١٢) .

– أن التطابق فى الحبكة بين النص الأدبى والعمل الدرامى يكشف عن الالتزام بحبكة كتاب « الأيام » بفارق نسبي بسيط (– ١٢) .

– إلتزام العمل الدرامى إلى مدى كبير بالبيئة الزمانية والإطار التاريخى للسيرة الذاتية فى النص الأدبى لكتاب الأيام بفارق نسبي (– ١٠) .

– كان الالتزام بالبيئة المكانية مرتبطا بطبيعة الأحداث فى العمل الدرامى الأمر الذى أدى إلى أن يجىء التطابق بفارق نسبي (– ٢٠) .

ومما سبق يتضح أن الفارق النسبي يشير إلى أن العمل الدرامى كان حريصاً على الالتزام بالنص الأدبى محاولا الاستجابة لمقتضيات العمل الدرامى الذى اقتضى الحذف حيناً والإضافة أحيانا أخرى ، وهـــذا يؤكد صحة الفرض الأول القائل :

(إن السيرة الذاتية تعبر عن النشاط الذهنى والنشاط العملى فى حياة الإنسان من خلال نشاط لغوى ، الأمر الذى يجعل من السيرة الذاتية قصة

حياة نرويها للآخرين . وفى ذلك مايجعل من السيرة الذاتية فنا أدبيا يصلح للتقديم الدرامى بحكم قابليتها للسرد دراميا) .

ثانيا : السيرة الذاتية والسيرة الغيرية فى العمل الدرامى :

يوضح الجدول التالى رقم (٢) السيرة الذاتية والسيرة الغيرية فى العمل الدرامى .

جدول رقم (٢)

السيرة الذاتية والسيرة الغيرية فى العمل الدارمى

العناصر	السيرة الذاتية ٪	السيرة الغيرية ٪	الفارق النسبى
ذاتية السرد	٨٠	٢٠	— ٦٠
موضوعية السرد	٩٠	٩٥	+ ٥
الاعتماد على الشواهد	٦٠	٨٥	+ ٢٥
النقد الاجتماعى	٨٥	٢٠	— ٦٥
البعد الداخلى	٩٠	٣٥	— ٥٥
البعد الخارجى	٦٥	٩٠	+ ٢٥

تشير بيانات الجدول السابق رقم (٢) إلى أن السيرة الذاتية حين تحولت إلى عمل تليفزيونى قد اكتسبت مقومات السيرة الغيرية ويتضح ذلك مما يأتى:

— أن ذاتية السرد فى النص الأدبى للسيرة الذاتية قد بلغت نسبتها (٨٠٪) فى حين كانت ذاتية السرد فى العمل الدرامى للسيرة نفسها (٢٠٪)

على النحو الذى أفسح المجال لطبيعة السيرة الغيرية فى العمل الدرامى بفارق نسبي (- ٦٠) .

- أن موضوعية السرد فى السيرة الذاتية قد بلغت (٩٠ ٪) وفى العمل الدرامى (٩٥ ٪) بفارق نسبي (+ ٥) على النحو الذى انتقل بالعمل للأيام من دائرة السيرة الذاتية إلى الغيرية .

- أن الاعتماد على الشواهد فى السيرة الذاتية قد بلغت نسبته (٦٠ ٪) فى حين جاءت نسبة الاعتماد على الشواهد فى العمل الدرامى (٨٥ ٪) بفارق نسبي (+ ٢٥) ، وفى ذلك أيضا ماينتقل بالعمل الدرامى إلى دائرة السيرة الغيرية .

- أن النقد الاجتماعى فى السيرة الذاتية قد بلغت نسبته (٨٥ ٪) فى حين تضاءلت النسبة فى العمل الدرامى لتصل إلى (٢٠ ٪) بفارق نسبي كبير مقداره (- ٦٥) . وربما يرجع ذلك إلى أن كاتب السيرة الذاتية ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على شخصيته إلى جانب أن عميد الأدب العربى الدكتور « طه حسين » حين كتب « الأيام » كان يستهدف إلى جانب الباعث النفسى النقد الاجتماعى لسلبيات المجتمع المصرى الذى عاش فيه وكان من نتيجته إصابته بظرفه البصرى نتيجة للتخلف والاعتماد على الخرافات فى مجتمع القرن الماضى . الأمر الذى يفسر أسلوب طه حسين فى النص الأدبى بين المواجهة الصريحة للذات وما يفرضه الإطار الاجتماعى على التغيير فى السيرة الذاتية من رمز أو مايشبه الرمز .

- أن البعد الداخلى فى السيرة الذاتية قد بلغت نسبته (٩٠ ٪) فى حين تناقصت هذه النسبة فى السيرة الغيرية لتصل إلى (٣٥ ٪) بفارق نسبي (- ٥٥) وفى ذلك مايؤكد صحة الفرض القائل « بأن العمل الدرامى يحول السيرة الذاتية إلى سيرة غيرية . ويتضح ذلك من الدافع الداخلى الذى دفع

« بطه حسين » إلى أن يكتب الذاتية بحثا عن دفء الموقد الباطنى بسبب المحنة التى تعرض لها بعد نشر كتابه فى الشعر الجاهلى ، ولم يكن من قبيل المصادفة أن تنشر فصول « الأيام » متتابعة فى مجلة الهلال عام ١٩٢٦ « وكأنها استجابة نفسية شرطية للمحنة التى مر بها مؤلفها بسبب رأيه فى انتحال الشعر الجاهلى »(١) .

— أن البعد الخارجى فى السيرة الذاتية قد قلت نسبته عن البعد الداخلى حيث جاءت نسبة البعد الخارجى فيها (٦٥ ٪) فى حين زادت هذه النسبة فى العمل الدرامى لتصل إلى (٩٠ ٪) استجابة لمقتضيات السيرة الغيرية بفارق نسبى (+ ٢٥) وفى ذلك تأكيد لأثر البعد الخارجى على البعد الداخلى وتعنى موقف المجتمع من « طه حسين » نفسه بعد أن دعا إلى آرائه التجديدية ، وهذا يؤكد صحة الفرض الثانى القائل « بأن السيرة الذاتية نقل مباشر أما السيرة الغيرية - أى ترجمة حياة الآخرين - فإنها نقل عن طريق الشواهد والشهادات والوثائق . وحين تتحول السيرة الذاتية إلى عمل تليفزيونى تكتسب مقومات السيرة الغيرية » .

ثالثا - دوافع السيرة الذاتية بين النص الأدبى والعمل الدرامى :

ويوضح الجدول التالى رقم (٣) دوافع السيرة الذاتية بين النص الأدبى والعمل الدرامى .

(١) عبد الحميد يونس : طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم ، القاهرة ، دار الهلال . ص ١٥

جدول رقم (٣)

دوافع السيرة الذاتية بين النص الأدبى والعمل الدرامى

دوافع العمل	النص الأدبى ٪	العمل الدرامى ٪	الفارق النسبى
دافع نفسى	٤٧	—	— ٤٧
دافع اجتماعى	٣٠	١٠	— ٢٠
دافع سياسى	١٥	٥	— ١٠
نموذج قدوة	٥	٤٠	+ ٣٥
تصوير العصر التاريخى	٣	١٥	+ ١٢
الترفيه	—	٣٠	+ ٣٠
الإجمالى	١٠٠	١٠٠	

ومن الجدول السابق رقم (٣) يتضح مايلى :

— أن الدافع النفسى فى السيرة الذاتية قد احتل المرتبة الأولى بنسبة (٤٧٪) فى حين اختفى هذا الدافع فى العمل الدرامى بفارق نسبى (— ٤٧) وهذا أمر طبيعى يتسق مع طبيعة السيرة الذاتية حين يتحدث كاتبها (عن نفسه) . ولذلك يذهب النقاد إلى أن نجاح المترجم الذاتى يقاس بنسبة الذاتية فيما كتب ، أما نجاح السيرة الغيرية فيقاس بمقدار التجرد والغيرية ، وبالتالى يجىء خلو العمل الدرامى من نسبة هنا مؤكدا لموضوعية السيرة عندما تحولت من ذاتية إلى غيرية .

وقد أشارت الباحثة فيما تقدم عن الدافع النفسى الذى دفع بعميد الأدب

إلى كتابة سيرته الذاتية بسبب محنة (الشعر الجاهلى) واتجهت السيرة الذاتية فى الأيام للتعبير عن الذات فى مرحلة التكوين وهى أهم مراحل العمر ، ثم للتعبير عن مـــوقف نفسى خاص وعن موقف فكرى عام يرتبط بالمجتمع التقليدى .

— أن الدافع الاجتماعى جاءت نسبته فى النص الأدبى (٣٠٪) وفى العمل الدرامى (١٠٪) بفارق نسبى (—٢٠) وفى ذلك مايتسق مع الموقف الفكرى العام الذى يرتبط عند طه حسين بفكرة زوال المجتمع التقليدى ، الأمر الذى أدى إلى تداعى صور الطفولة وصور البيئة الريفية المنتزعة من أعماق الذاكرة ، وصورها « طه حسين » بما يناسب الموقف الفكرى والنفسى وهو الإكبار من شأن الفكر .

— أن الدافع السياسى قد بلغت نسبته فى النص الأدبى (١٥٪) وفى العمل الدرامى (٥٪) بفارق نسبى (— ١٠) وفى ذلك مايتسق أيضا مع طبيعة النص الأدبى وموقف طه حسين من البيئة السياسية التى أيدت مواجهيه بسبب قضية الشعر الجاهلى أيضا ، ذلك أن الضجة التى أثيرت حول هذا الكتاب كانت أقوى عوامل إثارتها عوامل سياسية إذ قدم أحد النواب الوفديين فى سنة ١٩٢٦ وهو « عبد الحميد البنان » استجوابا بشأن هذا الكتاب . واختلف أعضاء مجلس النواب ، وكانت الوزارة برئاسة « عدلى يكن باشا » فهدد بالاستقالة فسوى الأمر داخل المجلس . ولم تلبث القضية أن ثارت خارج المجلس . وقام ذلك العضو برفع الدعوى العمومية أمام النيابة وكان طه حسين متغيبا فى العطلة الصيفية ، فلما عاد وجد الخصومة على أشدها فى الصحف وفى كل مكان ، وأصدرت النيابة قرارها . وانتهى الأمر إلى سحب الشعر الجاهلى من البيع(١) .

---

(١) عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى . هيئة الكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٥٦

ـ أما الدافع السياسي بالنسبة للعمل الدرامى فهو تصوير التيارات السياسية فى مصر وتأكيد موقف طه حسين من حرية الفكر .

ـ أن دافع تصوير نموذج القدوة كان أكبر فى العمل الدرامى بنسبة (٤٠ ٪) منه فى النص الأدبى بنسبة (٥ ٪) وبفارق نسبى (+ ٣٥) وهذا يتفق مع طبيعة أهداف الدراما التليفزيونية بوجه عام ، فى حين اختفى هذا الدافع فى النص الأدبى وراء التواضع العظيم لعميد الأدب العربى الذى آثر استخدام ضمير الغائب بدلا من ضمير المتكلم وهو يتحدث عن نفسه فى سيرته الذاتية .

ـ أن الدافع الخاص بتصوير العصر التاريخى جاء فى العمل الدرامى بنسبة أكبر (١٥ ٪) فى حين قلت النسبة فى النص الأدبى إلى (٣ ٪) وبفارق نسبى (+ ١٢) وهذا أمر طبيعى بالنسبة للعمل الدرامى الذى يحول السيرة إلى عمل تاريخى يتفق مع طبيعة السيرة الغيرية على النحو الذى يقدم تاريخ مصر من خلال سيرة طه حسين .

ـ أن الترفيه قد إحتل نسبة كبيرة فى دوافع العمل الدرامى وهى (٣٠ ٪) فى حين اختفت هذه النسبة تماما من النص الأدبى فى سياق الدوافع النفسية والاجتماعية والسياسية للكاتب . وفى ذلك مايبين لنا أن العمل الدرامى بطبيعته يستهدف الترفيه إستجابة لمتطلبات المشاهدين على اختلاف مستوياتهم الثقافية .

ومما تقدم يتضح لنا صحة الفرض الثالث الذى يقول « إن كاتب السيرة الذاتية يكتب سيرته إستجابة لدافع معين فى حياته ، وحين يقدمها التليفزيون يكون الدافع إما إلقاء الضوء على بطل هذه السيرة باعتباره نموذجا من نماذج القدوة ، وإما إلقاء الضوء على جوانب مضيئة فى التاريخ السياسى والاجتماعى والفكرى » .

رابعا : السيرة الذاتية ومشكلات المجتمع المصرى :

يوضح الجدول التالى رقم (٤) السيرة الذاتية ومشكلات المجتمع المصرى كما صورها المسلسل التليفزيونى .

جدول رقم (٤)

السيرة الذاتية ومشكلات المجتمع المصرى

المشكلات	النص الأدبى ٪	العمل الدرامى ٪	الفارق النسبى
اجتماعية	٣٠	١٨	— ١٢
صحية	٧	١٧	+ ١٠
ثقافية	١٨	١٥	— ٣
اقتصادية	٨	١١	+ ٣
تعليمية	٢٠	١٢	— ٨
سياسية	١٧	٢٧	+ ١٠
الإجمالى	١٠٠	١٠٠	

من الجدول السابق رقم (٤) يتضح أن المشكلات الاجتماعية قد احتلت نسبة (٣٠٪) فى النص الأدبى فى حين بلغت نسبتها فى العمل الدرامى (١٨٪) بفارق نسبى (— ١٢) وفى ذلك ما يبين إرتباط نوعية المشكلات بالدافع وراء كتابة السيرة الذاتية إذ تبين لنا من الجدول رقم (٣) أن الدافع الاجتماعى كانت نسبته متطابقة مع اتجاه السيرة الذاتية إلى تصوير المشكلات الاجتماعية ، وهذه المشكلات ترتبط بالطفولة القاسية التى عاشها

طه حسين فى مجتمع القرية فى أواخر القرن الماضى حيث شاعت الخرافات وخضع المجتمع للعادات السلبية البعيدة عن المنطق وما يتسم به المجتمع التقليدى من هبوط فى المستوى الثقافى والتربوى والطفولة القاسية (التى أشفق طه حسين أن يسمع أبنته أطرافا منه)(١) ومن هذه المشكلات التى صورها مشكلات الأسرة الكبيرة العدد والصلات بين الأخوة والأشقاء وبين الناس وبعضهم البعض ، فى حين جاء تصوير العمل الدرامى لهذه المشكلات بنسبة أقل إستجابة لمنطق العمل الفنى الذى يتجه نحو تصوير البيئة التاريخية من خلال نموذج القدوة .

ـ جاءت المشكلات التعليمية فى المرتبة الثانية فى النص الأدبى بنسبة (٢٠ ٪) فى حين جاءت فى العمل الدرامى بنسبة (١٢ ٪) بفارق نسبى (ـــ ٨) . وفى ذلك أيضا ما يتضح من الشق التربوى فى السيرة الذاتية منذ حمل طه حسين إلى كتاب القرية حيث صور لنا صورة التعليم فى القرية المصرية أواخر القرن الماضى ، كما صور لنا عددا من المشكلات التعليمية أثناء دراسته بالأزهر والجامعة المصرية وأثناء بعثته فى فرنسا على النحو الذى أدى إلى ارتفاع نسبة المشكلات الاجتماعية فى النص الأدبى للسيرة الذاتية ، فى حين نظر إليها العمل الدرامى أيضا فى إطار السياق التاريخى الذى ينتظم الأحداث فى السيرة الذاتية .

ـ أن المشكلات الثقافية قد احتلت المرتبة الثالثة فى سياق المشكلات التى تناولتها السيرة الذاتية بنسبة (١٨ ٪) وجاءت فى العمل الدرامى بنسبة (١٥ ٪) وبفارق نسبى (ـــ ٣) . وفى ذلك مايشير إلى الدور الثقافى الكبير الذى كان يقوم به « طه حسين » كقائد من قادة الفكر معنى بمستقبل الثقافة فى مصر إلى جانب مشكلات المجتمع ككل ، ذلك أن السيرة

---

(١) طه حسين : الأيام ، الجزء الأول ، ص ٩٧ ، ص ٩٨

الذاتية لطه حسين توضح لنا أنه منذ صباه كان يتسم بالظمأ « الشديد إلى المعرفة لا يطفئه اكتساب العلم وإنما يزيده قوة وشدة والتهابا »(١) هـــذا الظمأ هو الذى دفع به إلى أن ينادى بأن يكون التعليم كالماء والهواء ، وأن يطبق هذا الشعار حين يصبح وزيرا للمعارف ، وأن يجد الحلول العلمية للمشكلات الثقافية والتعليمية .

ـ جاءت المشكلات السياسية فى المرتبة الرابعة فى النص الأدبى بنسبة (١٧٪) فى حين احتلت المرتبة الأولى فى العمل الدرامى بنسبة (٢٧٪) وبفارق نسبى (+ ١٠) وفى ذلك مايتفق مع طبيعة الأحداث التى يستهدفها العمل الدرامى من خلال تصوير البيئة الزمانية أو التاريخية لمصر فى عصر « طه حسين » .

أما تصوير طه حسين للمشكلات السياسية من خلال النص الأدبى للسيرة الذاتية فكان يرتبط بدوره كمشارك فى السياسة حيث عايش الأحـــداث السياسية وشارك فيها من خلال انتمائه إلى حزب الأحرار الدستوريين أولا ثم إلى حزب الوفد ثانيا .

وكان له دوره السياسى فى كتابة المقال الصحفى الذى قاوم فيه الاستعمار وشارك به فى الصراع بين الأحزاب المصرية ، ولذلك نراه يوضح لنا أن تصوير هـــذه المشكلات السياسية يدخل فى سياق الدوافع التى شكلت مشكلة حياته .

يقول طه حسين :

« وكذلك رأيتنى أخاصم فى السياسة وأخاصم فى الإصلاح الاجتماعى ، وأخاصم فى تجديد العقل المصرى ، وتغيير منهجه فى البحث والدرس ، وأخاصم فى نقل المناهج الغربية الحديثة لأفرضها على دراسة الأدب والتاريخ

---

(١) طه حسين : هذا مذهبى ـ فى مجلة الهلال ، مارس ١٩٥٥

فى مصر . وإذا أنا أثير الخصومات وأحفظ الصدور وأغرق الناس بنفسى وألقى من ذلك الجهد والمشقة وأغضب فى وقت واحد كثرة البرلمان وصاحب القصر ، ولكنى لا أحجم ولا أتردد وإنما تزيدنى المحنة إقداما وتصميما ثم أمضى فيما أنا فيه من الصبر والتصميم والمجاهرة بما أرى أنه الحق غير حافل بسخط الساخطين ولا رضى الراضين حتى يبلغ الأمر غايته ، فأقصى عن الجامعة وأحارب فى الرزق وأتلقى ألوان النذير فلا يفل ذلك من عزمى وإنما يزيده مضاء وتصميما ، وكذلك غالبت المصاعب والعقاب على اختلاف مصادرها وعلى اختلاف ألوانها وطبقاتها وأتيح لى التغلب عليها آخر الأمر ولو إلى حين »(١) .

ـ جاءت المشكلات الاقتصادية فى الترتيب الخامس بنسبة (٨ ./.) فى النص الأدبى و(١١ ./.) فى العمل الدرامى بفارق نسبى (+) وهذه الزيادة أيضا تشير إلى السياق التاريخى الذى حرص العمل الدرامى على تصويره فى حين جاءت فى السيرة الذاتية فى إطار اهتمام « طه حسين » بالقضية الاجتماعية فى مصر بملابساتها السياسية وأزمتها الاقتصادية ، وعلى ذلك فإن كتاب « مستقبل الثقافة » ليس أول رسالة فى الأدب الاصلاحى ، تزايدت بعدها الكتابات بشكل ملحوظ خلال السنوات الخمس التى سبقت الثورة ، كما يقول « جاك بيرك » ، ذلك أن هذا الكتاب جاء ثمرة لمقال طه حسين فى الاتجاه الاجتماعى قبل صدوره بسنوات طويلة ، ولكن الشق المتعلق بإصلاح النظام الاجتماعى يرتبط بحوادث التبشير والأزمة الاقتصادية والسياسية فى ثلاثينات هذا القرن .. قبل صدور كتابه بخمس سنوات تقريبا حين تلمس بنفسه فى مصر قوما « يشقون لا بالجوع الذى يحسونه هم وخدهم، بل بالجوع الذى يحسه النساء والأطفال ، والذى بلغ مداه فى نبأ بيع طفلة أمام مسجد من بيوت الله والذى قابلته الوزارة الصدقية بفتور يكشف عن

---

(١) طه حسين : المرجع نفسه

انفصالها عن قضايا المجتمع ، يظهر من قول صحيفتها « لا تثور مصر وهى جائعة » ، وهو القول الذى يكشف كذلك عن سياسة البطش بالحريات بإزاء قضايا المجتمع المصرى ، وإغفال قضايا التغيير الاجتماعى ، كنتيجة لنمو طبقة ملاك الأراضى والرأسمالية الناشئة ، وتصديها لقيادة الأحزاب فى حكومات الأقلية(١) .

— جاءت المشكلات الصحية فى النص الأدبى بنسبة (٧٪) فى حين زادت هذه النسبة فى العمل الدرامى إلى (١٧٪) بفارق نسبى (+ ١٠) وذلك أيضا يرجع إلى السياق التاريخى الذى ينتظم العمل الدرامى على الرغم من أن هذه المشكلات الصحية أن وجاء ترتيبها الأخير فى النص الأدبى إلا أن طه حسين من خلال سيرته الذاتية لم يكثر الحديث عنها إكتفاء بما تعرض له من ظرف بصرى نتيجة لهذة المشكلات التى ترتبط بالتخلف الاجتماعى بوجه عام ، حيث صور لنا طفولته القاسية التى ترتبط بالإطار العام للمجتمع التقليدى الذى تمثله بيئته الأولى فى أواخر القرن الماضى من انحطاط الوعى الصحى وشيوع الخرافات وتأثيرها على حياة الناس وصحتهم ، وهى القضايا التى فصلها فيما بعد فى كتابه « المعذبون فى الأرض » وما تعرض له المصريون من مشكلات سببها الجهل والفقر والمرض .

مما تقدم يتضح لنا صحة الفرض الرابع الذى يقول « إن كاتب السيرة الذاتية ذاتى قبل كل شىء ، ينظر إلى نفسه ويسلط أضواء النقد ودقة الملاحظة على مجتمعه ، وهو مايفتح مجالا للعمل الدرامى لكى يلقى الضوء على مشكلات المجتمع فى الفترة التاريخية التى تصورها السيرة الذاتية » .

---

(١) طه حسين : ألوان ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٧٠ ، ص ٣٩ أيضا جريدة الإتحاد : ١٠ يوليو ١٩٣٢ .

خامسا ـ العادات والتقاليد فى السيرة الذاتية :

يوضح الجدول التالى رقم (٥) العادات والتقاليد فى النص الأدبى والعمل الدرامى :

جدول رقم (٥)

العادات والتقاليد فى النص الأدبي والعمل الدرامى

العادات والتقاليد	السيرة الذاتية ٪	العمل الدرامى ٪	الفارق النسبى
العادات والتقاليد العامة	٣٨	٢٩	٩ −
الخاصة بالأسرة	٨	١١	٣ +
الادارية	٣	٤	١ +
الريفية	١٧	١٩	٢ +
الصحية	٩	١١	٢ +
التعليمية	٢٥	٢٦	١ +
الإجمالى	١٠٠	١٠٠	

ـ تشير بيانات الجدول السابق رقم (٥) إلى وجود تطابق بين النص الأدبى والعمل الدرامى إلى حد كبير فى تصوير العادات والتقاليد من خلال كتاب « الأيام » . وفى ذلك مايشير إلى دقة التصوير لهذا الجانب الاجتماعى فى سيرة طه حسين الذى توجه ببصيرته إلى خارج ذاته لينقد المجتمع المصرى منذ تفرغ لقضيته بعد عودته من فرنسا ليشارك فى الحياة العامة . وفى سيرته نجد هذا الاندماج بين سيرة الذات وسيرة المجتمع ، حيث تميزت

سيرة طه حسين بالتحرك فى الميدان الاجتماعى والسياسى والفكرى حرصا على تحقيق الأهداف الاجتماعية التابعة من طموح المجتمع المصرى . فى نفس الوقت كان حريصا على أن يصوب سهام النقد إلى العادات والتقاليد السلبية التى تعوق حركة المجتمع ، ولذلك تبين من الجدول السابق أن العادات والتقاليد العامة قد احتلت المرتبة الأولى فى النص الأدبى بنسبة (٣٨٪) وفى العمل الدرامى بنسبة (٢٩٪) وبفارق نسبى (–٩) .

– ومن الجدول تبين أيضا أن نسبة العادات التعليمية قد احتلت المرتبة الثانية فى النص الأدبى بنسبة (٢٥٪) وفى العمل الدرامى بنسبة (٢٦٪) بفارق نسبى (+١) . وفى ذلك مايوضح ارتباط العادات التعليمية بالإصلاح الذى يمثل محورا رئيسيا من محاور سيرة « طه حسين » ، ذلك أنه يذهب إلى أن كل إصلاح اجتماعى أو سياسى فى شعب جاهل لا قيمة له ولا بقاء ، ذلك أن « المصريين يريدون أن يصلحوا غذاء الشعب وصحته على أنه شعب من الناس الذين يعقلون ويشعرون ويعرفون أنفسهم ويريدون أن يعرفها غيرهم من الناس ، والسبيل إلى ذلك واحدة ليست ثانية وهى التعليم » فالتعليم عند طه حسين يجعل « المصرى إنسانا يحتال للفقر حتى يخرج منه ويحتال للعلة حتى يبرأ منها : ويتحدث إلى الناس فيهمون عنه ، ويتحدث إليه الناس فيفهم عنهم ، وينهاه المصلحون عن الشر فينتهى ، ويدعوه المصلحون إلى الخير فيجيب »(١) .

وعلى ذلك فإن « التعليم » محور الإصلاح الاجتماعى والتنشئة الاجتماعية فى فكر طه حسين ، كما يغدو ركيزة التحول من التقليدية إلى العصرية تأسيسا على أن التخلف إنما يكمن فى « الموارد البشرية » ولذلك يذهب طه حسين إلى بناء الأفراد من خلال تنشئة اجتماعية وتعليم يرفع مستوى

(١) سامى الكيالى : مع طه حسين ، سلسلة اقرأ ، جزءان ، دار المعارف ، ١٩٦٥ ، ص ٢٤ .

المهارات(١) . ويغدو « المحرك الأعظم فى تطوير كل مظهر من مظاهر الحياة » . فالتعليم - بهذا المفهوم جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية القومية وراء فكر طه حسين ، لأنه أساس الحضارة والاستقلال ، فى حين أن الاستقلال والحرية وسيلة إلى الكمال وسبب من أسباب الرقى »(٢) .

— احتلت العادات والتقاليد الريفية الترتيب الثالث فى النص الأدبى بنسبة (١٧ ٪) وفى العمل الدرامى كذلك بنسبة (١٩ ٪) وبفارق نسبى (+ ٢) ذلك أن طه حسين كما تبين فى الجزء الأول من الدراسة لم يكن حريصا على أن يصور قرية بعينها بقدر ما كان حريصا على أن يصور الريف المصرى كله بهدف تشخيص العادات والتقاليد الإيجابية لدعمها فى البناء الاجتماعى ، وأيضا تشخيص العادات والتقاليد السلبية بهدف تغييرها لدفع المجتمع المصرى خطوات إلى الأمام فى سبيل التقدم .

— جاءت المشكلات الصحية فى الترتيب الرابع فى النص الأدبى بنسبة (٩ ٪) وفى العمل الدرامى بنسبة (١١ ٪) وبفارق نسبى (+ ٢) ولا يخفى أن الظرف البصرى الخاص « لطه حسين » يرتبط بالعادات الصحية السلبية إذ نشأ هذا الظرف البصرى عن إصابته بالرمد وإهماله « أياما ثم دعى الحلاق فعالجه علاجا ذهب بعينيه »(٣) .

- جاءت العادات الخاصة بالأسرة فى الترتيب الخامس فى النص الأدبى بنسبة (٧ ٪) وفى الترتيب الرابع مكرر فى العمل الدرامى بنسبة (١١ ٪)

---

(١) ويلبور شرام : أجهزة الإعلام والتنمية الوطنية ، ترجمة محمد فتحى ، هيئة الكتاب ، ١٩٧٠ ، ص ٤٦ - ٦٥

(٢) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٣٨ ، ج ١ ، ص ٢

(٣) الأيام : ج ١ ص ٢٠ ، والحلقة الأولى من المسلسل التليفزيونى .

وبفارق نسبي (+ ٣) ، ذلك أن « طه حسين » قد صور مستوى حياة الأسرة المصرية العادية من خلال مستوى حياة أسرته التي كانت تعيش (من سعة ، ولكنها كانت فقـــيرة على كل حال)(١) بحيث كانت زيارة الشيخ (تكلف صاحب البيت الاقتراض لشراء مالابد منه من الضأن والمعز)(٢)، وكان لوالده (أبناء كثيرون ، وكان يحرص على تعليمهم ، وتهذيبهم ، وكان فقيرا لايستطيع أن يؤدى نفقات ذلك التعليم . وكان يستدين من حين إلى حين ويثقل عليه أداء الدين ، وكان يطمع فى أن يزاد راتبهمن حين إلى آخر، بل لقد كانت زوجته تضطر إلى بيع حليها)(٣) .

ـ جاءت العادات الادارية فى الترتيب الأخير فى النص الأدبي والعمل الدرامي بنسبة (٣٪) للأول و(٤٪) للثانى بفارق نسبي (+ ١)وذلك من خلال الإجراءات الادارية التى واجهته حين تقابل مع الأجهزة الادارية وحين تقدم بأوراقه إلى الجامعة المصرية وإلى البعثة إلى فرنسا .. وهكذا..

ومما تقدم يتضح لنا أن الفرض الخامس من فروض الدراسة فرض صحيح ، ذلك أنه يذهب إلى « أن السيرة الذاتية تعـــد مرشدا للتعرف على العادات والتقاليد فى العصور المختلفة » .

سادسا : اللغة بين السيرة الذاتية والعمل الدرامى :

يوضح الجدول التالى رقم (٦)مستويات التعبير اللغوى فى النص الأدبي والعمل الدرامى :

---

(١) الأيام : ج ١ ، ص ١٤٥ ١٤٦

(٢) الايام : ج ١ ، ص ٦٣

(٣) الأيام : ج ١ ، ص ١٠٥

جدول رقم (٦)

مستويات التعبير اللغوى فى النص الأدبى والعمل الدرامى

مستويات التعبير اللغوى	النص الأدبى ٪	العمل الدرامى ٪	الفارق النسبى
الفصحى	١٠٠	٢٣	— ٧٧
عامية المتنورين	—	٦٢	+ ٦٢
العامية	—	٨	+ ٨
لغة فرنسية	—	٧	+ ٧
الإجمالى	١٠٠	١٠٠	

ومن الجدول السابق رقم (٦) يتضح مايلى :

ـ أن النص الأدبى « الأيام» قد استخدم اللغة العربية الفصحى استخداما كاملا يتميز بسمات أسلوب « طه حسين » الذى ارتبط باسمه ، وقدرته على التصوير الواقعى من خلال التعبير الفصيح ، وما اتسم به أسلوب « طه حسين» من وضوح وإشراق ولغة رصينة فى غير إغراق .

ويتميـــز الاتصال اللغوى فى الأيام بصفة خاصة بمقومات شخصية طه حسين الذى يقول عنه المازنى : إنه « رجل أنيس المحضر ، ذكى الفؤاد ، جرىء القلب ، تعجبك منه صراحته وتقع من نفسك رجولته وأنفته ، ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه »(١).

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى : قبض الريح ، القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٣١

وتنعكس هذه المقومات على خصائص اتصاله اللغوى فيوجه الخطاب للقارىء فى الأغلب الأعم (كما تفعل حين تحادث جليسا لك، ويقصر جمله ويؤكد عباراته بالتكرير والإعادة، ويلتمس التأثير من طريق ذلك، حتى وأنت تقرأ أحلامه كأنما كان يهز قبضة يده حين بلغ هذه العبارة، ويومىء بأصابعه لما وصل إلى تلك ... وهكذا)(١).

ـ أما بالنسبة للعمل الدرامى فقد ثبتت صحة الفرض السادس الذى يقول (إن اللغة المستخدمة فى السيرة الذاتية التى تتحول إلى عمل تليفزيونى لغة تتطابق مع واقع النص وطبيعة الشخصيات والعصر الذى تجرى فيه أحداث السيرة استجابة لمقتضيات التجرد فى السيرة الذاتية وتحويلها إلى عمل درامى يتسم بالموضوعية التى إلتزم بها النص الأدبى تصويرا أمينا دقيقا. ويتضح ذلك من إرتباط مستويات التعبير فى العمل الدرامى بواقع النص الأدبى وطبيعة الشخصيات وبيئتها، حيث جاءت نسبة الفصحى (٢٣٪) وعامية المتنورين (٦٢٪) والعامية بما فيها اللهجة الصعيدية (٨٪) واللغة الفرنسية (٧٪).

(١) المرجع نفسه : ٣٢

المراجع العربية والأجنبية

أولا : المراجع العربية :

١ ـ إبراهيم عبد القاهر المازنى : قبض الريح ، القاهرة ، سنة ١٩٢٨م .
٢ ـ إحسان عباس : فن السيرة ، بيروت ، دار الثقافة ، سنة ١٩٥٦م .
٣ ـ حسين فوزى النجار : التاريخ والسيرة ، دار القلم ، سنة ١٩٦٤م .
٤ ـ سامى الكيالى : مع طه حسين ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، سنة ١٩٦٥م .
٥ ـ طه حسين : الأيام ، جـ ١ ، القاهرة سنة ١٩٢٩م .
٦ ـ طه حسين : الأيام ، جـ ٢ ، القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م .
٧ ـ طه حسين : مذكرات طه حسين ، بيروت سنة ١٩٦٧ م .
٨ ـ طه حسين : هذا مذهبي ، الهلال ، مارس سنة ١٩٥٥ م .
٩ ـ طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر ، القاهرة ، دار المعارف ، سنة ١٩٣٨ م .
١٠ ـ طه حسين : ألوان ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، سنة ١٩٧٠ م .
١١ ـ عبد الحميد يونس : طه حسين بين ضمير الغائب وضمير المتكلم ، القاهرة دار الهلال ، جـ ٦٦ .
١٢ ـ عبد الرحمن صدقى : عميد الأدب ومعجزة الأيام ، دار الهلال ، فبراير سنة ١٩٦٧م .
١٣ ـ عبد السلام المسدى : النقد والحداثة ، دليل ببلوجرافى ، بيروت ، دار الطليعة سنة ١٩٨٣ م .

١٤ ـ عبد العزيز شرف : طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ، هيئة الكتاب ، القاهرة ستة ١٩٧٧ م .

١٥ ـ عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، الجيزة ، سنة ١٩٧٣ م

١٦ ـ محمد الوفائى : مناهج البحث فى الدراسات الاجتماعية والإعلامية ، الإنجلو ، القاهرة سنة ١٩٧٨م .

١٧ ـ محمد مندور : الأدب وفنونه ، القاهرة ، القاهرة مكتبة نهضة مصر ، سنة ١٩٦٩ م .

١٨ ـ نبيل راغب : فن الرواية عند يوسف السباعى ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م .

١٩ ـ نعمات أحمد فؤاد : قمم أدبية ، القاهرة ، عالم الكتب سنة ١٩٦٦ م .

٢٠ ـ ويلبور شرام : أجهزة الأعلام والتنمية الوطنية ، ترجمة محمد فتحى ، هيئة الكتاب سنة ١٩٧٠م .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 - Chernim, H. « The Biographical Fashion in Litrary Criticis Univ. of California. Publications in Classical Philology, X11, 1949.

2 - Edwin Muir : The Structure of the Novel, The Hogarth Press. London, 1949

3 - Goldmann, Lucian : Pour une Sociologie de Roman, Gallimard, Col « ideès » Pari. 1969

4 - Gurnitch Geerpes : Les Cadres Sociaux de La Connaissance, p. U. 11 Paris, 1966.

5 - John Hward Lawson : Theory and Tecknique of Playwriting and Screenwriting, G. P. Putman's Son 1969.

6 - Marcel, Gabreél : Le Mystére De L,étre, Paris, Aubier, Vol.1.

7 - Roger M. Busfield : « The Play - wrights Art » (New York, Harper and brothers, 1961).

8 - S. T. Coleridge, in a letter to Thomas Poole, Fe . 1797, Letters (ed. E. H. Coleridge), London 1895

الصورة الذهنية لمصر فى المجلات العربية

« دراسة تحليلية على عينة من إحدى عشرة مجلة عربية »

بقـلم

د/ شعبان أبو اليزيد شمس

المدرس بقسم الصحافة والاعلام

أولا : مشكله البحث ومنهجه

١ ـ مدخل إلى مشكلة الدراسة :

تهتم أجهزة العلاقات العامة الدولية بالتعرف على الصورة القومية National image للدولة وللشعب الذى تنتمى إليه لدى الشعوب الأخرى والمدى الذى وصلت إليه تلك الصورة فى طبع وترسيخ صورة نمطية Steireo type أو منطبعة أو مقبولبة أو ذهنية كما ستستخدمها هذه الدراسة لدى تلك الشعوب .

وكذلك التعرف على أسباب تكوين تلك الصورة والعوامل التى أدت إلى نشرها على نطاق واسع أو العكس وبيان دور وسائل الأعلام بأشكالها المختلفة فى تكوين تلك الصورة حيث يشهد هذا القرن سطوة وقوة تلك الوسائل فى ترسيخ القيم والأفكار والمعلومات المختلفة التى ينتج عنها فى نهاية الأمر مايطلق عليه الصورة الذهنية القومية .

وقداهتمت الدراسات الاعلامية العربية فى غالبيتها بالتعرف على صورة العرب

والمواطن العربى والمسلم بصفة عامة فى وسائل الأعلام الغربية والأمريكية وبينت كيف أصبحت الصورة الغربية والإسلامية من خلال تلك الوسائل قاتمة ومشوهة وكيف أن الإنسان العربى أصبح يقترن ذكره فى تلك الوسائل بالتخلف والجمود ومعاداة الحضارة والشراهة للنساء والمال وغيرها من الصفات الرديئة التى عكستها نتائج تلك الدراسات .

وقد ساند ذلك دراسات أخرى تربوية وأكاديمية أجنبية سارت على خط مواز لوسائل الأعلام فى تشويه صورة الإنسان العربى مثل دوائر المعارف والقواميس والكتب والمراجع المدرسية والجامعية التى لم تترك رمزا من رموز الإسلام والعروبة إلا شوهته .

إلا أن هذه الدراسة تخرج عن ذلك النطاق الحضارى والجغرافى حيث تهدف إلى التعرف على الصورة العربية العربية بمعنى كيف ينظر شعب عربى من خلال وسيلة اعلامية إلى شعب آخر وذلك من خلال « الصورة الذهنية لمصر فى المجلات العربية الأسبوعية » . ويرجع سبب اهتمام الباحث واختياره لهذه الدراسة إلى عدة عوامل وأسباب مبدئية تحتاج إلى التحقق منها بحثيا :

(ا) ان هناك عدداً من الجاليات العربية التى يجمعها التقارب فى بلد واحد بحكم العمل تتحدث فى جوانب ليست بالقليلة عن أوضاع اجتماعية وفنية ودينية وغيرها بصورة غير مرضية ومشوهة من خلال معلومات تلقتها من وسائل الأعلام العربية مما يزعج كثيرا من المصريين العاملين فى تلك البلاد .

(ب) أنه بدراسة عينة مبدئية من المجلات العربية الأسبوعية تبين أنها تتناول الحياة الاجتماعية المصرية من خلال مراسليها المصريين بصورة سلبية تتمثل فى عرض جرائم الفساد الأخلاقى والتفكك الأسرى والأدمان والنصب والاحتيال بشكل مثير ومبالغ فيه فى كثير من الأحيان ، وكذلك التركيز على قطاعات نوعية مثل المغمورين من أهل الفن من ممثلات وراقصات

ومطربات بمساحات كبيرة تبلغ أضعاف اهتمامها بجوانب أساسية كالجوانب الاقتصادية والسياسية وغيرها من هنا رأى الباحث أهمية دراسة هذا الموضوع حتى نتعرف على صورتنا المصرية لدى أمتنا العربية أولا قبل أن نتعرف على تلك الصورة فى مجتمعات غربية أو شرقية .

٢ ـ الدراسات السابقة :

تدور الدراسات السابقة فى مجملها حول الصورة الذهنية للعرب والمسلمين فى وسائل الأعلام الغربية ومن أمثلة تلك الدراسات . « دراسة عبد القادر طاش » حول الصورة النمطية للإسلام والعرب فى مرآة الأعلام الغربى وتدور حول العوامل التى أسهمت فى تكوين الصورة النمطية للإسلام والعرب فى وسائل الأعلام الغربى مثل العوامل النفسية والعداء للإسلام والشعور الغربى بالتفوق والعوامل السياسية كالرغبة فى الهيمنة وبسط النفوذ والأحداث السياسية المعاصرة وكذلك العوامل الأعلامية والمعايير الغربية للعمل الإعلامى والنفوذ الصهيونى فى وسائل الاعلام الغربى(١) .

وتدور « دراسة زياد أبو غنيمة » حول نفس الموضوع السابق وعنوانها « السيطرة الصهونية على وسائل الاعلام العالمية » إلا أنها أكثر شمولية من حيث عرضها لوسائل الإعلام ودورها وسيطرة القوى اليهودية عليها كما تعرضت لدوائر المعـــارف والقواميس والمراجع التى تشوه الصورة العربية(٢) .

وهناك دراسة تأخذ خطا عكسيا وهى دراسة حماد إبراهيم حامد حول « صورة الولايات المتحدة الأمريكية فى الصحافة المصرية اليومية » : دراسة مقارنة بين حقبتى الستينات والسبعينات(٣) يقارن فيها الباحث صورة إحدى القوتين العظميين بين فترتين سياسيتين مختلفتين وسيستعين الباحث بهذه الدراسات فى ثنايا هذه الدراسة .

٣ ـ تحديد المشكلة البحثية :

تم تحديد مشكلة الدراسة فى نقطتين :

الأولى : دراسة الصورة الذهنية لمصر بمجالاتها المختلفة والتى تحددت فى عشر مجالات طبقا للفئات المطروحة وهى « سياسية ـ اقتصادية ـ اجتماعيه ـ دينية ـ فنية ـ رياضية ـ أدبية ـ إعلامية ـ سياحية ـ علمية » وذلك فى عينة من إحدى عشرة مجلة عربية .

الثانية: تحدد الإطار الزمنى للدراسة فى شهور مارس وأبريل ومايو ـ ويونيو ١٩٩٣ م .

٤ ـ تساؤلات الدراسة :

طرح الباحث خلال هذه الدراسة عـــدداً من التساؤلات تجيب عليها « الدراسة التحليلية » كما يأتى :

(١) ما المساحة التى تناولت القضايا المصرية فى عينة الدراسة ؟

(٢) ما المجالات المختلفة التى شملتها صـــورة مصر الذهنية فى عينة الدراسة ؟

(٣) كيف تناولت عينة الدراسة الحياة الاجتماعية المصرية ؟

(٤) ماطبيعة الصورة الذهنية فى المجال الاجتماعى فى عينة الدراسة ؟

(٥) ما القضايا الدينية التى شملها المجال الدينى للصورة المصرية ؟

(٦) كيف تناولت عينـــة الدراسة القضايا الاقتصادية والسياسية المصرية ؟

(٧) ما المساحة التى شغلها المجال الفنى ؟ وما طبيعة الصورة فى هذا المجال ؟

(٨) ماطبيعة الصورة الذهنية المصرية بشكل عام (إيجابياتها وسلبياتها) ؟

عينـة الدراسة :

اختار الباحث إحدى عشرة مجلة عربية واسعة الانتشار تتميز بتناولها

لمجالات عدة وتستكتب عددا كبيرا من الأقلام العربية الشهيرة ولها تغطية جغرافية جيدة وتصل إلى القارىء العربى فى جميع الدول العربية وبعض البلدان الأوربية وفيما يلى تعريف بهذه المجلات :

(١) الحوادث : لبنانية (سياسية - جامعة) يطغى على قضاياها الطابع السياسى لكنها تفسح صفحاتها للمجالات الأخرى .

(٢) المجالس : كويتية . ورغم أنها تقول فى صفحتها الأولى أنها سياسية جامعة إلا أن الجانب الاجتماعى يطغى على موضوعاتها أكثر .

(٣) المجلة : تصدر فى لندن عن ناشرين سعوديين وهى مجلة سياسية تظهر فيها « صحافة الرأى » خاصة فى المجال السياسى إلا أن بها نسبة كبيرة من المجالات الأخرى .

(٤) الوطن العربى : لبنانية عامة يطغى عليها الطابع الاخبارى وتشتمل على قضايا أخرى اجتماعية ودينية وفنية .

(٥) الوسط : تصدر فى لندن . تتصدر صفحاتها الموضوعات السياسية مع إفساح المجال للموضوعات الأخرى وتصدر عن شركة الوسط المحدودة .بلندن .

(٦) الصياد : لبنانية . تركز على المجال الاجتماعى والفنى أكثر من باقى المجالات . تصدر عن شركة دار الصياد انترناشيونال بالتعاون مع شركة كوتتاكت (يوكى) ليمتد .

(٧) سيدتى : تصدر عن الشركة السعودية للأبحاث والتسويق البريطانية المحدودة وهى مجلة نسائية تولى اهتماما بالمرأة والحياة الاجتماعية والفنية .

(٨) الأسبوع العربى : لبنانية . تركز على القضايا السياسية بالدرجة الأولى مع افساح المجال لقضاية اجتماعية وفنية .

(٩) اليمامة : سعودية . اجتماعية ثقافية . يغلب عليها « الرأى » وتتعمق

فى الجوانب الثقافية والأدبية والفنية بالإضافة إلى الموضوعات السياسية .

(١٠) اقرأ : سعودية سياسية اجتماعية تصدر عن مؤسسة البلاد للطباعة والنشر وتتنوع موضوعاتها لتفسح المجال للعديد من القضايا كالثقافة والاقتصاد والصحة والأسرة ويقل فيها المجال الفنى بالمقارنة بباقى المجالات الأخرى .

(١١) الشرق الأوسط : تصدر فى لندن لناشرين سعوديين وهى مجلة سياسية يظهر فيها آراء الساسة والمفكرين فى القضايا الدولية والإقليمية بالإضافة إلى أبوابها الثابتة فى المجالات الأخرى

وقد تم اختيار خمسة أعداد من كل مجلة خلال شهور الدراسة حيث بلغ العدد الإجمالى ٥٥ نسخة اشتملت على ٤٨٧٦ صفخة . بلغ صافى عدد الصفحات بعد حذف صفحات الإعلان ٤١٨٦ صفحة . كما بلغ عدد الصفحات التى تناولت مصر فى عينة الدراسة ٥٤٤ صفحة . وسيناقش ذلك إجماليا فى ثنايا الدراسة .

٦ – نوع البحث ومنهجه :

ينتمى هذا البحث إلى البحوث الوصفية التى تركز على وصف طبيعة وسمات وخصائص مجتمع معين أو موقف أو جماعة أو فرد وتكرارات حدوث الظاهرات المختلفة(٤) ويهدف هذا البحث من خلال نوعه الوصفى إلى التعرف على العوامل والمتغيرات الرئيسية التى يمكن أن تؤثر فى عملية توصيل المعلومات والآراء وانسيابها داخل المجتمع والتى تحدد طبيعة ودرجة التدفق الاعلامى والتعرف أيضا على أنسب الأساليب والطرق والأنماط والرسائل التى يمكن استخدامها لتحقيق الوصول الإعلامى إما إلى قطاعات كبيرة عامة فى المجتمع أو قطاعات أخرى نوعية محددة بطريقة فعالة ومؤثرة(١) . ومن خلال الدراسة التحليلية سيتعرف الباحث على الصورة الذهنية لمصر التى تعكسها

إحدى وسائل الإعلام وهى المجلة من خلال أشكال وأنماط المعالجة الصحفية .

أما منهج الدراسة فسيكون منهج المسح بالعينة وذلك من خلال المسح لعينة الدراسة الممثلة للمجلات العربية والتعرف على محتواها كعينة ممثلة للمجتمع الكلى لإجمالى المجلات العربية .

٧ — أدوات جمع البيانات :

تعتمد هذه الدراسة على أداة تحليل المضمون . وهى كما ذهب « جانيس سنة ١٩٤٣ » أسلوب يستخدم فى تصنيف وتبويب المادة الأعلامية ، ويعتمد أساسا على تقدير الباحث أو مجموعة الباحثين ، ويتم بمقتضاه تقسيم المضمون إلى فئات بالاستناد إلى قواعد واضحة ، بافتراض أن تقدير القائم بالتحليل يتم على أساس أنه باحث علمى ، وتحدد نتائج تحليل المضمون تكرارات ظهور أو ورود وحدات التحليل فى السياق(٦) أما برلسون فيذهب عام١٩٥٢ وعام ١٩٧١ إلى أن (تحليل المضمون هو أحد الأساليب البحثية التى تستخدم فى وصف المحتوى الظاهر أو المضمون الصريح للمادة الأعلامية وصفا موضوعيا ، منتظما ، كميا)(٧) وعلى ذلك فإن الباحث قسم الدراسة التحليلية من خلال استمارة تحليل المضمون إلى فئات فرضتها طبيعة المادة المكتوبة فى عينة الدراسة . وقد تم تقسيم التحليل إلى نوعين أحدهما كمى يعكس الصورة الذهنية بقضاياها المختلفة فى صورة أرقام واحصاءات وثانيهما كيفى لتحليل هذه الأرقام والربط بينهما وبين طبيعة الوسيلة والقائم بالاتصال من كتاب ومراسلين ومحررين وغيرهم والتوصل إلى نتائج من خلال التحليل النهائى تغطى المحصلة النهائية لصورة مصر فى المجلات العربية .

٨ — تقسيم الدراسة :

تم تقسيم الدراسة إلى ما يأتى :

أولا : مشكلة البحث ومنهجه وتشتمل على مدخل إلى دراسة المشكلة :

ـ الدراسات السابقة ـ تحديد المشكلة ـ تساؤلات الدراسة ـ عينة الدراسة ـ نوع البحث ومنهجه ـ أدوات جمع البيانات .

ثانيا : الإطار الفكرى للدراسة . ويشتمل على ماهية الصورة الذهنية ـ مفاهيم الصورة الذهنية ـ وسائل الأعلام والصورة الذهنية .

ثالثا : الصورة الذهنية لمصر فى المجلات العربية (الدراسة التحليلية) وتشمل : المساحة التى تناولتها المجلات العربية (العينة) عن مصر ـ مجالات الصورة المصرية فى المجلات العربية (المجال الفنى الدينى ـ الاجتماعى ـ السياسى ـ الأدبى ـ العلمى ـ الرياضى ـ الاقتصادى ـ الأعلامى ـ السياحى) ـ طبيعة كل مجال سلبا وإيجابا .

رابعا : مناقشة الدراسة : وتشمل إيجابيات وسلبيات الصورة ـ ضوابط نقل الصورة المصرية (توصيات) .

ثانيا : الإطار الفكرى للدراسة

١ - ماهية الصورة الذهنية :

بدأ استخدام مصطلح الصورة الذهنية Image عندما أصبح لمهنة العلاقات العلاقات العامة تأثيرا كبيرا على الحياة الأمريكية مع بداية النصف الثانى من هذا القرن . وقد كان لظهور كتاب « تطوير صورة المنشأة » للكاتب الأمريكى لى بريستول Bristol فى عام ١٩٦٠ أثر كبير فى نشر مفهوم صورة المنشأة بين رجال الأعمال . وما لبث هذا المصطلح أن تزايد استخدامه فى المجالات التجارية والسياسية والأعلامية والمهنية . وقد تبلور هذا المصطلح فى مجال العلاقات الدولية بشكل واضح فى عام ١٩٦٥ حينما ظهر كتاب « السلوك الدولى » الذى اشترك فى تأليفه هربرت كلمان مع مجموعة من زملائه من علماء النفس والباحثين فى مجال العلاقات الدولية(٨) .

وقد اهتمت الدراسات السياسية والأعلامية بصورة القيادات السياسية فى بعض الشعوب وتأثيرها على صورة الشعب الذى تنتمى إليه من ناحية وتأثيرها على السلوك من ناحية ثانية . كما اهتمت الدراسات الأعلامية بدراسة صورة قطاعات المجتمع المختلفة من خـــلال مايقدم فى وسائل الاتصال الجماهيرية أو من خلال ماتعبر به الجماهير عن انطباعاتها إزاء هذه القطاعات(٩) .

وترتبط الصورة الذهنية بحاجة بشرية وجدت لدى الإنسان منذ بداية بدايته وجوده وذلك لأن البيئات الإنسانية العامة بيئات شديدة التعقيد ويصعب الإلمام بكل أطرافها اتساقا مع محدودية قدرات وامكانات الإنسان فى إطار التفكير وتخزين المعلومات ولكى يستطيع الإنسان أن يتغلب على محدودية امكاناته لابد من أن يكون لنفسه تصورات عن كل أجزاء تلك البيئة، بمعنى وضع تصور ذهنى تقريبى لواقع البيئة الأصلى يستطيع من خلاله أن يفهم الواقع ويحدد موقفه منه . ومن هنا سعى الإنسان إلى تصنيف الناس والأشياء فى هذا الإطار إلى مجموعات معينة يتصرف معها كمجموعات تتصل بخصائص مميزة(١٠) .

ويمكن القول إن الصورة الذهنية غالبا ماتكون بعيدة عن الحقيقة ، أما نتيجة للحذف والرغبة فى الاختصار أو للإضافة بالاستنتاج الخاطىء أو التحيز والتشويه المتعمد ، أو للفاصل الزمنى الذى قد يفصل بين وقوع الحدث وبين تدفق المعلومات بشأن تطوراته . وبالإضافة إلى ذلك ثمة عوامل تؤدى أحيانا إلى تباعد الصورة الذهنية عن الواقع من أهمها وجود الرقابة الحكومية على وسائل الأعلام فى بعض الدول والعقبات المادية والتعليمية والاجتماعية والنفسية التى قد تحول دون وصول المعلومات إلى الجمهور . هذا بالإضافة فى أحيان أخرى كثيرة إلى غموض الأحداث نفسها وتعقيدها مما يؤثر فى القدرة على استيعاب تفصيلاتها وبالتالى لا تصل

المعلومات الكافية أو الصحيحة التى يحتاج الفرد إليها لتكوين الأفكار ، فتتكون بدلا منها صورا ذهنية وأخيلة هى التى تهيمن على تفكير الفرد وسلوكه(١١) .

وقد أثبتت الدراسات النفسية والاجتماعية أن تكوين الصورة الذهنية من العمليات المعقدة التى تخضع لتفاعل العديد من العوامل النفسية والاجتماعية كما أثبتت الدراسات العديدة التى أجريت فى مجال علوم الاتصال أن تأثير الاتصال فى تكوين أو تعديل الصورة الذهنية لا ينفصل عن الأوضاع النفسية والاجتماعية التى يعمل فى ظلها هذا الاتصال ، فالممارسات السليمة والسلوك المستقيم والأفعال الطيبة التى تتدعم ويتسع نطاقها بين الجماهير من خلال قادة الرأى ، والجماعات التى ينتمى إليها الفرد وتؤثر عليه تأثيرا قويا ، وأيضا من خلال وسائل الاتصال الجماهيرية(١٢) كما أن هنـــاك عوامل شخصية مرتبطة بالعوامل الجسمية والفسيولوجية مثل الصحة والجهاز العصبى والحواس والعوامل العقلية المعرفية مثل الذكاء والقدرات والتحصيل والاستعداد والتفكير والانتباه والعوامل الاجتماعية مثل المناخ الاجتماعى والذكاء الاجتماعى والتنشئة الاجتماعية والمعايير والاتجاهات والأدوار . والعوامل الإنفعالية مثل الثبات الإنفعالى أو عدمه أو الحب والكره ومن عوامل المجال النفسى الشخصيات سواء كانوا أفراد أو جماعات ، والثقافة المادية ، وغير المادية وغير ذلك من عوامل مثل مرحلة النمو والنضج النفسى والمهنة والخبرات(١٣) .

٢ — مفاهيم الصورة الذهنية :

يختلف الباحثون فى استخدام المصطلح الدال على مفهوم تكوين الصور فى مختلف مناحى الحياة . فبينما يستخدم بعض الباحثين كلمة « الصورة الذهنية » يلجأ بعضهم الآخر إلى كلمة « الصورة النمطية » ويفضل فريق ثالث

استخدام « الصورة المنطبعة » ويرى فريق رابع أن كلمة « الصورة المقولبة » أدق دلالة على المراد(١٤) .

ولعل مصطلح « الصورة المنطبعة » Stereo type, هو أقدم المصطلحات وهو يعني اللون المعدني الذي يستخدم لطبع آلاف النسخ أو الصور المتطابقة دون حاجة إلى تغييره وهو معنى مستمد من لغة تكنولوجيا الطباعة ومنه نستنتج أن الصورة المنطبعة هي شيء متكرر على نحو لا يتغير أو هي متطابقة لأصل ثابت بصرف النظر عن ماهية هذا الأصل ولذلك تعوز الصورة المنطبعة السمات الفردية المميزة(١٥) . وقد كان المعلق السياسي الأمريكي الشهير « والترليبمان » أول من أدخل هذا المصطلح Stereo type في مجال العلوم الاجتماعية في كتابه الرأي العام عام ١٩٢٢ . وقد عرفها بأنها الصورة المشتركة التي يحملها عدد من الأفراد والتي تتشكل غالبا من رأي ملخص أو ناقص أو مبتور أو قد يظهر من خلال موقف عاطفي تجاه شخص أو قضية أو حدث ما ١٦) .

ويعرف أسعد رزق Stereo type فيقول « أن الأصل في معنى هذه الكلمة الشيء المكرر على نحو مطرد على وتيرة واحدة لا تتغير ويسمى نمطا ، والنمط يطلق على الصورة العقلية التي يشترك في حملها واعتناقها أفراد جماعة معينة »(١٧) .

أما مصطلح الصورة الذهنية أو النمطية Image فيعني طبقا لقاموس وبستر « التقديم العقلي لأي شيء لا يمكن تقديمه للحواس بشكل مباشر أو هي إحياء أو محاكاة لتجربة حسية كما أنها قد تكون تجربة حسية ارتبطت بعواطف معينة وهي أيضا استرجاع لما اختزنته الذاكرة أو تخيل لما أدركته حواس الرؤية أو السمع أو اللمس أو الشم أو التذوق »(١٨) .

ويرى الدكتور على عجوة أن « الصورة الذهنيـــة هي الناتج النهائي للانطباعات الذاتية التي تتكون عند الأفراد أو الجماعات إزاء شخص معين،

أو نظام ما ، أو شعب أو جنس بعينه ، أو منشأة أو مؤسسة أو منظمة محلية أو دولية أو مهنة معينة ، أو أى شيء آخر يمكن أن يكون له تأثير على حياة الإنسان . وتتكون هذه الانطباعات من خلال التجارب المباشرة وغير المباشرة وترتبط هذه التجارب بعواطف الأفراد واتجاهاتهم وعقائدهم وبغض النظر عن صحة أو عدم صحة المعلومات التى تتضمنها خلاصة هذه التجارب فهى تمثل بالنسبة لأصحابها واقعاً صادقا ينظرون من خلاله إلى ما حولهم ويفهمونه أو يقدرونه على أساسها(١٩) .

ويتفق الباحث مع وجهة نظر عبد القادر طاش بأنه يمكن الخلوص إلى القول بأن كلمتى Stereo type,Imgea تشتركان فى دلالتهما على الصور الذهنية ولكن كلمة Image تعنى مطلق الصورة الذهنية عن الحياة والأشخاص والأشياء فهى أعم وأشمل من كلمة Stereo type كما أنها لا تعنى الثبات والجمود بل يمكن أن تتغير وتتبدل . أما كلمة Stereo type فهى أكثر خصوصية فى دلالتها على الصور الذهنية الثابتة والتى تتسم بالجمود والتبسيط المفرط. وغالبا ماتعد stereo tyde مرحلة لاحقة من مراحل تكون الصور الذهنية لدى الإنسان عن الأشخاص والأقوام والأشياء(٢٠) .

وفى إطار الاهتمام بالصورة الذهنية التى تتكون لدى الأفراد والشعوب بعضها عن بعض تبلور فى الآونة الأخيرة استخدام مصطلح متصل بهذا المفهوم هو مصطلح National Image أى الصورة القومية الذهنية وقد برز هذا المصطلح مع تزايد الدراسات التى تتناول صور الدول والشعوب فى وسائل الاعلام الحديثة(٢١) .

وقد حظيت بالصورة القومية باهتمام الباحثين فى الدراسات النفسية والاجتماعية لمعرفة أثرها على السلوك الإنسانى وكذلك فهم وتفسير العلاقات بين الدول المختلفة . فقد أتضح أن عددا كبيرا من صناع القرار لا يستجيبون للحقائق الموضوعية للمواقف بقدر مايخضعون لتأثير مالديهم من صور عن

وعن العالم الذى يتعاملون معه . وهذا يفسر العلاقة الوثيقة بين الصورة والقرار ، فالصورة هى الإطار النفسى العام لاتخاذ القرارات ، أو هى البيئة النفسية التى تتم فيها عملية صنع القرار . وإذا كانت الصورة الذهنية تلعب دورا هاما فى معرفة السلوك المتوقع تجاه كل منها من جانب أفراد المجتمع ، فإن صورة الدولة أو مجموعة الدول التى تجمعها مجموعة من الخصائص المشتركة تؤثر هى الأخرى على سلوك المجتمع الدولى نحو هذه الدولة أو تلك الدول(٢٢) .

٣ — وسائل الأعلام والصورة الذهنية :

تستطيع وسائل الأعلام من خلال ماتقدمه من موضوعات تتصل بأنماط الحياة فى المجتمعات الأخرى ، أن تنقل الأفراد من عالمهم المحدود إلى عالم أوسع وأرحب . ويؤدى هذا الانتقال إلى معرفة هؤلاء الأفراد بأساليب الحياة فى بعض المجتمعات المتقدمة فينمو لديهم الاستعداد للأخذ عنها ، كما تنمو عندهم القدرة على التقمص الوجدانى Empathy أى القدرة على تصور الفرد لنفسه فى ظروف الآخرين أو تصوره لدوره وأدوار الآخرين فى المجتمع(٢٣) .

ويرى مارشال ماكلوهان أن وسائل الأعلام التى يستخدمها مجتمع ماتحدد إلى حد كبير طبيعة وكيفية معالجته لمشاكله ، كما تؤثر وسيلة الأعلام على الظروف البيئية المحيطة بالأفراد الذين يعيشون فى ظل ظروف متشابهة فهى تؤثر على طريقة تفكيرهم ومعرفتهم بالآخرين وتصوراتهم عن العالم الخارجى وكذلك فيما يقرأون ويسمعون ويشاهدون عما حولهم وعما هو بعيد عنهم من بيئات أخرى(٢٤) .

ولا يقف دور وسائل الأعلام على خلق الصور الذهنية والأنماط لدى جماهيرها بل أنها قد تقوم بتضخيم هذه الصور بدرجة كبيرة وبطبعها بقوة فى

أذهانهم إلى حد أن القارىء أو المشاهد أو المستمع يشعر فى أحيان كثيرة أنه التقى فعلا بالشخصيات التى تتناولها وسائل الإعلام على الرغم من أنه لم يقابلها قط أو يشعر أنه شاهد فعلا أو شارك فى الأحداث المطروحة على الرغم من أنه لم يشارك فيها قط بل أن « الفين توفلر » مثلا يؤكد فى كتابه صدمة المستقبل « إننا ننشىء علاقات مع هؤلاء الأشخاص المعنويين كما ننشىء علاقات مع أصدقائنا وجيراننا ومن ثم فإن هذه الشخصيات تلعب دورا هاما فى حياتنا إذ أننا نأخـــذ عنها أنماطا معينة من السلوك ونستنتج منها دروسا ، ونقوم بتقليدها سواء كنا نعى ذلك أو لا نعيه »(٢٥) .

وعلى النطاق القومى يرى Herbert Schiller إن مسئولى وسائل الإعلام الأمريكية يقومون بوضع أسس عملية نشر وتداول « الصور والمعلومات» ويشرفون على معالجتها وتنقيحها وأحكام السيطرة عليها ، تلك الصور والمعلومات التى تحدد معتقداتنا ومواقفنا ، بل وتحدد سلوكنا فى النهاية . وعندما يعمد مديرو أجهزة الإعلام إلى طرح أفكار وتوجيهات لا تتطابق مع حقائق الوجود الاجتماعى ، فإنهم يتحولون إلى « سائسى عقول » . ذلك أن الأفكار التى تنحو عن عمد إلى استحداث معنى زائف ، وإلى إنتاج وعى لا يستطيع أن يستوعب بإرادته الشروط الفعلية للحياة القائمة أو أن يرفضها، سواء على المستوى الشخصى أو الاجتماعى ، ليست فى الواقع سوى أفكار مموهة أو مضللة »(٢٦) .

وترى الدكتورة جيهان رشتى أن « اعتمادنا على وسائل الإعلام فى الحصول على قدر كبير من معلوماتنا كثيرا ما يجعلنا نحصل من تلك الوسائل على معلومات محرفة غير دقيقة وصور منطبعة أو أنماط محرفة أو صور متميزة لجانب معين من جوانب الظروف المحيطة . وإذا عجز المتلقى عن قياس دقة هذه الصورة بمقارنتها بمستوى آخر معين غير الوسائل الإعلامية ، حينئذ يصبح التصور الذى يبنيه الفرد محرفا ونمطيا ومتحيزا . وعلى سبيل المثال كان

من الصعب منذ سنوات قليلة مضت أن نجد أوربيين لا ينظرون إلى الولايات المتحدة إلا على أنها أرض رعاة البقر والهنود الحمر ومأوى لرجال العصابات وصديقات اللصوص من السيدات سيئات السمعة وهو تصور قام أو تم بناؤه أساسا من أفلام هوليود »(٢٧).

وتؤكد لنا عدة دراسات حول صورة العرب والمسلمين كما صورتها وسائل الإعلام الأمريكية والأوربية من خلال صنع صور نمطية سيئة للإسلام والعرب حيث يتعرضان لتشويه متعمد من خلال وسائل الإعلام وهو تشويه إستخدم الوسائل كلها من كتب وصحافة وأذاعة ومسرح وقصة وشعر ومن خلال جميع الأشكال الإعلامية من حوار وخبر وتعليق وكاريكاتير ومسلسلات ويمتد إلى كل قطاعات المجتمع »(٢٨).

وعلى الرغم من كل هذه الانتقادات وغيرها لوسائل الإعلام إلا أنها لازالت المصدر الأساسى الذى يستقى منه الفرد فى جميع انحاء العالم معلوماته وتصوراته عن البيئة المحيطة والبيئة الخارجية من شعوب وأمم وقد لخص أحد الباحثين ذلك من خلال النتائج التالية(٢٩):

(١) أن الوسائل الإعلامية أصبحت فى عصرنا مصدرا يستقى منه الفرد معلوماته ومعارفه عن العالم المحيط. وقد كان ذلك أحد الموضوعات التى شغلت المهتمين بقضايا الأعلام فى دول مختلفة، ففى دراسة أجريت عام ١٩٧٧ على العينة القومية الأمريكية تبين آن ٩٥٪ من أفراد العينة أجابوا عن السؤالى الأول: من أين حصلت على معلوماتك حول مايدور فى العالم؟ بأنهم حصلوا عليها من وسائل الأعلام.

(٢) إن وسائل الأعلام لم تعد أدوات لنقل المعلومات ولكنها أصبحت أدوات لتوجيه الأفراد والجماعات وتكوين مواقفهم الفكرية والاجتماعية، ولذلك فإن مايقرب من ٧٠٪ من الصورة التى يبنيها الإنسان لعالمه مستمدة

من وسائل الأعلام المختلفة ، ومما يعزز دور وسائل الأعلام فى هذا المجال.
إنها تسهم بدور أساسى فى خلق وتكوين مايسمى بـ « بيئة الرأى » .

(٣) إن وسائل الأعلام قد دخلت مرحلة جديدة يسودها التنافس الشديد بينها وبين المؤسسات التعليمية فيما يتعلق بالدور التربوى والأثر التعليمى الذى يمثل نتاجا لكافة مظاهر الانتاج الثقافى أو الفكرى التى تتولى نشرها بين الجماهير على اختلاف فئاتها بدءا بالأطفال ومرورا بالشباب وانتهاء بكبار السن من الجنسين .

الصورة الذهنية لمصر فى المجلات العربيه

« الدراسة التحليلية »

تولى الصحافة العربية اهتماما واسعا للأحداث المصرية سواء تمثل ذلك فى الأخبار أو الأحاديث أو التحقيقات الصحفية أو الأعمدة وغيرها من القوالب الصحفية المعروفة فى شتى المجالات سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو فنية أو أدبية وغيرها . ويرجع ذلك الاهتمام إلى عدة عوامل فرضتها الظروف والطبيعة المصرية أهمها :

(١) ثقل مصر التاريخى الذى أعطاها خبرة كبيرة فى التعامل مع العديد من الحضارات والثقافات المختلفة التى احتكت بها عبر تاريخها الطويل .

(٢) دور مصر السياسى فى عمليات السلام فى المنطقة وريادتها فى الدفاع عن الحق العربى وتنقية الاجواء العربية وتبنى قضايا العالم الإسلامى .

(٣ التغيرات التى سادت الحياة الاجتماعية فى مصر أبان العقدين الأخيرين وما نتج عن ذلك من مشاكل اجتماعية على مستوى الأسرة المصرية وكذلك الطبقات الاجتماعية المختلفة والذى أصبح مادة رئيسة تتناولها الصحافة العربية اليومية والأسبوعية .

(٤) ريادة مصر للمجال الدينى بما تضمه من مؤسسات دينية لها ثقلها فى العالمين العربى والإسلامى وكذلك التطورات التى حدثت أخيرا فى هـــذا المجال فيما أطلق عليه « التطرف الدينى » وماسمى « بالجماعات الإسلامية المتطرفة » خلال العامين الأخيرين جعل الصحافة العربية وخاصة المجلات تسلط الأضواء على العديد من الأحداث الخاصة بذلك تظهر أحيانا قوة

الدولة فى السيطرة على ماسمى « بالتطرف » وتظهر أحيانا أخرى ماسمى « بالجماعات المتطرفة » وقوتها ومناوءتها للدولة والحكومة .

(٥) ريادة مصر للحياة الفنية فى العالم العربى من مسرح وتليفزيون وسينما وما تضمه مصر من العديد من رجال الفن ممثلين وممثلات وكتاب ومخرجين ونقاد وفنيين وغيرهم وتعلق الملايين من الوطن العربى بهم وبأخبارهم جعلت المجلات العربية تسلط الأضواء بقوة على هذا المجال رغم مالاحظه الباحث من انتقادات للتغطية الصحفية له والإساءة فى كثير من الأحيان لصورة مصر من خلاله .

وفيما يلى يستعرض الباحث نتائج الدراسة التحليلية لصورة مصر فى عينة من المجلات العربية « أحدى عشرة مجلة » :

جدول رقم (١)

المساحات التى تناولت مصر فى عينة المجلات العربية

المساحة / المجلة	إجمالى عدد الصفحات	عدد صفحات الأعلان	صافى عدد الصفحات	عدد الصفحات التى تناولت مصر	٪
١ - المجالس	٥٠٦	٧١	٤٣٥	١٠٠	٢٣ ٪
٢ - سيدتى	٦٦٦	٢٣١	٤٣٥	٨٢	١٩ ٪
٣ - الوسط	٤٩٠	٣٨	٣٥٢	٧٦	١٦ر٨ ٪
٤ - الوطن العربى	٣٥٦	٥١	٣٠٥	٤٦ر٥	١٥ر٢ ٪
٥ - الأسبوع العربى	٣٢٠	٢٨	٢٩٢	٣٨	١٣ ٪
٦ - الشرق الأوسط	٤٠٠	١٠٤	٢٩٦	٣٤	١١ر٥ ٪
٧ - الصياد	٣٦٠	٦١	٢٩٩	٣٣ر٥	١١ر٢ ٪
٨ - اليمامة	٥٠٦	٦٥	٤٤١	٤٦ر٥	١٠ر٥ ٪
٩ - المجلة	٤٨٠	١٢٠	٣٦٠	٣٧ر٥	١٠ر٤ ٪
١٠- اقرأ	٤٠٠	٥٢	٣٤٨	٢٢ر٥	٦ر ٦ ٪
١١- الحوادث	٣٩٢	١٣٩	٢٥٣	٣٧ر٥	١٠ر٨ ٪
إجمالى	٤٨٧٦	٩٦٠	٣٩١٦	٥٤٤	١٣ر٩ ٪

أولا ـ المساحة التى تناولت مصر فى عينة الدراسة :

بلغت المساحة الإجمالية للمجلات الإحدى عشرة التى تم اختيارها كعينة ممثلة للمجلات العربية ٤٨٧٦ صفحة وبعد حذف صفحات الإعلانات والتى بلغت ٩٦٠ صفحة أصبح صافى عدد الصفحات ٣٩١٦ صفحة طبقا للجدول رقم (١) حيث بلغ عدد الصفحات التى تناولت قضايا مصرية فى المجلات المختلفة ٥٤٤ صفحة بنسبة ١٣ ٪ من إجمالى صافى عدد صفحات العينة .

وقد ركزت المجلات العربية على قضايا مصر بشكل واسع مثل :

١ ـ المجالس الكويتية حيث بلغت مساحة مصر فيها ١٠٠ صفحة بنسبة ٣٣ ٪ .

٢ ـ سيدتى « لندن » « ناشرين سعوديين » حيث بلغت مساحة مصر فيها ٨٢ صفحة بنسبة ١٩ ٪ .

٣ ـ الوسط « لندن » « ناشرين سعوديين » حيث بلغت مساحة مصر فيها ٤٦٫٥ صفحة بنسبة ١٦٫٨ ٪ .

٤ ـ الوطن العربى «لبنانية» حيث بلغت مساحة مصر فيها ٤٦٫٥ صفحة بنسبة ١٥٫٢ ٪ .

٥ ـ الأسبوع العربى « لبنانية » حيث بلغت مساحة مصر فيها ٣٨ صفحة بنسبة ١٣ ٪ .

ثانيا ـ مجالات الصورة المصرية فى المجلات العربية :

تم تقسيم مجالات صورة مصر فى المجلات العربية إلى عشر فئات طبقا لما توصل إليه التحليل من خلال الموضوعات المطروحة .

وقد تمثلت تلك المجالات كما يوضح الجدول رقم (٢) حسب عدد الصفحات التى احتلتها إلى :

١ ـ المجال الفنى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٢٠٩ صفحة بنسبة ٣٨ر٤ ٪ .

٢ ـ المجال الدينى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ١٠٦ صفحة بنسبة ١٩ر٥ ٪ .

٣ ـ المجال الاجتماعى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٨٢ صفحة بنسبة ١٥ر١ ٪ .

٤ ـ المجال السياسى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٥١ر٥ صفحة بنسبة ٩ر٤٧ ٪ .

٥ ـ المجال الأدبى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٣٦ صفحة بنسبة ٦ر٦ ٪ .

٦ ـ المجال العلمى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٢٥ صفحة بنسبة ٤ر٦ ٪ .

٧ ـ المجال الرياضى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ١٦ صفحة بنسبة ٢ر٩ ٪ .

٨ ـ المجال الاقتصادى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ١٤ صفحة بنسبة ٢ر٥٧ ٪ .

٩ ـ المجال الأعلامى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته ٣ر٥ صفحة بنسبة ٠ر٦ ٪ .

١٠ ـ المجال السياحى : وقد بلغت عدد الصفحات التى تناولت موضوعاته صفحة واحدة بنسبة ٠ر٢ ٪ .

جدول رقم (٢)

مجالات الصورة المصرية فى المجلات العربية

المجال المساحة	المجال الفنى	المجال الدينى	المجال الاجتماعى	المجال السياسى	المجال الأدبى	المجال العلمى	المجال الرياضى	المجال الاقتصادى	المجال الإعلامى	المجال السياحى	إجمالى
ك(*)	٢٠٩	١٠٦ر٥	٨٢	٥١ر٥	٣٦	٢٥	١٦	١٤	٣ر٥	١	٥٤٤
٪	٣٨ر٤	١٩ر٥	١٥ر١	٩ر٤٧	٦ر٦	٤ر٦	٢ر٩	٢ر٥٧	ر٦	ر٢	١٠٠

(*) ك : تعنى فى جميع جداول هذه الدراسة المساحة (عدد الصفحات) فى المجلات .

وقد لوحظ من استقراء الجدول السابق أن هناك مجالات حيوية تشغل بال المواطن المصرى وتهدد حياته اليومية مثل الظروف الاقتصادية والمعاناة التى تواجهها الحكومة يومياعلى النطاق العالمى والمحلى ولم تلق التغطيةاللازمة لها فى المجلات العربية . كذلك القطاع السياحى وإظهار صورة مصر السياحية بشكل يتلاءم مع بلد تملك ٧٥ ٪ من آثار العالم إلى جانب عوامل الجذب السياحية الأخرى إلا أنها لم تلق من التغطية إلا ثلاث صفحات أى ٢ر٠ ٪ من إجمالى موضوعات الصورة المصريةفىالوقت الذى امتلأت أغلفة المجلات وصفحاتها بأخبار الممثلين وأنصاف المطربين والذى سيتضح تفصيلامنخلال جداول الدراسة التحليلية .

وفيما يلى تفصيل لكل مجال من مجالات الصورة على حدة وقد تم ترتيبها طبقا لحجم المساحة التى احتلتها على الوجه التالى :

١ — المجال الفنى :

على الرغم من أن مصر تعتبر من الدول العربية الرائدة فىمجالات الفنون الرفيعة لسنوات طويلة أفرزت خلالها مجموعة من رجالات ونساء الفن فى أشكاله المختلفة ، حتى أن كثيرا من أهل الفن العرب كانوا يأتون إلى القاهرة للحصول على شهادة الشهرة والانتشار فى أنحاء الوطن العربى والعالم . إلا أن السنوات الأخيرة شهدت دخول فئات عديدة غير مؤهلة لتمثيل مصر فنيا . وقد انعكس ذلك من خلال هذه الدراسة التحليلية لعينة من إحدى عشرة مجلة عربية حيث يبين الجدول رقم (٣) أنهذه المجلات اهتمت كثيرابصغار الممثلين والمطربين والراقصات وفتيات الإعلان ليس لهن أى اسهامفىالحياة الفنية سوى الظهور فى مشهد أو جزء من عمل فنى يتلوه ظهورهن على أغلفة المجلات وموضوعاتها الرئيسية يتحدثن عن أمجادهن وبطولاتهن بل ويتجرأن على قمم الفن فى مصر بالنقد والملاحظات . ولعل ذلك فى رأى الباحث من الأمور التى تسىء إلى سمعة مصر خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار عوامل الابراز

التى تصاحب هذه الموضوعات من صور خليعة وعبارات لا تتفق مع الانساق القيمية المصرية .

وقد تمثل هذا من خلال التحليل فيما يأتى طبقا للجدول رقم (٣) :

(١) تم التركيز على السيرة الذاتية لممثلين وممثلات ومطربين ومطربات مغمورين وكذلك الراقصات من خلال مساحة ثمان وثمانين صفحة بنسبة ٤٢ ٪ من إجمالى صفحات المجال الفنى .

(٢) مناقشة أسباب انهيار بعض الفنون المصرية من خلال مساحة ١٧٫٥ صفحة بنسبة ٨٫٤ .

(٣) احتلت مناقشة القضايا الاجتماعية برؤية فنية من خلال عرض أعمال فنية ونقدها لمشاكلنا الاجتماعية ٤ صفحات بنسبة ١٫٩ ٪ وهو رقم متواضع للغاية إذا قورن بالتركيز على أخبار المغمورين من أهل الفن .

(٤) كانت الصورة الطيبة للمجال الفنى المصرى تتمثل فى تشجيع الفن المصرى من خلال موضوعات تطرح الرؤية المصرية والعربيـــة للأعمال المصرية الفنية حيث احتل ذلك ٥٧٫٥ صفحة بنسبة ٢٧٫٥ ٪ . كذلك تكريم الفنان المصرى من خلال تسليط الأضواء على السير الذاتية وأعمال كبار أهل الفن المصرى فى مختلف فروعه حيث بلغت مساحته ٢٥ صفحة بنسبة ١٢ ٪ .

(٥) من قضايا المجال الفنى ماواكب هذه الفترة من اعتزال عدد من الممثلات والمطربات لعملهن الفنى فيما سمى « الفنانات المعتزلات » وقد تحفظت بعض المجلات فى مجرد سرد قصة بعضهن بينما أجرت بعض المجلات الأخرى أحاديث صحفية معهن للتعرف على أسباب اعتزالهن العمل الفنى حيث بلغ ذلك مساحة ١٧ صفحة بنسبة ٨٫١ ٪ .

جـــدول رقم (٣)
قضايا المجال الفنى المصرى فى المجلات العربية

المجال الفنى للمساحة	التركيز على السيرة الذاتية للمغمورين من أهل الفن	تشجيع الفن المصرى	تكريم الفنان المصرى	مناقشة أسباب انهيار بعض الفنون العربية	قضايا الممثلات المعتزلات	قضايا اجتماعية برؤية فنية	إجمالى
ك	٨٨	٥٧ر٥	٢٥	١٧ر٥	١٧	٤	٢٠٩
٪	٤٢	٢٧ر٥	١٢	٨ر٤	٨ر١	١ر٩	١٠٠

طبيعة الصورة فى المجال الفنى :

يتبين من خلال الجدول السابق أن الجانب السلبى فى الصورة الذهنية فى المجال الفنى هو التركيز على السير الذاتية للمخمورين من أهل الفن (٨٨ صفحة — ٤٢ ٪) وما صاحبه من صور مثيرة تسىء إلى صورة مصر فى إجمالها — أما الجانب الإيجابى فقد احتل ١٢١ صفحة بنسبة ٥٨ ٪ وقد اشتمل على باقى موضوعات الجدول السابق .

٢ — المجال الدينى :

تصدرت القضايا الدينية الموضوعات الرئيسية فى عدد من المجلات العربية بل وظهرت على أغلفة هذه المجلات بعناوين وصور بارزة وسيطرت موضوعات مايسمى « بالتطرف الدينى » وما يسمى « بالجماعات الإرهابية » على نسبة كبيرة من موضوعات المجال الدينى .

وقد كان لعامل البعد الزمنى أثر كبير فى احتلال المجال الدينى مساحة ١٠٦٫٥ صفحة وتصدره مقدمه المجالات من حيث اهتمام المجلات العربية به فقد شهدت مصر خلال هذه الفترة أحاديث دينية كبيرة تمثلت فى الصراع القائم بين مايسمى « بالجماعات الإسلامية »(*) وبين الحكومة .

وقد ظهرت قضايا المجال الدينى فى عينة الدراسة من خلال عدة قضايا فرضت نفسها على المجلات الأسبوعية وجاءت طبقـــا للجدول رقم (٤) كما يأتى :

(أ) إظهار قوة مايسمى بالجماعات الإسلامية فى مواجهة الحكومة :

والمقصود به مجموعة الرسائل الإخبارية من أخبار وأحاديث وتحقيقات

(*) استخدام الباحث مصطلح « مايسمى » حتى لا يكون هناك تحيز فى تناول هذه القضية وألفاظ الجماعات المتطرفة أو الجماعات الإسلامية أو غيرها تعنى مسميات واحدة فى الدراسة وهى الجماعات التى استخدمت العنف فى مواجهة الحكومة .

صحفية تظهر نتائج عمليات هذه الجماعات العسكرية وقوة زعمائها وقادتها فى السيطرة على اتباعها وتنفيذ عمليات تقوض سلطة الحكومة وقد احتلت هذه القضية مساحة ٤٥ صفحة من إجمالى ١٠٦ر٥ صفحة للمجال الدينى بشكل عام أى بنسبة ٤٢ر٣ ٪ . وفيما يلى أمثلة تطبيقية لعناوين هذه القضية التى احتلت معظمها أغلفة المجلات والموضوعات الرئيسية .

ـ خرج لأداء العمرة ففر إلى أمريكا عبر السودان .

عمر عبد الرحمن مفتى الجماعة !

كفر عبد الناصر وأباح قتل السادات وحلل سرقة الذهب .

« المجلة ١٧ مارس ١٩٩٣ م »

ـ الأصوليون يعلنون حربا لعشرات الأعوام .

« الأسبوع العربى ١٢ أبريل ١٩٩٣ م »

ـ عمر عبد الرحمن يتحدث إلى الوسط :

الحكومة هى التى تساعد على الإرهاب .

« ٢١ مارس ١٩٩٣ م »

ـ لغز العلاقة بين عمر عبد الرحمن وأمريكا والمتطرفين .

« الوسط ١٩٩٣/٥/٢٣ م »

ـ جماعة الجهاد تهدد باغتيال بطرس غالى .

« المجلة ١٩٩٣/٣/٢٤ م »

ـ رسالة ملغمة من الإرهابيين للشرطة المصرية .

ـ سيارة الأزبكية المفخخة تفجر مرحلة جديدة فى مواجهة التطرف .

« الحوادث »

(ب) كيفية مواجهة الإرهاب :

ويقصد بها مجموعة المواد الصحفية التى تنـــاولت ظاهرة ما يسمى

بالإرهاب أو بالتطرف وطرحت آراء للجماعات المرجعية الدينية وغير الدينية لمعالجة هذه الظاهرة .

وقد بلغت مساحة هذه القضية ٢٦٫٥ صفحة بنسبة ٢٤٫٩ ٪ .

(ج) الدعوة إلى العبادات وتعليمها :

ويقصد بها مجموعة من المقالات لكبار العلماء المصريين فى مجال الدعوة الإسلامية يطغى على كتاباتهم الطابع التعليمى من فتـــاوى والرد على أسئلة القراء .

وقد بلغت مساحة هذه القضية ١٩٫٥ صفحه بنسبة ١٨٫٣ ٪ .

(د) إظهار قوة الحكومه فى مواجهه مايسمى بالتطرف :

ويقصد بها المواد الصحفيه التى أظهرت قوة الحكومه متمثلة فى سيطرة الشرطه على الجماعات الإسلاميه والتصدى لها .

وقد بلغت مساحه هذه القضيه ١١٫٥ صفحه بنسبه ١٠٫٨ ٪ .

وفيما يلى بعض العناوين التى تدل على ذلك من عينه الدراسه :

— بعد سنوات من المراوحه بين التلويح بالعنف والحوار المتقطع الدولة تعتمد سياسه القبضه الحديدية للقضاء على الجماعات المتطرفه فى مصر .

« المجلة ٢٤/٣/١٩٩٢ م » .

— وزير الداخليه المصرى : لم يبق من عناصر الإرهاب سوى جيوب محدودة تسقط تباعا .

« المجلة ١٧/١٩٩٢٣ م »

وتعتبر النسبة السابقة قليله إذا ما قورنت بإظهار قوة ما يسمى بالجماعات المتطرفه والتى بلغت ١٥٫١ ٪ .

(هـ) إظهار الجانب الخيرى للجماعات الإسلامية :

ويقصد بذلك المواد الصحفية التى نشرت عن هذه الجماعات تظهر تعاونها مع الجمهور خصوصا فى بعض المحن التى واجهته كالزلازل وغيرها .

وقد بلغت مساحة هذه القضية صفحتين بنسبة ٩ر١ ٪ .

(و) إنهيار السياحة بسبب الجماعات الإسلامية :

ويقصد بذلك تزامن ضرب السياحة فى مصر مثلا فى مجموعة العمليات التى قصد منها قتل السياح وإحراج الحكومة المصرية .

وقد بلغت مساحة هذه القضية صفحتين بنسبة ٩ر١ ٪ .

جـــدول رقم (٤)

قضايا المجال الدينى فى المجلات العربية

قضايا المجال الدينى	المساحـــة	ك	٪
إظهار قوة مايسمى بالجماعات الإسلامية فى مواجهة الحكومة .		٤٥	٤٢٫٣ ٪
كيفية مواجهة الإرهاب		٢٦٫٥	٢٤٫٩ ٪
الدعوة إلى العبادات وتعليمها		١٩٫٥	١٨٫٣ ٪
إظهار قوة الحكومة فى مواجهة مايسمى بالتطرف .		١١٫٥	١٠٫٨ ٪
إظهار الجانب الخيرى للجماعات الإسلامية		٢	١٫٩ ٪
انهيار السياحة بسبب الجماعات الإسلامية		٢	١٫٩ ٪
إجمـــالى		١٦٫٥	١٠٠ ٪

طبيعة الصورة فى المجال الدينى :

يتبين من خلال استقراء الجدول رقم (٤) أن الجانب السلبى - فى رأى الباحث - يطغى على الجانب الإيجابى فمن خلال فئات الجدول نجد أن :

— إظهار هيبة الدولة وقوتها تعنى فى الصورة الإجمالية أن هناك صراعا محتدما يؤثر على عملية التنمية ويحد من مشروعات الاستثمار أمام الشركات الأجنبية التى تخاف المجازفة فى مناطق الصراعات (١١٫٥ ٪) .

— كذلك يلاحظ أن مجموعة الأعمال الصحفية التى تناولت كيفية مواجهة الإرهاب من خلال آراء الكتاب والمفكرين والخبراء تعنى فى الصورة أن هناك مشكلة تشكل ظاهرة خطيرة فى المجتمع مما يصنف هذه الفئة فى الجانب السلبى أيضاً (٢٤٫٩ ٪) .

— يضاف إلى ذلك إظهار قوة مايسمى بالجماعات الإسلامية فى مواجهة الحكومة (٤٢٫٣ ٪) وكذلك انهيار السياحة بسبب هـــذه الجماعات ١٫٩ ٪ .

— على الجانب الآخر نجد أن الدعوة إلى العبادات واظهار الجانب الخيرى لهذه الجماعات يعتبران ضمن الجانب الدينى بشكل عام بلغت مساحته ٢١٫٥ صفحة بنسبة ١٩٫٧ ٪ ، كما بلغت مساحة الجانب السلبى ٨٥ صفحة بنسبة ٧٩٫٨ ٪ .

٣ — المجال الاجتماعى :

ويقصد به هذه الدراسة مجموعة من الرسائل الأعلامية الصحفية بأشكالها المختلفة والتى تناولت الحياة الاجتماعية المصرية من أفراد وطبقات وقطاعات سواء كان ذلك على مستوى الأسرة المصرية أو امتد ذلك إلى المجتمع بأسره والعلاقات التى تربط الكيانات الاجتماعية المختلفة .

وقد لاحظ الباحث أن الحياة الاجتماعية المصرية تغلب على التغطية الصحفية فى المجلات العربيـــة . فمعظم الموضوعات التى تتناول الأسرة

والحوادث والتفكك الأسرى والفساد الأخلاقى وجرائم الأعراض والنصب والاحتيال مصدرها مصرى وأحداثها مصرية ومحررها - للأسف - مصريون يعرضونها بشكل بارز ومثير تتلقفه هذه المجلات لتعطى صورة رديئة عن حياتنا الاجتماعية مما يؤدى فى النهاية إلى إحساس المواطن العربى بتراجع ريادة مصر فى المجال الاجتماعى والتى ظلت تقود العالم العربى كمثل يحتذى به لعدة قرون خلت .

ويبين الجدول رقم (٥) القضايا المختلفة التى برزت فى عينة المجلات العربية عن الحياة الاجتماعية المصرية والتى نعرضها فيما يلى طبقا للمساحة التى عرضت فيها .

١ - الفساد الأخلاقى :

ويقصد به إظهار الصورة المصرية الاجتماعية من خلال الأخبــــار والتحقيقات والأحاديث التى تتناول جرائم الأعراض والاغتصاب والفضائح الجنسية . وقد سجلت هذه النقطة أعلى القضايا فى المجال الاجتماعى حيث بلغت مساحتها ٢٣ صفحه من إجمالى ٨٢ صفحه لجميع قضايا المجال الاجتماعى أى بنسبة ٢٨ ٪ .

وقد كان الشىء الملفت للنظر اختفاء هذا النوع من الجرائم من معظم الدول العربية إلا مصر فقد ظهرت على أغلفة مجلات العينة بشكل بارز ومثير وبعناوين كبيرة وصور فاضحة وصارخة كما ركزت المجلات على ذكر أسماء المتهمين وعائلاتهم ووظائفهم وهو مايعد خرقا للقاعدة القانونية « المتهم برىء حتى تثبت إدانته » وفيما يلى أمثلة على هذه النقطة .

- الوحش حاول افتراس التلميذة تحت سفح الهرم .

« سيدتى ٢٩/٣/١٩٩٣ م »

- امرأة على ذمة رجلين « المجالس ٢٧ مارس ١٩٩٣ م »

ـ فى القاهرة المراهق الصغير قتل « ست الحبايب » بسكين مطبخ وهى تصلى .

محمد : أغرتنى « الشيطانة » بالفحشاء والمنكر .

عبير : ده عيل .. وأحبنى ماذنبى ؟ أنا من أسرة حرامية .

العائلة : قررت رجمه حتى الموت لأنه « زارنى » .

القاتل من أسرة تربوية .. شقيقته منقبه وأخوه « متطرف » .

« الوطن العربى ٢٨/٥/٩٩٣ م »

ويعتبر الموضوع السابق واحدا من العديد من الفضائح التى تنشرها المجلات العربية عن حياتنا الاجتماعية المصرية وتقول بعض فقراته :

قال محمد إبراهيم عبد العزيز (١٥ عاما) : أنا من أسرة كل أفرادها تربويون وأنا طالب فى الصف الأول الثانوى بمدرسه أزهرية ناجح ومتفوق فى دراستى أحصل على جائزة التفوق كل شهر ، وهى عبارة عن مصحف شريف . حفظت نصف القرآن . والدى مدرس بوزارة التربية والتعليم . ووالدتى مدرسة تربوية .. سبب نكبتى ومصيبتى : عمرها ٢٣ عاما بيضاء الوجه خضراء العينين متزوجة من تاجر مخدرات ولص اسمه عبـــد النبى . محبوس فى سجن طره بتهمة السرقة وانتحال شخصية ضابط شرطة .. هذه الشيطانة من أسرة كلها تجار مخدرات متمرسون . ألتقيت بها وهى هاربة من أهلها بعد أن ضربها أخوها لسوء سلوكها واتفقت معى على الهرب إلى الاسكندرية وعرفتنى براقصة استضافتنا فى شقتها وبدأت عبير تغرينى بكل الطرق واستطاعت أن تقنعنى بأن أقبلها وأعانقها واستولت على عقلى وقلبى وأحببتها جدا وبدأت تدس لى المخدرات فى كوب الشاى لأظل أسيرا لها .

وتقول « عبير » أنا من أسرة كل أفرادها تجار مخدرات وحرامية . أما عن معرفتى بمحمد فكنت أراه دائماً « عيل » أبعته أحيانا يشترى لى علبة شجاير وقد التقيت به صدفه وهو الذى عرض على مع صديقه أن يصحبانى إلى المستشفى وقررت الهرب إلى الاسكندرية بعد خلاف عائلى ورافقنى هو

وصديقه وهناك فى الاسكندرية كنا نبيت كلنا فى شقة واحدة مع رابعنا المسمار وزوجته وأولاده . ولم أعاشر محمد معاشرة زوجية ... ثم صرخت « دا عيل يامدام » وانا أحب أصاحب الشبان كثير ...

وقد وجه إليها المقدم علاء حسن رئيس المباحث سؤالا :

هل حقا إنك تكتبين اسم محمد على صدرك مثلما قال والده ؟

وأجابت عبير بسرعة . أكتب اسمه ليه ؟ أنا مستعدة يابيه أقلع قدامك دلوقتى علشان تشوف بنفسك !! أنا ليس لى أى دخل فى كل هذه القصة مجنون وأحبنى ماذنبى أنا ؟ !

« التفاصيل الوطن العربى ص ٥٦ - ٥٧ »

(٢) تقدير الشخصية المصرية :

ويقصد بها تلك الموضوعات التى أبرزت أنشطة شخصيات مصرية عادية وشهيرة لعبت دورا فى الحياة الاجتماعية كنموذج طيب يمكن الاقتداء به والإفادة منه للفرد والمجتمع . وقد بلغت مساحة هذه النقطة ١٥٫٥ صفحة بنسبة ١٨٫٩٪ ومن أمثلة ذلك طبقا لعينة الدراسة :

وفاء التى قهرت الصحراء .

وتحكى وفاء قصتها التى يقول مطلعها « عام ١٩٨٦م عندما انتهيت من دراستى وأصبحت مؤهلة للعمل كمدرسة ابتدائى ، قرأت تحقيقا صحافيا فى إحدى الجرائد عن الاتجاه الجديد لاستزراع الصحراء ، وإن هناك مجتمعات جديدة تقام هناك ، حيث يستطيع الشاب أن يحقق أحلامه فى استصلاح أرض يتم تمليكها له مع منزل بسيط ، وفى التحقيق علمت أن هناك منطقة جديدة سيتم تقسيمها وتسليمها إلى الشباب الخريجين فى صحراء النوبارية بين القاهرة والإسكندرية وأعجبتنى الفكرة أخبرت أسرتى برغبتى فى خوض التجربة وسألونى كيف تذهب فتاة وحدها وسط الصحراء ... ويمضى التحقيق

الصحفى ليوضح كيف نجحت هذه المرأة المصرية فى تكوين أسرة وغزو الصحراء وزيادة الانتاج .

« سيدتى ٢٩/٥/١٩٩٣م »

(٣) التفكك الأسرى :

ويقصد به الموضوعات التى تناولت الجرائم التى نتجت عن سوء التربية الأسرية من خلافات زوجية وعائلية وظهور أبناء يحترفون الاجرام من أدمان وسرقات وغيرها .

وقد بلغت مساحة هذه القضية ١٥٫٥ صفحة بنسبة ١٨٫٩ ٪ .

ومن أمثلة ومظاهر التفكك الأسرى فى عينة المجلات ما يأتى :

- ابنتى بلا أب وبلا هوية . موضوع على صفحتين يحكى قصة طفلة مصرية لأب سودانى هرب وتركها . « المجالس ٨/٥/١٩٩٣م »

- بريئة فى سجن الأحداث يحكى فيها الصحفى قصة فتاة بريئة رغم حكم القضاء عليها . وهو نوع من التدخل فى شئون سلطة قضائية بشكل جرىء من صحفى يراسل مجلة عربية . « المجالس ٢٢/٥/١٩٩٣م » .

- زوج غائب ، وزوجة تنتظره ، وأولاد ضائعون « تحقيق مجلة سيدتى ٢٣/٥/١٩٩٣م » .

- هل طفلك مدمن مخدرات ؟

هذه بعض أعترافاتهم :

* طرد أبى أمى فأصبحت مدمنا ، أبلع الأقراص وأبحث عن أمى .

* لجأت للشرطة لأتخلص من المخدرات .

* ماذا يشم أطفال القاهرة ؟

عقاقير مختلفة للأطفال فى الصيدليات . الأطفال يريدون أن يجربوا ولا تنفع معهم النصيحة .

* الهيروين للأثرياء ورماد النمل للفقراء .

« تحقيق كبير سيدتى ٢٦/٤/١٩٩٣ م »

(٤) إعطاء صورة طيبة للاسرة المصرية :

ويقصد بها تلك الموضوعات التى تشيد بالأسرة المصرية من خلال إخلاص الزوجة والخوف على الأبناء ورعايتهم وحمايتهم . وقد جاءت هذه الصورة فى أغلبها ضمنية أى ضمن موضوعات مطروحة حول مشكلات اجتماعية أو أحداث قائمة وتم تناولها بشكل غير مباشر . وقد بلغت نسبة هذه النقطة فى عينة المجلات ٩ صفحات بنسبة ١١ ٪ .

(٥) التركيز على عادات وتقاليد مصرية أصيلة :

ويقصد بها المناسبات المصرية والأماكن ذات البعد الاجتماعى التاريخى وتمسك المصريين بتقاليد إيجابية لإيجاد نوع من المودة والتقارب بين طبقات المجتمع وقد ظهرت هذه النقطة بمساحة ٧ صفحات ونسبة ٨٫٥ ٪ ومن أمثله ذلك .

- أرض المحروسة ليست كما يقال(مقال حول تحدى المصريين للإرهاب ومزاولة حياتهم الاجتماعية اليومية .

« اقرأ ٨/٤/١٩٩٣ م »

- أهلا بالعيد :

* فرحة العيد على الوجوه .

* الأطفال فرحة العيد وزينته والمراجيح تحملهم على أجنحة الحلم .

* اللقاءات العائلية تحقق التقارب والتواصل بين أفراد الأسرة .

« المجالس ٢٧/٣/١٩٩٣ م »

(٦) جرائم النصب والاحتيال :

ويقصد بها الموضوعات الصحفية التى تعرضت للجرائم التى ارتكبها مصريون فى فروع النصب والاحتيال وهى من نوعيات الجرائم - بالإضافة إلى الفساد والتفكك الأسرى - التى تركز عليها المجلات العربية وبالذات عن مصر حيث تكاد تسيطر هذه النوعية على معظم المجلات العربية .

وقد بلغت جرائم النصب والاحتيال مساحة ٧ صفحات فى عينة الدراسة بنسبة ٨ر٥ ٪ . وفيما يلى أمثلة عن هذه النقطة .

* على باب البنك

نصاب يشترى الدولارات بورق أبيض « سيدتى ٢٩/٥/١٩٩٣ م »

* مصر

برنامج الاصلاح الاقتصادى يواجه جيش الموظفين الزائدين .

وتقول مقدمة هذا التحقيق « لم تكن (زهرة) هى الوحيدة التى ذهبت إلى أحد بلدان الخليج للعمل هناك قبل عام تقريبا وبقى زوجها يتقاضى ، ليس فقط راتبها فى فرع مؤسسة التأمينات فى مدينة السويس وإنما أيضا المكافآت التى تمنحها المؤسسة للمستخدمين لديها كبدل للساعات الإضافية وتعويض الانتقال وغيره ، كأن شيئا لم يحصل ، ولولا تدخل أحد أجهزة الرقابة الإدارية لكانت (زهرة) ماتزال تحصل على راتبها الشهرى ....

« الوسط ١٥/٣/١٩٩٣ م »

* « الوطن العربى » قابلت (الدكتور) رئيس اتحاد الطلاب المتهم بتزعم عصابة الخمسة فى القاهرة .

عبد الرحيم البوصيرى : أنا مظلوم !

- اسمى ورد خطأ لأننى أعرت سيارتى المستأجرة لصديق استخدمها فى السرقة .

— أنا طالب متفوق من عائلة ميسورة ولى إنجازات كبيرة فى اتحاد طلاب « عين شمس » .

— ويروى هذا التحقيق المثير قصة عصابة يتزعمها رئيس اتحاد طلاب عين شمس ومعه فتاة فى السادسة عشر من عمرها تخصصوا فى سرقة حقائب النقود من عملاء البنوك .

« الوطن العربى ٢١/٥/١٩٩٣م »

(٧) الإساءة إلى بعض قطاعات المجتمع المصرى :

ويقصد بهـــا الموضوعات التى تناولت بعض قطاع المجتمع سواء القطاعات المهنية أو الإقليمية بطريقة سلبية وقد بلغت مساحة هذه القضية ٥ صفحات بنسبة ١ر٦ ٪ ومن أمثلة ذلك :

١) مقال لأحدى الكاتبات الكويتيات وجهت فيه نقـدا شديدا للصحفيين المصريين العاملين فى الكويت .

« المجالس ٢٧/٣/١٩٩٣ »

٢) تحقيق حول زواج « الصعايدة » من الأوربيات وكيف أنه زواج للمصلحة وكسب الأموال .

« المجالس ٢٢/٥/١٩٩٣م »

جدول رقم (٥)

قضايا المجال الاجتماعى فى المجلات العربية

قضايا المجال الاجتماعى	ك	٪
١ ـ الفساد الإخلاقى	٣٣	٢٨ ٪
٢ ـ تقدير الشخصية المصرية	١٥ر٥	١٨ر٩ ٪
٣ ـ التفكك الأسرى	١٥ر٥	١٨ر٩ ٪
٤ ـ إعطاء صورة طيبة للأسرة المصرية	٩	١١ ٪
٥ التركيز على عادات وتقاليد مصرية أصيلة	٧	٨ر٥ ٪
٦ ـ جرائم النصب والاحتيال	٧	٨ر٥ ٪
٧ ـ الإساءة لبعض قطاعات المجتمع المصرى	٥	٦ر١ ٪
إجمالى	٨٢	

قضايا المجال الاجتماعى فى المجلات العربية

طبيعة الصورة فى المجال الاجتماعى :

يتبين من خلال استعراض الجدول رقم (٥) أن الجوانب الإيجابية فى المجال الاجتماعى تمثلت فى تقدير الشخصية المصرية وإعطاء صورة طيبة للأسرة المصرية والتركيز على عادات وتقاليد مصرية أصيلة . وقد بلغت مساحة هذه الجوانب الإيجابيـة فى عينة المجلات ٣١٫٥ صفحة بنسبة ٣٨٫٤ ٪ .

بينما بلغت الجوانب السلبية ٥٠٫٥ صفحة بنسبة ٦١٫٦ ٪ واشتملت على الفساد الأخلاقى والتفكك الأسرى وجرائم النصب والاحتيال والإساءة إلى بعض قطاعات المجتمع المصرى . وتشير هذه الأرقام إلى أن صورة المجتمع المصرى فى جانبها الاجتماعى تصل إلى قارىء المجلة العربية بصورة سلبية أكثر منها إيجابية وهناك عدة ملاحظات للباحث فى هذا المجال :

(١) أن مصادر الحوادث والجرائم بأنواعها كلها من المصريين الذين يراسلون المجلات العربية من القاهرة .

(٢) أن ٩٦ ٪ من الجرائم المنشورة مأخوذة من أقسام البوليس ولازالت أمام النيابة ولم يصدر القضاء المصرى فيها أية أحكام . ولعل ذلك يعد ظاهرة مزعجة من حيث تأثيرها على الأسرة المصرية والمجتمع المصرى قبل النطق بالحكم . وهناك مثال صارخ على ذلك وهو « فتاة العتبة » وهى الجريمة التى تحدثت عنها بتفاصيل مثيرة معظم الصحافة العربية ثم اتضح بعد عام من النشر أن المتهمين قد برءا تماما من هتك عرض الفتاة ونشرت ذلك المجلات العربية (العينة) حكم البراءة .

(اقرأ مثلا ـ المجالس ٢٧/٣/١٩٩٣ ص ٤٨)

(٣) أن جميع الحوادث والجرائم المنشورة تتناول المتهم من حيث الاسم، والوظيفة والعائلة ثم يحاول محررو هذه الحوادث محاكمة المتهم على صفحات المجلات وهو أمر جدير بإعادة النظر فيه حتى لا تفهم حرية الصحافة على أنها عرض فضائح وتهم لأناس لم يحاكموا أمام قاضيهم الطبيعى .

٤ – المجال السياسى :

على الرغم من أن دور مصر السياسى فى المنطقة العربية ظل طوال تاريخها هو المحرك الرئيسى للمنطقة سواء أكان ذلك فى الدفاع عن الحق العربى وعملية السلام وتنقية الأجواء العربية من أية خلافات وصراعات والدفاع عن القضايا الإسلامية . إلا أن ذلك لم ينل اهتماما كبيرا من المجلات العربية (عينة الدارسة) مقارنة باهتمامها بمجالات أخرى تأتى فى المؤخرة من حيث تأثيرها الإيجابى على المواطن العربى.

فطبقا للجدول رقم (٦) نجد أن إجمالى القضايا السياسية التى تناولتها المجلات العربية الأحدى عشرة بلغ ٥١,٥ صفحة بنسبة ٩,٤٧٪ من إجمالى المجالات المختلفة وهى تغطية صحفية متواضعة إذا ماقورنت على سبيل المثال بالمجال الفنى الذى بلغت مساحته ٢٠٩ صفحة وهذا مثال على اتجاه المجلات بنسبة ٣٨,٤٪ بل أنها متواضعة إذا ماقورنت بعنصر واحد من عناصر المجال الفنى الذى تناولته هذه المجلات وهو « التركيز على السيرة الذاتية لممثلين ومطربين مغمورين » حيث بلغت نسبة ٨٨ صفحة أى أكثر من إجمالى القضايا السياسية المعروضة فى المجلات بشكل عام .

وقد تم تقسيم القضايا السياسية التى تناولتها المجلات فى المجال السياسى طبقا للجدول رقم (٦) كما يلى :

(١) دور مصر فى عملية السلام :

ويقصد به أنشطة الحكومة المصرية على مختلف المستويات فى المساعدة فى عملية السلام بين العرب وإسرائيل . وقد بلغت مساحة هـــذه القضية ١٧ صفحة بنسبة ٣٣ ٪ ومن أمثلة ذلك :

- مبارك أول رئيس عربى يلتقى وكلينتون فى جولة الحسم .
- قطار السلام الأخير « الحوادث ١٩٩٣/٤/٩ م »
- الفهد ومبارك يبحثان التطورات العربية . « المجالس ١٩٩٣/٣/٢٧م »

(٢) الدفاع عن الحق العربى :

ويقصد به الجهود الدبلوماسية المصرية فى الدفاع عن القضايا العربية فى المحافل الدولية والمنظمات السياسية كالأمم المتحدة وجامعة الدول العربية والمنظمات الإقليمية الأخرى كمنظمة الوحدة الإفريقية والمؤتمر الإسلامى . وقد بلغت مساحة هذه القضية ١٤ صفحة بنسبة ٢٧٫٢ ٪ .

(٣) تنقية الأجواء العربية :

ويقصد بها محاولات الحكومة المصرية التدخل لحسم الخلافات بين الأقطار العربية والتى تأتى نتيجة الخلاف فى الرأى أو الحدود السياسية أو غيرها وقد بلغت مساحة هذه القضية ٧٫٥ صفحة بنسبة ١٤٫٦ ٪ .

(٤) الدفاع عن القضايا الإسلامية الدولية :

ويقصد بها الدور المصرى الحكومى وغير الحكومى فى الدفاع عن قضايا العالم الإسلامى خاصة القضايا التى وجدت أبان الدراسة مثل البوسنة والهرسك والصومال وغيرها . وقد بلغت مساحة هذه القضية ٤ صفحات بنسبة ٧٫٨ ٪ وهى نسبة متواضعة إذا ماقيست بالجهود المبذولة من قبل مصر رسميا أو غير رسمى .

٥ — الفساد الإدارى فى الجهاز الحكومى المصرى :

ويقصد بها المعالجة الصحفية لقضايا الرشوة والاختلاسات واستغلال النفوذ التى تكتشف من حين لآخر وتطرحها الأشكال الصحفية المختلفة . وقد بلغت هذه القضية مساحة ٣ صفحات بنسبة ٥ر٨ ٪ ودارت فى مجملها حول بعض الشخصيات العامة التى استغلت منصبها فى الحكومة استغلالا سيئا لا يتوافق مع طبيعة الوظيفة العامة .

٦ — خلافات مصر العربية :

ويقصد الخلافات التى تنشب أحيانا بين مصر وبين الدول العربية حول قضية معينة سواء أكان ذلك فى الرأى مثل القضية الفلسطينية أو خلافات حدودية مع الحكومة السودانية أو غيرها .

وقد بلغت مساحة هذه النقطة ٦ صفحات بنسبة ٧ر١١ ٪ .

جدول رقم (٦)

قضايا المجال السياسى فى المجلات العربية

م	القضايا فى المجال السياسى	ك	٪
١	دور مصر فى عملية السلام	١٧	٣٣
٢	الدفاع عن الحق العربى	١٤	٢٧ر٢
٣	تنقية الإجواء العربية	٧ر٥	١٤ر٦
٤	الدفاع عن القضايا الإسلامية الدولية	٤	٧ر٨
٥	خلافات مصر العربية	٦	١١ر٧
٦	الفساد الإدارى فى الجهاز الحكومى المصرى	٣	٥ر٨
	إجمـــالى	٥١ر٥	١٠

طبيعة الصورة فى المجال السياسى :

من خلال الجدول السابق :

يتبين ضآلة التغطية الصحفية للمجلات العربية للدور المصرى السياسى الذى يستحق مساحة تتناسب كثيرا مع حجم مصر السياسى وريادتها فى الدفاع عن الحق العربى والقضايا العربية والإسلامية . فى الوقت الذى احتلت الفضائح والجرائم الأخلاقية والنصب والاحتيال والتفكك الأسرى وتسليط الأضواء على المغمورين من أهل الفن أضعاف مساحة المجال السياسى .

وحتى على مستوى التغطية الصحفية للمجال السياسى لو تم استبعاد خلافات مصر العربية والفساد الإدارى فى الجهاز الحكومى (٩ صفحات ونسبة ١٧٫٥ ٪) كجوانب سلبية فى الصورة الذهنية سنجد ماتبقى من إيجابيات تبلغ مساحتها ٤٢٫٥ صفحة وهى مساحة ضئيلة جدا بالمقارنة بالمجالات الأخرى .

٥ ــ المجال الأدبى :

ويقصد به فى هذه الدراسة الأعمال الأدبية المختلفة التى تناولتها المجلات العربية من خلال عينة الدراسة سواء أكانت قصصا أو مقالات أدبية أو شعر أو أخبار وأحاديث مع الأدباء والنقاد المصريين . ويلاحظ أن المجال الأدبى لازال يعطى صورة ذهنية طيبة عن مصر لما تتمتع به من ريادة فى الأدب وفروعه المختلفة ومازالت آراء وأفكار الأدباء المصريين محل احترام وتقدير فى هذه المجلات .

وطبقا للجدول رقم(٧) جاءت موضوعات المجال الأدبى على الوجه التالى:

١ ــ القصة :

ويقصد بها مجموعة القصص المنشورة لكتاب مصريين وقد بلغت مساحة ذلك ١٦ صفحة بنسبة ٤٤٫٤٤ ٪ .

٢ — أخبار الأدباء والنقاد :

وهى تلك الأخبار التى تتناول معلومات عن إنتاج وتأليف الروايات المختلفة وكذا الأخبار الشخصية لهؤلاء الأدباء . وقد بلغت مساحة هذه النقطة ٩ صفحات بنسبة ٢٥ ٪ كما تشمل أخبار الشعراء والمنتديات الأدبية المصرية .

٣ — مقالات أدبية ونقدية :

ويقصد بها مجموعة المقالات التى تتناول الأعمال الأدبية المختلفة بالنقد والتحليل . بلغت مساحتها ٨ صفحات بنسبة ٢٢ر٢٢ ٪ .

٤ — الشعر :

وهو مجموعة القصائد الشعرية التى نشرت فى عينة الدراسة لشعراء مصريين . بلغت مساحتها ٣ صفحات بنسبة ٨ر٣٣ ٪ .

جـــدول رقم (٧)

قضايا المجال الأدبى فى المجلات العربية

م	قضايا المجال الأدبى	ك	٪
١	القصـــة	١٦	٤٤ر٤٤
٢	أخبار الأدباء والنقاد	٩	٢٥
٣	مقالات أدبية ونقدية	٨	٢٢ر٢٢
٤	الشعر	٣	٨ر٣٣
	إجمـــال	٣٦	١٠٠

٦ ـ المجال العلمى :

ويقصد به فى هذه الدراسة الموضوعات العلمية ذات الطابع التطبيقى فى مجالات الطب والعلوم وغيرها والتى تناولتها عينة الدراسة . فقد تبين من خلال الجدول رقم (٨) أن موضوعات هذا المجال جاءت على الوجه التالى :

(١) موضوعات طبية :

ويعنى بها الأشكال الصحفية التى تناولت آراء ونصائح ووجهات نظر الأطباء المصريين فى العديد من الأمراض فى التخصصات المختلفة . وقد بلغت نسبتها ٨ صفحات بنسبة ٥٢ ٪ .

(٢) تقدير العلماء المصريين :

ويعنى بها التغطية الصحفية التى تناولت أحاديث وتحقيقات صحفية عن جهود العلماء المصريين المعروفين فى مجالات العلم المختلفة خاصة الذين حصلوا على جوائز تقديرية محلية وعالمية وعربية . وقد بلغت نسبتها ٧ صفحات بنسبة ٣٢ ٪ .

(٣) مؤتمرات وندوات :

ويقصد بها أخبار المؤتمرات والندوات العلمية المصرية وغير المصرية التى يشارك فيها متخصصون مصريون وقد بلغت نسبتها ٤ صفحات بنسبة ١٦ ٪ .

جدول رقم (٨)

موضوعات المجال العلمى فى المجلات العربية

م	موضوعات المجال العلمى	ك	٪
١	موضوعات طبية	١٣	٥٢
٢	تقدير العلماء المصريين	٨	٣٢
٣	مؤتمرات وندوات	٤	١٦
	إجمالى	٢٥	١٠٠

٧ ــ المجال الرياضى :

أصبحت الرياضة بأشكالها المختلفة من المواد الأعلامية التى تلقى قبولا لدى المتلقين من قراءة ومستمعين ومشاهدين . وهناك شعوب عديدة لم تكن معروفة للكثير فى أنحاء العالم ولكن الرياضة كانت أسهل الطرق للانفتاح على هذه الشعوب ومعرفتها . فكرة القدم على سبيل المثال هى التى أعطت صورة ذهنية من خلال التغطية الأعلامية لدول مثل البرازيل والأرجنتين والكاميرون مع أنها من أفقر دول العالم، وتعانى من مشا كل عديدة من التضخم والبطالة وغيرها ولكنها أصبحت معروفة لدى الغالبية العظمى من شعوب العالم بنهضتها الرياضية ولذلك تحرص دول العالم على أن يكون لها فرق قومية قوية تساهم فى صنع الصورة القومية للدولة .

والملاحظ أن المجلات العربية الأسبوعية لا تولى اهتماما كبيرا للرياضة مثل الصحافة اليومية . بل أن بعض المجلات تكاد تخلو أعدادها من أية موضوعات رياضية .

ومن خلال الجدول رقم (٩) يتبين لنا أن المجال الرياضى المصرى قد بلغت مساحته ١٦ صفحة أى بنسبة ٢٫٩ ٪ ركزت على الموضوعات التالية :

(١) التركيز على نجوم الكرة البارزين :

وقد بلغت مساحته ٩ صفحات بنسبة ٥٦٫٢٥ ٪ ومن أمثلة ذلك :

ــ أول محترف مصرى فى كرة القدم فى أندية أوروبا يتحدث إلى الوسط

« الوسط ١٩٩٣/٥/٣١ م »

ــ محمود الجوهرى : ١٥ نيسان يوم فاصل فى تاريخ الكرة المصرية .

« الوسط ١٩٩٣/٤/١٢ م »

ــ صالح سليم : « عصا المايسترو لن تسقط من يدى » .

« الوسط ١٩٩٣/٣/٨ م »

(٢) متابعة لأنشطة الفرق المصرية :

وقد بلغت مساحتها ٥ صفحات بنسبة ٣١٫٢٥ ٪ .

(٣) معالجة أسباب تدهور مستوى الفرق المصرية :

وقد بلغت مساحتها صفحتين بنسبة ١٢٫٥ ٪ . وقد تم خلال هذه القضية مناقشة تدهور مستوى الفريق القومى لكرة القدم والأسباب التى أدت إلى عدم مشاركته فى كأس العالم ١٩٩٤ م .

جـــدول رقم (٩)

قضايا المجال الرياضى المصرى فى المجلات العربية

م	قضايا المجال الرياضى	ك	٪
١	التركيز على نجوم الكرة البارزين	٩	٥٦ر٢٥
٢	متابعة لأنشطة الفرق المصرية	٥	٣١ر٢٥
٣	معالجة أسباب تدهور الرياضة المصرية	٢	١٢ر٥٠
	إجمـــالى	١٦	١٠٠

٨ - المجال الاقتصادى :

فى الوقت الذى يعانى فيه الاقتصاد المصرى مشاكل عديد بسبب ضغوط صندوق النقد الدولى من ناحية والمشاكل المتراكمة التى خلفتها الحروب العسكرية التى خاضتها مصر وكذلك الزيادة الكبيرة فى عدد السكان وانخفاض الدخل القومى والفردى لا نجد لذلك مايستحقه من تغطية إعلامية تظهر الصورة الحقيقية للقارىء العربى عن أسباب هذه المشاكل الاقتصادية والتى يرجع كثير من أسبابها إلى حروب مصر من أجل العرب وقضاياهم .

وقد بلغت المساحة التى تناولت قضايا المجال الاقتصادى ١٤ صفحة بنسبة ٢٫٥٧ ٪ من إجمالى المجالات المختلفة طبقا للجدول رقم (١٠) .

وفيما يلى قضايا المجال الاقتصادى :

(١) الإصلاح الاقتصادى المصرى :

ويقصد به الجهـــود التى تبذلها الحكومة المصرية من مشروعات استثمارية وخطوات إصلاحية تهدف إلى الخروج من الأزمة الاقتصادية . وقد بلغت مساحة هذه القضية ٥ صفحات بنسبة ٣٥٫٧ ٪ من إجمالى قضايا المجال الاقتصادى .

(٢) زيادة الإنتاج وجودته :

ويقصد به تناول المجلات العربية لمشروعات زيادة الإنتاج فى قطاعاته المختلفة وكذلك جودة المنتج المصرى ومنافسته لمثيله العالمى . وقد بلغت مساحة هذه القضية ٤ صفحات بنسبة ٢٦٫٧ ٪ .

(٣) الرؤية الإسلامية للاقتصاد :

ويقصد بها مجموعة المقالات والأطروحات التى تناولها المتخصصون الإسلاميون المصريون أو الاقتصاديون للتعرف على أصول الاقتصاد من

وجهة النظر الإسلامية أو المعالجة الإسلامية للاقتصاد . وقد بلغت مساحة هذه القضية ٥ر٢ صفحة بنسبة ٦ر١٦ ٪ .

(٤) مشاكل الاقتصاد المصرى :

ويقصد بها تشخيص المشاكل التى يواجهها الاقتصاد المصرى من بطالة وتضخم وضغوط دولية وزيادة سكانية وقد بلغت مساحة هذه القضية ٥ر٢ صفحة بنسبة ٦ر١٦ ٪ .

جدول رقم (١٠)

قضايا المجال الاقتصادى المصرى فى المجالات العربية

م	قضايا المجال الاقتصادى	ك	٪
١	الإصلاح الاقتصادى	٥	٣٥ر٧
٢	زيادة الإنتاج وجودته	٤	٢٦ر٧
٣	الرؤية الإسلامية الاقتصاد	٢ر٥	١٦ر٦
٤	مشاكل الاقتصادى المصرى	٢ر٥	١٦ر٦
	إجمالى	١٤	١٠٠

ولعل النسبة المتواضعة التى ظهرت من خلال الجدول السابق والمتمثلة فى المساحة المخصصة للمجال الاقتصادى تتوافق مع ما ينادى به عدد من المتخصصين العرب فى مجال الأعلام « بأننا فى حاجه ملحة لتكثيف الجهود فى المجال الأعلامى الاقتصادى لتعريف كل قطر من أقطارنا بالمنجزات العربية وبما يتوفر فى بلداننا من إمكانات العمل المشترك فى شتى مجالات النشاطات الاقتصادية، فإنجازاتنا الاقتصادية كثيرة ولكنها مجهولة لدى شعوبنا، وإنتاجنا فى العديد من القطاعات وافر ولكنه غير معروف فى أسواقنا، وذلك يرجع لعدة أسباب لعل أهمها إنعدام الأعلام الاقتصادى بيننا، فترويج الإنتاج الأعلامى بواسطة الأجهزة العربية فى صورة تبادل وإنتاج مشترك للبرامج الإذاعية والتليفزيونية لاينبغى أن يقتصر على مواضع الترفيه والتسلية، بل ينبغى أن يتجاوزها إلى التعريف بواقع شعوبنا وشواغلها وجهودها وتطلعاتها فى مختلف مجالات الحياة »(٣٠).

٩ — المجال الإعلامى :

ويقصد به الموضوعات الصحفية التى تناولت دور وسائل الإعلام المصرية فى المنطقة العربية. وقد بلغت مساحته ٥ر٣ صفحة بنسبة ٦ر٠ ٪ وهى نسبة قليلة خاصة فى هذه الفترة التى تحتاج إلى تسليط الأضواء على أنشطة الأعلام المصرية خاصة الدولية منها مثل القناة الفضائية التى تلقى رواجا وقبولا من المشاهد العربى والتى تنافسها العديد من القنوات المشابهه فى محاولة للوصول إلى الملتقى العربى وإغرائك بالعديد من المواد الجذابه.

١٠ — المجال السياحى :

ويقصد به التغطية الصحفية للسياحة المصرية من أماكن أثرية وشواطىء ومنتجعات وغيرها. حيث تعتبر مصر فى مقدمة دول العالم من حيث الآثار والأجواء السياحية وقد بلغت مساحه هذا المجال صفحة واحدة بنسبة ٢ر٠ ٪ وهى نسبة ضئيلة إذا ماقورنت بالعديد من الموضوعات السطحية التى تسىء إلى سمعة مصر وصورتها.

رابعا : مناقشة نتائج الدراسة

جدول رقم (١١)

طبيعة الصورة الذهنية الإجمالية لمصر فى عينة المجلات العربية

المجـــال	إجمالى المساحة		إيجابيات الصورة		سلبيات الصورة	
	ك	٪	ك	٪	ك	٪
المجال الفنى	٢٠٩	٣٨ر٤	١٢١	٥٨	٨٨	٤٢
المجال الدينى	١٠٦ر٥	١٩ر٥	٢١ر٥	١٩ر٧	٥٨	٧٩ر٨
المجال الاجتماعى	٨٢	١٥ر١	٣١ر٥	٣٨ر٤	٥٠ر٥	٦١ر٦
المجال السياسى	٥١ر٥	٩ر٤٧	٤٢ر٥	٨٢ر٥٢	٩	١٧ر٥
المجال الأدبى	٣٦	٦ر ٦	٣٦	١٠٠	—	—
المجال العلمى	٢٥	٤ر ٦	٢٥	١٠٠	—	—
المجال الرياضى	١٦	٢ر ٩	١٤	٨٧ر٥	٢	١٢ر٥
المجال الاقتصادى	١٤	٢ر٥٧	١١ر٥	٨٢ر١٤	٢ر٥	١٧ر٩
المجال الإعلامى	٣ر٥	ر٠ ٦	٣ر٥	١٠٠	—	—
المجال السياحى	١	ر٠ ٢	١	١٠٠	—	—
إجمالى	٥٤٤	١٠٠	٣٠٧ر٥	٥٦ر٣٨	٢٣٧	٤٣ر٥٢

أولا : إيجابيات وسلبيات الصورة :

(أ) بلغ إجمالى المساحة التى تناولت مصر فى المجلات العربية « عينة الدراسة » ٥٤٤ صفحة حيث جاءت الجوانب الإيجابية على مساحة ٣٠٧ر٥ صفحة بنسبة ٥٦ر٣٨٪ بينما جاءت الجوانب السلبية على مساحة ٢٣٧ صفحة بنسبة ٤٣ر٥٤٪ .

(ب) على الرغم من أن الجوانب الإيجابية ظهرت فى العينة أكثر من حيث المساحة إلا أن الجوانب السلبية لا يستهان بها خاصة أن تغطيتها كانت من خلال مجالات ذات تأثير فعال وأبراز كبير ومرتكزات إعلامية تفوق فى كثير من الأحيان المرتكزات التى استخدمت فى الجوانب الإيجابية مثل المجال الفنى على سبيل المثال الذى تركز موضوعاته على القضايا المثيرة فى حياة الممثلات والراقصات وغيرهم من الاستعانة بعوامل الجذب من صورة مثيرة وعناوين لافتة للانتباه فى الوقت الذى يخلو فيه المجال السياسى والاقتصادى من هذه المرتكزات حيث الموضوعات الجافة والأرقام والاحصاءات التى قد تبعد قاعدة عريضة من الجماهير من التعرض لها .

(ج) يلاحظ أن المجال الفنى تصدر قائمة مجالات الصورة المصرية إلا أن سلبياته بلغت مساحة ٨٨ صفحة بنسبة (٤٢٪) ركزت خلالها قضاياه حول السيرة الذاتية للمغمورين من أهل الفن وطرحت خلالها آراءهم فى موضوعات سطحية لا تتعدى رأى الممثلة أو المطربة أو الراقصة أو فتاة الإعلان فى حياتهن الاجتماعية الشخصية والخلافات بينهن وبين زميلاتهن من أهل المهنة ، والتى تأخذ فى كثير من الأحيان صورة الشتائم والتحدى وغيرها من الموضوعات المكررة والتى يحلو للمجلة إثارتها بغرض زيادة التوزيع .

(د) كما يبدو المجال الدينى فى الصورة المصرية فى مقدمة المجالات بمساحة قدرها ١٠٦ر٥ صفحة بنسبة ١٩ر٥ ٪ من إجمالى المساحة الكلية بلغت خلالها

الجوانب الإيجابية مساحة ٢١٫٥ صفحة بنسبة ١٩٫٧٪ بينما بلغت الجوانب السلبية ٨٥ صفحة بنسبة ٧٩٫٨ ٪ . وهذه نتيجة مزعجة حيث تركزت السلبيات حول قضايا مايسمى بالجماعات الإسلامية فى مواجهة الحكومة والصراع الدمـــوى المستمر بينهما ثم تركز أحيانا أخرى على قوة الدولة واستعدادها للقضاء عليهم وكذلك طرحت قضية كيفية مواجهة مايسمى بالإرهاب وفى كل الأحوال السابقة نجد سلبيات للصورة المصرية التى يتبين من خلال عرضها وجود توتر داخلى يعوق حركة التنمية والاستثمار ويعطى انطباعا لدى الرأى العام العربى بعدم الاستقرار فى مصر .

(هـ) جاءت قضايا المجال الاجتماعى فى مساحة قدرها ٨٢ صفحة بنسبة ١٥٫١٪ من إجمالى المساحة الكلية بلغت نسبة الجوانب الإيجابية فيها ٣١٫٥ صفخة بنسبة ٨٤٫٤٪ بينما . بلغت الجوانب السلبية للصورة فى المجال الاجتماعى ٥٠٫٥ صفحة بنسبة ٦١٫٦ ٪ . ويرجع ذلك إلى التهاون فى عرض حياتنا الاجتماعية على صفحات الصحف بشكل يبعد كثيرا عن الواقع وقد تمثل ذلك فيما يلى :

١ ـ تسابق المحررون المصريون ومراسلو المجلات فى عرض جرائم الفساد الأخلاقى والاغتصاب بكم هائل يفوق أضعاف ماينشر عن أى دولة عربية أخرى . بل إن عينة الدراسة لم تشهد سوى حالتين لهذا النوع من الجرائم حررت بتحفظ عن دولتين عربيتين فى الوقت الذى خصصت إحدى المجلات سلسلة بعنوان « نساء فى مهـــب الريح » تناولت فى إجمالها موضوعات مصرية فقط .

٢ ـ لازال هناك نوع من عدم الوعى فى نشر الجرائم وتناولها على صفحات الصحف والتسرع بمحاكمة المتهم صحفيا بنشر اسمه واسم عائلته والصاق التهم المبالغ فيها وتأليب الرأى العام ضد أناس لازالت قضاياهم فى أقسام الشرطة ولم تعرض على قاضيهم الطبيعى . وهناك العديد من هذه الجرائم تم تناولها بشكل اساء للمتهم ولسمعة مصر ثم برأ القضاء ساحة أصحابها تماما .

٣ ـ شكلت جرائم « التفكك الأسرى » والنصب والاحتيال نسبة عالية من سلبيات الصورة فى المجال الاجتماعى وطرحت العلاقات الأسرية والاجتماعية المصرية بشكل مثير ومبالغ فيه على مساحة بلغت ٢٠٫٥ صفحة بنسبة ٢٥٪ من إجمالى مانشر فى هذا المجال تم التركيز فيها على قضايا لم يحكم فيها بعد وساندتها صور مثيرة للمتهمين والمتهمات وألفاظ سوقية وإيحاءات جنسية جاءت على لسان المتهمين والمتهمات بشكل يصور المتهم بالتحدى لجهات التحقيق .

٤ ـ فى الوقت الذى يتقدم فيه المجال الفنى بسلبياته الكثيرة قمة الصورة الذهنية فى المجلات العربية نجـــد إن المجال السياسى والاقتصادى لم يحظيا بالتغطية الصفية التى تتناسب مع دورهما فى الساحة العربية وكذلك مع دور مصر الرائد . فالموضوعات السياسية عرضت على مساحة ٥١٫٥ صفحة بنسبة ٤٧٫٩٪ من إجمالى المساحة الكلية للصورة وكذلك المجال الاقتصادى ١٤ صفحة بنسبة ٢٫٥٧٪ . وذلك فى الوقت الذى يجب أن يعرف القارىء العربى مشاكل مصر الاقتصادية وأسبابها وموقفها من جهات القروض الدولية وخطوات حل هذه المشاكل وكيفية الاستثمار فى مصر وغـــيرها من الموضوعات التى خلت الإشارة عنها تماما .

(د) ظهرت إيجابيات المجالات الأدبية والرياضية والإعلامية والسياحية أكثر من أية مجالات أخرى فالمجال الأدبى يوجه لجمهور نوعى يعرض قضايا تتلاءم مع طبيعة الجمهور ويشهد آراء أدباء ونقاد وكتاب مصريون يعرضون صورة ذهنية إيجابية عن مصر فى هذا المجال . ألا أن المجالات الاعلامية والسياحية لم تلق تغطية تتناسب مع طبيعة أدائها فالسياحة المصرية تحتاج إلى جهود كبيرة من محررى ومراسلى المجلات العربية خاصة فى الظروف الحالية وكذلك المجال الرياضى لم يلق تغطية كبيرة ويرجع ذلك إلى أن المجلات العربية لاتولى أولوية للموضوعات الرياضية بل تكاد تخلو معظمها من صفحة للرياضة .

ثانياً : ضوابط نقل الصورة المصرية من المجلات العربية (توضيات) :

يرى الباحث انطلاقا من النتائج المعروضة تفصيلا فى ثنايا الدراسة وكذلك مناقشة هذه النتائج أن الصورة القومية المصرية تحتاج إلى إعادة نظر على أعلى المستويات المسئولة على الوجه التالى :

(١) لما كانت المجالات المعروضة هى المحاور الرئيسية التى انعكست خلالها الصورة القومية المصرية لذلك يلزم تشكيل لجنة قومية عليا لمراجعة صياغة هذه الصورة تكون من الرموز العليا لهذه المجالات (وزارة الأعلام والخارجية ـ والجامع الأزهر ـ والهيئة العامة للاستعلامات ـ ونقابة الصحفيين ـ ووزاة السياحة ـ ونقابة الفنانين ـ والمجلس الأعلى للشباب والرياضة ـ ووزارة الاقتصاد ـ وهيئة الاستثمار) . وتتلخص مهمة هذه اللجنة فى دراسة ماينشر فى وسائل الأعلام العربية وتحليلها ومناقشتها داخل كل تخصص وأعلام جمهور كل جهة من المسئولين عن إظهار هـــذه الصورة بالسلبيات والإيجابيات .

(٢) تنظيم دورات توعية للمحررين والمندوبين الذين يتعاملون مع المجلات العربية وغيرها من وسائل الأعلام العربية لمناقشة خطورة تشويه الصورة القومية لمصر من خلال مايبثونه من رسائل إعلامية مختلفة .

(٣) يجب إجراء مراجعة كاملة لمن يتعاملون مع الصحافة العربية من حيث عضويتهم فى نقابة الصحفيين وأحقيتهم فى ممارسة المهنة حتى لا يترك المجال لأفراد لا يعرفون واجبات العمل الصحفى ويسيئون إلى الصورة الذهنية لمصر .

(٤) من خلال نتائج الدراسة تبين أن الغالبية العظمى من الحوادث والجرائم منقولة من أقسام الشرطة ومحاضرها وأن المتهمين لم يحاكموا .

وهذا يستلزم السماح لرجال الشرطة بالأدلاء بأية معلومات عن قضايا من هذه النوعية حتى يتم الحكم النهائى فيها . كما أن المحررين لهـذه الحوادث يحتاجون إلى توعيـة قضائية للتعرف على التشريعات الأعلامية الخاصة بالنشر تقوم بها وزارة العدل بالاتفاق مع نقابة الصحفيين والهيئة العامة للاستعلامات .

مراجع الدراسة

(١) عبد القادر طاش، الصورة النمطية للإسلام والعرب فى مرآة الأعلام الغربى «الرياض : شركه الدائرة للأعلام المحدودة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م».

(٢) زياد أبو غنيمة، السيطرة الصهيونية على وسائل الأعلام العالمية «عمان دار عمار ١٤٠٤ — ١٩٨٤ م».

(٣) حماد إبراهيم حامد، «صورة الولايات المتحدة الأمريكية فى الصحافة المصرية اليومية : دراسة مقارنة بين حقبتى الستينات والسبعينات، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الإعلام - جامعة القاهرة، ١٩٨٦ م.

(٤) سمير حسين، بحوث الأعلام «القاهرة : عالم الكتب، ١٩٧٦م» ص ٣.

(٥) سمير حسين، البحوث الأعلامية فى الوطن العربى، بحوث ودراسات فى الدعوة والأعلام، كلية الدعوة والأعلام، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العــدد الأول ١٤١٣ هـ — ١٩٩٢ م ص ٧.

(٦، ٧) سمير حسين، تحليل المضمون «القاهرة : عالم الكتب، ١٩٨٣م» ص ١٨.

(٨، ٩) على عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية «القاهرة : عالم الكتب، ١٩٨٣ م» ص ٣.

(١٠) فهد العسكر، الصورة الذهنية محاولة لفهم واقع الناس والأشياء ط ١ « الرياض: دار طويق، ١٤١٤ هـ/١٩٩٣ م » ص ٩.

(١١) سهير بركات، الإعلام وظاهرة الصورة المنطبعة، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، العدد الأول - السنة الثامنة أبريل ١٩٨٠ م، ص ١٠٤.

(١٢) على عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية، مرجع سابق، ص ٧١.

(١٣) حامد زهران، علم النفس الاجتماعى « القاهرة: عالم الكتب، ١٩٧٧ ».

(١٤) عبد القادر طاش، الصورة النمطية للإسلام والعرب. مرجع سابق، ص ١٢. وأيضا:

Harding, John „ Stereo typeo „ International Encyclopedia of Social Sciences (New Yourk , The Macmillan Company and the free Press 1968. Vol 15. P. 259.

(١٥) Lippmann - Walter, Public Opinion (New York Macmillan 1922) P. 81.

(١٦) أحمد بدر، الإعلام الدولى « القاهرة: مكتبة غريب، ١٩٧٧ » ص ٣٧٢.

(١٧) أسعد رزق، موسوعة علم النفس « بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ١، ١٩٧٨ م » ص ٣٢.

(١٨) على عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية، مرجع سابق، ص ٤.

(١٩) على عجوة، العلاقات العامة والصورة الذهنية، مرجع سابق، ص ١٠.

(٢٠،٢١) على عبد القادر طاش ، الصورة النمطية للإسلام والعرب ، مرجع سابق ، ص ١٤ .

(٢٢) على عجوة ، العلاقات العامة والصورة الذهنية ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٢٣) ولبور شرام ، أجهزة الأعلام والتنمية الوطنية ، ترجمة محمد فتحى ، القاهرة الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧٠ ، ص ١٧١ .

(٢٤) Marshall Macluhan, The Mediun is the Message : An Iuvemtory of cffects (N. Y Bantam Books. ! (c8) P. 26

(٢٥) سمير بركات ، الأعلام وظاهرة الصورة المنطبعة ، مرجع سابق ، ص ١١٠ .

(٢٦) هربرت شيللر ، المتلاعبون بالعقول ، ترجمة عبد السلام رضوان ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكويت ، أكتوبر ١٩٨٦ م . ص ٥ .

(٢٧) جيهان رشتى ، الأسس العلمية لنظريات الأعلام ، القاهرة : دار الفكر العربى ، ١٩٧٥ ، ص ٥٣٤ .

(٢٨) لمزيد من التفاصيل — عبد القادر طاش ، الصورة النمطية للإسلام والعرب .. مرجع سابق .

— زياد أبو غنيمة ، السيطرة الصهيونية .. مرجع سابق .

— جاك شاهين ، وسائل الأعلام والصورة النمطية للعرب فى الأعلام الغربى ، أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية - لندن - ١٩٧٩ م ، وزارة الثقافة والأعلام ، دولة الإمارات العربية المتحدة .

(٢٩) حماد إبراهيم حامد ، صورة الولايات المتحدة الأمريكية فى الصحافة اليومية .. مرجع سابق ص ٢٠١ .

(٣٠) مصطفى المصمودى، النظام الأعلامى الجديد ، عام المعرفة ، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب — الكويت العدد ٩٤ ، أكتوبر ١٩٨٥ م ، ٢٣١ .

القسم الرابع

قسم الأدب :

١ ـ لزوميات البارودى

(لحق واستدراك)

الدكتور / السيد إبراهيم محمد الدد

٢ ـ موضوع البحث

النزعة الذاتية فى الشعر الجاهلى

الدكتور / حنفى محمود شطير الجعبرى

لزوميات البـــارودى

(لحق واستدراك)

بقلم الدكتور

السيد إبراهيم محمد الدد

فى العدد السابع من هذه الحولية (١٤٠٩ - ١٩٨٩) نشر لى بحث بعنوان «لزوميات البارودى »(١) وكنت قد اضطررت إلى الاكتفاء فى اصطفاء نماذجه الشعرية بما وجدت من ديوان البارودى آنئذ ، مضافا إليه دراسة الدكتور على الحديدى (محمود سامى البارودى شاعر النهضة) لاشتمالها على خمسمائة وأربعين بيتا مما لم يقع تحت يدى من شعره(٢) ، وقد عولت عليها لتعذر الحصول على بقية أشعار الديوان فى قوافى الميم والنون والهاء والواو ثم الياء .

فالديوان - فيما أعلم - طبع مرتين ، جاءت الأولى بشرح وتصحيح الشيخ محمود الإمام المنصورى أحـــد علماء الأزهر الشريف ، وتقع فى جزئين ، تضمن الأول منهما أشعار البارودى إلى آخر قافية الفاء ، وانتهى الثانى بآخر قافية اللام .

ثم توقف الشيخ عن طباعة بقيـــة الديوان لغلاء سعر الورق عام ١٩١٥(٣) .

أما الطبعة الثانية فقد حقق وشرح الجزئين : الأول والثانى منها الأستاذان

(١) ينظر : ص ٢١٤ - ٢٥٧ (٢) تنظر أولى صفحات الكتاب

(٣) ينظر : المصدر السابق ص ٤٢٨ ، ٤٣٢ .

على الجارم ومحمد شفيق معروف ، وقد استوعبا شعر البارودى إلى آخر قافية الكاف ، وطبعا فى مطبعة دار الكتب المصرية فأنجزت الأول منهما فى عام ١٩٤٠ وأنجز الثانى فى عام ١٩٤٢(١) .

ثم انتقل الأستاذ الجارم إلى جوار ربه فى ١٩٤٩/٢/٨ بعد أن بدأ فى تحقيق وإعداد الجزء الثالث من الديوان مع زميله الأستاذ محمد شفيق معروف الذى انفرد بالعمل فى بقية الديوان موفيا بعهد زميله الراحل، فأصدر الجزء الثالث عن دار المعارف بمصر عام ١٩٧٤ متضمنا شعر البارودى فى قافيتى (اللام والميم) ثم أصدر الجزء الرابع سنة ١٩٧٥ مشتملا على بقية شعر البارودى .

وقد بحثت عن هذين الجزئين طويلا حين إعداد البحث ، فلم أظفر بأى منهما ، لذا اكتفيت ـ مضطرا ـ بما ذكرت فى مستهل هذا اللحق .

وقبيل مثول الحولية للطبع آنذاك قدر الله ـ عز وجل ـ لى السفر إلى المملكة العربية السعودية فقضيت هناك خمسة أعوام شغلت فيها ببعض البحوث الأخرى ، ثم عدت إلى مصر ، فإذا بحث (لزوميات البارودى) يتتبع خطاى ، ويلح على إلحاحا شديدا أن أبحث عن بقية نصوصه ، فلبيت وأذعنت ، وطفت بدور النشر فى القاهرة حتى تمكنت بفضل الله تعالى ثم بمؤازرة صديق ذى خبرة فى هذا الحقل من العثور بنسخة كاملة للديوان مصورة عن طبعة دار الكتب فى الجزئين : الأول والثانى ، وطبعة دار المعارف فى الجزئين الثالث والرابع ، وهى الطبعة الثانيـــة للديوان وقد تحدثت عنها آنفا .

عدت إلى بيتى قرير العين شاكرا ربى عز وجل ، ثم عكفت على ديوان البارودى فى قوافى :الميم والنون والهاء والواو والياء لاستخراج ما التزم فيه

---

(١) قامت دار المعارف بطباعتهما بنفس التحقيق سنة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م وبين الطبعتين فارق فى ترقيم الصفحات .

مالا يلزم من أشعارها ، ولما فرغت من ذلك العمل قررت إعادة النظر فيما نشرت فعنت لى بعض الاستدراكات التى ينبغى التنبيه عليها .

وها أنذا ـ التزاما بالأمانة العلمية ، وتقديرا لمكانة هذه الحولية ، ووفاء بحق البارودى ـ أنشر هذا اللحق متضمنا ما يلى :

أولا : أقمت الدراسة المنشورة على ما استخلصته من ثلاثين قصيدة ومقطوعة لزومية ، اشتملت على مائتين وثلاثة وسبعين بيتا(١) ، مضافا إليها مامثلت به نقلا عن مؤلف الدكتور على الحديدى (محمود سامى البارودى شاعر النهضة) .

وأقرر هنا أننى لم أجد فى لزومياته من قوافى (الميم ـ النون ـ الهاء ـ الياء)(٢) ما يخرج على الموضوعات الشعرية التى تحدثت عنها فيما نشرت ، أو يشذ عن الخصائص والسمات الفنيـــة التى انتهى البحث إليها ، ومن ثم اكتفيت بذكر مطالعها وتعيين أماكنها فى الديوان ، وتحديد الروى فى كل منها ، وما التزم فيها ، وعدد أبياتها(٣) .

وقد بلغ اللزوم ـ وفقا للإحصاء الجديد الذى سيرد فى ختام هذا اللحق ـ خمسا وخمسين قصيدة ومقطوعة ، عـــددها (٣٨٩) بيتا ، تشكل نسبة (٧,٣١ ٪) من مجموع شعر البارودى البالغ (٥٣١٨) بيتا فى طبعة دار الكتب ودار المعارف .

ثانياً : ذكرت فيما نشرت أن التزام الحرف دون حركته قليل فى لزوميات البارودى ، وأن الشائع لديه هو التزام الحرف مع حركته(٤) وعكس هذا الكلام هو الصواب ، ولذا صنعت كشافا جديدا فصلت فيه بين لونى اللزوم فى شعر البارودى وهما : التزام الحرف فقط وهذا هو الشائع فيه ، والتزام

---

(١) تنظر الحولية : ٢١٨ .

(٢) لم أجد له لزوميات فى روى الواو . ينظر : الكشاف فى ختام هذا اللحق .

(٣) ينظر : الكشاف ٣٤٠ - ٣٤٣ (٤) تنظر الحولية : ٢١٧ .

الحرف مع حركته ونماذجه قليلة قله ملحوظة ، قصرها الدكتور إبراهيم أنيس على قصيدة واحدة . يقول مختتما حديثه عن مراتب القافية فى لزوميات أبى العلاء :

« ولست أعلم بين المحدثين من الشعراء من نهج نهج أبى العلاء فى لزومياته غير البارودى فى قصيدة واحدة جاء فيها :

إلام يهفو بحلمك الطرب   أبعد خمسين فى الصبا أرب

وهذه القصيدة فى المرتبة الثانية من مراتب اللزوميات عند أبى العلاء ، فقد التزم فيها الشاعر غير الروى وحركته حرفا وحركة قصيرة قبل الروى . على أنه فى ثلاثة أبيات من هذه القصيد التى عدتها ٢٦ بيتا قد أخل بالحركة التى قبل الروى ، وجعلها الكسرة مع أنها فى باقى الأبيات الفتحة »(١) .

بيد أنى لم أنهج نهج الباحث الفاضل ، لإخلال الشاعر بالحركة التى قبل الروى كما ذكر ، فجعلتها من باب لزوم الحرف فقط(٢) ، ولو نهجت نهجه لدخلت لزوميات أخرى فى هذا اللون ، وقد نبهت إلى ذلك عقب الاحصاء الخاص به الذى جاء مقصورا على مقطوعتين(٣) . وبذلك يكون البارودى قد حذا حذو سابقيه فى هذا المضمار ، فالتزام الحرف مع حركته قليل فى الشعر العربى كما قررت فيما نشرت (٤) ، والمعتد به فى اللزوم أن يلتزم الشاعر حرفا أو أكثر ، وقد يزيد فيلتزم الحركة أيضا .

ثالثاً : انتهيت فيما نشرت إلى أن المقطوعة الشعرية تزاحم القصيدة فى لزوميات البارودى(٥) ، وأقرر هنا ـ بعد إتمام حصر اللزوم ـ أن المقطوعات الشعرية تجاوزت فى عددها عدد القصائد ، وإن قلت عنها فى حصيلة الأبيات فقد اشتمل الإحصاء الجديد على إحدى وثلاثين مقطوعة لزومية تضمنت من الأبيات مائة وأربعة ، يقابلها أربع وعشرون قصيدة تضم بقية اللزوم

(١) موسيقى الشعر : ٢٧٨
(٢) ينظر : الكشاف : ٤٣٧
(٣) ينظر : الكشاف : ٤٤٤
(٤) تنظر : الحولية : ٢١٨
(٥) تنظر : الحولية : ٢٤٩

(٢٨٥ بيتا) منها ثلاث عشرة قصيدة كل منها لم يبلغ عشرة أبيات .

رابعا : ألمحت فيما سبق نشره إلى أن اللزوم ضيق من خطو البارودى وقصر من عنانه إذ وقف فى أطول لزومية عند البيت الثانى والثلاثين(١) . وأنبه هنا إلى لزومية ميمية بلغت ثمانيـــة وثلاثين بيتا(٢) عثرت بها بعد حوزتى للديوان كاملا ، فهى أطول لزومياته .

خامسا : خالفت فى صنع الإحصاء تصنيف الديوان فى ثلاث قصائد ، لوضعها فى غير بابها فيما أحسب ، ففى قافية (الحاء) جاءت القصيدة التى استهلها البارودى قائلا(٣) :

ماذا على قرة العينين لو صفحت وعاودت بوصال بعد ما صفحت

وقد خالفت ذلك إذ وضعتها فى قافية (التاء) لالتزام الحاء قبلها فى جميع أبياتها ، وأحسب أن صنيعى هذا قد اتخذ مما قرره أهل العلم بالعروض والقوافى سندا ودليلا .

يقول الدكتور إبراهيم أنيس فى حديثه عن وقوع (التاء) رويا :

« يرى أهل العروض أنه يحسن فيها ألا تكون تاء تأنيث ، وذلك بأن تكون أصلا من أصول الكلمة أو جزءاً من بنيتها لا تفترق عنها .. على أن الشعراء قد استساغوا وقوع تاء التأنيث رويا حين تسبق بألف مد ، وقد كثر هذا فى أشعارهم ، القديم منها والحديث .. أما تاء التأنيث التى لا تسبق بألف مد فقد عدها الشعراء رويا ضعيفا بنفسه ، ولا بد من تقويته بإشراك حرف آخر مع (التاء) حتى لا يكون ما يتكرر فى أواخر الأبيات مقصورا عليها ، وقد كان القدماء يلتزمون مع التاء حرفا آخر فى غالب الأحيان يتكرر معها فى كل أبيات القصيدة »(٤) .

---

(١) تنظر الحولية : ٢٥٣
(٢) ينظر : الكشاف : ٤٤٠
(٣) ديوانه : ١١٥/١
(٤) موسيقى الشعر : ٢٤٩ — ٢٥٠

وهذا ينطبق تماما على القصيدة التى نتحدث عنها ، بل إن من الأقدمين من جعل تاء التأنيث رويا دون التزام حرف قبلها فى جميع أبياتها كالشنفرى الأزدى ، ومهيار الديلمى ، وكثير عزة فى بعض روايات قصيدته :

خليلى هــــذا ربع عزة فاعقلا
قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت(١)

وثمت أمر آخر حدا بى إلى مخالفة تصنيف الديوان ، ذلك أننا لو جعلنا (الحاء) رويا لكانت (التاء) وصلا وقد قرر العروضيون أن الوصل يكون أحد أربعة أحرف هى (الألف والواو والياء والهاء) إذا وقعت فى موضع لايصح فيه أن تكون رويا ، ولا يكون حرف من حروف المعجم وصلا سواها(٢) .

فبسبب ماتقدم وضعت هذه القصيدة فى قافية (التاء) .

وفى قافية (اللام) وضعت القصيدة التى جاء مطلعها(٣) :

يا قلب مالك لا تفيــ ق من الهوى ياقلب مالك

وقد جعلتها فى قافية الكاف لالتزام حرف قبلها كما اشترط أهل العلم بالعروض فى كاف الخطاب إذا وقعت رويا(٤) .

وقد رجح محقق الديوان وضع القصيدة فى قافية اللام ، وجعل الكاف وصلا ، ولا أدرى على أى شىء بنى هذا الترجيح ؟ فالكاف لاتصلح وصلا، إضافة إلى استيفائها شرط وقوعها رويا .

وفى قافية الميم صنفت القصيدة التى استهلها البارودى قائلا(٥) :

يا بانة من لى بضمك يا زهرة من لى بشمك

(١) ينظر البلاغة الفنية ١٨ - موسيقى الشعر ٢٥٠
(٢) ينظر : نهاية الراغب فى شرح عروض ابن الحاجب : ٣٥٦
(٣) ديوانه : ٣/٢٥٤ - ٢٥٦ (٤) ينظر : موسيقى الشعر ٢٥١
(٥) الديوان : ٣/٥٢٦

وقد جعلتها فى قافية الكاف لما ذكرت فى القصيدة السابقة ، كما وقف المحقق منها موقفه من سابقتها إذ قال : « هذه الأبيات رويها الميم ، والكاف بعده حرف وصل ، ويصح أن تكون الكاف نفسها رويا ، وعلى هذا تدرج الأبيات فى قافية الكاف والأمران جائزان صحيحان ، والأول مستحسن راجح » .

ولا زلت أتساءل - بعد ماقدمت - على أى شىء بنى هذا الاستحسان وذلك الرجحان ؟

فموقفى من هذه هو موقفى من تلك .

سادسا : جعلت (الردف) من باب اللزوم إذا كان واوا ملتزمة أو ياء ملتزمة فى كل القصيدة ، فقد كان للشاعر مندوحة فى العدول ولكنه التزم ، وهذ يخالف ماقد يفهم من كلام ابن الأثير فى هذا الصدد(١) ، لأن « الجمع فى القوافى بين الواو والياء غير معيب .. فلو أن الشاعر التزم الواو وحدها أو الياء وحدها لعد صنيعه من باب اللزوم ، لأنه التزم شيئا لاتوجبه عليه قواعد العروض .. وإن كان التزام أحدهما وحده - إذا وقع عفوا - أحسن تنغيما، بخلاف الألف فإنها لا يصح أن تقع مع الواو والياء »(٢) .

ويقول ابن رشيق : « كان ابن الرومى خاصة من بين الشعراء يلتزم مالا يلزمه فى القافية حتى إنه لا يعاقب بين الواو والياء فى أكثر شعره قدرة على الشعر واتساعا فيه »(٣) .

سابعا : قرر الأستاذ على الجندى أن اللزوم سمة شعرية ولدت مع الشعر وسايرته فى جميع عصوره ، ولا يمكن أن يخلو منه شعر شاعر ، بل قل أن

---

(١) ينظر : المثل السائر : ٢٨٦/١ - ٢٨٧

(٢) البلاغة الفنية : ٩ - ١٠ (٣) العمدة : ١٦٠/١

تخلو قصيدة ، بل مقطوعة من اللزوم ما دمنا نقنع بوقوعه فى البيتين أو الثلاثة .

بيد أنه عاد فقال : « إنى لا أعتبر هذا النوع القليل من اللزوم ، فليس من الصواب أن يمثل له بالبيتين المتواليين ، أو الأبيات المتفرقة المتناثرة فى تضاعيف القصيدة »(١) .

وقد وافقت صاحب هذا الرأى - وهو شاعر ذواقة - فى عدم الاعتداد بالأبيات المتناثرة ، بل إننى لم أعتد بأى قصيدة أو مقطوعة أخل البارودى باللزوم فيها حتى ولو كان فى بيت واحد ولم أستثن من ذلك النهج سوى تائيته التى استهلها قائلا(٢) :

ماذا على قرت العينين لو صفحت
وعاودت بوصال بعد ما صفحت

إذ أثبت المحققان البيت الرابع فيها بالرواية التالية :

خوطية القد لو مر الحمام بها   لم يشتبه أنها من أيكه انتزعت

ثم أشارا فى الهامش رقم (٦) إلى أنها بالأصل (انتزحت) .

أى أن الشطر الثانى فى أصول الديوان خط هكذا :

* لم يشتبه أنها من أيكه انتزحت *

ومن ثم أدخلت القصيدة فى باب اللزوم .

وقد خالفت الأستاذ الجندى فحكمت بوقوع اللزوم فى المقطوعات المكونة من بيتين فأكثر ، لتحقق شرط اللزوم ، وإن كان وقوعه فى القصائد والمطولات أدل على قدرة الشاعر وعنايته بفنه .

ثامنا : قرر نقاد الأدب وأهل العلم به أن الكثرة فى المحسنات البديعية معيبة ، وأرانى مع من أخرج اللزوم من هذا الحكم ، شريطة أن يأتى عن

(١) البلاغة الفنية : ١٧

(٢) الديوان : ١/١١٥ .

طبع، لا عن اجتلاب وتكلف، لأن الكثرة هنا لا يضيق بها الصدر، ولا تنبو عنها الأذن، إذ ليست إلا الانسجام السارى فى مقاطع الكلام، وهو مطلوب ومحبوب(١).

وقد عقب الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ـ رحمه الله ـ على ماذهب إليه جمهرة النقاد فى جعلهم اللزوم حلية دالة على قوة الأديب، فلا يؤخذ بتركه فقال: «غير أنى أرى أن الحروف تتساوق، وأن اللسان ميزان، فربما كان موضع لا يجد فيه البليغ المطبوع بدا من الالتزام فيفعل ذلك طبعا لا صناعة، لأنه يرى اللسان يثبت فى الكلمات، فإذا لم يقع من كل كلمة على الحرف الملتزم أخلى فلم يصب الرنة، وكان ذلك فى الكلام شبيها بالعواثير التى تكون فى الطرق، ومن أجل ذلك لا يتم حسن هذا النوع إلا فى الكلمات المتوازنة بالألفاظ ... أو بالمقاطع...فإذا لم يتفق هذا التوازن ... فهو حينئذ الإعنات والتضييق والتشديد إذا كان يحتسب التزاما، لأنه غير طبيعى فى الكلام، بل لو اطرد لكان ثقيلا وخما تثب له السليقة وثبة أحشاء المتقيء»(٢).

ولا غرو أن يصدر هذا الكلام عن الرافعى، فقد عايش الأدب إبداعا وتقويما، وكان ـ وسوف يبقى ـ ممن يشار إليهم بالبنان.

وفيما يتصل بلزوميات البارودى تؤكد ماذكرناه فيما نثر فنقول إنها تدخل فى باب اللزوم الحسن ـ غالبا ـ وإن كان قد أدى إلى شيوع المقطوعة فى بابه وقلق بعض القوافى. غير أنى لحظت البارودى فى جزء ضئيل من اللزوم عامدا إلى الصنعة، كلفا بالجناس، لعبا بالألفاظ، مختالا بثقافته اللغوية المستمدة من ينابيع ثرة. والمقطوعة التالية خير دليل على هذه الملحوظة.

---

(١) ينظر: البلاغة الغنية: ٢٧

(٢) تاريخ آداب العرب ٣٠/٣٥٨

قال البارودى(١) :

وشامخ فى ذرا شماء باذخة
لا يعرف الصدق إن والى وإن عادا

يعوده الناس إن مر النسيم به
ولا يعود من الإشفاق من عادا

لا يهدأ الدهر من ظلم يحاوله
فإن قضى وطرا من غدرة عادا

يسطو بهذا ويرمى ذاك عن عرض
كطارد يقتنى صيدين إذ عادا

أباده الدهر رغمـــا بين أسرته
كما أباد بريح صرصر عادا

فاعرف إلهك ، واحذر أن تبيت على
وزر ، ولا تتخذ ظلم الورى عادا

فهذه ستة أبيات اتحدت قافيتها لفظا (عادا) واختلفت معنى ، إذ قصد بها فى البيت الأول : المعاداة وهى ضد الموالاة ، وفى البيت الثانى : الزيارة ، وفى الثالث : العودة والرجعة ، وفى الرابع : الموالاة والتتابع ، يقال : عادى بين الصيدين معاداة وعداء إذا والى وتابع بينهما ، وصرع أحدهما على إثر الآخر فى طلق واحد .

وجاءت اللفظة فى البيت الخامس مشيرة إلى قوم هود ، وأما فى البيت الأخير فقصد بها العادة .

وهذا الضرب من المنظوم تحدث عنه الأستاذ الرافعى فى باب (القوافى المشتركة) واختتمه قائلا :

« ومهما يكن فالنظم فى هذه الأنواع مما يجوز أن يحاضر به فى اللغة على

(١) ديوانه : ٢٥٢/١ وقد ذكرت المقطوعة فيما نشر .. تنظر الحولية ص ٢٣٩ .

وجه المعاياة ، وكان هذا من فائدته قبل أن يشيخ ، أما بعد ذلك فهو لغو يحسبونه لهواً ، وعناء يظنونه غناء ، وصناعة من الباطل يرون فيها صياغة لتحلية العاطل ، وإنما الفرق بين ذلك فرق بين الأضداد(١) .

تاسعاً : لقد عايشت لزوميات أبي العلاء المعرى حقبة من الزمن ثم تطلعت إلى إعداد بحث فى لزوميات البارودى فكان لابد من معايشتها على النحو الذى ذكرته فى مستهل هذا اللحق ، لذا يمكننى أن أقول ـ مطمئنا ـ إن لزوميات البارودى تلتقى مع لزوميات أبي العلاء المعرى فى الإطار العام ، فقد كشف فيها البارودى عن ذاته وثقافته وفلسفته وما يجيش فى وجدانه من آلام وآمال، كما صوب شطرا منها نحو مجتمعه ومافيه من أمراض ومثالب أخلاقية واجتماعية ، ولا غرو ، فقد تجرع البارودى الحياة غصصا خالصة كما كان حال شيخ المعرة .

وحرى بالذكر أن هناك أشعارا للبارودى لم تنشر بعد ، ضمنها نقداً وهجاء لاذعين للساسة حينئذ ، وقد شطبها الأستاذ محمود الإمام ناشر أول طبعة للديوان ، ثم حذا حذوه محققا الطبعة الثانية ـ فيما عدا قصيدة واحدة عرض فيها البارودى برؤساء الجند الذين تخاذلوا فى الثورة العرابية(٢) ـ ولا نستبعد أن يكون البارودى قد التزم مالا يلزم فى جانب منها .

أما ماعرفنا من لزومياته فجاء أكثره فى الوصف والزهد والحكم .

عاشرا : أختتم هذا اللحق مؤكدا أن البارودى لم يحتمل كبير عناء فى لزومياته ، وإنما دعا الألفاظ فاستجابت له ، وأهاب بها فأسرعت إليه ، بل لعله لم يفطن إلى وقوع اللزوم فى بعض قصائده ، لاسيما تلك التى لم يمض باللزوم فيها إلى نهايتها(٣) .

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٣/٣٦٤ وتنظر نماذج أخرى فى ديوان البارودى ١/١٢٦ ، ٢١٦ ، ٣/٢٢٤ .

(٢) ينظر : محمود سامى البارودى شاعر النهضة ٤٢٩ ، ٤٣٣

(٣) ينظر مانبهت إليه عقب الكشاف (ب) ص ٤٤٤

كما أنبه إلى أن العلماء بالشعر ألحقوا باللزوم ألوانا من الكلام يتعذر حصرها كتصغير الكلمة الأخيرة من الشعر ، والإتيان فى الكلام بألفاظ لا تنطبق الشفتان فى حروفها ، والمجاز ، والحذف(١) .

ولم أعن بالبحث عنها فى شعر البارودى تقيدا بما ارتضيته فى تعريف اللزوم(٢) ، فما ألحق به يعد تزيداً وتشدداً ، عشقا للزينة ، وكلفا بالتصنع .

أسأل الله سبحانه أن أكون مصيباً فيما استدركت وألحقت، وأن أكون بهذا الجهد قد وفيت اللزوم فى شعر البارودى حقه من البحث والدرس ، والله حسبي ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين ؟

---

(١) ينظر : المثل السائر : ٢٨٩/١ ـ البلاغة الفنية : ٣٠ ومابعدها ـ تاريخ آداب العرب : ٣٦٠/٣ ومابعدها

(٢) تنظر : الحولية ٢١٤

كشاف الزوم فى ديوان البارودى وفق طبعة دار الكتب (ج ١ ، ٢) ودار المعارف (ج ٣ ، ٤)

(ا) لزوم الحرف

م	الجزء والصفحة	المطلع		الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
١	٢٤/١	وخميلة بكرت سماوة أيكها	تحمى الهجير عن النفوس وتدرأ	الهمزة المضمومة	الراء	١٠
٢	٢٦/١	ألا هاطنيها بنت كرم تزوجت	على نغمات العود بابن سماء	الهمزة المكسورة	الميم	٨
٣	٧٧/١	ليس ابن آدم ذا جهل بمصرعه	لكنه يتناسى الجد باللعب	الباء المكسورة	العين	٢
٤	٨٤/١	إلام يهفو بحلمك الطرب	أبعد خمسين فى الصبا أرب	الباء المضمومة	الراء	٢٦
٥	٩٢/١	زمزمى الكأس وهاتى	واسقنيها يا مهاتى	التاء المكسورة	الهاء	٦
٦	١١٥/١	ماذا على قرة العينين لو صفحت	وعاودت بوصال بعد ماصفحت	التاء الساكنة	الحاء	٣٢
٧	١٢٦/١	بلغت مداك من أرب فسيحى	فأنت اليوم فى جو فسيح	الحاء المكسورة	السين والياء المدودة	٧
٨	٢١٦/١	أنسيم سرى بنفحة رند ؟	أم رسول أدى تحية هند ؟	الدال المكسورة	النون	١٨
٩	٢٣٧/١	لقد طال عهدى بالشباب وإنه	لأدعى لشوق أن يطول به عهدى	الدال المكسورة	الهاء	١٢

م	الجزء والصفحة	المطلع		الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
١٠	/٢٤١	ألا يانحلة سرحت فحازت	سلالة ماتولته العهاد	الدال المضمومة	الهاء	٧
١١	٢٥٢/١	وشامخ فى ذرا شماء باذخة	لايعرف الصدق إن والى وإن عادى	الدال المفتوحة	العين	٦
١٢	١١٠/٢	لكل حى نذير من طبيعته	يوحى إليه بما تعيا به النذر	الراء المضمومة	الذال	١١
١٣	١٠٧/٢	رجع الخديو لمصره	وأتت طلائع نصره	الراء المكسورة	الصاد	٤
١٤	١١٢/٢	ألا هتفت بالأيك ساجعة القمر	فطف بالحيا فهى ريحانة العمر	الراء المكسورة	الميم	١٩
١٥	١٢١/٢	يا أيها السرف المدل بنفسه	كسفينة فى لج بحر ماخره	الراء المفتوحة	الخاء	٧
١٦	١٢٢/٢	فعلت خيرا بقوم	فعاملونى بضير	الراء المكسورة	الياء الساكنة	٢
١٧	١٢٣/٢	ألهتكم الدنيا عن الآخره	وهى من الجهل بكم ساخره	الراء المفتوحة	الخاء	١٢
١٨	١٩٦/٢	تمهل ولا تعجل إذا رمت حاجة	فقد يلحق الخسران من يتورط	الطاء المضمومة	الراء	٢
١٩	٢٢٥/٢	ألا بأبى من حسنه وحديثه	إذا ماالتقينا لذة العين والسمع	العين المكسورة	الميم	٢

م	الجزء والصفحة	المطلع	الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
٢٠	٣٦٨/٢	يا ويح نفسى من هوى شادن غازل قلبى لحظـــه فانهتك	الكاف الساكنة	التاء	٥
٢١	٢٥٤/٣	يا قلب مالك لا تفيـــ ق من الهوى يا قلب مالك	الكاف الساكنة	اللام	٧
٢٢	٥٢٦/٣	يابانة من لى بضمك ؟ يا زهرة من لى بشمك	الكاف الساكنة	الميم	٧
٢٣	١٨٣/٣	وذى حدب يلتج بالسفن كلما زفته تموج يعـــلو ويسفل	اللام المضمومة	الفاء	١٩
٢٤	١٩٨/٣	يا ناصر الحق على الباطل خذ لى بحقى من يدى ماطل	اللام المكسورة	الطاء	٦
٢٥	٢٠٥/٣	ما الدهر إلا ضوء شمس علا وكوكـــب غام ونبت بقل	اللام الساكنة	القاف	٨
٢٦	٢٠٩/٣	لا تركنن إلى الزمان فربمـا خدعت مخيلته الفؤاد الغافـلا	اللام المفتوحة	الفاء	٨
٢٧	٢١٦/٣	تسابق فى المـكارم تعلُ قدرا فسبق الناس للخيرات فضـل	اللام المضمومة	الضاد	٢
٢٨	٢٢٤/٣	ليس لى غير خالك الحجر الأسـ ود فى كعبة المحاسن قبـله	اللام المفتوحة	القاف والباء	٢
٢٩	٢٢٥/٣	يا هاجرى ظلما بغير خطيئة هل إلى الصفح الجميل سبيل ؟	اللام المضمومة	الياء الممدودة	٢

م	الجزء والصفحة	المطلع		الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
٣٠	٢٢٨/٣	دع المخافة واعلم أن صاحبها	وإن تحصن لا ينجو من الغيل	اللام المكسورة	الياء المتحركة	٢
٣١	٢٥٧/٣	أيها المغرور ، مهلا	لست للتكريم أهلا	اللام المفتوحة	الهاء	٩
٣٢	٤٣٣/٣	لعمرك مايدعى الفتى بين قومه	بذى كرم حتى يكون كريما	الميم المفتوحة	الياء الممدودة	٤
٣٣	٤٤٩/٣	منحتك ألقاب العلا فادعنى باسمى	فما تخفض الألقاب حرا ولا تسمى	الميم المكسورة	السين	١٤
٣٤	٤٥٦/٣	قالوا : ألا تصف الغرام لنا	حتى يحيط بنعته الفهم	الميم المضمومة	الهاء	٤
٣٥	٤٦٠/٣	متى ينقضى عمر الحياة فتنقضى	مآرب كانت علة للمظالم	الميم المكسورة	اللام	٧
٣٦	٤٦٤/٣	خليلى مافى الدهر أطول حسرة	من المرء يلقى فرصة فيخيم	الميم المضمومة	الياء الممدودة	٢
٣٧	٤٦٥/٣	أخو العلم فى الدنيا لذى الجهل محوج	وكل له عند القياس معالم	الميم المضمومة	اللام	٢
٣٨	٤٨٢/٣	هجوتك غير مبتدع مقالا	سوى مافيك من دنس وشؤم	الميم المكسورة	الهمزة	٢
٣٩	٥٠٦/٣	بأى غزال في الخدور تهيم	وغزلان نجد مالهن حميم	الميم المضمومة	الياء الممدودة	٣٨

م	الجزء والصفحة	المطلع	الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
٤٠	٥٣٤/٣	أيها الشاعر المجيد تدبر واجعل القول منك ذا تحكيم	الميم المكسورة	الياء الممدودة	٢
٤١	٥٥٦/٣	يالك من ذى أدب أطلعت فكرته ثاقب الأنجم	الميم المكسورة	الجيم	١٠
٤٢	٥٥٩/٣	يدل على أن ليس فى الدهر رحمة خيانة (شمر) بعد غدر (ابن ملجم)	الميم المكسورة	الجيم	٥
٤٣	١١٨/٤	لا تخش بؤسا من عدو ظاهر واخش المكيدة من عدو باطن	النون المكسورة	الطاء	٢
٤٤	١٢٤/٤	وملمس عفة قد نلت منه بأيدى اللهو ما شاء التمنى	النون المكسورة	النون الساكنة	٥
٤٥	١٢٦/٤	ياراحلا غاب صبرى بعد فرقته وأصبحت أسهم الأشواق تصمينى	النون المكسورة	الياء الممدودة	٤
٤٦	١٢٧/٤	إن لى صاحبا ـ ولا بد منه ـ قل صبرى به وزادت شجونى	النون المكسورة	الواو المنذودة	٢
٤٧	١٣٠/٤	لا تركنن إلى النمام إن له خدعا يفرق بين الروح والبدن	النون المكسورة	الدال	٢

م	الجزء والصفحة	المطلع	الروى	الحرف الملتزم	عدد الأبيات
٤٨	١٣١/٤	وذى وجهين تلقاه طليقا محيّـــاه وباطنه حزين	النون المضمومة	الياء الممدودة	٢
٤٩	١٦٤/٤	مالى وللدار من ليلى أحييها وقد خلت من غوانيها مغانيها	الهاء المفتوحة	الياء الممدودة	١٨
٥٠	١٧٧/٤	أحببت من والى (عليا) رغبة فى فضله ، وكرهت من عاداه	الهاء المضمومة	الدال	٦
٥١	١٨٤/٤	لمصطفى صادق فى الشعر منزلة أمسى يعاديه فيها من يصافيه	الهاء المكسورة	الفاء والياء الممدودة	٤
٥٢	١٨٥/٤	إن « سرنديب » على حسنها يسكنها قوم قباح الوجـوه	الهاء الساكنة	الواو الممدودة	٩
٥٣	٢٣٠/٤	أتانى أن (عبدالله) أصغى إلى واش ، فغيرّه عليّـا	الياء المفتوحة	الياء الساكنة	٤

(ب) لزوم الحرف والحركة

م	الجزء والصفحة	المطلع	الروى	الحرف الملتزم وحركته	عدد الأبيات
١	٢/٩٦	أمريم لا والله أنساك بعدما صحبتك فى خفض من العيش أنضر	الراء المكسورة	الضاد المفتوحة	٣
٢	٣/٢٠١	لأمر ماتحيرت العقــــول فهل تدرى الخلائق ماتقول	اللام المضمومة	القاف المضمومة	٦

تنبيـــه :

عد الدكتور إبراهيم أنيس قصيدة البارودى :

إلام يهفو بحلمك الطرب　　أبعد خمسين فى الصبا أرب

من الأشعار التى التزم فيها الحرف والحركة مع ملاحظته ماجاء فى بعض أبياتها من تعاقب فى الحركات ، وبذا يكون قد اعتد بالأكثر (ينظر موسيقى الشعر ص ٢٧٨) وفى ضوء ذلك نستطيع أن نلحق بهذا اللون قصيدته :

وخميلة بكرت سماوة أيكها　　تحمى الهجير عن النفوس وتدرأ

إذ التزم الراء المفتوحة فى قافية القصيدة عدا البيت الثانى فقد جاءت فيه مضمومة (يجْـرُؤُ) .

وقد فعل البارودى نفس الشىء فى مقطوعته :

يدل على أن ليس فى الدهر رحمة

خيانة (شِمر) بعد غدر (ابن مُلجَم)

إذا التزم الجيم المفتوحة فى أربعة أبيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٥) وجاءت الجيم مضمومة فى واحد فقط (بأنجُم ـ) .

أهم مصادر البحث ومراجعه(*)

١ — تاريخ آداب العرب (الجزء الثالث) للرافعى - دار الكتاب العربى بيروت - ط(٢) سنة ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م .
٢ — تحرير التحبير - ابن أبى الإصبع - تحقيق د. حفنى شرف - ط . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٨٣هـ .
٣ — البلاغة الغنية - الأستاذ على الجندى - الأنجلو المصرية - ط(٢) ١٩٦٦
٤ — خزانة الأدب - ابن حجة الحموى - ظ . بولاق سنة ١٢٩١هـ .
٥ — ديوان ابن خفاجة - تحقيق د. السيد مصطفى غازى - منشأة المعارف سنة ١٩٦٠م .
٦ — ديوان ابن الرومى - تصنيف الأستاذ كامل كيلانى - مطبعة التوفيق الأدبية - بلا تاريخ .
٧ — ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى - تحقيق د. محمد عبده عزام - دار المعارف ١٩٦٥م .
٨ — ديوان البارودى - تحقيق الشيخ محمود الإمام - مطبعة الجريدة بلا تاريخ .
- طبعة أخرى بتحقيق الأستاذين على الجارم ومحمد شفيق معروف . ط . دار الكتب ودار المعارف .
٩ — العمدة - ابن رشيق - تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد - دار الجيل ببيروت - ط(١) سنة ١٤٠١هـ — ١٩٨١م .

(*) اكتفيت فيما نشر بالإشارة إلى المصادر والمراجع فى هوامش البحث ، ومن ثم سأجمع أهمها هنا مرتبا ابجديا .

١٠ — فى الأدب الحديث ـ د. عمر الدسوقى ـ دار الفكر العربى ـ ط(٥) سنة ١٩٦١م .

١١ — اللزوميات ـ أبو العلاء المعرى ـ تحقيق الأستاذ أمين عبد العزيز الخانجى ـ مطبعة التوفيق الأدبية سنة ١٣٤٢ هـ

١٢ — المثل السائر ـ ابن الأثير ـ تحقيق الدكتورين أحمد الحوفى وبدوى طبانه ـ نهضة مصر ، ط(١) سنة ١٣٧٩ — ١٩٥٩ م .

١٣ — محمود سامى البارودى شاعر النهضة ، د. على الحديدى ، الأنجلو المصرية ، ط(٢) بلا تاريخ .

١٤ — مدارس الشعر العربى فى العصر الحديث ، د. صلاح الدين محمد عبد التواب ، مطبعة السعادة ، ط(١) سنة ١٤٠٢هـ — ١٩٨٢ م .

١٥ — موسيقى الشعر ، د. إبراهيم أنيس ، الأنجلو المصرية ، ط(٥)١٩٧٨م .

١٦ — نهاية الأرب ، النويرى ، دار الكتب ، ط(١) سنة ١٣٤٧ - ١٩٢٩م .

١٧ — نهاية الراغب فى شرح عروض ابن الحاجب ، جمال الدين عبد الرحيم الإسنوى ، تحقيق د. شعبان صلاح ـ نشر دار الثقافة العربية ، ط(١) سنة ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨م .

* * *

موضوع البحث «النزعة الذاتية فى الشعر الجاهلى»

بقلم الدكتور

حنفى محمود شطير الجعبرى

تمهيد :

يرى بعض الأدباء والنقاد المعاصرين : « أن الشعر الجاهلى شعر قبلى اختفت منه النزعة الذاتية ، وحلت محلها النزعة القبلية(١)» فدفعنى هذا الرأى - وغيره من الآراء الأخرى التى سنتناولها - إن شاء الله - فى موضعها من هذا البحث - إلى استقراء بعض القصائد ، والمقطوعات الشعرية الواردة بدواوين بعض الشعراء الجاهليين ، ومصادر شعرهم ، كى أتمكن من الوقوف على صحة هذه الآراء أو عدم صحتها .

ولإثبات هذا بدأت حديثى ببيان ما أقصده بالنزعة الذاتية ، ثم تناولت فى حديث موجز المجتمع القبلى ، ومكانة الشاعر فى قبيلته ، ونزعته الجماعية ، ومدى سيطرتها على غالبية شعره ، وهل أخمدت هذه النزعة نزعته الفردية ؟ وغير ذلك من الخطوات الأخرى التى يمكن متابعتها فى هذا البحث .

المقصود بالنزعة الذاتية :

قال ابن منظور فى مادة « نزع » : « نازعتنى نفسى إلى هواها نزاعا غالبتنى،

---

(١) الروائع من الادب العربى للدكتور سيد حنفى وآخرين ط ١ ص ٢٣ طبع الهيئه المصريه ١٩٨٣ م.

ونزع الإنسان إلى أهله، والبعير إلى وطنه ينزع نزاعاً، ونزوعاحن، واشتاق ورأيت فلانا متنزعا إلى كذا أى متسرعاً نازعا إليه(١)».

وقال الفيروز أبادى: النزوع الذى يحن إلى وطنه، ويشتاق، ويقال نازعته نفسه إلى الشيء أى دعته إليه(٢).

أما عن الذاتية فقد قيل: ذات الشيء حقيقته، وخاصته. يقال: عيب ذاتى؟ جبلى، وخلق، والنفس، والشخص، ويقال فى الأدب نقد ذاتى نقد يرجع إلى آراء الشخص، وانفعالاته، ويقال: جاء فلان بذاته وعينه(٣)».

ويرى بعض الأدباء، والنقاد المحدثين: أن الشعر الذاتى هو الذى يصور نفسية الفرد، وما يختلجه من عواطف، وأحاسيس سواء حين يتحمس الشاعر، ويفتخر، أو حين يمدح، ويهجو، أو حين يتغزل، أو يرثى، أو حين يعتذر، أو يعاتب، أو حين يصف أى شيء مما ينبث حوله فى جزيرته(٤).

ولقد قيل: إن الأدب الذاتى هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره، ومشاعره، وآرائه، وأحاسيسه، وتأملاته، فالشعر الغنائى من الأدب الذاتى، لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية، وخوالجه النفسية، وآماله(٥)...

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة «نزع».

(٢) القاموس المحيط للفيروز أبادى مادة «نزع».

(٣) المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية ص ٢٤٢ مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ص ١٩٠ طبع دار المعارف.

(٥) الأدب العربى بين الجاهلية، والإسلام للدكتور حسن جاد و د/ محمد عبد المنعم خفاجى ص ٢٢ المطبعة الفاروقية ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.

وتعرف الذاتية فى علم النفس « بأنها مجموعة الصفات العقلية الخاصة بالفرد ، وتمتاز بالصراحة التى يراد بها إظهار مافى النفس بغير إلتواء ، أو اعوجاج بحيث تكون أفكار الإنسان ظاهره ، وأقواله واضحة »(١) .

من هذا كله يتضح لنا أن حنين الإنسان ، واشتياقه إلى التعبير عما يكمن بداخل نفسه من مشاعر ، وأحاسيس يعد نزوعاً ، كما اتسمت مشاعره هذه بالذاتية ، لأنها خاصة بذاته ، وشخصه ، ومن هنا جاء قول بعض الأدباء : بأن الشعر الذى يعبر عن عواطف الفرد ، ويصور نفسيته ، ويفصح عن خواطره ، وآرائه ، وآلامه ، وآماله ، وغير ذلك من أحاسيسه الفردية يعد شعراً ذاتيا ، وهذا مانعنيه بالنزعة الذاتية سواء أكانت هذه الذاتية ذاتية شخصية معبرة عما يجيش به الصدر من مشاعر فردية خاصة أم ذاتية موضوعية معبرة عن المواقف والأحداث التى كانت تحدث بين القبائل العربية فى ذلك العصر ، فينبرى لها شاعر القبيلة بما لديه من قدرة على التعبير عن مفاخر قبيلته ، وذكر مواقعها المشهورة ، وفضائلها ، وشمائلها بضمير الجماعة التى يمثلها ، ويرى مجده ، وعزته من مجدها ، وعزتها ، لأن مايعتز به شاعر القبيلة من أمجاد مستمد من عزة قومه وأمجادهم ،ومن ثم فقد اندمجت ذاتيته الفردية بالذاتية الجماعية يعد إيمانه بكل ماشدا به من هذه الشمائل التى ذكرها فى شعره الذى دل دلالة واضحة على وفائه وإلتزامه بقيم مجتمعه القبلى كما سيتضح لنا فيما يأتى :

العقد الاجتماعى بين الشاعر وقبيلته :

القبيلة هى عماد الحياة فى العصر الجاهلى ، وملاذ أبنائها ، وملجأهم فى الدفاع عن أنفسهم ، وأموالهم ، وكل مايعتريهم من متاعب ، وشدائد فى ظل ظروف حياتهم القاسية ، ومن ثم ، فقد « كان أبناء القبيلة يؤمنون

(١) فى علم النفس د / حامد عبد القادر جـ ٢ ص ٤١١ المطبعة المصرية .

بوحدتها ، ويتعصبون لها ، ويتضامنون فيما بينهم فيما يجنيه أحدهم كما يقول المثل العربى « فى الجريرة تشترك العشيرة » ويعمـــلون بالمبدأ القائل « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »(١) .

ومن هنا أصبح النظام القبلى بين الأفراد الذين تربطهم وشائج النسب ، والقرابة ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية التى لا غنى عنها فى عصر « اشتعلت فيه جذوة العصبية القبلية ، والتشاجر الدائم بين قبيله ، وأخرى لأقل الأسباب ، كما كان للتفاخر بالانساب والتباهى بالأحساب دور كبير ، فى أشعال نار تلك الحروب »(٢) .

وكما كانت القبيلة تلزم الفرد بالانتماء إليها والخضوع لقوانينها كانت هى بكل ماتملك تهب لحمايته ، ونجدته ، والوقوف بجانبه إذا أصابه ضيم أو مسه أذى ، فنتج عن هذا النفع المتبادل بين الفرد وقبيلته ماهو معروف ضمنا بالعقد الاجتماعى هذا العقد ربط بين القبيلة ، وأبنائها ، وبعث فيهم روح العصبية القبلية التى عبر عنها دريد بن الصمة فى قوله(٣) .

وما أنا إلاّ من غَزِيَّةَ إن غوت   غويتُ وإن ترْشُد غَزِيَّةُ أرشُد

فهو يجد نفسه جزءا لا يتجزأ من قبيلته ، ولا يتردد فى الاستجابة لندائها سواء أكانت على صواب أو خطأ ، وهى أيضا تستجيب له بمثل استجابته لها حين يدعوها فى النائبات كما قال قريط بن أنيف(٤) :

لا يسألونَ أخاهُم حين يَنْدُبُهُمْ   فى النائباتِ على ما قال بُرْهانَا

---

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى للدكتور سعد ظلام ص ٣٢ طبع مؤسسة يوم المستشفيات .

(٢) الأدب العربى فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام للدكتور زكريا صيام ص ٧ دار النصر للطباعة .

(٣) الأغانى للأصفهانى ج ١٠ ص ٩ .

(٤) شرح ديوان الحماسه للتبريزى ج ١ ص ٩ طبع بيروت .

وهكذا نجد الشاعر الجاهلى يؤمن بما آمن به أفرد جماعته من عادات ، وتقاليد ، ومثل اجتماعية يسخر لها موهبته الفنية لنشرها وذيوعها ، والدفاع عنها ، فيكون بهذا محققا آمال قبيلته التى ظهر ونبغ فيها « وأتتها القبائل ، فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال ، والولدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم »(١) .

وبهذا الصنيع صار الشاعر فى قبيلته مشاركاً لفارسها فى شرف الدفاع عنها ، وحمايتها ممن أراد النيل منها حتى أصبحت « وظيفته فى القبيلة من أخطر وظائف الزعامة ، والقيادة ، وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة معنوية تبث فى أبنائها روح البسالة والحمية وآباء الضيم »(٢) .

وتأكيداً لهذه الزعامة فقد أخبرتنا بعض المصادر الأدبية « أن عبيد ابن الأبرص » بعد أن بغى على قومه « بنى أسد » الملك « حجر بن عمرو الكندى » ، وأذلهم ، وقتلهم بالعصى ، وأسر منهم طائفة ، وإذ بشاعرهم « عبيد » يأبى على نفسه ، وأهله ، وعشيرته الذل ، والخضوع ، فأوقد جذوة الحماس فى قومه حتى ثاروا على الملك ، وقتلوه ، ثم وقفوا فى وجه ابنه أمرىء القيس يتقدمهم مشاعرهم ليحميهم من التأثر بوعيده ، وتهديده بهذه الشحنة الشعرية المليئة بالسخرية والاستهزاء المتمثل فى قوله(٣) :

---

(١) العمدة لابن رشيق تحقيق الشيخ محى الدين عبد الحميد جـ ١ ص ٦٥ طبع دار الرشاد الحديثة .

(٢) قيم جديدة للأدب العربى للدكتورة بنت الشاطىء ص ٢٢ طبع دار المعرفة .

(٣) الأغانى للأصفهانى جـ ٣٢ ص ٤٠٧ طبع بيروت ١٩٥٧ م « بتصرف » .

يا ذا المخوفنا بقتـــل أبيه إذ لالاً وحيفًا[1]
أزعمت أنك قد قتلـــت سراتنا كذبا ومينا
هـــلاّ على حجر ابن أ م قطام تبكى لا علينا
إنا إذا عض الثقا ف برأس صعدتنا لوينا
نحمى حقيقتنا وبعـــض الناس يسقط بين بينا
هلاّ سألت جموع كنـــدة يوم ولوا : أين أينا ؟

ويحقق الحارث بن حلزة آمال البكريين فى قصيدته التى أنشدها بين يدى ملك الحيرة «عمرو بن هند» بسبب مطالبة التغلبيين للبكريين بديات أبنائهم الذين هلكوا بالسموم فى بعض مسيرهم للغزو مع ملك الحيرة فتأججت عاطفة الشاعر القبلية وراح يدافع عن البكريين ويفند مزاعم خصومهم التغلبيين بهذه القصيدة التى قال فيها[2] :

وأتانا عن الأراقم أنبا ء وخطب نعنى به ونساء[3]
أن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا فى قولهم إحفاء
يخلطون البرىء منا بذى الذ نب ولا ينفع الخلى الخلاء

(١) الثقاف : آلة تقوم بها الرماح . الصعدة : القناة المستوية تنبت كذلك فلا تحتاج إلى تثقيف .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الانبارى تحقيق عبد السلام هارون ص ٤٣٣ طبع دار المعارف ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ .

(٣) الاراقم : أحياء من بنى تغلب وسموا بالأراقم لان امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم . الأنباء : الأخبار . الخطب : الأمر العظيم . نعنى به : نهتم به . يسؤونا ما يأتينا ، الغلو : الزيادة . الإحفاء : الإلحاح فى المساءة . يخلطون : يشوبون . العير : قيل بمعنى الوتد ، وقيل بمعنى السيد وأراد به كليب بن وائل لجلالته وعلو شأنه .

زعموا أن كلَّ من ضرب العير موالٍ لنا وأنّا الولاء

ويعلو الصوت الجماعي في معلقة شاعر تغلب «عمرو بن كلثوم». والتي قيل في سبب إنشادها أن ملك الحيرة أراد إذلاله، فأوعز إلى والدته أن تدعو أم عمرو لزيارتها، وتتعمد إذلالها لتثير الشاعر، ويرى ما يكون من أمره، وعندما وصل عمرو بن كلثوم، ومعه أمه «ليلى بنت المهلهل» طلبت «هند» من «بنت المهلهل» أن تناولها طبقا من أطباق الطعام، فثارت ثائرتها. واستنجدت بابنها المقيم مع «عمرو بن هند» فعاجله بسيف معلق في الرواق فضربه به ثم أنشد قصيدته التي افتخر وتباهى في مقدمتها بقتله للملك، فسمى الساقية «أم عمرو» في قوله: «وما شر الثلاثة أم عمر» وهذا تلميح منه بأم الملك ومناصرته للبكريين ولطلب أمه استخدام «ليلى» أم الشاعر ثم أردف هذه الأبيات الخمرية بأبيات الغزل ومنها انتقل إلى الصخر والتهديد بهذه الأبيات التي وجهها إلى الملك عمرو بن هند فقال(١):

أبا هندٍ فلا تعجَل علينا وأنظرنا نُخبِّرْكَ اليقينا(٢)
بأنّا نُورِدُ الرّاياتِ بيضا ونُصْدِرُهُنّ حُمْرا قد رَوينا

(١) المرجع السابق ص ٣٧١.

(٢) أبا هند: عمرو بن هند أنظرنا: انتظرنا. الرايات: الأعلام نصدرهن نردهن، قدرونيا: من الدم. غر: بيض مشهورة عصينا الملك: عصينا أن نطيعه ندين: نخضع ونزل المحجرين: المحاصرين الضعفاء عاكفة. من عكف يعكف أي أقام واستمر صفون. جمع صافن وهو الفرس الذي يقف على ثلاث قوائم أنزلنا. أقمنا بيوتنا ذي طلوح والشامات. موضعان الموعدين. الاعداء هرت. نبحت بصوت خافت شذبنا. قطعنا وهذبنا قتادة. شجرة لها شول بلنيا. قرنبا ثفال. قطعة من جلد ينزل عليها الدقيق وقت الطحن لهوة. كمية الحبوب التي تلقى للطحن.

وَأيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طوَالٍ   عَصَيْنَا المَلْكَ فيها إنْ نَدِينَا

وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قد توَّجُوه   بِتَاجِ المُلْكِ يَحْمِى المحْجَرِينَا

تركْنَا الخيلَ عاكِفَةً عليه   مُقلدةً أعِنَّتَها صُفونا

وأنزلْنَا البُيُوتَ بِذِى طُلُوحٍ   إلى الشامَاتِ تَنْفِى المُوعِدينَا

وَقَدْ هَرَّتْ كلابُ الحى منا   «وَشَذَّبْنَا» قَتَادَةَ من يَلِينَا

متى نَنقُل إلى قَوْمٍ رَحَانَا   يَكُونُوا - فى اللقاء - لها طحينا

يَكُونُ ثِقَالُها شَرْقِىَّ نَجْدٍ   وَلُهْوَتُهَا قُضَاعَةَ أجْمَعِينَا

وهذه القصيدة الطويلة التى ارتفع فيها الصوت القبلى، وسيطرت العصبية القبلية على روح قائلها تعد صورة من أشهر الصور الدالة على التفانى المطلق لشاعر القبلية فى قومه، واندماجه التام فى جماعته، وتستطيع أن تدرك ذلك من خلال ذوبان وجدانه الفردى، فى وجدان قبيلته، فراح يشدو بمجدها التليد المتوارث ؛ ولكى يحقق آمال قومه فى هـذه القصيدة أتى بالضمير المناسب لموقف التفخر والتطاول على خصومه فاستخدم الضميرين «نا» و«نحن». فى تسعة وستين بيتا من معلقته، ونراه أحيانا يكرر الضميرين عدة مرات فى البيت الواحد لقوله :

ونحن التاركون لما سخطنا   ونحن الآخذون لما رضينا

كما أن تفانيه واندماجه لم يكن بالتعبير عن جماعته بهذين الضميرين فحسب، ولكن بقوة ألفاظه وصدق معانيه، وحرارة عاطفته كما هو واضح فى تباهيه بقومه، وفخره بأنسابهم، وأحسابهم، وأيامهم، وانتصاراتهم، وبطولاتهم وحرصهم على الفضائل، وكريم الفعال مثل حماية الجار والشجاعة، والوفاء بالعهد، والبذل فى أوقات الشدة وغير ذلك من الشمائل التى رفع بها قومه فوق العالمين، فانحنى لهم جميع الناس بصفة عامه، والجبابرة، والعتاة بصفة خاصة .

ومما سبق يتضح لنا أن هـــذه النماذج الشعرية التى اتينابها على سبيل الاستشهاد فحسب ، تدل دلالة واضحة ، على مدى حاجة القبيلة لمثل هؤلاء الشعراء الذين مزجوا أحاسيسهم الفردية بأحاسيس جماعتهم ، فجاءت مشعارهم معبرة عن نزعتهم الجماعية ، وذاتيهم الموضوعية التى كانت للمواقف والأحداث دور فى ظهورها وانتشارها بالشعر الجاهلى ،

وقد يخيل للقارىء أن الحديث السابق عن القبيلة وشاعرها وغير ذلك يعد من قبيل الاستطراد الذى لاعلاقه له بموضوع هذا البحث ، ولكنه عند متابعته التالية يدرك أن سيطرة الاتجاه القبلى على غالبية شعراء الجاهلية لم يخمد الحس الذاتى فى شعرهم ، وأن أنشغال الشاعر القبلى بقضايا جماعته وهمومها لم يكن حائلا عن ظهور نزعته الذاتية ومشاعرة الفردية على عكس ما ارتآه بعض الأدباء والنقاد المعاصرين .

آراء بعض الأدباء والنقاد المعاصرين فى ذاتية الشاعر الجاهلى :

عرفنا فيما سبق ، ومن خلال النماذج الشعرية التى اتينابها أثناء حديثنا عن العقد الاجتماعى بين الشاعر وقبيلته ، أن هناك طائفة من الشعراء صدر فنهم الشعرى عن الشخصية القبلية ، فكانت هذه الأشعار ، وأمثالها وراء قول بعض الأدباء ، والنقاد المعاصرين : بأن الشاعر الجاهلى أهدر ذاتيته ، وصار مجرد بوق لقبيلته على حد تعبير صاحب كتاب تطور العزل(١) ، وأن شعراء القبائل « طبعوا شعرهم بطابع قبلى ميزه من الشعر العربى فى سائر عصوره ، ومختلف بيئاته ، بعد ذلك اختفت منه النزعة الذاتية لتحل محلها النزعة الجماعية وذابت منه الشخصية الفردية لتظهر بدلا منها الشخصية القبلية ، وظهر ضمير

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام د/ شكرى فيصل ص ٢٣ طبع دمشق سنة ١٣٨٣هـ ، ١٩٦٤م .

الجماعة «نحن» مكان ضمير الفرد «أنا» وأصبحت الألوان التى يرسم بها الشاعر لوحاته الفنية مشتقة من حياة قبيلته، وليست صادرة عن نفسه، وأصبحت ريشته التى يلون بها لوحاته ملكا للقبيلة كلها وليست ملكا له وحده »(١).

ومن الأدباء من اعتبر حديث الشاعر عن قبيلته عيبا من العيوب ونقصا من النقائص التى لحقت بالشعر الجاهلى تدرك هذا فى قوله : « والنقص الثانى فى الشعر الجاهلى هو أنه شعر جماعة، وليس شعراً شخصيا، فهو يعبر عن عاطفة جماعية، وليس عن عاطفة فردية مستقلة لرجل واحد معين من الناس له كينونته المستقلة المتميزة، وأن عاطفته هذه، وإن خيل إليه أنها عاطفته الشخصية هى فى حقيقتها عاطفة جماعية محضة، فهى ليست شعوره هو من حيث أنه فرد إنسانى مستقل بذاته، بل هى شعوره هو من حيث أنه جزء من وحدة عاملة هى وحدة القبيلة، والقيم التى يعبر عنها، وإن كان يعبر عنها، لأنه لا يؤمن بها، فهو لم يؤمن بها نتيجة تفكير خاص فى الحياة، وإنما آمن بها لأنها القيم السائدة فى مجتمعه، فهو لم يصل بعد إلى الطور الذى يستطيع فيه أن يكون لنفسه حكما أخلاقيا، وشخصيا »(٢).

ومع مخالفتى للتعميم الوارد فى قول القائل : بأن الشعر الجاهلى شعر جماعى، وليس شعراً شخصيا إلا أننى لا أستطيع إنكار النزعة الجماعية التى وردت فى شعر بعض الجاهليين، لأن هـــذه النزعة أوجدتها الظروف والأحداث التى كانت تطرأ على القبيلة من حين لآخر، وليس هناك من هو أرهف حساً، وأقدر تعبيراً عن هذه المواقف ألا شاعرها ». وأن المجتمع الذى يعيشه الشاعر يمكن أن يكون بالقياس إليه مصدر إلهام، ووحى لا ينضبان، وليس من شك فى أن للمجتمع بكل ما يخوضه من معارك ومن

(١) الروائع من الأدب العربى للدكتور / سيد حنفى وآخرين ط١ ص٢٣.
(٢) ثقافة الناقد الأدبى د/ محمد النويهى ص ٢٦٥ طبع بيروت ١٩٦٩م.

نضال ، وكل ما يتصل به من قضايا سياسية أو اقتصادية تأثيره فى الكتاب ، والشعراء وهذه مسألة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها »(١) .

وإذا كانت قضايا القبيلة ، وأحداثها بمثابة الروافد التى استقى منها الشاعر مادته الشعرية ، فإن انشغاله بهموم جماعته، وحفاظه على قيمها ومثلها لا يجعلنا نتهمه بإهدار ذاتيته ، وكيف يتأتى هذا ؟ وهو لم يأل جهداً فى إثبات وجوده وتحقيق ذاته بمثل هذه الأعمال الفنية التى كانت موضع رضى وإعجاب ، وتقدير لدى أبناء قبيلته ، فهو بصنيعه هذا « يؤدى وظيفة اجتماعية لا تتحقق ألا بأن يستقبل الجمهور ما أبدع ، وبحقيق الشاعر لذاته بأن يبدع عملا فنيا لا يتم مطلقا إلا إذا كان هناك من يتلقى هذا العمل » ٢) .

وقد تحقق هذا فى المعلقة التى أنشدها شاعر تغلب . « عمرو بن كلثوم » فنالت فطارت شهرتها وملأوا بها الصحراء حتى لبنى تغلب أن يمجدوها ويكثروا من روايتها .

أما خلو شعره الجماعى من عاطفته الشخصية ، وإتهامه بعدم إيمانه بالقيم التى يعبر عنها ، فهذا الإدعاء يتنافى مع ما ألفناه فى نظم شاعر القبيلة الذى اعتبر نفسه جزء لا يتجزأ من المجتمع الذى ينتسب إليه ، فكرس حياته ، وموهبته الفنية من أجل قبيلته ، وشمائلها التى تتمسك بها ، مع إيمانه التام بكل مايخلعه على قبيلته من هذه الصفات ؛ لأنه فرد من أفرادها يعود عليه مايعود عليها ، فهو يرفض أن يتحدث عن نفسه كفرد متميز ، ولكنه يوحد فرده بالذات الجماعية ويمزج عاطفته بعاطفتها .

---

(١) قضايا النقد الأدبى بين القديم ، والحديث د/ محمد زكى العشماوى ص ١٢ طبع الهيئة المصرية العامة .

(٢) التفسير النفسى للأدب د/ عز الدين هلال ص ٣٢ طبع دار الثقافة ـ بيروت .

كما أن بدواوين شعراء القبائل ، وغيرهم عدد غير قليل من القصائد ، والمقطعات التى خلت من الحديث المباشر عن الأحوال الفردية ، والمشاعر الذاتية ، فقد فضل أصحابها « استنابة الوسائط الأخرى كالنـــاقة الظعينة وحيوانات الصحراء ، ومفازاتها لكى تنقل لنا بصورة غير مباشرة هواجسه الخفية وأحلامه الغامضة وأحواله النفسية ، ولذلك وجب على قارىء هذه القصائد ألا تخدعهم عناوين الموضوعات فلا يعجب كيف يصف الشاعر الثور ، والظبى ، وحمار الوحشى ، وقليلا مايقدم لنا نفسه ، ومشاعره ، بل أن الأمر على العكس ، فلعل هذا الشاعر يتعفف من الحديث عن الذات ، فيجعل العالم كله رموزا له عن قصد ، أو عن استغراق فى وحدة المعاناة بينه وبين موضوعات هذه المعاناة .

فلقد كان الشاعر الجاهلى يطمس فرديته الخاصة ليبرز الذاتية العامة ، وكانت هذه الذاتية تنوب عن الموضوعية المادية بالموضوعية الإنسانية فهو لم يكن ليهتم بأن يؤكد شخصيته كجوهر متعال متفرد ، ولكنه يتحدث باسم الإنسان الفردى ، وبالمقابل فإن الجماعة كانت تنتظر من شعرائها تأكيد ذاتيتها كما هى فى الواقع أو كما يجب أن يكون عليه واقعها لتغنى عن طريق الشعر »(١) .

كما أن الصوت الجماعى الذى تكرر مرارا فى العديد من القصائد الشعرية كان سبباً فى اتهامه بأنه صار مجرد بوق لقبيلته ، وقد غاب عن قائل هـذا القول أن هذه القصائد التى طبعت بعض أشعاره بالطابع القبلى ـ وليست كل أشعاره على حد تعبير بعض الأدباء ـ يعد ماجاء فيها من فضائل ونضال ومساجلة ومنازلة من مهام الأمور التى خول إليه القيام بها .

أما من اتخذ من هذه النماذج القبلية وسيلة للقول : بأن الشعر الجاهلى

---

(١) موسوعة الشعر العربى لمطاع صفدى ، وايلى حاوى جـ١ ص٣١ ومابعدها طبع بيروت .

اختفت فيه النزعة الذاتية ، وحلت محلها النزعـــة الجماعية ، وذابت منه الشخصية الفردية ، وظهرت بدلا منها الشخصية القبلية ، فسوف نفند قوله هذا بانفعالات الشاعر الجاهلي وأحاسيسه الذاتية التي كثيرا ما أفاض بها فظهرت واضحة وجلية في العديد من قصائده الشعرية بداية من مقدمتها حتى نهايتها .

الذاتية في مقدمة القصيدة الجاهلية :

تعددت أنواع المقدمات وأشكالها في الشعر الجاهلي فكان فيها المقدمة الطللية ، والغزلية ، والخمرية ، وغيرها ، وإن كانت المقدمة والطللية أكثر حضورا من غيرها : « ولو أننا استقرأنا القصائد في الشعر الجاهلي لوجدنا أن الكثرة الهائلة فيها مبدوء بالبكاء على الأطلال »(١) .

وأمام هذه الظاهرة الطللية وقف بعض الأدباء والنقاد القدامى والمحدثين وتنوعت آراؤهم حول تفسيرها ، فقال الناقد القديم : « إن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار ، والدمن ، فبكى ، وشكى ، وخاطب الربع ، استوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها »(٢) .

ويرى بعض الباحثين المحدثين : « أن الشاعر الذي استهل قصيدته بهذه المقدمة الطللية يكون محافظا على طبيعة المدخل إلى القصيدة الطويلة(٣) .

ومنهم من علل السبب في افتتاح الشاعر الجاهلي قصائده بالبكاء على الأطلال كثيراً وشيوع هذا في القصائد الجاهلية فقال : « لعل السبب أن العربي في هذه الصحراء الموحشة كان يحس بالخوف يتهـــدده ، ويحوطه ويضغط عليه ، ويلح على نفسه إلحاحا شديداً(٤)

---

(١) من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي د/ سعد ظلام ص٦٤ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر جـ ١ ص ٢٥ طبع دار المعارف .

(٣) موسوعة الشعر العربي لمطاع صفدي ص ٣٣ .

(٤) من الظواهر الفنية في الشعر الجاهلي د/ سعد ظلام ص٦٥ .

وباكتفائنا بهذه الآراء السابقة التى اتينا بها على سبيل الاستشهاد فقط ، يتضح لنا أن الناقد القديم ابن قتيبة يرى : أن الشاعر الجاهلى استهل قصائده بهذه المقدمة ، ليستميل السامع نحوه ويشد انتباهه إليه ، وهذا التفسير يجعلنا ننظر إلى الشاعر نظرة إبداع أو اتباع ، وذلك من خلال تعبيره الصادق عن تجربته الشعورية التى عاشها مع من كان يقطن هذه الديار ، فعند مروره بها ، ووقوفه على أطلالها تحركت عواطفه ، وهاجت مشاعره فابدع فى حديثه عن ماضيه الغض بذكرياته الجميلة ، وأن لم يكن كذلك فيكون متبعا ، ومقلدا لغيره من شعراء عصره .

أما كون الشاعر الجاهلى أتى بهذه المقدمة للمحافظة على طبيعة المدخل إلى القصيدة فإن هذا التفسير يصف المقدمات الطللية بأنها مقدمات شكلية وتقليدية احتذاها الشعراء بعضهم من بعض ، وهذا مخالف للواقع المعروف من أن لكل شاعر طريقته الخاصة فى التعبير عن نفسه .

أما قول أستاذنا الدكتور / سعد ظلام : بأن إحساس الشاعر بالخوف الذى كان يتهدده يعد سببا فى افتتاح قصائده بهذه المقدمة الطللية . يعتبر من أصوب الآراء تعليلا لشيوع هذه الظاهرة فى الشعر الجاهلى ، وذلك كما يقول صاحب هذا الرأى : إن « الشاعر فى هذه الصحراء باعتباره إنسانا كان يتجاذبه عاملان قويان ، عامل الفناء ، وعامل البقاء ، . . . فعامل الفناء يجعله يخاف ويضطرب ويحس بالموت يسد عليه منافذ الطريق ، ويحيط به فى كل مسلك . . . ، وكان عامل الفناء يلح عليه أكثر من عامل البقاء ، وكان يتمثله فى كل مايحيط به فى كل مظاهر الحياة تقريباً ، وكان يراه فى الأهل الأقربين عندما يرحلون قهراً ، وفيهم أترابه ، وأصدقاؤه ، وحبيبته ، وفى مضارب القوم حين يعصف بهم المطر الشديد والريح العاصفة التى تقتلع الخيام وتكفىء القدور ، فلا يستطيع معارضتها أو التصدى لها وتظل تلح عليها

حتى تبـلى وحتى تنال منها ماتنال »(١) .

ومن هنا فقد اتضحت لنا الدوافع التى كانت وراء تضمين الشاعر الجاهلى مقدمته الطللية أفجع تجاربه التى عاشها فى غربته الدائمة بهذه الصحراء فنراه يعبر عن انقضاء الزمن بالانتقال والارتحال، ويشكو دائما من القطع، والصرم وإذا تحدث عن الحب فإنه يتحدث عن الحب القديم باعتباره حبا ضائعا ومفقودا وغير ذلك من الأحاسيس والمشاعر الدالة على مافى هذه المقدمات من نزعة ذاتية تبدو لنا أكثر وضوحاً عند الاتيان ببعض النماذج الشعرية التى افتتحت بالحديث عن الديار كقول امرىء القيس الذى قيل عنه(٢) : أنه أول من فتح الشعر، واستوقف، وبكى فى الدمن، ووصف مافيها . . فقال(٣) :

قفا نَبكِ من ذِكْرَى حبيب وَمَنزِلِ
بِسِقْطِ اللوى بَيْنَ الدَّخُول فحَومَلِ(٤)

---

(١) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ص٦٥ .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ص١٢٨ .

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزنى تحقيق د/ محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤ طبع مكتبة القاهرة .

(٤) السقط : منقطع الرمل : اللوى : رمل يتعرج ويتلوى . الدخول، وحومل، وتوضح والمقراة : كلها اسماء أماكن لم يعف : لم يمح والرسم : مالصق بالأرض من آثار الديار مثل البعر والرماد وغيرها ونسج الريحين : اختلافهما الآرام : الظباء البيض عرصة الدار : ساحتها القاع : المستوى من الأرض الفلفل : حب هندى الغداة : الصحوه تحملوا : ارتحلوا . لدى : عند السمر : شجر الطلح الحى : القبيلة من الإعراب نقفه : شقه المطى : المراكب المهراق المصبوب أعول الرجل : إذا بكى المعول المبكى الدأب : العادة ضاع : انتشر الصبابه : رقة الشوق المحل : حمالة السيف .

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

ترى بعر الآرام فى عرصاتها
وقيعانها كأنه حب فلفل

كأنى غداة البين يوم تحملوا
لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وقوفا بها صحبى على مطيهم
يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائى عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل

إذا قامتا تضوع المسك منهما
نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

ففاضت دموع العين منى صبابة
على النحر حتى بل دمعى محملى

فالأبيات السابقة تفصح لنا عن شكل من أشكال المقدمات الطللية التى سجل فيها الشاعر مشاعره، وأحاسيسه الحزينة أثناء مروره بديار صاحبته بعد خلوها من أهلها الذين رحلوا عنها، وتركوها مرتعا آمنا للظباء، وأولادها تلهو، وتلعب فى عرصاتها، وكذلك للرياح التى تناوبت عليها من جهتين متعاكستين شمالا، وجنوبا، فإذا غطتها الواحدة بالرمال كشفتها الأخرى فكان ذلك سببا فى التعرف عليها من خلال ما بقى منها من آثارها.

ثم عاد إلى الماضى بأفجع ما فيه من تجارب مؤلمة عاشها ساعة رحيل الأصحاب وما ألم به من تعب ونصب وبكاء شديد، والأصحاب يلتفون حوله، ويخففون عنه، وهو يجد شفائه، وراحته فى هذه الدموع المتدفقة التى لا جدوى من سيلانها.

ثم تذكر أيضا الرائحة الطيبة التى كانت تضوع من الركب وقت الرحيل، فراح يشبهها بالرائحة الزكية التى كانت تفوح من أم الحويرث، وجارتها عند تحركهما، وكل هذه الذكريات تزيده ألما ووجدا على وجده.

وهكذا نجد العديد من المقدمات الطللية «تزخر بالحياة» وتتدفق بها تدفقا حتى لتكاد تسمع من خلالها نبضات قلوب الشعراء، وخفقاتها، ونحيبهم، وعويلهم، وحتى ليكاد تتخيلهم، بل تراهم، وهم يذرفون العبرات ويسكبون الدموع بغزارة وحرارة»(١). ويمكنك إدراك ذلك فى أشعار بعض الجاهليين، وبخاصة شعراء القبائل الذين لم يشغلهم الصوت الجماعى، وإندماجهم القبلى عن التعبير عن مشاعرهم، وعواطفهم الخاصة بهم فى مقدمات قصائدهم القبلية(٢)، ولذا نجد بعض الأدباء المحدثين يرى «أن ظاهرة المنهج الثابت

---

(١) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى د/ حسين عطوان ص ١٢٨ طبع دار المعارف.

(٢) على سبيل الاستشهاد انظر عينية. لقيط بن يعمر الايادى التى استهلها بقوله:

يا دار عمرة من محتلها الجرعا   هاجت لى الهم والاحزان والوجعا

«مختارات شعراء العرب لابن الشجرى تحقيق د/ نعمان محمد أمين طه ص ٢٥ طبع دار التوفيقية».

وكذلك ميمية الشاعر: ربيعة بن مقروم الضبى، ومطلعها:

أمن آل هند عرفت الرسوما   بجمران قفرا أبت أن تريما

«المفضليات للضبى ج ٢ ص ٦٦٥».

للقصيدة الجاهلية،وظاهرة الارتباط الفنى بين الشاعر ، وقبيلته جعل القصيدة الجاهلية تنقسم إلى قسمين : قسم ذاتى يتحدث فيه الشاعر عن نفسه، ويصور فيه عواطفه ، ومشاعره ، وانفعالاته ، وهو قسم تستطيع أن تضع فيه هذه المقدمات ، وما يتصل بها من وصف الرحلة ، والصحراء ، والقسم الآخر غيرى يتحدث فيه الشاعر عن قبيلته وفاء بهذا العقد الفنى بينه وبينها(١) .

ومع اتفاقنا مع قائل هذا القول فى أن الشاعر حقق ذاته وعبر عن مشاعره وانفعالاته فى مقدمة القصيدة القبيلة ، إلا أننا نختلف معه فى تقسيمه للقصيدة ، وفصله مقدمتها عن بقية أجزائها ، لأن ذلك يؤدى إلى بتر العمل الفنى المتكامل وتمزيق العلاقات والروابط الكائنة بين أجزائه .

وخلاصة القول : « فالبكاء على الأطلال تعبير ذاتى بل ربما يكون الجزء الذووى فى القصيدة بعد ماتصورناه ، إنها عملية إفضاء نفسى ، وتعبير عن المعاناة ، والصراع فى داخل الشاعر ، وليست غرضا غيريا كما توهم بعض النقاد والمحدثين(٢) .

وكما تضمنت المقدمة الطللية حديث الشاعر عن ذاته وأحواله الفردية فإن المقدمة الغزلية أيضا لم تكن أقل منها فى التعبير عن عواطفه ومشاعره من خلال حديثه عن المحبوبة وصدها ، وهجرها ، ورحيلها ، ومايترتب عليه من حزن وألم ، وتذكر ، وعتاب كما ورد فى هذه المقدمة الغزلية التى افتتح بها الحادرة قصيدته ، فقال(٣) :

---

(١) الشعر الجاهلى مادته الفكرية وطبيعته الفنية د/ محمد أبو الأنوار ص٣٦٨ نشر مكتبة الشباب .

(٢) من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعد ظلام ص١١٥ .

(٣) شرح المفضليات للتبريزى جـ١ ص ١١١ .

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ بُكْرَةً فتمتّعِ ... وَغَدَتْ غُدوّ مفارق لم يَرْبَعِ[1]
وَتزوّدَتْ عَيْني غداة لَقِيتُها ... بلوى البُنَيْنَةِ نظرةً لم تُقلِعِ
وتصدّفَتْ حتى استَبَتْكَ بِواضحٍ ... صَلْتٍ كَمُنتصبِ الغزالِ الأتلَعِ
ومُقلتي حَوراءَ تَحْسِبُ طَرْفَها ... وَسنانَ حُرّةِ مُسْتَهَلُّ الأدْمَعِ
وإذا تنازِعُكَ الحديثَ رَأيتَها ... حَسَنًا تبسُّمُها لذيذَ المَكْرَعِ

بهذه المعانى الشجية استهل الشاعر مقدمته الغزلية التى أباحت بأحاسيسه، ومشاعره تجاه محبوبته فى ساعة رحيلها وفراقها فراقا جعله لا يغفل بصرة من النظر إليها ، ثم سبح الشاعر بخياله فى ماضيه الحافل بذكرياته الجميلة مع صاحبته التى فتنته بمحاسنها ، كجيدها الذى أشبه جيـد الغزال وعينيها الحوراوين ، ووجهها الجميل المشرق بابتسامتها التى أظهرت ملاحة ثغرها وعذوبة ريقها الذى أشبه عذوبة الماء الصافى .

ومن يستقرىء دواوين الشعر الجاهلى يجد فيها العـديد من المقدمات الغزلية التى تغنى فيها الشعراء لأنفسهم ، فعبروا عن أفكارهم وخواطرهم ، وناجوا فيها أصحابهم وأحباءهم ، وبثوا همومهم ومشاعرهم الذاتية التى ضجت بها قلوبهم .

وبانتهاء المقدمة الطللية أو الغزلية التى أظهر فيها الشاعر نزعته الشخصية إما أن يتوقف عن التعبير عنها ، ويخص باقى أجزاء القصيدة بالتعبير عن قبيلته وهمومها، وقضاياها ، وإما أن يستمر فى التعبير عن نفسه كامرىء القيس الذى اهتم فى العديد من قصائده[2] بالتعبير عن ذاته ، وحياته ومغامراته

---

(١) بكرت : ابتدأت فى التأهب للخروج ، البكرة : أول النهار ، تمتع : تحسر وقيل معناه التزود غدت غدو : فارقت فراق ربع : أمام اللوى : منعرج الرمل لم تقلع : لم ترتفع تصدفت : اعرضت استبتك : اسرتك الواضح : الابيض الصلت: الأملس الاتلع : الطويل العنق الوسن : الفتور حرة كريمة .

(٢) بديوانه العديد من القصائد المعبرة عن نزعته الذاتية نذكر منها على سبيل المثال هذه القصائد التى استهلها بقوله : =

العاطفية وتجاربه الشخصية التى أفصح عنها فى قوله(١) :

ألا رُبَّ يوم لك منهن صالح ولا سيّما يومٌ بدارة جُلْجل(٢)

ويومَ عقرتُ للعذارى مطيّتى فيا عجبا من رحلها المتحمَّلِ

يَظلُّ العذارى يرتمين بلحمها وشحمٍ كهُدّاب الدِّمقس المفتَّلِ

ويومَ دخلتُ الخدر خدْرَ عُنَيزة فقالت: لك الويلاتُ إنك مُرْجِلى

تقول وقد مالَ الغَبيطُ بنا معا عَقرتَ بعيرى يا امرأ القيس فانزل

فقلتُ لها سيرى وأرخى زمامه ولا تُبعدينى من جَناكِ المعلل

ففى هذه الأبيات يذكرنا الشاعر بأيام لهوه، وعبثه مع صواحبه فى يوم « دارة جلجل » يوم أن نعم معهن، وسعد بهن، ونحر لهن مطيته، فاستطبن لحومها وشحومها التى أشبهت الدمقس فى بياضه. وعند انتهائهن من اللهو، والمرح تهيأت العذارى للرحيل، فتقاسمن فيما بينهن متاع امرىء القيس الذى ذبح لهن مطيته، أما هو، فقد ألح على ابنة عمه عنيزة ؛ لكى تحمله معها على مقدم هودجها.

لكن جرأته التى كانت تدفعه دائما إلى اقتحام خدور النساء دفعته أيضا إلى اقتحام خدر إبنة عمه، فصاحت به، وحذرته بمبارحة خـــدرها

=١ - خليلى مرا بى على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

٢ - سما لك شوق بعد ما كان أقصرا وحلت سليمى بطن قو فعرعرا

٣ - أعنى على برق أراه وميض يضيء حبيا فى شماريخ بيض

٤ - غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فبرقة العيرات

٥ - لعمرك ما قلبى إلى أهله بحر ولا مقصر يوما فيأتينى بقر

(١) شرح القصائد السبع الطول لابن الأنبارى ص ٣٢

(٢) دار جلجل : موضع يرتمين بلحمها : يتهادين الدمقس : الحرير الابيض الخدر : الهودج مرجلى : أى أمشى راجلا الغبيط : قتب الهودج سيرى: أى هونى عليك ولا تبالى اعقر أم لم يعقر الجنى ما يجتنى منها المعلل : المتلهى .

فيجيبها ـ بعد أن الحتهليه بالنزول عن بعيرها ـ ويدعوها إلى أرخاء زمام بعيرها ، وتركه فى حظوته بقربها ، والتلهى بمحاسنها .

وكذلك من الشعراء الذين جاء شعرهم معبراً عن حياتهم الخاصة الشاعر طرفة بن العبد الذى ينتمى إلى قبيلة قيس بن ثعلبة ، وهى فرع من فروع بكر ابن وائل ، ولربما كان الظلم الذى وقع على أمه ، وأولادها من قبل أعمامه عند تقسيم ميراث أبيه سبب من الأسباب التى دفعته إلى الحياة اللاهية العابثة ، ولذا نجده يذكر فى شعره مافعله أولئك الأعمام بأمهم « وردة » التى سلبوها حقوقها وحقوق أبنائها الصغار ، واعتبروا ذلك شيئا صغيرا ، وهو فى الحقيقة أمر خطير قد يؤدى إلى القتال ، وأراقة الدماء ، ثم حذرهم من الظلم ، وما يسببه بين أبناء العمومة من فرقة ، وعداوة ، وقتل كل بيد أخيه ، كما حدث بين الحيين الشقيقين بكر ، وتغلب بسبب تمادى « كليب بن وائل » فى الظلم حتى قتله « جساس بن مرة » فتعادى الفريقان واشتعلت نار العداوة بينهما عبر عن هذا بقوله(١) :

ما تَنْظُرون بِحَقِّ وَرْدَةَ فيكُمُ ... صَغُرَ البَنُونَ وَرَهْطُ وردةَ غُيَّبُ(٢)

قد يَبْعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ ... حَتَّى تَظَلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

والظلمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيَّيْ وائلٍ ... بَكْرٌ تُساقِيها المَنَايا تَغْلِبُ

وظل الظلم الذى أصابه هو ، وإخوته جرحاً غائرا ، وداميا يؤرق حياته.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد تحقيق د / على الجندى ص ٢٣ مطبعة الإنجلو .

(٢) تنظرون : تنتظرون وردة : أم طرفه رهطها : قومها غيب : غائبون يبعث الأمر : يهيجه تصبب : أصلها تتصبب أى تسفح وتسيل .

ويثير الألم فى نفسه فيشعرنا بذلك فى قوله(١) .

وظُلْمُ ذوى القُرْبى أشَدُّ مضاضَةً ... على المرء من وَقْع الحُسام المُهَنَّدِ(٢)

ومع كل هذا فلم يجد طرفة من قبيلته إلا اللوم ، والإعراض بسبب إقباله على شرب الخمر ، وانتهاب الملذات مع رفاقه ، وندمائه الذين رآهم كالنجوم اللامعة فى مجلس شرابه الحافل بالقيان ، وآلات الطرب وغير ذلك من البواعث الأخرى التى جعلته لا يبقى على التليد من ماله ، أو الطريف منه ، فتحامته عشيرته ، ونفر منه أولياؤه ، فهام على وجهه فى أحياء العرب ، والفلوات الواسعة ، وبعد أن كان يعيش فى حسب من قومه أصبح يخالط الصعاليك ، وقطاع الطرق حتى عرفوه ، وعرفهم ، وأصبحوا يعدونه واحداً منهم(٣) . نجد كل هذا فى شعره الذى قال فيه(٤) .

نَدامَاى بيضٌ كالنُّجومِ وَقينةٌ ... تروحُ إلينا بينَ بُرْدٍ ومُجْسَدِ(٥)

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال لابن الانبار ص ١٩٠

(٢) مضاضة : مضى الأمر وامضى : بلغ من قلبي وأثر فى نفسى تهييج الحزن. والغضب الحسام : من الحسم وهو القطع .

(٣) معلقات العرب د / بدوى طبانه ص ١١٤ مطبعة الأنجلو .

(٤) شرح القصائد السبع الطوال لابن الانبارى ص ١٨٨

(٥) الندامى : الأصحاب كالنجوم : كالأعلام القينة : الأمة بين برد ومجسد : أى عليها برد ومجسد ، والمجسد الثوب المصبوغ بالزعفران الرحيب : الواسع . قطاف الجيب : مجتمعه ، ومعناه إن الجيب الذى يضيق فهو منها واسع رحيب . جس الندامى : أى يجسوا بأيديهم يلمسونها . بضت المتجرد : بيضاء ناعمة عند التجرد . انبرت : اعترضت مطروقه : فاترة الطرف . على رسلها : مسترخية ولم تشدو : لم تجتهد ، تحامتنى العشيرة : أى لم أقبل من عذالى فتركونى ألقى حبلى على غاربى البعير المعبد : المطلى بالهناء . نبو الغبراء : الصعاليك . الطراف : بيت من أدم وأهله المياسير الأغنياء الممدد : الذى قد مد بالاطناب .

رحيبٌ قطافُ الجَيْبِ منها رقيقةٌ   بجسِّ النَّدامى بَضَّةُ المتجرَّدِ
إذا نحن قلنا اسمعينا انبرتْ لنا   عَلَى رِسْلِها مطروقةً لم تشدد
وما زال تَشْرابى الخمور ولذّتى   وَبَيعى ، وانفاقى طريفى ومُتْلدى
إلى أنْ تحامتنى العشيرةُ كلها   وأفردتُ إفراد البعير المعبَّد
رأيتُ بنى غبراء لا يُنكروننى   ولا أهلُ هذاك الطِّراف المُمَدَّدِ

ومازال طرفة فى حديثه عن مشاعره الذاتية ، وأحاسيسه الشخصية التى شعر بها أثناء ارتحاله ، وانتقاله من مكان إلى مكان ، فهاهوذا يتجرع مرارة الغربة ، وينهل من كأسها ، ويذوق ذل الجوار من هـذه المرأة التى أدمت جرحه وآلمت نفسه بسؤالها له عن أهله وعشيرته ، ودياره ، فراح يدعو عليها بأن يصيبها ما آصابه من بعد واغتراب عن الأهل ، والأحباب ، وهنا يثوب طرفة إلى رشده ، ويعرف قيمة أهله ، وقومه ، فيقرر أن الإنسان يحظى بحياته ، وعزته ، ومهابته بينهما ، وينال الذل والهوان والضياع وهو بعيد عنهما فيقول(١) :

ولا غرْوَ إلاَّ جارَتى وَسُؤالُها   ألا هَلْ لنا أهْلٌ ؟ سُئِلْتِ كذلكِ (٢)
يُعيِّرُنى جَوْبَ البلادَ ورِحْلتى   ألا رُبَّ دار لى سوى حُرِّ دارك
وليس امْرُؤٌ أفنَى الشَّبابَ مُجاوِرا   سِوَى حَيِّهِ إلاَّ كآخر هالكِ

ثم شاءت الأقدار لهذا الشاعر أن يعود مرة أخرى إلى أحضان قبيلته ويشدو بقصيدته الرائية الطويلة التى أطلق عليها أحـــد الباحثين بقصيدة «العودة» ، وقال فى تقديمها : «والقصيدة كما يبدو من نهايتها نظمت بعد أن صفا الجو بين طرفة ، وقومه ، وزالت الجفوة التى كانت بينهما ، وانتهت

---

(١) ديوان طرفة ص ١٠٩
(٢) لاغرو : لا عجب . سئلت كذلك : هذا دعاء عليها :
جوب البلاد : السير فيها   حر الدار : وسطها وإكرامها

القطيعة التى أفسدت علاقة القربى بينهما ؛ وانقشعت الغشاوة التى اعترف طرفة بأنها كانت تغشى عينيه ؛ فتحجب الرؤية الصحيحة عنه ؛ وترد بصره عن إدراكها على حقيقتها . وفى ختام هذه القصيدة يعلن تصحيح الموقف بينه وبينهم ويصرح بأن الأمور قد عادت إلى نصابها(١) .

ومن الشعراء الذين تعددت(٢) قصائدهم ومقطعاتهم الذاتيـــة أيضا شاعر بنى عبس عنترة بن شداد الذى أصابه فى درر النشأة ما أصابه من أمور الخدمة ، ورعى الماشية بسبب عبوديته ؛ لأنه ابن أمة سوداء تسمى « زبيبة » وكان من عادات العرب ألا يلحقوا أولاد الاماء بنسبهم ، إلا إذا كان لهم فضل يؤثر(٣) .

وطالما لم يتحقق هذا الفضل لعنترة فسوف يلاقى مايلاقيه الخدم والعبيد من الذل والهوان الذى عبر عنه فى قوله لأبيه(٤) :

المـالُ مالُـكُمُ والعبدُ عبدُ كُمُ   فهل عذابُكَ عَنِّى اليومَ مصرُوفُ

لكن هوانه وذله لم يكتب له الاستمرار ، فقد سنحت له الفرصة التى حققت له ادعاء أبيه له ، وذلك عندما أغارت بعض أحياء العرب على بنى عبس فأصابوا منهم واستاقوا ، وعنترة يومئذ فيهم فقال له أبوه : كر . فقال : العبد

---

(١) الروائع من الأدب العربى د/ سيد حنفى ص ٢٣٨

(٢) انظر ديوان عنترة بن شداد القصائد التالية التى استهلها الشاعر بقوله :

- هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم
- فمن يك سائلا عنى فإنى   وجروة لا ترود ولا تعار
- طال الثواء على رسوم المنزل   بين اللكيك وبين ذات الحرمل
- عجبت عبيلة من فتى متبذل   عارى الأشاجع شاحب كالمنصل
- أرى لى كل يوم مع زمانى   عتاباً فى البعاد وفى التدانى

(٣) الروائع من الأدب العربى جـ ١ ص ٣٠٦

(٤) ديوان عنترة ص ٥٣ طبع بيروت ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م .

لا يحسن الكر ، ولكن يحسن الحلاب والصر . فقال : كر ، وأنت حر فكر وقاتل قتالا حسناً فادعاه أبوه بعد ذلك وألحقه بنسبه(١) .

وظل الصراع قائماً بين عنترة ومجتمعه بعزاقيله الاجتماعية التى تحول دون وصوله إلى طبيعة الأحرار بسبب سواد لونه ، وكان أشدها وقعاً على نفسه عدم ظفره بابنة عمه « عبلة » وعندئذ فلم تكن أمامه إلا وسيلته الوحيدة ، وهى الفروسية التى حقق بها السيادة لنفسه بعد ذله وعبوديته .

ففى إحدى قصائده يبرز لنا موقفاً من مواقفه المتعددة التى ظهرت فيها بسالته القتالية ، وذلك عندما تصدى لبنى تميم بعد هزيمتهم لقومه بنى عبس ، وعليهم « قيس بن زهير » فقال قيس والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء فبلغه ذلك فانشد(٢) قصيدته التى تحدث فيها عن نسبه الذى استمده من أبيه تارة ، ومن صرامة سيفه التى نابت عن كرم أمه تارة أخرى ، ثم استمر فى التغنى بقوته ، وشجاعته وقت نشوب الحرب والتحام الخيول ، وشدة وطيس القتال ، والأبطال ينظرون بلحاظ عيونهم إلى من يحمى ذمارهم ، فكان عنترة فى كره ، وإقدامه على أعدائه خير فارس فى قومة ممن عمه وخاله منهم ، وذلك فى قوله(٣) :

إنى امرؤ من خَيرِ عَبس مَنْصِبا   شَطْرِى وأحمى سائرى بِالمنْصُلِ(٤)

---

(١) الأغانى للأصفهانى جـ ٨ ص ٢٣٧

(٢) الأغانى للأصفهانى جـ ٨ ص ٢٣٨

(٣) ديوانه ص ٥٧

(٤) المنصب : الأصل والحسب . المنصل : السيف يلحقوا : أى لحقهم العدو يستلحموا : أى ينشبوا فى الحرب فلا يجدوا مخلصا انزل : أى عند التحام الخيل مستوهل : ضعيف الطوى : الجوع تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو أحجمت : ضعفت المعم المخول : الكريم الأعمام والإخوال الفيصل : الفاصل والرعيل : القطعة من الخيل لا أوكل : أى لا أكون أول من يهرب ولكن أكون وراءهم .

أن يُلحَقُوا أكْرُرْ وإن يُسْتَلحَمُوا
أشْدُدْ وإن يُلفَوا بضَنك انزِل

حين النزُولُ يكونُ غايةَ مِثلِنا   ويَفِرُّ كلُّ مُضَلَّلٍ مُسْتَوهِلِ

ولقد أبيتُ عَلَى الطَّوَى وَأظَلُّهُ   حتى أنالَ به كَرِيمَ المأكلِ

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظت   ألفيتُ خيراً مِنْ مُعَمٍّ مُخولِ

والخيلُ تعلم والفوارِسُ أنني   فَرَّقتُ جَمْعَهُمُ بطعنةِ فَيصَلِ

إذ لا أبادِرُ فى المضيق فَوَارِس   ولا أوكَّلُ بالرَّعيل الأوَّلِ

وعلى الرغم مما كان يعاب به من سواده الذى ورثه من شطره الوضيع إلا أنه كان يأبى الخضوع لعبث العابثين بلونه أو بذكر أمه تشعر بهذا فى خطابه لعمارة بن زياد حيث يقول(١) :

فإنْ تكُ أمِّى غُرَابيِّةً   من ابْناء حَامٍ بها عِبْتَنِى

فإنى لطيفٌ بِبِيض الظُّبَى   وَسُمْر العَوَالى إذا جِئْتَنى

ولولا فِرَارُكَ يَوْمَ الوَغى   لقُدْتُكَ فى الحَرْبِ أو قُدْتَنى

ومن الأشياء التى أباح لنا عنها فى شعره الذاتى حبه لابنة عمه « عبلة » ، وعلى الرغم مما ألم به من أسى ، وحزن بسبب رفض عمه الزواج منها ، إلا أنه ظل يحبها ويتغنى بذكرها ، ويكثر من مخاطبتها ، وبخاصة فى مغامراته القتاليـــة التى كان يخوضها من أجل الذود عن قومه وحماية حماهم فنراه يقول(٢) :

يا عَبلَ لمْ من غمرةٍ باشَرْتُها   بالنَّفسِ ما كادتْ لَعَمْركِ تنجلى

حتى فى ساعات القتال ، وتلاحم السيوف ، يشتد ظمـــأه إلى رؤيتها وامتاع طرفه بجمالها ، فيتخيلها فى بريق السيوف ولمعانها ، فيشدو بهاقائلا(٣) :

(١) ديوانه ص ٣٦   (٢) ديوانه ص ٦٠

(٣) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د / شوقى ضيف ص ٣٧٤

ولقد ذكرتكِ والرّماحُ نواهلٌ منّي وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دمي
فودِدْتُ تقبيل السيوفِ لأنها لمعتْ كبارقِ ثغركِ المتبسّمِ

ويشعر عنترة بجفوة محبوبته، فيستعير قلبه، ويذبل جسمه، وتتكاثر عليه الهموم والأحـــزان، فيبحث له عن ند، وشبيه يشاركه أحاسيسه، وآلامه. «وقد كانت الطبيعة دائما أما حنونا، يجد الشاعر فيها تعاطفا، ومصادقة، ويتخذ من ظواهرها ـ حيـــة وجامدة مستأنسة أو مستوحشة يتخذ منها أشباها، ونظائر(١)».

فوجد كل هذا فى النسيم تارة والحمام تارة أخرى وراح يشدو بقوله(٢):

إنَّ طيف الخيال يا عَبْلُ يَشْفِى ويُداوى به فُؤادِي الكئيب(٣)
وهلاكى فى الحبِّ أهْوَنُ عندى من حَيانِى أذ جَفَانى الحَبيبُ
يا نسيمَ الحجاز لوْلاكَ تَطْفَا نارُ قلبى إذابَ جسمى اللهيبُ
لكَ منى إذا تنفَّسْتَ حَرٌّ وَلرَيَّاكَ من عُبَيْلَةَ طيبُ
ولقد ناح فى الغصونِ حَمَامٌ فَشَجانى حَنينُهُ والنَّحيبُ
بات يشكو فِرَاقَ ألف بعيد وَيُنادى أنا الوحيدُ القريب
يا حمامَ الغصون لو كنتَ مثلى عاشقا لم يَرُقْكَ غُصْنٌ وَطيب
فاتْرُكِ الوَجْدَ والهوى لمُحبٍ قلبُهُ قد أذابَهُ التعــــذيبُ

فافتنانه ببعض مظاهر الطبيعة، ومخاطبة النسيم، وشجوه لنوح الحمام، واندماجه معه اندماج الإلفة، والمشاركة ـ يجعلنا نصحح قول القائل: بأن «الشاعر الجاهلى كان يصف مظاهر الطبيعة وصفاً مجرداً لا تظهر فيه ذاتيته

---

(١) الإسلام والشعر د / إخلاص فخرى ص ٢٣١ طبعة مكتبة الآداب.
(٢) ديوانه ص ١٠٠
(٣) تطفأ: مسهل تطفأ الريا: الريح الطيبة: شجانى: أحزننى.

ولا تتحسس منه وجدانه ومشاعره(١) ».

النزعة الذاتية فى شعر الصعاليك :

تحدثنا فيما مضى عن علاقة الفرد بمجتمعه القبلى ومدى حاجته إلى ذلك المجتمع، وبخاصة فى بعض الأوقات التى تكشر له البيئة عن أنيابها، أو تسلط عليه بعض طغاتها، وجبابرتها، ويبقى الفرد متمتعا بعطف قبيلته عليه وبحاميتها له مادام قائما بواجباته المترتبة عليه شاعرا بعظم التبعة : فإذا أجرم أو عمل عملا ينافى شرفه أو شرف قبيلته، واستمر فى غيه لا يسمع نصائح أهله، وعشيرته، كاسراً أعراف آله، وقبيلته فقد عصبية أهله وقبيلته له، وهام على وجهه طريداً .. ويقال للرجل الذى تغضب عليه قبيلته وتحرمه من عطفها وعصبيتها له الخليع(٢).

ومن « خلعاء القبـــائل، وشواذها، واغربتها السود الذين احترفوا السلوك العدوانى بقصد المغنم سواء أكان فى صورة لصوصية، أو قطع طريق، أو سطو أو غارات أو اغتيال(٣) .. تكونت هـــذه الطائفة التى سميت بالصعاليك :

لقد تنكرت هذه الطائفة للحياة الاجتماعية القبلية، ورفضوا الخضوع والإذعان لقيمها، وعاداتها، وتقاليدها، وخرجوا من حمى قبائلهم، وشقوا طريقهم بالأسلوب الذى يتلاءم مع حياتهم معتمدين فى ذلك على القوة التى تمكنهم من الحصول على المال أو غيره، ومن هنا، فقد « فقدوا الإحساس

---

(١) اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د/ محمد مصطفى هدارة ص ١٧٤ طبع دار المعارف.

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د/ جواد على جـ ١ ص ٤١٠ طبع بيروت ١٩٧٧.

(٣) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/عبد الحليم حفنى ص ٨٥ طبع الهيئة المصرية العامة.

بالعصبية القبلية التى كانت قوام المجتمع الجاهلى . . وكفروا بتلك العصبية القبلية التى لم يعد لها قيمة فى حياتهم ، بل قد ينقلبون انقلابا تاماً فتصبح صلتهم بقبائلهم صلة عـــداوة فيوجهون غزواتهم إليها كما فعل قيس بن الحدادية وغيره »(١) .

إذن ، فقد وجدت الأسباب ، وتوافرت الدوافع التى جعلت هؤلاء الصعاليك ينطلقون فى التعبير عن حياتهم ، وسلوكياتهم ، ومغامراتهم إنطلاقاً متحررا كما فعل الشنفرى أثناء حديثه عن حياته فى الصعلكة ، فابتدأها بأهم مقوماتها فى نظره التى تمثلت فى الشجاعة الفائقة على حد قوله « فؤاد مشيع » والسلاح بنوعيه ، السيف للقتال ، والقوس لرمى الأعداء أو الصيد .

وبعد استطراده فى الحديث عن القوس التى هى مصدر حمايته ومعيشته انتقل بالحديث عن ذاته وما تتصف به من فضائل جاءت فى عكس هذه الصفات التى ذكرها كالراعى الأحمق الذى لا يحسن غذاء سوامه ، والجبان والسيء الخلق ، والملازم لامرأته ، والمعتمد على مشورتها ، ورأيها ، والذى يسيطر عليه الخوف ، فيصبح قلبه من اضطرابه كأنه معلق فى طائر يعلو به وينخفض ، والتافه الذى لا خير فيه ، والمقيم فى داره لا يبرحها ، والمتفرغ لمغازلة النساء ، والداهن الذى يتزين بالدهن ويتكحل بالكحل فيصير من المخنثين ، والضئيل من الرجال والضعيف الذى لا خير فيـــه ، والخائف والأعزل من السلاح ، والمتحير الضال عن الطريق أثناء سيره فى الصحراء التى لا معالم فيها وغير ذلك من الصفات التى نفاها عن نفسه وأثبت لها ضمنا عكس هذه النعوت التى ذكرها فى قوله(٢) :

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/ يوسف خليف ص ١١٦ طبع دار المعارف .

(٢) الشنفرى شاعر الصعاليك د/ عبد الحليم حفنى ص ١٢٦ طبع الهيئة المصرية العامة .

وإنى كفانى فقد ما ليس جازيا ... بحسنى ولا فى قربه متعلل[1]

ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع ... وأبيض إصليت وصفراء عيطل

هتوف من الملس المتون يزينها ... رصائع قد نيطت إليها ومحمل

إذا زل عنها السهم حنت كأنها ... مرزأة عجلى ترن وتعول

ولست بمهياف يعشى سوامه ... مجدعة سقبانها وهى بهل

ولا جبأ أكهى مرب بعرسه ... يطالعها فى شأنه كيف يفعل

ولا خرق هيق كأن فؤاده ... يظل به المكاء يعلو ويسفل

ولا خالف دارية متغزل ... يروح ويغدو داهنا يتكحل

ولست بعل شره دون خيره ... ألف إذا ما رعته اهتاج أعزل

ولست بمحيار الظلام إذا انتحت

هدى الهوجل العسيف يهماء هوجل

وإذا كان الفقر الشديد، والإحساس به من أهم الدوافع التى دفعتهم إلى

---

(١) التعلل : التلهى . مشيع : شجاع الأبيض : السيف اصليت : صقيل صفراء عيطل : قوس طويلة العنق الهتف . الصوت المتنغم الملاسة : ضد الخشونة الرصائع : جمع رصيعة وهى ما يرصع أى يحلى به نيطت : علقت المحمل : ما يعلق به السيف زل السهم : خرج حنت : صوتت المرزاه : كثيره الرزايا عجل : مسرعة ترن وتعول : ترفع صوتها بالبكاء المهياف : السيء التدبير السوام : الماشية مجدعة : سيئة الغذاء السقبان جمع سقب وهو ولد الناقة الصغير الذكر بهل : الناقة التى لاصرار عليها جبأ : جبان ألهى : انجز مرب ، ملازم الخرق : المضطرب من الخوف الهيق : الظلم المكاء : نوع من الطير الخالف : التافه . دارية : المقيم فى داره متغزل : يغازل العل : بفتح العين القراد وهو حشرة صغيرة مثل البق ومن الرجال الضئيل الضعيف دون : أقرب ألف : ضعيف أعزل : لا سلاح معه الحيار : المتحير انتحت : اعترضت وأفسدت الهوجل : الرجل الأحمق الهيماء : الصحراء هوجل : مقفرة .

احتراف مهنة الصعلكة ، فإن شعرهم لا يخلو من تصوير هذه الظاهرة. الاجتماعية الخطيرة التى ألقت بهم فى المخاطر والمهالك كى يدرءوا عن أنفسهم. ذل الحاجة والجلوس خلف بيوت الأغنياء كما يرى عروة بن الورد الذى. خاطب زوجته بقوله(١) :

ذَرِينى أطوِّفُ فى البلاد لعلنى أخَلِّيكِ أو أُغنيكِ عن سُوء مَحْضَر(٢)

فإن فازَ سَهمٌ للمنية لم أكن جَزُوعاً وهل عن ذاك من متأخر

وإن فازَ سهمى كفَّكم عن مَقاعد لكم خَلْفَ أدبار البيوت ومنظر

وكذلك الأعلم الهذلى الذى دفعته الحاجة إلى الصعلكة فترك بيته ، وأولاده الصغار بالعراء ، ثم راح يتذكرهم ، وهم يعانون من آلام الوحدة والجوع الذى جعلهم يتطلعون إلى مافى أيدى الأقارب فقال(٣) :

وذكرت أهلى بالعرا ء وحاجة الشُّعث التَّوالب(٤)

المُصْرمين من التلا د اللامحين إلى الأقارب

كما أن الفقر الشديد ، وماترتب عليه من آثار ، كنحول الجسم ، وضعفه، وهزاله وغير ذلك من آثار مادية ، ومعنوية لا يجعلهم يفقدون السيطرة على. أنفسهم ومشاعرهم ، فالشنفرى الأزدى يقاوم الجوع ، ويتجاهله حتى يكاد

---

(١) الأصمعيات للأصمعى تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ص ٤٣. طبع دار المعارف .

(٢) التخلية : هنا الطلاق وهى كناية عن قتله . سوء المحضر : المسألة. والحاجه . سهم الاولى : موته .وسهم الثانية : نجاته وغنمه ادبار : خلف .

(٣) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د / عبد الحليم حفنى ص ١٨٨ طبع. الهيئة المصرية .

(٤) الشعث : الجاش الصغار وأراد هنا أولاده .

ينعدم لديه الشعور بالجوع ، ويفضل أن يستف تراب الأرض على أن يمديد أحد إليه يده بفضل أو نعمة فيقول(١) :

أُدِيمُ مَطالَ الجُوعِ حتى أُمِيتَهُ
وأضربُ عنه الذِّكرَ صَفْحًا فَأُذْهَلُ(٢)
وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأرضِ كيلا يَرَى له
عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرؤٌ مُتَطوِّلُ

وغير ذلك كثير لمن أراد أن يتتبع موضوعات شعرهم التى ارتبطت بأشخاصهم ارتباطا وثيقاً ؛ لأن « الصعلوك كان يجعل نفسه فى شعره دائماً صلب الحديث ، وكل مايصفه ، أو يتحدث عنه مشدوداً إلى شخصه بخيوط واضحة ، وعلاقته بكل ما يتحدث عنه بينه واضحة كل الوضوح ، فهو لايتحدث عن شىء لذات هذا الشىء ، وإنما يتحدث عنه من حيث علاقته هو بهذا الشىء ، ومن ثم فقد جاءت ذاتيته « ذاتية حية ، ومتحركة ، ذاتية واقعية معقولة فى آن واحد ، ذاتيةمتميزةمحدودة لا تلبس بغيرها ولاتخضع لمذهب بعينه من مذاهب النقد لأن طابعها لايشيع فى أدب آخر غير أدب الصعاليك »(٣) .

ذاتية شعراء الممالك العربية :

على أطراف الجزيرة العربية مما يلى حدود الروم ، والفرس قامت إمارتا الغساسنة ، والمناذرة ، وإلى هاتين الإمارتين وفد العديد من الشعراء الجاهليين كحسان ابن ثابت ، والمتنخل اليشكرى ، والمثقب العبدى ، والنابغة الذبيانى

(١) الشنفرى شاعر الصعاليك د / عبد الحليم حفنى ص ١٣٠

(٢) ادیم : من المداومة وهى الاستمرار المطال : من المماطلة أضرب : اعرض ذهل عن الشىء : نسيه الطول : المن والمتطول النعمة التى يمن بها صاحبها على غيره .

(٣) شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/ عبد الحليم حفنى ص ٣٧٦ ، ٣٧٧

الذى توطدت العلاقة بينه ، وبين النعمان بن المنذر ملك الحيرة حتى أصبح شاعره المفضل فى فترة ملكه .

وظل النابغة يحيا حياة الترف ، والدعة ، ويغرف فى صحاف الذهب ، والفضة فترة منادمته لملوك الحيرة « المنذرين الثالث ، والرابع ، والنعمان ابن المنذر أبا قابوس »(١) الذى سخط عليه وأخذ يلاحقه بتهديده ووعيده أينما حل أو ارتحل .

وبسبب هذا الموقف العدائى راح الشاعر يشدو ببعض قصائده المعبرة عن خوفه ، ورهبته ، واعتذاره لأبى قابوس ، ودفاعه عن نفسه عما أصابه من وشاية الواشين ، والتى كانت سببا فى انقطاع صلته الجسمية بالنعمان لكن صلته الروحية ظلت باقية فى الماضى وذكرياته الجميلة فى بــــلاط ملكه ، ولذا نجده يطمع دائما فى عفوه والصفح عنه كما هو واضح فى إحدى قصائده الاعتذارية التى قال فيها(٢) :

أتانى - أبيتَ اللعنِ - أنكَ لُمتَنى ... وتلك التى أهتمُّ منها وأنْصَبُ(٣)

فبتُّ كأن العائذات فَرشْننى ... هَراساً به يُعْلى فراشى ويُقشَبُ

حلفتُ فلم أترك لنفسكَ ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذْهبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنى خيانةً ... لمُبْلغكَ الواشى أغشُّ وأكذَبُ

---

(١) تاريخ الادب العربى لبروكلمان ج ١ ص ٨٨

(٢) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل ص ٧٢ دار المعارف .

(٣) أبيت اللعن : أى ابيت أن تأتى أمراً تلعن عليـــه تلك : أى تلك الملامة النصب : العناء والمشقة . الهراس : الشوك يقشب : يجدد ويتعاهد بالشوك أو يخالط الريبة : الشك وراء الله : أى ليس بعد يمين الله - عز وجل - للمرء مذهب خيانه : أى احتان ودك واكفر نعمتك الواشى : النمام أغش وأكذب : أى ذو غش وكذب .

فتأمل فى هذه الأبيات ـ التى أتينا بها على سبيل الاستشهاد ـ عاطفته ، وشعوره الذاتى بلوم النعمان ، وتهديده ، ووعيده الذى كان سبباً فى تعبه ، ونصبه وزيادة سقمه ، وهمومه التى اقضت مضجعه ، وأسهدت جفنه، فبات يتقلب على فراشه المصنوع من الشوك كما خيل إليه .

وهكذا استمر النابغة فى تسخير موهبته الذاتية للدفاع عن نفسه خوفا من الهلاك والضياع ، راجيا عفو النعمان ، وصفحه ، وإلا تحامته العرب ولم تجره فيصبح مثله كمثل البعير الأجرب على حد تعبيره(١) .

ومن شعراء الممالك العربية الذين برزت نزعتهم الذاتية فى أشعارهم «عدى بن زيد » شاعر الحيرة المشهور الذى وشى به الواشون عند النعمان بن المنذر فاستدعاه ، ثم وضعه فى السجن فأنشد يقول(٢) :

لیتَ شِعْرى عند الهمامِ ويأتيـكَ يُخْبِر الأنباء عطفُ السؤالِ (٣)

أين عنَّا أخطارُنا المـال والأنفـس إذْ ناهَدوا ليومُ المحالِ

ونضالي فى جنبكَ الناس يرمو ن وارمى وكلنا غير آلى

وفى موضع آخر نجد أحاسيسه الذاتية تظهر فى شعوره بالليل ، وطوله ، وكثرة همومه التى لازمته فى سجنه ، فاسهدت جفنه ، وجعلته فى سهر دائم على حد تعبيره فى قوله(٤) :

طال ذا الليلُ علينا واعتكر وكأنى ناذرُ الصبح سَمَرْ(٥)

---

(١) يقول النابغة :

فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

(٢) الأغانى للأصفهانى ج ٢ ص ٩١ .

(٣) اخطار المال ، والنفس : بذلهما وجعلهما خطرا . المناهدة فى الحرب : المناهضة المحال : الكيد والمكر آل : غير مقصر .

(٤) عدى بن زيد الشاعر المبتكر للهاشمى ص ١١٩ .

(٥) جشر الصبح : طلع وفلق .

من نجىٌّ الهَمّ عندى ثاويا فوق ما أُعلن منه وأُسِر
وكأن الليلُ فيــــه مثلهُ ولقد ما ظُنّ بالليل القِصَرْ
لم أغمِضْ طولَهُ حتى انقضى أتمنّى لو أرى الصبحَ جَشَرْ
غير ما عِشْقٍ ولـكن طارقٌ خلسَ النوم وأجدانى السَّهَرْ

وبهذه النماذج الشعرية المتنوعة لعلنا نكون قد ساهمنا فى الرد على قول القائل : بأن الشعر الجاهلى شعر جماعى اختفت منه النزعة الذاتية ، وحلت محلها النزعة القبلية ، علما بأن ما أتينا به هنا كان على سبيل الاستشهاد فقط فهناك بدواوين الشعراء الجاهليين ، ومصادر شعرهم العــديد من القصائد والمقطعات الشعرية الأخرى لهؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم فى ثنايا هـذا البحث ، ولشعراء آخرين لم نذكرهم كعلقمة(١) الفحـــل ، والمرقش الأكبر(٢) والمرقش الأصغر(٣) ، وقيس بن الحدادية(٤) ، وثعلبة بن صغير(٥) ، وعبد قيس بن خفاف(٦) وغيره من الشعراء الذين صدر شعرهم معبراً عن عواطفهم الفردية ، ومشاعرهم الذاتية دون قيد أو شرط يجعلهم يهدرون ذاتيتهم ، ويقللون من كرامة أنفسهم .

وخلاصة القول : فإن النزعة الذاتية يمكن ملاحظتها فى الشعر الجاهلى من خلال رجوع الشاعر إلى نفسه ، وحنينه ، واشتياقه إلى التعبير عما يـكمن بداخلها من عواطف ، وانفعالات فردية سواء أكان الشاعر متحرراً

---

(١) انظر القصيدة رقم ١٢٠ بالمفضليات .
(٢) انظر القصائد التالية بالمفضليات رقم ١٦ ، ٤٧ ، ٤٩ .
(٣) انظر القصيدة رقم ٥٥ ، ورقم ٥٦ ، المفضليات .
(٤) انظر القصيدة رقم ٣٣ بالمفضليات .
(٥) انظر القصيدة رقم ٢٤ بالمفضليات .
(٦) انظر القصيدة رقم ١١٦ بالمفضليات .

من سلطان القبيلة أم شاعرا قبليا لم تشغله قضايا قبيلته عن التعبير عن مشاعره الشخصية ، وبخاصة فى مقدمة القصيدة التى تنوعت الآراء حول تفسيرها الذى دعانا إلى الأخذ بقول القائل : بأن الخوف والرهبة والإحساس الدائم بالفناء كان سببا فى افتتحياته الطللية التى عبرت تعبيراً صادقا عن مشاعره ، وأحاسيسه الذاتية .

وكما برزت النزعة الذاتية ، فى مقدمة القصيدة الجاهلية برزت أيضا فى باقى أجزائها ، ولمسنا ذلك فى بعض قصائد أمرىء القيس الذى عبر تعبيراً ذاتيا عن تمرده وانشغاله الدائم باللهو والعبث وكذلك فى شعر طرفة بن العبد الذى أسرف فى شرب الخمر ، وأيضا عنترة العبسى الذى دفعه الإحساس بالظلم إلى التعبير عما يشعر به من ذل ، وهوان ، وحرمان من الاقتران بابنة عمه التى شغف بحبها ، فرآها فى كل شىء حوله ، رآها فى مغامراته ، وأدوات قتاله ، رآها فى مظاهر الطبيعة فراح يناجيها ، ويخاطبها خطاب الألفة والمشاركة ، وبصنيعه هذا صححنا قول القائل بأن الشاعر الجاهلى كان يصف مظاهر الطبيعة وصفا مجرداً لا تظهر فيه ذاتيته ولا تتحسس منه وجدانه ، ومشاعره .

وفى طائفة الصعاليك الذين خرجوا على حمى قبائلهم انطلقت النزعة الذاتية انطلاقا متحرراً حتى أصبحت تيارًا عاماً بين جميع الشعراء الصعاليك وتستطيع أن تدرك ذلك من واقع شعرهم المعبر عن حياتهم ، وسلوكياتهم ومغامراتهم المتنوعة .

كما ظهرت النزعة الذاتية فى شعر بعض شعراء الممالك العربية كالنابغة الذبيانى الذى لا نشك فى إهدار ذاتيته بسبب خوفه من النعمان تارة وطمعه فى العودة إلى حظيرة ملكه تارة أخرى وكذلك فى شعر عدى بن زيد ، ومعاناته من السجن وآلامه ومتاعبه التى عبر عنها تعبيراً ذاتيا كما رأينا فى بعض نماذجه الشعرية ؟

مصادر البحث ومراجعه

- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى د/ محمد مصطفى هدارة طبع دار المعارف .
- الأدب العربى بين الجاهلية وصـــدر الإسلام للدكتور حسن جاد ود/ محمد عبد المنعم خفاجى المطبعة الفاروقية .
- الأدب العربى فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام د/ زكريا صيام طبع دا العصر .
- تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف طبع دار المعارف .
- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة د/ عبد الحليم النجار يطبع دار المعارف .
- تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام .د / شكرى فيصل طبع دمشق ١٣٨٣ هـ ـ ١٩٩٤ م .
- التفسير النفسى للأدب د/ عز الدين هلال طبع دار الثقافة بيروت .
- ثقافة الناقد الأدبى د/ محمد النويهى طبع بيروت ١٩٦٩ م .
- ديوان الأعشى تحقيق د/ محمد حسين المطبعة النموذجية .
- ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل طبع دار المعارف .
- ديوان طرفة بن العبد تحقيق د/ على الجندى طبع الأنجلو المصرية .
- ديوان عنترة بن شداد طبع بيروت ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م .
- ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل طبع دار المعارف .

- الروائع من الأدب الغربي د/ سيد حنفى وآخرين طبع الهيئة المصرية العامة .
- الإسلام والشعر د/ إخلاص فكرى طبع مكتبة الآداب .
- شرح ديوان الحماسة للتبريزى طبع بيروت .
- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبارى تحقيق عبد السلام هارون طبع دار المعارف .
- شعر الصعاليك منهجه وخصائصه د/ عبد الحليم حفنى طبع الهيئة المصرية العامة .
- الشعر الجاهلى مادته الفكرية وطبيعته الفنية د/ محمد أبو الأنوار ونشر مكتبة الشباب .
- الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/ يوسف خليفة طبع دار دار المعارف .
- الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر طبع دار المعارف .
- الشنفرى شاعر الصعاليك د/ عبد الحليم حفنى .
- عدى بن زيد الشاعر المبتكر للهاشى .
- العمدة لابن رشيق تحقيق الشيخ محمد محى الدين طبع دار الرشاد الحديثة .
- الأغانى للاصفهانى طبع بيروت .
- فى علم النفس د/ حامد عبد القادر المطبعة المصرية .
- القاموس المحيط للفيروز أبادى .
- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث د/ محمد زكى العشماوى طبع الهيئة المصرية العامة .
- قيم جديدة للأدب الغربى د/ بنت الشاطىء طبع دار المعرفة .

- لسان العرب لابن منظور .
- المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية طبع شركة الإعلانات الشرقية .
- معلقات العرب د/ بدوى طبانة طبع الأنجلو .
- مقدمة القصيدة العربية فى العصر الجاهلى د/ حسين عطوان طبع دار المعارف .
- من الظواهر الفنية فى الشعر الجاهلى د/ سعيد عبد المقصود ظلام طبع مؤسسة يوم المستشفيات .
- موسوعة الشعر العربى د/ مطاوع صفدى ، وايليا حاوى طبع بيروت .

القسم الخامس

قسم اللغويات :

١ ـ الوقوف اللازمة فى القرآن الكريم

وعلاقاتها بالمعنى والإعراب

الدكتور / حمدى عبد الفتاح مصطفى خليل

٢ ـ الأسماء الستة فى ميزان اللغة
واختلاف العلماء فيها

« مع دراسة تطبيقية لما ورد منها فى القرآن الكريم »

الدكتور / مهران عبدالله عبد العال

الوقـــوف اللازمة

فى القرآن الكريم

وعلاقتها بالمعنى والإعراب

إعداد الدكتور

حمدى عبد الفتاح مصطفى خليل

مدرس اللغويات بالكلية

تقـــديم :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً . ماكثين فيه أبداً »(١) والصلاة والسلام على عبده ورسوله سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى أنزل ربه الفرقان على قلبه ليكون للعالمين نذيراً ، وعلى آله وأصحابه الذين وعوا القرآن فى صدورهم ، وشغلوا بتلاوته وحفظه آناء الليل وأطراف النهار ، عاملين بحلاله وحرامه ، مؤتمرين بأوامره ، منتهين عما نهى عنه ، ففازوا بخيرى الدنيا والآخرة ، وطهرهم ربهم بذلك تطهيرا ، وكساهم عزاً ومهابة وسرورا ، وجزاهم بذلك جنة وحريرا ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعـــد ، فإن القرآن الكريم منذ نزوله ، والدراسات حوله تنمو وتتشعب ، والعلوم تزيد وتتوسع ، هادفة إلى الحفاظ عليه من اللحن والخطأ ،

(١) سورة الكهف / ١ : ٣

أو التصحيف والتحريف ، وساعية إلى بيان أوجه إعجازه وشرح مراده. كعلوم : النحو والبلاغة والتفسير والقراءات . . . إلخ . العلوم العربية والإسلامية التى تدور فى فلك القرآن الكريم ، وتصدر عنه بل وينهل أصاحبها منه ويعلون .

ومن هذه العلوم ـ بل أجلها ـ علم الوقف والابتداء فى كتاب الله ـ عز وجل ـ .

ولا عجب فى ذلك فقد أمر ربنا رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمته بقوله : « ورتل القرآن ترتيلا »(١) . والمراد : إخراج كل حرف من مخرجه حتى تظهر الكلمة واضحة جلية ، مع الوقوف عند مواضع الوقوف والوصل عند غير ذلك(٢) ، لأن الوصل فى موضع الوقف أو العكس يغير المراد ، ويشوش على السامع لعدم وضوح المراد ، وسترى أمثلة ذلك ـ إن شاء الله ـ فى هذا البحث ، فأنت لو وصلت مثلا فى قوله تعالى : « ولا يحزنك قولهم إنا نعلم مايسرون وما يعلنون »(٣) . ولم تقف على : « قولهم » لتبادر إلى ذهن السامع أن قوله : « إنا نعلم مايسرون وما يعلنون » من قول الكافرين ، وليس كذلك بل هى من كلام الله ـ عز وجل ـ رداً عليهم ، أو يقف القارىء غير مضطر على قوله تعالى : « لا تقربوا الصلاة » من قوله : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون . . . . »(٤) . وخطأ ذلك أوضح من الشمس فى رابعة النهار ، لنهيه المؤمنين عن قرب الصلاة ! ! وحاشا لله أن يأمر المؤمنين بذلك ! !

---

(١) سورة المزمل / ٤ .

(٢) انظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٤ / ٢٤٠ تحقيق د. عبد الجليل شلبي وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤ / ٤٣٤ والإتقان للسيوطى ١ / ٨٣ .

(٣) سورة يس / ٧٦ .

(٤) سورة النساء / ٤٣ .

أو يقف أيضا غير مضطر على قوله تعالى : « إن الله لا يستحي »(١) ، أو قوله : « فويل للمصلين »(٢) إلخ . هذه الوقوف التي تفسد المعنى المراد ، ويأثم صاحبها إن كان غير مضطر ، أو قصد ذلك(٣)، ولذا قال ابن النكزاوي: « باب الوقف عظيم القدر ، جليل الخطر ، لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل »(٤) .

ومن هذا المنطلق اهتم العلماء بهذا الجانب في كتاب الله - عز وجل - وقاموا بتأليف مصنفات خاصة به منذ القرن الثاني الهجري على يد ضرار ابن صرد المقرىء الكوفي المتوفى سنة (١٢٩هـ)(٥) . ثم أخذ العلماء بعده في السير على منواله، فألفوا في ذلك كتبا كثيرة وصل إلينا بعضها كالإيضاح في الوقف والابتداء لابن الأنباري : محمد بن القاسم المتوفى سنة (٣٢٨هـ) والقطع والائتناف لابن النحاس : أحمد بن محمد المتوفى سنة (٣٣٨هـ) ، والمكتفى في الوقف والابتداء للداني : أبي عمرو عثمان بن سعيد المتوفى سنة (٤٤٤هـ) . والاقتداء في الوقف والابتداء لابن النكزاوي : عبدالله ابن جمال الدين المتوفى سنة (٦٨٣هـ) . ومنار الهدى في الوقف والابتداء والابتداء للأشموني : أحمد بن عبد الكريم من علماء القرن الحادي عشر الهجري(٦) .

---

(١) سورة البقرة / ٢٦ .

(٢) سورة الماعون / ٤ .

(٣) انظر الإتقان للسيوطي ١ / ٨٦ ، ومنار الهدى للأشموني ص ١٣ .

(٤) انظر : الاقتداء لابن النكزاوي ١/٤٥ ، ٤٦ تحقيق . د. محمد سعد .

(٥) انظر : الفهرست لابن النديم ص ٣٨ ط : طهران سنة ١٩٧١ م .

(٦) إذا أردت التفصيل فانظر مقدمة محقق كتاب المكتفى في الوقف والابتداء للداني ص ٦٠ - ٧١ ومقدمة محقق الجزء الأول من الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء لابن النكزاوي ص ٤٣ - ٦٦ ملف قسم الدراسة « دكتوراه » بمكتبة اللغة العربية بالقاهرة تحت رقم (١٢٦٥٤) . تحقيق . د . محمد سعد البغدادي .

هذا، ولما كانت الوقوف بهذه المنزلة الجليلة لما لها من أثر فى بيان المعنى المراد، ونظراً إلى خطأ كثير من الناس فيها لوجودها فى أواسط الآيات - أى ليست رأس آية - استخرت الله - تعالى - وقمت: بتجميع الوقوف اللازمة(١) فى المصحف الشريف ثم قمت بدراستها وتوضيحها، وكانت طريقتى فى دراستها كالآتى:

أولا: ذكرت نص الآية التى ورد فيها الوقف اللازم مبينا سورتها ورقمها.

ثانيا: قمت ببيان بعض المفردات فى الآية - ولم أسرف فى ذلك - كيلا يخرج البحث عن هدفه - ثم أتبعت ذلك ذكر المعنى العام للآية ليكون القارىء على بينة من ذلك.

ثالثا: ذكرت موضع الوقف اللازم مبينا سره من ناحية المعنى والإعراب، موضحا مايحتاج إلى توضيح من بعض الوجوه الإعرابية.

---

(١) الوقف لغة: الكف والسكوت عن الفعل والقول.

واصطلاحاً: قطع الصوت عن آخر الكلمة زمناً ما، أو هو قطع الكلمة عما بعدها. والوقف والقطع والسكت بمعنى واحد عند المتقدمين، أما عند المتأخرين ففرقوا بين الثلاثة.

والمراد بالوقف اللازم: مالو وصل طرفاه غير المعنى المراد؛ لعدم تعلقه بما بعده. وبعضهم يسميه: الوقف التام ويعرفه بأنه: مالا يتصل ما بعده بما قبله لا لفظاً ولا معنى.

انظر: لسان العرب والقاموس المحيط والمصباح المنير مادة: «و ق ف».

والإتقان للسيوطى ١ / ٨٤، ٨٧، ٨٨ ومنار الهدى للأشمونى ص ٨، ٩

وقد اقتصرت على ما نص عليه فى المصحف الشريف بأنه لازم مرموزاً إليه بالحرف (م) نظراً إلى إجماع كثير من العلماء على هذه المواضع، ولأن عدم الوقف عليها يغير المعنى المراد.

رابعا : إن كان هناك خلاف فى الوقف : ألازم هو أم جائز ـ ذكرت ذلك ورجحت ما أراه راجحا بالدليل ، معتمداً فى كل ماسبق على أمهات كتب الوقف والابتداء ومعانى القرآن وإعرابه والتفاسير والمعاجم اللغوية وكتب النحو واللغة .

هذا ، ولم آل جهداً فى دراسة هذه الوقوف وبيان أسرارها ، قاصداً بذلك الإدلاء بدلوى فى خدمة كتاب الله المجيد ، آملاً أن يفيد منها الباحثون بل المسلمون جميعا ، راجيا أن تكون خالصة لوجهه الكريم ، وأن تكون فى ميزان حسناتى يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

« رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »[1] .

دكتور
حمدى عبد الفتاح مصطفى خليل
مدرس اللغويات
فى كلية اللغة العربية ـ بالقاهرة

(١) سورة الممتحنة / ٤

الوقف الأول

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين » .

(سورة البقرة آية ٢٦)

المفردات :

لا يستحي : لا يترك ولا يستنكف ، فليس المراد به التغير والانكسار ؛ لأن هذا من صفات الحوادث ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا(١) .

مثلا : المثل : عبارة عن قول فى شىء يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويوضحه ويصوره . ومنه قيل للصور المنقوشة: تماثيل ، ويطلق المثل أيضا على القول السائر الذى يشبه مضربه بمورده(٢) .

بعوضة : نوع من الذباب صغير الحجم يؤذى الإنسان والحيوان بلدغه يشبه الفيل فى الخلقه إلا أنه أكثر أعضاء منه ، فللفيل أربعة أرجل وخرطوم وذنب ، وللبعوضة مثل ذلك ورجلان زائدتان وأربعة أجنحة ، وخرطوم الفيل مصمت ، وخرطومها مجوف نافذ للجوف تستقى به الدم من الإنسان والحيوان(٣) .

---

(١) انظر : مفردات الراغب الأصفهانى مادة « حي » .

(٢) انظر : مفردات الراغب ولسان العرب لابن منظور مادة « مثل » ومجمع الأمثال للميدانى ١ / ٧ ، ٨ ط / عيسى الحلبي .

(٣) انظر : حياة الحيوان للدميرى ١ / ١٧٩ ، ١٨٠ ط / مصطفى الحلبي =

فما فوقها : أى : أكبر منها فى الجثة كالذباب والعنكبوت ، أو أقل منها كجناحها لغرض التمثيل به(١) كما فى الحديث : « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »(٢) .

الفاسقين : الخارجين عن طاعة الله بارتكاب المعاصى والمنكرات مشتق من قولهم : « فسقت الرُّطبة من قشرها » أى : خرجت(٣) .

المعنى العام :

لما سمع المشركون بعض آى القرآن الكريم التى فيها ضرب الأمثال للناس بالعنكبوت والذباب(٤) وغيرهما قالوا : أما يستحي رب محمد أن يضرب المثل بالمحقرات(٥) ؟ فرد الله عليهم مقولتهم تلك مؤكدا ـ سبحانه ـ أنه لا يترك ولا يستنكف أن يضرب الأمثال بأقل شىء من خلقه ـ فى نظرهم ـ وهى البعوضة ، بل ما هو أصغر منها وهو جناحها . ولا عجب فى ذلك ؛ فالجميع خلق الله يشهد بقدرته وإبداعه ، وهذه البعوضة الصغيرة تسبح

= والمستطرف من كل فن مستطرف للأبشيهى ٢ / ١١٦ نشر / مكتبة الحياة ـ بيروت .

(١) انظر : البحر المحيط لأبى حيان ١ / ١٩٩ ط / دار الفكر سنة ١٩٩٢ م وحاشية الجمل على الجلالين ١ / ٣٣ .

(٢) الحديث رواه الترمذى فى كتاب الزهد . باب : ما جاء فى هوان الدنيا على الله ـ عز وجل جـ ٤ / ٥٦٠ ورواه الحاكم فى المستدرك كتاب الرقاق ٤ / ٣٠٦ وقال : صحيح الإسناد .

(٣) هى الآية ٤١ من سورة العنكبوت « كمثل العنكبوت اتخذت بيتا إلخ .

(٤) هى الآية ٧٣ من سورة الحج « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا إلخ .

(٥) انظر : أسباب النزول للواحدى ص ١٢ ، ١٣ ط / مصطفى الحلبى وحاشية الجمل ١ / ٣٢

الله بلغتها : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا »(١) وربما قتلت هذه البعوضة - مع صغر حجمها - حيوانا كبيرا كالفيل والجمل(٢) وقد ثبت أن الملك الجبار عاقب بها أحد الجبابرة الطغاة فدخلت من أنفه إلى أم رأسه وظلت تعذبه حتى مات(٣) : « وما يعلم جنود ربك إلا هو »(٤).

ولذا فحين يضرب الله هذه الأمثال، ويسمعها المؤمنون يزدادون إيمانا مع إيمانهم، لعلمهم بأن كل مايأتى به ربنا حق وصدق، وأما الكافرون والمنافقون والفاسقون فحين يسمعونها لا يفهمون المراد منها لعمى بصائرهم فلا يعقلون منها إلا ظاهرها فيستهزئون بها ويتعجبون من المراد بها ؟ فيرد الله كيدهم إلى نحورهم واستهزاءهم إلى نفوسهم بأنه - سبحانه - ضرب مثل ذلك لهداية كثير من المؤمنين، وإضلال كثير من الفسقة والكافرين.

موضع الوقف وسره :

موضعة قوله : « بهذا مثلا »، وهو من كلام الكافرين المحكى عنهم على سبيل الاستفهام. وهنا يلزم الوقف عليه لأنه نهاية كلامهم، ثم الابتداء بجملة « يضل به كثيرا . . . » وهى من كلام المولى - عز وجل - ردا على سؤالهم السابق.

ولو وصل لصارت هذه الجملة من كلام الكافرين المحكى عنهم، وهذا

---

(١) سورة الإسراء / ٤٤

(٢) انظر : حياة الحيوان للدميرى ١ / ١٨٠

(٣) هو نمرود بن كنعان الذى حاج إبراهيم - عليه وعلى نبينا السلام - انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٣١٣، ٣١٤ نشر، مكتبة دار التراث بالقاهرة وحاشية الجمل على الجلالين ١ / ٢١٠ وحياة الحيوان للدميرى ١ / ١٨٢.

(٤) سورة المدثر / ٣١.

غير واقع ، فلزم الوقف(١) .

وعليه فـ « ما » اسم استفهام مبتدأ و « ذا » اسم إشارة بمعنى « الذى » خبر المبتدأ ، وجملة « أراد » صلة الموصول لا محل لها من الإعراب والعائد محذوف تقديره . أراده . أو « ماذا » كلمة واحدة اسم استفهام فى محل نصب مفعول مقدم لـ « أراد » ، و « مثلا » تمييز ، أو حال من « هذا » أى متمثلا به ، أو حال من لفظ الجلالة أى : متمثلا ، وأجاز الكوفيون نصبه على القطع وكأن الأصل : ماذا أراد الله بهذا المثل ، فلما لم يجر على إعراب ماقبله نصب على القطع . و « يضل » مضارع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم ، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة ، والفاعل ضمير مستتر عائد على لفظ الجلالة ، والجار والمجرور « به » متعلق بالفعل « يضل » ، و « كثيرا » مفعول به منصوب ، والجملة استئنافية جواب الاستفهام لا محل لها من الإعراب(٢) هذا هو الرأى الراجح فى هذا الوقف ، لأن بعض العلماء ، ومنهم العكبرى(٣) وأحمد الأشمونى(٤) يرون أن الوقف ليس بلازم بل جائز ،

(١) انظر : معانى القرآن للفراء ١ / ٢٣ نشر / الهيئة المصرية والاقتداء فى معرفة الوقف والابتداء لابن النكزاوى ١ / ٩٤ « دكتوراه » إعداد د . محمد سعد ومنار الهدى فى الوقف والابتداء لأحمد الأشمونى ص ٣٧ ط / مصطفى الحلبى .

(٢) انظر : معانى القرآن للأخفش ١ / ٢١٥ ، ٢١٦ تحقيق . د . عبد الأمير الورد ، ومعانى القرآن وإعرابه للزجاج ١ / ١٠٥ تحقيق . د . عبد الجليل شلبى ، والبيان فى غريب إعـــراب القرآن للأنبارى ١ / ٦٦ ، ٦٧ تحقيق . د . طه عبد الحميد ، وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١ / ٨٣ مطبوع على هامش حاشية الجمل ، والبحر المحيط ١ / ٢٠٠ - ٢٠٢ ، وشرح الجمل الكبير لابن عصفور ٢ / ٤٧٨ تحقيق . د . أبو جناح ، والمغنى لابن هشام الأنصارى ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ تحقيق . د . مازن المبارك .

(٣) انظر : إملاء ما من به الرحمن ١ / ٨٣

(٤) انظر : منار الهدى ص ٣٧

لأنه يصح عندهم أن تكون جملة « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » من جملة الكلام المحكى عن الكفار، لا من كلام المولى ـ عز وجل ـ.

ويرى ابن عطية(١) أن الجملة الأولى فقط « يضل به كثيرا » من كلام الكفار أما الثانية « ويهدى به كثيرا » فمن كلام الله ـ عز وجل ـ.

وعلى هذه الآراء تكون الجملتان « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » فى محل نصب صفة لـ « مثلا » أى : مثلا يفترق الناس به إلى ضالين ومهتدين، أو تكون الجملتان حاليتين من اسم الله ـ عز وجل ـ أى : مضلا به كثيرا من الناس وهاديا به كثيرا(٢).

هذا، وقد رجح الرأى الأول وأن الوقف لازم كثير من العلماء، منهم أبو عبيدة : معمر بن المثنى(٣) حيث ذكر أن جملة « ماذا أراد الله بهذا مثلا » من الكلام المحكى عن الكافرين، وجملة « يضل به كثيرا » من كلام الله ـ عز وجل ـ ردا عليهم، وابن النكزاوى(٤). وأبو حيان الأندلسى(٥) حيث رد الرأى الثانى قائلا : « وهذا الوجه ليس بظاهر، لأن الذى ذكر أن الله لايستحيي منه هو ضرب مثل ما ـ أى : أى مثل كان :

---

(١) انظر : المحرر الوجيز ١ / ١٥٤ ط فاس سنة ١٩٩٢ م وحاشية الجمل ١ / ٣٣

(٢) انظر : إملاء ما من به الرحمن ١/ ٨٣ وحاشية الجمل ١ / ٣٣

(٣) انظر : مجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ٨ تحقيق . د . محمد فؤاد سزكين .

(٤) انظر : الاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٩٤ تحقيق . د . محمد سعد .
وابن النكزاوى : الإمام القاضى معين الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن عمر . ألف : الاقتداء فى معرفة الوقف والابتداء والشامل فى القراءات السبع والكامل أيضا فى القراءات (ت : ٦٨٣ هـ) انظر : غاية النهاية ١ / ٤٥٢ وبغية الوعاة ٢ / ٥٨ ومعجم المؤلفين ٦ / ١٢٩

(٥) انظر : البحر المحيط ١ / ٢٠٢

بعوضة أو مافوقها ـ ، والذين كفروا إنما سألوا سؤال استهزاء ، وليسوا معترفين بأن هذا المثل « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا » ، وابن هشام الأنصارى(١) حيث ذكر اختلاف العلماء فى إعراب جملة « يضل به كثيرا .. » فقال : صفة لـ « مثلا » ، أو مستأنفة . ثم عقب قائلا : « والصواب الثانى : [أى : مستأنفة من كلام الله ـ عز وجل ـ] لقوله ـ تعالى ـ فى سورة المدثر : « ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء »(٢) .

وأرى ـ مع هؤلاء العلماء ـ ترجيح الرأى الأول ؛ لأن هذا الرأى الثانى فى أن الوقف جائز غير قوى ؛ لحدوث اللبس فى التركيب ؛ لأن الكلام إما أن يجرى على أنه من كلام الكفار ، أو يجرى على أنه من كلام الله ـ عز وجل ـ أما إن يجرى بعضه على أنه من كلام الكفار ، وبعضه من كلام الله ـ تعالى ـ من غير دليل على ذلك ، فإنه يكون إلباسا فى التركيب ، وكلام الله منزه عن ذلك(٣) ، ولكون الاستفهام والإجابة حينئذ سيكونان صادرين عن الكفار ، وهذا مناقض لما ورد فى سبب نزول الآية ، كما سبق من سؤال المشركين واستهزائهم ، فرد الله عليهم مقولتهم تلك يزيد على هذا أن المعهود فى أسلوب الاستفهام أن يكون السؤال من المستفهِم والجواب من المستفهَم منه ، لا أن يكون السؤال والجواب معا من المستفهِم ، ولا يعقل أن يكون الاستفهام هنا قد خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى مجازى بحيث لايحتاج إلى جواب عنه(٤) ؛ لأن سياق الآية لايرتضيه ، إذن فلابد من

---

(١) انظر : مغنى اللبيب ص ٧٧٣ ، ٧٧٤

(٢) سورة المدثر / ٣١

(٣) انظر : البحر المحيط ١ / ٢٠٢ والدر المصون للسمين الحلبى ١ / ٢٣٢ تحقيق . د . أحمد الخراط وحاشية الجمل ١ / ٣٣

(٤) انظر : بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ٢/٤٧ وما بعدها نشر / مكتبة الآداب .

جواب عنه كقوله ـ تعالى ـ على لسان الكفار : « وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ؟ فـرد الله عليهم : « أهم يقسمون رحمة ربك ... »(١) يؤكد هـذا أن فى جعل « يضل به كثيرا » من كلام الكافرين يكون الكافرون قد أقروا على أنفسهم بالضلال والكفر ، وبأن هذه الأمثال قد ضربها الله لضلالهم ، وهذا غير واقع .

الوقف الثانى

« وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

(سورة البقرة آية ١١٨)

المفردات :

قال الذين لايعلمون : قيل : إنهم اليهود ، وقيل : إنهم النصارى . وقيل: هم مشركو العرب ، وهو الراجح(٢) ، لأن سياق الآية يشبههم باليهود والنصارى ، وهم الذين من قبلهم ، ويؤكد ذلك نظيره من الآيات التى تحكى ما قاله مشركو العرب : « وقالوا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً »(٣) ، وقوله : « وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله »(٤) .

الذين من قبلهم : هم اليهود والنصارى(٥) ، حيث حكى القرآن

(١) سورة الزخرف / ٣١ ، ٣٢ وانظر : حاشية الجمل ٤ / ٨٣
(٢) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ١٦١ ، ١٦٢ ، وحاشية الجمل ١ / ١٠٠
(٣) سورة الفرقان / ٢١
(٤) سورة الأنعام / ١٢٤
(٥) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ١٦١ ، ١٦٢ ، وحاشية الجمل ١ / ١٠٠

عنهم : « وإذ قلتم ياموسى لن نومن لك حتى نرى الله جهرة »(١)، وقوله : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر أو مجنون»(٢) .

تشابهت قلوبهم : أى : فى الكفر والنفاق، والعمى والعناد، والتجبر والتعنت(٣) .

يوقنون : اليقين : من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، وهو نقيض الشك . والمقصود به : سكون الفهم مع ثبوت الحكم(٤) .

المعنى العــــام :

تعنت المشركون كثيراً ، وطلبوا من حضرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطالب متنوعة وشروطاً كثيرة ، لكى يؤمنوا ، وماهم بمؤمنين ، كطلبهم بأن يفجر لهم الأنهار فى بلادهم القاحلة ، أو يصير لهم الجبال ذهباً ، أو يأتى لهم بالملائكة عياناً تكلمهم ، أو يكلمهم رب العزة سبحانه من غير واسطة ، أو بواسطة الوحى ، فشق ذلك على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره ربه مسلياً له ومطمئناً بأن هؤلاء الكفرة لن يؤمنوا مهما أوتوا من آيات طلبوها لأن الله قد طمس على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم ، وهم ليسوا أول من تعنت مع أنبياء الله ، فقد سبقهم إخوانهم فى الكفر والجحود من اليهود والنصارى ، حيث سألوا رسلهم عن رؤية الله جهرة فعاقبهم الله وعذبهم ، وهؤلاء تشابهت قلوبهم فى الكفر والجحود والطمس والعمى ، فلن يفهموا مايأتيك الله به من آيات ، إنما يؤمن بها ويعقلها المؤمنون الصادقون فى

(١) سورة البقرة / ٥٥
(٢) سورة الذاريات / ٥٢
(٣) انظر : حاشية الجمل ١ / ١٠٠
(٤) انظر : مفردات الراغب ، ولسان العرب « يقن »

الإيمان، الخاضعون للرحمن، المصدقون بالقرآن ، الراغبون فى الجنان ، الخائفون من النيران .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله : (مثل قولهم) ، وذلك أن قوله : « مثل قولهم » من جملة الكلام المحكى عن الكفار واليهود والنصارى ، فى أن المتأخرين منهم قالوا كلاماً مثل ماقاله السابقون منهم ، ثم عقب المولى ـ عز وجل ـ بأن هؤلاء تشابهت قلوبهم فى الكفر ، واتفقت فى الجحود ، فلا بد من الوقوف على « مثل قولهم » وإلا كانت جملة « تشابهت قلوبهم » من كلام الكافرين أيضاً ، وهذا غير واقع(١) .

وعليه فالكاف فى « كذلك » فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف منصوب متقدم على الفعل ، والتقدير : قالوا : قولا مثل قول اليهود والنصارى .

و « مثل قولهم » بدل من « كذلك » أو عطف بيـــان ، أو مفعول لـ « يعلمون » أو لـ « قال » .

ويجوز أن تكون الكاف فى موضع رفع بالابتداء ، والجملة بعده خبر عنه ، والعائد على المبتدأ محذوف تقديره : كذلك قاله(٢) .

و « مثل قولهم » صفة لمصدر محذوف ، أو مفعول لـ « يعلمون » ، وعلى هذا الإعراب لايصح أن تكون « مثل » مفعولا لـ « قال » ، لأن « قال »...

---

(١) انظر : الاقتداء لابن النكزاوى ١ / ١٥٩ ت د . محمد سعد ، ومنار الهدى ص ٤٨

(٢) انظر : مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب ١ / ١٠٩ ت د . حاتم صالح الضامن .

قد أخذ مفعوله ، وهو العائد المحذوف(١) .

وعلى كلا الإعرابين فـ «تشابهت» فعل ماض والتاء للتأنيث ، و« قلوبهم » فاعل و «هم» ضمير مبنى على السكون فى محل جر مضاف إليه ، والجملة استئنافية لا محل لها من الإعراب .

هذا وقد رد الإعراب الثانى ـ وهو كون الكاف فى موضع مبتدأ والجملة بعده خبر والعائد محذوف تقديره : قاله ـ ابنُ الشجرى حيث قال : « وأقول : لا يجوز أن يكون موضع الكاف فى الموضعين رفعاً كما زعم ، لأنك إذا قدرتها مبتدأ احتاجت إلى عائد من الجملة ، وليس فى الجملة عائد ، فإن قلت : أقدر العائد محذوفاً ، كتقديره فى قراءة من قرأ : « وكلٌ وعد الله الحسنى »(٢) أى وعده ، فأقدر : كذلك قال الذين لا يعلمون ، وكذلك قاله الذين من قبلهم ، لم يجز هذا ، لأن «قال» قد تعدى إلى ما يقتضيه من منصوبه ، وذلك قوله : « مثل قولهم » فلا يتعدى إلى منصوب آخر »(٣) .

وقد أجاب ابن هشام عن ذلك قائلا : « وليس بشىء ، لأن « مثل » حينئذ مفعول مطلق ، أو مفعول به لـ « يعلمون » والضمير المقدر مفعول به لـ « قال »(٤) .

* * *

---

(١) انظر : البيان لأبى البركات الأنبارى ١/١٢٠ ، وإملاء ما من به الرحمن ١ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، والبحر المحيط ١ /٥٨٧ ، والمغنى لابن هشام ص ٢٣٧ .

(٢) سورة الحديد / ١٠ ، والقراءة فى إتحاف فضلاء البشر ٢/٥٠٢

(٣) الأمالى الشجرية ٣/١٦٩ ، ت د الطناحى

(٤) انظر : المغنى ص ٢٣٧

الوقف الثالث

« زين للذين كفروا الحياة الدنيا ، ويسخرون من الذين آمنوا ، والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب » .

(سورة البقرة آية ٢١٢)

المفردات :

يسخرون : يستهزئون ويضحكون(١) .

المعنى العـــام :

زين الله - سبحانه - وحسن الدنيا فى عيون الكفار ، حتى اطمأنوا لها ، وركنوا إليها ، ومنعوا حقوق الله فيها ، فلم يخرجوا زكاة ، ولم يقيموا صلاة ، بل وسخروا من المؤمنين المتقين الذين جعلوا الدنيا وراء ظهورهم ، والآخرة أمامهم ، فأنفقوا الأموال فى الزكاة والصدقات ، وأسهروا الأبدان فى الذكر والصلوات ، ولذا جعلهم الله يوم القيامة فى أعلى الدرجات ، وجعل الكافرين فى أسفل الدركات ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهو سبحانه يعطى المؤمنين المتقين عطاء كبيراً ، وخيراً عميماً بغير حساب .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله تعالى : « ويسخرون من الذين آمنوا » وهو من كلام المولى - عز وجل - عن الكافرين بأنه زين الحياة الدنيا فى أعينهم ، حتى ركنوا إليها ، وسخروا من المؤمنين الذين ابتعدوا عن زخارف الحياة الدنيا ، فهذا كلام محكى عن الكافرين ، لابد من الوقوف عليه ، ثم

---

(١) انظر لسان العرب ، والمصباح المنير « سخر » .

استئناف الكلام والبدء بهذا الحكم الجديد عقيب الكلام السابق، وهو أن المؤمنين المتقين هم الفائزون، وهم الأعلون يوم القيامة.

ولو لم يوقف ووصل لتوهم أن الكافرين سيسخرون أيضاً من الذين اتقوا يوم القيامة وهذا غير واقع، فلزم الوقف(١).

وعليه ف «يسخرون» مضارع مرفوع بثبوت النون، وواو الجماعة فاعل، والفعل معطوف على «زين» من عطف المفردات، لعدم اتحاد الزمان، ويجوز أن يكون من باب عطف الجملة الفعلية على نظيرتها، وقيل: يجوز أن تكون جملة «يسخرون» فى محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: وهم يسخرون، وتكون الواو استئنافية، والجملة معطوفة على ما قبلها، من عطف الاسمية على الفعلية، وقيل: يجوز أن تكون هذه الجملة حالية، لتوفر الشروط فيها، وهى: كونها بدئت بمضارع مثبت بعد واو، فوجب تقدير مبتدأ بعد الواو، على حد قول ابن مالك فى «الخلاصة (الألفية)»:

وذاتُ واو بعدَها انو مبتدا له المضارعَ اجعلنَّ مُسْنَدا(٢)

ومن ذلك قولهم: «قمت وأصك عينه»(٣)، أى: وأنا أصك، وقول الشاعر:

---

(١) انظر: إيضاح الوقف والابتداء لابن الانبارى ص ٥٤٩، والمكتفى للدانى ص ١٨٣، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٢٠٥ ت د. محمد سعد، ومنار الهدى ص ٥٨

(٢) انظر: الخلاصة الألفية لا بن مالك ص ٣٣، وانظر أيضاً: شرح الألفية للمرادى ٢ / ١٦٦. ت د. عبد الرحمن سليمان، وشرح المكودى على الألفية ص ٩١، ط مصطفى الحلبى، وشرح الأشمونى ٢/١٨٧ ط عيسى الحلبى.

(٣) ورد هذا القول فى: دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر ص ٢٠٦ ت. شاكر، وشرح الرضى على الكافية ١ / ٢١٢ بدون تحقيق، وارتشاف الضرب ٢ / ٣٦٧ ت د. مصطفى النماس، والهمع ١ / ٢٤٦، وشرح الأشمونى ٢ / ١٧٨

فلما خشيت أظافيرهم نجوت وأرهنتهم مالكا[1]

و« من » جارة ، ومعناها : ابتداء الغاية ، كأنهم جعلوا السخرية مبتدأة منهم ، « والذين » اسم موصول مبنى على الفتح في محل جر ب « من » والجار والمجرور متعلق بالفعل « يسخرون » ، « وآمنوا » فعل وفاعل ، والجملة صلة الموصول ، لا محل لها من الإعراب . « والذين اتقوا » الواو استئنافية ، و « الذين » اسم موصول مبنى على الفتح فى محل رفع مبتدأ ، و« اتقوا » فعل وفاعل ، والجملة لا محل لها من الإعراب صلة الموصول ، و« فوقهم » منصوب على الظرفية المكانية ، متعلق بمحذوف خبر المبتدأ ، و« هم مضاف إليه ، وهذه الفوقية ، وهذا الاستعلاء إما فوقية مكانية ، لأن أصحاب الجنة فى الدرجات العلا ، وأصحاب النار فى الدركات السفلى ، وإما فوقية رتبية ، أى : رتبتهم فوق رتبة الكفار ، أو فوقية استعلائية وقهرية[2] .

* * *

الوقف الرابع

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . .. الآية) .

(سورة البقرة آية ٢٥٣)

---

(١) من المتقارب ، لعبد الله بن همام .

والبيت فى : المقتضب ٣ / ١٩ ، وشرح ابن عقيل على الألفية ١٨٣ ، والهمع ٢٤٦/١ ، والأشمونى ٢ / ١٨٧ ، وشرح شواهد ابن عقيل لعبد المنعم الجرجاوى ص ١٣٧ ، ط : عيسى الحلبي .

(٢) انظر البيان للأنبارى ١ / ١٤٩ ، وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١ / ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، والبحر المحيط ٢ / ٣٥٤ ، وحاشية الجمل على الجلالين ١٦٨/١

المعنى العام :

يخبر الله ـ سبحانه ـ أنه بحكمته ، وعلى حسب ما اقتضته مشيئته فضل بعض رسله على بعض ، فمنهـــم الذى كلمه من وراء حجاب ، كموسى ـ عليه السلام ـ ومنهم من كلمه من غير حجاب كنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الإسراء والمعراج ، ومنهم من رفعة الله مكاناً علياً ، كإدريس ـ عليه السلام ـ ومنهم من اصطفاه الله وفضله على جميع الأنبياء والمرسلين ، وهو خاتم المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ومنهم من آتاه الله الحجج البينات ، والبراهين الساطعات ، والمعجزات الباهرات كعيسى ـ عليه السلام ـ بل أيده الله بروح القدس ، ومع هذا فقد اختلف القوم المرسل إليهم واقتتلوا وانقسموا فريقين : مؤمنين ، وكافرين وهذا كله بقدر الله وحكمته ، فهو سبحانه فعال لما يريد .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله تعالى : (فضلنا بعضهم على بعض) ، وذلك لأنه ـ سبحانه ـ أخبر أنه فضل بعض أنبيائه على بعض ، ذاكراً ذلك على سبيل العموم ، ثم استأنف كلاماً فى تفصيل بعض هذه الخصائص التى اختص كل نبى بإحداها فذكر أن منهم من كلمه الله ، كموسى ـ عليه السلام ـ ومنهم من رفعه الله مكاناً علياً ، ومنهم من آتاه الله الدلائل البينات ، ومنهم من فضله الله عليهم أجمعين ، كسيدنا محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهنا يلزم الوقف على (على بعض) ولو وصل لكانت جملة (منهم من كلم الله) وما عطف عليها صفة لـ (بعض) فينصرف الضمير فى بيان المفضل بالتكليم وهو موسى ـ عليه السلام ـ إلى كلمة (بعض) فيكون (موسى) من هذا البعض المفضل عليه غيره لا من البعض المفضل على غيره بالتكليم وهذا غير واقع ، لأن التكليم خاصية موسى ـ عليه السلام ـ ، كما قال : (وكلم الله موسى تكليما)(١) .

---

(١) سورة النساء / ١٦٤

فلزم الوقف(١) . وعليه فـ (تلك) اسم إشارة مبتدأ ، واللام للبعد ، والكاف حرف خطاب ، و (الرسل) خبر المبتدأ وجملة (فضلنا بعضهم) حال من الرسل ، والعامل فيها اسم الإشارة .

ويجوز أن يكون (تلك) مبتدأ ، و(الرسل) صفة لـ (تلك) أو عطف بيان ، وجملة فضلنا فى محل رفع خبر المبتدأ .

و(منهم) جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم ، و(من) اسم موصول فى محل رفع مبتدأ مؤخر ، و(كلم الله) جملة لا محل لها من الإعراب صلة الموصول (من) ، والعائد محذوف تقديره : كلمه الله ، وهذه الجملة كلها (منهم من ....) استئنافية لا محل لها من الإعراب ، وقيل : يجوز أن تكون بدلا من موضع جملة (فضلنا) على الإعراب الثانى ، الذى هى فيه خبر المبتدأ (تلك)(٢) .

هذا ، وقد اعترض بعض العلماء على الإعراب الثانى لموقع جملة (منهم من كلم الله) ، وهو كونها بدلا من جملة (فضلنا) ، قائلا : إن الجملة المبدلة اسمية ، والمبدل منها فعلية ، وهذا لا يجوز(٣) ورد ابن هشام بجواز ذلك لعدم وجود دليل على امتناعه(٤) .

* * *

---

(١) انظر : الاقتداء ابن النكزاوى ١ / ٢٣١ ت د . محمد سعد ، ومنار الهدى ص ٦٢ ، ٦٣

(٢) انظر : البيان للأنبارى ١ / ١٦٧ ، وإملاء ما من به الرحمن للعكبرى ١ / ٤٨٤ ، والدر المصون للسمين الحلبى ٢ / ٥٣٦ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٠٥

(٣) انظر : المغنى لابن هشام ص ٧٦١ ، ولم يعين من هو المعترض ، إلا أنه قال : إنه من المتأخرين .

(٤) السابق نفسه .

الوقف الخامس

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، ومايذكر إلا أولو الألباب) .

(سورة آل عمران آية ٧)

المفردات :

آيات محكمات : واضحات الدلالة لا يعرض لها شبهة من حيث اللفظ أو المعنى(١) .

أما الكتاب : أصله المعتمد عليه فى الأحكام(٢) .

وأخر متشابهات : لا ينبىء ظاهرها عن المراد منها ، كالحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقيل : ما أشكل تفسيره لمشابهته لغيره من حيث اللفظ أو المعنى ، أو اللفظ والمعنى معا(٣) .

فى قلوبهم زيغ : أى : فى صدورهم ميل عن الحق الواضح إلى الباطل (٤) .

الراسخون فى العلم : المتمكنون فيه ، المطمئنون إليه ، الذين تحققت فيهم هذه الشروط : (التقوى فيما بينهم وبين الله ، والمجاهدة فيما بينهم وبين

---

(١) انظر : مفردات الراغب ، واللسان « حكم » ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٢

(٢) انظر حاشية الجمل ١ / ٢٤٢

(٣) انظر : مفردات الراغب « شبه » ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٣

(٤) انظر : مفردات الراغب ، واللسان « زيغ » .

أنفسهم ، والتواضع فيما بينهم وبين الناس ، والزهـــد فيما بينهم وبين الدنيا)[1] .

أولو الألباب : أصحاب العقول الزكية ، والبصائر المضيئة التى تفهم المراد . وتتعظ بكل ماتسمع[2] .

المعنى العام :

سبحانه وتعالى ـ عز شأنه ـ هو الذى أنزل عليك يامحمد الفرقان الحكيم ، وجعل منه آيات واضحات ، يدل ظاهرها على المراد منها ، وهى أكثر آيات القرآن الكريم ، وجعل منه قسماً متشابهاً ، أشكل تفسيره على الناس لأنه سبحانه قد استأثر بعلمه ، فيجب عليكم أن تؤمنوا به ، وتكلوا أمره إلى الله سبحانه ، لا تكونوا كاليهود ، والنصارى والصابئين وغيرهم من الكفرة الذين يتركون الحق الواضح ، ويتبعون هذه الآيات المتشابهات ، لا لشىء إلا ابتغاء الفتنة ، وطلباً للفرقة ، وحثاً على الاختلاف ، كقولهم بأن لله يداً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ ، استدلالا بقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم »[3] ، وتركهم قوله تعالى : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »[4] وقولهم : إن عيسى روح الله ، استدلالا بقوله تعالى : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه »[5] . ويتركون قوله تعالى : « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه

---

(١) انظر : مفردات الراغب واللسان « رمغ » ، وحاشية الجمل ١ /٢٤٣

(٢) انظر : مفردات الراغب ، واللسان « لبب » .

(٣) سورة الفتح / ١٠

(٤) سورة الشورى / ١١

(٥) سورة النساء / ١٧١

وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل »(١) ، وقوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »(٢).

ولذا فالراسخون فى العلم الثابتون فيه من المؤمنين لا يخوضون فى المتشابه منه ، بل يؤمنون به ، ويكلون أمره إلى الله ، وهذا شيء لا يقدر عليه ولا يتعظ به إلا أصحاب العقول الزكية(٣) .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله تعالى : « إلا الله » ، وذلك لأن المعنى : فى القرآن الكريم آيات محكمات واضحات وأخر متشابهات ، تحتاج إلى فهم خاص ، لمخالفة ظاهر اللفظ للمقصود منها ، ولا يعلم تأويلها أو المراد منها أحد إلا الله ـ عز وجل ـ وحده ، وإذا سمع الراسخون فى العلم مثل هذه المتشابهات لم يخوضوا فيها ، أو يتأولوها ، بل ردوا علمها إلى منزل الفرقان ومحكم القرآن ـ سبحانه ـ .

وهنا يجب الوقف . وإلا كان المعنى : إن الراسخين فى العلم يعلمون المتشابه أيضا(٤)

وعليه فـ « ما » نافية ، و « يعلم » فعل مضارع مرفوع ، و « تأويله »

---

(١) سورة الزخرف /٥٩

(٢) سورة آل عمران / ٥٩

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٤ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٢ - ٢٤٤

(٤) انظر : معانى القرآن للفراء ١ / ١٩١ ، وإيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ٥٦٥ - ٥٦٨ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٢٧٣ ، ت د / محمد سعد ، وتفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧ ، وجمال القراء للسخاوى ٢ / ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٣ ، ومنار الهدى ص ١٠ ، ٧٠

مفعول به مقدم ، والهاء مضاف إليه ، و « إلا » أداة استثناء ملغاة ، لا عمل لها ، ولفظ الجلالة فاعل مؤخر .

« والراسخون » الواو استئنافية ، و « والراسخون » مبتدأ مرفوع وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنه جمع مذكر سالم ، و « فى العلم » جار ومجرور متعلق بـ « الراسخون » ، و « يقولون » مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون ، وواو لجماعة فاعل ، و « آمنا » فعل ، وفاعل ، و « به » جار ومجرور متعلق بـ « آمنا » وجملة (آمنا) فى محل نصب مقول القول ، والجملة كلها فى محل رفع خبر المبتدأ « الراسخون »(١) .

وهذا الوقف هو الذى عليه كثير من العلماء والمفسرين ، وروى عن بعض الصحابة كابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب وعروة بن الزبير ، وعائشة ـ رضى الله عنهم ـ ، بل روى ابن مسعود أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقف عليه(٢) .

لأن بعض العلماء من المفسرين والأصوليين والمعربين كالعكبرى والراغب الأصفهانى يرون أن موضع الوقف هو «فى العلم » ، ويكون المعنى: إن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل المتشابه أيضاً »(٣) واحتجوا لقولهم بعدة أدلة ، أهمها :

الأول : لو لم يعلمه الراسخون لكان فى القرآن بعض آيات فيها خطاب للمؤمنين بما لا يفهم ، وهذا بعيد .

---

(١) انظر : المصادر السابقة فى الحاشية المتقدمة ، وانظر أيضاً : البيان للأنبارى ١ / ١٩٢ ، وإملاء ما من به الرحمن ٢ / ٢٧ والبحر المحيط ٣/٢٨ - ٣٠

(٢) انظر : البحر المحيط ٣ / ٢٨ ، ومنار الهدى ص ٧٠ ، وتفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٣

(٣) انظر المصادر السابقة فى الحاشية المتقدمه ، وانظر أيضاً : إملاء ما من به الرحمن ٢/٢٧ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٣ ، ومفردات الراغب « شبه » .

الثانى : ماروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - من قوله : (أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله)(١).

ودعاء النبي - صلى الله عليه وسلم - له : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)(٢).

وعليه ، و (الراسخون) معطوف على لفظ الجلالة ، وجملة (يقولون) فى محل نصب حال من (الراسخون) أى : قائلين : آمنا به(٣).

فإن اعترض بأن الحال جاءت من المعطوف دون المعطوف عليه ؟

أجيب : بأن ذلك جائز ، وله نظائر ، كقوله تعالى : (وجاء ربك والملك صفاً صفاً)(٤) ، أى : والملائكة صفوفاً صفوفاً .

هذا ، ويبدو أن الراجح هو الوقف الأول على (إلا الله) ، وذلك لأنه يمكن أن يرد على أصحاب الرأى الثانى بالآتى :

الأول : قولكم : لو لم يعلمه الراسخون لكان فى القرآن خطاب بما لايفهم ... غير مسلم ، لأن وجود مثل هذا فى القرآن الكريم ليس بحجة لكم ، بل عليكم ، لأن مثل هذا من وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم ،

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧

(٢) السابق نفسه ، وانظر أيضاً : مسند الإمام أحمد ١ / ٣١٤ ، ٣٢٨ ، وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل ابن عباس - رضى الله عنهما - ٤ / ١٩٢٧ ت محمد فؤاد عبد والحاكم فى المستدرك ، كتاب معرفة الصحابة ٣ / ١٣٤ .

(٣) انظر : البيان للأنبارى ١ / ١٩٢ ، وإملاء مامن به الرحمن ٢ / ٢٧ ، وحاشية الجمل ١ / ٢٤٣ ، وتفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧

(٤) سورة الفجر / ٢٢ ، وانظر : مشكل إعراب القرآن لمكى ٢ / ٨١٧ ، وحاشية الجمل ٤ / ٤٣٤

بمعنى : أن هذا من جنس كلامكم أيها المخاطبون ومع ذلك لاتستطيعون فهمه ، أى : المراد منه ، لأنه مما استأثر الله بعلمه(1) .

الثانى : ما استشهدتم به من قول ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ،وحديث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير قوى، لاحتمال أن يكون المراد بالتأويل هنا: التفسير ، والبيان،لامعرفة المتشابه كقوله تعالى فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ : (نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين)(2) .

الثالث : لو وقف على (فى العلم) لكان الراسخون فى العلم يعلمون المتشابه كمثل نزول عيسى ابن مريم وقيام الساعة ، والمدة التى بيننا وبينها ، وغير ذلك مما استأثر الله بعلمه ، وهذا غير واقع ، ولو وقع لكان أولى الناس به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى خاطبه ربه بقوله : (يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ قل : إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض ، لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها ،قل: إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لايعلمون)(3) .

الرابع : لو كان الراسخون فى العلم يعلمون تأويل المتشابه لما كان فى تخصيصهم بالإيمان وجه قوى ، لأنه حينئذ يكون الإيمان به كالإيمان بالمحكم سواء بسواء . فلا يكون فى الإيمان به خاصة مزيد مدح لهم(4) .

الخامس : أن (الراسخون) فى موضع (أما) وأن أصل الكلام : وأما الراسخون فى العلم فيقولون آمنا به ،كل من عند ربنا . يدل على ذلك أنه لاتكاد توجد (أما) التفصيلية فى القرآن الكريم إلا وتثلث أو تثنى

---

(1) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣٥ ، ٣٦
(2) سورة يوسف / ٣٦ ، وانظر : لسان العرب مادة « اول » .
(3) سورة الأعراف / ١٨٧
(4) انظر : التفسير الكبير للرازى ٧ / ١٧٧ ، والبحر المحيط ٣ / ٢٨ ، وحاشية الجمل ١ / ٣٤٣

كقوله تعالى : (أما السفينة .... وأما الغلام .... وأما الجدار)(١) ، وقوله (فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث)(٢) .

وهنا قال : (فأما الذين فى قلوبهم زيغ) ولم يقل بعده : (وأما) ، فدل على أن قوله : (والراسخون) مستأنف منقطع عما قبله ، وأن أصله : وأما الراسخون فى العلم) ، أو أصله وأما غيرهم فيؤمنون به ويكلون معناه إلى ربهم ، ثم حذف ذلك ، ودل عليه (والراسخون ...) ، وهذا جائز فى (أما) التى هى حرف شرط وتفصيل ، حيث ترك تكرارها استغناء بكلام يذكر بعدها يدل على ذلك القسم المحذوف كما فى الآية. وقد يترك تكرارها استغناء بذكر أحد القسمين عن الآخر ، كقوله تعالى : (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم إليه صراطاً مستقيما)(٣) فالتقدير : وأما الذين كفروا بالله فلهم عذاب كذا وكذا وكذا .

ولهذا رجح ابن هشام الوقف على (إلا الله)(٤) .

يؤكد ذلك المعنى قراءة ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأبى : (وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنا به)(٥) وقراءة ابن مسعود : (إن تأويله إلا عند الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به)(٦) .

---

(١) سورة الكهف / ٧٩ - ٨٢

(٢) سورة الضحى / ٩ - ١١

(٣) سورة النساء / ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) انظر : المغنى ص ٨١ ، ٨٢ ، وجواهر الأدب للإربلى ص ٥١٣ ، ت ا د . حامد نيل وشرح الرضى على الكافية ٤ / ٤٦٦ ، ٤٦٧ ت ا د يوسف عمر ، وإيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ص ٥٦٧ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٢٧٤ ، ٢٧٥ ت د . محمد سعد .

(٥ ، ٦) انظر : معانى القرآن للفراء ١ / ١٩١ ، والبيان للأنبارى ١/١٩٢ ، والبحر المحيط ٣ / ٢٩ ، وتفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧

وربما يعترض على الرد السابق بأنه لو كان على تقدير : (أما) لوجبت الفاء فى الجواب ، حيث يقال : (والراسخون فى العلم فيقولون) ، ولكنها لم تأت .

ويرد بأن الفاء حذفت من الجواب هنا ، والأصل : فيقولون ، وهذا الحذف له نظائر ، فمنه فى القرآن الكريم : (فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم)(١) ، أى فيقال لهم : أكفرتم ، وفى الحديث : (أما إبراهيم - عليه السلام - فانظروا إلى صاحبكم - يعنى نفسه صلى الله عليه وسلم - ، وأما موسى كأنى انظر إليه وقد انحدر فى الوادى يلبى)(٢) والأصل: فكأنى وقول الحارث المخزومى :

فأما القتالُ لاَ قتالَ لديكمُ
ولكنّ سَيْراً فى عِرَاضِ المواكبِ(٣)

والأصل فلا قتال .

هذا ، ويرى بعض العلماء أنه لامانع من الوقف على (العلم) ، إذ كان المراد بالتأويل : التفسير والبيان والتعبير ، كقوله تعالى : (نبئنا بتأويله)(٤) أما إذا كان المراد بالتأويل : حقيقة الشىء ومايؤول إليه أمره فيمتنع الوقف

---

(١) سورة آل عمران / ١٠٦

(٢) رواه البخارى فى كتاب الحج ، باب التلبية إذا انحدر فى الوادى ١ / ٥٦٣ ت سعيد ألبغا ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ١ / ٢٧٧

(٣) من الطويل ، وردفى : المقتضب ٢ / ٧١ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٧ / ١٣٤ ، ١٢/٩ ، وارتشارف الضرب ٢ / ٥١ ، ٦٦ ، ت أ د مصطفى النماس ، ورد فى : المقتضب ٢ / ٧١ ، والمغنى لابن هشام ص ٨٠ ، والتصريح بمضمون التوضيح ٢ / ٢٦٢ ، وشرح الأشمونى ١ / ١٩٦ ، ٢٢٤

(٤) سورة يوسف / ٣٦

على (في العلم) ويجب الوقف على لفظ الجلالة لما سبق بيانه[1] ، والله تعالى أعلى وأعلم .

* * *

الوقف السادس

« لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق » .
(سورة آل عمران آية ١٨١)

المفردات :

– « الذين قالوا إن الله فقير » : بعض رؤساء اليهود كحيي بن أخطب، وفنحاص بن عازوراء وكعب بن الأشرف[2] .

– عذاب الحريق : عذاب النار التي تحرق الأجساد وتذيب الأبدان[3]

المعنى العام :

دأب اليهود على المجادلة والشقاق مع المسلمين ، فحين نزل قول الله تعالى: (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة)[4] استهزأ اليهود بذلك ، وقال أحدهم – وهو فنحاص – لأبي بكر – رضي الله عنه – حين قال له : اتق الله وأسلم ، فإنك تعلم أن محمداً رسول الله ، فرد عليه

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣٤٧ ، والدر المصون للسمين الحلبي ٣/ ٢٩، واللسان « أول » .

(٢) انظر : حاشية الجمل ١ / ٣٤١

(٣) انظر : مفردات الراغب ، واللسان « حرق » .

(٤) سورة البقرة / ٢٤٥

مستهزئاً : ما بنا إلى الله من حاجة ، وإنه إلينا لفقير ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان الله غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم . فغضب أبو بكر غضباً شديداً لله تعالى ، وضرب وجه فنحاص ضرباً مبرحا . حتى أثر فى وجهه فجاء فنحاص شاكياً أبا بكر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، فسأل أبا بكر عن سبب ذلك ؟ فحكى له ماحدث ، ولكن فنحاصاً أنكر ذلك ، فنزلت هذه الآية تبين صدق أبى بكر وكذب فنحاص وأهله . وتهددهم وتوعدهم بأن ما قالوه مسجل عليهم فى صحائف أعمالهم ، وسيلقون بسببه عذاباً شديدا فى نار جهنم التى تحرق أجسادهم ، وتذيب شحومهم ، وكلما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ، ولا تحزن يامحمد من أفعالهم القبيحة لأنهم جبلوا على ذلك ، ورضوا بالأفعال الشنيعة التى فعلها آباؤهم . كقتلهم الأنبياء الذين أرسلوا إليهم . وتكذيبهم(١) .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله تعالى : « ونحن أغنياء » ، وذلك لأن هذا نهاية مقولة بعض اليهود ، ثم يبتدأ بـ « سنكتب ما قالوا » ، لأنها كلام الله ـ عز وجل ـ ردا عليهم وتهديدا لهم ، ولا بد من الوقف ، وإلا دخلت جملة « سنكتب » فى مقولة اليهود ، وليس كذلك(٢) .

وعليه ، فجملة « إن الله فقير ونحن أغنياء » فى محل نصب مقول القول

(١) انظر أسباب النزول للواحدى ص ٧٦، ٧٧ وتفسير ابن كثير ١/ ٤٣٣، ٤٣٤ ، وحاشية الجمل ١/ ٣٤١ وصفوة التفاسير للشيخ الصابونى ١/ ٢٣١، ٢٣٢ ، وتفسير القرآن الحكيم للأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ٤ / ١١٢ ، نشر مكتبة النجاح .

(٢) انظر : الاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٣٣٤ ت د . محمد سعد ، ومنار الهدى ص ٩٣

الثانى : « قالوا » لا الأول المصدر المضاف : « قول » ، لأن إعمال الفعل أقوى من إعمال المصدر . و « سنكتب » السين للاستقبال ، و « نكتب » فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم . و « ما » اسم موصول مبنى على السكون فى محل نصب مفعول به . وجملة « قالوا » فعل وفاعل صلة الموصول ، لا محل لها من الإعراب ، و « قتلهم » معطوفة على محل المفعول به « ما » ، و « قتل » مضاف و « هم » مضاف إليه(١) .

* * *

الوقف السابع

« إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطاناً مريدا ، لعنه الله ، وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

(سورة النساء آية ١١٧و١١٨)

المفردات :

شيطانا : كل عات متمرد من الجن ، والمقصود هنا إبليس اللعين(٢) .

مريدا : متمردا بلغ الغاية فى العتو والفجور لخروجه عن طاعة الله ، أو متمردا متجردا عن الخيرات(٣) .

لعنه الله : طرده من رحمته فى الدنيا ، وسخط عليه وعذبه فى الآخرة(٤) .

---

(١) انظر : البيان الأنبارى ١ / ٢٣٣ ، وإملاء ما من به الرحمن ٢ / ١٦١ ، ١٦٢ ، والبحر المحيط ٣ / ٤٥٦ وحاشية الجمل ١ / ٣٤١

(٢) انظر : مفردات الراغب واللسان ، ومختار الصحاح « شطن » ، وحاشية الجمل ١ / ٣٢٤

(٣) انظر : مفردات الراغب ، واللسان « مرد » ، وصفوة التفاسير ١ / ٢٨٩

(٤) انظر : مفردات الراغب ، والمصباح المنير « لعن » .

نصيباً مفروضا : جزءا معينا ومقدارا معلوماً ، قيل : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، وأمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينئذ كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود(١) .

المعنى العام :

بعد أن ذكر الله سبحانه أنه يغفر كل الذنوب إلا الإشراك به سبحانه، ذكر أن المشركين ما يعبدون إلا أصناماً من الحجارة ، لا تنفع ولا تضر ، نحتوها بأيديهم ، وصنعوها على أعينهم ثم سموها بأسماء إناث ، كاللات والعزى ومناة ، ثم زين لهم الشيطان عبادتها ، فأطاعوه وساروا فى ركابه ، وهذا الشيطان متمرد ، لم يطع ربه فى أن يسجد لآدم ـ عليه السلام ـ فلذا طرده ربه ، وأخرجه من رحمته ، وتوعده بالعذاب والهلاك فعليكم أيها المؤمنون أن تحذروا منه ومن إغوائه ، لأنه حين طرده ربه أقسم أن يضل كثيرا من خلق الله ، وأن يعدهم بالأمانى الكاذبة والبروق الخادعة ، ويزين لهم المعاصى ويحبب إليهم الشهوات فمن يسر معه فهو داخل فى حزبه ، ولا شك أن حزب الشيطان هم الخاسرون .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله تعالى : « لعنة الله » ، وذلك لأن جملة « لعنة الله » صفة ثانية لـ «شيطان» بعد الصفة الأولى «مريدا» ، بالدعاء والطرد من رحمة الله تعالى ، وهنا يحسن الوقف على لفظ الجلالة ، والابتداء بـ « وقال لأتخذن . . . » التى يحكى فيها عن الشيطان ماقاله فى حق الإنسان(٢) .

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٥٦ ، وحاشية الجمل ١ / ٤٢٦

(٢) انظر « المكتفى للدانى ص ٢٢٤ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٣٧١ ت د محمد سعد ، ومنار الهدى ص ١٠٧

وعليه فجملة (لعنه الله) التى تتكون من الفعل والفاعل والمفعول فى محل نصب صفة ثانية ل (شيطان) أو هى جملة استئنافية لامحل لها من الإعراب جاءت لغرض الدعاء عليه أو الإخبار بذلك . وجملة : (وقال لأتخذن) . استئنافية لامحل لها من الإعراب ، غير معطوفة على (لعنه الله). و(لأتخذن) جواب قسم محذوف ، و(من عبادك) جار ومجرور ، إمامتعلق بالفعل قبله ، أو بمحذوف على أنه حال من (نصيباً) ، لأنه فى الأصل صفة نكرة قدم عليها (١) .

على حد قول الشاعر :

لِمَيَّةَ مُوحِشاً طَلَلُ يَلُوحُ كَأَنَّهُ خِلَلُ (٢)

حيث جاءت (موحشا) حال من (طلل) وهو نكرة ، فلذلك تقدمت عليه .

هذا ، وبعض العلماء كالعكبرى(٣) يرى أن الوقف هنا غير واجب ، بل جائز ، وعليه فيجوز الوصل ، وعليه ، فهذه الجملة : (وقال لأتخذن)يجوز أن تكون فى محل نصب صفة ثالثة ل (شيطان) ، أوهى معطوفة على (لعنه الله) وفاعل (قال) ضمير الشيطان أيضاً . أو هى جملة فى محل نصب حال على إضمار (قد)(٤) .

---

(١) انظر : إملاء ما من به الرحمن ٢ / ٣٢٤ ، وحاشية الجمل ١ / ٤٢٦

(٢) من مجزوء الوافر لكثير عزة فى ديوانه ٢ / ٢١٠ ، وورد فى الكتاب ٢ / ١٢٣ ، والخصائص ٢ / ٤٩٤ ، وشرح المفصل لابن يعيش ٢ / ٥ ، والمغنى لابن هشام ١١٨ ، ٥٧١ ، ٨٦٥ ، والتصريح ١ / ٣٧٥ ، ٢ / ١٢٠ ، والأشمونى ٢ / ١٧٤

(٣) انظر : إملاء ما من به الرحمن ٢ / ٣٢٤

(٤) انظر : السابق ، وحاشية الجمل ١ / ٤٢٦

وأرى أن الوقف هنا لازم لا جائز ، وذلك لضعف هذه الأعاريب التى وجه بها جواز الوصل وعدم الوقف :

١ ــ أما الإعراب الأول وهو أن جمله (وقال لأتخذن) صفة ثالثة لـ (شيطان) . فهذا ضعيف ، لأن الجملة المنعوت بها كجملة الخبر ، لا يجوز أن تدخل عليها الواو ، خلافاً للزمخشرى الذى أجاز ذلك(١) . وفى هـــذا يقول ابن مالك :

وَنَعَتُوا بِجُمْلَةٍ مُنَكَّرا فَأُعْطِيَتَ مَا أُعْطِيَتْهُ خَبَرا(٢)

٢ ــ وأما الإعراب الثانى فى كون جملة (وقال لأتخذن) معطوفة على جملة (لعنه الله) . فهذا أيضاً ضعيف ؛ لأن فيه عطف الخبرية على الإنشائية وهذا غير جائز عند جمهور النحاة(٣) .

٣ ــ وأما الإعراب الثالث وهو أن الجملة فى محل نصب حال على إضمار (قد) فهو غير واضح فى الآية ؛ لأن المعنى على الحال سيكون : لعنه الله حال كونه قال : كذا وكذا . والواضح أن الله لعنه منذ أن امتنع عن السجود وقبل أن يقول ما حكى عنه فى الآية .

* * *

الوقف الثامن

« يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ،

---

(١) انظر . ارتشاف الضرب ٢ / ٥٨٤ ، وشرح الألفية للمرادى ٣ / ١٤٢ ، وشرح الأشمونى ٣ / ٦٤

(٢) انظر : الخلاصة الألفية لابن مالك ص ٤٥

(٣) انظر : نتائج الفكر ص ٥٦ ، والمغنى لابن هشام ص ٦٢٧

فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد ، له مافى السموات وما فى الأرض ، وكفى بالله وكيلا) .

(سورة النساء آية ١٧١)

المفردات :

يا أهل الكتاب : المراد هنا : النصارى ، وأهل الكتاب تشمل اليهود والنصارى[١] .

لاتغلوا : الغلو : مجاوزة حد الاعتدال فى كل شيء[٢]

المعنى العام :

يأمر الله ـ سبحانه ـ أهل الكتاب ، وبخاصة النصارى ألا يجاوزوا حدّ الاعتدال ، ويغالوا كثيراً فى أنبيائهم بأن يقولوا : عيسى ابن الله ، أو هو أحد الآلهة الثلاثة ، إلى غير ذلك من تُرّهاتهم وأباطيلهم ، ثم بين لهم سبحانه أن المسيح ماهو إلا عبد لله ، خلقه الله على غير المعروف لهم ، بأن جاء من غير أب ، ولاعجب ، فأبو البشر آدم جاء من غير أب ولا أم ، إنما خلقهما الله بكن فيكون « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٣] .

فيجب عليكم أن تنتهوا عن تلك المزاعم وتعتقدوا خيراً ، فتنزهوا الله عن الشريك والولد ، لأنه سبحانه أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وهو سبحانه يملك جميع ما فى السموات وما فى الأرض ، وعيسى ـ عليه السلام ـ جزء من ذلك ، فكيف يكون شريكاً له ؟

(١) انظر : البحر المحيط ٤ / ١٤٢
(٢) انظر : مفردات الراغب ، والقاموس « غلا » .
(٣) سورة آل عمران آية ٥٩

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله : « سبحانه أن يكون له ولد » ، وذلك لأن هذه الجملة من الآية تنزه الله عن قول النصارى: « إن الله ثالث ثلاثة » أو « المسيح ابن الله» فنهاهم الله عن ذلك ، وبين لهم أن عيسى ـ عليه السلام ـ رسول الله ، خلقه الله بقدرته من غير أب ، وهنا يلزم الوقف على كلمة « ولد » ، ولا يجوز وصله بما بعده ، لأنه لو وصل لصار مابعده صفة له ، فيكون المنفى ولداً موصوفاً بأنه يملك مافى السموات والأرض ، وهذا غير مراد ، إنما المراد : نفى الولد مطلقا(١) .

وعلى هذا فـ « سبحانه » مفعول مطلق لفعل محذوف ، وهو علم على التسبيح(٢) ، وجملة « أن يكون له ولد » المكونة من « يكون» واسمها وخبرها فى موضع نصب لحذف حرف الجر ، والتقدير ، سبحانه عن أن يكون ، أو من أن يكون ، وجملة « له ما فى السموات . . . » استئنافية لتعليل التنزيه وتقريره ، بمعنى : أنه سبحانه يملك جميع مافى السموات والأرض ، ومن جملتها عيسى بن مريم فكيف يتوهم كون عيسى ولدا له(٣) ؟

* * *

(١) انظر : المكتفى للدانى ص ٣٢٢ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٣٨٩ ت د . محمد سعد ، والإتقان للسيوطى ١ / ٨٤ ، ومنار الهدى ص ١٩٣

(٢) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ١ / ١٣٣ ، والهمع ٢ / ١٩٠ ، واللسان « سبح » .

(٣) انظر : معانى القرآن للفراء ١ / ٢٩٦ ، والبيان للأنبارى ١ / ٢٨٠ ، وحاشية الجمل ١ / ٤٥٢

الوقف التاسع

«يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله ، ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ، ولا القلائد ، ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا ، وإذا حللتم فاصطادوا ، ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » .

(سورة المائدة آية ٢)

المفردات :

شعائر : جمع شعيرة أى : مايهدى إلى بيت الله ، وسميت بذلك لأنها تُشْعَر (أى : تُعَلَّم) بأن تدمى بشعيرة[١] (أى : حديدة ونحوها) ، وقيل : لا تصطادوا فى حالة الإحرام ، بأن تحلوا ماحرمه الله[٢] .

الهدى : ما أهدى إلى الحرم من النعم[٣] .

القلائد : جمع قلادة ، والمراد : الحيوانات ذات القلائد ، لأن العرب كانوا يقلدون حيواناتهم من لحاء أشجار الحرم ، ليأمنوا بذلك من الاعتداء عليهم وقيل : كانوا يقلدون أنفسهم أيضاً[٤] .

آمّين : قاصدين[٥] .

---

(١) انظر : مفردات الراغب « شعر » .

(٢) انظر : حاشية الجمل ١ / ٤٥٨

(٣) انظر : مفردات الراغب « هدى » ، وحاشية الجمل ١ /٤٥٨

(٤) انظر : لسان العرب « قلد » وحاشية الجمل ١ / ٤٥٨

(٥) انظر : لسان العرب « قصد » ، وحاشية الجمل ١ / ٤٥٨

شنآن : يقال : شنئته شنآناً بمعنى : أبغضته بغضاً ، فهو مصدر على « فعلان » كغلى (غليانا) ، ونزا (نزوانا)(١) .

المعنى العـــام :

ينادى الله عباده المؤمنين ثم ينهاهم عن التعدى على حرمات الله التى حددها وذلك بألا يعتدوا على ما أهدى لبيت الله الحرام من الهدى المقلد بلحاء أشجار الحرم للأمان . وألا يعتدوا على أحد ما فى الشهر الحرام ، ولا على من قصد بيت الله الحرام لأداء عمرة أو حج ، ولو كان ذلك كافرا ، فلا يحملكم بغضكم إياهم على ارتكاب القتال ، أو القتل فى الشهر الحرام أو البيت الحرام ، بل يجب عليكم التريث وعدم الاندفاع ، فإذا تحللتم من الإحرام ، فاصطادوا مايحل لكم ، ويجب عليكم أن تتعاونوا على فعل الخيرات وعمل الصالحات ، فهى التى تدخلكم الجنات ، وترفع لكم الدرجات ، واتقوا الله وخافوه فى كل أعمالكم ، لأنه سبحانه شديد العقاب لمن تعدى على حرمات الله .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله : « أن تعتدوا » لأن معنى هذه : أن الله سبحانه ينهى المؤمنين عن الاعتداء على حرمات الله مهما كانت درجة البغض لهؤلاء المعتدى عليهم من الكفار .

وهنا يلزم الوقف ، لأنه سبحانه بعد ذلك يأمركم بالتعاون على البر والتقوى وفعل الخيرات فى قوله « وتعاونوا » ، وهنا يجب الابتداء ، لأنه

---

(١) انظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٢ / ١٤٣ ، ومفردات الراغب « شنأ » .

غير معطوف على ماقبله لأنه أمر وما قبله نهى(١).

وعلى هذا فـ « لا يجر منكم » بمعنى : لا يحملنكم ، فيتعدى إلى مفعول واحد ، وهو ضمير « كم » و « شنآن » مصدر مضاف إلى مفعوله ، وهو الظاهر ، ويحتمل أن يكون مضافاً إلى فاعله ، والتقدير : بغض قوم إياكم ، و « أن صدوكم » فى محل نصب مفعول له ، و « أن تعتدوا » فى محل نصب على نزع الخافض ، وهو « على » ، والأصل : على أن تعتدوا .

وقيل : « لا يجر منكم » بمعنى « لا يكسبنكم » ، فيتعدى إلى مفعولين ، أولها : ضمير المخاطبين « كم » ، والثانى : « أن تعتدوا » ، أى : ولا يكسبنكم بغضكم لقوم الاعتداء عليهم ، وجملة : « وتعاونوا » ابتدائية لا محل لها من الإعراب(٢).

* * *

(١) انظر : إيضاح الوقف والإبتداء لابن الأنبارى ص ١ / ٦ والمكتفى لأبى عمرو الدانى ص ٢٣٤ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٣٩٤ ت د . محمد سعد ، ومنار الهدى ص ١١٥

(٢) انظر : معانى القرآن وإعرابه للزجاج ٢ / ١٤٣ ، وأمالى ابن الحاجب ١ / ٢٣٣ ت د . فخر صالح ، والبيان للأنبارى ١ / ٢٨٣ ، وإملاء ما من به الرحمن ٢ / ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، والبحر المحيط ٤ / ١٦٨ ، ١٦٩ ، وحاشية الجمل ١ / ٤٥٩ ، وألفاظ من القرآن الكريم ا . د محمود أبو الروس ص ١٠٧ - ١١٢

الوقف العاشر

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

(سورة المائدة آية ٥١)

المعنى العام :

ينادى الله عباده المؤمنين حتى يستمعوا إلى مايلقى عليهم من أوامر ونواه فنهاهم ـ سبحانه ـ عن موالاة أحدٍ ما من اليهود والنصارى ومناصرتهم لأنهم أعداء الإسلام ، يضمرون له الحقد والحسد ، ويريدون للمسلمين الشر والهلاك ، ولا عجب فالكفر كله ملة واحدة ، يجتمعون على محاربة المسلمين ومعاداتهم مع شدة مابينهم من تنافر واختلاف ، ثم حذر سبحانه قائلا : إن من يوادهم ويناصرهم يكون بذلك قد عصى الله سبحانه ، وارتكب مانهى عنه ؛ ولذا فحكمه حكم من والاهم من اليهود والنصارى .

موضع الوقف وسره :

موضعه قوله : « أولياء » ، وسر ذلك أنه سبحانه ينهى المؤمنين نهياً مطلقاً عن اتخاذ أولياء من اليهود والنصارى ، لبغضهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وهنا يلزم الوقف على « أولياء » لأنه لو وصل لصارت جملة « بعضهم أولياء بعض » صفة لـ « أولياء » فيكون الظاهر النهى عن اتخاذ أولياء صفتهم أن بعضهم أولياء بعض ، فإن انقضى وزال عنهم هذا

جاز اتخاذهم أولياء، وهذا غير مراد، بل محال، فلزم الوقف[1].

وعليه فـ « لا » ناهية ، و « تتخذوا » مجزوم بـ « لا » ، وعلامة جزمه، حذف النون، وهو من الأفعال التى تنصب مفعولين ، أولهما : اليهود ، والثانى : أولياء ، وجملة « بعضهم أولياء بعض » مبتدأ وخبر لا محل لها من الإعراب استئنافية[2].

* * *

وللبحث بقية

---

(١) انظر : إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنبارى ص ٦٢٢ ، والمكتفى للدانى ص ٢٤٢ ، والاقتداء لابن النكزاوى ١ / ٤١٠ ت د. محمد سعد ، ومنار الهدى ص ١٢١

(٢) انظر : معانى القرآن للأخفش ٢ / ٤٧١ ، والبحر المحيط ٤ / ٢٩١ ، وحاشية الجمل ٢ / ٤٣٢

الأسماء الستة فى ميزان اللغة
واختلاف العلماء فيها

«مع دراسة تطبيقية لما ورد منها فى القرآن الكريم»

إعداد الدكتور
مهران عبد الله عبد العال
مدرس النحو والصرف والعروض
بكلية التربية بالسويس
جامعة قناة السويس

محتويات البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى جعل الحمد مفتاحا لذكره وسببا للمزيد من فضله ونعمته. والصلاة والسلام على أفصح وأبلغ مَنْ أرسل إلى الناس كافة .

أما بعد :

فإنّ ذلك البحث قد جعلته مكونا من خمسة مباحث يبدأ بمقدمة وينتهى بخاتمة وذكر المراجع التى يرتكز عليها البحث وسرت فيه على النحو الآتى :

أولا : تناولت المبحث الأول وهو : اختلاف العلماء فى عدد الأسماء المعربة بالحروف . فتبينت أنّ تلك الأسماء من القضايا النحوية التى شغلت بال كثير من النحويين فقد تناولوها من زوايا مختلفة أظهرت أسرارها بين المسائل النحوية الجمّة فبعضهم يرى أنها ستة أسماء وهى الأب والأخ والحم وذو ـ بمعنى صاحب ـ والفم ـ بدون الميم ـ والهن . وبعضهم عدها خمسة بإسقاط (الهن) وبالبحث والاستقصاء ألفينا أنّ بعض النحاة قد أضاف إلى الأسماء المعربة بالحروف اسما آخر وهو (مَن) الاستفهامية فى الحكاية وبذلك يمكن لنا أنْ نعتبر أنّ تلك الأسماء سبعة .

ثانيا : تناولت المبحث الثانى وهو : شروط إعراب هذه الأسماء بالحروف

فذكرت أنه ينبغي أنْ تكون مفردة مكبرة مضافة لغير ياء المتكلم وألاّ تكون منسوبة فلو اختل شرط امتنع إعرابها بتلك الحروف .

ثالثا : تناولت المبحث الثالث وهو : اللغات الواردة فى الأسماء المعربة بالحروف . وأوضحت أنّ الأب فيه ست لغات : الإتمام والقصر والنقص والتثنية مع النقص والتشديد وجمعه جمع مذكر سالما ، أما الأخ ففيه سبع لغات : الإتمام والقصر والنقص والتثنية مع النقص ورد لامه وإعرابه (كدَلْو) ورد اللام مع تشديدها وجمعه جمع مذكر سالما كما ذكرت بأنّ الحم فيه سبع لغات أيضا : الإتمام والقصر والنقص ورد اللام وإعرابها (كقَرْو) وزيادة الهمزة فى آخره مع نقصه وفتح الحاء والميم معاً (كخَطأ) وزيادة الهمزة فى آخره مع نقصه وفتح الحاء وإسكان الميم (كقَرْء) وجمعه جمع مذكر سالما كما بينت أنّ الفم إذا خلا من الميم ففيه لغة واحدة وهى الإتمام والإعراب بالحروف وإذا اتصلت به الميم ففيه عشر لغات : النقص والقصر وتضعيف الميم مع فتح الفاء أو ضمها أو كسرها فى تلك الحالات الثلاث وبذلك تكون الحالات تسع ثم إتباع فائه لميمه (وأفصحها الفتح) ثم تناولت (الهن) وذكرت أنّ فيه ثلاث لغات : الإتمام والنقص وجمعه جمع مؤنث سالما كما تناولت (ذو) التى بمعنى صاحب ووضحت أنّ فيها لغة واحدة وهى الإتمام .

رابعا : تناولت المبحث الرابع وهو وزن هذه الأسماء وأصل اللام فيها . وبينت ذلك جيداً ووضحته بالأمثلة .

خامسا : تناولت المبحث الخامس وهو : إعراب هذه الأسماء . فبينت

اختلاف العلماء فى هذه الأسماء وذكرت أنّ أرجح الآراء إعرابها بالواو رفعا وبالألف نصبا وبالياء جرا وبذلك أكون قد أنهيت بحثى راجياً أنْ أكون قد وفقت فى الإضافات الزائدة سواء أكان ذلك من ناحية العدد أم الشروط أم اللغات التى سكت عنها كثير من النحاة أم الإعراب .

والله ولىّ التوفيق ؟

د . مهران عبد الله عبد العالى .

المبحث الأول

(اختلاف النحاة فى عدد الأسماء المعربة بالحروف)

قد درج النحويون على تسمية الأسماء التى ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء بالأسماء الستة وهى « الأب والأخ والحم والفم ـ بدون الميم ـ وذو ـ بمعنى صاحب ـ والهن[1] » فالرفع نحو : هذا أبوك وأخوك وحموك وفوك وذو مال وهنوك . والنصب نحو شاهدت أباك وأخاك وحماك وفاك وذا مال وهنـــاك والجر نحو : نظرت إلى أبيك وأخيك وحميك وفيك وذى مال وهنيك .

وقد أنكر[2] الفراء والزجاج[3] لفظ (الهن) وأسقطاه من جملة الأسماء وذكرا بأنها[4] خمسة ، لكن من يمعن النظر فى تلك الأسماء يرى أنها سبعة بزيادة كلمة (مَن) الاستفهامية فى الحكاية و (مَنْ) هذه يحكى بها إعراب المسئول عنه وقفا لا وصلا بشرط أنْ يكون مفرداً مذكراً عاقلا مذكوراً

---

(١) انظر شرح المفصل لابن يعيش ١ / ٥١ والمقتضب للمبرد ١ / ٣٦٤ ، ٣٧٥

(٢) الفراء هو يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور أبو زكرياء إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب توفى سنة ٢٠٧ هـ .

انظر مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زادة ١ / ١٤٤

(٣) الزجاج هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق عالم بالنحو واللغة توفى سنة ٣١١ هـ انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٦ / ٨٩ وآداب اللغة العربية لمحمد دياب ٢ / ١٨١

(٤) انظر شرح المكودى على الألفية ١١

نكرة ، فتشبع الحركة التى على النون فيتولد عنها حرف مجانس لها فهذا الحرف علامة للإعراب عند[1] الجوهرى - صاحب كتاب الصحاح - وهذا مما انفرد به وذلك كأن يقول لك قائل : جاءنى رجل فتقول : مَنُو وإذا قال : رأيت رجلا فتقول : منا وإذا قال جلست مع رجل أمس زمنا طويلا قلت مِنِى[2] ، وقد حكى بمعنى المحدثين[3] بمَن المفرد العلم المسئول عنه أيضاً كما إذا قال قائل جاء زيد فتقول منو وإذا قال لك رأيت زيداً تقول : منا وإذا قال مررت بزيد تقول : منى .

فلفظ (مَنُو) مرفوع بالواو نيابة عن الضمة و (مَنَا) منصوب بالألف نيابة عن الفتحة و (مَنِى) مجرور بالياء نيابة عن الكسرة وهذا فى مذهب الجوهرى

وردّ ذلك الرأى ابن هشام[4] بحجة أنه لا يثبت فى الوصل ولأنّ (مَنْ) وضعها وضع الحرف فلا تستحق إعراباً[5] .

---

(١) الجوهرى هو هو إسماعيل بن حماد أبو نصر أول من حاول الطيران ومات فى سبيله وهو من أئمة اللغة وأشهر كتبه الصحاح توفى سنة ٣٩٣ هـ انظر لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ١ / ٤٠٠

(٢) انظر شرح المرادى ٤ / ٣٤٣

(٣) انظر حاشية أوضح المسالك لمحيي الدين ٤ / ٢٨١

(٤) ابن هشام هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله أبو محمد جمال الدين من أئمة العربية قال عنه ابن خلدون : مازلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه له مصنفات منها مغنى اللبيب عن عن كتب الأعاريب مولده ووفاته بمصر وكانت وفاته سنة ٧٦١ هـ انظر الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى ٢ / ٣٠٨

(٥) انظر الهمع للسيوطى ١ / ٣٩

وهذه الأسماء تارة تعرب بالحروف وتارة تعرب بالحركات ما عدا لفظى (ذو) و (مَن) المحكى بها فإنهما لا يعربان إلا بالحروف وإعراب هذه الأسماء بالحروف إنما كان بالنيابة فالواو تنوب عن الضمة فى حالة الرفع والألف تنوب عن الفتحة فى حالة النصب والياء تنوب عن الكسرة فى حالة الجر وعلة إعرابها بتلك الحروف إنما كان توطئة لإعراب المثنى والمجموع على حده بها وذلك أنهم أرادوا أنْ يعربوا المثنى والمجموع بالأحرف للفرق بينهما وبين المفرد فأعربوا بعض المفردات بها ليأنس بها الطبع فإذا انتقل الإعراب إلى المثنى والمجموع لم ينفر منه لسابق الألفة[1].

وكذلك لأنها أسماء حذفت لاماتها فى حال إفرادها وتضمنت معنى الإضافة فجعل إعرابها كالعوض من حذف لاماتها.

المبحث الثانى

(شروط الأسماء المعربة بالحروف)

الأسماء السبعة لها حالتان :

الحالة الأولى تنتظم (مَن) التى يحكى بها إعراب المسئول عنه (مَمَنْ) هذه ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء بشرط أنْ يكون المسئول عنه مفرداً نكرة لمذكر عاقل مذكور وأن يكون ذلك فى حالة الوقف كما سبق.

وفى تصورى أن إدراج (من) التى يحكى بها إعراب المسئول عنه المفرد سواء أكان نكرة أم علما مع الأسماء التى ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء لا غبار حيث إن ذلك يخدم اللغة ويجعلها خاضعة للتطور والتجدد وذلك يؤدى إلى إثراء اللغة وازدهارها.

(١) انظر شرح الأشمونى على الألفية ١ / ٧٤

فلو كان المسئول عنه مثنى فإنّ (مَن) التي يحكى بها تعرب إعراب المثنى فترفع بالألف وتنصب وتجر بالياء كأن تقول لمن قال لك نجح الجدان : مَنَانْ ولمن قال شاهدت الجدين : مَنَيْن ولمن قال نظرت إلى الجدين: مَنَيْن - بإسكان النون - وكذلك لو كان المسئول عنه جمع مذكر سالما فمن المحكى بها تعرب إعراب جمع المذكر السالم فترفع بالواو وتنصب وتجر بالياء كما إذا قال قائل لك فاز الطلاب قلت ، مَنُونْ وإذا قال لك شاهدت الطلاب قلت : مَنِينْ وإذا قال لك أيضا نظرت إلى الطلاب قلت : منينْ - بإسكان النون -[1] .

الحالة الثانية :

تشمل الأسماء الستة الباقية ويشترط فيها شروط عامة وشروط خاصة .
فالشروط العامة خمسة وهى :

الشرط الأول : أنْ تكون مفردة نحو جاء أبوك وأخوك وحموك ذو مال وهذا فوك وهنوك[2] ورأيت أباك وأخاك وحماك وذا مال وهناك ونظرت إلى أبيك وأخيك وحميك وذى مال وفيك وهنيك ومنه قوله تعالى : « قال[3] أبوهم إنى لأجدُ ريح يوسفَ » ، وقوله : « وكان[4] أبوهما

(١) انظر شرح ابن عقيل ٤ / ٧٨ ، ٨٨

(٢) (هن) بمعنى شيء يقال هذا هنك أى شيئك وقيل يكنى به عما يستقبح التصريح بذكره وقيل عن الفرج خاصة . انظر القاموس المحيط ٤ / ٢٨٠

(٣) سورة يوسف من الآية ٩٤ . فقوله (أبوهم) فاعل مرفوع بالواو نيابة عن الضمة و (هم) مضاف إليه مبنى على السكون فى محل جر

(٤) سورة الكهف من الآية ٨٢ . فقوله (أبوهما) اسم كان مرفوع بالواو نيابة عن الضمة و (هما) مضاف إليه مبنى على السكون فى محل جر .

صالحا » وقوله : « قالوا[1] سنراودُ عنه أباه » وقوله : « ما كان[2] محمدٌ أبا أحدٍ من رجالكم » وقوله : « مِلَّةَ[3] أبيكُمْ إبراهيمَ » .

فلو كانت هذه الأسماء مثناة أعربت إعراب المثنى بالألف رفعا وبالياء نصبا وجراً نحو جاءني أبوان كريمان ورأيت أبوين كريمين ونظرت إلى أبوين كريمين ومنه قوله تعالى : «فإن لمْ يكُن له ولدٌ وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأمهِ الثلثُ »[4] وقوله : « وأما الغُلَامُ فكانَ أبَوَاهُ مُؤْمِنَيْن »[5] ، وقوله : « آوى إليْهِ أبَوَيْهِ[6] » ، وقوله : « وَرَفعَ أبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ[7] » ، وقوله : ولِأَبَوَيْهِ لِكلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا السُّدسُ[8] » ، وقوله : « كَمَا أتمَّهَا عَلَى

(١) سورة يوسف من الاية ٦١ فقوله (أباه) منصوب بالالف نيابة عن الفتحة لأنه مفعول به لقوله (سنراود) والهاء مضاف إليه .

(٢) سورة الأحزاب من الآية ٤٠ فقوله (أبا) منصوب بالالف نيابة عن الفتحه لأنه اسم كان و (أبا) مضاف و (أحد) مضاف إليه :

(٣) سورة الحج من الآية ٧٨ فقوله (أبيكم) مجرور بالياء نيابة عن الكرة و (أبي) مضاف و (كم) مضاف إليه .

(٤) سورة النساء من الآية ١١ فقوله (أبواه) مرفوع بالالف نيابة عن الضمة لأنه فاعل والهاء مضاف إليه .

(٥) سورة الكهف من الآية ٨٠ فقوله (أبواه) مرفوع بالالف لانه اسم كان والهاء مضاف إليه .

(٦) سورة يوسف من الآية ٩٩ فقوله (أبويه) منصوب بالياء نيابة عن الفتحة لأنه مفعول به لآوى والهاء مضاف إليه

(٧) سورة يوسف من الآية ١٠٠ فقوله (أبويه) منصوب بالياء لأنه مفعول به (لرفع) والهاء مضاف إليه .

(٨) سورة النساء من الآية ١١ فقوله (لأبويه) مجرور بالياء نيابة عن الكسرة والهاء مضاف إليه .

أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ »[1] .

وكذلك لو كانت تلك الأسماء جمع تكسير أعربت بالحركات الظاهرة نحو هؤلاء آباء كرام ورأيت آباء كراماً ونظرت إلى آباء كرام وكذا الباقى ومنه قوله تعالى : « لاَ تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ »[2] ، وقوله : « قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا »[3] ، وقوله : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ[4] » أما لو جمعت جمع مذكر سالما فإنها تعرب بالحروف بالواو رفعاً وبالياء نصباً وجراً نحو جاء أبون ورأيت أبين ونظرت إلى أبين وكذا[5] الأخ والحم خاصة وقيل يجمع مع الجميع والثانى أنْ تكون مكبرة فلو صغرت لأعربت بالحركات الظاهرة نحو حضر أبيُّك ورأيتُ أبيَّك ونظرت إلى أبيِّك وكذا الباقى .

والثالث : أنْ تكون مضافة سواء أكانت الإضافة لفظية نحو جاء أبوك وأخوك وحموك وذو مال وهذا فوك أم كانت الإضافة معنوية وهذا قليل ومنه قول الشاعر[6] :

---

(١) سورة يوسف من الآية ٦ فقوله (أبويك) مجرور بالياء والكاف مضاف إليه .

(٢) سورة التوبة من الآية ٢٣ فقوله (ءاباءكم) منصوب بالفتحة الظاهرة لأنه مفعول به أول لتتخذوا و (كم) مضاف إليه .

(٣) سورة المائدة من الآية ١٠٤ فقوله (ءاباءنا) منصوب بالفتحة الظاهرة لأنه مفعول به لوجدنا .

(٤) سورة التوبة من الآية ٢٤ فقوله (آباؤكم) مرفوع بالضمة الظاهرة لأنه اسم كان و (كم) مضاف إليه .

(٥) انظر شرح الأشمونى ١ / ٧٣ وحاشية أبى النجا على شرح الشيخ خالد على الآجرومية ٢٧

(٦) البيت من مشطور الرجز وقد نسبه النحويون إلى العجاج ولكنه غير موجود فى ديوانه وبعده :

* صهباء خرطوماً عقاراً قرقفا *

* خَالَطَ مِنْ سَلْمَى خَيَاشِيمَ وَفَا *

فأصل قوله : « خياشيم وفا » خياشيمها وفاها فحذف المضاف إليه ونوى ثبوته أما لو كانت غير مضافة البتة فإنها تعرب بالحركات الظاهرة نحو هذا أبٌ ورأيت أباً ونظرت إلى أبٍ وكذا الباقي ما عدا (ذو) لأنها لا تستعمل إلا مضافة ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ لَهُ أَبًا[1] » ، وقوله : « وله أَخٌ[2] » ، وقوله : « وَبَنَاتُ الْأَخِ[3] » ، وقوله : « قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ[4] » ، وقوله : « قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ[5] » .

= اللغة : الخياشيم : جمع خيشوم والمراد منه الأنف . انظر القاموس المحيط ٤ / ١٠٧ والصهباء : الخمر . انظر المصدر السابق ٩٧/١ ،والخرطوم : الخمر أول عمرها .

انظر المصدر السابق ٤ / ١٠٦ والعقار : الخمر لمعاقرتها أى ملازمتها الدن أو لعقرها شاربها عن المشى . انظر المصدر السابق ٩٧/٢ والقرقف : الخمر التى يرتعد منها صاحبها . انظر المصدر السابق ٣ / ١٩٠ ، ١٥١ والمراد من هذه الالفاظ ما تحمله من الاوصاف ولم يرد بها مجرد التسمية .

والشاهد فيه قوله (فا) أصله فاها فحذف الضمير مع نية ثبوته فالإضافة هنا معنوية والبيت فى أوضح المسالك لابن هشام ٤٠/١ والكامل لأحمد زكى ٢٠/١

(١) سورة يوسف من الآية ٧٨ فقوله (أباً) منصوب بالفتحة الظاهرة لأنه اسم إن .

(٢) سورة النساء من الآية ١٢ فقوله (أخ) مرفوع بالضمة لأنه مبتدأ مؤخر .

(٣) سورة النساء من الآية ٢٣ فقوله (الأخ) مجرور بالكسرة الظاهرة .

(٤) سورة يوسف من الآية ٥٩ فقوله (بأخ) مجرور بالكسرة الظاهرة .

(٥) سورة يوسف من الآية ٧٧ فقوله (أخ) مرفوع بالضمة الظاهرة لأنه فاعل لسرق

والرابع : أنْ تكون الإضافة لغير ياء المتكلم وإلاّ أعربت بحركات مقدرة على ما قبل آخره نحو جاء أبي ورأيت أبي ونظرت إلى أبي ومن ذلك قوله تعالى : « فَلَنْ أبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يأْذَنَ لِي أبِي[1] » ، وقوله : « واغفر لأَبِي[2] » ، وقوله : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ولأخي[3] » ، وقوله : « وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً[4] » وكذا الباقي ما خلا (ذو) لأنّها لا تضاف إلا إلى اسم جنس من نحو مال وعقل وفضل وأدب تقول جاءني ذو مال وعقل وفضل وأدب ورأيت ذا مال وعقل وفضل وأدب ومررت بذي مال وعقل وفضل وأدب وهكذا .

ومنه قوله تعالى : « إنَّ اللهَ لذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاس وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ[5] » ، وقوله : « إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ[6] » ، وقوله : « وربُّكَ الغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ[7] » ، وقوله : « ويبقى وجهُ ربِّكَ ذُو الجَلاَل

(١) سورة يوسف من الآية ٨٠ فقوله (أبي) مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها التعذر لأنه فاعل ليأذن .

(٢) سورة الشعراء من الآية ٨٦ فقوله (لأبي) مجرور بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم .

(٣) سورة الأعراف من الآية ١٥١ فقوله (لأخي) مجرور بكسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم .

(٤) سورة القصص من الآية ٣٤ فقوله (أخي) مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم . لأنه مبتدأ وقوله (هرون) بدل من أخي أو عطف بيان .

(٥) سورة يونس من الآية ٦٠ وسورة غافر من الآية ٦١ فقوله (ذو) مرفوع بالواو نيابة عن الضمة لأنه خبر (إن) .

(٦) سورة إبراهيم من الآية ٤٧ فقوله (ذو) إعرابه مثل سابقه .

(٧) سورة الكهف من الآية ٥٨ فقوله (ذو) مرفوع بالواو لأنه خبر ثان لربك .

والإكرام[1] »، وقوله : « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى[2] »
وقوله : « إنَّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القُربى[3] ».
ولا يجوز أن يضاف لفظ (ذو) إلى صفة ولا مضمر ولا علم ولا جملة فلا يقال
جاءني ذو صالح أو ذوه أو ذوك أو ذو زيد أو ذو عمرو قام أو ذو حضر عمرو فإن
جاء شيء من ذلك فهو شاذ وذلك نحو قول الشاعر[4] :

إنما يعرفُ ذو الفضـــلِ من النَّاسِ ذَوُوه

وقول من يقول : اللهم صلى على محمد وذويه لأنَّ مضمره لا يعود إلى
اسم جنس والذى حسنه قليلا أنه ليس بصفة موجودة للموصوف فجرى مجرى
ما ليس بصفة . أما قوله تعالى فى قراءة ابن مسعود[5] (رضى الله عنه) « وَفَوْقَ
كلِّ ذِي عالمٍ عَليم[6] » فالأشبه بالقياس أنْ يكون العالم هنا مصدر

(١) سورة الرحمن الآية ٢٧ فقوله (ذو) مرفوع بالواو لأنه صفة لوجه .
(٢) سورة الأنعام من الآية ١٥٢ فقوله (ذا) منصوب بالألف لأنه خبر كان .
(٣) سورة النحل من الآية ٩٠ فقوله (ذى) مجرور بالياء لأنه مضاف إليه.
(٤) البيت من مجزوء الرمل وهو من الشواهد المجهولة انظر معجم شواهد العربية لهارون ١ / ٤٩٧ والشاهد فيه قوله (ذووه) حيث أضيف إلى الضمير بعد جمعها وهذا شاذ والقياس ألا تضاف إلا إلى اسم جنس. والبيت فى شرح المفصل لابن يعيش ٥٣/١ ، ٣٨/٣ والهمع للسيوطى ٢ / ٥٠ والدرر اللوامع للشنقيطى ٢ / ٦١ ولسان العرب لابن منظور (ذو ٣٤٦) وحاشية أوضح المسالك لمحيي الدين عبد الحميد ١ / ٤٢ .
(٥) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب أبو عبد الرحمن صحابي جليل كان فاضلا عالما عاقلا مقربا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن السابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة ، نظر إليه عمر بن الخطاب يوما وقال وعاء ملىء علما توفى سنة ٣٢هـ انظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ٤٩٥٥
(٦) سورة يوسف من الآية ٧٦

كالقالح والباطل فكأنه قال : « وفوق كل ذى علم عليم » فالقراءتان فى المعنى سواء ويجوز أن يكون هذا على مذهب من يرى زيادة (ذى) فيكون حاصله وفوق كل عالم عليم ويجوز أن يكون ذلك من إضافة المسمى إلى الاسم أى وفوق كل شخص يسمى عالما أو يقال له عالم عليم[1] على حد قول الشاعر[2] :

إليكم ذَوِى آلِ النبىِّ تطلعت   نوازعُ مِنْ قلبِى ظماء وألبُبُ

ومن ذلك إضافتها إلى الجملة نحو قولهم « اذهب بذى تسلم » وإضافتها إلى العلم كما جاء فى الأثر « أنا اللهُ ذُو بكّة »[3] .

والخامس : أنْ تكون تلك الأسماء غير منسوبة وإلاّ أعربت بالحركات الظاهرة نحو هـذا أبَوِيُّك ورأيت أبَوِيَّكَ ونظرت إلى أبَوِيِّكَ وكذا الباقى[4] .

---

(١) انظر البحر المحيط لأبى حيان ٣٣٣/٥ وشرح المفصل لابن يعيش ٥٣/١

(٢) البيت من الطويل وينسب إلى الكميت بن زيد .

اللغة : الألبب جمع لب وهو العقل انظر القاموس المحيط ١٣١/١

والشاهد فيه قوله (ذوى) حيث إنه أضيف إلى غير اسم جنس ولذا فإنه يؤول على أنه من إضافة المسمى إلى الاسم والتقدير : إلى كل شخص يسمى من آل النبى أو يقال له من آل النبى .

والبيت فى ديوانه ١٠٢/١ والخصائص لابن جنى ٢٧/٣ والمحتسب لابن جنى ٣٤٧/١ وشرح المفصل لابن يعيش ٥٤/١ ، ١٢/٣ ، ١٥٥ والخزانة للبغدادى ٢٠٥/٢ ولسان العرب (لبب ٢٢٥) .

(٣) حاشية الصبان ٧٣/١ وحاشية محيى الدين عبد الحميد على أوضح المسالك ٤٢/١ .

(٤) انظر حاشية أبى النجا على شرح الشيخ خالد ٢٧

أما الشروط الخاصة فإنها تتناول كلمتى (ذو) و (فم) فلفظ (ذو) ينبغى أنْ يكون بمعنى صاحب وأنْ يضاف إلى اسم جنس غير صفة وألاّ يكون موصولا وألاّ يستعمل مفرداً بأى حال من الأحوال[١] كما وضح سابقا فلو كانت كلمة (ذو) موصولة - أى بمعنى الذى أو التى - وتسمى ذو الطائية فإنها تبنى وتلزمها الواو رفعاً ونصباً وجراً نحو جاءنى ذو قام ورأيت ذو قام ونظرت إلى ذو قام ومنه قول الشاعر[٢] :

فإنَّ الماءَ ماء أبِى وجَدِّى ... وبِئْرِى ذُو حفرتُ وذو طوَيْتُ

(فذو) هنا اسم موصول بمعنى التى والتقدير وبئرى التى حفرتها والتى طويتها وكان الموصول بمعنى (التى) لأنَّ البئر مؤنثة .

وقد تعرب بالحروف الثلاثة[٣] نحو قول الشاعر[٤] :

---

(١) انظر ملحمة الإعراب للحريرى ٦٤

(٢) البيت من الوافر وهو لسنان بن الفحل .

والشاهد فيه قوله (ذو حفرت) وقوله (ذو طويت) حيث استعملت كلة (ذو) فيهما اسما موصولا بمعنى التى لأنها خبر عن البئرة وهى مؤنثة والبيت فى أمالى بن الشجرى ٣٥٦/٢ والإنصاف لابن الانبارى ٣٨٤/١ ، وشرح المفصل لابن يعيش ١٤٧/٣ ، ٤٥/٨ والخزانة للبغدادى ٥١١/٢ ، والتصريح للشيخ خالد ١٣٧/١ والهمع للسيوطى ٨٤/١ والدرر اللوامع للشنقيطى ٥٩/١ وشرح الأشمونى ١٥٨/١ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ٥٩١ واللسان (ذا ٣٤٨) وأوضح المسالك لابن هشام ١٥٤/١

(٣) انظر أوضح المسالك لابن هشام ٤٢/١

(٤) البيت من الطويل وينسب لمنظور بن سحيم .

والشاهد فيه قوله (من ذى عندهم) حيث إن (ذى) موصولة وأعربت بالحروف وهذا شاذ .

فإما كرامٌ موسِرونَ لقيتَهمْ
فحسْبِي مِنْ ذِى عِندهُمْ ما كفانيا

أى فحسبى من الذى عندهم ـ فذى هنا مجرورة بالياء نيابة عن الكسرة[1]

والشرط الخاص بكلمة (فم) هو زوال الميم من آخرها نحو لا ُفض فوك وشاهدت فاك ونظرت إلى فيك فإن اتصلت بها الميم أعربت بالحركات نحو هذا فمُك طاهر وإن فمَك طاهر والكلمة الحلوة تخرج دائما من فمِك .

المبحث الثالث

(اللغات الواردة فى الأسماء المعربة بالحروف)

أولا : اللغات الواردة فى لفظ (أب) وتشمل ست لغات وهى :

الأولى : الإتمام : وهو أن يكون بالواو رفعا وبالألف نصبا وبالياء جراً وذلك يتحقق عندما تردّ اللام إليه وذلك نحو حضر أبوك ورأيت أباك ونظرت إلى أبيك ومنه قول الشاعر[2] :

= والبيت فى شرح المفصل لابن يعيش ١٣٨/٣ والمقرب لابن عصفور ٧ والمغنى لابن هشام ٤١٠ وشواهد المغنى للسيوطى ٢٨١ والشواهد للعينى ١٢٧/١ ، ٤٣٦ والتصريح للشيخ خالد ١٣٧/١ والهمع للسيوطى ٨٤/١ والدرر اللوامع للشنقيطى ٥٩/١ وشرح الأشمونى ١٥٧/١ ، ١٥٨ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١١٥٨ وأوضح المسالك لابن هشام ٤٢/١ ، ١٥٣

(١) وفى تصورى أن (ذو) ينبغى إعرابها بالحروف وذلك حتى تخرج من طور الجمود الذى يلازمها لأن ذلك يؤدى إلى نمو اللغة وتطورها .

(٢) البيت من الطويل ولم أعثر له على قائل .

والشاهد فيه قوله (أبوك) حيث جاء تاما وأعرب بالواو نيابة عن الضمة وهناك شاهد آخر وهو قوله (أب) حيث جاء منقوصا فأعرب بحركات ظاهرة =

أبوكَ أبٌ لو كان للنَّاسِ كلِّهِمِ أباً واحداً أغناهُمُ بالمناقب

والثانية : القصر : وهو إلزامه الألف فى جميع الحالات نحو جاء أباك ورأيت أباك ونظرت إلى أباك وتعرب بحركات مقدرة على الألف رفعا ونصبا وجراً وقد حكى عن بعض العرب قولهم : هـذا أباك ورأيت أباكَ ومررت بأباكَ بالألف فى حالة الرفع والنصب والجر ـ فيجعلونه اسما مقصوراً[1] .

ومن ذلك قول الشاعر[2] :

إنَّ أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجدِ غايتاها

وقول أبى حنيفة[3] ـ رضى الله عنه ـ « لا ولو رماه بأبا قُبَيْس »[4] .

ـــوهو هنــا مرفوع بالضمة الظاهرة والبيت فى النحو الوافى لعباس حسن ١٠٩/١

(١) انظر الإنصاف لابن الأنبارى ١٨/١

(٢) البيتان من الرجز المشطور وهما لأبى النجم والشاهد فيهما قوله (أبا أباها) حيث إن (أباها) جاء مجرورا ومع ذلك قد لزمته الألف وهذه لغة من لغات العرب . والبيتان فى الإنصاف لابن الانبارى ١٨/١ والمقرب لابن عصفور ٨١ ، وشذور الذهب لابن هشام ٤٨ والخزانة للبغدادى ٣٣٧/٣ وشرح المفصل لابن يعيش ٥١/١ ، ١٢٩/٣ والهمع للسيوطى ٣٩/١ والشواهد للعينى ١٣٣/١ والتصريح للشيخ خالد ٦٥/١ والدرر اللوامع للشنقيطى ١٢/١ وشرح الأشمونى ٧٠/١ وأوضح المسالك لابن هشام ٤٦/١ وشواهد المغنى للسيوطى ٤٧ ، ١٩٩ والمغنى لابن هشام ٣٨/١ ، ١٢٢ ، ٢١٦

(٣) هو النعمان بن ثابت التيمى بالولاء الكوفى أبو حنيفة إمام الحنفية الفقيه أحد الائمة الأربعة عند أهل السنة توفى سنة ١٥٠ هـ انظر النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ١٢/٢

(٤) يحكى عن أبى حنيفة أنه سئل عن إنسان رمى إنسانا فقتله هل يجب عليه القود ؟ فقال : « لا ولو رماه بأبا قبيس » وهو جبل بمكة.

انظر الإنصاف لابن الأنبارى ١٨/١ والقاموس المحيط ٢٤٧/٢

ومن الأساليب العربية الفصيحة قولهم : لا أبا له ولا أبا لك ولا أبا لفلان وفى إعراب ذلك ثلاثة آراء الأول (لا) نافية للجنس و (أبا) اسمها منصوب بالألف نيابة عن الفتحة لأنه مضاف إلى ما بعده ـ وهو الضمير أو الاسم الظاهر ـ واللام زائدة وهى التى جرت الضمير أو الاسم الظاهر وذلك لأن المضاف هنا لا يعمل فى المضـاف إليه والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا) .

والثانى : أن (أبا) اسم (لا) النافية للجنس وقد جاء على لغة من يلزم الأسماء الستة الألف وهو مبنى على الألف .

والثالث[1] : أن (أبا) اسم (لا) النافية للجنس وجاء أيضاً على لغة من يلزم الأسماء الستة الألف وهو مبنى على فتح مقدر على آخره منع من ظهورها التعذر[2] .

واللغة الثالثة : النقص : وهو حذف الحرف الأخير ـ لام الـكلمة ـ

---

(١) والأرجح كما يبدو لى الرأى الأخير وذلك لأن الرأى الاول ضعيف لعدم عمل المضاف فى المضاف إليه ولمجىء اسم (لا) النافية للجنس معرفة ـ وقد أجاز ذلك بعض العلماء ـ ولـكون الحرف الزائد له متعلق والقياس لا متعلق له ولأن الإضافة لا تصلح فى جميع الحالات كما فى قولهم (لا أبالى) لأن الأسماء الستة إذا أضيف واحد منها إلى ياء المتـكلم فإنه لا يعرب بالحروف بل بالحركات المقدرة على ماقبل الياء . أما الرأى الثانى ففيه تـكلف كما أن البناء على الألف يستلزم ذلك أن يكون نيابة عن الفتحة ونيابة الألف عن الفتحة يستلزم أن تـكون هذه الأسماء مضافة فإذا كان الأمر كذلك فـكيف يجمع بين البناء والإعراب فى وقت واحد ؟

(٢) انظر النحو الوافى لعباس حسن ١/١١٥ ، ١١٦

وهذه لغة نادرة والإعراب فيها إنما يكون بحركات ظاهرة على الباء نحو هذا أبَهُ ورأيتُ أبَهَ ونظرت إلى أبَهِ ومن ذلك قول الشاعر[1] :

بأبِهِ اقتدى عديٌّ فى الكرمْ وَمَنْ يشابِهْ أبَهُ فما ظَلَمْ

وقول الآخر :[2]

سِوَى أبِكَ الأدنى وأنّ محمداً علا كلَّ عالٍ يابن عمِّ محمدِ

والرابعة : التثنية مع النقص نحو هذان أبانِ ورأيت أبَـيْنِ ونظرت إلى أبَـيْنِ ويعرب بالألف رفعا بالياء نصبا وجرا[3] .

والخامسة : التشديد : نحو هذا أبٌّ كريمٌ ورأيت أبًّا كريمًا ونظرت إلى أبٍّ كريمٍ .

والسادسة : جمعه جمع مذكر سالما نحو هؤلاء أبُونَ ورأيتُ أبِينَ ونظرت إلى أبِينَ[4] ومنه قول الشاعر[5] :

---

(١) البيتان من الرجز المشطور وقائلهما رؤبة بن العجاج والشاهد فيهما قوله (أبه) حيث جاء منقوصا فأعرب بحركات ظاهرة ومن ثم فهو منصوب بالفتحة الظاهرة فى اللفظ الثانى ومجرور بالكسرة الظاهرة فى اللفظ الأول والبيتان فى الشواهد للعينى ١٢٩/١ والهمع للسيوطى ٣٩/١ والتصريح للشيخ خالد ٦٤/١ والدرر اللوامع للشنقيطى ١٢/١ وشرح الأشمونى ١/ ٧ وملحقات ديوانه ، ١٨٢

(٢) البيت من الطويل ولم أعثر له على قائل . والشاهد فيه قوله (أبك) وهو كسابقه . والبيت فى مجالس ثعلب ٤٦٨ والخصائص لابن جنى ٣٣٩/١ ولسان العرب (أبى ٧) .

(٣) انظر أوضح المسالك لابن هشام ٤٦/١ وحاشية الصبان على الأشمونى ٧٠/١ .

(٤) انظر شرح الأشمونى ٧١/١ وحاشية الصبان ٧٠/١

(٥) البيت من المتقارب وقائله زياد بن واصل السلمى .

وَلَمَّا تَبَيَّنَّ أَصْوَاتَنَا بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَنَا بِالْأَبِينَا

ثانيا : اللغات الواردة فى لفظ (أخ) :

لفظ (أخ) قد ورد فيه سبع لغات وهى :

الأولى : الإتمام وإعرابه بالحروف : بالواو رفعا وبالألف نصبا وبالياء جرا نحو جاء أخوك ورأيت أخاك ونظرت إلى أخيك ومنه قول الشاعر[1] :

أخوك الذى إنْ تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ
يُجِبْكَ وإنْ تغضبْ إلى السيفِ يغضب

والثانية : القصر : وهو إلزامه الألف فى جميع الحالات :
ـ رفعا ونصبا وجرا ـ نحو جاء أخاك ورأيت أخاك ونظرت إلى أخاك .

= والشاهد فيه قوله (بالأبينا) حيث إن لفظ (الأب) جمع جمع مذكر سالما وهذا جائز لدى بعض العرب .

والبيت فى الكتاب ١٠١/٢ والمقتضب للمبرد ١٧٤/٢ والخصائص لابن جنى ٣٤/١ والمحتسب لابن جنى ١١٢/١ وأمالي ابن الشجرى ٣٧/٢ وشرح المفصل لابن يعيش ٣٧/٣ والخزانة للبغدادى ٢٧٥/٢ واللسان (أبى ٦) وحاشية أوضح المسالك لمحيي الدين ٤٩/١

(١) البيت من الطويل وقائله حجية بن المضرب .

والشاهد فيه قوله (أخوك) حيث جاء مرفوع بالواو نيابة عن الضمة لأنه مبتدأ وقد استوفى شروط الإعراب بالحروف .

والبيت فى دلائل الإعجاز للجرجانى ١٢٣ والنحو الوافى لعباس حسن ١٠٨/١

ومنه قول بعضهم[1] : مُكْرَهٌ أخاكَ لا بَطَلٌ[2] .

وقول الشاعر :[3]

أخاكَ أخاكَ إنَّ من لا أخا لَهُ   كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاحِ

---

(١) قائله أبو حنش وأصله أن رجلا يدعى بيهسا أخبر أن آناسا من أشجع في غار يشربون فيه وكانوا قد قتلوا أخوته فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ؟ ويروى هل لك في غنيمة باردة ؟ وانطلق به حتى أقامه على فم الغار ثم دفعه فيه وقال . « ضرباً أبا حنش » فقال بعضهم إن أبا حنش لبطل فقال أبو حنش « مكره أخاك لا بطل » فصار مثلا يضرب لمن يحمل على ماليس من شأنه . انظر الأمثال للميداني ١٥٢/١ ، ٣١٨/٢

ويروى أن معاوية بن أبى سفيان قد أقسم على عمرو بن العاص يوما بأن يخرج لقتال على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين فلما التقيا قال عمرو : مكره أخاك لا بطل فأعرض عنه على ولم يحاربه . ومما ينبغى الإشارة إليه أن عمراً رضى الله عنه تمثل بهذا المثل ولم يكن من بنات أفكاره . انظر حاشية محيى الدين على أوضح المسالك ٤٩/١

(٢) إعرابه : (مكره) خبر مقدم و (أخاك) مبتدأ مرفوع بضمة مقدرة على الألف منع من ظهورها التعذر و (بطل) معطوف على مكره ولا يجوز أن يكون (مكره) مبتدأ و (أخاك) نائب فاعل سد مسد الخبر لعدم اعتماده على نفى أو استفهام عند البصريين وأجاز ذلك الكوفيون لأنهم لايشترطون شيئا . انظر أوضح المسالك ١٨٨/١ - ١٩١

(٣) البيت من الطويل وينسب إلى إبراهيم بن هرمة وقيل قائله مسكين الدرامى والشاهد فيه قوله (لا أخا له) حيث جاء لفظ (أخا) والألف ملازمة له فهو مبنى على فتح مقــدر على آخره منع من ظهوره التعذر لأنه اسم (لا) النافية للجنس وقيل مبنى على الألف وقيل منصوب بالألف نيابة عن الفتحة لأنه مضاف إلى الضمير بعده واللام زائدة والبيت فى الكتاب ١٢٩/١ والخصائص لابن جنى ٤٨٠/٢ والخزانة للبغدادى ٤٦٥/١ و شرح شذور الذهب لابن هشام ص٢٢٢=

فقوله (لا أخا له) لفظ (أخا) مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره التعذر[1].

والثالثة - النقص: ويعرب بحركات ظاهرة على آخره نحو جاء أخٌ كريمٌ ورأيت أخاً كريماً ومررت بأخٍ كريمٍ ومنه قوله تعالى: «وله أخٌ أو أختٌ»[2] وقوله: «وبناتُ الأخِ وبناتُ الأختِ»[3]، وقوله تعالى: «قال ائتوني بأخٍ لكم مِنْ أبيكم»[4]، وقوله «قالوا إنْ يسرقْ فقد سَرَق أخٌ له مِنْ قبلُ»[5].

والرابعة: ردّ لامه وإعرابه بالحركاتِ الظاهرة مع إسكانِ العين (كَدَلْو) نحو هذا أخْوٌ كريمٌ ورأيت أخْواً كريماً ونظرت إلى أخْوٍ كريمٍ ومنه قول الشاعر[6]:

ما المرء أخْوكَ إنْ تُلفِهِ وزراً عند الكريهةِ معواناً على النُّوب

والخامسة: ردُّ لامه مع تشديدها وإعرابه بالحركات الظاهرة نحو هذا أخُوٌّ كريمٌ ورأيت أخوًّا كريماً ونظرت إلى أخوٍّ كريمٍ.

= والشواهد للعيني ٤/٣٠٥ والتصريح للشيخ خالد ٢/١٩٥ والهمع للسيوطي ١/١٧٠، ٢/١٢٥ والدرر اللوامع للشنقيطي ١/١٤٦، ٢/١٥٨ وشرح الأشموني ٣/١٩٢ وملحقات ديوان إبراهيم بن هرمة ٢٦٣ وديوان مسكين الدارمي ص ٢٩

(١) انظر حاشية محيي الدين على أوضح المسالك ٤/٧٩، ٨٠

(٢) سورة النساء من الآية ١٢ (٣) سورة النساء من الآية ٢٣

(٤) سورة يوسف من الآية ٥٩ (٥) سورة يوسف من الآية ٧٧

(٦) البيت من البسيط وبحثت عنه فلم أهتد إلى قائله.
والشاهد فيه قوله (أخوك) حيث جاء برد اللام وأعرب بالحركات كدلو
والبيت في الهمع للسيوطي ١/٣٩ والدرر اللوامع للشنقيطي ١/١٢

والسادسة : تثنيته مع نقصه : وإعرابه بالألف رفعاً وبالياء نصباً وجراً نحو هذان أخانِ ورأيت أخَـيْنِ ونظرت إلى أخَيْنِ .

والسابعة : جمعه جمع مذكر سالماً فيعرب بالواو والنون رفعاً وبالياء والنون نصباً وجراً نحو هؤلاء أخُونَ ورأيت أخِينَ ونظرت إلى أخِينَ[1] ومنه قول الشاعر[2] :

وكان لنا فزارةُ عمٌّ سوء وكنت له كَشَرِّ بني الأخينا

ثالثاً : اللغات الواردة في لفظ (حم) .

لفظ (حم) قد وردت فيه سبع لغات .

الأولى : الإتمام : والإعراب بالحروف ـ بالواو رفعاً وبالألف نصباً وبالياء جراً ـ نحو جاءني حموك ورأيت حماك ونظرت إلى حميك[3] .

والثانية : القصر وهو أن تلازمه الألف رفعاً ونصباً وجراً نحو جاءني حماك ورأيت حماك ونظرت إلى حماك .

---

(١) انظر القاموس المحيط ٤/٢٩٩ ، ٣٠٠ وحاشية أبو النجا على شرح الآجرومية للشيخ خالد ٢٧ ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي ص ٨

(٢) البيت من الوافر وهو لعقيل بن علفة .

والشاهد فيه قوله (الأخينا) حيث جمع الأخ جمع مذكر سالما وهذا جائز لدى بعض العرب .

والبيت في نوادر أبي زيد الأنصاري ص ١١١، ١٩١ والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٨٦ والمقتضب للمبرد ٢/١٧٤ والخزانة للبغـــدادي ٢/٢٧٦ واللسان (أخا ص ٢١) .

(٣) حمو المرأة أبو زوجها ومن كان من قبله وحمو الرجل أبو امرأته أو أخوها أو عمها انظر القاموس المحيط ٤/٣٢١

والثالثة : النقص : وهو عدم ردّ اللام إليه والإعراب يكون بحركات ظاهرة على الميم ـ عين الكلمة ـ نحو هذا حمٌ ورأيت حماً ونظر إلى حمٍ .

والرابعة : رَدّ اللام ـ مع فتح الحاء وإسكان الميم كَقَرْو[1] ـ والإعراب بحركات ظاهرة نحو هـذا حَمْوٌ كريمٌ ورأيت حَمْواً كريماً ونظرت إلى حَمْوٍ كريمٍ .

والخامسة : زيادة الهمزة فى آخره مع نقصه وتفتح الحاء والميم معاً (كَخَطَأ) والإعراب بحركات ظاهرة على الهمزه نحو هذا حَمأٌ كريمٌ ورأيت حَمأً كريماً ونظرت إلى حمأٍ كريمٍ .

والسادسة : زيادة الهمزة فى آخره مع نقصه وتفتح الحاء وتسكن الميم (كَقَرْء)[2] والإعراب بحركات ظاهرة على الهمزة نحو هذا حَمْءٌ ورأيت حَمْئاً ونظرت إلى حَمْءٍ .

والسابعة : جمعه جمع مذكر سالما عند بعض العرب نحو جاء حَمُونَ ورأيت حَمِينَ ونظرت إلى حَمِين[3] .

رابعا : اللغات الواردة فى (فم) .

لفظ (فم) إذا خلا من الميم ففيه لغة واحدة وهى الإتمام وإعرابه بالواو رفعا وبالألف نصباً وبالياء جراً نحو هذا فوك ورأيت فاك ونظرت إلى فيك

---

(١) القرو : يطلق على القصد والتتبع وقدح من خشب . القاموس المحيط ٤/ ٣٨٠

(٢) القرء : يطلق على الطهر والحيض ضد وقد تضم قافه ويطلق أيضا على الوقت والقافية وجمعه أقراء وقروء وأقرء وجمع الطهر قروء وجمع الحيض أقراء ـ انظر القاموس المحيط ١/ ٢٥

(٣) انظر حاشية أبو النجا ص ٢٧

ومنه قوله تعالى : « كَبَاسِطِ كَفَّيه إلى المَاء ليبلغَ فاه وما هُوَ بِبَالغِه »[1]
ومنه قول الشاعر[2] :

وابأبى أنتِ وفوكِ الأشنبُ   كأنَّما ذُرَّ عليه الزَّرنبُ

أما إذا كان ذلك اللفظ مصاحبا للميم فإنه يعرب بالحركات وقد تثبت الميم عند الإضافة كما جاء فى الحديث الشريف « لخلوق فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[3] ، ومنه قول الشاعر[4] :

كالحوتِ لا يَكْفِيهِ شيءٌ يَلْهَمُهْ   يصبحُ ظمآنَ وفى البحرِ فَمُهْ

---

(١) سورة الرعد من الآية ١٤

(٢) البيتان من الرجز المشطور ولم يعرف قائلهما والشاهد فيهما قوله (فوك) حيث جاء مرفوعا بالواو نيابة عن الضمة لأنه اجتمعت فيه شروط الإعراب بالحروف . والبيتان فى المغنى لابن هشام ص ٣٦٩ وشواهد المغنى للسيوطى ص ٢٦٦ والشواهد للعينى ٤/٣١٠ والتصريح للشيخ خالد ٢/١٩٧ والهمع للسيوطى ٢/١٠٦ والدرر اللوامـــع للشنقيطى ٢/١٣٩ وشرح الأشمونى ٣/١٩٨ ولسان العرب لابن منظور (زرنب ص ٤٣٢) .

(٣) انظر الموطأ للإمام مالك بن أنس ١/٢٠٥ ، ٢٠٦ ط القاهرة سنة ١٤٠٨هـ.

(٤) البيتان من الرجز المشطور وقائلهما رؤبة بن العجاج .

والشاهد فيهما قوله (فمه) حيث بقيت الميم مع الإضافة وهذا جائز سواء أكان ذلك فى النثر أم فى الشعر خلافاً لأبى على الفارسى الذى أجازه للضرورة ليس غير

والبيتان فى الحيوان للجاحظ ٣/٢٦٥ والمخصص لابن سيدة ١/١٣٦ ، وشرح المرادى ١/٨٠ والمقرب لابن عصفور ٤٦ والخزانة للبغدادى ٢/٢٦٦ والشواهد للعينى ١/١٣٩ والتصريح للشيخ خالد ١/٦٤ ، والهمع للسيوطى ١/٤٠ والدرر اللوامع للشنقيطى ١/١٤ وشرح الأشمونى ١/٧٣ والكامل لأحمد زكى ١/٢١ وحاشية محيى الدين على أوضح المسالك ١/٤٤ وديوانه ص ١٥٩

ولا يختص ذلك بالضرورة خلافاً لأبي علي الفارسي بدليل مجيء ذلك في النثر والشعر .

وفيه عشر لغات وهي كالآتي :

الأولى : النقص مع فتح الفاء نحو هـذا فَمُهُ ورأيت فَمَهُ ونظرت إلى فَمِهِ .

والثانية : النقص مع ضم الفاء نحو هـذا فُمُهُ ورأيت فُمَهُ ونظرت إلى فُمِهِ .

والثالثة : النقص مع كسر الفاء نحو هذا فِمُهُ ورأيت فِمَهُ ونظرت إلى فِمِهِ .

والرابعة : القصر مع فتح الفاء نحو هذا فَمَا زيد وشاهدت فَمَا زيد ونظرت إلى فَمَا زيدٍ ومنه قول الشاعر :

يا حبّـــذا عُيْنَا سُلَيْمَى والفَمَا . والجيدُ والنحرُ وثديٌ قد نَمَا

والخامسة : القصر مع ضم الفاء نحو هذا فُمَا زيد وشاهدت فُمَا زيد ونظرت إلى فُمَا زيدٍ .

والسادسة : القصر مع كسر الفاء نحو هذا فِمَا زيدٍ وشاهدت فِمَا زيدٍ ونظرت إلى فِمَا زيدٍ .

---

(١) البيتان من الرجز المشطور ولم يعرف قائلهما .

والشاهد فيهما قوله (والفما) حيث جاء لفظ (الفم) مقصورا فهو على ذلك معرب بحركة مقدرة على الألف منـــع من ظهورها التعذر وتلك الحركة إنما هي الضمة لأن (الفم) معطوف على المخصوص بالمدح وهو (وجه سليمى) .

والبيتان في جمهرة اللغة لابن دريد ٣/٣٨٤ والخصائص لابن جني ١/١٧٠ والهمع للسيوطي ١/٣٩ والدرر اللوامع للشنقيطي ١/١٣ واللسان (فوه ص ٤٢٤)

والسابعة : تضعيف الميم مع فتح الفاء نحو هذا فَمٌّ زيدٍ وشاهدت فَمَّ زيدٍ ونظرت إلى فَمِّ زيدٍ .

والثامنة : تضعيف الميم مع ضم الفاء نحو هذا فُمُّ زيدٍ وشاهدت فُمَّ زيدٍ ونظرت إلى فُمِّ زيدٍ .

والتاسعة : تضعيف الميم مع كسر الفاء نحو هذا فِمُّ زيدٍ وشاهدت فِمَّ زيد ونظرت إلى فِمِّ زيدٍ .

والعاشرة : إتباع فائه لميمه فى المنقوص سواء أكان مضعفاً أم لا نحو هذا فُمُهُ أو فُمُّهُ ورأيت فَمَهُ أو فَمَّهُ ونظرت إلى فِمِهِ أو فِمِّهِ وأفصحها الفتح(١) .

خامسا : اللغات الواردة فى لفظ (هن) :

لفظ (هن) قد ورد فيه ثلاث لغات وهى :

الأولى : الإتمام : وهى أنْ تكون بالواو رفعاً وبالألف نصباً وبالياء جراً نحو هذا هنوه ورأيت هناه ونظرت إلى هنيه ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « مَنْ تعزَّ بعزاء الجاهليةِ فأعضوهُ بهنِ أبيهِ ولا تكْنُوا »(٢) وهذه لغة ضعيفة .

والثانية : النقص : ـ أى بحذف لامها ـ وهى أفصح من الإتمام وتعرب بحركات ظاهرة على النون نحو هذا هَنُ زيدٍ ورأيت هَنَهُ ونظرت إلى هَنِهِ .

(١) انظر شرح المرادى ١/٧١ والهمع للسيوطى ١/٣٩

(٢) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٥/١٢٦

ومعنى الحديث : أى من انتمى وانتسب إلى الجاهلية بدعوته الناس ليقاتلوا معه فى الباطل ينبغى أن يقال له اعضض على هن أبيك ـ أى ذكره ـ وذلك استهزاء به ولا تجاب دعوته .

والثالثة : جمعه جمع مؤنث سالما ، وإعرابه بالحركات نحو تلك هَنَاتٌ كثيرة ، ورأيت هَنَاتٍ ونظرت إلى هَنَاتٍ[1] .

سادساً : (ذو) - التي بمعنى صاحب - ليس فيها إلا لغة واحدة وهي الإتمام وتعرب بالواو رفعا وبالألف نصبا وبالياء جرا نحو جاءني ذو فضلٍ ورأيت ذا فضل ونظرت إلى ذي فضلٍ .

المبحث الرابع

(وزن الأسماء الستة وأصل اللام فيها)

ذهب البصريون إلى أنّ وزن هذه الأسماء فَعَل - بفتح الفاء والعين - بدليل جمعها على أفعال إلا فوك فوزنه فَعْل - بفتح الفاء وسكون العين - وذهب الفراء إلى أنّ وزنها فَعْل - بالفتح والإسكان[2] - إلا فوك فإنّ وزنه فُعْل - بالضم والإسكان - ولامات هذه الأسماء واو بدليل تثنيتها بالواو ما عدا فوك فإنّ لامه هاء والأصل فوه حذفت اللام اعتباطا لشبهها بحرف العلة في الخفاء .

---

(١) انظر المصباح المنير للفيومي ص ٦٤١

(٢) الأرجح كما يبدو لي رأي البصريين وذلك لأنها لو كانت على وزن فعل لجمعت على افعل نحو : فلس وأفلس وكلب وأكلب وظبي وأظب وأصله أظبي قبلت الضمة كسرة لتصح الياء فصار أظبي فحذفت الياء تخفيفا - وجمعت هذا الجمع لأنها ثلاثية صحيحة العين - أو جمعت على فعول نحو كعب وكعوب وفاس وفلوس - لأنها مفتوحة الفاء - وحيث إنها لم تجمع على هذين الوزنين فإنه يتعين أنها على وزن فعل وجمعها على أفعال قياسيا . انظر شرح ابن عقيل ١١٦/٤ ، ١١٧ ، ١٢٨ والهمع للسيوطي ١٧٤/٢

وذهب بعض النحويين إلى أنّ لام (حم) ياء لأنّه من الحماية وهو مردود بقولهم فى التثنية : حموان[1] وفى إحدى لغاته (حَمْوٌ) وذهب بعضهم إلى أنّ لام (ذو) ياء والأصل (ذوى) فعلى ذلك يكون المحذوف منها لامها وهذا رأى أهل الأندلس وقيل المحذوف عينها وهـذا رأى أهل قرطبة[2] وذلك يدل على أنّ لامها واو[3] .

وذهب الفيومى صاحب[4] كتاب المصباح المنير ـ إلى أنّ لام (هن) هاء فى لغة ولذلك يصغر ذلك اللفظ على هُنَيْهَة أما من جعل اللام واوا فصغره على هُنَيَّة والأصل هنَيْوَة اجتمعت الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياء وأدغمت الياء فى الياء[5] .

---

(١) أرجح أن تكون لام (حم) واوا لأن تثنيته حموان وجمعه مؤنثا سالما حموات وقد ندر فيهما حميان وحميات أما جمعه جمع مذكر سكسيرا فأحماء والاصل أحماو تطرفت الواو بعد ألف زائدة فقلب همزة وهكذا فى كل اسم تطرفت فيه الواو بعد ألف زائدة . انظر شرح المفصل لابن يعيش ٩/١٠

(٢) انظر الهمع للسيوطى ١/٤٠

(٣) وفى تصورى أن لام (ذو) واوا محذوفة وذلك لأنهم يقولون فى النسب ذووى فلما ردت فى النسب وكانت واو تبين من ذلك أن لامها واو محذوفة .

(٤) الفيومى هو أحمد بن محمد بن على المقرى لغوى اشتهر بكتابه المصباح المنير ولد ونشأ بالفيوم بمصر وتوفى سنة ٧٧٠هـ . انظر الأعلام للزركلى ٢٢٤/١

(٥) أرجح أن تكون لام (هن) واو وذلك لأن جمعها عند الجمهور هنوات ولم يسمع هنهات وإن كان سمع هناك ـ بالنقص ـ انظر المصباح المنير للفيومى ص ٦٤١

المبحث الخامس

إعرابها واختلاف العلماء فيها

اختلفت المذاهب في إعراب هذه الأسماء اختلافا بينا قد أعطى انطباعات واسعة حول ماهية كل منها وهذه المذاهب تشمل ما يلي :

الأول : يرى أصحاب هذا المذهب أنّ هذه الأسماء ترفع بالواو نيابة عن الضمة نحو هذا أبوك وأخوك وحموك وفوك وذو مال وهنوك وتنصب بالألف نيابة عن الفتحة نحو رأيت أباك وأخاك وحماك وفاك وذا مال وهناك وتجر بالياء نيابة عن الكسرة نحو نظرت إلى أبيك وأخيك وحميك وفيك وهنيك[1] وذى مال . ويقال في (مَن) التي يحكى بها إعراب النكرة : في حالة الرفع (منُو) لمن قال جاءني رجلٌ وفي حالة النصب : (مَنَا) لمن قال رأيت رجلاً وفي حالة الجر : (مَنِي) لمن قال نظرت إلى رجل[2] .

وهـذا مذهب قطرب[3] والزيادى[4] والزجاجى[5] من البصريين

---

(١) انظر الهمع للسيوطى ١/٣٨ والجامع الصغير في النحو لابن هشام ص ١١

(٢) انظر شرح المكودى على الألفية ص ١١ وشرح ابن عقيل ٤/٨٧

(٣) هو محمد بن المستنير بن أحمد أبو على الشهير بقطرب نحوى عالم بالأدب واللغة توفى سنة ٢٠٦هـ انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٩٤ وبغية الوعاة للسيوطى ١/١٠٤

(٤) الزيادى هو : إبراهيم بن سفيان أبو إسحاق الزيادى له عدة مؤلفات منها النقط والشكل توفى سنة ٢٤٩هـ - ٨٦٣ م . انظر إنباه الرواة للقفطى ١/١٦٦ ومعجم الأدباء لياقوت الحموى ١/١٥٨ والأعلام للزركلى ص ٤٠١

(٥) هو عبد الرحمن بن إسحاق النهاوندى الزجاجى أبو القاسم شيخ العربية في عصره له عدة مؤلفات منها الجمـل الكبرى توفى سنة ٣٣٧هـ انظر الأعلام للزركلى ٣/٢٩٩

وهشام[1] من الكوفيين وهذا المذهب هو الأرجح لدى جمهور النحاة .

والثانى : أنها معربة بحركات مقدرة فى الحروف وأنها اتبع فيها ما قبل الآخر للآخر فإذا قلت قام أبُوكَ فأصله أبُوُكَ قد أتبعت حركة الباء لحركة الواو ثُمَّ استثقلت الضمة على الواو فحذفت ، وإذا قلت رأيت أباك فأصله أبَوَكَ تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، وإذا قلت مررت بأبيك فأصله بأَبَوِكَ ثم أتبعت حركة الباء لحركة الواو فصار بأبِوِكَ فاستثقلت الكسرة على الواو فحذفت فسكنت وقبلها كسرة فانقلبت ياء وهذا مذهب سيبويه[2] والفارسى[3] وجمهور البصريين . وصححه ابن مالك وأبو حيان وابن هشام .

والثالث : أنها معربة بالحركات التى قبل الحروف والحروف إشباع[4] .

---

(١) هو أبو عبد الله هشام بن معاوية نحوى ضرير من أهل الكوفة من كتبه الحدود والقياس والمختصر كلها فى النحو توفى سنة ٢٠٩هـ انظر إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب لياقوت الحموى ٢٥٤/٧

(٢) هو عمرو بن عثمان بن قنبر أبو بشر الملقب بسيبويه إمام النحاة وأول من بسط علم النحو وصنف كتابه المسمى (كتاب سيبويه) توفى سنة ١٨٠هـ انظر البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ١٧٦/١٠

(٣) هو أبو على الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسى الاصل أحد الأئمة فى علم العربية توفى سنة ٣٧٧هـ انظر الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ١٣١/١

(٤) يبدو لنا جليا ضعف هذا الرأى وذلك لأن الإشباع إنما بابه الشعر ليس غير . انظر رصف المبانى للمالقى ١٠٧

ـ وعليه المازنى[1] والزجاج ـ كقول الشاعر[2] :

وَأَنَّنِي حَيْثُمَا يَثْنِي الْهَوَى بَصَرِي
وحيثُ ما سَلَكُوا أَدْنُو فَأَنْظُورُ

وقول الآخر[3] :

يَنْبَاعُ مِنْ ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ
زَيَّافَةٍ مِثْلِ الفَنِيقِ المُقْرَمِ

والرابع ، أنها معربة بالحركات التى قبل حروف العلة وهى منقولة عن هذه

---

(١) هو بكر بن محمد بن حبيب بن بقية أبو عثمان المازنى أحد الأئمة فى النحو له مؤلفات كثيرة منها التصريف توفى سنة ٢٤٩هـ انظر أخبار النحويين البصريين لأبى سعيد السيرافى ص ٧٤

(٢) البيت من البسيط وقائله ابن هرمه . والشاهد فيه قوله (فأنظور) حيث أشبعت حركة الضمة فنشأ عنها حرف الواو وهذا خاص بالشعر . والبيت فى المحتسب لابن جنى ٢٥٩/١ وشرح المعلقات للزونى ص ٢٨٦ وشروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى ص ٧٤٥ تحقيق لجنة إحياء التراث وأمالى ابن الشجرى ١٥٨/٢ والإنصاف لابن الأنبارى ص ٢٤ وشرح المفصل لابن يعيش ١٠٦/١٠ والخزانة للبغدادى ٥٨/١ ، ٤٧٧/٣ ، ٥٤٠ المغنى لابن هشام ص ٣٦٨ وشواهد المغنى للسيوطى ص ٢٦٦ والهمع للسيوطى ١٥٦/٢ والدرر اللوامع للشنقيطى ١٠٧/٢ وديوانه ص ١١٨ وشرح الكافية للرضى ٢٧/١

(٣) البيت لعنترة وهو من بحر الكامل وهو من معلقته المشهورة وعلى ذلك يكون دخله الإضمار وهو تسكين الثانى المتحرك والشاهد فيه قوله (ينباع) حيث أشبعت حركة الفتحة التى على الباء فنشأ عنها حرف الألف وهذا خاص بالشعر ـ والبيت فى شرح الكافية للرضى ٢٧/١ ورصف المبانى للمالقى ص ١٠٦

الحروف وهذا مذهب الربعى[1] . ولكن ذلك الرأى رُدّ لأنّ شرط النقل الوقف وصحة المنقول إليه وسكونه وصحة المنقول منه ولأنه يلزم جعل حرف الإعراب غير آخر مع بقاء[2] الآخر .

والخامس : أنها معربة بالحركات التى قبل الحروف وليست منقولة بل هى الحركات التى كانت فيها قبل أنْ تضاف فثبتت الواو فى الرفع لأجل الضمة وانقلبت ياء لأجل الكسرة وألفا لأجل الفتحة[3] وهذا مذهب الأعلم[4] .

والسادس : أنها معربة من مكانين بالحروف وبالحركات[5] مَعًا وهذا مذهب الكسائى والفراء .

والسابع : أنها معربة بالتغير والانقلاب حالة النصب والجر وبعدم ذلك حالة الرفع[6] وهذا مذهب الجرمى .

---

(١) هو على عيسى بن الفرج بن صالح أبو الحسن الربعى عالم بالعربية له مصنفات منها كتاب البديع توفى سنة ٤٢٠هـ انظر إنباه الرواه على أنباه النحاة للقفطى ٢٩٧/٢

(٢) انظر الهمع للسيوطى ٣٨/١

(٣) هذا الرأى يظهر فيه الضعف جليا وذلك لأن حروف العلة إن كانت زائدة فلا يصح ذلك لأن زيادة الحروف بابها الشعر وإن كانت لامات لزم جعل الإعراب فى العين والإعراب كما هو معلوم أن محله آخر الكلمة .

(٤) هو يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمرى المعروف بالأعلم عالم بالأدب واللغة توفى سنة ٤٧٦هـ انظر نكت الهميان فى نكت العميان ص ٣١٣

(٥) هذا الرأى يبدو عليه الضعف لأنه لا نظير له فلا يعقل أن يعرب بالحروف وبالحركات فى وقت واحد . انظر الإنصاف لابن الأنبارى ١٧/١ ، ٢٠

(٦) وهذا الرأى أيضا ضعيف وذلك لأنه لا نظير له ولأن العدم لا يكون علامة للإعراب .

والثامن : أن فاكَ وذا مال معربان بحركات مقدرة فى الحروف وأن أباك وأخاك وحماك وهناك معربة بالحروف وهذا مذهب السهيلى(١) .

والتاسع : أنّ فاك وذا مال معربان بالحروف وأن أباك وأخاك وحماك وهناك وكلّ منها معرب بحركات مقدرة فى الحروف .

والعاشر : أنها معربة بحركات مقدرة فى الحروف التى قبل حروف العلة منع من ظهورها كون حروف العلة تطلب حركات من جنسها وهذا المذهب ينسب إلى الزجاج والسيرافى(٢) .

والحادى عشر : أنها معربة بالحروف والإعراب فيها لا ظاهر ولا مقدر فالحروف بهذا التقـــدير إنما هى دلائل إعراب(٣) وينسب ذلك إلى ابن السراج(٤) .

والثانى عشر : أنها معربة فى الرفع بالنقل وفى النصب بالبدل وفى الجر بالنقل والبدل معاً فالأصل فى جاء أخُوكَ جاء أخوُكَ نقلت حركة الواو إلى

---

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعمى السهيلى حافظ عالم بالعربية والسير من كتبه نتائج الفكر والروض الآنف توفى سنة ٥٨١ هـ انظر تذكرة الحفاظ للذهبى ١٣٧/٤

(٢) السيرافى هو الحسن بن عبد الله بن المرزبان أبو سعد عالم باللغة والأدب له عدة مصنفات منها شرح كتاب سيبويه توفى سنة ٣٦٨هـ انظر الجواهر المضيئة للقرشى ١٩٦/١

(٣) هذا الرأى مردود كما يبدو لى وذلك لما فيه من تكلف واختلاط فكيف يكون الإعراب لاظاهراً ولا مقدراً ؟ هذه فلسفة لاتفيد شيئا .

(٤) هو محمد بن السرى بن سهل أبو بكر بن السراج أحد أئمة اللغة والأدب يقال مازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج توفى سنة ٣١٦هـ انظر نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٣١٣

الخاء والأصل فى رأيت أخاك رأيت أخَوَكَ فأبدلت الواو ألفاً والأصل فى مررت بأخيك مررت بأخَوِكَ نقلت حركة الواو إلى الخاء فانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها هذا المذهب حكاه ابن أبى الربيع[1] .

(١) هو محمد بن سليمان بن محمد أبو عبد الله الشاطبى يقال له ابن أبى الربيع عالم بالقراءات له مؤلفات منها اللمعة الجامعة فى تفسير القرآن الكريم توفى سنة ٦٧٢ هـ انظر نفح الطيب للمقرى ١/٣٩٤ .

الخاتمة

بعد ذلك العرض الذى تناولناه فى ذلك البحث يمكن لنا القول بأن الأسماء التى ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء إنما هى سبعة لا ستة ولا خمسة وأن هذه الأسماء لها لغات متعددة ماعدا (ذو) التى لا تستعمل إلا تامة ليس غير وماخلا (مَن) الاستفهامية فى الحكاية فليس لها إلا لغة واحدة أيضا ، أما إعراب تلك الأسماء فقد اختلف فيه العلماء اختلافا بيناً قد شابه فى كثير من الأحيان شىء من الفلسفة التى لا يخفى من تحتها طائل كما أن التكلف واضح فى بعض تلك المذاهب . وأصح هذه الآراء وأرجحها هو إعرابها بالحروف : (بالواو رفعاً نيابة عن الضمة وبالألف نصباً نيابة عن الفتحة وبالياء جراً نيابة عن الكسرة) .

بعد هذا العرض المتواضع أرجو أن أكون قد وفقت فى ذلك البحث وعلى الله قصد السبيل .

د . مهران عبد الله عبد العال

فهرس المصادر والمراجع

(١) آداب اللغة العربية لمحمد دياب ط مصر سنة ١٣١٨ هـ .

(٢) أخبار النحويين البصريين لأبي سعيد السيرافى ط الجزائر سنة ١٩٣٦ م .

(٣) إرشاد الأريب (معجم الأدباء) لياقوت الحموى ط مرجليوث بمصر سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٢٥

(٤) الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ط السعادة سنة ١٣٢٣ .

(٥) الأعلام للزركلى ط بيروت سنه ١٩٩٠ م (الطبعة التاسعة) .

(٦) الأمالى لابن الشجرى ط حيدر آباد سنة ١٢٤٩ هـ .

(٧) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ط مصر سنة ١٩٣٩ م .

(٨) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الكتب سنة ١٣٦٩ هـ .

(٩) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى تحقيق محيي الدين عبد الحميد ط السعادة سنة ١٣٨٠ هـ .

(١٠) أوضح المسالك لابن هشام تحقيق محيي الدين عبد الحميد ط دار الفكر سنة ١٣٩٤ هـ .

(١١) البحر المحيط لأبى حيان ط السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .

(١٢) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير ط السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .

(١٣) بغية الوعاة للسيوطى ط السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .

(١٤) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط لجنة التأليف سنة ١٣٨١ هـ .
(١٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ط السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .
(١٦) تذكرة الحفاظ للذهبي ط حيدر آباد سنة ١٣٣٣ هـ — ١٣٣٤ هـ .
(١٧) التصريح على التوضيح للشيخ خالد الأزهرى ط البابى الحلبى .
(١٨) الجامع الصغير فى النحو لابن هشام تحقيق د/ الهرميل ط القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .
(١٩) جمهرة اللغة لابن دريد ط حيدر آباد سنة ١٣٥١ هـ .
(٢٠) الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية لعبد القادر بن محمد القرشى ط حيدر آباد سنة ١٣٣٢ هـ .
(٢١) حاشية أبى النجا على شرح الشيخ خالد على الأجرومية .
(٢٢) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ط الحلبى سنة ١٣٥٧ هـ
(٢٣) خزانة الأدب للبغدادى ط بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .
(٢٤) الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار ط دار الكتب سنة ١٣٧٦ هـ .
(٢٥) الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى ط دار الكتب الحديثة .
(٢٦) الدرر اللوامع للشنقيطى ط الجمالية سنة ١٣٢٨ هـ .
(٢٧) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ط دار مصر سنة ١٣٥٧ هـ .
(٢٨) ديوان إبراهيم بن هرمة تحقيق محمد جابر العبيد ط الآداب بالنجف سنة ١٣٨٩ هـ .
(٢٩) ديوان رؤبة بن العجاج جمع وليم بن الورد ط ليبسك سنة ١٩٠٣ م .
(٣٠) ديوان العجاج بعناية وليم بن الورد ط ليبسك سنة ١٩٠٣م .

(٣١) ديوان الكميت بن زيد تحقيق داود سلوم ط النعمان ببغداد سنة ١٩٦٩ م ،
(٣٢) ديوان مسكين الدارمى تحقيق خليل إبراهيم العطية ط بغداد سنة ١٩٦٢ م .
(٣٣) رصف المبانى فى شروح حروف المعانى لأحمد عبد النور المالقى تحقيق أحمد محمد الخراط ط دمشق سنة ١٤٠٥ هـ .
(٣٤) شرح الأشمونى على ألفية ابن مالك ومعه حاشية الصبان ط البابى الحلبى .
(٣٥) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى تحقيق عبد السلام هارون ط لجنة التأليف سنة ١٣٢٠ هـ .
(٣٦) شروح سقط الزند لأبى العلاء المعرى تحقيق لجنة آثار أبى العلاء سنة ١٣٦٨ هـ .
(٣٧) شرح شافية ابن الحاجب للرضى ط بيروت سنة ١٣٩٥ هـ .
(٣٨) شرح شذور الذهب لابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد .
(٣٩) شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك تحقيق محي الدين عبد الحميد ط دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٤ هـ .
(٤٠) شرح الكافية للرضى ط بيروت .
(٤١) شرح المرادى على ألفية ابن مالك تحقيق د/ عبد الرحمن سليمان ط الكليات الأزهرية سنة ١٩٧٩ م .
(٤٢) شرح المعلقات للزوزنى ط السعادة سنة ١٣٤٠ هـ .
(٤٣) شرح المفصل لابن يعيش ط مكتبة المتنبى بالقاهرة .
(٤٤) شرح المكودى على ألفية ابن مالك ط البابى الحلبى سنة ١٣٧٤ هـ .
(٤٥) الشواهد العربية للعينى بهامش خزانة الأدب ط بولاق سنة ١٢٩٩هـ
(٤٦) شواهد المغنى للسيوطى ط البهية سنة ١٣٢٢ هـ وط التراث العربى .

(٤٧) القاموس المحيط للفيروز آبادى .
(٤٨) الكامل لأحمد زكى صفوت ط القاهرة سنة ١٣٨٣ هـ .
(٤٩) الكتاب تحقيق عبد السلام هارون ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ م وط بولاق سنة ١٣١٨ هـ .
(٥٠) لسان العرب لابن منظور ط بولاق سنة ١٣٠٠ هـ .
(٥١) لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ط حيدر آباد سنة ١٣٣١ هـ .
(٥٢) مجالس ثعلب تحقيق عبد السلام هارون ط دار المعارف سنة ١٣٦٩ هـ .
(٥٣) مجمع الأمثال للميدانى ط مصر سنة ١٣١٠ هـ .
(٥٤) المحتسب لابن جنى تحقيق على النجدى والدكتور عبد الفتاح إسماعيل.
(٥٥) مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر الرازى عنى بترتيبه السيد محمود خاطر
(٥٦) المخصص لابن سيدة تحقيق الشنقيطى وعبد الغنى محمد ط بولاق سنة ١٣١٨ هـ .
(٥٧) مرآة الجنان لليافعى ط حيدر آباد سنة ١٣٣٧ هـ ـ ١٣٣٩ هـ .
(٥٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل ط القاهرة سنة ١٣٧٢ هـ .
(٥٩) المصباح المنير للفيومى د/ عبد العظيم الشناوى ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م .
(٦٠) معجم شواهد العربية لعبد السلام هارون ط مطابع الدجوى بالقاهرة سنة ١٩٧٣ م .
(٦١) مغنى اللبيب لابن هشام تحقيق محي الدين عبد الحميد ط المدنى سنة ١٣٨٧ هـ .
(٦٢) مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ط حيدر آباد سنة ١٣٢٩ هـ .
(٦٣) المقتضب للمبرد تحقيق د/ عبد الخالق عضيمة ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٣٨٨ هـ .

(٦٤) المقرب لابن عصفور مخطوطة بدار الكتب برقم ١٩٩٠ هـ نحو
(٦٥) ملحة الإعراب للحريري تحقيق د / أحمد محمد قاسم ط القاهرة سنة ١٤٠٣ هـ
(٦٦) الموطأ للإمام مالك بن أنس ط القاهرة ١٤٠٨ هـ .
(٦٧) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ط دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٨ — ١٣٧٥ هـ .
(٦٨) النحو الوافى لعباس حسن ط دار المعارف سنة ١٩٧٨ م .
(٦٩) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى ط مصر سنة ١٣٢٩هـ
(٧٠) نفح الطيب للمقرى ط مصر سنة ١٣٠٢ هـ .
(٧١) نكت الهميان فى نكت العميان لصلاح الدين الصفدى ط مصر سنة ١٣٢٩ هـ .
(٧٢) نوادر أبي زيد الأنصارى تحقيق سعيد الخورى ط بيروت سنة ١٨٩٤ م .
(٧٣) همع الهوامع شرح جمع الجوامع فى علم العربية للسيوطى بتصحيح بدر الدين النعسانى ط السعادة سنة ١٣٢٧ هـ .
(٧٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ط الميمنية سنة ١٣١٠ هـ .

القسم السادس

قسم أصول اللغة :

علم الأداء القرآنى

« أهميته وموقعه فى ميدان الدراسة الفونولوجية »

« نظرة تطبيقية »

د / عبد المنعم عبد الله محمد

علم الأداء القرآنى

« أهميته وموقعه فى ميدان الدراسة الفونولوجية »

« نظرة تطبيقية »

بقلم الدكتور
عبد المنعم عبد الله محمد
الأستاذ المساعد بقسم أصول اللغة
كلية اللغة العربية بالقاهرة - جامعة الأزهر

توطئة :

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا »(١) ، وصلاة وسلاما على أفصح خلق الله أداء للقرآن وتدبراً لمعانيه ، وامتثالا لأوامره وتجنبا لنواهيه ، حيث التطبيق الفعلى للأمر فى قوله تعالى « ورَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً »(٢) ، والتجنب العملى للنهى فى قوله جل شأنه « لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ »(٣) محدداً بذلك ملامح الاستواء للأداء القرآنى .. وبعد

فإن عناية المسلمين بكتاب الله لم يشهد التاريخ لها مثيلا عبر القرون ، ولعل المكتبة القرآنية ناطقة بمصداقية هذه الثابتة بما حوته من فقه

(١) سورة الكهف آية ١ (العوج - بفتح العين والواو - يقال فيما يدرك بالبصر ، والعوج - بكسر العين وفتح الواو - يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة) ينظر : المفردات / الأصفهانى مادة / ع . و . ج .

(٢) سورة المزمل آية ٤ (٣) سورة القيامة آية ١٦

لأحكامه ، وتفسير لآية ، وكشف لمقاصده ، وتفصيل لجمله ، وبيان لإعجازه وتوضيح لغريبه ، وإعراب لتركيبه ، وتعليم لأدائه ، ولا غرو فى ذلك ، فقد تكفل الحق تبارك وتعالى بحفظه مؤكدا «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »(٤) .

ومن وسائل ذلك تلك الجهود المتضافرة لحفظه وصونه لفظاً ومعنى ، قراءة وأداء إذ ليس للبطلان إليه سبيل « لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ »(٥) .

ولاريب أن من أبلغ الأمارات على تقديسه وصيانته أن تكون هناك أسس لأدائه ، وأطر لقراءته متمثلة فى منظومة علم الأداء التى حوتها المكتبة الإسلامية ، وخصتها بالتلاوة القرآنية ، « ليظل النص القرآنى على الصورة التى أنزل عليها آية إعجاز،وبرهان عجز »(٦) ، وهذا ما يفسر مسلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع أصحابه قراءة وإقراء ، إذ يقول لأبى « إن الله تبارك وتعالى أمرنى أن أقرأ عليك »(٧) وفى مجلس آخر يقول لابن مسعود : « إقرأ على » فيقول له : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟! فيجيبه : نعم »(٨) إلى غير ذلك من الأمارات الدالة على أمرين : أحدهما ـ المنهج التوثيقى لملامح علم الأداء القرآنى كما طبقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، والآخر أهمية الفقه لمعايير هذا العلم والعمل على تعلمها وتعليمها ، إذ إن للتلاوة القرآنية تفرداً فى أحكامها ، وتميزاً فى خصائصها وسماتها ، ومن هنا كان من أشرف العلوم غاية ، وأجلها هدفا ، فثمرته المتوخاة تكمن فى صون اللسان

---

(٤) سورة الحجر آية ٩ (٥) سورة فصلت آية ٤٢

(٦) ملامح من تاريخ اللغة العربية ٦٦ بتصرف د / أحمد الجنابى / ١٩٨١ م دار الرشيد .

(٧) صحيح مسلم / كتاب فضائل الصحابة .

(٨) فتح البارى ٩ / ٧٧ ابن حجر ط البهية .

عن الخطأ فى قراءة آى الذكر الحكيم ، ولذا قرر العلماء أن الإلمام بأصوله وأحكامه فرض كفاية ، وتطبيق ذلك حالة المعالجة الأدائية فرض عين ، وتأكيد الأمر فى سورة المزمل ، وما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : «اقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها»[9] والإجماع المنعقد على فرضيته منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا ، وكلها دلائل قاطعة على ثبوتية هذه الفرضية التى قررها العلماء .

ومن هذا المنطلق أبى قلمى إلا أن يشارك فى هذا الميدان الرحب الشريف ملقيا الضوء على أهمية هـــذا العلم . عارضا للملامح العامة ، مبينا موقعه على خريطة الدراسة الفونولوجية فى ضوء تحليل تطبيقى لأحكام النون الساكنة ، لافتا الأنظار إلى ما ينبغى أن يحظى به من العناية والاهتمام بين قاعات الدرس فى المعاهد العلمية ، ورحاب المساجد ، على الساحتين الشعبية والرسمية ، وعلى المستويات المحلية والعربية والإسلامية ، ابتغاء لوجه الله ، وتوخيا لثمارة وجدواه .

ولست أول طارق لهذا الميدان ، فقد ولج هذه الساحة كثير من الباحثين والدارسين ــ قدامى ومحدثين ـ بيد أن لكل وجهته التى عنى بها ، فالميدان متعدد المناحى متنوع الأقطار من تأريخ لعلم القراءات ورجالاته ، أو ربط بين القراءات واللهجات ، أو بيان لأنماط القراءات وأشراطها ، أو تقعيد لأحكام الأداء وتأطير لنظيرياته . وقد دخلت من هذا الباب الأخير ، غير أنى رأيت جل مؤلفات السابقين فيه تتسم بالصبغة المعيارية التعليمية فانبثقت أهداف هذا البحث من الرغبة فى تجلية بعض الجوانب المتممة لمقاصد هذا العلم ومن أهمها :

---

(٩) ينظر : الموطأ / الإمام مالك تحقيق فؤاد عبد الباقى كتاب ١٥ حديث ١٠ القاهرة ـ دار أحياء الكتب العربية / ١٩٥١ م / الإتقان السيوطى ١ / ١ - ١٠٢ القاهرة / ١٩٣٥ م ط محمود توفيق .

١ ـ بيان أهمية المنحى التطبيقى لهذا المد المعيارى الذى اكتنزت به مؤلفات علمائنا القدامى فى هذه الدائرة .

٢ ـ أثر التطبيق العملى لأحكام الأداء فى إبراز خاصية الإعجاز الصوتى للنسق القرآنى فى ضـــوء تجنب بعض المحذورات حالة المعالجة الأدائية لنسيجه .

٣ ـ كشف اللثام عن موقعية علم الأداء فى حقل الدراسات الفونولوجية للربط بين الأصالة والمعاصرة ، مبرزاً جهود القدماء فى الابتكار والتأصيل .

٤ ـ أثر الغياب الفعلى لأحكام الأداء القرآنى فى برامج ومقررات جل المعاهد العلمية على اختلاف مستوياتها الدراسية ، واستظهار أسباب ذلك مع الإشارة إلى بعض التوصيات فى هذا الجانب .

ومن ثم قام البحث على المرتكزات الآتية :

أولا : مفهوم علم الأداء ومحاوره النظرية والتطبيقية .

ثانيا : أهميته التطبيقية من الناحيتين الدينية والقومية .

ثالثا : موقعه بين ربوع الدراسات الصوتية .

رابعا : تعقيب عن حضوره الغائب مع تسجيل لبعض التوصيات والنتائج التى تمخضت عنها تلك الدراسة .

والله من وراء القصد

د . عبد المنعم عبد الله محمد

أولا ـــ مفهوم علم الأداء القرآنى :

تدور مادة (ع . ل . م) حول إدراك الشيء ... ويطلق مصطلح (العلم) على مجموع المسائل والأصول الكلية التى تجمعها جهة واحدة(١٠) .

أما مصطلح (الأداء) فى هذا التركيب الإضافى فالمقصود به التلاوة(١١)، وعلى هـــذا فعلم الأداء القرآنى يمكن تحديد مفهومه بأنه « مجموع المسائل والأصول الكلية للتلاوة القرآنية » وقد أطلق عليه القدماء « علم التجويد » ويبدو لى أنهم أطلقوا عليه هذا المسمى توخيا لما يمكن أن يصل إليه المؤدى للنسق القرآنى من إتقان وتجويد وتحسين حالة تطبيقه للأحكام الأدائية ؟

ولعل أول من استشعر هذا المعنى ابن مسعود (رضى الله عنه) حينما استخدم هذا المصطلح (التجويد) فى معنى قريب من معناه(١٢) وهو ينصح المسلمين قائلا : « جودوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات » ويبدو أن نشأة هذا العلم كانت ثمرة لهذه النصيحة ، وإستجابة لتلك الدعوة فى محاولة لتقنين قواعد القراءة اقتداء وتأسياً بقراءة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإقرائه للصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وقد حدّ علماء الأداء القرآنى ماهية هـــذا العلم فى ضوء وظيفته بأنه « إعطاء الحروف حقها من الصفات اللازمة لها ، ومستحقها من الأحكام التى تنشأ عن تلك الصفات »(١٣) .

ولاريب أن العلاقة واضحة بين طرفى التعريف ، أى بين مصطلحى

---

(١٠) المعجم الوسيط مادة (ع ل م) .

(١١) السابق مادة (أدى) كشاف اصطلاحات الفنون / التهانوى ١ / ١٠٢ : ١٠٣

(١٢) البحث اللغوى عند العرب / د عمر ٩٣ بتصرف .

(١٣) نهاية القول المفيد / مكى ١١ مطبعة البابى الحلبى / ١٣٤٩ هـ .

الحق والمستحق، إذ ارتبط الأول بالسمات المميزة لكل صامت، والصفات الفارقه له، واتصل الثاني بدائرة الأحكام الناجمة عن هذه السمات ، فالثاني وليد الأول، والأحكام ربيبة لكيفية الأداء السوى، مما يؤكد أهمية الدقة في معالجة الصامت مخرجا وصفة ليتحقق الهدف من معطيات هذا العلم حيث انتهاء الغاية في التصحيح، وبلوغ النهاية في التحسين.

وقد نبه بعض العلماء(١٤) إلى الفرق بين المصطلحين بالمثال ، فالصفات الذاتية، كالجهر والشدة، والاستعلاء، وتلكم هي حق الحرف، لأنها لازمة لذواتها غير منفكة عنها، فإن انفكت عنها يكون ذلك لحنا(١٥) جليا في بعضها أو خفيا في بعضها الآخر حسب طبيعته(١٦).

أما ماينشأ عن تلك الصفات الذاتية اللازمة فهو مستحق الحرف، كالتفخيم الناجم عن الاستعلاء، وكالترقيق الناشىء عن الاستفال.

ومن هنا نلمح في مؤلفات الأداء القرآني كما موفورا من الفصول والأبواب التي تعالج معطيات حقوق الحروف ومستحقاتها من تفصيل لمخارج الحروف ومايلزم معرفته لذلك من الناحية الفسيولوجية ، وكذلك صفات الحروف مع التفريق بينها، وتنميطها إلى ضعيفة وقوية ، وتوزيعها على موصوفاتها(١٧)، ودراسة الحرف في ضوء ذلك دراسة تحليلية ،

---

(١٤) السابق ١١

(١٥) ينظر: الاتقان للسيوطي ١ / ١٠٠، مباحث في علوم القرآن / القطان ١٦٢ غريب للطباعة سنة ١٩٨١ م ط ٥، النشر / ابن الجزري ١ / ٢١١

(١٦) الجلي ما أخل باللفظ إخلالا يشترك في معرفته علماء القراءة وغيرهم، وأما الخفي فهو ما أخل باللفظ إخلالا يختص بمعرفته علماء القراءة وأئمة الأداء دون غيرهم كتغيير حرف بحرف في الأول وترك الغنة في الثاني.

(١٧) ينظر في ذلك: نهاية القول المفيد ٦٤ وما بعدها، النشر ١ / ٢١٤، الحروف / الرازي (ضمن ثلاثة كتب في الحروف تحقيق د/رمضان عبدالتواب

كتشريحهم للباء – مثلا – بعيدا عن السياق (حالة الإفراد) فيقررون أنها حرف شفوى من حيث المخرج، مجهور شديد مستفل منفتح ذلق مقلقل من حيث الصفات، ومن ثم فهو ضعيف، بخلاف الظاء – مثلا إذ وصفوه بالقوة، لجهره ورخاوته واستعلائه، وإطباقه وإصماته.

ومن الوضوح بمكان أن كل تلك الإشارات صوتية تمس الجانب الفوناتيكى من الدرس الصوتى وهذا مايدعونا إلى الحديث عن محاور علم الأداء القرآنى وأقطاره.

ثانيا – ملامح علم الأداء ومحاوره:

لعلم الأداء القرآنى ملامحه التى لاتكاد تخرج عن الإطار الصوتى تنظيرا وتطبيقا، ولاغرو فى ذلك، فما هو إلا تسجيل حى لكيفية النطق السوى لآليات النسق القرآنى أصواتا وبنية وتركيبا، كما أقرها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قراءة وإقراء. ومن هنا يمكن القول بأن علم الأداء نبت قرآنىّ النشأة، كما كان لعلمائه اليد الطولى فى تأسيس علم الأصوات. بل عدت مصنفاتهم من المصادر الرئيسية لتراثنا الصوتى بما اشتملت عليه من إلماحات واعية(١٨)، وإشارات نابهة، وتقريرات علمية متنوعة فى ميدان الحرف – الصوت – سواء أكان مفردا أم مركبا، مما يحكم على ملامحه بأنها صوتية الوجه واليد واللسان.

وقد اعتمد علم الأداء القرآنى على محورين أساسيين، أولهما نظرى،

= ١٣٤ ط ١ سنة ١٩٧٢ م، الكتاب ٤ / ٤٣١ - ٤٣٦ ؛ سر الصناعة ١ / ٥٢ - ٥٣، الممتع فى التصريف / ابن عصفور ٢ / ٦٧١ - ٦٧٨

(١٨) ينظر: المقطع الصوتى فى ضوء تراثنا اللغوى د / عبد المنعم عبد الله ٣٤ - ٤٦، معالم الأصوات العربية د / صلاح قناوى، د / عبد المنعم عبد الله ٤٣ - ٥٠، علم الصوتيات د / عبد الله ربيع، د / عبد العزيز علام ٦٣ - ٧٢

وثانيهما عملي ، والعلاقة بينهما جد وثيقه ، إذ إن كليهما متمم للآخر ، بيد أن لكل معطياته ووسائله .

(أ) المحور النظري :

وهو الجانب المتعلق بالتنظير معتمدا على الوصف والتحليل بغية استنباط الحكم الأدائي الضابط للظاهرة الأدائية ، ومن ثم قام على ركيزتي التوصيف والتقعيد .

أما عن التوصيف ، فقد اكتنزت مؤلفات هـذا العلم بالتحليلات الفوناتيكية لإنتاجية الصوت من معرفة المخارج ، والإلمام بطبيعة الصفات ، ولم تكن طبيعة الدرس في هذا المضمار مقتضبة، وإنما كثرت فيها التفصيلات ، ولعل ذلك راجع للعلاقة الوثيقة بين ما يمكن الوصول إليه في هذا الجانب والقوانين المعيارية الضابطة للتلاوة القرآنية ، إذ إن جل تعليلاتها تئول إليه .

ولا ريب أن الوقوف على هذه المنعطفات يحقق جملة من الفوائد — على حد تعبيرهم — التي لابد من معرفتها لمريد هذا العلم ، ومن ثم بسطوا القول فيها ، وليس أدل على ذلك — مثلا — من حصر الخلافات في عدد المخارج(١٩) ، فهي عند الخليل بن أحمد ومكي وأبي طالب ، وأبي القاسم الهذلي وغيرهم سبعة عشر مخرجا ، بينما يرى كثير من النحاة والقراء أنها ستة عشر مسقطين مخرج الحروف الجوفية ، كما ذهب قطرب والجرمي والفراء وابن دريد وابن كيسان إلى أنها أربعة عشر ، فأسقطوا مخرج النون واللام والراء ، وجعلوها من مخرج واحد ، وهو طرف اللسان .

وقد ارتضى ابن الجزري(٢٠) رأي الخليل ومن لف لفه .مؤكدا اختياره

(١٩) ينظر : العين ١ / ٦٥ ، الكتاب ٤ / ٤٣٣ وما بعدها ، سر الصناعة ١ / ٥٢ : ٥٣ ، شرح الشافية ٣ / ٢٥٠ : ٢٥٤ ، المفصل ١٠ / ١٢٣ - ١٢٥

(٢٠) النشر ١ / ١٩٨ - ٢٠٢

بما أثبته ابن سينا فى مؤلفه عن مخارج الحروف(٢١) .

ولا يخفى أن فى ذلك ما يشير إلى مدى الدقة فى منهجهم الوصفى الذى اعتمد — أساسا — على الملاحظة الذاتية ، والتجريب القائم عليها ، دون أى من التقنيات ، وقد كان لذلك أثره البالغ فى « تحقق المستوى الصوابى فى الأداء »(٢٢) .

وكما أشبعوا زاوية المخارج بحثا وصفيا ، فصّلوا القول — أيضا — فى محراب الصفات ، ينطلقون فى ذلك من ثابتة صوتية مؤداها أن كل حرف شارك غيره فى مخرج فإنه لا يمتاز عن مشاركه إلا بالصفات ، وكل حرف شارك غيره فى صفاته فإنه لا يمتاز عنه إلا بالمخرج »(٢٣) وليس ثمة شك فى أن هذا التمايز بين الفونيمات هو الذى يمكن القارىء من إعطاء الحرف حقه ومستحقه هادفا بذلك إلى بلوغ الغاية فى الاتقان والتحسين .

وقد غطت أبحاثهم فى دراسة الصفات فصولا كثيرة ، كبيان ما تعرف به الصفة من همس وجهر ، ونحوهما ، وعدد الصفات ومعناها ، وعدد حروفها ، والصفات القوية والضعيفة ، وتوزيع الصفات على موصوفاتها .

ولم يكن التوصيف فى مجالى المخارج والصفات بمبعد عن المنحى الفسيولوجى لآليات النطق ، فكيفية تشكيل الصوت لها أثر بالغ فى تكوين منظومته من الصفات الفارقة .

ولعل فيما صرح به مكى توضيحا لذلك ؛ إذ يرى أن المخارج للحروف

---

(٢١) أسباب حدوث الحروف ٧٢ : ٨٦

(٢٢) ينظر : الملامح الادائية عند الجاحظ د / عبد الله ربيع ١٣٩ بتصرف .

(٢٣) النشر ١ / ٢١٤ والاولى فى التعبير « لا يمتاز من مخارجه » ، وكذلك « فإنه لا يمتاز منه » ، قام بالتصويب أستاذى الدكتور / شعبان عبد العظيم عبد الرحمن ، ونصح بالحفاظ على نص المؤلف فى المتن .

بمثابة الموازين تعرف بها مقاديرها، والصفات بمثابة الناقد الذى يميز الجيد من الردىء، فببيان مخرج الحرف تعرف كميته، أى مقداره، فلا يزاد فيه ولا ينقص، وإلا كان لحنا، وببيان الصفة تعرف كيفيته، أى عند النطق به من سليم الطبع - كجرى الصوت وعدمه(٢٤).

ويوضح مكى ما أشار إليه فى ضوء التطواف بالمنحى الفسيولوجى، يقول: «وتحقيق ذلك أن الهواء الخارج من داخل الرئة بالهمز وهو موضع النفس، والمقلب كالغشاء إن خرج بدفع الطبع من غير أن يسمع يسمى نفسا - بفتح الفاء - وإن خرج بالإرادة، وعرض له تموج يسمع بسبب تصادم جسمين، سمى صوتا، وإن عرض للصوت كيفيات مخصوصة بسبب اعتماده على مقطع، أى مخرج محقق، وهو الذى ينقطع فيه الصوت، كجزء من الحلق، أو اللسان، أو الشفتين، أو الخيشوم، أو مقدر، وهو الذى لم ينقطع فيه الصوت بل قدروا له جوف الحلق والفم، سمى ذلك الصوت حرفا، وإن عرض للحروف كيفيات أخر فى الواقع بسبب نحو جرى الصوت وعدمه، وقـــوة الاعتماد على المخرج وعدمها، سميت تلك الكيفيات صفات(٢٥).

ويواصل مكى توصيفه لكيفية تشكيل الصفات مـــع وعى بالأثر الفسيولوجى، فيقرر أن النفس الخارج الذى هو صفة حروف، إن تكيف بكيفية الصوت حتى يحصل صوت قوى كان الحرف مجهورا، وإن بقى بعضه بلا صوت يجرى مع الحرف كان الحرف مهموسا، وأيضا إذا انحصر صوت الحرف فى مخرجه انحصارا تاما، فلا يجرى جريانا أصلا يسمى شديدا،

---

(٢٤) النهاية ص ٤١.

(٢٥) إطلاق الكيفيات على مصطلح الصفات يثبت إدراكه علمائنا القدامى لأثر المنحى الفسيولوجى فى الصفات التمييزية الفارقة للصامت.

ويضرب لذلك مثلا بالوقوف على قولك الحج حيث تجـــد الصوت راكداً محصورا ، وأما إذا جرى الصوت جريانا تاما ولم ينحصر أصلا ، فإنه يسمى رخوا ، كما فى الطش ، فإنك لو وقفت عليها وجدت صوت الشين جاريا ، وأما إذا لم يتم الانحصار ولا الجرى فيكون متوسطا بين الشدة والرخاوة ، ويسوق مثلا توضيحيا وذلك بالوقوف على كلمة الظل ، فإنك لو وقفت عليها وجدت الصوت لايجرى مثل جرى الطش ، ولاينحصر مثل انحصار الحج ، بل يخرج على حد الاعتدال بينهما(٢٦) .. إلخ .

وعنى عن البيان أن التعلق بهذه المسائل ووصفها بين يدى علم الأداء القرآنى من الأهمية بمكان ، ولذا رأى ابن الجزرى أن « أول مايجب على مريد اتقان قراءة القرآن تصحيح إخراج كل حرف من مخرجه المختص به تصحيحا يمتاز به (عن) مقاربه ، وتوفية كل حرف صفته المعروفه به توفية تخرجه عن مجانسه »(٢٧) ولا غرو فى ذلك ، فالوقوف على الصفات ـ مثلا ـ يمكن القارىء من تمييز الحروف المشتركة فى المخرج(٢٨) ، وهذا معنى قول المازنى « إذا همست وجهرت ، وأطبقت وفتحت ، اختلفت أصوات الحروف التى هى من مخرج واحد »(٢٩) .

كما أن الإلمام بطبيعة الصفات كما أشار مكى تساعد على فقه الأصول العامة

---

(٢٦) النهاية ٤١ - ٤٢

(٢٧) النشر ١ / ٢١٤ والأولى يمتاز به من مقاربه تصويب العبارة لأستاذى الدكتور شعبان عبد العظيم ضمن ملاحظاته على البحث .

(٢٨) ينظر فى تفصيل ذلك : فى الفكر اللغوى د / محمد فتيح ١٣٥ - ١٤٦ ، فى البحث الصوتى عند العرب د / خليل العطية ٢٩ - ٤٧ ، التجويد والأصوات د / إبراهيم نجا ٤٧-٧٧ ، علم اللغة مقدمة للقارىء العربى / السعران ١٤٨ - ١٨٦ ، اللغة العربية خصائصها وسماتها د / هلال ١٥٥ - ١٨٢ الأصوات العربية د / كمال بشر ٨٧ - ١٣٦ .

(٢٩) النهاية ٤٢

لظاهرة الإدغام « إذ يُعلم - على هديها - معرفة القوى من الضعيف لبيان مايجوز أن يدغم ومالا يجوز ، فإن ماله قوة ومزية على غيره لايجوز أن يدغم فيه لئلا تذهب مزيته»(٣٠) وبدهى أن الاتقان والتحسين يتحققان فى ضوء التطبيق لفحوى هذه الأصول .

وكما لعب التوصيف النظرى دوراً واضحا فى بيان المخارج والصفات مع الاستعانه بالإشارات الفسيولوجية ، كان له حظه - أيضا - فى الشق الثانى من الإطار الصوتى إذ إن التعلق بآلية النطق وإفرازاتها من مخارج وصفات يمثل الجانب الفوناتيكى من الدراسات الصوتية ، أما الجانب الآخر المرتبط بالصوت حالة تركيبه ، فذاك مايسمى بالمنحى الفونولوجى(٣١) ، ولم يكن علم الأداء القرآنى ليغفل هذا الشق الذى به تتم الفائدة المتوخاة منه ، وقد أشار الدانى إلى أهمية الدقة حال معالجة الحروف فى إعطائها حقها ومستحقها فى التركيب ، « لأنه ينشأ من التركيب مالم يكن حالة الإفراد ، وذلك ظاهر ، فكم ممن يحسن الحروف مفردة ، ولا يحسنها مركبة ، بحسب مايجاورها من مجانس ومقارب وقوى وضعيف ومفخم ومرقق ، فيجذب القوى الضعيف، ويغلب المفخم المرقق ، فيصعب على اللسان النطق بذلك على حقه الا بالرياضة الشديدة »(٣٢) .

ومن هنا كان التوصيف للإطار التركيبى ، وطبيعة نسيجه ، والتفاعلات الناجمة عن أثر التجاور بين لبناته ، وظواهرها الأدائية المتمثله فى الهيئة

---

(٣٠) السابق ٤٢ بتصرف .

(٣١) العلاقة بين المحورين جد وثيقة . ولذا رفض كثير من اللغويين الفصل بينهما ، ينظر : علم اللغة / السعران ٢٠٠ - ٢٠١ ، المدخل إلى علم الأصوات د / صلاح الدين حسنين ٥٩ علم الصوتيات ٧٦ ، دراسات فى التجويد والأصوات د / عبد الحميد أبو سكين ٨٠ أصوات العربية بين الوصف والتنظيم د . محمد العريان ٤٦

(٣٢) النشر ١ / ٢٥١

النطقية الخاصة ذات الأداء المميز بما تحمله بين طياتها من إظهار لحرف ، وإدغام لآخر ، وإقلاب لثالث ، وإخفاء لرابع ، ومد لخامس ، مراعاة للإنسجام الصوتى(٣٣) بين المتجاورين وتحقيقا لصون اللسان عن الخطأ فى التلاوة القرآنية ، وتوخيا للخفة المنشودة وكم كان أبو عمرو الدانى ـ رحمه الله ـ على وعى بأهمية المراعاة الدقيقة للتفاعلات الفونولوجية وثمارها فى طرحه لثابتة صوتية مفادها أن من أحكم صحة التلفظ حالة التركيب حصل حقيقة التجويد بالاتقان والتدريب »(٣٤) .

ومن هذا المنطلق تنوعت القضايا الأدائية بين ثنايا علم الأداء ضابطة لملامحه ، ومنها : الدراسة الوصفية للتفخيم والترقيق ، والإدغام والإظهار ، والإخفاء،والإقلاب ، والمد والقصر،إلى غير ذلك من الظواهر الفونولوجية التى بسطوا القول(٣٥) فيها درءاً للخلل الناجم عن كيفية الأداء للتركيب مثل إطلاق التفخيمات والتغليظات على طريقة العجم والنبط ، ومن إشاراتهم الصريحة فى ذلك « إعلم أن الحروف المستفلة كلها مرققة ، لايجوز تفخيم شىء منها إلا اللام من اسم الله تعالى بعد فتحة أو ضمة إجماعا ، أو بعد بعض حروف الاطباق فى بعض الروايات ، وإلا الراء المضمومة ، أو المفتوحة مطلقا فى أكثر الروايات الساكنة فى بعض الأحوال ... والحروف المستعلية كلها مفخمة لايستثنى شىء منها فى حال من الأحوال »(٣٦) .

---

(٣٣) ينظر شذرات من علم اللغة د/ شعبان عبد العظيم ٧٠(صور التبدلات التركيبية) وأيضا قبس من وحى اللغة (تأثر الاصوات بعضها ببعض) ١٧٤ ، الذوق العربى لظاهرة الإنسجام الصوتى د / عبد المنعم عبد الله مجلة الأزهر ٥ / ١٤٠٨ هـ ٧ / ١٤٠٨ هـ أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى د/ هلال ٤١

(٣٤) النشر ١ / ٢٥١

(٣٥) أنظر مراج القارىء المبتدىء ٩٢ - ١٠٢

(٣٦) النشر ١ / ٢١٥ .

ومن تنظيرهم فى هيئة النطق ترقيقا وتفخيما ماقرروه بصدد حروف القلقلة، إذ يدل على دقة الملحظ، وسلامة الفطر، والرغبة الجادة فى الاتقان تطبيقا، ولاسيما حالة التركيب، فالباء - مثلا - إذا أتى بعدها حرف مفخم نحو بطل، كان الناطق بها كالمتهوع، فإن حال بينهما ألف كان التحفظ بترقيقها أبلغ نحو، باطل، وباغ، والأسباط، فكيف إذا وليها حرفان مفخمان، نحو برق، البقر، وليس أدل على هذه الدقة من التحذير حالة الترقيق من ذهاب صفة الشدة فى الباء، والاستدلال على ذلك بما يفعله كثير من المغاربة، لاسيما إن كان الموالى حرفا خفيفا، نحو: بهم، دون بالغ، وباسط، وكذلك إن كان ضعفيفا نحو، بثلاثة، وبذى، وبساحتهم، أما إذا سكنت كان التحفظ بما فيها من الشدة والجهر أشد، نحو، ربوة، .. وكذلك الحكم فى سائر حروف القلقلة لاجتماع الشدة والجهر فيها، نحو يجعلون، والفجر، يدرءون، والقدر، ومطلع، وإطعام ويقطعون، وبقلها (٣٧).

ويستطرد ابن الجزرى فى هذه الساحة ملقيا الضوء على فونيمات العربية (٣٨) لافتا الأنظار إلى فوناتها الناجمة عن صورها الأدائية تأثرا بالأنساق التجاورية وملاءمة ذلك لطبيعة الأداء القرآنى.

وهكذا قامت الدعامة الأولى للمحور النظرى على التوصيف العلمى للصوت القرآنى إفراداً وتركيبا، وكان لمعطيات هذا التوصيف فى الميدانين الفوناتيكى والفونولوجى المردود الإيجابى فى فلسفة المعايير الأدائية.

وقد شغل التقعيد جانبا كبيرا من المحور النظرى فى مؤلفات علم الأداء القرآنى، مما جنح به إلى السمة التعليمية، حيث حاجة المسلمين الماسة إلى فقه الأداء كما طبقه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وحث أمته عليه فى توجيهه

---

(٣٧) النشر ١ / ٢١٦

(٣٨) السابق ١ / ٢١٤ - ٢١٥

الرشيد «خيرُكُمْ مَنْ تعلّم القرآن وعلّمهُ»(٣٩) ، وفى تحذيره (عليه السلام) من مغبة ما سيأتى بعده من« أقوام يُرَجِّعُون القرآن ترجيع الغناء ، لا يُجاوز حناجرهم »(٤٠) .

ومن هنا كان حرص الوسول (صلى الله عليه وسلم) على القراءة والإقراء(٤١) ، ليقف المسلمون فى ضوئها على الأحكام الضابطة للأداء ، فيظل القرآن حيًّا بين أيديهم ، وعلى ألسنتهم ، وفى قلوبهم بخصائصه الصوتية وإعجازه المبهر .

ومن المد المعيارى لأحكام الأداء القرآنى انبثقت جملة موفورة من المداخل والأبواب والفصول لمؤلفات هذا العلم، نحو أركان القراءةالصحيحة وأنماط القراءة ، والقانون الصحيح الذى يُرْجَع إليه فى التفخيم والترقيق ، وأحكام الإدغام الكبير من شروط وموانع ، وأحكام المد والقصر ، إلى غير ذلك من الضوابط الحاكمة لإتقان التلاوة(٤٢) .

ولو رمت أمارة لذلك فتدبر معى هذين النموذجين ، أحدهما عام فى أحكام الوقف ، وثانيهما خاص بمعالجة التفاعلات التجاورية للميم الساكنة .

---

(٢٩) وفى رواية لابن مسعود (رضى الله عنه) « خيركم من قرأ القرآن وأقرأه » أنظر : البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، كتاب ٦٦ باب ٢١ ، فتح البارى ٩ / ٦١ المطبعة البهية سنة ١٣٤٨ هـ ، نهاية القول المفيد ٢٤٨

(٤٠) الموطأ : كتاب ١٥ حديث ١٠ ، الإتقان ١ / ١٠١-١٠٢ ، الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٧

(٤١) أنظر فى ذلك : الجمع الصوتى الأول للقرآن ١٧/١ - (٤٢) ، إعراب القراءات السبع وعللها / ابن خالوية ١ / ١١ - ١٥

(٤٢) ينظر فى ذلك : تحبير التيسير / ابن الجزرى (٥١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٧٥)، حيث تتنأثر هذه القضايا وتطبيقاتها على الأنساق القرآنية، وكذلك / سراج القارىء المبتدى (٣٣ ، ٩٢ ، ١٠١) .

أما عن أحكام الوقف فقد حظيت بعناية كبيرة من أقطاب هـــذا العلم(٤٣)، ورواده، ولاغرو فى ذلك،فقد فسر الإمام على (كرم الله وجهه) الترتيل بقوله : «معرفة الوقوف ؛ وتجويد الحروف»(٤٤)، وقد اشترط كثير من أئمة هذا العلم على المجيز أن لايجيز أحداً إلا بعد معرفته الوقف والابتداء .

ومن هنا تناثرت أحكامه على بساط التلاوة القرآنية ، وها هو ذا ابن الجزرى يقسمه إلى اختيارى،واضطرارى« معللا ذلك بأن الكلام إما أن يتم أولا ، فإن تم كان اختياريا وكونه تاما لايخلو إما (أن لايكون)(٤٥) له تعلق بما بعده البتة - أى لامن جهة اللفظ، ولا من جهة المعنى - فهو الوقف الذى اصطلح عليه الأئمة (بالتام) ، لتمامه المطلق ، يوقف عليه ، ويبتدأ بما بعده ، وإن كان له تعلق ، فلا يخلو هذا التعلق إما أن يكون من جهة المعنى فقط ، وهو الوقف المصطلح عليه (بالكافى) للاكتفاء بما بعده ، وإن كان التعلق من جهة اللفظ فهو الوقف المصطلح عليه (بالحسن) لأنه فى نفسه حسن مفيد ، يجوز الوقف عليه ، دون الابتداء بما بعـــده للتعلق اللفظى إلا أن يكون رأس آية . فإنه يجوز فى اختيار أكثر أهل الأداء لمجيئه عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فى حديث أم سلمة (رضى الله عنها) أن النبى (صلى الله عليه وسلم) كان إذا قرأ قطّع قراءته آية آية ، يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم يقف ، ثم يقول : « الحمد لله رب العالمين » ، ثم يقف ، ثم يقول : « الرحمن الرحيم »ومن ثم عدّ بعض أئمة القراءة الوقف على رؤوس الآى سنة ، ورأوا أفضلية ذلك ، وإن تعلقت بما بعدها ، إذ إن اتباع هدى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولى .

---

(٤٣) النشر ١ / ٢٢٤ - ٢٣ ، النهاية ١٥٠ - ١٧٧

(٤٤) النشر ١ / ٢٢٥

(٤٥) السابق ١ / ٢٢٥ - ٢٢٩ والأولى (ألا يكون) .

أما إذا لم يتم الكلام كان الوقف عليه اضطراريا وهو المصطلح عليه (بالقبيح) ، لا يجوز تعمد الوقف عليه إلا لضرورة من انقطاع النفس ونحوه . لعدم الفائدة ، أو لفساد المعنى .

وقد استشهد أئمة علم الأداء على تلك الأنماط السابقة للوقف بنماذج عدة من الأنساق القرآنية ، بل رأو أن من أنواعه ما يقع التفاضل بين جنباته ، كالتام ، والكافى ، حيث يتفاضل التام فى التمام ، كما يتفاضل الكافى فى الكفايه فيقال : هذا أتم ، وذاك أكفى ، وقد يكون الوقف حسنا على تقدير ، وكافيا على آخر ، وتاما على غيرهما ، ومن نماذج ذلك الوقف على قوله تعالى « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ »(٤٦) إذ يتلون النمط الوقفى بتلون الموقع الإعرابى ، للآية التالية لهذا النسق ، « الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ »(٤٧) فإن كان نعتا يكون الوقف حسنا وإن كان مرفوعا بمعنى « هم الذين » ، أو منصوبا بمعنى « أعنى الذين » كان الوقف كافيا ، أما إذا اعتبرنا « الذين يؤمنون » مبتدأ خبره « أولئك على على هدى من ربهم » كان الوقف تاما .

وكما وقع التفاوت فى دائرة التام والكافى بالأتم والأكفى ، وقع التفاوت أيضا فى ملامح الوقف القبيح ، كأن يكون بعضه أقبح من بعض ، ومن نماذجه(٤٨) الوقف على : بسم ، وعلى الحمد وعلى رب ، أما الأقبح كالوقف على ما يحيل المعنى نحو الوقف على قوله تعالى « إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى »(٤٩) ، وهكذا كان لظاهرة الوقف فى ثنايا مؤلفات الأداء القرآنى دور كبير فى فقه النسق القرآنى من جانب ، وحسن أدائه من جانب آخر ،

---

(٤٦) جزء من الآية ٢ من سورة البقرة .

(٤٧) جزء من الآية ٣ من سورة البقرة .

(٤٨) ينظر : النشر ١ / ٢٢٩ .

(٤٩) الأنعام ٣٦

ولذلك لم تعدم المكتبة الإسلامية مؤلفات خاصته بهذه الظاهرة(٥٠) .

أما النموذج الخاص بعيارية التفاعلات التجاورية لفونيم الميم الساكنة . فقد حصر أحكامها فى ثلاث ظواهر أدائية . أولها : الإدغام حالة إلتقائها بميم مثلها ، نحو قوله تعالى « وأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا »(٥١) ، وثانيها الإخفاء حالة مجاورتها حرف الباء نحو ، قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »(٥٢) ، وثالثها: الإظهار مع بقية حروف الهجاء. نحو قوله تعالى« صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ »(٥٣)، وأشد درجات هذا الإظهار مع (الواو والفاء) نحو قوله تعالى « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ»(٥٤) وقوله تعالى : « لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ »(٥٥)والعلة فى ذلك كما قرر ابن الجزرى(٥٦) « لئلا يسبق اللسان إلى الإخفاء لقرب المخرجين ، فيتعمل اللسان عندهما مالا يتعمل فى غيرهما.وإذا أظهرت فى ذلك فليتحفظ باسكانها ، وليحترز من تحريكها .

وهكذا كان للمحور النظرى دوره الفاعل فى كيان علم الأداء القرآنى بما اعتمد عليه من توصيف للظواهر الأدائية ، وتقعيد للمعايير النطقية ، بيد أن الثمرة المتوخاة من جنى هذا العلم لن تكون دانية القطاف إلا فى ضوء التطبيق العملى لأحكامه ، ومن هنا كان الشطر الثانى من كيانه .

---

(٥٠) من ذلك : المكتفى فى الوقف والابتداء مخطوطة رقم ٢١٥ قراءات بدار الكتب المصرية ، التنبيهات على معرفة ما يخفى من الوقوفات . ضمن مجموعة خطية رقمها ١٠٣ فى علم التفسير بدار الكتب المصرية ، تقييد وقف القراءات ، المخطوطة رقم ٢٤٣ بدار الكتب المصرية

(٥١) سورة الجن آية ١٦

(٥٢) سورة آل عمران آية ١٠١

(٥٣) سورة الفاتحة آية ٧

(٥٤) سورة الأنبياء آية ٩٨

(٥٥) سورة فصلت آية ٢٨

(٥٦) النشر ١ / ٢٢٢ : ٢٢٣

٢ ــ المحور العملى :

ليس المقصود من الإطار العملى فى علم الأداء القرآنى مايتصل اليوم بوجوه التقنية الحديثة من معامل صوتية وخلافه ، وإنما مايتصل منه بالمنحى التطبيقى لأحكامه ، كما حدها المحور النظرى ، ولم يكن الفصل بين المحورين قائما فى مؤلفات هذا العلم ، بل العلاقة بينهما هى علاقة الجزء بالكل ، بيد أن بلوغ الغاية من معطيات هذا العلم لا تتحقق إلا فى ضوء التطبيق العملى .

وقد اعتمد هذا المحور العملى فى مؤلفات علمائنا القدامى على أسس وركائز متنوعة منها التلقى ، والممارسة ، والدربة والتكرار ، ولكل مسلك منها ملامحه وسماته وأماراته كما سيتبين على بساط البحث .

(ا) التلقى والممارسة :

لا ريب أن التلقى من أهم وسائل الناحية العملية فى المعالجة لأحكام هذا العلم ، وقد لعب دورا كبيرا فى مدرسة القراءة والإقراء عبر القرون منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وللتلقى رافدان ، أحدهما ـ المشافهة ، وثانيهما الاطلاع ، وكلاهما لا غناء عنه فى الميدان العملى التطبيقى .

وكم كان للمشافهة من أثر بالغ فى إقامة صرح علم الأداء أصولا ورجالا ، وليس أدل على أثرها من اعتبار صحة سندها ركنا من أركان القرآن ، إذ حَصَر أئمة القراءة أركان القرآن فى ثلاثة ، أولها ـ صحة السند حيث تكون القراءة على شيخ فطن متقن حاذق ، اتصل سنده بالنبى (صلى الله عليه وسلم)(٥٧) .

(٥٧) الركنان الآخران هما ـ ١ معرفة الرسم العثمانى ، والإلمام بطرف منه كالمقطوع والموصول ، والثابت من حروف المد والمحذوف منها ـ الخ ٢ ـ أن توافق القراءة وجها من أوجه النحو ولو ضعيفا .

وقد أخذت المشافهة صورا متنوعة تحققت فى القراءة والإقراء والسماع .
وقد حث الرسول (صلى الله عليه وسلم) على كل ذلك حينما بين فضل المتعلقين بالقراءة تعلما وتعليما فى قوله « من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه »(٥٨) بل إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) طبق هذه الوجوه تطبيقا عمليا ، ففى ساحة الاقراء والتعليم كان يبعث إلى أهل الأمصار البعيدة من يقرئهم ، وليس أمر مصعب بن عمير ، وكذلك ابن أم مكتوم فى التوجه إلى أهل المدينة معلمين(٥٩) ومقرئين قبل الهجرة بخاف ، كما كلف (صلى الله عليه وسلم) معاذ بن جبل (رضى الله عنه) بهذه المهمة بعد فتح مكة ، إذ خلفه عليها ليقرىء أهلها ، ويفقههم(٦٠) وفيما يرويه أنس بن مالك (رضى الله عنه) مايبين أثر الإقراء فى هذا الميدان حيث يقول : جاء ناس إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : أن ابعث معنا رجالا يعلمونا القرآن والسنة ، فبعث إليهم سبعين رجلا من الأنصار ، يقال لهم القراء(٦١) .

وقد جلس الرسول (صلى الله عليه وسلم) مجلس المتلقى والملقن ، وكلاهما يؤكد أهمية الجانب التطبيقى والممارسة فى إجادة التلاوة ، إذ تحققت جلسة التلقى قبل رحيله (عليه السلام) فى صورة المعارضة ، إذ كان جبريل يعارضه — أى يدارسه — بالقرآن فى كل سنة مرة ، غير أنه عارضه عام وفاته مرتين ، وليس العرض إلا تجويد اللفظ ، وإتقان التلاوة .

كما تحققت جلسة المُلَقِّن حينما قال (صلى الله عليه وسلم) لأبى بن كعب

---

(٥٨) المستدرك / النيسابورى ١ / ٥٥٢ ط المعارف النظامية ، حيدر أباد الهند سنة ١٣٣٤ هـ

(٥٩) الطبقات الكبرى / ابن سعد ١٤ / ٢٠٦ ط بيروت .

(٦٠) سير أعلام النبلاء / الذهبى ١ / ٣٢١

(٦١) الجامع الصحيح / مسلم ٦ / ٤٥ استامبول سنة ١٣٢٩

(رضى الله عنه) « إنَّ اللهَ أمرني أن أقرَأ القرآنَ عليك » وليس المراد من قراءته (عليه السلام) على أُبيّ إلا تعليمه وإرشاده، وأن يسمع ألفاظه وترتيله(٦٢) .

وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) حريصا على السماع من الصحابة ، وقد طلب من ابن مسعود (رضى الله عنه) أن يقرأ عليه، كما قرأ (صلى الله عليه وسلم) على ابن مسعود(٦٣)، إذ يقرر (رضى الله عنه) أنه أخذ من فىّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سبعين سورة من القرآن(٦٤) .

ولا تخفى أهمية التلقى الشفهى وأثره على المتلقى، ولاسيما من فم المحسن كما أشار ابن الجزرى، إذ إن جل الظواهر الأدائية تنبثق من كيفية النطق ، تلك التى لا يمكن إحكامها إلا بذلك التلقى ، وتلكم المشافهة ، كالروم والإشمام ، والإمالة ، والتحقيق والتسهيل ، والمد والقصر ، والتفخيم والترقيق والنقل والابدال ، والإظهار والإخفاء ، والإدغام ... إلخ فكلها ظواهر لا يحققها المصحف المكتوب إلا بعد أن يوجد الملقن الضابط(٦٥) .

ومن القراءة والاقراء تكون جيل من القراء المشاهير ، أبى بن كعب ، عبد الله بن مسعود ، زيد بن ثابت ، عثمان بن عفان ، على بن أبى طالب ، أبو موسى الأشعرى ، معاذ بن جبل وغيرهم ممن تجردوا للقراءة والأخذ ، والاعتناء بضبط القراءة ، حتى صاروا أئمة فى هذه الساحة يُقتدَى بهم ،

(٦٢) الإبانة . مكى ٧٤ ، وانظر الصحيح / مسلم (كتاب فضائل الصحابة) ٧ / ١٥٠ دار الطباعة العامرة سنة ١٣٢٩ هـ .

(٦٣) كان ابن مسعود (رضى الله عنه) ممن أوتوا حظا عظيما فى تجويد القرآن وتحقيقه وترتيله .

(٦٤) فن التجويد/ عزت عبيد دعاس .

(٦٥) الجمع الصوتى ١١١

ويُرحل إليهم ، ويؤخذ عنهم ، ولتصديهم للقراة نسبت إليهم ، أمثال : نافع المدنى ، ابن كثير المكى ، أبو عمرو البصرى ، ابن عامر الشامى ، وعاصم وحمزة والكسائى الكوفيون ... وغيرهم(٦٦) .

وقد كان لهؤلاء الأقطاب مكانتهم العلمية والخلقية التى هيأت السبل للانتفاع بهم ، كمراكز إشعاع يمثلون بالفعل الركيزة الأساسية لقطبى الوحى فى الاتقان والتجويد ، ولعل ماورد من سماتهم وخصائصهم فى كتب التراجم يوضح - بجلاء - مدى الإفادة من سعة آفاقهم العلمية ، نحو فصيح بليغ مُقْرِىء محقق ضابط متقن ثقة جليل حذق مفسر نحوى صالح عابد نبيل حجة لغوى فقيه مكثر ماهر ورع إلى غير ذلك من نحو عالى الإسناد ، من أهل العدالة(٦٧) .. إلخ من أدوات التصدر لهذا العمل الشريف .

وغنى عن البيان أن للتلقى مسلكين : أحدهما : السماع من لسان المشايخ ، والتلمذة على أيديهم ، والتكرار للنص المقروء مع مراعاة الأحكام الأدائية الضابطة بين يدى الأستاذ الملقن ، وثانيهما : القراءة بين يدى الشيخ للتصويب والتقويم ، وقد فاضل بعض الباحثين(٦٨) بين الطريقتين مقررا أن الثانية أقرب إلى الحفظ ، والحق أن الطريقتين كلتيهما سويتان متى تحقق الغرض المنشود من التلقى ، وهو الإجادة ، والاتقان لأداء النص القرآنى ، ولاشك أن الجمع بينهما أعلى وآكد تحقيقا وتوثيقا ، ولعل التقنية الحديثة ممثلة فى آليات التسجيل ، وما قامت به من عون فى تعبئة التلاوة القرآنية المرعية الأحكام على لفائف - شرائط - خير معين للتلقى فى عصرنا الحديث ، إذ بمقدوره أن يستحضر الأداء السوى للنص المطلوب ترتيله

(٦٦) النشر ١ / ٨ - ٩ ، تحبير التيسير / ١٦ وما بعدها ، دفاع عن القراءات المتواترة ٣١ ، إعراب القراءات السبع وعللها ٤ وما بعدها .

(٦٧) ينظر النشر ١ / ١٢٢ - ١٢٣

(٦٨) النهاية ١٣

وتكرير سماعه غير مرة دون حوائل من قيود زمانية أو مكانية ، مما يجعل الثمرة قريبة المثال .

ومن روافد التلقى — أيضا — الاطلاع على ماقدمه الفكر الأدائى من توصيف لدقة المعالجة ، وقد امتلأت مؤلفات علم الأداء بالمحذورات النطقية التى ينبغى على القارئ أن يكون بمبعد عنها درءاً لأخطاء التلاوة ، ومن ذلك ما قرره ابن الجزرى(٦٩) من أن التجويد « ليس بتمضيغ اللسان ولا بتقعير الفم ، ولا بتعويج الفك ولا بترعيد(٧٠) الصوت ، ولا بتمطيط الشد ، ولا بتقطيع المد ، ولا بتطنين الغنات ولا بحصرمة الراءات » معللا ذلك بأن مثل هذه القراءة تنفر عنها الطباع ، وتمجها القلوب والأسماع ، وهذا يتناقض تماما مع طبيعة الترتيل لغة واصطلاحا فالرتل فى اللغة إتساق الشىء وانتظامه على استقامته(٧١) ، وفى الاصطلاح رعاية مخارج الحروف ، وحفظ الوقوف(٧٢) .

ومن المحذورات الأدائية التى ألمع إليها علماء الأداء القرآنى(٧٣) ماقرروه بصدد الجيم — مثلا — إذ يجب أن يتحفظ بإخراجها من مخرجها ، فربما خرجت من دون مخرجها ، فينتشر بها اللسان فتصير ممزوجة بالشين كما يفعله كثير من أهل الشام ومصر ، وربما نبا بها اللسان فأخرجها ممزوجة بالكاف ، كما يفعله بعض الناس ، وهو موجود فى كثير من بوادى اليمن ... وإذا سكنت وأتى بعدها بعض الحروف المهموسة كان الاحتراز بجهرها وشدتها

---

(٦٩) النشر ١ / ٢١٣

(٧٠) الترعيد أن يرعد القارئ صوته ، كأنه يرعد من الألم ، ينظر : تاريخ آداب العرب ٢ / ٥٩ ، مباحث فى علوم القرآن / القطان ١٦٤ .

(٧١) المفردات فى غريب القرآن ١٨٧

(٧٢) التعريفات / الجرجانى ٥٧ .

(٧٣) النشر ١ / ٢١٧ : ٢١٨

أبلغ ، نحو اجتمعوا ، واجتنبوا لئلا تضعف فتمتزج بالشين ، وكذلك إذا كانت مشددة نحو « أتحاجّونى » و« حاجّه » — لاسيما — نحو « لجىّ » لمجانسة الياء وخفاء الهاء .

ومن ذلك — أيضا — إشارتهم إلى أنماط المفخمات ، وكونها على ثلاثة أضرب(٧٤) ، ضرب يتمكن التفخيم فيه ، وذلك إذا كان أحـــد حروف الاستعلاء مفتوحا ، وضرب دون ذلك ، وهو أن يقع مضموما ، وضرب دون ذلك ، وهو أن يكون مكسورا(٧٥) .

وبخصوص الدال كان توجيههم ببيانها إذا كانت بدلا من تاء ، واعتبروا ذلك واجبا ، لئلا يميل اللسان بها إلى أصلها فى نحو مزدجر ، أما الذال فألحوا إلى العناية بإظهارها إذا سكنت وأتى بعـــدها نون مثل « فَنَبَذْنَاهُ » كما يعتنى بترقيقها وبيان انفتاحها واستفالها إذا جاورها حرف مفخم ، وإلا ربما انقلبت ظاء نحو (وذللنا) إذ تصير (وظللنا) ، وبعض النبط ينطق بها دالا مهملة ، وبعض العجم يجعلها زايا ، ومن ثم ينبغى التحفظ من ذلك .

وعن صفتى الانفتاح والاستفال(٧٦) فى فونيم (السين) كانت الإشارة أن يعتنى ببيان هاتين الصفتين إذا أتى بعدها حرف إطباق ، لئلا تجذبها قوته فتقلبها صادا(٧٧) نحو (بسطة) ، كما ينبغى التحفظ ببيان همسها إذا أتى بعدها غير ذلك نحو « مسجد » فربما ضارعت فى ذلك الزاى .

---

(٧٤) تنوعت أنماط التفخيم وفق الحركة التى تعلو الحرف المفخم أو تسفله تأثرا ، إذ تجذب الحركة الحرف إلى سمتها .

(٧٥) ينظر النشر ١/ ٢١٨

(٧٦) الاستفال والانفتاح صفتان مردهما - أساسا - إلى وضع اللسان فى أثناء النطق بالحرف .

(٧٧) ينظر فى ذلك : الكتاب ٤ / ٤٧٩

وعن التفشي(٧٨) في صفة الشين كان الأمر ببيانها ، لاسيما في حال تشديدها أو سكونها نحو « فبشّرناه » ، و« اشتراه » وبخاصة في الوقف ، كما يكون البيان أوكد للتجانس نحو (شجرة تخرج) .

ولو تأملت معي جدوى الاطلاع كرافد من روافد التلقي على تلك المنظومة من التحذيرات الأدائية لأدركت مدى الحرص على صفة الحروف ، وهيئاتها النطقية ، ولا سيما إذا كان الحصر والاستقصاء والتتبع لكل فونيمات العربية منهجا رئيسا لها ، فلم يكن الأمر مجرد إشارة عابرة يلحظها الدارس ضمن طيات الكلام وإنما هي دراسة استقصائية للحروف(٧٩) مع مراعاة جل السياقات — قدر الطاقة — التجاورية المتنوعة خوفا من تأثيرها الحي على حزمة الخواص النطقية الفارقة للفونيم ، وليس أدل على ذلك من الوقوف على تحفظاتهم في المعالجة الأدائية لفونيم الصاد . إذ كان الأمر بالاحتراز حال سكونها . إذا أتى بعدها تا آن أن تقرب من السين ، نحو « ولو حرصت » — و« حرصتم » . أو طاء أن تقرب من الذاى نحو « اصطفى » . و« يصطفى » ، أو دال أن يدخلها التشريب عند من لا يجيزه . نحو : « أصدق » . و« يصدق » و« تصدية » .

وقد واصل علماء الأداء القرآني هذا المد التمييزي بين الفونيمات العربية بغية الرجوع إلى أسسه ، وفقه فلسفته ، فيكون الاطلاع على ذلك معيناً على تمييز ماهية كل فونيم في السياق البنيوي للصيغة القرآنية ، درءاً للتداخل بين الفونيمات ، ولاسيما على الأعاجم ، فضلا عن العرب أنفسهم الذين لم يتعودوا هذا النهج الأدائي لمنثورهم أو منظومهم ؛ بل كانت لهم عاداتهم التنغيمية أو الأدائية من التشدق والتفخيم والتمطيط وغير ذلك مما يتلاءم

---

(٧٨) انتشار الصوت في الفم عند النطق به ، ولا يتصف به سوى الشين ، ينظر : التجويد والأصوات ٧٧

(٧٩) النشر ١/ ٢١٥ - ٢٢٤

ـ فى عرفهم ـ مع طبيعة النص المطروح ؛ والمقام المقال فيه ؛ والغرض من الرسالة الملقاة ... إلخ .

(ب) الدربة والتكرار :

التدريب ـ دائما ـ هو خير معوان على الوصول إلى الغاية ، ووسيلته التكرار للمحاولة ، والعمل على التطويع ـ قدر الإمكان ـ والتمرين ، ولا شك أن الدربة فى ميدان علم الأداء القرآنى تمثل لب لباب المحور العملى منه ، إذ بها ـ لا بغيرها ـ يتمكن المسلم من تحقيق مايتوخاه فى المعالجة الأدائية للنص القرآنى من الدقة وحسن الأداء ، ولا يخفى مالها من تعلق بعنصرى المشافهة والممارسة على ضوء التلقى والاطلاع ، إذ هى إعمال اللسان وآليات النطق على الهيئة التى تتفق ملامحها مع متطلبات الأداء السَّنوى لآى الذكر الحكيم .

وقد وجه الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) إلى كيفية القراءة السليمة ، فى قوله ـ جل شأنه ـ « لا تُحَرِّكْ به لسانَك لتَعْجلَ به »(٨٠) ، كما لفت النبى (صلى الله عليه وسلم) أنظار أمته إلى ماينبغى أن يكون عليه الأداء القويم فى الحديث الذى رواه البغوى عن ابن مسعود لا تنثروه نثر الرمل ، ولا تهذوه هذ الشعر ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة »(٨١) ، وقد فسر ابن كثير الأمر بالترتيل فى قوله تعالى « وَرَتِّل القرآن تَرْتيلا » بأنه القراءة على تمهل ، فإن ذلك يكون عونا على فهم القرآن وتدبره(٨٢) .

وعلى هدى من هذا وذاك أفرزت مؤلفات علم الأداء القرآنى زاداً موفوراً من كيفيات المعالجة غير السوية ، ونبهت إليها بغية تجنبها فى ضوء

(٨٠) سورة القيامة آية ١٦

(٨١) تفسير القرآن العظيم / ابن كثير ٤ / ٤٣٤ رواه البغوى .

(٨٢) السابق ٤ / ٤٣٤

الدربةالتى يُمنّى المتعلم بها نفسه رجاء الإجادة، ومنها المضغ واللوك، والمط والحصرمة، والنحول والتغليظ، والترعيد والتشريب، والتشميم والامتزاج، والتهوع، والتقعير، والتعويج، والتقطيع، والتطنين. فالقراءة السوية هى تلك السهلة العذبة التى لامضغ فيها ولا لوك، ولا تعسف ولا تكلف، ولا تصنع ولا تقطع، ولا تخرج عن طباع العرب وكلام الفصحاء بوجه من وجوه القراءات والأداء.

وليس ثمة شك فى أن هذه المنظومة من العيوب الأدائية لا يمكن للقارىء أن يبرأ منها إلا بالدربة والممارسة والمشافهة والرياضة اللسانية والتلقى عن ذوى الخبرة والاختصاص، فإذا ارتضى المسلم لنفسه الإجادة فى هذا السبيل ينبغى أن يجعل الدربة والتكرار بغيته نحو الاكتمال، ولا سيما فى معالجة الفونيمات التى يصعب إفرازها، وفى الوقوف على ماقرره أئمة هذا العلم والعمل على تطبيقه بالممارسة والتكرار مايجعل الأمر ميسوراً.

لقد حذر علماء الأداء من اللبس والخلط فى نطق الضاد(٨٣)، «إذ إن ألسنة الناس فيه مختلفة، وقلّ من يحسنهُ، فمنهم من يخرجه طاءا، ومنهم من يمزجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة، ومنهم من يشمه الزاى، وكل ذلك لايجوز، فليحذر من قلبه إلى الظاء لاسيما فيما يشتبه بلفظه نحو (ضل من تدعون) يشتبه بقوله «ظل وجهه مسودا) وليعمل الرياضة فى إحكام لفظه، وخصوصا إذا جاوره ظاء، نحو «أنقَضَ ظَهرَكَ» «يَعَضُّ الظَّالم»، أو حرف مفخم، نحو «أرض الله» أو حرف يجانس مايشبهه، نحو «الأرض ذهبا»، وكذا إذا سكن وأتى بعده حرف إطباق، نحو «فمن اضطر» أو غيره نحو «أفضتم».

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أن الدربة والتكرار للهيئة النطقية

---

(٨٣) النشر ١ / ٢١٩ - ٢٢٠

المأمول الوصول إليها ستحقق بغيتها وبخاصة إذا تحرى المتعلم الدقة فى المعالجة تقليدا شفهيا ، أو ممارسة لما حصله من الماحات دقيقة بين ثنايا مؤلفات علم الأداء لكيفية الاستواء فى التلاوة ، وكلها تنطلق من معين إعطاء الحرف حقه ومستحقه ، وبهذا الإعطاء وحده تتحقق الدقة الأدائية ، والأمر - فقط - يحتاج إلى دقة الملاحظة والمعالجة فى آن واحد ولعل فى إشارات الصوتيين فى التمايز بين الفونيمات مايؤكد ذلك، إذ يقول . سيبويه - مثلا - « لولا الأطباق لصارت الطاء دالا ، والصاد سينا ، والظاء ذالا ، ولخرجت الضاد من الكلام ، لأنه ليس من موضعها غيرها »(٨٤) .

وقد عد بعض الباحثين هذا النص إشارة فريدة إلى أساس نظرية الصفات الفارقة التى يعدها الكثيرون من مبتكرات الدرس الصوتى الحديث(٨٥) ، ولا ريب أن ماقرره الخليل بن أحمد - قبل سيبويه - يعد غرساً فى حقل هذه النظرية أيضا التى تعتمد على التميز بين الوحدات الصوتية ، إذ يقول فى هذا المضمار : « ولو لابحة فى الهاء لأشبهت العين ، لقرب مخرجها من العين . . . ولولا هتة فى الهاء ، وقال مرة ههة لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء ، فهذه ثلاثة أحرف فى حيز واحد بعضها أرفع من بعض(٨٦) . . إلخ .

وتأسيسا على ماسبق فإن المتدرب يجب عليه أن يراعى تلك الفروق الدقيقة ، ويتجنب محذورات الأداء ، وليمعن النظر فى المحاكاة الشفهية من جانب ، وفقه أحكام الأداء من جانب آخر ، وحالتئذ ستتجلى له الأهمية التطبيقية لعلم الأداء .

---

(٨٤) الكتاب ٤ / ٤٣٦

(٨٥) دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث / د عبد الفتاح البركاوى ٩٠ ، مدخل إلى علم اللغة الحديث ١١٢

(٨٦) العين ١ / ٥٧ : ٥٨

ثالثا ـ أهمية علم الأداء فى المجال التطبيقى :

على ضوء ماسبق عرضه يمكننا أن نقف بوضوح على أهمية علم الأداء فى الإطار التطبيقى ، وليس أدل على أهمية هذا العلم ومكانته من حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الزهرى عن سالم عن أبيه عن عمر قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : « رحم الله امرأ أصلح من لسانه »(٨٧) وقد كان أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) يقول : «لأن أقرأ فأسقط أحب إلى من أن أقرأ فألحق »(٨٨) .

وقد شارك علم الأداء بمعطياته وأحكامه فى خدمة النص القرآنى محفوظا من التحريف سويا فى النطق سلسا فى الأداء ، ومن هنا فإنه يحتل موقع القمة فى ميدان الدراسات القرآنية ، لارتباطه الوثيق بالبنية القرآنية فى محاولة جادة لضبط أدائها ، وتحرير كلماتها ، ومعرفة مخارج حروفها ، وصفة كل حرف ، ومده التأثيرى تحقيقا للانسجام الصوتى وحسن الأداء دون إفراط ولا تكلف ، إذ ليس بين التجويد وتركه إلا رياضة لمن تدبره بفكه »(٨٨) .

كما لعب علم الأداء دوراً بالغا فى إبراز مايتسم به النسق القرآنى من إعجاز صوتى تبدو أماراته وخصائصه فى دقة الأداء ، وتتجلى آثاره على المتلقى ، ولم يكن إسلام عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) إلا وليد هذا الإعجاز ، وتلكم هى طريقة الاستهواء الصوتى فى اللغة ــ كما أسماها الرافعى(٩٠) وأثرها طبيعى فى كل نفس ، وهى تشبه فى القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذى يخاطب به كل نفس تفهمه ، وكل نفس لا تفهمه ،

---

(٨٧) ينظر : إعراب القراءات السبع وعللها ١/ ٢٨

(٨٨) نحو وعى لغوى د / مازن المبارك ١٨

(٨٩) النشر ١ / ٢١٣ (٩٠) تاريخ آداب العرب ٢ / ٢١٧

ثم لا يجد من النفوس على أى حال إلا الاقرار أو الاستجابة ، إذ انفرد القرآن بهذا الوجه المعجز ، فتألفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها ، أو أبدل بغيره ، أو أقحم معه حرف آخر لكان ذلك خللا بيِّنا ، أو ضعفا ظاهرا فى نسق الوزن وجرس النغمة ، وفى حسن السمع وذوق اللسان ، وفى انسجام العبارة ، وبراعة المخرج ، وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض » .

ومما لاشك فيه أن هذا التأثير لا يتأتى إلا مع الأداء السوى ، « لأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التى خلقت فى نفس الإنسان . . وعلى هذا وحده يؤول الأثر الوارد أن فى الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا ، لأنه يجنب هذا الكمال اللغوى مايعد نقصا منه ، إذا لم تجتمع أسباب الأداء فى أصوات الحروف ومخارجها » وقد أرجع الرافعى(٩١) تفرد القرآن على سائر الكلام بأنه لا يخلق على كثرة الرد وطول التكرار إلى إعجاز نظمه فى ضوء خصائصه الموسيقية ، وتساوق حروفه على أصول مضبوطة من بلاغة النغم ، بالهمس والجهر ، والقلقلة والصفير ، والمد والغنة ، ونحوها ، ثم اختلاف ذلك فى الآيات بسطا وإيجازا ، وابتداء وردآ ، وافرادآ وتكريرا » ومن هنا تبدو أهمية علم الأداء فى الإطار التطبيقى لأحكامه .

ولم تكن أهمية علم الأداء وفائدة أحكامه مقصورة على النسق القرآنى ، بل أضفت على الأنساق اللغوية — نثرا ونظما — مسحة من السلاسة ، ولمسة من الطراوة فى نسيجها إذا ماروعيت أحكام التلاوة القرآنية فى أدائها

ومن ثم يمكن القول بأن الإلمام بأحكام الأداء القرآنى يعد أهم وسائل

---

(٩١) السابق ٢ / ٢١٨

النطق الصحيح للغة العربية ، وقد قرر بعض الباحثين(٩٢) أن أهم قراءة تدرب اللسان على النطق الصحيح ، وإخراج الحروف من مخارجها مع المحافظة على الجرس الموسيقى للكلمة والعبارة ، كما ترتفع بمستوى الأداء التلاوة اليومية لآيات من القرآن الكريم ، ومن هنا كانت الأهمية التطبيقية لأحكام علم الأداء القرآنى من الناحية القومية ، حيث الحفاظ على سمت العربية التى هى ملمح قوميتنا ، وقد قرر الرافعى أن إبقـــاء العربية على خصائصها الأصيلة ناجم عن تأثير المد القرآنى فى اللغة ولا سيما الصبغة الأدائية ، « ولولا هذا الكتاب الكريم لما وجد على الأرض أسود ولا أحمر يعرف اليوم ، ولا قبل اليوم ، كيف كانت تنطق العرب بألسنتها ، وكيف تقيم أحرفها ، وتحقق مخارجها ، وهذا أمر يكون فى ذهابه البيان العربى جملته أو عامته ، لأن مبناه على أجراس الحروف واتساقها ، ومداره على الوجه الذى تؤدى به الألفاظ »(٩٣) .

وعلى هذا لم يكن علم الأداء القرآنى فى ميدان اللغة العربية أقل أثرا فى الحفاظ عليها من نحوها وصرفها ، وإذا كانت العلامة الإعرابية تمثل وظيفة أساسية - كما قرر النحويون - فسرها بعض الباحثين(٩٤) « بأنها صيانة الأبنية داخل التركيب ، وذلك أنها فواصل صوتية دون تآكل هذه البنية » فإن مراعاة الأحكام الأدائية فى معالجة التركيب القرآنى تحقق الغرض نفسه بصورة أكمل وأنضج فى ضوء صيانة العناصر الصوتية المكونة لتلك البنية

---

(٩٢) اللغة العربية أداء ونطقا / فخرى محمد صالح ٦٩ : ٧٠ .

(٩٣) ينظر . تأثير القرآن فى اللغة من ٨٨ : ٩٨ من كتاب إعجاز القرآن الرافعى مطبعة المقتطف ، مع القراءات القرآنية / د . عبد الحميد أبو سكين / ١٢٣ حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الثانى سنة ١٩٨٤ م .

(٩٤) الإعراب / د . محمد البنا ٦١

مخرجا وصفة وهيئة نطقية تخضع لقوانين التفاعل الأدائى ، وتنظيم العلاقة بين المتجاورين .

ومن الوضوح بمكان أن ثمرة علم الأداء صوتية ، لارتباطه بمعطيات الدرس الصوتى ، وموقعة من قضاياه ، وهو ماسيجليه البحث .

رابعا ـ علم الأداء القرآنى وموقعه فى ميدان الدراسة الفونولوجية :

وقع علم الأداء القرآنى موقع القمة بين ربوع الدراسات الصوتية ، ولا غرو فى ذلك ، فهى حصاد مباحثه ، ونتائج تفصيلاته ، ومن ثم عدت مصنفات علم الأداء من أهم مصادر تراثنا الصوتى ومنابعه(٩٥) ، فقد كان علماء القراءات من أكثر القوم حرصا على تناول المباحث الصوتية فى مؤلفاتهم ، بل أضافوا إليها كثيرا من التفصيلات حينما وصفوا القراءات المختلفة للتلاوة القرآنية ، وسجلوا فى ضوء ذلك كثيرا من الخصائص الأدائية(٩٦) .

ومما يؤكد قوة العلاقة بين علم الأداء القرآنى وساحة الدراسة الصوتية احتواء مباحثه على شتى فروع علم الأصوات فى ضوء التخصص الدقيق الذى هو سمة العصر والتقنية الحديثة ، إذ يمت إلى علم الأصوات النطقى بصلة حينما يدرس قضية مخارج الحروف وصفاتها ، ويتصل بعلم الأصوات الفيزيائى حينما يدرس قضية المد ودواعيه وأنماطه المتنوعة ، ناهيك عن بعض الصفات الخاصة بالحروف كالجهر والهمس والشدة والرخاوة ، والحركة والحرف . . إلخ ، وهو فى دراسته للصوت حالة إفراده بعيدا عن السياق

---

(٩٥) ينظر فى ذلك : معالم الأصوات العربية د / صلاح قناوى ، د/عبدالمنعم محمد .

(٩٦) يقارن بـ / علم اللغة : د / السعران ١٠١

لايخرج عن الأطر العامة ، والملامح المنهجية لعلم الأصوات الفوناتيكى ، وحالة دراسته للصوت فى بنيته لايكون بمبعد عن علم الأصوات الفونولوجى، وحينما يعتمد على وصف الظاهرة وتحليلها مبيناً دواعيها وثمرتها الأدائية يندرج تحت مايسمى بعلم الأصوات الوصفى ، أما حالة استدلاله على الظاهرة المدروسة فى ضوء التطبيق العملى على النماذج المتنوعة من رحاب النص القرآنى فهو وثيق الصلة بعلم الأصوات التطبيقى .

ومن ثم ليس من المبالغة فى شيء إذا قررنا ريادة علم الأداء القرآنى للدراسات الصوتية ، ووقوعه منها موقع القمة .

وسيعرض البحث نموذجا لأحكام هذا العلم مع تحليله فى ضوء معطيات الدراسة الفونولوجية ليكون بمثابة الدليل العملى على موقعية أحكامه من ساحة الدرس الصوتى بصفة عامة ، والمنحى الفونولوجى بصفة خاصة ، وهو أحكام النون الساكنة .

ومما لاشك فيه أن علم الأداء القرآنى - كما ألمحنا - له صلته الوثيقة بالإطار الفونولوجى فى الدراسات اللغوية الحديثة ، إذ لا تعدو جل أحكامه أن تكون مادة لعلم الأصوات الفونولوجى ، فقضايا هذا العلم تعنى بالصوت اللغوى فى إطار السياق فى محاولة لتحديد وظيفته ، ومدى تلاءمه مع غيره ، واتساقه مع سابقه ولاحقه فى بنية الكلمة ونسيجها الفونيمى مبرزا مايطرأ عليها من تطور وتغيير تتضح مظاهرة فى الإعلال والإبدال والقلب والإدغام والفك وما شاكل ذلك من الظواهر البنيوية الناجمة عن التفاعلات الداخلية لفونيمات النسيج اللغوى للكلمة العربية ، وعلم الأصوات الفونولوجى إنما ينحو هذا المنحى التجريدى ليصل إلى وضع القوانين والقواعد العامة للأصوات كاشفا عن وظائفها فى اللغة ؛ وهذا اللون من الدراسة يمثل الشق الثانى من الدرس الصوتى ، إذ يقوم الشق الأول وهو

مايسمى بعلم الأصوات الفوناتيكى بدراسة الصوت اللغوى مفردا مبينا مخرجه وصفاته وكيفية نطقه وتكوينه وانتقاله وإدراكه .

ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أن العلاقة بين الجانبين قوية ووثيقة، وأن كان هناك فرق بينهما فهو فى المنهج ، ومن ثم رفض كثير من الغربيين الفصل بينها(٩٧) .

وإذا كان نجم الدرس الفونولوجى ، يدور فى فلك العلاقة بين الأصوات اللغوية فى السياق فليست أحكام النون الساكنة(٩٨) عن هذه الساحة ببعيدة ، إذ إن للنون الساكنة أحكاما متنوعة تنوع سياقاتها فى إطار النسيج اللغوى ، وحسب نمطية الأصوات المجاورة لها حيث التفاعلات التجاورية مع غيرها تأثرا وتأثيرا .

ومن الطبيعى قبل عرض هذه الأحكام على الساحة الفونولوجية أن تلقى الضوء على الجانب الفوناتيكى لهذا الصوت حتى يتسنى لنا فلسفة أحكامه ومعاييره . وماهية النون الساكنة – كما حدها علماء الأداء القرآنى – تدور حول توصيفها نطقا ورسما فهى التى لا تنطق محركة إلا اضطراراً ، كالتخلص من التقاء الساكنين ، وتثبت فى اللفظ والخط والوصل والوقف، وترد فى الأسماء والأفعال والحروف وتقع متوسطة ومتطرفة ، أما مخرجها فهو ذلق اللسان كما عبر الخليل(٩٩) ، وتعد من أوضح الأصوات الصامتة إسماعا ، ومن ثم شبهت بأصوات اللين، وهذا ناجم عن كيفية نطقها ،

---

(٩٧) أسس علم اللغة / ماريو بال ٤٣ ،من وظائف الصوت اللغوى ٧. دراسة الصوت اللغوى / عمر ٤٦

(٩٨) البرهان فى تجويد القرآن ٨ . قمحاوى مطبعة حسان، سراج القارىء ١٠١

(٩٩) العين ١ / ٥١ . وينظر فى أحكام النون الساكنة : مقدمة فى أصوات العربية : د / البركاوى ١٥٨ : ١٨١

ومن كمال وضوحها ماتتسم به من ذبذبات هى ربيبة هز الأوتار الصوتية حالة تشكيلها ، وقد حدد العلماء ملامحها التمييزية وصفاتها الفارقة فى الإجهار والتوسط والاستفال والانفتاح والذلاقه ، والأنفية ، ولا يخفى أن كيفية تكوينها فسيولوجيا وراء هذه الصفات التمييزية .

ومن الأحكام الفونولوجية للنون الساكنة وجوب الإظهار إذا وليها حروف الحلق ، كما تدغم إذا وليها (الياء ، الراء ، اللام ، الميم ، الواو ، والنون) كما يتم نطقها على صفة بين الإظهار والإدغام وهو مايسمى بالإخفاء إذا وليها بعض الصوامت الأخرى التى تتمثل فى (ص ، ذ ، ك ، ج ، ش ق ، س ، د ، ط ، ز ، ف ، ض ، ظ) .

أما الإظهار حالة مجاورة النون الساكنة لحروف الحلق فمرده موقعية الصوامت الحلقية على الممر الصوتى ، وكذلك موقعية النون وراء ذلك ، فكان للبعد المخرجى دوره فى إظهار النون دون غنة .

وتأسيسا على ذلك ، فالتلاوة القرآنية السوية لصوت النون الساكنة فى ضوء هذا التجاور تقتضى إظهارها وبيانها بيانا تاما ، ويمكن تطبيق ذلك على هذا التسق القرآنى (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ)(١٠٠) .

وعن الحكم الثانى ، وهو الإدغام حيث التفاعل الذى يحدث بين النون الساكنة وما يماثلها أو يقاربها حالة الاتصال من حروف (يرملون) فإن التعليل الفونولوجى لهذه الظاهرة الأدائية يكمن فى مراعاة السهولة فى النطق والانسجام الصوتى فى الأداء . إذ إن النطق بالأحرف المماثله أو المتقاربة مع فصل بعضها عن بعض وإظهار كل مدعاة للثقل ، ومجلبة للصعوبة ، ومن هنا كان التخفيف فى إطار هذا التفاعل تحت مظلة الإدغام على هيئة التقاء

---

(١٠٠) سورة الفاتحة الآية ٧

ساكن بمتحرك بحيث يصيران حرفا واحدا مشددا(١٠١) ، ومرد هذا التماثل أو التقارب بين النون الساكنة والصوامت المشار إليها هو الاشتراك فى معظم الصفات ، مثل (الجهر والاستفال والانفتاح) مضافا إلى ذلك الاشتراك فى المخرج أو قربه مع ملاحظة الوضوح السمعى الذى اتسم به كل منهم .

والحكم الثالث المتمثل فى(١٠٢) الاقلاب وهو فى اصطلاح علماء الأداء « قلب النون الساكنة ميما قبل الباء مع مراعاة الغنة والإخفاء ناجم عن تنافى حكم الصامتين (النون والباء) من حيث المخرج ، وكيفية التحكم فى مجرى الهواء ، إذ إن النون من طرف اللسان . وغنها يستدعى خروجها من الخيشوم ، أما الباء فهى من الشفتين ، هذا من حيث المخرج . ومن جهة التحكم فى مجرى الهواء ، فالنون حرف أغن يستدعى استمرار مرور الهواء ، أما الباء فمخرجها يتطلب إغلاق مجرى الهواء .

ومن هنا كان التقاء هذين الصامتين يؤدى من هاتين الناحيتين إلى إحداث تضاد تأباه طبيعة النسيج البنيوى للصيغة العربية حالة الأداء ، ولا سيما فى التلاوة القرآنية ، فكان القلب ميما حلا لهذا التنافى ، ومراعاة للانسجام الصوتى بين فونيمات النسيج اللغوى من جانب ، والتخفيف على اللسان من جانب آخر ، إذ اتفقت الميم مع الباء فى المخرج ، ومع النون فى الغنة . ويمكن تطبيق هذه الظاهرة على النسق القرآنى التالى « قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا »(١٠٣).

---

(١٠١) ينظر : سراج القارىء ١٠٢ ، الاتقان ١ / ٩٤ ، الإتحاف ٣١

(١٠٢) تقريب النشر ٥٤ / ابن الجزرى تصحيح الشيخ الضباع ، المطبعة التجارية بمصر .

(١٠٣) التحريم ٣

أما التفاعل الأخير للنون الساكنة فهو الإخفاء(١٠٤)، وقد عرَّفه علماء القراءات بأنه « النطق بالحرف على صفة بين الإظهار والإدغام مع التشديد وبقاء الغنة فى الحرف الأول ».

ومن التوصيف لهذه الظاهرة يتبين أنها تشكل مرحلة وسطى بين الإظهار والإدغام، وتتحقق عند التقاء النون الساكنة بالصوامت المشار إليها سابقا، والتحليل الصوتى لهذه الظاهرة لدى علمائنا القدامى لا يخرج عن مراعاة معطيات الدرس الصوتى بشقيه الفوناتيكى والفونولوجى، إذ رأوا أن النون الساكنة ليست قريبة من ناحية المخرج بالحروف المشار إليها القرب الذى يوجب الإظهار، ومن ثم كانت المرحلة الوسطى « فصارا لا مدغمين ولا مظهرين »(١٠٥) ويمكن تطبيق هذا الحكم الأدنى على النسق القرآنى التالى « أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون »(١٠٦).

وهكذا تبدو لنا موقعية علم الأداء القرآنى على خريطة الدرس الصوتى، ولا سيما الفونولوجى منه، مما يدل على أهمية هذا العلم من جانب، وألمعية علمائه من جانب آخر، حيث نبتت تأصيلاتهم المعيارية فى حقل الدراسات الفونولوجية منذ أمد بعيد.

---

(١٠٤) انظر : السراج ١٠٢، الإتحاف / البنا الدمياطى ٣١ مطبعة البابى الحلبى سنة ١٣٥٩ هـ

(١٠٥) النشر ٢ / ٢٧

(١٠٦) سورة الواقعة الآية ٦٩

تعقيب

[حول طبيعة علم الأداء القرآنى فى تراثنا ومعاهدنا العلمية]

فى ضوء الدراسة السابقة لعلم الأداء القرآنى تجلت لنا ملامحه التى فسرت ماهيته وحددت طبيعة التى لم تخرج عن معطيات الدراسة الصوتية بنمطيها الفوناتيكى والفونولوجى توصيفا وتقعيدا درءاً للمحـــذورات الأدائية ، وتحقيقا لسلامة الأداء القرآنى ، والارتقاء به غضا .

كما كشفت الدراسة عن ارتباط علم الأداء فى ميدانه التطبيقى بالتلقى والممارسة والدربة والتكرار ، وكيفية تطبيق النبى (صلى الله عليه وسلم) لملامح ذلك قراءة وإقراءا وإسماعا ، لتلافى عيوب الأداء التى زخرت بها مؤلفات علم الأداء .

وعلى هدى من حقائق الفكر الأدائى للنسق القرآنى فى هذا الميدان برزت أهميته التطبيقية من صون اللسان عن الخطأ فى التلاوة القرآنية ، وكشف اللثام عن وجه من وجوه الإعجاز الصوتى للنسيج القرآنى .

كما تجلت أهميته فى المردود الإيجابى لتطبيق أحكامه على مستوى الأداء اللغوى بصفة عامة ، وليس أدل على ذلك من الواقع المعاش من جانب ، وتوجيهات التربويين التى تشير إلى أهمية الاستعانة بالأداء القرآنى السوى على إجادة النطق والقراءة على وجه العموم من جانب آخر .

ولهذه الأهمية المزدوجة على المستوين القرآنى واللغوى أبرزت الدراسة موقعية علم الأداء على خريطة الدراسة اللغوية ، وحددت أبعاده فى حقل الدرس الصوتى ، إذ احتل موقع القمة على ربوعه ، ولاسيما

فى الإطار الفونولوجى ، وقد أثبت التحليل الادائى لموقعيات النون الساكنة فى الأنساق القرآنية المتنوعة ، وإفرازاتها المعيارية لأحكام الأداء فى ضوء التفاعلات التجاورية مايؤكد ذلك .

وعلى الرغم من الأهمية النظرية والتطبيقية لعلم الأداء القرآنى نلحظ حضوره الغائب فى عصرنا الحديث ، فهو حاضر بين ثنايا التراث بمعاييره ، وعلى رفوف المكتبات بمخطوطاته ومطبوعاته ، غائب فى واقعنا الإعلامى والتعليمى .

أما عن الواقع الإعلامى فليس هناك موقع قدم لمعطيات هذا العلم فى البث الإذاعى المسموع إلا فى إذاعة القرآن الكريم ، وعلى أضيق تطاق ، إذ إن مساحته الزمنية على خارطة هذه الإذاعة ضئيلة لا تقاس بالنسبة لمساحة البث الزمنى لها ، فضلا عن الإذاعات المتنوعة والمتعددة الأخرى .

أما البث الإعلامى المرئى والمسموع على الشاشة الصغيرة فهو فى غيبوبة تامة عن أبعاد هذا العلم ، على الرغم من الصحوة الدينية التى يتمتع بها مجتمعنا الإسلامى ، وحاجة الشباب منه إلى فقه المعايير الأدائية للنسق القرآنى ليتسنى لهم تحقيق الغـــاية المنشودة ، لاسيما وقنوات الإرسال التليفزيونى اليوم تجاوزت أصابع اليد عدا ، وساعات بثه من الكثرة بمكان .

أما عن غياب هذا العلم فى معاهدنا العلمية ، فليس من المبالغة فى شىء إذا قررت خلو المناهج التعليمية من معطياته تماما على امتداد أهم المراحل التعليمية فى وزارة التربية والتعليم ، الابتدائية والإعدادية ، والثانوية وليس أدق من تلك المراحل فى الحاجة إلى الإلمام بملامح التلاوة السوية .

أما الازهر ، فقد خلت مرحلة التعليم الابتدائي - أيضا - من مقرراته على الرغم من أن تلميذ هذه المرحلة مطالب بحفظ القرآن الكريم كله .

ولا يخفى أن هناك غيبة أخرى للفكر الأدائي يمكن الوقوف عليها في طبيعة نسيجه التأليفي ، إذ إعتمدت مؤلفاته التراثية على الجانب الأكاديمي المفعم بالاختصار وتعدد المصطلحات . وتنوع الخلافات مما يفرض على المعنيين بهذا العلم صحوة في هذا الميدان مع الاستعانة بمعطيات التقنية الحديثة لتيسير سبل هذا العلم ، حتى يحقق الغاية من نشأته ، ويضاف إلى منظومة جند الله التي هيأها لحفظ كتابه في قوله - جلت قدرته - « إنَّا نحنُ نَزَّلنا الذِّكرَ وإنا لَهُ لحافظون »(١٠٧) .

وقبل أن يجف مداد القلم يطيب لي أن أسجل بعض النتائج التي تمخضت عنها تلك الدراسة ، كما أن لي بعض التوصيات .

أولا - النتائج :

١ - أهمية التطبيق لأحكام الأداء القرآني تضارع في قيمتها وجدواها الغاية المنشودة من تطبيق القواعد النحوية والصرفية ، إذ تضمن صيانة العناصر الصوتية للبنية القرآنية بما يحقق الغاية في دقة الأداء .

٢ الأداء السوي للنسق القرآني وسيلة رائدة لسلامة النطق ، واستواء الأداء للأنساق اللغوية نثرا ونظما .

٣ - مراعاة المعايير الأدائية للنسق القرآني تبرز وجوه إعجازه الصوتي والتركيبي من جانب ، ودقة العربية في تآلف نسيجه البنيوي من جانب آخر .

---

(١٠٧) سورة الحجر الآية ٩

٤ — علم الأداء القرآنى قديم جديد يحقق الربط بين الأصالة والمعاصرة ، ويقع موقع القمة فى ميدان الدراسات الصوتية بصفة عامة ، والفونولوجية بصفة خاصة .

ثانيا ـ التوصيات :

بدت على ساحة الدراسة أهمية علم الأداء القرآنى واضحة فى ميدانى العقيدة واللغة ، مما يجعلنى أهيب بالشباب المسلم فى شتى البقاع الإسلامية أن يقف على أصوله وأسسه ، وأن يتدرب على تطبيق معاييره لتحقيق الغاية المتوخاة منها ، كما يجدر بالمتخصصين الاهتمام بهذا الجانب الدراسى وتحليل قضاياه فى إطار الدراسات الصوتية الحديثة ، ولا سيما علم الأصوات الفونولوجى ، ويمكن إجمال التوصيات فيما يلى :

١ — تنمية الوعى الأدائى لدى الشباب المسلم ، وبيان أهمية الرقى بمستوى التلاوة القرآنية فى فهم أحكام النسق القرآنى ، وتدبر معانيه .

٢ — إفساح المجال لمعطيات علم الأداء فى حياتنا العصرية ، تعليما حيث قاعات الدرس ، وأجهزة الاعلام ، وساحات العبادة .

٣ — الإفادة من التقنية الحديثة فى ميدان علم الأصوات ومختبراته لتيسير فقه الأحكام الأدائية تنظيرا وتطبيقا .

٤ تيسير التناول لمعطيات علم الأداء القرآنى فى ضوء الاستعانة بمؤلفات تطبيقية بأسلوب ميسر ، ومدرسين أكفاء يجيدون حفظ القرآن الكريم وأحكام الأداء .

٥ — إنشاء مايسمى بالمكتبة الصوتية القرآنية ، واحتوائها على التسجيلات المتنوعة لتلاوة السوية للنسق القرآنى مع التعليقات الميسرة على أحكام الأداء ، وطرح مقتنياتها للشباب المسلم بأسعار رمزية .

٦ — عقد المسابقات ، وبذل المكافآت التشجيعية للفائزين فى هذا المضمار تحقيقا لتنمية الوعى الأدائى بأحكام التلاوة القرآنية ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور
عبد المنعم عبدالله محمد
أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية - بالقاهرة
قسم أصول اللغة - جامعة الأزهر

جريدة المراجع

١ ـ القرآن الكريم (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) (سورة هود آية ١)

٢ ـ الإبانة عن معانى القراءات : للقيسى ، تحقيق د/ محيي الدين رمضان ط ١ دار المأمون للتراث سنة ١٩٧٩م .

٣ ـ أبنية العربية فى ضوء علم التشكيل الصوتى : د/ عبد الغفار هلال ـ الطباعة المحمدية سنة ١٩٧٩ م .

٤ ـ الإتقان فى علوم القرآن : السيوطى ـ القاهرة سنة ١٩٣٥م .

٥ ـ أسباب حدوث الحروف : ابن سينا تحقيق : محمد حسن الطيان ، محيي مير علم ط ١ مطبوعات مجمع اللغة العربية سنة ١٩٨٣م بدمشق .

٦ ـ أسس علم اللغة / ماريو باى ، تحقيق د / أحمد مختار عمر ط ٢ عالم الكتب سنة ١٩٨٣ م .

٧ ـ أصوات العربية بين الوصف والتنظيم : د / محمد عبد الحفيظ العريان ، ط ١ سنة ١٩٩١ م مطبعة أبناء وهبة .

٨ ـ الأصوات العربية : د/ كمال بشر ، سنة ١٩٨٧ م .

٩ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية / الرافعى ، ط ٣ ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٩٢٨ م .

١٠ ـ إعراب القراءات السبع وعللها : ابن خالويه ، تحقيق د/ عبد الرحمن العثيمين ، مطبعة المدنى ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢ م .

١١ - الإعراب سمة العربية الفصحى : د/ محمد إبراهيم البنا ، دار الاصلاح سنة ١٩٨١م .

١٢ - البحث اللغوى عند العرب : د/ أحمد مختار عمر ط ٤ عالم الكتب سنة ١٩٨٢م .

١٣ - البرهان فى تجويد القرآن : محمد الصادق قمحاوى ، مطبعة حسان .

١٤ - تاريخ آداب العرب : الرافعى ، ط ٤ سنة ١٩٧٤م دار الكتاب العربى - بيروت .

١٥ - التجويد والأصوات : د/ إبراهيم نجا ، مطبعة السعادة سنة ١٩٧٢م

١٦ - تحبير التيسير فى قراءات الأئمة العشرة : ابن الجزرى ، تحقيق وتعليق / عبد الفتاح القاضى ، محمد الصادق قمحاوى ، مطبعة النهضة الحديثة، ط ١ سنة ١٩٧٢م .

١٧ - التعريفات : الجرجانى لبنان سنة ١٩٦٩ م .

١٨ - تفسير القرآن العظيم . ابن كثير ، البابى الحلبى (بدون تاريخ) .

١٩ - تقريب النشر : ابن الجزرى ، تصحيح الشيخ الضباع ، المطبعة التجارية بمصر .

٢٠ - الجامع الصحيح : مسلم ، استانبول سنة ١٣٢٩ هـ .

٢١ - الجامع لأحكام القرآن القرطبى ، دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٣م — ١٩٥٠م .

٢٢ - الجمع الصوتى الأول للقرآن : د/ لبيب السعيد ، دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٧٨م .

٢٣ - الحروف / الرازى (ضمن ثلاثة كتب فى الحروف) تحقيق د/ رمضان عبد التواب ط ١ سنة ١٩٨٢م .

٢٤ - حولية كلية اللغة العربية بالقاهرة ، العدد الثانى سنة ١٩٨٤م مع القراءات القرآنية : د/ عبد الحميد محمد أبو سكين ١٢٣ ، مطبعة حسان .

٢٥ - دراسة الصوت اللغوى : د/ أحمد مختار عمر ط ٢ سنة ١٩٨١ م عالم الكتب .

٢٦ - دفاع عن القراءات المتواترة فى مواجهة الطبرى المفسر : د/ لبيب السعيد ، دار المعارف سنة ١٩٧٨ م .

٢٧ - دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث : د/ عبد الفتاح البركاوى ، ط ١ سنة ١٩٩١م حمادة الجريسى .

٢٨ - سراج القارىء المبتدىء : القاصح العذرى ، البابى الحلبى ط ٣ سنة ١٩٥٤ م .

٢٩ - سر صناعة الإعراب : ابن جنى ، تحقيق محمد الزفزاف وآخرين ، البابى ط ١ سنة ١٩٥٤ م .

٣٠ - سير أعلام النبلاء : الذهبى ، القاهرة ، معهد المخطوطات العربية بالاشتراك مع دار المعارف سنة ١٩٥٥ .

٣١ - شذرات من علم اللغة : د/ شعبان عبد العظيم عبد الرحمن ط ١ سنة ١٩٨٤م مطبعة حسان .

٣٢ - شرح شافية ابن الحاجب : الاسترابادى ، تحقيق/ محمود نور الحسن وآخرين ط التضامن سنة ١٩٧٥ م .

٣٣ - شرح المفصل : ابن يعيش - المنيرية .

٣٤ - صحيح مسلم ، دار الطباعة العاشرة سنة ١٣٢٩ هـ .

٣٥ - الطبقات الكبرى : ابن سعد - بيروت - سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م .

٣٦ - علم الصوتيات : د/ عبدالله ربيع محمود ، د/ عبد العزيز علام ، التوفيقية سنة ١٩٧٩ م .

٣٧ - علم اللغة (مقدمة للقارىء العربى) د/ محمود السعران ، دار المعارف سنة ١٩٦٢م .

٣٨ ـ العين : الخليل بن أحمد ، تحقيق د/عبدالله درويش ، العانى ـ بغداد ـ سنة ١٩٦٧م .

٣٩ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى : ابن حجر ، القاهرة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٨ هـ .

٤٠ ـ فن التجويد : عزت عبيد دعاس ط ٧ سنة ١٩٧٧م .

٤١ ـ البحث الصوتى عند العرب : د/ خليل إبراهيم العطية (الموسوعة الصغيرة ١٢٤) بغداد .

٤٢ ـ فى الفكر اللغوى: د/محمد فتيح ، دار الفكر العربى سنة١٩٨٩م ط١

٤٣ ـ قبس من وحى اللغة : د/ شعبان عبد العظيم عبد الرحمن ، ط ١ مطبعة الأمانة سنة ١٩٨٢ م .

٤٤ ـ الكتاب : سيبويه ، تحقيق الأستاذ/ عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية ط ٢ سنة ١٩٧٧ م .

٤٥ ـ كشاف اصطلاحات الفنون (موسوعة العلوم الإسلامية)للتهانوى ، تحقيق لطفى عبد البديع القاهرة (بدون تاريخ) .

٤٦ ـ اللغة العربية أداء ونطقا : فخرى محمد صالح ، ط ١ سنة ١٩٨٧ م دار الوفاء ـ المنصورة .

٤٧ ـ اللغة العربية خصائصها وسماتها : د/ عبد الغفار هلال ، ط ١ سنة ١٩٧٦م مطبعة الحضارة العربية .

٤٨ ـ مباحث فى علوم القرآن : د. القطان ، ذار غريب للطباعة ط ٥ سنة ١٩٨١ م .

٤٩ ـ مجلة الأزهر (١٤٠٨هـ) الأعداد : جمادى الأولى ، رجب ، شوال « الذوق العربى وظاهرة الانسجام الصوتى فى ضوء معطيات علمى الصرف والأصوات » د/ عبد المنعم عبدالله محمد .

٥٠ - مدخل إلى علم اللغة : د/ عبد الفتاح البركاوى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م .

٥١ - المدخل إلى علم الأصوات : د/ صلاح الدين صالح حسنين ، ط ١ سنة ١٩٨١ م .

٥٢ - المستدرك على الصحيحين فى الحديث : النيسابورى ، حيدر أباد - الهند - دائرة المعارف النظامية سنة ١٣٣٤ هـ .

٥٣ - معالم الأصوات العربية : د. صلاح الدين محمد قناوى ، د. عبدالمنعم عبدالله محمد ط ١ سنة ١٩٨٦م الفيصلية .

٥٤ - المعجم الوسيط : مجمع اللغةالعربية ، شركة الإعلانات الشرقية ط ٣ .

٥٥ - المفردات فى غريب القرآن / الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، البابى الحلبى سنة ١٩٦١م .

٥٦ - مقدمة فى أصوات اللغة العربية : د. عبد الفتاح البركاوى ط ٣ سنة ١٩٨٤م (أوفست) مؤسسة الرسالة .

٥٧ - المقطع الصوتى فى ضوء تراثنا اللغوى ، د. عبد المنعم عبدالله محمد ط ١ سنة ١٩٨٨م الجبلاوى .

٥٨ - الملامح الأدائية عند الجاحظ : د. عبدالله ربيع محمود ط ١ سنة ١٩٨٤م .

٥٩ - ملامح من تاريخ اللغة العربية : د. أحمد الجنابى ، دار الرشيد سنة ١٩٨١ م .

٦٠ - الممتع فى التصريف : ابن عصفور ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ط ٤ بيروت ، دار الآفاق سنة ١٩٧٩م .

٦١ - من وظائف الصوت اللغوى : د. أحمد كشك ط ١ سنة ١٩٨١ م .

٦٢ ـ الموطأ : الإمام مالك بن أنس ، تعليق الأستاذ/ محمد فؤاد عبدالباقى ، القاهرة ، دار إحياء الكتب سنة ١٩٥١م .

٦٣ ـ نحو وعى لغوى : د. مازن المبارك ، دمشق سنة ١٩٧٠م .

٦٤ ـ النشر فى القراءات العشر : ابن الجزرى (أوفست) المثنى ـ بغداد ـ .

٦٥ ـ نهاية القول المفيد فى علم التجويد / الشيخ محمد مكى نصر ، البابى الحلبى سنة ١٣٤٩ هـ .

٦٦ ـ الهداية (مجلة إسلامية شهرية) تصدرها وزارة العدل والشئون الإسلامية / دولة البحرين العدد ١٤٠ شوال سنة ١٤٠٩ هـ مايو ١٩٨٩ م والعدد ١٦٢ شعبان سنة ١٤١١هـ مارس ١٩٩١م مقال للباحث تحت عنوان « فى رحاب علم التجويد » .

محتويات العـــدد

القسم الثالث

الصحـــافة

القسم الرابع

الأدب

القسم الخامس

اللغــويات

القسم السادس

أصول اللــغة

رقم الإيداع ١٩٩٤/٣٢٦٧
بتاريخ ١٩٩٤/١/٢

دار السعادة للطباعة
١٦ شارع الجداوى - باب الخلق
ت : ٥١٠٨٣٧٩

